١٩٢٨

مكتبة نوبل

سيغريد أوندست

كريستين لافرانسداتر

الصليب

علي مولا

ترجمة: توفيق الأسدي

١٥٢ ٧٤٠

الجزء الثالث

الصليب

مكتبة نوبل

Author : Sigrid Undset
Title : 3/The Cross
Kristin Lavransdatter
Translator: Tawfik Al-Assadi
Al- Mada : Publishing Company
First Edition 2000
Copyright © Al-Mada
This title was published in collaboration with Norla (Norwegian literature abroad)

اسم المؤلف : سيغريد أوندست
عنوان الكتاب : ٣/ الصليب
من ثلاثية كريستين لافرانسداتر
ترجمة : توفيق الأسدي
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : عام ٢٠٠٠
الحقوق محفوظة
صدر هذا الكتاب بالتعاون مع
مؤسسة نورلا النرويجية .

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٦٨٦٤ - ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada : Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means , electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

٢٨ ١٩٢٨
مكتبة نوبل

سيغريد أوندست

كريستين لافرانسداتر

الجزء الثالث

الصليب

ترجمة

توفيق الأسدي

المدى

القسم الأول

واجبات الملكية

-١-

في السنة الثانية التي أقام فيها إرلند نيكولاوسون وكريستين لافرانسداتر في يورونDغارد رغبت السيدة في أن تذهب وتقضي الصيف في السايتر .

كانت قد فكرت في هذا الأمر منذ الشتاء في "سكيين"فقد كان من الأعراف السائدة منذ القديم أن تقضّي الزوجة الصيف في المزرعة الخارجية إذا ما حدث ذات مرة أن ابنة ذلك المنزل قد تزوجت من أحد رجال الجبال . ولاحقاً سيكون على الأم أن تخرج إلى الجبل كل صيف. كان للناس في "سكيين" أمورهم الكثيرة الخاصة بهم ، وكان سكان الأبرشية معتادين على ذلك ويعتقدون أنه أمر بديهي .

ولكن في أماكن أخرى في "ديل" لم يكن من المتعارف عليه أن تقوم نساء السيد من الضياع الكبيرة بالسكن في السايترات . كانت كريستين على علم بأنها لو فعلت هذا فسيكون هناك كلام وتساؤل بين الناس .

باسم الرب إذن ، فإنهم سيتكلمون على أي حال . لا شك أنهم يتداولون الإشاعات من حولها سواء جرى ذلك أم لا ،

لم يكن أودون توربرغسون يمتلك أكثر من أسلحته وملابسه التي يرتديها

حين تزوج من انجبيورغ نيكولاوسداتر أوف لوبتسغارد . كان من أتباع أسقف هامار . وبينما كان الأسقف في الشمال هناك ذات مرة ليقدس الكنيسة الجديدة حدث أن تعرضت إنجيبورغ لمصيبة . في البداية غضب نيكولاوس سيغوردسون وأقسم اليمين أمام الرب والناس جميعاً أنه لن يزوج ابنته من فارس . ولكن انجيبورغ أنجبت توأمين . وقالت للناس ضاحكة إن نيكولاوس قد اعتبر أن القيام بتربيتهما أمر أصعب من أن يؤديه لوحده . وعلى أي حال فقد زوّج ابنته من أودون .

حدث هذا بعد عامين من زفاف كريستين . لم يكن الأمر قد نُسي ، فالناس لا زالت تتذكر أن أودون شخص غريب عن الأبرشية . . .فقد كان من هالاند ، ومن عائلة جيدة إلا أنها أضحت فقيرة جداً . ولم بكن الرجل نفسه محبوباً جداً في "سيل" ، فقد كان متغطرساً ولا ينسى بسهولة لا الصالح ولا الطالح . ومع ذلك فقد كان مزارعاً مرموقاً وله معرفة جيدة بالقوانين . . . لذلك كان أودون توربرغسون نوعاً ما رجلاً ذا مقام في الأبرشية الآن ، ورجلاً لا يرغب الناس في أن يكونوا على خصام معه .

فكرت كريستين في وجه المزارع أودون العريض الأسمر المحاط بلحيته وشعره الأحمرين ، وفي عينيه الزرقاوين الصغيرتين الحادتين . كان أشبه بالرجال الآخرين . . . فقد كانت قد رأت مثل هذه الوجوه بين خدم هوسابي . . . خدم إرلند في المنزل ورجال سفينته .

تنهدت السيدة . كان أسهل على مثل هذا الرجل أن يحتفظ بمركزه حتى لو كان يعيش على أراضي زوجته ، فهو لم يكن قد سبق له وكان سيداً على أي شيء من قبل . . .

•

خلال الشتاء والربيع كانت كريستين تحادث فريدا ستيركارسداتر التي صحبتهم من تروندهايم وكانت رئيسة خادماتها . كانت تقول المرة إثر المرة للفتاة إن الأمور ستكون على هذه الحال أو تلك في "ديل" هنا في الصيف ، وإن جماعة الحصاد قد اعتادوا على فعل هذا أو ذاك وما الذي سيفعلونه في الحقول في الخريف . . .على فريدا أن تتذكر ما فعلته كريستين في العام الماضي ، فقد كانت إرادتها أن تجري كل الأمور في المزرعة هنا كما كانت تجري أيام راغنفريد إيفارسداتر . . .

ولكن أن نقول مباشرة إنها لن تكون هناك بنفسها في المزرعة ذلك الصيف . . . فهذا أمر تجده هي صعباً ، فقد عاشت في يورروندغارد شتاءين وصيفاً واحداً كسيدة لها ، وكانت تعرف جيداً أنها لو ذهبت إلى السايتر وسكنت هناك في هذا العام ، لبدا الأمر إلى حد كبير وكأنها قد هربت .

لقد رأت جيداً أن مصير إرلند لم يكن سهلاً ، فمنذ أن كان يجلس على ركبة أمه بالتربية لم يكن يعرف شيئاً سوى أنه وُلد ليأمر ويسود على كل شيء وأي شيء من حوله . ولو أنه كان قد سمح بأن يسوده الآخرون ويأمرونه ، فإنه لم يكن هو نفسه يعرف ذلك .

من المستحيل أن يكون من الداخل كما يبدو عليه من الخارج . لا شك أنه غير سعيد هنا . كانت هي نفسها . . . كانت ضيعة أبيها على أرض الوادي الهادئ المغلق وكانت الحقول المسطحة المحاطة بمنحنيات النهر تلتمع عبر غابات جار الماء والمزارع القابعة على الأراضي الواطئة المحروسة عند سطح الهضاب ، وفوقها الجبال شديدة الانحدار ذات القمم الرمادية التي تصعد أمام السماء ، وتحتها الجروف ذات الألوان الفاتحة وغابات الصنوبر وغابات الأشجار الورقية التي تزحف صاعدة المنحدرات من قعر الوادي . . . لا ، لم يعد هذا يبدو لها على أنه أجمل البيوت وأكثرها أماناً في العالم . كان مطوقاً إلى حد كبير . لا بد أنه يبدو

في عيني إرلند قبيحاً وضيقاً وغير مضياف .

ولكن لم يلاحظ عليه أحد أي أمارة عدا أنه كان سعيداً جداً . . .

●

أخيراً في يوم إطلاقهم للقطعان في يورونداغارد ، قالت ما تريد قوله . . . في المساء وهم جالسون لتناول العشاء . وبينما كانت تتكلم كان إرلند يعبث في طبق السمك بحثاً عن لقمة شهية ، كان يجلس هادئاً في حال من التعجب ، وأصابعه لا تزال في الطبق محدقاً إلى زوجته . ثم قالت كريستين بسرعة إن الأمر يعود في معظمه إلى مرض الحلق الذي كان يصيب الأطفال على الدوام في "ديل" ، كان مونان شديد الضعف . ستصطحبه ولافرانس إلى الجبال .

قال إرلند أجل . ثم سيكون من الأفضل على الأرجح أن يصطحبها إيفار وسكوله أيضاً .

قفز التوأمان من الفرح على مقعدهما . خلال بقية الوجبة حاول كل منهما أن يبزّ الآخر بالثرثرة . سيذهبان مع إرلينغ ، كما قالا ، الذي كان سيمكث بعيداً في الشمال بين جبال "غراهو" مع الغنم . قبل ثلاث سنوات كان بعض الرعاة من "سيل" قد طاردوا لص أغنام وقتلوه قرب كوخه بين جبال "الخنزير البري" . . . كان خارجاً عن القانون من "أوستردال" . وما أن نهض أهل البيت عن المائدة حتى حمل إيفار وسكوله إلى القاعة كل الأسلحة التي كانا يمتلكانها وبدءا يعملان عليها .

في وقت لاحق من المساء مضت كريستين جنوباً مع ابنتي سايمون أندرسون وابنه كذلك مع ابنيها غاوته ولافرانس . كانت أرنغييرد سايمونسداتر في يورونداغارد معظم هذا الشتاء ، وكانت قد بلغت الخامسة عشرة من عمرها الآن . وفي أحدا لأيام خلال موسم عيد الميلاد ، في فورمو ، كان سايمون قد قال إن الوقت قد حان لتتعلم آرنغييرد شيئاً آخر غير ما تستطيع تعلمه في بيتها . كان قد

سبق لها وأضحت تعرف ما تعرفه الخادمات . وعند ذاك عرضت كريستين أن تصطحب الفتاة معها إلى بيتها لتعلمها بقدر ما تستطيع ، فقد كانت تعلم أن سايمون يحب ابنته كثيراً ويفكر كثيراً في مستقبلها . وكانت الطفلة في حاجة إلى أن تتعلم أساليب أخرى غير تلك التي كانت تراها في فورمو . وبما أن حماه وحماته قد أصبحا في عداد الأموات الآن ، فقد أضحى سايمون أندرسون واحداً من أغنى الرجال في الريف . كان يدير أملاكه جيداً وباحتراس إذ كان مزارعاً نشيطاً وماهراً في زراعة أراضيه في فورمو ولكن داخل المنزل ما كانت الأمور تجري على أفضل نحو ممكن . . . فقد كانت الخادمات هن من يحكمن ويدرن كل الأمور ، وحين يلاحظ سايمون أن الفوضى والخراب قد تجاوزا كل الحدود ، كان يجلب خادمة أو خادمتين جديدتين ، ولكنه لم يكن يذكر هذه الأمور أمام زوجته ، وبدا عليه أنه لا يرى ولا يرغب في أن تقوم هي بالاهتمام على نحو أكثر بعملها كربة للمنزل . كأنما لم يكن هو ليعتبرها كاملة النضوج – تقريباً – بل كان شديد اللطف والتساهل مع رامبورغ ، وكان يغمرها مع الأطفال بالهدايا سواء في المناسبات أو خارجها .

أصبحت كريستين مولعة بآرنغييرد بعد أن عرفتها عن كثب ، لم تكن فتاة جميلة ، ولكنها كانت فتاة ذكية ولطيفة وطيبة القلب ، سريعة في استخدام يديها وماهرة . وبينما راحت الفتاة الشابة ترافقها في المنزل ، أو تجلس إلى القرب منها في مبنى الحياكة في المساء ، غالباً ما كانت كريستين تفكر في أنها تستطيع أن تتمنى لو كان أحد أبنائها بنتاً . لابد أن البنت تكون مع أمها أكثر . . .

كانت تفكر على هذا النحو في إحدى الأمسيات هي تتمشى ، وقد أمسكت بلافرنس من يده وراحت تنظر إلى غاوته وآرنغييرد اللذين كانا قد سبقاها على الممر أمامها . كانت أولفهيلد سايمونسداتر تتراكض في المكان وتدوس مهشمة جليد المساء الهش فوق البرك . . . متظاهرة بأنها وحش ما ، وقد ارتدت عباءتها بالمقلوب حتى أن جلد الأرنب البري الأبيض كان إلى الخارج .

في الوادي إلى الأسفل كانت الظلال تتكثف متحولة إلى غسق فوق الحقول الجرداء بنية اللون . ولكن هواء مساء الربيع بدا وكأنه مشبع بالنور . التمعت أولى النجوم رطبة وبيضاء في السماء ، عالية حيث كان اللون الأخضر المائي الصافي يتحول إلى ليل أسود داكن . ولكن فوق الحافة السوداء للجبال على الجانب البعيد من الوادي كانت تتلبث ما تزال حزمة من النور الأصفر وكان بريقها يضيء الجبل الذي كان يقبع فوق الحافة المتحدرة من فوقها . أما أعلى الجميع ، حيث كانت أكوام الجليد تبرز فوق قمم الجبال فقد كان هناك شعاع الثلج والجليد المعلقين تحتها وهما اللذان يغذيان الجداول المزبدة التي تندفع نحو الأسفل في كل مكان بين الصخور الكبيرة . فوق الوادي كان الجو مليئاً بصخب المياه ومن الأسفل كانت تصعد زمجرة النهر المبحوحة . وكان هناك غناء الطيور من كل البساتين والأدغال ، ومن الغابة التي كانت تحيط بكل شيء .

توقفت أولفهيلد في إحدى المرات والتقطت حجراً ورمته حيث كانت الطيور تشدو . ولكن أختها الكبيرة أمسكت بها من ذراعها . ثم مضت هادئة فترة من الوقت إلاّ أنها سرعان ما أفلتت منها وعدت هابطة المنحدر . . .حتى ناداها غاوته طالباً منها العودة .

كانوا قد اقتربوا من حيث يؤدي الدرب إلى غابات التنوب ؛ من بين الأشجار التي كانت أمامهم وصل رنين قوس . كان الثلج لا يزال في الغابات ، وكانت رائحة الجو تعبق بالبرد والنضارة . على مسافة قصيرة إلى الأمام ، وفي فرجة صغيرة ، كان إرلند واقفاً مع إيفار وسكوله .

كان إيفار قد أطلق سهماً على سنجاب ، وكان السهم قد علق في فرع عال من شجرة الصنوبر وكان يريد الآن أن ينزله . راح يرمي الحجر في إثر الحجر . وكانت الشجرة الثخينة المستقيمة ترنّ مجدداً حين يصبب ساقها .

قال أبوه : "اهدأ قليلاً ، دعني أجرب أن أنزله بسهم لأجلك " . هزّ عباءته

نحو الخلف فوق كتفيه ووضع سهماً في قوسه ثم سدد دون اهتمام في النور الخادع بين الأشجار . رنّ القوس وغنى السهم عبر الهواء ودفن نفسه في فرع الصنوبر إلى جوار سهم الصبي . أخذ إرلند سهماً آخر ورمى مجدداً . . . انزلق أحد السهمين اللذين كانا قد انغرسا في الشجرة وراح يصلصل من فرع إلى آخر . أما السهم الآخر فقد تشظت قصبته أما رأسه فبقي منغرساً بشدة في الشجرة .

ركض سكوله في الثلج ليلتقط السهمين وقف إيفار محدقاً إلى أعلى الشجرة ."إنه لي يا أبي ذاك الذي بقي منغرساً بقوة ! إنه هناك منغرس حتى المَغْرز . . .لقد رميته بقوة يا أبي!" . . .ثم راح يحكي لغاوته عن السبب في أنه لم يصب السنجاب . . ضحك إرلند بصوت منخفض ورمى بعباءته من حوله مجدداً ."هل ستعودين الآن يا كريستين ؟ عليّ أن أعود إلى البيت . . . سننطلق لصيد الطيهوج عند الفجر ناكفه وأنا . . ."أجابت كريستين بالنفي بسرعة فهي ستتابع السير مع الخادمات إلى الضيعة . . .كان عليها أن تتحادث مع أختها عن موضوع ما في هذا المساء . . .قال غاوته : "ثم يستطيع إيفار وسكوله الذهاب مع أمهما ويبقيان معها في البيت . . .لو كنت سأذهب معك يا أبي أليس كذلك ؟" رفع إرلند أولفهيلد سايمونسداتر بين ذراعيه ليودعها ، كانت ممتلئة صحة ونضارة وذات لون وردي بينما كانت خصل شعرها المجعدة بنية اللون مخبأة في قبعتها البيضاء الفرو . قبّلها ثم أنزلها أرضاً والتفت ومضى نحو البيت مع غاوته .

بما أن إرلند كان دون عمل يشغله الآن فقد كان دائماً مع بعض أبنائه . أخذت أولفهيلد يد خالتها ومشت قليلاً . . .ثم ركضت مجدداً وهي تلعب بين إيفار وسكوله . أجل كانت طفلة جميلة . . .ولكنها كانت طائشة وجامحة . لو كانت لديهما ابنة فلا شك أن إرلند كان سيبقيها معه دائماً كدمية .

•

في فورمو كان سايمون في القاعة وحيداً مع أبنه الصغير حين دخلوا عليه . كان يجلس في الكرسي العالي في وسط المائدة الطويلة ويراقب "أندرس" الذي كان يركع على المقعد الخارجي ويلعب بأوتاد قديمة محاولاً جعلها تقف على رؤوسها فوق المائدة المسطحة . ما أن رأت أولفهيلد هذا ، حتى اندفعت وقد نسيت أن تحيي أباها ، نحو المقعد إلى جوار أخيها وأمسكت به من مؤخر عنقه وراح تضرب له وجهه فوق سطح المائدة ، وهي تصرخ بأن هذه كانت أوتادها هي فقد أعطاها إياها أبوها بنفسه .

نهض سايمون ليفرق بين الطفلين ، وخلال نهوضه حدث أن أسقط طبقاً صغيراً من الخزف إلى القرب من مرفقه فسقط أرضاً وتحطم إلى قطع صغيرة .

زحفت آرنغييرد تحت المائدة ولمّت القطع . أخذها سايمون منها ونظر إليهم بتعاسة : "أخشى أن أمكم ستغضب من هذا !" كان ذاك طبقاً صغيراً من الخزف الأبيض وقد رسمت عليه نقوش جميلة مّما كان السير أندرس دار قد جلبه معه من فرنسا ومنحه لهلغا ، ولكنها قدمته إلى رامبورغ كما قال سايمون ، وكانت النساء تعتبره غالي الثمن . في تلك اللحظة سمع صوت زوجته في الغرفة الخارجية ، فأخفى يديه وفيها الشظايا خلف ظهره .

دخلت رامبورغ وحيّت أختها وأبناء أختها . أمسكت بعباءة أولفهيلد فركضت الفتاة الصغيرة إلى أبيها وتشبثت به .

"هل نحن في وضع جيد اليوم يا أولفهيلد؟ . . .أنت تلبسين حزامك الفضي في يوم عمل كما أرى حقاً . . ."ولكنه لم يستطع أن يمسك بالطفلة ويداه مليئتان كما كانتا .

صرخت أولفهيلد أنها كانت عند الخالة كريستين في يوروندغارد اليوم ، ولهذا ألبستها أمها أفضل الملابس في هذا الصباح . . .

" :أجل ، أمك ترعى أمورك لتكوني جميلة ومرحة . . . فقد يضعونك في المذبح شمالاً في الكنيسة ، كما أنت الآن" ، قال سايمون مبتسماً . كان العمل الوحيد الذي تشغل رامبورغ نفسها به هو خياطة الملابس لابنتها حتى كانت أولفهيلد في أجمل مظهر .

"لم تقف هكذا؟" سألت رامبورغ زوجها .

أراها سايمون الشظايا . "لا أعرف ما ستقولين عن هذا . . ." تناولتها رامبورغ منه :

"لا حاجة للوقوف هناك والظهور بمظهر الحمقى ."

انزعجت كريستين وهي جالسة هناك . كان أمراً صحيحاً أن سايمون بدا كالأحمق وهو واقف وقد أخفى الشظايا خلفه ، ومداعباً الطفلة في آن معاً ولكن لم تكن هناك حاجة إلى رامبورغ لتقول ذلك .قال الرجل : " ظننت أنه سيغضبك أن تجدي طبقك وقد انكسر ."

"أجل تبدو طوال الوقت وأنت تخشى أن تغضبني . . . في أمور صغيرة كهذه" ، أجابت رامبورغ . . . والآن لاحظ الآخران أنها كانت على وشك البكاء .

قال سايمون : "تعرفين جيداً يا رامبورغ أنها ليست مسألة أني أبدو ، وأعتقد أن الأمر لا يتعلق فقط بأمور صغيرة كهذه . . ."

أجابت رامبورغ كما من قبل : " لا أعرف . ليست هذه عادتك يا سايمون أن تكلمني في الأمور الكبيرة . . ."

التفتت بحدة وعادت إلى الغرفة الخارجية . وقف سايمون قليلاً وهو يتابعها بنظره . وحين جلس فإن الصبي أندرس اقترب وحاول أن يصعد إلى ركبة أبيه . رفعه سايمون وجلس وهو يدير ذقنه أعلى رأس الطفل ، ولكن لم يبد عليه أنه سمع ما هذر به الطفل .

بعد قليل قالت كريستين بلهجة متعثرة :

"لم تعد رامبورغ صغيرة يا سايمون . . . فابنتها في السابعة الآن . . ."

سألها سايمون على نحو أكثر حدة من اللازم كما فكرت : "ما الذي تعنينه؟"

"أعني أن أختي قد تظن إلى الأرجح أنك لا تعتمد عليها إلا قليلاً . . . ألا تستطيع أن تحاول فتضع بين يديها المزيد من المسؤولية في المزرعة هنا . . .معك؟"

أجاب سايمون بانفعال : " تضع زوجتي يديها على كل ما تريد ولا أطلب منها أن تفعل ما يزيد عما تريده ولكني لم أنكر على رامبورغ قط أن تتحكم في أي شيء هنا في فورمو . إن كنت تعتقدين أن الأمر خلاف ذلك فالسبب هو أنك لا تعرفين . . ."

قالت كريستين :"كلا ، كلا !ولكن في المرة إثر الأخرى يا زوج أختي ، كان يبدو لنا أنك لا تتذكر أن رامبورغ أضحت أكثر نضجاً الآن عما كانت عليه حين تزوجتما . عليك أن تتذكر يا سايمون . . ."

"تذكري أنت" . . .وضع الطفل أرضاً وقفز في مكانه . . ."أن رامبورغ وأنا قد اتفقنا معاً . . .بينما لم نتفق أنت وأنا . . ."

في هذه اللحظة بالذات دخلت سيدة المنزل ، وهي تحمل كأس الجعة للضيوف . مضى سايمون بسرعة نحو زوجته ووضع يده فوق كتفها :"هل سبق لك وسمعت يا رامبورغ كلاماً مشابهاً . . . تعتقد أختك أنك لست راضية عن أوضاعك هنا . . ."ثم ضحك .

رفعت رامبورغ نظرها . كانت هناك التماعة غريبة في عينيها الواسعتين الداكنتين :

"وكيف ذلك؟لقد حصلت على ما أردت ، وأنت كذلك يا كريستين . . .ولا أعرف إن لم نكن نحن الأختين سعيدتين جداً . . ." ثم ضحكت هي أيضاً .

وقفت كريستين هناك بوجه متضرج غاضب . لم تمسك كأس الجعة بين يديها .

"كلا ، لقد سبق للوقت وأصبح متأخراً . . .حان وقت العودة إلى البيت . . . " ونظرت إلى أبنائها .

"لا ، لا يا كريستين ." أخذ سايمون الكأس من يدي زوجته وشرب نخب الأخت الأخرى ." لا تغضبي الآن . ليس أمراً جيداً أن تأخذا على هذا النحو اللطيف كل كلمة يتبادلها الأقرباء المقربون . . .اجلسي قليلاً وأريحي قدميك . كوني سعيدة من جديد وانسي الأمر لو كنت أجبتك على نحو مختلف عما كان يجب عليّ . . ."

ثم استأنف قائلاً وهو يتثاءب قليلاً :"أنا منهك" . ثم سأل عن مدى تقدم العمل الربيعي في يوروندغارد . . .فهنـــا أنجـــزوا حرث كل الحقـــول شمال طريق الضيعة .

في الخارج كان الليل قد ادلهم مع نجوم لامعة صافية . راح نسيم دافئ ربيعي حاملاً رائحة الحقول المحروثة حديثاً يهب عبر الهواء الليلي القارس . كان خرير الماء يسمع من كل مكان من حولهم .

اتجه سايمون وكريستين شمالاً والأولاد الثلاثة يركضون أمامهم . أحست أن الرجل الذي يمشي إلى القرب منها كان يود أن يقول شيئاً ، ولكنها لم تكن راغبة في مساعدته على الكلام فقد كانت لا تزال غاضبة منه إلى حد كبير . صحيح أنها كانت تودّ زوج أختها . . .ولكن يجب أن تكون هناك حدود لما يعتبره هو ممكناً القول ثم الانسحاب منه . . .مع عبارة "ولكن هذا أمر بين الأقرباء " . عليه بكل تأكيد أن يفهم . . .أنه قد وقف معهم وقفة شديدة الإخلاص خلال محنتهم ممّا سهل عليها تحمل الأمور . فكرت في فصل الشتاء الأول ، حين كانوا قد وصلوا إلى الأبرشية منذ زمن قصير : كانت رامبورغ قد أرسلت في طلبها ، فقد كان

سايمون طريح الفراش من بثور في الرقبة ومريضاً إلى حد كبير . كان شديد المعاناة من هذا المرض . ولكن حين وصلت إلى فورمو وذهبت لتعود هذا الرجل ، فإنه رفض أن تلمسه أو حتى أن تنظر إليه . كان شديد العناد إلى حد أن رامبورغ توسلت لأختها بشدة أن تغفر لها لأنها جلبتها إلى ذلك المكان . لم يكن سايمون أفضل في معاملته لها ، كما قالت ، حين أرادت أن ترعاه لأول مرة مرض فيها بعد زواجهما . حين أصابته بثور الحنجرة تلك . خبأ نفسه في المبنى القديم الذي يسمونه "قاعة سايموندز" ورفض أن يقترب منه أي شخص عدا خادم عجوز قبيح قذر مقمّل اسمه غونستاين كان يعمل في خدمتهم في دايفرين من قبل أن يولد سايمون . . .صحيح أن سايمون زار أخت زوجته لاحقاً وصالحها . قال إنه لا يحب أن يراه أحد مصاباً بمثل هذا المرض . كان هذا المرض يبدو له مثيراً للشفقة حين يصيب رجلاً ناضجاً . وكانت كريستين قد أجابته بإيجاز أنها لا تفهمه . فلم يكن في مسألة أن يصاب المرء بحنجرة متورمة ما هو خطيئة أو عار .

وصل معها الآن حتى الجسر ، وكانا طوال الوقت يتكلمان عن الطقس والعمل في المزرعة ويكرران مجدداً كل الأشياء التي قالاها من قبل في القاعة . تمنى لها سايمون ليلة طيبة ، ثم سألها فجأة :

"أتعرفين يا كريستين ما الذي فعلته لغاوته حتى أصبح الصبي غاضبا إلى هذا الحد مني؟"

"غاوته؟" سألته باستغراب .

"أجل ألم تلاحظي ذلك ؟ إنه يتجنبني . . .ولو استطاع حين يقابلني فهو لا يفتح فمه إلا بالكاد حين أخاطبه . . ."

هزت كريستين رأسها ، لم تلاحظ شيئاً من ذلك . . ."ولكن ربما قلت له كلاماً وأنت تمازحه فأغضبه ذلك كونه لا يزال طفلاً . . ."

عرف من صوتها أنها كانت تبتسم . ضحك قليلاً :" ولكني لا أستطيع أن أتذكر شيئاً من هذا الأمر . . ."

وبهذا تمنى لها ليلة طيبة مجدداً وغادرها .

في يورونغارد كانت الأمور هادئة كلها . كان الظلام مخيماً على القاعة والرماد مسعَراً في الموقد . كان بيورغولف قد استلقى مستيقظاً . قال إن أباه وأخوته قد خرجوا منذ بعض الوقت .

في السرير الكبير كان مونان نائماً لوحده . . .ضمته أمه بين ذراعيها حين استلقت في السرير .

كان من الصعب أن تفتح الموضوع مع إرلند إن لم يكن قد فهم الأمر بنفسه . . .أن عليه ألا يأخذ أولاده الكبار ويذهب للتجول في الغابات معهم حين يكون هناك الكثير من العمل يتوجب إنجازه في المزرعة . . .

لا شك أنها لم تتطلع قط إلى أن إرلند سيقف يوماً وراء المحراث . فيما يخص تلك المسألة ، لم يكن هو من ذلك النوع من الرجال الذي يحب الانغماس في العمل . كما كان أولف ينزعج لو تدخل إرلند في مسائل الزراعة . ولكنها لم تكن تريد لأبنائها ان يصلوا إلى سن الرجولة كما فعل أبوهم . . .دون ان يتعلموا سوى حمل السلاح وصيد الحيوانات المتوحشة واللهو مع الجياد أو الجلوس أمام لوح الدامة مع كاهن مهمته إدخال بعض المعرفة باللغة اللاتينية في رأس ابن الفارس ، وكذلك الكتابة والغناء والعزف على الأوتار . لذلك كانت لا تحتفظ بالكثير من العمال في الضيعة حتى لايكون هناك نقص في اليد العاملة . . . فعلى أبنائها أن يتعلموا منذ الطفولة أن عليهم أن يعتادوا على أعمال المزرعة . كان هناك الآن أمل صغير الآن في أن يكون لأبناء إرلند مستقبل في سلك الفروسية .

ولكن غاوته كان بين الشبان كلهم الوحيد الذي لديه ميل للزراعة . كان غاوته محباً للعمل . . . . وهو لم يتجاوز سن الثالثة عشرة . لم يكن هناك ما

يتطلع إليه حتى يكون راغباً في الذهاب مع إرلند حين يطلب منه أبوه مرافقته . . .

ولكن كان من الصعب مفاتحة إرلند في هذا الخصوص . فقد كانت ملتزمة بهذا المبدأ . . . لن يسمع زوجها منها أبداً كلمة واحدة قد يفهمها على أنها لوم له على أفعاله أو تفجّع على المصير الذي أوصل نفسه وأبناءه إليه . وكان أمراً أصعب عليها أن تقول للأب إن أبناءه يجب أن يتعودوا على العمل بأيديهم في مزرعتهم . لو كان لأولف أن يطرح هذا الموضوع ، كما فكرت . . .

●

حين انتقل الخدم مع القطعان من السايترات الأدنى صعوداً إلى هوفرينغن ، مضت كريستين معهم إلى الجبال . لم تصطحب التوأمين معها . كانا في سن الحادية عشرة الآن والأكثر رعونة وعناداً بين كل أولادها . وكان أمراً صعباً عليها توجيههما لأنهما اثنان معاً . ولو حدث أن كان إيفار وحيداً فإنه يكون طيباً وطيعاً إلى حد كاف ، ولكن سكوله كان ناريّ المزاج وعنيداً . . . حين يكون الأخوان معاً ، كان إيفار يقول ويفعل ما يقوله ويفعله الآخر .

-٢-

في أحد أيام مطلع الخريف خرجت كريستين حوالي وقت صلاة العصر . كان الراعي قد قال إنها إن اتبعت مجرى النهر ، فستجد في أسفل الجبل فسحة بين الغابات حيث ينمو الكثير من "هراوات هارون" .

وجدت كريستين البقعة : منحدر جبلي حاد تضربه الشمس على نحو مباشر . . . وكان الآن أفضل وقت ملائم لقطف الأزهار التي كانت تنمو بكميات كبيرة فوق كل أكوام الحجارة وحول جذول الأشجار الرمادية : سيقان طويلة صفراء لامعة تتكدس فوقها نجيمات صغيرة متفتحة . طلبت كريستين من مونان أن يقطف ثمار التوت بين هذه الشجيرات التي لم يكن يستطيع تجاوزها دون مساعدتها ثم أمرت الكلب أن يبقى ليحرسه . ثم أخرجت سكيناً وراحت تقطع بها الأزهار ، بينما أبقت عينيها باستمرار على الطفل الصغير . . . وبقي لافرانس إلى جوارها وراح يساعدها بانهماك .

كانت دائمة الخوف على ابنيها الصغيرين هنا . وخلاف ذلك لم تكن تحمل خوفاً كبيراً من الأشخاص الذين كانوا هناك . فقد سبق أن راح اللبّانون ينزلون من السايترات إلى بيوتهم ولكنها كانت مصممة على البقاء خلال قداس ماريا الثاني (الثامن من أيلول/ سبتمبر) . صحيح أن الليالي أضحت شديدة العتمة الآن

وموحشة حين تهب الريح بقوة . . . موحشة حين يكون عليهم الخروج في وقت متأخر . ولكن في معظم الوقت كان الطقس جميلاً جداً هناك في الأعلى . . . وفي الأسفل في الوادي كان العام عام قحط والطعام نادراً . كان على الرجال البقاء هنا في أوائل الخريف - وكان أبوها قد قال إنه لم يلاحظ قط وجود أي من السكان في سايترهم الخاص بالشتاء .

وقفت كريستين تحت شجرة صنوبر منعزلة في منتصف منحدر الجبل ، ويداها متشبثتان بباقة ثقيلة من سيقان الزهور الموضوعة على كتفها . من هنا كان المرء قادراً على أن يرى الطريق حتى دوفر شمالاً . كان القمح مكدساً في كثير من الأماكن على أراضي المزارع . . . .

كان المرج أصفر ومسفوعاً هنا أيضاً . ولكنه لا يكون أخضر حقيقياً في "ديل" هنا كما بدا لها الآن . . . ليس أخضر كما هو في تروندهايم .

أجل . . . عاد ذهنها توقاً إلى البيت الذي كان لهما هناك . . . الضيعة التي كانت تقع في مكان مرتفع جداً وبارز على منحدر الجبل واسع الصدر ، والحقول والمروج الرحبة نزولاً إلى غابات الأشجار المورقة في الوادي الصغير المنعزل الذي كان يهبط إلى البحيرة في قعر الوادي الكبير . كان المطل البعيد فوق منحدرات حراجية منخفضة تلتف موجة إثر أخرى ، جنوباً نحو دوفرفييلد . أما الأراضي المعشوشبة فشديدة الوفرة والعمق في الصيف ، حمراء من الزهور الوردية تحت احمرار سماء المساء . . . والنتيجة مروج خضراء ريانة في الخريف . . .

أجل ، مرت أوقات طغى عليها فيها الحنين حتى إلى الزقاق البحري . . . الأنهر في بيرغسي ، أرصفة التحميل مع الزوارق والقوارب والسفن ، حظائر السفن ، رائحة القطران وعدة صيد السمك ، والبحر . . . كل تلك الأمور ما كانت تحبها إلا قليلاً حين وصلت لأول مرة إلى الشمال . . .

إرلند . . . لابدّ أنه يتوق حقاً إلى تلك الرائحة وإلى البحر والرياح البحرية . . .

كانت تفتقد الآن كل ما كانت تعتبره منهكاً لها . . . البيت الكبير ، أفواج الخدم ، والجلبة حين يدخل رجال إرلند الساحة على خيولهم بأسلحة مقعقعة وعدد مجلجلة . . . غرباء قادمون وذاهبون ، يحملون أنباء هامة من البعيد وكذلك إشاعات الناس في الريف والمدينة . . . أحست الآن كم أصبحت حياتها هادئة حين خرس هذا كله . . .

بلدة السوق بكنائسها وأديرتها وأعيادها في منازل كبار القوم . . .كانت تتوق إلى السير عبر الشوارع وخلفها وصيفها وخادمتها وأن تصعد الدرج إلى مخازن التجار وتختار غرضاً ما أو ترميه جانباً ، أن تكون على متن قوارب التجارة على النهر وأن تساوم على الأسعار: غطاء رأس من الكتان الإنكليزي ، أوشحة مرهفة ، أحصنة خشبية فوقها فرسان يستطيعون أن يطعنوا برماحهم حين تشدّ خيطاً . فكرت في المروج خارج البلدة قرب نيدارايد حيث كانت تذهب مع أطفالها لمشاهدة كلاب ودببة رجال الاستعراض وشراء خبز العسل والجوز . . . وفي بعض الأحيان كانت تتمنى كثيراً لو تزين نفسها مرة أخرى . . . شلحات حريرية وغطاء رأس كتاني رقيق ناعم . والمعطف دون أكمام المصنوع من المخمل الأزرق الفاتح الذي اشتراه لها إرلند في الشتاء الذي سبق المصيبة التي حلت بهم . كانت له حواف من جلد القاقوم من حول الصدر ذي الفتحة العميقة وحول شقي الذراعين الطويلين ، وكان يصل إلى الوركين ويكشف عن الحزام الذي تحته .

بين الحين والآخر كانت تتوق . . .أوه كلا . . .كان أمراً لا يدل على الذكاء ألاّ تشعر بالسعادة لأجل ذلك ، سعيدة طالما كانت قد تخلصت من حمل المزيد من الأطفال . حين مرضت في الخريف ، بعد عملية النحر الكبير . . .كانت أفضل

الأمور قد حصلت . ولكنها بكت قليلاً بسبب ذلك ، في الليالي الأولى التي تلت . . .فقد بدا لها أن زمناً طويلاً طويلاً قد مضى منذ أن حملت طفلاً صغيراً . كان مونان الآن في شتائه الرابع فحسب . . .ولكنها كانت قد وضعته في أيدي الغرباء قبل أن يبلغ سنة واحدة من عمره . وحين استعادته كان قادراً على المشي والكلام ولم يميزها . . .

إرلند! أوه إرلند! كانت تعرف جيداً من أعمق أعماق قلبها أنه ليس لا مبالياً إلى ذلك الحد الذي يبدو عليه . كان دائم القلق . . .كأنما كان الآن هادئاً على الدوام : كجدول ماء يضرب في النهاية جداراً من الصخر ، ويترك نفسه يُحوَل جانباً وينزّ عبر الخثّ ليصنع بركة هادئة يحيط بها مستنقع من كل جانب . كان يقضي وقته في يورونداغارد لا يفعل شيئاً ، ويصطحب بين الحين والآخر أحد أبنائه ليرافقه في التسكع . أو كان يذهب للصيد معهم . كان من شأن مزاجه أن يجعله يعمل ، فيطلي بالقار ويرقع أحد الزوارق التي كانت تحفظ في البرك لأجل صيد السمك أو كان يبدأ بترويض أحد المهور . ولكنه لم ينجح في هذا العمل ، فقد كان شديد الاستعجال .

كان يبقى منفرداً ويتظاهر بأنه لا يوجد من يحب صحبته . كان الأبناء يفعلون ما يفعله أبوهم . لم يكن هؤلاء الأغراب الذين دفعهم سوء الحظ إلى "ديل" محبوبين ، فقد كانوا يتصرفون بأسلوبهم الخاص ، وكانوا فخورين بأنفسهم وغريبين جداً ، لا يحاولون تعلم شيء من الأمور الخاصة بالأبرشية وسكانها . أما بالنسبة إلى أولف هالدورسون فقد كان الأمر حقداً محضاً . . .كان يحتقر أهل "الديل" على المكشوف ، ويسميهم بالأغبياء عتيقي الطراز . إن من لم يترعرع قريباً من شاطئ البحر ليس بشراً . . .

أما هي فقد عرفت أنه لم يكن لديها الكثير من الأصدقاء أيضاً هنا في موطنها . ليس بعد الآن . . .

سوت كريستين قامتها في ثوبها الصوفي ذي اللون البني الطحلبي ، وظللت عينيها بيديها من الدفق الذهبي لشمس العصر . . .

في جهة الشمال لحت "الديل" على امتداد شريط النهر الأبيض الأخضر ، ثم حشداً من هياكل الجبال ، الواحد خلف الآخر ، ذات اللون الأصفر الرمادي مع المنحدرات والمستنقعات ، إلى حقول الثلج البعيدة التي ترى عبر الجروف والتلال والغيوم . أمامها كانت روستكامبن تثني ركبة إلى الأمام وتشكل حاشية للديل ، مبعدة اللاغن جانباً في انثناءه كبيرة . وصل صوت رعد بعيد من النهر حيث كان يشق طريقه عميقاً في صخور الأردواز في الأسفل ثم يهبط وهو يفور ويزبد من رف إلى رف . على التلال السبخية فوق قبة روستكامبن برز الظهران المستديران لجبلي بلاهوير الكبيرين ، واللذين كان أبوها يشبههما بثديي امرأة . . .

لا بدّ أن إرلند يشعر أن المكان هنا ضيّق وبشع . . .يصعب على المرء التنفس فيه . . .

إلى الجنوب قليلاً على هذا الجانب نفسه من التل ، هناك تحت المنحدرات قرب السايتر ، كان المكان الذي رأت فيه الجنية حين كانت طفلة صغيرة . . .

طفلة رقيقة ناعمة شقراء رشيقة ذات شعر حريري كثيف من حول وجنتين مستديرتين حمراوين وبيضاوين . . .أغمضت كريستين عينيها والتفتت بوجهها الذي سفعته الشمس نحو دفق النور . أم شابة بثديين منتفخين بالحليب وقلب خائف ومثمر من حمل الطفل كحقل محروث حديثاً . . .أجل . ولكنها لم تكن خائفة في حالتها الحاضرة . ما كانوا سيحاولون حتى أن يمسكوا بها . لن يعتبرها ملك الجبل وهي المرأة المنهكة والنحيلة إلى هذا الحد على أنها تستحق ذهب

العروس . لن تقبل الزوجة الجنية أن تضع طفلها ليرضع من ثديين ناشفين إلى هذا الحد . أحست أنها أضحت قاسية وجافة مثل جذر شجرة الصنوبر تحت قدمها والذي كان قد ثنى نفسه فوق الأحجار وثبت نفسه بقوة . ضربته بكعبها بقوة وهي تفكر .

"لم فعلت ذلك يا أمي؟"

جلست كريستين ووضعت زهرات هراوة هارون في حضنها وبدأت تقطف الزهور المتفتحة لتضعها في سلتها .

أجابت بعد فترة طويلة جداً حتى أن الصبيين لم ينتبها إلى أنهما كانا قد سألا السؤال : "كان حذائي يقرصني عند الأصابع ." إلاّ أنهما لم يكترث كثيراً بهذا . . . كانا معتادين جداً على أن تبدو أمهما لا تسمع حين يحدثانها ، أو أنها تستيقظ وتجيب حين يكونان قد نسيا سبب طرح السؤال .

ساعدها لافرانس في قطف الزهور . كان من شأن مونان أن يقدم يد المساعدة أيضاً ، ولكنه مزّق الشرابات إلى نتف صغيرة . وهكذا أخذت أمه الأزهار منه دون كلمة واحدة ودون غضب ، فقد كانت أفكارها قد قادتها بعيداً . وسرعان ما بدأ الصبيان يلعبان ويتقاتلان بسيقان النبات المعرّاة التي كانت ترميها بعيداً .

استمرت اللعبة بصخب أمام ركبتي الأم . نظرت كريستين إلى رأسي الطفلين الصغيرين المستديرين بشعرهما البني . كانا لا يزالان متشابهين : كان لهما لون الشعر البني الفاتح نفسه ولكن بواسطة كل أنواع العلامات والإشارات الصغيرة التي لا تُرى إلا بالكاد استطاعت أمهما أن ترى أنهما لن يكونا متشابهين جداً بعد أن يكبرا . سيشبه مونان أباه : فله عيناه الزرقاوان زرقة البحر ، والشعر الحرير الذي يلتصق بطراوة في خصل مجعدة وأمواج صغيرة من حول الرأس الضيق . سيسودّ بالتدريج حتى يصبح بلون السخام مع مرور الوقت . ذلك الوجه الصغير الذي لا يزال مستديراً تحت الذقن على الخدين حتى ليستمتع المرء بملمس

نضارته ، سيصبح ضيقاً ويستطيل ، ما أن يصبح أكبر بقليل . وهو أيضاً سيكون له ذلك الجبين العالي الضيق الذي يغور عند الصدغين والمثلث المستقيم البارز للأنف الحاد والضيق عند الجسر ، مع منخرين رقيقين قلقين سبق لناكفه أن امتلك مثلهما أيضاً .

كانت للافرانس خصل تبنية اللون ناعمة كالحرير حين كان صغيراً . والآن بدأ شعره يكتسب لون الكستناء ، إلا أنه يعكس شعاعاً ذهبياً تحت نور الشمس . كان ناعماً وأملس بما فيه الكفاية ولكنه أخشن وأكثف . كان عبارة عن كتل تستطيع أن تدفن أصابعك فيها . كان لافرانس يشبهها هي . كانت له عينان رماديتان ووجه مستدير ، ويبدو أنه كان سيحتفظ بلون وجنتيه الأحمر والأبيض حتى بعد أن يبلغ مبلغ الرجال .

كانت لغاوته بشرة نضرة لامعة أيضاً فهو يشبه والدها كثيراً بوجهه البيضاوي وعينيه الرماديتين بلون الحديد والشعر الأصفر الفاتح الخفيف .

أما بيورغولف لوحده فلم تكن تعرف بمن تشبهه . أطول أبنائها ، عريض المنكبين ، ثقيل الأطراف قويها . وكان له شعر أسود كالفحم مجعّد ومتمرد وهو ينزل على جبينه العريض الأبيض . كانت عيناه سوداوين مع زرقة ، إلا أنهما خاليتان من اللمعة إلى حد غريب ، وكان يرمش على نحو مؤلم حين يرفعهما نحو النور . لم تكن تعرف متى بدأ ذلك بالضبط ، فقد حدث أن كان هذا الطفل هو أقل أبنائها تلقياً لرعايتها . لقد أُخذ منها وأُعطي إلى مربية ما أن ولدته . وبعد أحد عشر شهراً ولدت غاوته الذي كان مريضاً في أول أربع سنوات من عمره . وبعد مولد التوأمين عادت لتقف على قدميها ، وهي لا تزال مريضة ، مع ألم في الظهر ، ومع ذلك فقد كانت تحمل الصبي الكبير وتتجول به وترعاه ، حتى أنها نادراً ما كان يتاح لها من الوقت ما يكفي لترعى الأولاد الجدد إلا حين جلبت "فريدا" إليها إيفار عطشان صارخاً . . . وكان غاوته مضطجعاً يزعق بينما جلست

هي وألقمت ثديها للصغير ،لم تكن قادرة - أيتها الأم المقدسة يا مريم ، أنت تعرفين أنني لم أستطع أن أبذل من الاهتمام إلى بيورغولف أكثر مما استطعت - ومن البداية كان هو من النوع الذي يحب العزلة . كان غريباً وصامتاً على الدوام ، ويبدو عليه أنه يحب أن تداعبه . كانت تعتبره دائماً الأقوى بين أولادها . كان داكن البشرة ، عنيداً كعجل صغير . . . هكذا كان يبدو لها على الدوام . . .

وشيئاً فشيئاً تبين لها أن هناك خطأ ما في بصره . لقد حاول الرهبان أن يعالجوا عينيه حين كان مع ناكفه في " تاوترا" ، ولكن دون طائل . كان لا يزال منغلقاً على نفسه وصامتاً مثلما كان على الدوام . لم تكن تفلح في جعل بيورغولف ينجذب إليها حين تحاول ذلك . ولم يكن أبوه انجح منه في ذلك ، كما لاحظت . . . كان بيورغولف الوحيد بين أبنائهما الذي لم يكن يهتم لرعاية أبيه له . فقط مع ناكفه كان بيورغولف مختلفاً . . . ولكنها حين كانت تحادث ناكفه عن أخيه ، كان يتهرب من الموضوع . لم تكن تعرف إن كان إرلند انجح منها في هذا . . . رغم أنه لم يكن هناك من يحب أباه أكثر من ناكفه . . .!

. . . أوه ، كلا ، حين يرى المرء أولاد إرلند لا يمكنه أن يخطأ في معرفة من هو أبوهم . . . حين كانت في نيداروس لآخر مرة ، رأت ذلك الطفل من لانسفيك . قابلت السير تورولف في باحة كنيسة المسيح . خرج مع طابور من الرجال والنساء والخدم ، وكانت هناك خادمة تحمل طفلاً رضيعاً في قماط . حياها ثورلوف آسلفسون بانحناءة هادئة ومهذبة وهو يمرّ بها . لم تكن زوجته في صحبته . . .

رأت وجه الطفل في لمحة واحدة ، ولكن كان ذلك كافياً . كان يشبه وجوه أطفالها حين كانوا يرضعون من ثديها . . .

كان معها آرن غيافالدسون ولم تستطع أن تمنعه من عن الكلام . . . كما كان دأبه دائماً . كان أقارب السير ثورولف وورثته منزعجين حين رأى الطفل النور

في الشـتـاء الماضي . ولكـن ثورولف عـمّـده باسم آسـولوف . لـم يكـن بين إرلـند نيكولاوسون والليدي سونيفا أكثر من الصداقة التي كان الناس يعرفون عنها . . . وقد تظاهر بأنه لم يشك بهذا قط . وبما أن الرجل كان فالت اللسان ومتهوراً ، فقد تكلم دون حذر ودون شك وهو يمازحها . . . ولم يكن من واجب الليدي سوى أن تحذّر مستشاري الملك حين شكت بوجود نزوع إلى الأذى . ولكن لو كانوا أصدقاء شديدي الطيبة ، لكانت سونيفا على علم أكيد بأن أخاها يعرف بخطة إرلند . وحين ضحى هافتور غراوت بحياته ولأجل خلاص روحه في السجن ، جن جنونها ، فلم يكن هناك من يأبه بما كانت قد وضعته تحت عهدتها . كان السير ثورولف قد وضع يده على مقبض سيفه وجال بعينيه بين أفراد المجموعة وهو يتحدث عن هذا ، كما قال آرن . . .

كان آرن قد اتهم إرلند بهذه القضية أيضاً . في إحدى المرات حين كانت في العلية ، وقف الرجلان في الأسفل تحت الشرفة ، دون أن يعرفا أنها كانت قادرة على سماع كلامهما . كان فارس لنسفيك شديد الفرح لأن زوجته ولدت له ابنا حملته في الشتاء الماضي . . .كان واضحاً أنه لم يكن يشك قط في أنه والد الطفل . "أجل ، لابد أن ثورولف نفسه يعرف أفضل من الجميع" ، قال إرلند وهو يرد عليه ، لم يسبق لها أن سمعت بمثل هذه اللهجة في صوته . كان يقف الآن بعينين مسبلتين والابتسامة الصغيرة على زاويتي فمه .

كان السير تورولف يكره بشدة أقرباءه أولئك الذين كانوا سيرثونه لو مات دون نسل . ولكن الناس كانت تتكلم وتقول إن الأمر لم يكن كما يجب أن يكون . . ."أوه ، على الرجل أن يكون عارفاً بكل تأكيد حقيقة الأمر" ، قال إرلند كما في السابق .

"أجل ، أجل ، يا إرلند! هذا الصبي الوحيد هو وريث لما هو أكثر مما سيرثه أولادك السبعة الذين رزقت بهم من زوجتك . . ."

"فيما يخص أولادي السبعة سأهتم بأمرهم بنفسي يا آرن . . ."ولكنها مع سماعها لهذا الكلام نزلت فلم تكن قادرة على تحمل سماع المزيد بعد ذلك . بدا إرلند مرتبكاً قليلاً حين رآها . ثم اقترب وأمسك بيدها ، وهو واقف من خلفها بحيث يلمس كتفها جسده . أحست أنه وهو واقف هناك ينظر إليها أنه كان يكرر مجدداً دون كلام الوعد الذي قدمه للتو . . .أحست كأن ذلك سيمنحها التشجيع . . .

. . .أدركت كريستين الآن أن مونان كان ينظر إلى وجهها . . .وهو خائف نوعاً ما . لا بدّ أنها ابتسمت ابتسامة غير لطيفة . ولكن حين نظرت أمه إليه ، ابتسم لها مباشرة بشك واختبار .

ضمته بقوة في حضنها . كان لا يزال صغيراً صغيراً صغيراً بعد ، أصغر أبنائها . . .ليس كبيراً بعد على القبل والمداعبة من قبل أمه . غمزته بعين واحدة . بذل جهده ليغمز لها ، ولكنه مهما حاول كانت عيناه تنغلقان معاً . . .فكانت أمه تضحك بصوت مرتفع . وقد انطلق مونان أيضاً ضاحكاً بينما راحت أمه تحتضنه وتضمه بين ذراعيها .

كان لافرانس جالساً والكلب في حضنه . وقد التفتا كلاهما وراحا يصغيان إلى شيء في الغابات التي في الأسفل .

"إنه أبي!" قفز الكلب أولاً ثم لحق به الصبي هابطين جانب التل المنحدر .

جلست كريستين هادئة لبعض الوقت . ثم نهضت وخرجت إلى نقطة ناتئة . كانوا يصعدون التل الآن عبر الممر الصاعد من الأسفل : إرلند وناكفه وإيفار وسكوله . كانوا في حالة من الفرح الجنوني وهم يحيونها من بعيد .

حيّتهم كريستين مجدداً . هل سيصعدون لإحضار الجياد؟ كلا ، أجاب

إرلند : أولف سيرسل إليهم سفاينبيورن الليلة . كان هو وناكفه ذاهبين لمطاردة الأيائل ، وكان التوأمان راغبين في القدوم معهما لمشاهدة أمهما . . .

لم تجب . كانت تعرف الأمر قبل أن تسأل . كان مع ناكفه كلاب صيد مربوطة إلى سير جلدي . كان هو ووالده يرتدي كل منهما سترة طويلة رمادية وسوداء دون أكمام مصنوعة من نسيج صوفي خشن بحيث لا يظهران مختلفين من حيث اللون عن أكوام الحجارة . كان مع أربعتهم أقواس صيد .

سألت كريستين عن الأخبار في الضيعة ، وتحدث إرلند وهم صاعدون إلى فوق . كان أولف منهمكاً بأعمال الحصاد وكان راضياً ؛ ولكن التبن كان قليلاً ، فالقمح قد نضج بسرعة كبيرة على الحقول الأعلى ، وكان الحبّ يتساقط من السنابل . كما كان الشوفان جاهزاً للحصاد . . .عليهم أن يبذلوا جهدهم ، كما قال أولف . . .

أومأت كريستين برأسها وهي تمشي ، ولكنها لم تقل شيئاً

●

مضت إلى الحظيرة بنفسها لتساعد في حلب الأبقار . كان أمراً يسرها دائماً أن تجلس في هذه الساعة في العتمة قريبة من ثدي البقرة المليء ، أن تحس بأنفاس الحليب الدافئة على منخريها . كان الجواب يأتيها هسيساً من العتمة الداخلية حيث الحلب والأبقار التي يجري حلبها . كان كل شيء يبعث على الاطمئنان ، الرائحة القوية الدافئة في الحظيرة ، صرير غصن الصفصاف وقرون تضرب الخشب وبقرة تحرك قدميها فوق أرض الحظيرة الموحلة ، أو تحرك ذيلها لتطرد الذباب . . .كانت طيور الذعرة التي عششت هنا في الصيف قد رحلت الآن . . .

كانت البقرات قلقة هذه الليلة . وضعت "زرقاء الضلوع" قدمها في دلو الحليب . . . صفعتها كريستين وقرّعتها . أما البقرة التالية فأضحت متململة

وقبيحة ما أن جلست كريستين إلى القرب منها . كانت تعاني من قروح في حلماتها . خلعت كريستين خاتم الزواج وحلبت الدفعة الأولى عبره .

سمعت إيفار وسكوله قرب البوابة . . .كانا يصرخان ويرميان بالأحجار باتجاه ثور غريب كان يلحق بقطيعهم كل مساء وهم عائدون إلى البيت . كانا قد عرضا مساعدة "فين" على حلب العنزات في الحظيرة الصغيرة ، ولكن لا بدّ أنهما تعبا من ذلك . . .

حين مرت بعد فترة قصيرة ، كانا منهمكين بتعذيب العجل الأبيض الذي أعطته للافرانس . . .كان الصبي الصغير واقفاً هناك يتذمر . وضعت أمه الدلاء أرضاً وأمسكت بالصبيين من كتفيهما ، ودفعتهما جانباً . . .عليهما أن يتركا عجل أخيهما في حاله حين يأمرهما بذلك . . .

كان إرلند وناكفه جالسين على عتبة الباب ، يتناولان جبناً طازجاً . كانا يأكلان بشهية ويطعمان مونان الذي كان واقفاً بين ركبتي ناكفه . كان ناكفه قد وضع مشدّ أمه فوق رأس الصغير وهو يقول إنه لم يعد ممكناً لأحد أن يرى مونان الآن . . .فهذا لم يكن مشداً بل قبعة سحرية . كانوا يضحكون ثلاثتهم . . . ولكن ما أن رأى ناكفه أمه حتى سلمها المشدّ ، ونهض وأخذ الدلاء منها . تمهّلت كريستين في الملبنة . كان النصف العلوي من الباب إلى الغرفة الخارجية مفتوحاً . . .ورأت أنهم قد كوموا الحطب في الموقد . من حول النار في الوهج الدافئ المرفرف كانوا يجلسون ويأكلون ، إرلند والأطفال والخادمة والرعاة الثلاثة .

حين دخلت كانوا قد أنهوا وجبتهم . رأت أن الصغيرين كانا قد ناما على المقعد الجداري . بدا أنهما قد سبق لهما وأغفيا . كان إرلند قد تمدّد في السرير منكمشاً على نفسه . تعثرت بسترته وجزمته ، وحين مضت إلى القرب منه فقد التقطتهما وخرجت .

كانت السماء لامعة لا تزال مع شريط أحمر فوق الجبال في الغرب وبضع غيمات داكنات في السماء الصافية .

بدا لها الطقس جيداً للغد ، فقد كان هادئاً وبارداً مع هبوط الليل الآن . . .لا ريح ، بل مجرد نسمة مثلجة من الشمال الغربي وهي ريح ثابتة من الجبال العارية الرمادية . فوق التلال المنخفضة إلى الجنوب الشرقي كان القمر عائما ، بدراً تقريباً ، كبيراً أحمر اللون لا يزال في السديم الرقيق الذي كان معلقاً على الدوام فوق المستنقعات هناك .

كان الثور الغريب يخور بحزن في مكانه بعيد فوق النجود ، وسوى ذلك كان يسود الهدوء . . . فلا شيء سوى خرير النهر تحت مكان حلب البقر ، والجدول الصغير الذي يهبط الأرض المعشوشبة مصلصلاً كالجرس ، وأنين ناعس في الغابات . . .وقلق بين أشجار الصنوبر كان يتحرك ويستقر ثم يتحرك مجدداً . . . أشغلت نفسها ببعض أوعية الحليب التي كانت موجودة قرب سور السايتر . خرج ناكفه والتوأمان . . أين كانوا ذاهبين ؟ سألت أمهم .

كانوا سيذهبون للنوم في مخزن القمح فقد كانت هناك . . . رائحة فاسدة في الملبنة من كل الجبن والزبد هناك . . . ومن البقر النائم هناك .

لم يذهب ناكفه فوراً إلى مخزن القمح فقد كانت أُمّه لا تزال ترى شكله الرمادي الفاتح على العتمة الخضراء لحقول القش التي تحيط بالغابات . بعد فترة قصيرة وصلت إحدى الخادمات إلى الباب . . . وقد أجفلت حين شاهدت سيدة المنزل واقفة قربَ السور .

" ألم تذهبي إلى الفراش بعد يا آستريد . . . الوقت متأخر الآن . . . "

همهمت الفتاة . . . كانت ستذهب إلى ما وراء الحظيرة . انتظرت كريستين حتى رأتها تدخل مجدداً . كان ناكفه في السادسة عشرة الآن . وقد حان الوقت

الذي أصبح فيه على أمه أن تراقب جيداً خادمات الضيعة حين يمرحن مع الشاب الوسيم الحيوي .

هبطت كريستين إلى النهر وركعت على اللوح الحجري فوق الماء . كان النهر يجري أمامها أسود تقريباً في بركة واسعة . لم تكن هناك سوى حلقات صغيرة تكشف التيار ، ولكن فوق ذلك بقليل كان هناك زبد أبيض في العتمة ، مع ضجة تذكّر بقرع الطبول ونفحات هواء باردة . كان القمر قد ارتفع كثيراً الآن حتى أضحى نوره قوياً . . .هنا وهناك كان يومض على ورقة ندية . ثم ظهرت شرارة على موجة في الجدول . . .

نطق إرلند باسمها من خلفها مباشرة . . .لم تكن قد سمعته نازلاً عبر المرج . غمست يدها في الماء المثلج والتقطت وعاءين من أوعية الحليب كانا في القعر وفوقهما بعض الأحجار ، حتى ينظفا في النهر . نهضت ولحقت بزوجها ويداها مليئتان . لم يتحدثا وهما يصعدان المنحدر .

ما أن أصبحا في الكوخ ، خلع إرلند كامل ملابسه وصعد إلى السرير .

"ألن تأتي لترتاحي عاجلاً يا كريستين؟"

"عليّ أن أتناول بعض الطعام أولاً . . ."جلست فوق كرسيها الواطئ ذي الأرجل الثلاثة إلى القرب من الموقد ، مع بعض الخبز وقطعة من الجبن في حضنها وراحت تأكل ببطء وتحدق إلى كومة الحجر التي كانت تنطفئ تدريجا في الحفرة المبطنة بالحجارة في أرض الكوخ :

"هل أنت نائم يا إرلند ؟"همست وهي تنهض وتنفض تنورتها .

"لا . . ."مضت كريستين لتشرب ملء مجرفة من الحليب من الوعاء الذي في الزاوية . ثم عادت إلى الموقد ورفعت لوحاً حجرياً ووضعته في الأعلى ونشرت فوقه زهور هراوة هارون لتجف .

ولكن لم يعد هناك الآن المزيد لتفكر فيه : خلعت ملابسها في العتمة وتمددت في السرير قرب إرلند .

حين أحاطها بذراعيه ، أحست بتعبها وكأنه موجة من البرد أجتاح جسدها كله . أضحى رأسها فارغاً وثقيلاً ، كأنما قد استقر في الداخل وصنع كومةً من الألم الممضّ حيث يتصل الرأس بالرقبة . ولكن حين همس لها ، وضعت ذراعيها من حول عنقه بكل طاعة للواجب .

•

استيقظت في الليل دون أن تعرف الساعة . ولكن عبر الزجاج فوق فتحة الدخان استطاعت أن ترى أن القمر كان عالياً لا بدّ .

كان السرير ضيقاً وقصيراً ، لذلك كانا مضطرين إلى الاستلقاء قريبين أحدهما من الآخر . كان إرلند نائماً يتنفس بهدوء وانتظام ، وكان صدره يعلو ويهبط بلطف في نومه . كانت ترغب في أن تلتصق بجسده الدافئ القوي حين تستيقظ عادةً في الليل وتشعر بالخوف لأنه يتنفس مصدراً الشخير . . . ثم تغمرها فرحة عذبة حين تتحسس صدره وهو يعلو ويهبط في النوم إلى القرب منها .

بعد مرور بعض الوقت تسللت من السرير وارتدت ملابسها في العتمة وانسلت نحو الباب .

كان القمر يبحر عالياً فوق العالم كله . هنا وهناك كان شعاع من الماء يلتمع على الأشنات أو على الجروف التي كان الماء ينساب في النهار عليها ويتجمد الآن متحولاً إلى جليد . شعّ القمر فوق غابات الأشجار الورقية وغابات الصنوبر . فوق الضفاف العشبية كان البخار المتجمد يلتمع أيضاً . البرد شديد قارس . . . أحاطت صدرها بذراعيها ووقفت لبرهة .

ثم مشت صاعدة مع الجدول . كان يرن ويقرقع مع أصوات صغيرة من أبر الجليد تتحطم قطعاً صغيرة . . .

في النهاية العلوية للحقل المسوّر كانت صخرة عظيمة ذات حوض عميق . لم يكن هناك من يقترب منها إلا مضطراً ، وحين يفعل كان يرسم إشارة الصليب على نفسه . كانوا يسكبون القشدة تحتها حين يأتون في الّصيف ، وحين يغادرون مجدداً . صحيحٌ أنها لم تعرف بوجود أي شخص رأى أو سمع أي شيء هناك ، ولكن هكذا جرت العادة في السايتر منذ قديم الزمان . . .

لم تكن تعرف ما الذي أخذها إلى هناك ، أن تغادر المنزل على هذا النحو ، في جوف الليل البهيم . وصلت إلى موضع معين في الصخرة ووضعت قدمها في نقرة فيها . تقلص بطنها واقشعر جسدها وأصابها الخدر من الخوف . . . ولكنها لم ترسم إشارة الصليب على نفسها .

من هنا كان المرء قادراً على أن يطلّ على مشهد واسع وإلى البعيد . . . إلى ما وراء الجبال الصخرية الرمادية تحت نور القمر . كانت الحدبة الكبيرة فوق دوفر تبرز هائلة وشاحبة أمام السماء الشاحبة والحقول الثلجية تلتمع بيضاء في الندبة فوق "غراهو" ، كما كانت "تلال الخنزير البري" تشع بصدوع زرقاء وثلج جديد الهطول . تحت نور القمر كانت الجبال أقبح ما سبق لها أن تصورتها . . . لم يكن هناك سوى نجم أو اثنين يشعان هنا وهناك في السماوات الباردة المثلجة التي لا نهاية لها . أحست بالبرد يتغلغل إلى عظامها ونقيّها . . . وراح الرعب والبرد يضغطان عليها من كل جانب . لكنها بقيت جالسة في نوع من التحدّي .

رفضت الهبوط والنوم في العتمة إلى القرب من جسد زوجها الدافئ النائم . كان النوم يجافيها في هذه الليلة ، وقد عرفت ذلك .

ولأنها واثقة جداً من كونها ابنة أبيها ، فلا يجب أن يسمعها زوجها وهي تلومه على أفعاله فقد تذكرت قسمها حين ناشدت الرب كليّ القدرة وكل القديسين في السماء حتى ينقذوا حياة إرلند . . .

وهكذا حدث أن كان عليها أن تخرج في هذه الليلة الشبحية للتنفس حين أحست أنها على وشك الهلاك . . .

●

جلست وتركت أفكار البرد القارس تأتيها كرفيق قديم . وقد قابلتها أفكار قديمة ومعروفة جيداً . . .في اعتذار مختلق لإرلند . . .

صحيح أنه لم يطلب هذا منها فهو لم يحملها شيئاً من العبء الذي حملته على كاهلها . كان قد رزق منها بسبعة أبناء فقط . "أما أبنائي السبعة فسوف أهتم بهم يا آرن . . ." الرب وحده قد يعرف ما الذي عناه الرجل بتلك الكلمات . قد لا يكون عنى أي شيء . . .ولكنه قالها فحسب . . .

لم يكن إرلند قد رجاها أن تجعل هوسابي وأملاكه تعود للازدهار مجدداً . لم يكن قد رجاها أن تقاتل حتى الموت لإنقاذه . لقد عانى كزعيم . . .أُهدرت أمواله وكانت حياته في موضع الخطر ، وفقد كل ما يملك . وها هو قد جُرّد من كل شيء يقف وسط البلية سامياً دون انحناء وهادئاً ، هادئاً بسمو . ودون انحناء هاهو يقطن في ضيعة أبيها كضيف غريب .

ولكن كل ما كان ملكاً لها كان ملكاً لأبنائها بحق . كانوا يستحقون بحق عرقها ودمها وكل قوتها . ولكن لو أن الأمر هكذا فإن الضيعة وهي نفسها كان لهما الحق في مطالبة هؤلاء الأبناء بأن يكونوا ملكاً لهما أيضاً .

لم تكن هناك حاجة بها للذهاب إلى السايتر مثل زوجة أي فلاح عادي . ولكن في البيت ، وكما هي الحال عليه الآن ، فقد أحست أنها محطمة ومحاصرة من كل جانب . . .حتى بدا لها أنها لم تعد تستطيع التنفس . وعلاوة على ذلك فقد كان مطلوباً منها أن تبرهن على أنها قادرة على القيام بعمل امرأة فلاحة . صحيح أنها عرفت الكدح والنضال منذ أول ساعة انطلقت بها على حصانها كعروس لتدخل ضيعة إرلند نيكولاوسون . . . وقد رأت أن عليها هناك أن تقاتل

لتنقذ إرث من كانت تحمله تحت قلبها . ولكن عليها الآن أن تؤكد لنفسها أنه لو دعت الحاجة فلن يكون هناك أي نوع العمل كانت تطلب من وصيفاتها وخادماتها القيام به فيما سبق ولا تستطيع هي أن تنجزه بيديها . هنا في السايتر يكون اليوم يوماً طيباً حين تلاحظ أنها لم تكن تشعر بالألم عبر خاصرتيها بعد أن تقف فترة طويلة وهي تمخض اللبن . كان أمراً جيداً في الصباحات أن تكون لوحدها وتساعد على إخراج القطيع إلى المرعى . . .لقد أضحت البقرات سمينات وجميلات في هذا الصيف . . .وقد خف العبء الكامن فوق قلبها حين راحت تقف عند الغروب وهي تبكي البقرات العائدات إلى البيت . كانت تحب مشاهدة الغذاء وهو ينمو بين يديها . . .لكأنها كانت تمدّ يدّها لتتأكد من ثبات الأرض التي كانت مصائر أبنائها ستبنى عليها مجدداً .

كانت يوروندغارد ضيعة جيدة ، ولكنها لم تكن بالجودة التي كانت تظنها . وكان أولف غريباً هنا في الوادي . . .فقد أصبح يرتكب الأخطاء ويفقد الصبر . وكما يعتقد الناس في هذا الريف فقد كان محصول التبن جيدً على الدوام في يوروندغارد . . .كانت لديهم مروج مائية على امتداد النهر وخارجاً فوق الأراضي المنخفضة . . .ولكنه لم يكن أفضل أنواع التبن ، ولا هو ذاك الذي اعتاد عليه أولف في منطقة تروندهايم . لم يكن معتاداً على تكديس هذا الكم الكبير من الطحالب والعلف الورقي وهذا الخلنج والأغصان الكثيرة كما كانت تدعو الحاجة إليه هنا .

كان أبوها يعرف كل شبر من هذه الأرض ، وكان مطلعاً على معارف المزارعين :على تقلبات الفصول ، على الطريقة التي كانت فيها الحقول المتعددة تتلقى فيها السنوات الماطرة أو الجافة ، وفصول الصيف ذات الرياح الشديدة أو الحرارة الشديدة ، على أنواع البقر التي كان يشرف على تناسلها ، جيلاً بعد جيل ، وعلى تغذيتها وتربيتها وبيعها . . . كل المعارف التي كانت مطلوبة لهذا

المكان بالذات . لم تكن تعرف ضيعتها عن ظهر قلب إلى هذا الحد . ولكنها ستعرفها يوماً . . .وكذلك أولادها . . .

ولكن لم يكن إرلند قد طلب منها ما هومشابه ، لم يكن قد تزوجها ليجعلها تنخرط في الكدح والجهد . كان قد تزوجها حتى تنام بين ذراعيه فحسب . . . وهكذا ، حين جاءها المخاض ، أصبح هناك طفل سينام إلى جانبها مطالباً بمكانه على صدرها وذراعها وصدرها وتحت رعايتها . . .

أنّت كريستين من خلال أسنانها المطبقة . بقيت جالسة وهي ترتجف من البرد والغضب .

"حافظ على عهدك!" قالتها باللاتينية ثم نطقتها بالنرويجية .

في ذلك الوقت كان آرن غيافالدسون والأخ لايف أوف هولم قد وصلا إلى هوسابي واستوليا على ممتلكاتها وممتلكات أبنائها وأخذاها إلى نيداروس . وقد ترك لها إرلند هذا الأمر لتتولاّه هي أيضاً . . .فقد كان اتخذ له سكناً في دير "هولم" . كانت تجلس في الدارة . . .وكان الرهبان يملكونها الآن . . .وكان آرن غيافالدسون معها ، يساعدها بالتخطيط والفعل . كان سايمون قد أرسل الرسائل له ليقدم المساعدة .

ما كان لآرن أن يكون أكثر حماسة لو كانت سلعه وحوائجه هي التي عليه أن ينقذها . في ذلك المساء بالذات الذي جلبها به إلى البلدة ، كان عليه أن يجعلها هي والليدي غونا أوف راسفولد التي وصلت مع الصغيرين تخرج إلى الإسطبلات . كان فيها سبعة جياد مختارة . . .كان الناس مصممين على التعامل بلطف مع إرلند نيكولاوسون ومنحه الموافقة حين أكّد آرن أن كل واحد من الأبناء الخمسة الكبار كان يملك حصاناً للركوب وكذلك سيدة المنزل وخادمها . أما فيما يخص الحصان القشتالي ، فحل إرلند الإسباني ، فقد جلب شهوداً أكدوا أن إرلند قدمه هدية لأبنه نيكولاوس رغم أن هذا قيل بنوع من المزاح أكثر من الجد .

لم يكن آرن قد أعجب بالحصان طويل القوائم ، ولكنه كان يعرف أن إرلند مولع بهذا الحصان كثيراً . . .كان أمراً رديئاً ، كما قال آرن ، أنه اضطر إلى أن يترك درع الدولة يذهب مع الخوذة العظيمة والسيف المطعّم بالذهب . . .صحيح أن كل هذه الأشياء لم تكن ملائمة لأي شيء عدا مباريات الفرسان . ومع ذلك فقد كان يساوي مبلغاً كبيراً من المال . ولكنه استطاع الاحتفاظ بقميص إرلند من الحرير الأسود المزخرف عليه أسد أحمر . كما أنه طالب بلجام المعركة الإنكليزي خاصة نيكولاوس . وقد كان هذا رائع الصنع إلى حد أن آرن اعتبر أن لا شبيه له في أراضي النرويج . . .بالنسبة لأولئك القادرين على الرؤية . ولكنه كان شديد الاهتراء . . .أجل بالفعل ، فقد كان إرلند قد استخدم أسلحته أكثر من كل أبناء النبلاء الآخرين في هذا الزمن . . .راح آرن يقلّب كل قطعة . . .الخوذة ، درع العنق ، درع الذراع ، درع الساق ، القفازات المصنوعة من أدق الصفائح الفولاذية ، الدرع ودرع العنق المصنوعان من الزرد وهما خفيفان وملائمان ولكنهما مع ذلك متينان جداً . ثم السيف . . .كان له مقبض من الفولاذ العادي ، أما الجلد الذي على المقبض فهو بال . . .ولكن ما كان المرء ليرى مثل حدّه مرة في السنة . . .

جلست كريستين وأمسكت بالسيف عبر حضنها . كانت تعرف أن إرلند كان سيضمه كعروس محبوبة جداً . . .لم يكن قد استخدم أياً من السيوف الأخرى التي كانت في حوزته . كان السيف قد منح له حين كان مجرد شاب صغير من قبل سيغموند تورولفسون الذي كان زميله في السرير حين انضم إلى حرس الملك الشخصي لأول مرة . لم يكن قد ذكر لها هذا الصديق سوى مرة واحدة من قبل :"لو لم يكن الرب مستعجلاً إلى ذلك الحد في أخذ سيغموند من هذا العالم ،لكانت أمور كثيرة قد تغيرت فيما يخصني . بعد موته كنت في حالة اضطراب في البلاط ؛ وهكذا وبكثير من الرجاء حصلت على أذن الملك هاكون للذهاب شمالاً مع غيسور غاله في تلك المرة . . .ولولا ذلك أعتقد أني ما

كنت سأظفر بك يا حلوتي . . .لأنه كان من شأني أن أكون قد تزوجت قبل فترة طويلة من بلوغك سن الشباب . . ."

كانت قد سمعت من مونان باردسون أن إرلند رعى رفيقه ليلاً نهاراً كما ترعى الأم طفلها ، فما عاد ينام سوى لإغفاءة قصيرة بين الحين والآخر قرب سرير الرجل المريض . . .في ذلك الشتاء الأخير حين كان سيغموند تورولفسون يبصق رئتيه قطعة قطعة وكذلك دم قلبه . وحين دفن سيغموند في كنيسة هالفارد ، كان إرلند يزور قبره صباحاً ومساءً وينبطح فوق حجر القبر نادباً . ولكنه لم يكن قد ذكره أمامها سوى مرة واحدة .

وفي كنيسة هالفارد أيضاً كان هو وهي يتواعدان أحياناً ، في ذلك الشتاء المليء بالخطايا في أوسلو ولكنه لم يذكر قط أن أعز أصدقائه في أيام يفاعته كان مدفوناً هناك . كما كان قد حزن على أمه بالطريقة نفسها كما نُمي إليها . وحين مات أورم كان يأسه مجنوناً وصعباً على الانضباط . ولكنهِ لم يكن يذكرهما هما أيضاً . كما عرفت أنه كان في المدينة ليزور مارغريت . . .ولكنه لم يكن يذكر ابنته قط .

. . .تحت المقبض مباشرة شاهدت كتابة محفورة في حد السيف . كانت في معظمها كتابة رونية[١] لم تستطع قراءتها ، ولا آرن أيضاً ولكن الراهب أمسك بالسيف ونظر إليه وهلة ثم قال أخيراً : "باكتوم سيرفا أو حافظ على عهدك" .

وتحدث آرن والأخ لايف أيضاً عن أن جزءاً كبيراً من أراضيها هنا شمال دوفر والتي كانت هدية إرلند لها في صباحيتها قد رهن وفُقد . أليس من حيلة لإنقاذ بعضاً من هذه الأراضي ؟ ولكن كريستين رفضت . . .كان على المرء أن ينقذ شرفه

---

(١) - (رونية :كتابة تيوتونية قديمة .المترجم)

أولاً . لم تكن تريد إثارة قضية مدى قانونية معاملات زوجها . وعلاوة على ذلك فقد كانت منزعجة جداً من حديث آرن ، رغم نيته الطيبة ، في تلك الليلة . وحين تمنى لها هو والراهب ليلة طيبة وذهبا ليناما ، فقد رمت بنفسها على ركبتيها أمام الليدي غونا وخبأت وجهها في حضنها .

بعد برهة رفعت المرأة العجوز رأس المرأة الشابة . رفعت كريستين عينيها إلى الأخرى . . .كان وجه الليدي غونا حزيناً وأصفر وممتلئاً مع ثلاث طيات سميكة كأنه مقولب من الشمع فوق جبينها المغطى بالنمش الخفيف مع عينين زرقاوين لطيفتين وحادتين وفم أدرد تظلله شعيرات رمادية طويلة فوق الشفة . كانت كريستين قد رأت هذا الوجه ينظر إليها من عل خلال ساعات عذاب كثيرة . . .فقد كانت الليدي غونا معها في كل مرة وضعت فيها طفلاً باستثناء لافرانس فقد ولدته وهي إلى جوار فراش أبيها المحتضر .

قالت السيدة وهي تضغط بيدها على جبينها : "أجل ، أجل يا ابنتي . لقد رعيتك خلال ولادتك مرات عديدة حتى الآن ، حين كنت تركعين على ركبتيك . . .أجل . ولكن في هذه المحنة يا كريستين عليك أن تستسلمي أمام أم الرب مريم العذراء نفسها وأن تتوسلي إليها لمساعدتك على تجاوزها . . ."

آه ، وقد فعلت ذلك أيضاً ، كما فكرت كريستين . لقد تلت صلواتها وشيئاً من المزامير كل مساء يوم أحد ، كما كانت تمارس الصوم في الأيام التي فرضها عليها الأسقف آيليف حين منحها الصفح عن خطاياها : كما كانت تقدم الصدقات وترعى بنفسها كل عابر سبيل يطلب مبيت ليلة ، سواء بدا جيداً أو سيئاً ، ولكنها لم تعد تشعر الآن أن النور يومض في داخلها حين تقوم بهذه الأشياء . كانت تعرف بوجود نور في الخارج ، ولكن بدا وكأن هناك سديماً تختفي روحها وراءه . لا شك أن هذا ما تكلم غونولف عنه . . .جفاف الروح . ليس على أي شخص أن يفقد شجاعته بسبب ذلك ، كما قال سيرا آيليف . كن مواظباً

على صلواتك وأفعالك الطيبة ، وحين يحرث الفلاح ويسمّد بالروث ويبذر . . .يرسل الله له الغيث السريع في الوقت الرباني الملائم . . .ولكن سيرا آيليف لم يكن مزارعاً قط . . .

لم تكن قد رأت غونولف هذه المرة . كان يقضي فترة في الشمال في هلجلاند وهو يمارس الوعظ وجمع الهدايا لديره . أجل ، هذا هو أحد نجلي فارس هوسابي . . .وذاك هو الآخر . . .

ولكن مارغريت إرلندسداتر كانت تزورها أحياناً في دارة المدينة . كان هناك خادمان يتبعان زوجة التاجر . كانت ترتدي ملابس جميلة وحلى براقة . . . فقد كان حموها صائغاً ، لذا كانت هذه الأشياء متوفرة في المنزل . بدت سعيدة وراضية . . . رغم أنه لم يكن لديها أطفال . كانت قد حصلت على بائنتها من أبيها في الوقت الملائم . والربِ وحده يعرف إن كانت تفكر أبداً في ذلك المقعد المسكين هاكون ؛ هناك في غيمسار . . . كان كل ما يستطيعه هو أن يجر نفسه من حول الباحة على عكازين ، كما سمعت كريستين . . .

ولكنها حتى في ذلك الحين لم تفكر بإرلند بمرارة ، كما بدا لها . لابدّ أنها أحسّت بما كان ينتظر إرلند . لذلك راح يخبئ نفسه لدى القس أولاف ، ويأخذ أمراً بالانتقال من مسكن إلى آخر وآخر وأن يظهر نفسه في المدينة . . . ربما كان الأمر أكثر مما يحتمله حتى إرلند نيكولاوسون . . .

كما كان هناك في ذلك اليوم الذي أبحروا فيه عبر زقاق تروندهايم البحري . . . على متن سفينة لاورنتيوس الشراعية الحربية ، السفينة نفسها التي شحن بها إرلند جهاز زفافها إلى الشمال حين حصلا في البداية على الإذن بالزواج . . .

يوم هادئ من أيام الخريف . . . وميض شاحب رصاصي فوق الزقاق البحري ، والعالم من حولها باردٌ أبيض ومضطرب . . . لقد انجرفت الثلجة الأولى

إلى المرتفعات عبر الأراضي المتجمدة ، وأضحت الجبال ذات اللون الأزرق البارد مقلمة بخطوط الثلج . أما أعلى الغيوم أيضاً ، حيث السماء زرقاء ، فبدت دقيقة الانتشار كالدقيق بسبب الريح التي تعصف عالياً في قبة السماء . كانت السفينة تنجرف ببطء وكآبة قريبة من البر . . . من رأس المدينة الدّاخل في البحر . وقفت كريستين تنظر إلى الموجة البيضاء التي راحت تضرب الجروف . . . متسائلة إن كان عليها أن تشعر بدوار البحر حين سيخرجون إلى الزقاق البحري .

وقف إرلند عند حاجز السفينة ، قريباً من مقدمها ومعه أبناه الأكبر سناً . كانت الريح تهب على شعورهم وعباءاتهم .

كانوا ينظرون الآن إلى زقاق "كورس" البحري باتجاه "غاولاروس" والمهبط عند بيرغسي . كان وميض من شعاع الشمس يضيء حافة الجبل البنية والبيضاء فوق الشاطئ هناك . . .

قال إرلند شيئاً ما للصبيين . عند ذاك التفت بيورغولف بحدة وغادر جانب السفينة العلوي ومضى نحو مؤخر السفينة . وبالرمح الذي كان يحمله دائماً ويستخدمه كعصا فقد شق طريقه بين مقاعد التجديف الفارغة . مرَّ بأمه . . .ورأسه ذو الشعر الأسود المجعد فوق صدره وعيناه ترمشان وتكادان تكونان مغمضتين ، وشفتاه مزمومتان . مضى نحو مؤخر السفينة . . .

نظرت الأم نحو الأمام ، إلى الآخرين ، إرلند وابنه البكر . ثم رأت نيكولاوس يركع على ركبة واحدة كما يفعل الخادم أمام سيده ، ويتناول يد أبيه ويقبلها .

أبعد إرلند يده بقوة . . . لمحت كريستين وجهه برهة وكان شاحباً شحوب الأموات ، مرتجفاً ، وهو يلتفت مبتعداً عن الصبي ويذهب إلى ما خلف الشراع بعيداً عن الأبصار . . .

رسوا في مرفأ صغير قرب شاطئ "موره " في تلك الليلة . كان بحر "موره"

غير متجمد الآن . . .وراحت السفينة تشد سلاسل مرساتها وهي تعلو وتدور . كانت كريستين قد نزلت إلى قمرتها في الأسفل ، حيث كانت ستنام مع إرلند والطفلين الصغيرين . أحست بالغثيان والدوار ولم تستطع أن تبقى واقفة على الألواح الخشبية التي بدت وكأنها ترتفع وتهبط تحت قدميها . تأرجح القنديل فوق رأسها وارتعشت الشمعة الصغيرة . . . وقفت وهي تكافح لتحاول أن تجعل مونان يبول بين الألواح . حين يستيقظ وقد خدّره النوم سيصاب بالغثيان أو يكون في حال أسوأ في سريرهما . وقد ثار وزعق ورفض أن تضع امرأة غريبة هي أمه يديها عليه لتساعده وتمسكه وهو يتدلى من فوق جانب السرير ثم هبط إرلند .

لم تستطع مشاهدة وجهه وهو يسأل بصوت خفيض جداً : "هل رأيت ناكفه؟ . . . عيناه تشبهان عينيك كثيراً يا كريستين . " تنفس إرلند بصعوبة . "هكذا بدت عيناك في ذلك الصباح قرب سور حديقة الراهبات . . . حين سمعت أسوأ الأمور عني وقد جعلتني أعطيك عهداً بالإخلاص . . ."

عندها بالضبط أحست بأول قطرة من المرارة تصْعد إلى قلبها . فليحم الرب ذلك الصبي . . . عسى ألا يجعله الرب يرى ذلك اليوم الذي يكون عليه فيه أن يوثق عهداً مع يد تترك كل شيء ينزلق من أصابعها كما الماء البارد والرمل الجاف . . .

•

قبل ذلك بفترة قصيرة كانت قد ظنت أنها سمعت صوت حوافر من مكان ما بعيد في الجنوب في البراري الجبلية . والآن وصل هذا الصوت مجدداً من مكان أقرب . لم يكن صوت جياد شاردة ، بل كان فارساً ما ، وكان يقود حصانه بحدة فوق الصخور تحت الأكمة في الأسفل هناك .

طغى الخوف عليها فشعرت بالقشعريرة . من ذا الذي يركب حصانه في هذا الوقت المتأخر؟ يركب رجال ميّتون شمالاً تحت القمر في المحاق . . . ألم تسمع

فرساناً يتبعون الفارس الأول من بعيد . . .؟ ومع ذلك تابعت الجلوس ، لم تكن تعرف هي نفسها إن كانت هي المشلولة أو أن قلبها كان قد أصبح الليلة شديد القسوة . . .

كان الفارس قادماً إلى هنا . . .هاهو يعبر الجدول تحت مرعى البيت . شاهدت وميض رأس الرمح فوق شجيرات الصفصاف . ثم وجدت في نفسها القوة على الهبوط من فوق الصخرة وكانت ستعدو عائدة إلى الكوخ . . . ولكن الفارس قفز الآن من على حصانه وربطه إلى عمود الباب ، ورمى بعباءته فوقه كغطاء . صعد نحو المرجة الصغيرة . كان رجلاً ضخماً بديناً - لقد ميزّته - كان سايمون .

حين رآها قادمة نحوه تحت نور القمر ، بدا خائفاً كما كان في السابق .

"يا يسوع ، كريستين ، أليس هذا أنت . . .؟ كيف حدث أنك في الخارج في هزيم الليل؟ هل كنت تتوقعين قدومي؟" سألها بسرعة وكأنه في خوف كبير : "هل وصلك خبر مسبق بقدومي؟"

هزت كريستين رأسها .

"لم أستطع النوم يا زوج أختي ، ما الذي يقلقلك؟"

"أندرس مريض جداً يا كريستين . . . ونحن نخشى على حياته . لذلك فكرنا . . . نعرف أنك أمهر النساء في مثل هذه الأمور . . . تذكري أنه ابن أختك . هل لك أن تقومي بفعل خير وترافقيني إلى البيت؟ . . . تعرفين جيداً أني ما كنت لأحضر إليك على هذا النحو ، لولا أني أعرف بالتأكيد أن حياة الطفل في خطر" ، قال متوسلاً .

في داخل الكوخ قال الشيء نفسه لإرلند الذي كان جالساً في السرير ، لا يزال نصف نائم ، وفي حال من العجب الصامت . ثم حاول إرلند أن يبعث السلوان في عديله ، فتحدث كشخص عارف : مثل هؤلاء الأطفال الصغار ترتفع

حرارتهم بسهولة ويهذرون في حديثهم ، حتى لو أصابتهم بعض القشعريرة . ربما ليس هناك خطر كبير كما يبدو لكم . " قد تعرف جيداً يا إرلند أني ما كنت لأحضر قط لأصطحب كريستين في مثل هذه الساعة من الليل لولا أني لاحظت جيداً أن الطفل يصارع الموت . . ."

كانت كريستين قد نفخت على الجمر ووضعت الحطب في الموقد . جلس سايمون محدقاً إلى النار وهو يشرب بتوق الحليب الذي قدمته له كريستين ، ولكنه رفض تناول أي طعام . كان يريد هبوط التل ما أن يصل الآخرون . . ." إن أردت يا كريستين . . . ؟" كان واحد من خدمه سيحضر معه أرملة تعمل خادماً في فورمو ، وهي امرأة قادرة تستطيع أن تستلم الأمور هنا لفترة من الزمن . . . كان اسمها آسبيورغ وهي امرأة شديدة البراعة كما قال ثانية .

حين رفع سايمون كريستين إلى السرج ، قال :

"أعتقد أن علينا أن نسلك الطريق المختصر جنوباً . . . إن لم يكن لديك اعتراض؟ "

لم يسبق لكريستين أن كانت على ذلك الجانب من الجبل ، ولكنها كانت تعرف بوجود ممر هناك يهبط إلى الوادي عبر جانب الجبل فوق فورمو . أجابت أجل . . . ولكن كان على خادمه أن يسلك الطريق الأخرى ، من حول يوروندغارد ، وذلك ليوصل صندوقها وأكياس الجذور والأعشاب . وعليه أن يوقظ غاوته ، فقد كان هذا الصبي يعرف عن هذه الأعشاب أكثر من الجميع .

عند حافة مستنقع واسع كانا قادرين على السير جنباً إلى جنب ، وجعلت كريستين سايمون يحكي لها مجدداً عن مرض الصبي . لقد أصيب الأطفال في فورمو بمرض الحنجرة في عيد قداس أولاف ، ولكنهم تغلبوا على ذلك قليلاً . هذا المرض الجديد كان قد تحكم بأندرس فجأة ، حين بدا في أوج صحته . . . في

وسط النهار قبل ثلاثة أيام . لقد اصطحبه خارجاً . كان عليه أن يمضي على مزلجة القمح إلى الحقل ، ولكن الصبي بدأ يشكو من البرد وحين نظر سايمون إليه كانت قد أصابته نوبة ارتعاش ، وراحت أسنانه تصطك . ثم جاءته نوبة من الحرارة والسعال . ثم بصق مادة هلامية بنية اللون ذات منظر كريه ، وأصيب بألم شديد في الصدر . . . ولكنه لم يستطع أن يخبرهم بالكثير عن المكان الذي يأتي منه الألم الأسوأ ، ذلك الصبي الصغير المسكين . . .

تحدثت كريستين إلى سايمون بأكثر اللهجات التي استطاعتها مرحاً ، وكان عليها أن تمشي على مسافة خلفه ثم التفت وسألها إن كانت تشعر بالبرد حتى يعطيها عباءته لتضعها فوق معطفها .

عاد ليتحدث مجدداً عن ابنه . كان صحيحاً ، وقد لاحظ هو ذلك ، أن الصبي لم يكن قوي البنية . ولكن أندرس كان قد أصبح أكثر عافية في فصلي الصيف والخريف الأخيرين هذين . . . كما أن مربيته ترى ذلك أيضاً . أجل ، في الأيام الأخيرة قبل وقوعه فريسة المرض كان غريب الأطوار قليلاً . وحساساً . . . "خائفا" ، قال حين قفزت الكلاب عليه لتداعبه . وفي يوم أصيب بالحمى كان سايمون قد وصل إلى البيت فجراً حاملاً بضع بطات بريات . في الأيام الأخرى كان الصبي يتوسل إلى أبيه أن يعطيه الطيور التي يجلبها إلى البيت ليلعب بها قليلاً ولكن أندرس صرخ عالياً حين تظاهر أبوه بأنه سيرمي إليه بالسير الذي يضم الطيور . كان قد تسلل إلى الأمام لاحقاً وقدم إليه البطات ، ولكنه كان ملطخاً ببعض الدم ، وعند ذاك هاج الصبي من الرعب . وفي هذه الليلة ، وبينما كان مستلقياً وهو يئن من الألم ، دون أن يعرف النوم أو الراحة . . . لقد بكى شاكياً من صقر كان يطارده . . .

" . . . أتذكرين ذلك اليوم حين وصلت الأنباء إليّ وأنا في أوسلو ، وقلت أنت : ستبقى فورمو ملكاً لآل دار حين ترحل أنت . . .؟"

"لا تتكلم هكذا يا سايمون . . . وكأنك تظن أنك ستموت دون ابن . إن الرب وأمه الحنون يستطيعان المساعدة دون شك . . . ليس هذا دأبك يا زوج أختي أن تكون ضعيف القلب إلى هذا الحد ."

"قالت لي هالفريد زوجتي الأولى الكلام نفسه الذي قلته أنت في أوسلو . اتعرفين يا كريستين أني رزقت بابن منها؟"

"أجل . . . ولكن أندرس في الثالثة من عمره الآن . إن السنتين الأوليين هما الأصعب على الأطفال . . ." ولكن بدت كلماتها حتى لها وكأنها لا تفيد شيئاً . وتابعا السير . نكس الحصانان رأسيهما وهما يصعدان تبة أمامهما ثم هزا رأسيهما حتى جلجلت شكيمتاهما . لم يكن هناك صوت واحد في الليل الجليدي إلا ما يصدر عن سير الحصانين وأحياناً كانا يسمعان صوت الماء وهما يعبران جدولاً ما . كان القمر يشع في الأعلى والأسفل . وشع الجبل والصخور الرمادية بلون شاحب كالموت ، حيث كانا يسيران تحت حافة الجبل .

وأخيراً وصلا إلى حيث يستطيعان أن يطلاّ على الأبرشية . كان نور القمر يملأ الوادي . شع النهر والمستنقعات والبحيرة إلى الجنوب كالفضة . . . أما الحقول والمروج فكانت شاحبة .

قال سايمون :" أجل ، الليلة هناك جليد في الوهاد أيضاً" .

نزل عن حصانه وقاد حصانها وهما ينزلان المنحدر . كان الممر شديد الانحدار في أماكن كثيرة ، حتى شعرت كريستين أنها لا تجرؤ إلا بالكاد على النظر نحو الأمام . أسندها سايمون بظهره إلى ركبتها ، وقد تمسكت بيد واحدة خلف السرج . بين الحين والآخر كان حجر يتدحرج من تحت حوافر الجوادين ، ويندفع نحو الأسفل ، يتوقف قليلاً ثم يتحرج مرة أخرى فيجعل أحجاراً أخرى تتخلخل في مواضعها فيحملها معه . . .

وأخيراً وصلا إلى الأسفل . سارا عبر حقول الشعير شمال الضيعة بين عيدان القمح المغطاة بالجليد . كانت أشجار الحور الرجراج تطقطق وتدمدم من فوق رأسيهما في الليل اللامع الهادئ .

سألها سايمون وهو يمسح وجهه بكمّه :" أقلت إنه حدث لديك تكهن دون أن يصلك أي خبر . . . ؟"

أجابت كريستين بأن هذا صحيح . ثم قال هو :

"لقد سمعت أنه يحدث في بعض الأحيان أن ينطلق إخطار نحو الطرف الآخر حين يتوق شخص ما للشخص الآخر كثيراً . . . لقد تبادلنا الحديث رامبورغ وأنا أكثر من مرة وقلنا إنك لو كنت في البيت ستعرفين طريقة . . ."

قالت كريستين : " لم يكن أي منكم في فكري كل هذه الأيام . عليك أن تصدقني يا سايمون" . ولكنها لم تستطع أن ترى أن هذا قد واساه .

في الباحة قفز زوج من خدم المنزل فوراً وأخذا الحصانين ." أجل ، إن الوضع كما كان حين غادرت يا سايمون . إنه ليس أسوأ " ، قال أحد الخادمين بسرعة وقد رفع نظره إلى سيده . أومأ سايمون برأسه ، ثم دخل قبل كريستين إلى مبنى النساء .

•

رأت كريستين بوضوح أن هناك خطراً جلياً على حياة الصبي الذي كان مستلقياً وحده في السرير الكبير الفخم وهو يئن ويشهق ويهز رأسه دون توقف إلى الأمام والخلف على الوسائد . كانت حرارته مرتفعة ووجهه أحمر قانيا وقد استلقى بفم نصف مفتوح ، وعينين لامعتين يحاول جاهداً أن يتنفس . وقف سايمون وهو يمسك بيد رامبورغ ، وقامت كل نساء الضيعة بالتزاحم من حول كريستين وهي تتفحص الصبي .

ولكنها تكلمت بهدوء جهد استطاعتها وهدّأت من روع الوالدين كأفضل ما كان في مقدورها . لاشك أنها ذات الرئة ولكن هاهي هذه الليلة في نهايتها دون أن يطغى الجانب الأسوأ منها على الوضع . . . إن من عادة هذا المرض أن ينقلب في الليلة الثالثة أو السابعة أو التاسعة قبل صياح الديك . توسلت إلى رامبورغ أن ترسل كل النساء إلى فراشهن باستثناء اثنتين فقط حتى يكون لديها دائماً نساء مستريحات وجاهزات لمساعدتها . وحين وصل الخادم من يورونداغارد مع عدة كريستين الخاصة بالحكمة ، فقد غلت شراباً معرّقاً للصبي وفتحت وريداً في قدمه لفصد الأخلاط بعيداً عن صدره .

شحب وجه رامبورغ لرؤية دم ابنها . وضع سايمون ذراعه من حولها ولكنها دفعت بالرجل جانباً وجلست على كرسي قرب أسفل السرير ، تحدق إلى كريستين بعينين سوداوين بينما انهمكت أختها بالطفل .

●

خلال ذلك النهار ، بدا الطفل في وضع صحي أفضل ، فتحدثت كريستين مع رامبورغ طالبة منها أن تستلقي على المقعد ثم كومت الوسائد والأغطية من حول الزوجة الشابة ، وجلست قرب رأسها ، وراحت تمسّد جبينها برقة . تناولت رامبورغ يد كريستين :

"لا شك أنك لاتتمنّين لنا الآن سوى الخير؟" هذا ما قالته وهي تئنّ .

""أيمكن أن أتمنى لك أي شي سوى الخير يا أختي . . . ونحن يا أختي كل ما تبقى من سلالتنا في هذا البلد . . .؟

بدأت رامبورغ تنتحب . . . نصف مختنقة عبر شفتين مزمومتين بشدة . كانت كريستين قد شاهدت أختها تبكي مرة واحدة فقط من قبل . . . حين وقفتا عند سرير أبيهما الميت . والآن كانت دموع قليلة صغيرة متسرعة تنبع من عينيها

وتسيل على خديها . رفعت كريستين يدها ونظرت إليها . كانت طويلة ورشيقة ولكنها حمراء بنية الآن وخشنة . . .

قالت :" حتى الآن ما زالتا أجمل من يدي . كانت يدا رامبورغ صغيرتين وبيضاوين ولكن أصابعها كانت قصيرة وأظافرها مربعة .

قالت :"أجل" بغضب تقريباً ، بينما هزت كريستين رأسها مبتسمة ."وأنت حتى أجمل مني كما كنت دائماً . كان أبونا وأمنا يحبانك أكثر مني . . . طوال حياتنا . لقد جلبت لهما الأسى والعار ، وكنت أنا مطيعة وبارة وقبلت بالرجل الذي كانا يريدان مني الزواج منه . . . ولكن في داخلهما كانا يحبانك أكثر بكثير . . ."

"كلا يا أختاه . كوني على ثقة من أنهما أحباك بقدر ما أحباني . هيا كوني سعيدة يا رامبورغ لأنك تفكرين في أنك لم تسببي لهما سوى الفرح . . . أنت تعرفين كم هو ثقيل العبء الذي أحمله أنا . ولكنك كنت صغيرة في ذلك الحين الذي كنت فيه أنا شابة ، ولذلك كانا يتحدثان إليّ أكثر ."

"أجل ، اعتقد أن الكل كان أصغر في ذلك الحين الذي كنت فيه شابة" ، قالت رامبورغ وهي تتنهد كما من قبل .

وسرعان ما نامت . جلست كريستين وحدقت إليها . كانت لا تعرف أختها إلا قليلاً . كانت رامبورغ مجرد طفلة حين تزوجت هي وقد بدا الآن لها أن الأخرى ما زالت طفلة نوعاً ما . لقد بدت كطفلة وهما جالستان قرب ابنها المريض . . .طفلة شاحبة خائفة تبذل جهدها للصمود في وجه الرعب والتعاسة .

كان يحدث أحياناً أن تتوقف الحيوانات عن النمو لو حملت ذرية في فترة مبكرة جداً من حياتها . لم تكن رامبورغ قد أتمت السادسة عشرة من عمرها حين حملت بابنتها ، ومنذ ذلك الحين بدا عليها وكأنها توقفت عن النمو . لقد بقيت هشة وصغيرة الحجم دون أن تزهر أو تثمر . ومنذ ذلك الحين أنجبت هذا الصبي

الوحيد . وكان عليلاً إلى حد غريب . . .جميل الوجه والملامح فاتح البشرة ، إنما صغير الحجم وسقيم إلى حد مثير للشفقة . . .لقد تأخر في المشي ولا زال يتعثر في النطق ، إلى درجة أن أولئك الذين كانوا من حوله يومياً هم الوحيد ون القادرون على فهم شيء من ثرثرته الطفولية . كان شديد الخوف والجبن من الغرباء أيضاً إلى حد أنه لم يكن يدع خالته تلمسه إلاّ بالكاد . هل سيمنحها الرب والقديس أولاف البركة لتنقذ هذا الطفل المسكين . . .؟ أوه! ستكون ممتنة طوال حياتها . هذا الطفل مع أم كهذه ، لا شك أنها لن تتحمل فقدانه . وأحست أنه سيكون أمراً شديد المرارة أن يتحمل سايمون دار الضربة ، لو كان سيفقد هذا الابن الوحيد . . .

لقد لاحظت جيداً أنها أضحت تحب زوج أختها جيداً ، بعد أن علمت كم عانى من الأسى والرعب . لقد استطاعت أن تفهم الآن حب أبيها الكبير لسايمون أندرسون . ومع ذلك تساءلت إن لم يكن أبوها قد أساء لرامبورغ في استعجاله زواجها من سايمون . لأنها حين راحت تنظر إلى هذه الأخت الصغيرة إلى جوارها ، فقد خطر لها بعد كل ما قيل أن سايمون أكبر سناً وأكثر جدية وضخامة من أن يكون زوجاً لهذه الطفلة .

-٣-

مرت الأيام وبقي أندرس مريضاً . لم يكن هناك تغير ملحوظ نحو الأسوأ ولا نحو الأفضل . كان أسوأ ما يحدث هو ألاّ ينام . كان الصبي مستلقياً هناك بعينين نصف مفتوحتين دون أن يعرف شيئاً . كان السعال واللهاث يمزّقان جسده الصغير المهدود ، وكانت الحمى المتذبذبة ترتفع وتهبط . في إحدى الأمسيات كانت كريستين قد أعطته شراباً منوماً . . .بعدها غرق في نوم مريح . ولكنها لاحظت بعد فترة أن الطفل قد أضحى لونه أبيض مزرقاً ، كما أضحت بشرته باردة وندية .

وبأقصى سرعة حصلت على جرعة من الحليب الساخن وتم تجريعه إياها كما وضعت أحجاراً ساخنة على أخمص قدميه . وبعد هذا لم تعد تجرؤ على إعطائه عقاراً منوماً . . .

لقد عرفت أنه أصغر بكثير من أن يستطيع احتماله .

وصل سيرا سولموند وجلب له "العناصر المقدسة " من الكنيسة . تعهد سايمون ورامبورغ بتأدية الصلوات والصيام والحسنات بشكل دائم إن كان الرب سيصغي إليهما ويمنح الحياة لابنهما .

وصل إرلند إلى هناك في أحد الأيام . رفض الترجل عن حصانه والدخول

إلى الدار ، ولكن كريستين وسايمون خرجا إلى الباحة وتكلما إليه ، نظر إليهما بأسى كبير . كان أمراً غريباً أن نظرته هذه كانت تثير في كريستين غضباً كليلاً غامضاً . كان أمراً أكيداً أنه كان يشعر بالألم حين يرى أي شخص مريضاً أو حزيناً ، ولكنه كان يبدو أولاً وقبل كل شيء مذهولاً وخجولاً . . .كان يبدو دائماً عاجزاً حين يكون حزيناً لأجل الناس .

بعد ذلك كان ناكفه أو التوأمان يحضران يومياً إلى فورمو ليسألا عن حال أندرس .

•

لم تجلب الليلة السابعة أي تغيير هام على حالة المرض ، ولكن مع تقدّم النهار بدا الصبي في حال أفضل . . . ودون حرارة مرتفعة جداً . كان سايمون وكريستين جالسين لوحدهما إلى القرب منه قرب منتصف النهار .

أخرج الأب تميمة صغيرة مذهبة كان يلبسها وقد سلكت على خيط من حول عنقه تحت ملابسه . انحنى فوق الصبي ، ودلّى التميمة أمام عينيه ثم دفعها في يد الصبي وضغط الأصابع الصغيرة من حولها . . . ولكن لم يبد على أندرس أنه مهتم .

كان سايمون قد أعطي هذه التميمة وهو طفل بعد وقد ارتداها منذ ذلك الحين . . .كان أبوه قد جلبها معه من فرنسا . كانت قد بوركت في دير يسمى دير جبل ميكائيل وكان رسم عليها شبه القديس ميكائيل مع جناحين كبيرين . وكان أندرس يحب أن يتفرج عليها ، كما حكى لها سايمون بصوت خفيض جداً . ولكن الصبي الصغير ظنها ديكاً ، كان يسمي رئيس كل الملائكة "ديكاً" . . . وأخيراً علّم الطفل أن يقول كلمة "الملاك" . ولكن في أحد الأيام كانا يقفان في الباحة ورأى أندرس ديكاً ينقر إحدى دجاجاته ، فقال :" الملاك غاضب الآن يا أبي" .

رفعت كريستين عينيها إلى الرجل متوسلة . . . لقد آلمها كثيراً الإصغاء إليه ، رغم أن سايمون كان يتكلم ببساطة وهدوء شديدين . كانت منهكة جداً من كل هذه الليالي التي قضتها وهي تسهر على المريض . أحست أنها ستنهار لو بدأت بالبكاء الآن . . .

أعاد سايمون التعويذة إلى مكانها في صدر قميصه .

" أجل ، سأمنح ثوراً عمره ثلاث سنوات إلى الكنيسة في يوم عيد القديس ميكائيل . في خريف كل عام طالما حييت ، إن كان سيتلكأ ولو قليلاً قبل أن يحضر لأخذ روحه . فأندرس ضئيل الحجم جداً . . ." ولكنه حين حاول أن يضحك ، تحشرج صوته قليلاً . "سايمون ، سايمون! " توسلت المرأة إليه ." أجل ، سيجري القدر كما هو مرسوم له يا كريستين . والرب نفسه هو الذي يرسمه ، ولا شك أنه يعرف أفضل من الجميع . . ." توقف الأب عن الكلام ، إلاّ أنه وقف وراح ينظر إلى ابنه .

•

في الليلة الثامنة سهر سايمون وإحدى الخادمات على المريض بينما هجعت كريستين قليلاً على المقعد البعيد . وحين استيقظت ، كانت الفتاة نائمة ، بينما كان سايمون جالساً كما في معظم الليالي على المقعد عند رأس السرير ورأسه مدلى فوق السرير والطفل .

همست كريستين وهي تذهب إليه : "أهو نائم؟"

رفع سايمون رأسه . مسح وجهه بيده فلاحظت أن وجنتيه كانتا رطبتين ، إلا أنه أجاب بصوت خفيض وهادئ :

" لا أعتقد يا كريستين أن أندرس سينام مجدداً حتى يضطجع تحت الخثّ في أرض مباركة " .

وقفت كريستين . . .أحست كأنها أصيبت بالتيبس والتصلّب . وقد شحبت ببطء بشرتها التي لفحتها الشمس فابيضّ حتى لون شفتيها .

ثم مضت نحو الزاوية وتناولت عباءتها التي تخرج بها .

تكلمت وكأنما أصاب الجفاف حلقها وفمها : " عليك أن ترتب الأمر على نحو تكون أنت فيه لوحدك هنا حين أعود . ابق معه . . .وحين تراني أدخل ، لا تنبس ببنت شفة ، ولا تذكر هذا قط لاحقاً أمام أحد ، لا أمامي ولا أمام أي شخص آخر . ولا حتى كاهنك . . ."

نهض سايمون . . . واقترب منها ببطء . كان قد شحب لونه هو أيضاً .

"كلا يا كريستين !" كان صوته بالكاد مسموعاً . "لا أجرؤ . . .على جعلك تمشين في تلك الطريق ."

لفّت عباءتها من حولها ، وأخذت قطعة من قماش كتاني من الخزانة في الزاوية وطوتها ثم خبأتها في صدرها . "ولكني أجرؤ . عليك أن تضمن ألا يقترب شخص منّا لاحقاً ، وذلك قبل أن أنادي عليك . . .لا يجب أن يقترب أي شخص منا بعد ذلك ولا أن يحدثنا ، قبل أن يستيقظ ويتكلم هو نفسه . . ."

"وما هو رأي أبيك بهذا حسب رأيك ؟"همس لها بصوت واهن كما من قبل . " كريستين ، لا تفعليها . . ."

"لقد فعلت سابقاً ما اعتقد أبي أنه خطأ . . . وعندها كنت أفعل أمراً يتعلق بإرضاء شهواتي . . . أندرس هو لحمه ودمه ايضاً . . .وهو لحمي أنا يا سايمون . . . إنه ابن أختي الوحيدة . . ."

تنفس يا سايمون بصعوبة وهو يرتجف ، وقف وراح ينظر إلى الأرض .

"ولكن إن كنت لا تريد مني أن أقوم بمحاولة هذه الوسيلة الأخيرة . . ." وقف كما من قبل وقد طأطأ رأسه . كررت ما قالته مجدداً . . . ولم تعرف أن نصف ابتسامة غريبة مليئة بالاحتقار قد غلبت على شفتيها الشاحبتين :

"أتريد مني ألاّ أذهب؟"

التفت برأسه جانباً ، ومرت به وهي خارجة ، عبرت الباب دون ضجيج وأغلقته خلفها بهدوء .

•

في الخارج كان الظلام كثيفاً مع نفحات صغيرة من الريح الجنوبية ، حتى أن كل النجوم كانت تتراقص وتومض دون ثبات . لم تكن قد ابتعدت أكثر من الطريق بين الأسيجة ، ومع ذلك بدا لها وكأنها عبرت نحو الأبدية نفسها . كان خلفها وأمامها طريق لانهاية لها . لكأنها ما كانت ستتراجع عما تنوي أن تفعله حين خطت خارجاً هذه الليلة . . .

بدت العتمة نفسها كأنها قوة تقاومها وهي تشق طريقها فيها . كانت تمشي في وحل عميق . . . فقد حرثت عربات السماد الدرب الذي راح جليده يذوب بفعل الريح الجنوبية . عند كل خطوة كان عليها أن تحرر قدميها من العتمة والبرد القارس اللذين كانا يلتصقان بقدميها ثم يصعدان ويسدان حواشي تنورتها . بين وقت وآخر كانت ورقة متساقطة تحتك بها . . . وكأنها شيء حيّ لمسها في العتمة ، برقّة ، ولكنه واثق من قوته : عودي أدراجك ، عودي أدراجك! . . .

حين خرجت إلى الطريق العام أضحى المشي أسهل : كان العشب نامياً عليه . لم تعد قدماها تعلقان في الطين . أحست بوجهها وقد تحجّر كالصخر ، وكان جسدها متوتراً مشدوداً . . . كانت كل خطوة تجرها دون رحمة نحو الغابة التي عليها عبورها . بدا وكأن شللاً داخلياً راح يتصاعد في داخلها . . . كان من المستحيل أن تتجرأ فتعبر ذلك الممر المعتم . . .ولكن لم تكن لديها أي أفكار تتعلق بالعودة من حيث أتت . كان الرعب قد أصاب جسدها بالخدر ومع ذلك تابعت المشي بخطوات واسعة وكأنها نائمة ، وتخطو بثقة فوق الحجارة والجذور والبرك

الصغيرة ، دون أن تعي . . .وهي تحرص على ألا تتعثر ، وألا تتخلى عن مشيتها المتوازنة وتجعل الرعب يسيطر عليها .

كانت أشجار التنوب تتنهد الآن أقرب فأقرب في الليل . مرت إلى القرب منها ، وهي لا تزال هادئة ، وكأنها تمشي في نومها . كانت واعية لكل صوت ولم تكن تجرؤ إلا بالكاد على تحريك جفن واحد بسبب العتمة . هدير النهر والتنهد العميق للأشجار وخرير جدول اقتربت منه وعبرت به وخلفته وراءها . وفي إحدى المرات عالياً في الجبل تدحرجت صخرة ، كأنما حركتها روح حية هناك في الأعالي . . . نزّ العرق من كل جسدها ، ولكنها لم تجرؤ على الإبطاء ولا الاستعجال في مشيتها .

كانت عينا كريستين قد أصبحتا شديدتي الاعتياد على العتمة حتى أنها حين خرجت من الغابة استطاعت أن ترى قليلاً . . . كان هناك وميض ضعيف فوق النهر ، فوق مياه المستنقعات . كانت أراضي المزرعة مرئية لها الآن رغم الظلام . كانت تجمعات البيوت تبدوا كقلوب ذات ظلمة أشد فوقها . وكانت السماء أيضاً ذات لون أفتح فوقها وهي تمضي . . . أحست بها ، ولكنها لم تجرؤ على رفع عينيها نحو الجبل الأسود الذي كان يرتفع نحو السماء . لكنها علمت أن الوقت قد حان لبزوغ القمر . . .

حاولت أن تذكر نفسها . . . خلال أربع ساعات سيبدأ النهار : سيكون الناس قد انطلقوا إلى أعمال النهار في كل المزارع . . . سيكون الجو رمادياً مع الفجر . ثم سيعم النور أعلى الجبال . لن تكون الطريق طويلة عندئذ . . . في النور ليست الطريق طويلة من فورمو إلى الكنيسة . وقبل ذلك بفترة طويلة ستكون هي نفسها قد وصلت إلى البيت وأصبحت في داخله . ولكن شيئاً ما قال لها إنها ستكون في حاجة إلى أن تكون شخصاً آخر عندئذ مختلفاً عن ذاك الذي كانته حين انطلقت في طريقها . . .

كانت تدري . . .لو كان الأمر يتعلق بحياة واحد من أطفالها ، ما كانت لتجرؤ على محاولة القيام بهذه الوسيلة الأخيرة إطلاقاً . هل تنحّي يد الرب جانباً بعد أن مدّها ليأخذ روحاً حية؟! حين كنت تسهر على أطفالها الصغار المرضى وكانت شابة وقلبها ينزف حناناً ، فقد حاولت أن تقول لدى استعدادها للغرق في الرعب والألم : أيها الرب أنت تحبّهم أكثر مني . . .إرادتك ستتم . . .

ولكنها ستذهب الليلة متحدية رعبها . . . هذا الطفل الذي ليس ابنها . . . هذا الطفل ستنقذه مهما يكن الأمر الذي ستنقذه لأجله . . .

. . . لأجلك أنت أيضاً يا سايمون دار ، حين يكون أعزّ شيء عليك فوق هذه الأرض في موضع الخطر ، فإني سوف أبذل جهدي أكثر مّما يبذله أي رجل دون أن يوهن من شرفه . . .

"أتريد مني ألاّ أذهب . . .؟" ولم يكن رجلاً بما فيه الكفاية ليجيب . في أعماق قلبها كانت تعرف . . . لو كان الطفل سيموت فإن سايمون سيحاول هذه الوسيلة . ولكنها كانت قد انقضت على تلك الساعة بالذات حين وجدته عند نقطة الانهيار . . . وقد اغتنمت الفرصة في اللحظة الملائمة وانطلقت في طريقها . هذا السر ستشاركه فيه الآن . . .فهو قد عرف أنها قد رأته أيضاً في تلك الساعة حين لم يكن واقفاً باتزان على قدميه .

لقد أصبح يعرفها عن كثب إلى حد كبير . لقد تلقت المساعدة من يدي الرجل الذي رفضته في كل مرة احتاجت فيها إلي ، وذلك لتنقذ الرجل الذي اختارته بنفسها . العاشق الذي نبذته كان الرجل الذي لجأت إليه في كل مرة كانت تحتاج فيها إلى حماية حبيبها . ولم تكن تنشد عون سايمون عبثاً ، ففي كل مرة كان يتقدم ليحميها بشهامته وقوته .

لذلك كانت تسلك هذا الدرب عبر الليل لتخفف قليلاً من عبء دينها الذي لم تكن شعرت بالضبط حتى تلك الساعة بمدى ثقله الضاغط .

كان سايمون قد أجبرها على أن تفهم أخيراً أنه كان الأقوى . . .أقوى منها ومن الرجل الذي اختارت أن تلمسه نفسها . لابدّ أنها شعرت بالفعل بذلك من اللحظة التي التقى فيها ثلاثتهم في ذلك الوكر المعيب في أوسلو - رغم أنها لم تلاحظ ذلك في حينه - بأن هذا الشاب البدين مستدير الوجنتين المتكلم كان أقوى من . . .

لذلك ذهبت ولم تجرؤ على مناداة اسم شخص صالح وورع وتحملت وزر هذه الخطيئة ، حتى تتمكن من الفوز . . .لا تعرف ما الأمر . . .هل هو انتقام؟ . . . انتقام لأنها اضطرت إلى أن ترى أنه كان أفضل منهما هما الاثنين كليهما . . .؟

ولكنك تعرف الآن أيضاً يا سايمون . . .حين تكون حياة الشخص الذي يحبه المرء أغلى من حياته نفسها . . .روح بشرية ضعيفة لن تفهم شيئاً . . .على الإطلاق . . .

كان القمر قد برز فوق حافة الجبل وهي تصعد المنحدر نحو الكنيسة . ومن جديد فكرت أن عليها أن تمر بموجة جديدة من الرعب . . .كان نور القمر أشبه بنسيج عنكبوت فوق الكتلة المطلية بالقار . كانت الكنيسة تنتصب تحت سديم رقيق ، سوداء على نحو رهيب ومهدّد بالويل والثبور . ولأول مرة رأت الصليب الكبير فوق المرج في الخارج ولم تجرؤ على الاقتراب من هناك لتنحني أمام الشجرة المقدسة . زحفت إلى حيث عرفت أن جدار ساحة الكنيسة المصنوع من الطين والحجر كان في أفضل مستوى له وأسهل على التسلق . . .

كانت شواهد القبور تلتمع هنا وهناك كالماء في العشب الرطب الطويل . عبرت كريستين مباشرة ساحة الكنيسة وهبطت باتجاه قبور الفقراء بعيداً قرب الجدار الجنوبي .

مضت نحو مكان دفن فيه فقير كان من الواصلين الجدد إلى الأبرشية . لقد تجمد الرجل حتى الموت وهو في الجبال في إحدى فصول الشتاء وتنقلت ابنتاه

يتيمتا الأم أيضاً من منزل إلى آخر حتى عرض لافرانس بيورغولفسون أن يرعاهما لأجل خاطر المسيح ، وأن يمنحهما الغذاء . وقد ترعرعتا حتى كبرتا وبحث لهما أبوها عن عريسين شريفين كادحين ، وزوجّهما مانحاً كل واحدة منهما بقرة وعجلة وغنمة ، بينما أعطتهما راغنفريد أسرة وفراشاً وأوعية حديدية . . .والآن أصبحتا ربّتي منزل ناجحتين وغنيتين نسبياً . كانت إحداهما تعمل خادمة لدى رامبورغ وقد حملت رامبورغ أطفالها لها يوم عمادهم . . .

إذن عليك الآن أن تعطيني قطعة خث من التراب الذي يغطيك يا "بيارن" لأجل ابن رامبورغ . ركعت وأخرجت خنجرها .

تفجّر العرق فيَ حبات باردة فوق جبينها وشفتها العليا وهي تدسّ أصابعها تحت الخث المبلّل بالندى . كان هناك شيء ما يمسك بها من الأسفل -كانت تلك جذوراً- وقد قطعتها بخنجرها .

كمكافأة يجب أن تكون الحلية المعدنية من ذهب أو فضة متوارث منذ ثلاثة أجيال . خلعت خاتمها الذهبي الصغير المطعم بالياقوت الذي كان خاتم خطبة جدتها . . .الطفل من عائلة أبي . دست الخاتم في التراب إلى أعمق حد استطاعته ، لفت الخث بالقماشة الكتانية وغطت البقعة التي أخذته منها بالطحالب وأوراق الشجر .

. . .حين نهضت ارتجفت ساقاها من تحتها . . .كان عليها أن تقف قليلاً قبل أن تلتفت إلى الوراء . لو نظرت تحت مرفقها الآن لكانت ستراهم . . .

وكان هناك جذب مخيف في داخلها ، وكأنهم سيجبرونها على ذلك . . .كل الموتى الذين عرفوها في الأيام الغابرة . إنها أنت يا كريستين لافرانسداتر . . .هل أتيتِ إلى هنا على هذا النحو؟ "آرن" ، حسناً قد تتساءل . . .لم أكن كذلك حين كنا صديقين أنت وأنا . . .

ثم تسلقت السور مجدداً وانطلقت في طريقها نزولاً .

راح القمر يشع الآن فوق الريف كله . هاهي يورروندغارد هناك على السهل المشرف على النهر . . .كان الندى يلتمع على كل الأسقف . نظرت إلى الأسفل . . .دون أن تتأثر تقريباً . كأنما هي نفسها ميتة بالنسبة إلى ذلك البيت وكل ما هناك . . . كان الباب موصداً إلى الأبد أمامها هي التي سارت في تلك الليلة على الطريق العالي . . .

كان معظم طريق العودة مظللاً بالجبال . كانت الريح تهب على نحو أقوى الآن . . .كانت الهبة إثر الأخرى تضغط عليها . . .راحت أوراق ذابلة تهب عليها وكانت ستجعلها تعود من حيث أتت . . .

كما لم يكن يبدو لها أنها تمشي لوحدها . فجأة كان يأتي صوت يشبه صوت وقع خطوات مختلسة خلفها . أهذا أنت يا "آرن"؟ انظري خلفك يا كريستين ، انظري من تحت مرفقك ، هذا ما همس به . . .

ومع ذلك كان معها حق في أن تخاف . كانت بردانة وحذرة ، وتشعر بالغثيان والتوق إلى الاستسلام والانهيار أرضاً . بعد هذه الليلة لا شك أنها لن تعرف الخوف قط في هذه الدنيا . . .

•

كان سايمون جالساً في مكانه المعتاد عند رأس السرير ، منحنيا فوق الطفل ، وذلك حين فتحت الباب ودخلت . رفع نظره إليها لحظة قصيرة واحدة . . .تساءلت كريستين إن كانت أصبحت خلال هذه الفترة التي انقضت منهكة ومشوهة وعجوزاً . ثم طأطأ سايمون برأسه وخبأه بين ذراعيه .

تطوح قليلاً وهو ينهض . والتفت برأسه بعيداً عنها وهو يتجه نحو الباب وقد أحنى عنقه وكتفيه .

أشعلت كريستين شمعتين ووضعتهما على المائدة . فتح الصبي عينيه

قليلاً ، ونظر إلى الأعلى دون أن يرى شيئاً ، قطب جبينه قليلاً ، وحاول أن يبعد رأسه عن النور . وحين وضعت كريستين الجسم الصغير على نحومستقيم ، كما يفعل المرء بجثة ، لم يحاول أن يغير وضعيته . . .بدا أضعف من القدرة على التحرك .

ثم غطت وجهه وصدره بالقماشة الكتانية ووضعت قطعة الخث فوقها .

وبهذا اندفع الرعب ليغشاها مجدداً ، كبحر طاغ .

عليها أن تجلس قرب السرير . كانت النافذة فوق المقعد القصير مباشرة . لم تجرؤ على الجلوس وظهرها إليها . . .الأفضل أن ينظر المرء إليهم في العينين ، إن وقف أي منهم دون أن ينظر إلى الداخل . سحبت الكرسي ذا الظهر العالي نحو السرير وجلست تواجه زجاج النافذة . . .راح الليل يضغط عليه ، مظلماً ظلاماً دامساً . كان لهب أحد الشمعتين ينعكس على الزجاج . حدقت كريستين بقوة إليه ، وهي تمسك بيديها ذراعي الكرسي ، حتى أصبحت براجمها بيضاء وارتجف ذراعاها . لم تعد تشعر بساقيها ، فقد كانتا باردتين ورطبتين جداً . . .جلست وأسنانها تصطك من الخوف والبرد والعرق البارد يتصبب فوق وجهها وظهرها . جلست دون حراك . . .راحت ترمي بين الحين والآخر نظرة سريعة على القماشة الكتانية التي راحت ترتفع وتهبط قليلاً جداً مع تنفس الطفل .

وأخيراً فإن لون زجاج النافذة بدأ يتحول إلى الرماديّ . صاحت الديكة بحدة . ثم سمعت رجالاً في الباحة . . .كانوا متجهين نحو الإسطبلات .

بخفة عادت لتستند على ظهر الكرسي ، وهي ترتجف كأنها في نوبة ، وحاولت أن تجلس بحيث تهدئ من ارتجاف واهتزازات أعضائها .

ثم تحرك شيء ما تحت القماشة الكتانية . . .جذب أندرس القماشة بعيداً عن وجهه وهو يتذمر متأففاً . . .بدا وكأن وعيه عاد إليه نوعاً ما ، فقد كان يئن بنزق نحوها حين أجفلت وانحنت فوقه . . .

اختطفت القماشة والخث ، وركضت نحو الموقد . دست بعض العيدان والحطب ورمت بلباس الشيطان نحو النار الجديدة المهسهسة التي أشعلت للتو . ولكنها كانت راغبة في الوقوف قليلاً ، فاتكأت على الجدار والدموع تنحدر فوق وجهها .

أخذت بعض الحليب بمغرفة من القدر الصغير الذي كان قرب الموقد وأخذته إلى الطفل . . . كان أندرس قد نام مجدداً ، إلا أنه ينام نوم العافية الآن .

شربت الحليب بنفسها . كان لذيذاً إلى حد أنها شربت ملء مغرفتين أو ثلاث من الشراب الدافئ بكل سعادة .

لم تجرؤ على الكلام بعد . . . لم يكن الطفل قد نطق بكلمة واحدة يمكن فهمها . ولكنها ركعت على ركبتيها قرب أسفل السرير وقالت في نفسها همساً (باللاتينية) :

"إرجع يا رب ، حتى متى؟ وترأف على عبيدك . لا تسخط كل السخط يا رب ، ولا تذكر الإثم إلى الأبد . . ها أنظر شعبك كلنا ."

. . . أجل ، أجل ، أجل ، كان أمراً مخيفاً ذاك الذي ارتكبته . . .

ولكنه كان ابنهما الوحيد . أما هي فكانت لها سبعة أبناء! ألا يجب عليها أن تخاطر بكل شيء لتنقذ ابن أختها الوحيد . . .؟

طول الليل كانت تفكر في هذا كله . . . كان مجرد وهم من أوهام الليل . لاشك أنها فعلت ذلك لا لشيء إلا أنها لم تكن قادرة على رؤية الصبي يموت بين يديها . . .

سايمون . . . هو الذي لم يخذلها قط .

هو الذي كان مخلصاً ولطيفاً مع كل طفل تعرفه . . . وخاصةً مع أولادها .

وهذا الابن الذي كان يحبه أكثر من بؤبؤي عينيه . . .ألا يجب أن تحاول كل شيء لتنقذ حياته . . . حتى لو كان في ذلك أثم وخطيئة . . .

أجل كان هناك إثم في ذلك . ولكن سامحني أيها الرب . هذا الطفل الجميل البريء ابن سايمون ورامبورغ . . . لا يمكن للرب أن يدع غضبه ينزل على أندرس .

عبرت الغرفة وانحنت على السرير . . . ثم نفخت على واحدة من اليدين الصغيرتين البيضاوين كالشمع . لم تجرؤ على تقبيلها . . . لا يجب أن يوقظ .

نقية ودون خطيئة . . . كان ذلك في ليالي الرعب تلك حين كانتا تجلسان معاً لوحدهما في هاوغن ، حين حكت لها الليدي آشيلد عن هذا الأمر . . . حكت لها عن ذهابها إلى المقبرة في كونونغاهله . "هذه هي يا كريستين دون شك أثقل مهمة سبق لي أن قمت بها" . . . ولكن بيورن غونارسون لم يكن طفلاً بريئاً حين كان يقبع على باب الموت ، حيث أن أبناء أخت آشيلد غاوتسداتر كادوا يخترقون قلبه بسيوفهم . وكان قد قتل أحدهم قبل أن يسقط ، ولم يعد الآخر رجلاً في كامل عافيته منذ تبادل ضربات السيوف مع السير بيورن . . .

وقفت كريستين قرب النافذة ونظرت خارجاً إلى الباحة . كان الناس يذهبون ويجيئون بين المباني وهم يؤدون واجباتهم اليومية . كانت بعض العجلات الصغيرات تتجول في أنحاء الباحة . . . كن جميلات جداً . . .

برزت كل أنواع الأفكار في العتمة . . . كذلك النباتات الغشائية التي تنمو في البحر وتتموج وتهزّ نفسها على نحو غريب ، جميلة على نحو غير اعتيادي . . .رهيبة ومثيرة تجذبنا هذه النباتات بجاذب معتم غريب بينما تنمو ضمن غسقها الحي المتذبذب . ولكن حين يقطفها الأطفال وتوضع في الزورق ، فهي لا شيء سوى علقة بنية موحلة . في الليل تبرز أفكار كثيرة وغريبة مثيرة الوهم والخوف . لاشك أن الأخ إدفين هو الذي قال ذات مرة إن الملعونين في جهنم لن يفارقوا عذابهم . . . فالكره والحزن هما متعتاهما . . . لذلك لا يستطيع

المسيح إنقاذهم . بدا لها هذا على أنه كلام هذر آنئذ . . . سرت رعدة باردة في جسدها . . . الآن بدأت تفهم ما كان يعنيه الراهب . . .

انحنت فوق السرير مجدداً . . . وهي تعبّ الهواء الذي كان الطفل الصغير يتنفسه . لا يجب أن يخسره سايمون ورامبورغ . حتى لو كان صحيحاً أنها قد فعلت هذا حقاً بسبب حاجتها إلى أن ترى نفسها على النحو الصحيح في عيني سايمون . . . أن تريه أنها راغبة هي أيضاً في فعل أكثر من أخذ الهدايا من يديه ؛ إنها حاجة إلى أن تحاول كل شيء لتكافئه . . .

ومن جديد ركعت وراحت تتلو مرة إثر أخرى ما تحفظه من سفر المزامير .

•

في ذلك الصباح خرج سايمون وبذر بذور الجودار الشتوي في الحقل المحروث حديثاً ، إلى الجنوب في الغابة . كان في ذهنه أن يتظاهر بأنه يبدو له ملائماً أن العمل في المزرعة يجب أن يستمر كالمعتاد . كانت الخادمات في حال استغراب كبير حين وصل إليهن في الليل وقال إن كريستين ستبقى لوحدها مع الصبي حتى ترسل في طلبهن ، كما قال ذلك لرامبورغ أيضاً حين أفاقت من النوم . . . كانت كريستين قد رجته ألا يقترب أحد من منزل النساء اليوم .

قالت بسرعة : "ولا أنت أيضاً ؟" وأجاب سايمون بالإيجاب . عندها خرج وأحضر صندوق البذور .

ولكن بعد وجبة منتصف النهار بقي في الضيعة . . . لم تكن لديه الشجاعة ليبتعد عن الأبنية . ولم يكن يحب النظرة في عيني رامبورغ . وقد حصل ما حصل بعد استراحة منتصف النهار . كان يقف قرب حظيرة القمح ، ورأى زوجته تندفع عبر الباحة . قفز ليلحق بها . . . رمت رامبورغ بنفسها على باب مبنى النساء وراحت تدق عليه بقبضتيها ، وهي تصرخ بجنون على كريستين لتفتح الباب .

وضع سايمون ذراعيه من خولها محاولاً أن يهدئ من روعها . عند ذلك انحنت بسرعة البرق وعضته في يده . بدت كوحش هائج في غضبها .

"إنه طفلي !ما الذي فعلته بابني؟"

" تعرفين أن أختك لا تفعل سوى الخير لأندرس" . . .وحين أمسك بها مجدداً ، صرخت وقاومته :

"هيا الآن" ، قال الرجل بصوت فيه تظاهر بالقسوة :

"رامبورغ . . .ألست خجلة من هذا التصرف أمام خدم منزلنا . . .؟"

ولكنها تابعت الصراخ :

"إنه ابني ، ابني ، هذا ما أقوله لك . . .لم تكن معنا حين ولدته يا سايمون . عندها لم نكن أعزّاء كثيراً عليك . . ."

"تعرفين جيداً ما الذي كنت منهمكاً به في تلك الأيام " ، أجاب الرجل منهكاً . جذبها بعيداً نحو القاعة بالقوة .

بعد ذلك لم يجرؤ على تركها . وخلال فترة هدأت رامبورغ ، وحين حلّ المساء استسلمت له وتركت النساء يخلعن عنها ملابسها .

سهر سايمون إلى جانبها . كانت ابنتاه نائمتين في سريريهما ، أما الخادمات فطلب إليهن الخروج . في إحدى المرات حين نهض وعبر الغرفة ، سألته رامبورغ – كانت مستيقظة تماماً كما بدا من صوتها– إن كان سيخرج .

أجاب بعد لحظة :"كنت أفكر في الاستلقاء إلى جانبك " . خلع معطفه الخارجي وحذاءه ، وزحف ما بين قطع الفرو وغطاء السرير الصوفي . ثم وضع ذراعه تحت عنق زوجته :"أعرف جيداً يا رامبورغ أن هذا كان يوماً طويلاً وثقيلاً عليك . . ."

"قلبك يدق بقوة يا سايمون" ، قالت بعد ذلك بفترة قصيرة .

"أجل يمكنك أن تصدقي أني خائف على الصبي أنا أيضاً . ولكن علينا الانتظار حتى تبعث كريستين في طلبنا . . ."

أجفل في السرير-كان مضطجعاً وهو مستند على مرفقه-ونظر بجنون إلى وجه كريستين الأبيض . . .كان وجهها قريباً من وجهه ، وكان يلتمع من الدموع تحت شعاع من نور ، وكانت يدها فوق صدره . فكر لحظة في أن هذا لم يكن حلماً فحسب . . .ارتمى سايمون على ظهره وهو يئن أنيناً مكتوماً وأخفى وجهه بذراعه . أحس بالغثيان وكان قلبه يدق بجنون وقوة . . .

"سايمون ، استيقظ !" هزته كريستين مرة أخرى . . .أندرس ينادي على أبيه ، ألا تسمعني؟ كانت تلك أول كلمة نطق بها" . كان وجهها يشع بالابتسامات بينما تنهمر الدموع منه دون توقف .

جلس سايمون في السرير ومرَّر يده مرتين فوق وجهه . لم يقل شيئاً وهي توقظه فقد كان النوم لا يزال يؤثر فيه . . .رفع بصره إلى كريستين . . .كانت تقف إلى جانب السرير وفي يدها قنديل .

زحف خارجاً معها بهدوء لئلا يوقظ رامبورغ . كان الغثيان لا يزال يثقل على صدره . أحس كأن شيئاً سينكسر في داخله . . .لماذا يسكنه دائما هذا الحلم الكريه ؟ هو الذي كان في يقظته يكافح دائماً لدفع هذه الأفكار بعيداً عنه . ثم ، حين كان يستلقي لينام ، دون إرادة وعاجزاً ، كان يحلم دائماً هذا الحلم الذي يبعث به الشيطان نفسه . . .وحتى الآن ، وبينما كانت تجلس لتسهر على ابنه الذي كان مريضاً حتى الموت ، كان هو يحلم حلم أي شخص بائس متوحش . . .

كان المطر يهطل ، ولم تستطع كريستين أن تعرف كم كانت الساعة في ذلك الليل البهيم . كان الصبي نصف مستيقظ في النهار ، ولكنه لم يكن قد تكلم . ولم يبد عليه أنه نام جيداً وبعمق إلا في وقت متأخر من الليل . . .ولم تجرؤ هي

على الاضطجاع ولو قليلاً للراحة . . .وأندرس كان بين ذراعيها ، حتى تشعر به لو تحرك . ثم نامت . . .

بدا الصبي ضئيلاً جداً وهو مستلق لوحده في السرير . كان شاحباً إلى حد مؤسف ، ولكن عينيه كانتا صافيتين ووجهه مشرق بالابتسامات حين رأى أباه . ركع سايمون على ركبتيه قرب السرير ، ولكن حين أراد أن يضم الصبي إلى صدره ، أمسكت كريستين بذراعه :

"كلا ، كلا يا سايمون ، إنه لا يزال عرقان والجو بارد هنا . . ." جذبت أغطية السرير من حول أندرس . "الأفضل أن تستلقي إلى جواره . . .ثم سنرسل امرأة إلى هنا لتراقبه . سأذهب الآن إلى القاعة لأنام إلى جوار رامبورغ . . ."

زحف سايمون من تحت الأغطية . كان هناك تجويف دافئ حيث كانت هي قد اضطجعت ، ورائحة شعرها الحلوة على الوسادة . أنّ سايمون برقة شديدة مرة واحدة . . .ثم ضم ابنه الصغير إليه وضغط برأسه على رأس الطفل الناعم الرطب . كان نحيلاً جداً الآن ، لا شيء هناك يضمه بين ذراعيه ، هكذا كان أندرس ، ولكنه تمدد هناك بسعادة كافية ، وهو يقول كلمة صغيرة بين الحين والآخر .

ثم راح يداعب أباه ويعبث في فتحة قميصه ، ثم دس يده الندية الصغيرة في صدر الرجل وجذب التميمة :

قال بسعادة "الديك ، هاهو . . . "

•

في اليوم الذي استعدت فيه كريستين للذهاب إلى بيتها ، وصل سايمون إليها وهي في مبنى النساء وسلّمها صندوقاً خشبياً صغيراً :

"ظننت أنك كنت تريدين الحصول على هذا . . ."

وعرفت كريستين من الخشب المنحوت أنه كان من صنع أبيها . في داخله كان مشبك صغير ذهبي مرصع بخمس زمردات وملفوف بجلد قفازات . ميزته

على الفور . . . كان من عادة لافرانس أن يضعه في عصابة معصمه في المناسبات الخاصة حين يرتدي أفضل ملابسه .

شكرت سايمون ، ولكن وجهها تضرج خجلاً وقد خطر لها فجأة أنها لم تر أباها قط يرتدي هذه الحلية بعد أن رجعت إلى البيت من الدير في أوسلو .

سألت : " متى أعطاك أبي هذه ؟" ثم ندمت على السؤال ما أن طرحته .

"حصلت عليه كهدية وداع وأنا عائد من الضيعة . . ."

"تبدو هذه لي على أنها هدية عظيمة جداً " ، قالت بصوت خفيض وعيناها تنظران أرضاً .

ضحك سايمون قليلاً وهو يجيب :

"ستكونين في حاجة إلى الكثير منها يا كريستين ، حين يأتي الأوان وتهدين أولادك هدايا الزفاف . . ."

نظرت كريستين إليه وقالت :

"تعرف جيداً يا سايمون . . .كيف أعتبر الأشياء التي آلت إليك منه . . .تعرف أني أعزّك وكأنك ابنه الحقيقي . . ."

"حقاً ؟" لمس خدها بخفة بظاهر يده ثم مررها على خدها باتجاه الأسفل ثم ابتسم ابتسامة صغيرة وهو يتكلم كطفل :

"أجل ، أجل يا كريستين ، لقد لاحظت ذلك . . ."

-٤-

في وقت لاحق من الخريف كانت لدى سايمون أندرسون مهمة أخذته إلى منزل أخيه في "دايفرين" . وبينما كان هناك جاءه خاطب يطلب يد ابنته آرنغييرد .

لم يتم الوصول إلى قرار نهائي ، وكان سايمون قلقاً وذا ذهن مشوش وهو في طريقه شمالاً . ربما كان عليه أن يبرم الصفقة ، فعندها تكون الفتاة قد استقرت جيداً وتخلص هو نفسه من كل الخوف على مستقبلها . ربما كان "غيرد" و"هيلغا" على حق . . .

فقد كان أمراً غير حكيم من قبله عدم اغتنام الفرصة وذلك حين حصل على عرض كذاك لأجل أبنته . . .

فقد كانت "آيكن" ضيعة أعظم من" فورمو" ، وكان "آسموند" يمتلك أكثر من ثلثها . وهو لم يفكر قط في أن يخطب لابنه فتاة من منزلة آرنغييرد ، فهي ذات ميلاد غير شرعي وليس لها أقارب من جانب أمها ، لولا أن سايمون خصص لها كبائنة ثلاثة "هيدات"من الأرض . كان عليهم أن يقترضوا الأموال من راهبات أوسلو ومن دايفرين ، حين كان على غرونده آسموندسون أن يدفع ديّة

لقاء القتل للمرة الثانية . كان غرونده شخصاً عنيفاً لا يمكن السيطرة عليه حين يكون ثملاً . . .ومع ذلك فقد كان من كل النواحي الأخرى شخصاً صالحاً ذا طبع جيد ، كما قال"غيرد" ، وكان أمراً مؤكداً أنه سيكون قابلاً لأن يدع زوجة طيبة وذكية ان توجّهه نحو طريق الصواب .

ولكن الأمر وما فيه كان هو أن غرونده لم يكن أصغر سناً من سايمون نفسه إلا بسنوات قليلة . وأن آرنغييرد كانت صغيرة السن . وما كان هناك ما يرضي أهل "آيكن" سوى إقامة حفل الزفاف في الربيع القادم . . .

كانت هناك ذكرى مؤلمة تتشبث بذهن سايمون . . .ولكنه لم يفكر فيها حين كان يستطيع ذلك . والآن ، بما أن قضية زواج آرنغييرد قد أثيرت ، فقد أطلت هذه الذكرى برأسها . لقد كان رجلاً تعيساً في ذلك الصباح حين استيقظ إلى جانب رامبورغ . لم يكن أكثر تهيجاً وشهوانية -دون شك- حين ذهب إلى فراش الزوجية من الحال التي يكون عليها العريس ليلة عرسه . . .رغم أن مشاهدته لكريستين بين رفيقات العروس قد جعلته في مزاج غريب وهائج . . .وكذلك مشاهدُته لإرلند ، عديله الجديد ، بين الرجال الذين رافقوه إلى العلية . ومع ذلك فإنه حين استيقظ في صباح اليوم التالي وكان مستلقياً ينظر إلى العروس التي كانت لا تزال نائمة إلى القرب منه ، فقد أحس بخجل مؤلم يمرّ في أعماق قلبه . . .كأنما هو قد أساء إلى طفلة صغيرة . . .

. . .رغم انه كان يعرف طوال الوقت انه كان قادراً على أن يوفر على نفسه كل هذا الأسى .

لقد ضحكت حين فتحت عينيها الواسعتين . "أنت ملكي الآن يا سايمون" . . .ضغطت بيديها على صدره ." أبي أبوك وأختي أختك" . . .وقد عرق من شدة الخوف ، فقد فكر كما يلي :ماذا لو أحست بقلبه في صدره وهو يجفل من كلماتها؟

وعدا ذلك كان هو سعيداً في زواجه . . .وكان متشبثاً به بقوة فقد كانت زوجته غنية ومن أسرة عريقة ، شابة ونضرة ، جميلة ولطيفة المعشر . ولقد ولدت له ابنة وابناً ، والرجل يقدر هذا تقديراً عالياً ، حين يعرف معنى أن يكون المرء غنياً إنما دون أطفال يحافظون على إرثه بعد أن يرحل الأبوان . طفلان . . .بمستقبل مضمون . . .وكان هو غنياً بما فيه الكفاية ليجد زوجاً ملائماً لأرنغييرد .

كان سيسعد لو رزق بابن ثان . . . أجل ما كان ليحزن لو أنه رزق بطفل آخر أو اثنين . ولكنه لاحظ أن رامبورغ كان سيسرها أن توفر هذه المشقة على نفسها . لذلك كان هذا من حسن الحظ أيضاً . وهو لم يكن قادراً على إنكار الأمر : فالمنزل سيكون في حال أفضل بكثير حين تكون رامبورغ في مزاج جيد . كان يتمنى لها بالفعل مزاجاً أفضل . لم يكن يعرف دائماً كيف هي الحال مع زوجته . ولم يكن من الخطأ أن تكون الأمور منظمة ضمن منزله ولكن لا يوجد رجل يستطيع أن يأمل بأن يكون كل شيء على ما يرام طوال الوقت . . . قال سايمون هذا لنفسه وكرره مراراً ، وهو في طريقه إلى بيته .

والآن كانت رامبورغ ستذهب إلى "كروكه" في الأسبوع السابق على قداس كلمنت (٢٣تشرين الثاني/نوفمبر) ، فقد كانت تنتعش دائماً حين تبتعد عن البيت بعض الوقت . . .

ولكن الرب كان يعرف كيف كانت الأمور ستجري هناك . . .في هذه المرة . كانت سيغريد تحمل طفلها الثامن الآن . . .وقد أصيب بالخوف حين زار أخته قبل فترة قصيرة وهو في طريقه إلى هنا . . .لم يبد عليها أنها تتمتع بالقوة على الاستمرار . . .

لقد منح أربع شموع سميكة لتوضع أمام صورة مريم العذراء العتيقة في "إيابو" . . .وكانت لها ميزة صنع العجائب النادرة كما يقول الناس . . .وقد تعهد بتقديم هدايا قيّمة لو خرجت سيغريد حية معافاة بعد هذه الولادة . فماذا سيحل بكل الأطفال لو توفيت أمهم وتركتهم . . .كلا . . . كان هذا أمراً يصعب قوله . . .

وكانا يعيشان في وئام سيغريد وغايرموند . لم يسبق لها أن سمعت كلمة غير لطيفة من زوجها ، كما قالت ، كما لم يسبق له أن تخلى عن شيء يمكنه أن يسبب لها السرور . وحين لاحظ أن سيغريد كانت تتأسى على الطفل الذي ولدته من غيافالد آرنسون ، فقد قام سايمون بإحضار الصبي حتى تراه أمه ويبقى إلى جوارها لبعض الوقت . ولكن الأسى والأمل المخدوع هو كل ما حصدته سيغريد من لقائها مع الفتى الصغير المدلل . وبعد ذلك تعلقت سيغريد أندرسداتر بزوجها والأطفال الذين ولدتهم له ، كما يتعلق خاطئ مريض مسكين بالكاهن والقربان المقدس .

لقد بدت سعيدة تماماً الآن نوعاً ما ، واستطاع سايمون فهم ذلك . . .فقد كان غايرموند نادراً بين الرجال في طيبته . وكان كلامه منغماً إلى حدّ أنه لو تكلم فحسب عن الحصان المصاب بمرض الحوافر والذي حاولوا غشه به ، لكان ذلك أقرب إلى الإصغاء إلى عزف القيثارة .

كان غايرموند قبيحاً عجيب الوجه ، ولكنه كان على الأقل ذا جسم وأطراف قوية وجميلة . وكان ماهراً في رمي السهام وصياداً نادر المثال ، ويتفوق على الجميع في كل أنواع الرياضة . ولكنه كان في الأعوام الثلاثة الماضية مقعداً ، منذ ذلك اليوم الذي وصل فيه زاحفاً عبر الوادي من رحلة صيد ، على يديه وركبة واحدة ، وهو يجر الساق الأخرى المحطمة من خلفه . والآن لا يستطيع عبور أرض الحجرة إلا بعكاز ، ولا يستطيع ركوب حصان ولا الزحف ولا تقديم يد المساعدة في أرجاء حقوله الجبلية شديدة الانحدار . كان سوء الطالع يلاحقه دائماً . وكان لهذا الرجل أساليبه الغريبة ، ولم يكن الرجل المناسب للعناية بمزرعته أو إدارة شؤون حياته . كان سهلاً على أي شخص أن يخدعه في معاملاته لو شاء ذلك . ولكنه كان ماهراً في استخدام يديه وعاملاً ماهراً في الخشب والحديد ، كما كان حكيماً ولطيفاً في الكلام . وحين كان هذا الرجل يضع القيثارة على ركبته ، كان قادراً على جعل الناس يضحكون أو يبكون كما يشاء وذلك بغنائه وعزفه . أجل ، كان ذلك أشبه بالإصغاء إلى الفارس الذي كان غايرموند يغني عنه ، والذي كان

بعزفه يجعل الأوراق تسقط عن أشجار الزيزفون والقرون عن رؤوس الحيوانات الحية .

ثم كان الأطفال يشاركون الأب غناءه ، الأطفال الأكبر سناً . . . وكان الإصغاء إليهم أجمل من سماع كل الأجراس تقرع في كنيسة هامار . كانت أصغر الأطفال سناً إلا واحداً واسمها "إنغا" قد تعلمت للتو المشي مستعينة بالمقعد ، ولم تكن تتكلم بعد ، ومع ذلك فهي تهمهم وتغني طوال النهار ، كان صوتها الصغير جميلاً وصافياً كجرس فضّي صغير . . .

كانوا يسكنون محتشدين معاً في منزل قديم صغير له غرفة موقد ، الزوج والزوجة والأطفال والخدم . أما العلية التي كان غايرموند يتكلم دائماً عن بنائها كل هذه السنوات فما كان يبدو عليه أنه سيشرع ببنائها . . . حتى أنه لم يبذل جهده لبناء حظيرة جديدة بدلاً من تلك التي احترقت قبل سنتين . إلا أن الوالدين ما كان قادرين على مفارقة أي من أولادهما العديدين . لقد عرض عليهما سايمون في كل مرة زارهما فيها في "كروكه" أن يأخذ بعض أولادهما ليطعمهم ، ولكن غايرموند وسيغريد شكراه ورفضا . . .

وعلى أي حال فربما كانت سيغريد هي الأفضل حالاً بين كل أخوته وأخواته ، كما كان سايمون يفكر أحياناً . صحيح أن غيرد قال إن أستريد كانت سعيدة تماماً مع زوجها الجديد ، حيث كانا يعيشان بعيداً في الجنوب في "رافيلكه" ، ولم يكن سايمون قد رآهما منذ زفافهما . ولكن أبناء تورغريم كانوا يتشاحنون كثيراً مع زوج أمهم ، كما قال غيرد . وكان غودموند سعيداً وراضياً تماماً . . .ولكن لو كانت هذه هي السعادة بالنسبة إلى رجل ، لاعتبر سايمون أنه ليس أمراً آثماً أن يشكر ربه لأن أباه لم يعش ليراها . . .فما أن توفي أندرس دار ، وحين بدا أن الوقت ملائم ، شرب غودموند نخب الزفاف مع الأرملة التي كان أبوه يرفض رفضاً باتاً زواجه منها . لقد اعتبر فارس "دايفرين" أنه إن لم تكن هناك

ثروة كبيرة وصلت إلى غيرد وإلى سايمون من زواجهما من فتاتين غنيتين وجميلتين ولهما محتد نبيل وسمعة نظيفة وهو الذي سعى إلى تدبير هذين الزواجين ، فإنه لن ينتظر غودموند سوى البؤس الكامل لو تركه أبوه يتزوج ذلك الزواج الخالي من الحكمة . كانت تورديس بيرغسداتر أكبر سناً بكثير من غودموند . كانت غنية لا مبالية ودون أولاد من زوجها الأول . ولكنها ولدت ابنة بعد ذلك حملت بها من أحد الكهنة في كنيسة في أوسلو ، ويقول الناس علاوة على ذلك إنها كانت تصادق رجالاً آخرين - وبينهم غودموند دار-حين تعرّف إليها غودموند لأول مرة . كانت قبيحة كمخلوق خرافي ، قذرة الفم وخشنة الكلام ، كما لاحظ سايمون ، إلا أنها كانت سريعة البديهة وذكية وذات فهم جيد وفكاهة . . .كان من شأنه أن يحب تورديس جيداً ، كما عرف ذلك . . .لولا أنها تزوجت من أخيه . ولكن غودموند كان يبدو سعيداً حتى أنه أصبح بديناً وثقيلاً شأن سايمون نفسه . . .ولم تكن تلك طبيعة عودموند . ففي شبابه كان رشيقاً ووسيماً . لقد أضحى كسولاً وبليداً إلى حد كبير حتى أن سايمون كان يشعر بالرغبة في ضربه في كل مرة يراه فيها . لقد أضحى غودموند عجلاً ذاهلاً إن أردنا الحقيقة . . .وقد كان من حسن الحظ أن أولاده ورثوا العقل من أمهم والمظهر من أبيهم . . .ولكن غودموند كان يكسب وزناً زائداً كل يوم . . .

لذلك لم يكن هناك من داع له أن يزعج نفسه بسبب أخيه هذا ولم تكن هناك حاجة أيضاً إلى أن يحزن على غيرد . . .ولكنه كان في كل مرة يذهب فيها إلى ضيعة أبيه ويرى حال الأمور هناك ، كان يتضايق كثيراً إلى حد أنه كان يغادرها بقلب مثقل بالألم . . .

كانت أحوالهم مزدهرة جداً . . .ألم يكن أخو زوجة أخيه ، أولف ساكسسون مقرباً من الملك الآن؟ . . .وقد جرّ غيرد أندرسون معه إلى حلقة الرجال الذين يمسكون بأيديهم معظم السلطة والأرباح في البلاد . ولكن سايمون كان يكره هذا

الرجل . . .وأحس أن غيرد لم يكن يحبه أيضاً . كان غيرد أوف دايفرين دون إرادة ودون إحساس بالسعادة يسير في الطريق الذي ترسمه له زوجته وأخوها . . .وذلك ليكسب بعض الهدوء والسلام في البيت .

كانت هلغا ساكسسداتر مخلوقاً خرافياً . . .ولكن الاحتمال الأكبر أن ابني غيرد هما اللذان يجعلانه يبدو منهكاً من الحزن في هذه الأيام . كان ساكسه ، الأكبر في السادسة عشرة من عمره الآن . . .وفي كل ليلة كان على خادم هذا الجرو أن يجره إلى الفراش جراً وقد تعتعه السكر . لقد سبق واستنزف عقله وصحته بالشراب . . .وربما سيسكر حتى الموت قبل أن يصبح رجلاً . ولن تكون خسارة كبيرة . . .فلقد اكتسب ساكسه لنفسه سمعة سيئة في الريف ، رغم يفاعته ، على أنه شخص فظّ متعجرف ، وكان هذا هو المدلّل لدى أمه . كان غيرد يحب الابن الأصغر "يون" ، أكثر من الجميع : صحيح أنه يتمتع بذهن كان من شأنه أن يجعله رجلاً مشرفاً لأسرته ،لولا أنه كان . . .أجل ، كان سيئ الحظ نوعاً ما ، فقد كان كتفاه مرتفعين وظهره معوج . كما كان يعاني من مرض في المعدة . . .فهو لم يكن قادراً على هضم سوى عصيدة الحليب وكعك الشعير .

●

من خلال حبه لأقربائه كان سايمون أندرسون يجد دائماً نوعاً من الملجأ السري حين تبدو حياته له . . .خالية من الانسجام ، أو أياً تكن العبارة التي تطلق على ذلك . وإذا لم يحدث ما يدعو للإخفاق فقد كان الأمر أقل تأثيراً عليه لو استطاع أن يستذكر حظوظ أخوته وأخواته ورفاههم . ولو كانت الأمور في دايفرين كما هي في أيام أبيه - حين كان يخيم السلام والرضا والرفاه على الضيعة - لكان من شأن ذلك أن يعني الكثير ، كما فكر سايمون ليخفف من قلقه الخفي . كأنما كانت جذور حياته متشابكة مع جذور حياة أقربائه ، وذلك في مكان عميق في الأرض المعتمة . كل ضربة تصيب واحداً منهم وكل مرض يمصّ نقي عظام

أي منهم ، كان يحس به الجميع .

كان الأمر على هذا النحو بكل تأكيد بينه وبين غيرد . لم يعرف إن كان غيرد يشعر بذلك أيضاً . . .

هذا الأخ الأكبر-وسيغريد- كانا الأعز عليه من الجميع . . .تذكر نفسه وهو في سن اليفاعة :كان يجلس ويحدق إلى أخته الصغرى فيشعر بالسعادة إلى حد أنه يحس بوجوب أن يفعل شيئاً للتعبير عن ذلك . لذلك كان يبدأ بإزعاجها ومضايقتها ويشدّد لهل ضفائرها ، ويقرصها من ذراعها ، فلم يكن يعرف أسلوباً آخر يعبّر فيه عن حبه دون أن يشعر بالخجل . كان لا بد من هذه المشاحنات بينهما ، وإلاّ لكان خجلاً إلى حد لا يستطيع معه أن يعطيها كل الطيبات التي كان يخبئها ، أو أن يجعل الفتاة الصغيرة تشاركه في ألعابه ، وذلك حين كان يبني الطواحين في الجدول والبيوت لها ، أو يصنع صفارات من خشب الصفصاف للفتيات في فصل الربيع . . .

كانت ذكرى اليوم الذي عرف فيه لأول مرة كل الحقيقة حول بلواها محفورة في ذاكرته كالوشم . وقد راح يراقب طوال الشتاء التالي سيغريد وهي تتأسى حتى الموت على خطيبها المتوفي . . .ولكنه لم يعد يرى المزيد . ثم جاء يوم من أيام الآحاد قبيل الربيع . . .وقف على الشرفة في ماندفيك ، وكان غاضباً لأن النساء تأخرن في القدوم . . .وهناك في الساحة كانت جياد مجهزة ومسرجة للكنيسة ، وكان الرجال قد انتظروا فترة طويلة . وأخيراً ثارت ثائرته ودخل إلى منزل النساء . كانت سيغريد لا تزال في الفراش . . .فسألها إن كانت مريضة . كانت زوجته جالسة على حافة السرير . . .مرّت رعشة على وجهها اللطيف الذاوي حين رفعت بصرها إليه :"إنها مريضة حقاً ، الطفلة المسكينة . . .ولكنها خائفة منك ومن كل أقربائها بالأحرى متسائلة كيف ستنظرون إلى الأمر . . ."

زعقت أخته عالياً ، ثم رمت بنفسها على حضن هالفريد ، وتشبثت بها ،

وشبكت ذراعيها النحيلين العاريين من حول زوجة أخيها . . . أثرت صيحتها في سايمون إلى حد كبير ، حتى أنه أحس بقلبه ينفطر . لقد تأثر كثيراً بحزنها وعارها إلى حد أنه لم يعد يحس بأي مشاعر . . . ثم جاء الخوف والتعرق . أبوهما . . . ما الذي سيفعله بسيغريد الآن . . .

كان خوفه كبيراً إلى حد أنه اندفع نحو بيته في "روماريكه" على طرقات غارقة في الوحل ، وقد بدأ الخادم الذي كان يرافقه ، دون أن يعرف شيئاً من المسألة ، بالتنكيت على اضطراره إلى الترجل مرات عدة . فرغم أنه كان رجلاً ناضجاً ومتزوجاً ، إلا أن الخوف كان قد تملكه بشدة بسبب لقائه المرتقب مع أبيه حتى أنه أصيب بالإسهال . . .

ولم يكن أبوه قد نطق بكلمة إلا بالكاد . . . ولكنه كان منكمشاً على نفسه . . . وكأنما ضربته صاعقة . وكان يحدث أحياناً أن سايمون ، حين كان ينام ، كان يرى كل ما جرى مجدداً فيعود ليستيقظ . كان والده جالساً يتأرجح ، يتأرجح ، ورأسه متكئ على صدره . كان غيرد واقفاً إلى القرب منه ويده على ذراع الكرسي العالي ، ويبدو أكثر شحوباً من عادته وعيناه مسبلتان . . .

"الحمد لله أنها لم تكن هنا حين اتضح الأمر . . . على الأقل إنه أمر جيد أنها معك ومع هالفريد . . ." قال غيرد حين تركا لوحدهما .

كانت تلك أول مرة يسمع فيها سايمون غيرد يقول مثل هذا الكلام الذي يفهم منه أنه لم يكن يضع زوجته في مصاف يعلو على كل النساء الأخريات . . .

ولكنه رأى . . . كيف بدا غيرد وهو يذوي ويهزل منذ اليوم الذي تزوج فيه هلغا ساكسسداتر .

منذ أن عقدت خطوبتهما . . . أضحت كلمات غيرد قليلة . . . ولكنه كلما رأى عروسه ، كان يشع فرحاً إلى حد أن سايمون تأثر إلى حد غريب عند رؤيته . وكان قد شاهد هيلغا منذ زمن طويل كما حكى غيرد لسايمون - ولكنه لم يكن قد

تبادل معها الكلام– ولم يكن يعتقد أن أهلها سيمنحونه عروساً بهذا الغنى والجمال . . .

كان سايمون قد أحس أن وسامة غيرد دار في شبابه شرف له . كان أشقر الشعر مع فتنة تخصه لوحده . . . كأنما كان على الجميع أن يرى الطيبة والذكاء والقلب الشجاع والنبيل كامنة في هذا الشاب الوسيم الهادئ . ثم تزوج غيرد من هلغا ساكسسداتر . . . وبدا أن تلك كانت نهايته . . .

كان دائم الصمت . ولكن الأخوين كانا معاً باستمرار ، وكان سايمون قادراً على التكلم عن كليهما . كان سايمون ذرب اللسان ويعد شاباً موهوباً يتقن كل الأمور . . . يتقن الشراب والقصف ، والصيد والسباق ، وكل أنواع رياضة الشباب . كان لسايمون العديد من الأصدقاء ، وكلهم عزيز عليه وقريب منه . كان أخوه الأكبر يصاحبه . . . كان يقول القليل ولكنه يبدو ذا قيمة على أي حال . . .

أما غيرد أندرسن فكان صامتاً كصندوق مقفل . . .

في الصيف الذي وصل فيه سايمون إلى البيت وحكى لأبيه أن كريستين لافرانسداتر وهو قد اتفقا على أن إلغاء الصفقة التي بينهما أمر ضروري . . . كان سايمون يعرف آنذاك أن غيرد قد خمّن معظم ما هو كامن وراء المسألة : أن سايمون يحب خطيبته ، وأن سبباً قوياً قد جعله يتخلى عن حقه فيها . . . وأن السبب كان من النوع الذي جعل سايمون مثقل القلب بالحزن والغضب . وبهدوء شديد أشار غيرد على أبيه أن يتخلى عن الأمر . ولكنه لم ينبس ببنت شفة أمام سايمون بما عرفه . وقد أحس سايمون أنه لو كان قد أحب أخاه أكثر من أي وقت مضى فذلك قد جرى الآن بسبب صمته .

•

سيكون سايمون سعيداً جيد المزاج وهو في طريقه شمالاً نحو بيته . في الطريق قام بمهمة زيارة بيوت أصدقائه على الطريق الممتدة على امتداد "ديل" ،

وذلك ليحمل إليهم تحياته وليتناول بعض الشراب . . . وكان أصدقائه يسرجون أحصنتهم ويرافقونه إلى الضيعة التالية حيث يسكن أصدقاؤهم . وكانت الرحلة جيدة وسهلة في هذا الطقس الصافي والجليدي . . .

أما المسافة الأخيرة فقد قطعها قي الغسق . كان مزاجه الجيد الناجم عن شرب الجعة قد زال كما كان رجاله شهوانيين وأصواتهم عالية . . . ولكن السيد بدا وكأنه استنفد الضحك والمزاح . . . لابدّ أنه متعب .

وهاهو قد وصل إلى بيته . راح أندرس يدرج خلف أبيه أنى وقف أو تحرك . أما أولفهيلد فتشبثت بحقائب السرج . . . هل جلب لها أي هدايا؟ حملت آرنغييرد إليه الجعة والطعام . جلست زوجته إلى جانبه وهو يأكل ، وثرثرت وسألته عن الأخبار . وحين ذهب الأطفال إلى الفراش ، وضع سايمون رامبورغ على ركبته ، وبينما كان يمسّد لها جسدها راح يحكي لها أخبار الأقرباء والأصدقاء .

كان أمراً مخجلاً يخلو من الرجولة لو أنه لم يشعر بالسعادة وهو الناجح في كل الأمور . . .

●

في اليوم التالي كان سايمون جالساً في قاعة سايموند حين دخلت آرنغييرد إليه وهي تحمل اللحم . ظن أنه لا بأس في أن يكلمها عن خطيبها وهما على انفراد ، وهكذا حكى لابنته عن حديثه مع جماعة "آيكن" .

أوه كلا ، ليست جميلة جداً ، هكذا فكر أبوها . . . رفع بصره إلى الفتاة الشابة وهي واقفه أمامه . كانت قصيرة وبدينة ولها وجه شاحب قصير خشن البشرة . أما شعرها الأصفر الرمادي فكان كثيفاً . وكان يتدلى على ظهرها في ضفيرتين كبيرتين ، ولكنه كان متناثراً فوق جبينها وفوق عينيها ، وكانت تدفعه إلى الخلف بيديها كإحدى عاداتها في كل لحظة .

قالت بهدوء بعد أن انتهت من الكلام : "فليكن الأمر كما تشاء يا أبي . "

"أجل ، أنت فتاة صالحة ، كما أعرف ، ولكن ما رأيك بذلك شخصياً ؟"

" كلا ، أنا لا رأي لي . عليك أن تحكم بدلا عني يا أبي العزيز . "

"الأمر وما فيه يا آرنغييرد أنه سيسرني كثيراً أن تبقي حرة بضع سنوات أخرى . . . حرة من حمل الأطفال ومشاغل المنزل وآلامه . . . أي كل ما يحدث للنساء حين يتزوجن في البداية . ولكني فكرت أنك قد تريدين منزلك الخاص بك وأن تكوني سيدة نفسك . . . ؟"

قالت الفتاة وهي تبتسم قليلاً : " لست في عجلة من أمري" .

"تعرفين أنك لو تزوجت في أيكن لكان أقرباؤك كلهم قريبين منك . . . يكون المرء دون سند لو كان دون أخ يقف من خلفه . . ." رأى شعاعاً صغيراً في عيني آرنغييرد وابتسامتها المختلسة . "أعني غيرد عمك" قال بسرعة وببعض الارتباك .

"أجل ، لقد عرفت جيداً أنك لم تكن تعني نسيبتي هيلغا . . ." وضحكا كلاهما .

شعر سايمون بالدفء يغمر قلبه . . . في شكره للرب ومريم العذراء ، وهالفريد التي سمحت له أن يحتفظ بابنته هذه ، وحين كان يصدف أن يضحكا معاً على هذا النحو ، هو وآرنغييرد ، لم يكن في حاجة إلى أي برهان آخر على أنها ابنته حقاً .

نهض ونفض بعض الدقيق الذي كان على كمه وسألها : "وماذا عن خاطب ودك . . . ما رأيك بالرجل ؟"

"أوه ، أودّه رغم القليل الذي رأيته منه . . . والأفضل ألاّ يصغي المرء إلى كل ما يقال ولكن عليك أن تحكم بدلاً عني في هذا الأمر يا أبي . . ."

"إذاً فليكن الأمر كما قلت . يستطيع آسموند وغرونده الانتظار قليلاً . . . فلنر إن كانا لا يزالان يحملان الرأي نفسه حين تصبحين أكبر سناً نوعاً ما . . . أما

فيما يخص البقية ، فأنت تعرفين يا ابنتي أنك تملكين حرية الاختيار بنفسك فيما يخص الرجل الذي ستتزوجينه ، طالما كان لديك الذكاء الكافي لتعرفي صالحك . ولا ينقصك الذكاء يا آرنغييرد ."

وضع ذراعيه من حولها . احمرّ وجهها حين قبّلها أبوها . . . وفكر سايمون أنه لم يقبلها منذ زمن بعيد . لم يكن هو على الأغلب رجلاً يخشى من مداعبة زوجته في نور النهار أو العبث مع أطفاله . ولكن كان الأمر دائماً أشبه باللعب . . . وآرنغييرد . . . لقد طرأ على فكره فجأة أن هذه الابنة الشابة هنا في فورمو كانت الشخص الوحيد الذي يكلمه جدياً بين الحين والآخر . . .

●

مضى وجذب السدادة من الشق في السور الجنوبي . عبر الثقب الصغير حدق عبر "الديل" .كانت هناك ريح جنوبية في الجو ، وإلى الأسفل ، حيث تتقابل الجبال كانت غيوم رمادية كبيرة تتدحرج . وحين اخترق شعاع من نور الشمس عبرها ، التمعت كل الألوان بغنى ووضوح . كان الطقس اللطيف قد أذاب الجليد الرمادي الشاحب . . . الأراضي المفلوحة بنية اللون وغابات التنوب سوداء زرقاء . . . وإلى الأعلى وبعيداً على امتداد جباه الجبال الخالية من الأشجار ، بدا اللون ذهبياً أصفر بعد أن كسته الطحالب والأشنات .

أحس سايمون وكأن هناك ميزة رائعة يكمن استمدادها من الريح الخريفية هناك والوميض المتقطع فوق الريف . لو كان المطر سيهطل بقوة في عيد جميع القديسين فإن الجداول قد يكون فيها ماء كاف للطواحين ، على الأقل في عيد الميلاد : وسيكون أمراً يستحق إرسال الرجال إلى الجبال لجمع الطحالب . ولكن الخريف كان حتى الآن جافاً جداً . . . ونهر "لاغن" يجري منكمشاً وصغيراً بين تعرجات من الحصى الأصفر والحجارة البيضاء .

هنا ، شمال الأبرشية ، كانت الطواحين موجودة فقط في يوروندغارد ومزرعة

الكاهن . كان يكره أن يطلب الإذن بالطحن في يورونـدغارد لولا أن كل الأبرشية كانت تذهب إلى هناك بقمحها . أما سيرا آيريك فكان من يقبض أجرة الطحن . وقد ظن الناس علاوة على ذلك أنه يعرف جيداً القمح الذي في حوزتهم . . . كان شديد الطمع في أعشارهم . ولكن لافرانس كان يدع الناس دائماً يطحنون قمحهم مجاناً وكريستين ستفعل كما كان يفعل . . .

إن أقل تفكير فيها يجعله يشعر برجفة وغثيان في قلبه . . .

وقد كان من عادته في اليوم السابق على "عيد قداس سايمون وجود" أن يذهب إلى الاعتراف . كان يريد أن يحادث نفسه وأن يصوم ويصلي ، لذلك جلس هناك في قاعة سايموند اليوم بينما كان خدم المنزل يدرسون القمح في مخزن القمح .

لم يستغرق تذكره لخطاياه الكثير من الوقت . . . لقد مارس الشتم ، وحكى حكايات لا تصدق لأشخاص سألوا عن أمور لا تهمهم ، وكان هناك حيوان الرنة الذي اصطاده بعد فترة من رؤيته لشمس اليوم المقدس ، كما مارس الصيد صباح الأحد بينما كان الناس في الأبرشية يحضرون القداس . . .

أما ما حدث مؤخراً خلال مرض الصبي فلم يكن ليذكره أو يجرؤ على ذكره . ولكنها كانت المرة الأولى في حياته التي أبقى فيها خطيئة طيّ الكتمان عن كاهن أبرشيته . لقد فكر ملياً في الأمر ، وكان هذا يثقل على قلبه . لابد أنها خطيئة قاتلة . . . سواء مارس هو السحر أو أغوى غيره على ممارسته . . .

كما أنه لم يجد في قلبه دافعاً يدفعه إلى الندم . . . فلولا ذلك لكان ابنه الآن تحت التراب . ولكنه كان طوال الوقت حزيناً وخائفاً . . . ويختلس النظر إلى الصبي ليرى إن طرأت عليه أي تغيرات منذ تلك الليلة . ولم يعتبر أنه استطاع أن يرى أي شيء . . .

كان يعرف أن ذلك يحدث للكثير من الطيور والحيوانات البرية . . . لو لمست

يد إنسان بيوضها أوصغارها ، فإن الأبوين لا يعودان يهتمان بها ، بل يبتعدان عن صغارهما . فالإنسان الذي أسبغ الله عليه نور العقل لا يستطيع أن يفعل الشيء نفسه . . . فقد أصبح الآن غير قادر حين يمسك بالطفل بين ذراعيه أن يدعه يفلت منه لأنه أصبح شديد الخوف على أندرس . ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يفهم كيف أن الأشخاص القساة الهمجيين الذين لا يعملون تفكيرهم يكرهون أولادهم ما أن "يُلمسوا" . وقد شعر هو أيضاً وكأن طفله كان قد تلوث نوعاً ما . . .

ومع ذلك فهو غير نادم . . . وهو لم يكن يتمنى لو أن ذاك الشيء لم يحدث . ولكنه تمنى لو كان من فعل ذلك امرأة أخرى غير كريستين . . . كان أمراً صعباً عليه من كل النواحي أن يكون هؤلاء الناس يعيشون في الأبرشية . . .

. . . دخلت آرنغييرد لتسأله عن أحد المفاتيح . لا تعتقد رامبورغ أنها استردته منذ أن استخدمه زوجها .

كانت إدارة المنزل في ضيعته تتراجع كل يوم . . . تذكر سايمون أنه أعاد المفتاح إلى زوجته ، وكان ذلك قبل أن ينطلق جنوباً أيضاً . . . "أجل ، إذاً سأجده حتماً" قالت آرنغييرد .

كانت لها ابتسامة جميلة - وعينان حكيمتان -ولم تكن قبيحة إطلاقاً كما فكر . كان شعرها جميلاً ، وحين كانت تتركه مسدلاً في الأيام المقدسة والأعياد فهو كثيف ولامع .

كانت ابنة إرلند غير الشرعية جميلة بما فيه الكفاية . . . ولم تكن نتيجة ذلك سوى الحظ العاثر . . .

ولكن إرلند رزق بتلك الفتاة من معاشرة امرأة جميلة من عائلة جيدة . لكأن إرلند لم يكن من النوع الذي قد يهتم بفتاة شأن أم آرنغييرد . كان يتصرف بعنجهية في هذه الدنيا كلها . . . وحيث يمضي كانت النساء والعذارى الفخورات الجميلات يقفن في الصف ليعرضن عليه الحب والمغامرة . . .

كانت هذه خطيئته الوحيدة من ذلك النوع - أعماله العبثية الصبيانية وهو في قصر الملك غير محسوبة - فالمزيد من اللطف فيما يتعلق بتلك الخطيئة لم يكن أمراً في غير مكانه ، لو كان عليه فعلاً أن يخطىء في حق زوجه الطيبة النبيلة . لكأنه لم ينظر كثيراً إلى المرأة المسماة "يورون" . . . وهو لم يكن قادراً على أن يتذكر كيف أنه كان أول من عاملها بحرية . كان في الخارج في ذلك الشتاء ويمارس اللهو مع الأصدقاء والمعارف ، وحين عاد إلى ضيعة زوجته ، كانت الفتاة تلك تجلس هناك لتضمن أن يذهب معها إلى الفراش دون إحراق المكان .

لم تكن تلك المغامرة أروع من ذلك .

إنه لم يستحق أن تكون الطفلة واعدة إلى هذا الحد وأن تجلب له كل هذه السعادة . . . ولكن ليس عليه أن يفكر في مثل هذه الأفكار الآن . . . عليه أن يفكر في اعترافه . . .

●

حين اتخذ سايمون طريقه نحو البيت من رومونذغارد في الغسق ، كان مطر ناعم قد أخذ بالهطول . سار على نحو مائل عبر الحقول . في آخر ومضات باهتة لنور النهار كانت الخزامى تلتمع شاحبة ورطبة . عند جدار الحمام القديم كان شيء صغير وأبيض يلتمع على المنحدر . مضى سايمون إلى هناك وألقى نظرة . كانت تلك شظايا الوعاء الفرنسي الذي انكسر في ذلك اليوم من أيام الربيع . . . كان الأطفال قد نصبوا المائدة على لوح موضوع على حجرين . مدّ سايمون فأسه وجعل كل شيء يهوي إلى الضفة . كان غاضباً من نفسه في اللحظة التالية . ولكنه لم يكترث حين تذكر تلك الأمسية .

وحتى يعوض عن عدم الاعتراف بخطيئته ، فقد ذكر هذه الأحلام لسيرا آيريك . أجل ، ولأنه شعر بالحاجة لأن يفرّج عن قلبه . وقف مستعداً للذهاب حين خطر له فجأة أن عليه أن يتحدث عن هذا الأمر . وكان هذا الكاهن العجوز

نصف الأعمى أباه الروحي هذه السنوات الاثنتي عشرة ونيّف . . .

لذلك عاد وركع مجدداً عند ركبتي سيرا آيريك .

جلس الكاهن دون حراك حتى قال سايمون ما يريد قوله ثم تكلم - جاء صوته القوي عجوزاً ومحجوباً الآن عن الغسق الأبدي . . . لم تكن تلك خطيئة . على كل عضو قديم في الكنيسة أن يختبر نفسه في المعركة مع العدو . لذلك فإن الرب سمح للشيطان أن يزعج رجلاً ذا إغواءات عديدة طالما لم يلق الرجل بأسلحته - طالما أنه لم يتخل عن راية ربه ، ولا استسلم وهو مفتوح العينين وليس في السر إلى العدو ، إلى رؤى تحاول روح نجسة أن تخدعه بها . . . طالما لم تكن هذه التحريضات خطيئة . . .

"كلا !" كان سايمون خجلاً من صوته .

.لم يستسلم قط . كانت تعذبه وتعذبه وتعذبه . حين استيقظ ، وبعد أن حلم كل هذه الأحلام المترعة بالخطيئة أحس بنفسه وكأنه أوذي وهو نائم .

●

كان حصانان غريبان مربوطين إلى الحاجز حين دخل إلى الباحة :"سوتن " حصان إرلند نيكولاوسون وحصان ركوب كريستين . صرخ على السائس سائلاً عن السبب في عدم إدخالهما إلى الاصطبل؟ لقد قال الغريبان إنه ليس ضرورياً كما أجب السائس بتجهم .كان هذا الشاب قد دخل مؤخرا في خدمة سايمون بعد عودة هذا إلى بيته ، وكان قد خدم في دايفرين سابقاً . هناك كان على كل الأمور أن تسير بأسلوب الفرسان . وكان لهلغا يد في ذلك . ولكن لو اعتبر سيغورد الفظ ذاك - أنه بسبب كون سايمون من النوع الذي يحادث خدمه بمرح ويمازحهم ، ويتحمل أحياناً جواباً وقحاً من أحدهم- فهنا في فورمو يمكن لأي شخص أن يرد على سيد المنزل كما يشاء ، ولا بد أن الشيطان كامن وراء ذلك . كان سايمون قد بدأ يقرّع الرجل بشدة ، إلا أنه توقف عن ذلك . أولم يحضر الآن لتوه من الاعتراف؟ سيكون على "يون دالك" أن يتعامل مع هذا القادم الجديد ويعلمه أن

التربية الريفية الجيدة ليست أقل قدراً من الأساليب الراقية المتبعة في دايفرين . . .

لذلك فإنه سأل فحسب وبرقة إن كان سيغورد قد خرج من الجبل هذا العام ، ثم أمره أن يضع الحصانين في الإسطبل . ولكنه كان غاضباً .

●

كان أول ما رأته عيناه وهو يدخل القاعة وجه إرلند الضاحك . . .النور من الشمعة الموضوعة على المائدة كان يسقط مباشرة عليه ، حيث كان جالساً على المقعد الطويل وهو يبعد عنه أولفهيلد التي كانت تركع إلى القرب منه محاولة أن تخرمشه أو شيئاً من هذا القبيل . . .كانت قد وجهت أظافرها نحو وجه الرجل وهي تضحك حتى أصيبت بالفواق . . .قفز إرلند وكان يريد إبعاد الطفلة عنه ، ولكنها تشبثت بكم معطفه وتعلقت بذراعه وهو يسير مستقيماً خفيف القدمين نحو عديله ليحّييه . كانت ما تزال مستثارة من شيء ما : لم يستطع إرلند وسايمون الكلام إلا بصعوبة .

أمرها أبوه بالصمت بقسوة نوعاً ما ، وأن ترافق الخادمات إلى المطبخ . . .كن قد انتهين للتو من ترتيب المائدة . وحين ردت عليه الفتاة الصغيرة ، فقد أمسك بها من ذراعها وجذبها بعيداً عن إرلند .

" هيا إذاً . . . " أخذ إرلند كتلة من الزبيب من فمه وحشاها في فم الطفلة ." خذيها يا أولفهيلد ، يا ذات الوجنتين الزهريتين . ابنتك تلك يا عديلي " ، قال وهو يضحك ويتابع الطفلة بنظره " لن تكون مطيعة كأرنغييرد ."

لم يكن سايمون قادراً على منع نفسه من أن يحكي لزوجته عن قبول أرنغييرد لعرض الزواج . ولكن لم يكن في نيته أن يذكر الأمر أمام جماعة يورروندغارد . لم يكن ذلك دأب رامبورغ أيضاً . . .كان يعرف أنها لا تحب إرلند

كثيراً . لم يعجبه الأمر . . . لم يعجبه أن تتحدث رامبورغ عن هذه القضية ، ولم يعجبه أن تكون هي شديدة القلق ولا أن تكون أولفهيلد رغم كونها طفلة صغيرة ، شديدة التعلق بإرلند . . .شأن معظم النساء . . .

اتجه نحو كريستين وحيّاها . كانت تجلس في الزاوية قرب الموقد ، وأندرس في حضنها . كان الصبي قد أصبح متعلقاً بخالته منذ أن مرّضته في الخريف في فترة نقاهته بعد مرضه .

عرف سايمون أن لدى الزوجين مهمة له دون شك حتى يصل إرلند على هذا النحو . لم تكن من عادته القدوم إلى فورمو . لم يكن سايمون قادرا سوى على التفكير في أن إرلند قد ورط نفسه في مشكلة ليست بالسهلة . . .والحال على ما هي عليه بين العديلين . كان إرلند يبعد نفسه عن عديله بقدر ما يستطيع ، إلا أنهما كانا يتقابلان بقدر ما كان مطلوباً ، حتى لا يسري حديث عن انعدام الود بين القريبين في الريف . وحين كانا يتقابلان كانا أفضل صديقين . كان إرلند هادئاً ، وكان إرلند متحفظاً حين يكونان معاً ، ومع ذلك كان تصرفه حراً غير خجول .

بعد رفع الطعام عن المائدة ووضع الجعة ، تكلم إرلند :

"أعتقد أنك تتساءل عن سبب قدومنا يا سايمون . . .نحن هنا لندعوك أنت ورامبورغ إلى وليمة شرب جعة الزفاف معنا . . ."

"لاشك أنك تمزح ؟لا أعرف في ضيعتكم أحداً بلغ سنّ الزواج؟"

"إن الأمر يتعلق برجل يا عديلي . إنه أولف هالدورسون . . ."

ضرب سايمون على فخذه بقوة :

"كلا ، والآن سأسمع تالياً أن ثوري الفلاحة اللذين أملكهما سيلدان عجولاً في عيد الميلاد" .

" إياك أن تسمي أولف ثور فلاحة" ، قال إرلند ضاحكاً . يبدو أن الشر كامن في أن الرجل كان دائماً تواقاً إلى ذلك . . ."

صفّر سايمون بينما ضحك إرلند مجدداً وقال : " أجل ، يمكنك أن تصدق أني لم أثق بأذنيّ حين وصل اليوم أولاد هربراند من ميدالهايم ، وطالبوا بأن يتزوج أولف من أختهم ."

"هربراند رمبا . . .؟ ولكنهم مجرد فتيان . . .لا يمكن أن تكون أختهم في عمر أولف؟"

" عمرها عشرون عاماً . وأولف أقرب إلى الخمسين . أجل ." أصبح إرلند جدياً . " أنت تفهم يا سايمون . . . لا بد أنهم يعرفون أن يارترود ليست كبيرة الحظ في الزواج . ولكن الزواج منه يعتبر الاختيار الأفضل بين خيارين سيئين . رغم أن أولف ابن فارس وغني . . . فليس عليه أن يبحث عن لقمة عيشه في منزل رجل آخر . ولكنه جاء معنا إذ يفضل السكن معنا نحن أقرباءه ، على أن يسكن في مزرعته في سكاون . . .بعد كل ما حدث . . ."

صمت إرلند قليلاً . بدا وجهه رقيقاً وجذاباً . ثم تكلم مجدداً :

" كريستين وأنا مصممان على إقامة هذا الزفاف وكأنه لأخينا . وسأذهب مع أولف جنوباً إلى ميدالهايم ، كما تعرف . والآن أفكر في الحصول على معروف منك يا عديلي . . . أعرف أني مدين لك بالكثير على نحو مسبق يا سايمون . ولكن أولف ليس محبوباً في هذا الريف . وأنت ذو مقام سام لدى الناس هنا حتى أن أندادك نادرون . . . بينما أنا . . ." هزّ كتفيه وضحك قليلاً . " هل لك أن تؤدي لنا هذه المعروف يا سايمون : أن تركب معنا وتكون ناطقاً باسم أولف . . . فهو وأنا صديقين منذ أن كنا صبيين صغيرين ،" قال إرلند بتوسل .

" سأفعل ذلك يا أخي !" كان وجه سايمون قد تضرج من كلام إرلند الصريح فأحس بالخجل والشفقة . " كل ما أستطيع فعله لأجل أولف هالدرسون سأفعله عن طيبة خاطر ."

كانت كريستين لا تزال جالسة في الزاوية مع أندرس . . .وكان الصبي يريد من خالته أن تخلع عنه ثيابه . وهاهي قد اقتربت من النور والطفل نصف عار على ذراعها وقد تشبث بها من عنقها .

"هذا لطف منك يا سايمون!" قالت كريستين بصوت خفيض وهي تمد يدها ."ونشكرك على ذلك كلنا . . ."

أمسك سايمون يدها بلين برهة قصيرة :

" كلا يا كريستين ، لطالما أحببت أولف . . . تأكدي أني أفعل هذا بسعادة . . ." مد يديه ليتناول ابنه ، ولكن أندرس تظاهر بالخجل ، ورفس أباه بقدمه الصغيرة العارية ، ضاحكاً ومتشبثاً بالمرأة .

أصغى سايمون إلى الاثنين وهو جالس يحادث إرلند عن شؤون أولف المالية . كانت قد اعترت الصبي نوبة من الضحك طوال الوقت . . .كانت تعرف الكثير من الأغاني الصغيرة وترانيم المهد ، وكانت تضحك معه وتهدل له برقة . ومرة ، حين نظر باتجاههما ، كانت قد ثنت أصابعها على شكل سلم ملتف ، وكانت أصابع أندرس أشخاص يتسلقانه . وأخيراً وضعته في مهده وجلست إلى القرب من رامبورغ . ثرثرت الأختان معاً وراحتا تتهامسان . . .

•

كان الأمر صحيحاً حقاً ، كما فكر حين اضطجع ذلك المساء . . .لقد أحب أولف هالدورسون على الدوام . منذ ذلك الشتاء في أوسلو حين كافحا معاً ليساعدا كريستين ، فقد شعر نوعاً ما أنه مرتبط مع ذلك الرجل بعرى الصداقة . لم يخطر في باله قط سوى أن أولف كان نداً له . . .ابن رجل عظيم . وأنه لم يكن يتمتع بوضع شرعي بين أسرة أبيه لأنه ولد من علاقة زنا وهذا ما كان يجعل سايمون أكثر انتباهاً في معاملته لأولف . . .ففي مكان ما عميق في قلبه كانت هناك صلاة لأجل صالح آرنغييرد ورفاهها . وإلا لما كانت له مصلحة في أن يتورط

في هذه المسألة ، فهذا رجل كهل سيتزوج من فتاة شابة . أجل ، حسناً ، لو كانت يارترود هربانسداتر قد أخطأت حين كانت في الاجتماع في الصيف الماضي ، فهذا لا يهمه . . .لم يكن من أقرباء هؤلاء الناس وأولف كان قريباً لحّاً لعديله .

ودون أن يطلب منها عرضت رامبورغ أن تساعد كريستين وأن تساهم في وليمة الزفاف . وقد اعتبر هذا التصرف كريماً منها . كان من دأب رامبورغ أن تظهر حسن التصرف الذي يليق بمنشئها . أجل ، حقاً! كانت رامبورغ لطيفة وكريمة . . .

- ٥ -

في اليوم اللاحق على عيد قداس كاترين أقام إرلند حفل زفاف قريبه بكل فخامة واعتزاز . اجتمع كثير من كبار القوم . . . وقد اهتم سايمون دار بذلك . كان له ولزوجته أصدقاء كثيرون في الأبرشيات المجاورة . وقد حضر كلا كاهني كنيسة أولاف ، كما بارك سيرا آيريك المنزل والسرير . . .وقد اعتبر هذا شرفاً لأن سيرا آيريك كان لا يتلو القداس الآن إلا في الأعياد المقدسة ، ويقدم الخدمات الروحية فقط لأولئك الذين كانوا يعترفون له منذ سنوات كثيرة . قرأ سايمون الصك المتعلق بهدية أولف الإضافية وهدية الصباحية للعروس . وتكلم إرلند بودّ مع قريبه عبر المائدة . وقامت رامبورغ لافرانسداتر مع أختها بدور المضيفة في الوليمة وساعدت العروس على خلع ملابسها في العلية .

ولكنه لم يكن حفل زفاف بهيجاً . فقد كانت العروس تنتمي إلى سلالة عريقة من مرشحي الفرسان في" ديل" ، ولم تعتبر أسرتها ولا جيرانها أنها قد تزوجت من الشخص المناسب لأن العريس غريب عن هذا الريف ، وكان يعمل في خدمة رجل آخر وإن يكن قريباً له . كما لم يكن في مولد أولف- وهو ابن لرجل غني وفارس ولكن أمه خادمة - ولا في قرابته لإرلند نيكولاوسون ما يعتبره آل هربراندسون شرفاً عظيماً لهم . . .

كما لم يبد أن العروس كانت مسرورة جداً بما أوصلته إليها المقادير . وقد بدا على كريستين الإحباط الشديد حين فاتحت سايمون بالأمر . . .فقد كان في مهمة إلى يوروندغارد بعد أسابيع قليلة من الزفاف . كانت يارترود تلح على زوجها بأن ينتقلا إلى ضيعته في سكاون . . . وقد قالت تحت سمع كريستين وهي تبكي بحرارة إنها ستعتبر أن أسوأ ما يمكن أن يحلّ بها هو أن يشار إلى ولدها مستقبلاً بأنه ابن خادم . لم يرد أولف على ذلك بشيء . كان العروسان يقطنان في المبنى المسمى منزل الوكيل منذ أن سكن فيه يون آينارسون قبل أن يشتري لافرانس كل أرض لاوغاربرو ويجعله ينتقل إليه . ولكن هذا الاسم لم يرق ليارترود . . .وكانت غاضبة لأن عليها أن تحتفظ ببقراتها في حظيرة كريستين . . .فكانت تخشى على ما يبدو أن الناس قد يحسبونها خادمة كريستين . وقد اعتبرت السيدة هذه المسألة معقولة . . .لا بدّ من بناء حظيرة لمنزل الوكيل إن كان من شأن ذلك ألاّ يجعل أولف يرحل إلى سكاون مع زوجته . وربما كان ذلك هو الحل الأفضل . . .لم يعد شاباً ، لذلك سيجد من الصعب عليه تغيير طريقة حياته . وربما سيكون الأمر أسهل عليه في مكان جديد . . .

وقد رأى سايمون أنها على حق في هذا . فقد كان أولف غير محبوب في الريف ، ولم يكن هو يخفي احتقاره لـ "ديل" وكل أساليبها . لقد كان مزارعاً جيداً دؤوباً ، إلا أن هناك أموراً كثيرة في هذا الجزء من البلاد لم يكن هو ماهراً فيها : فقد كان يربي من القطعان في الخريف أكثر مما يستطيع إطعامه خلال الشتاء . . .وحين كانت الحيوانات تسقط ميتة ، أوحين كان يضطر في الربيع إلى قتل ما تبقى من الحيوانات نصف الميتة من الجوع ، فقد كان يغضب ، وكان يضع اللوم على عدم خبرته في أساليب الزراعة في هذا الريف حيث على الناس أن يبدؤوا منذ عيد قداس بولص (٥١ كانون الثاني/يناير) بتقشير لحاء الشجر لإطعام حيواناتهم .

وكان هناك أمر آخر : في تروندهايم كانت العادة الجارية بين الإقطاعي والمزارع المستأجر هو أن يأخذ الإقطاعي مقابل الإيجار البضائع التي هو بحاجة إليها كالتبن والجلود والجريش والزبدة أو الصوف حتى لو كان اتفق معه عند إبرام عقد الإيجار على سلعة خاصة أو مبلغ من المال . وعلاوة على ذلك ، فقد كان الإقطاعي أو وكلاؤه هم من يحدد قيمة البضاعة التي تدفع مقابل الإيجار ، وذلك حسب ما يرونه مناسباً لهم . ولكن حين وصل أولف ليعامل مستأجري كريستين بهذه الطريقة ، سمى الناس هذه الطريقة بالاعتباطية وغير القانونية إلى حد كبير -وقد كانت كذلك حقاً-وقد تشكى المزارعون المستأجرون للسيدة . وقد طلبت كريستين من أولف أن يتصرف على النحو الصحيح ما أن سمعت بالقصة ، ولكن سايمون كان يعرف جيداً أن الناس كانوا لا يلومون أولف وحده ، بل يلومون أيضاً كريستين لافرانسداتر . كان قد كافح لتوضيح الأمر كلما أُثيرت القضية ، قائلاً إن السيدة لم تكن تعرف شيئاً عن مطالبات أولف ، وأنه في المنطقة التي جاء منها ذلك الرجل كانت هذه الأمور متعارفاً عليها . ولكن سايمون كان يخشى ألاّ يفيد هذا كثيراً . . . رغم أنه لم يناقضه أحد وجهاً لوجه .

لذلك فإنه لم يكن يعرف إلا بالكاد إن كان عليه أن يتمنى أن يبقى أولف أو يرحل . كيف ستجري أمورها دون هذا المساعد القوي والمخلص : أمر لم يستطع أن يفكر فيه . كان إرلند غير جدير بتوجيه أمور المزرعة ، وكان أبناؤهما صغاراً بعد . ولكن أولف كان قد أثار حفيظة وسكان الأبرشية . . .والآن فوق هذا كله فقد أساء إلى عذراء شابة ذات منشأ محترم وغني هنا في "ديل" . ومع ذلك ، فالله يعرف أن على كريستين أن تعمل بكد حتى والحال على ما هي عليه الآن . . .

ومن ناحية أخرى كان سكان يوروندغارد غير مرتاحين هنا . فلم يكن إرلند محبوباً أكثر من أولف في هذا المكان . فقد أثار مساعد إرلند وقريبه حفيظة الناس بأساليبه المتعجرفة ، كما كان من شأن تساهل

السيد وكسله أن يكونا أكثر مدعاة للغضب . لا شك أنه لم يكن قد خطر لإرلند نيكولاوسون أنه كان يثير الناس ضده . . . لم يكن يبدو عليه أنه يفكر سوى أنه كان -سواء غنياً أو فقيراً- ما كان عليه فحسب ، ولم يكن يحلم أنه لأجل ذلك يمكن أن يدعوه شخص بالمتعجرف . لقد خطط لإثارة تمرد ضد الملك - وهو شخصياً من أقارب وتابعي الملك ماغنوس وكان قد أقسم يمين الولاء له- وهذه الخطط لم تصل إلى نتيجة بسبب حماقته وطيشه . . .ومع ذلك لم يبد أنه قد فكر قط أنه من وجهة نظر أي شخص ، وبسبب هذه الأمور ، فقد يطلق عليه لقب "شرير" ، هذا ولم يلاحظ سايمون أن إرلند فكر في ذلك إطلاقاً . . .

لم يكن من السهل فهمه :حين يجلس المرء ليحادثه ، فقد كان بعيداً عن أن يكون خالياً من الحكمة ، هكذا فكر سايمون . ولكن كأنما لم يكن يخطر في باله أن يأخذ جدياً بالأمور الحكيمة والقيّمة التي كان يتلفظ بها غالباً . كما لم يكن ممكناً أن نتذكر أن هذا الرجل سيكون عجوزاً عما قريب . . .وكان من شأنه أن يكون له أحفاد كبار الآن . وحين يلاحظه المرء عن كثب ، فقد كان واضحاً أن وجهه قد حفرته التجاعيد كما كان شعره قد وخطه الشيب . . .ومع ذلك فقد كان هو ونيكولاوس أقرب إلى أن يكونا أخوين من أن يكونا أباً وأبناً . كان مستقيم القد ورشيقاً كما كان حين شاهده سايمون لأول مرة ، كما كان صوته شاباً ومتناغماً . كان يتصرف بين الناس بحرية وثقة بالنفس كما كان شأنه دائماً ، مع تلك اللفتة الكسولة في حركاته . مع الغرباء كان يحافظ على الهدوء والاستكانة . . .كان يترك الآخرين يأتون إليه ولا ينشد صحبة الآخرين ، سواء كان ذلك في السراء أو في الضراء . ولكن لم يكن إرلند يلاحظ أنه لم يعد هناك من ينشد رفقته . كما أن عصبة المرشحين لرتبة فارس وملاك الأراضي الكبار في كل أرجاء "ديل" ، والتي كانت متحالفة على نحو وثيق بالزواج وبالصداقة ، كانت غاضبة من هذا

الزعيم القادم من تروندهايم والذي رماه سوء الحظ بينهم ، وكان لا يزال يعتبر نفسه أرقى مرتبة منهم من حيث نسبه وسلوكه بحيث أنه لن يسعى إلى أن ينشد صحبتهم .

ولكن الحقيقة أن ما أساء إلى سمعة إرلند نيكولاوسون كان أنه جرّ معه رجال "سوندبو" إلى سوء الحظ ، فقد كان غوتورم وبورغار تروندسون مدانين بالخروج عن القانون في النرويج وكانت حصصهما في ضياع غيبسلينغ العظيمة وكذلك حصتهما البالغة نصف الأملاك قد صودرت من قبل التاج . كان على إيفار أوف سوندبو أن يشتري العفو من الملك ماغنوس . وحين أعطى الملك الآن الضيع المصادرة-ليس دون ثمن كما يقول الناس- إلى السير سيغورد إرلندسون إلدريان ، فإن إيفار وهافارد ، أصغر أبناء تروند اللذين لم يكونا يعرفان بخيانة أخيه ، قد باعا حصصهما في ضيع "فاغه" إلى السير سيغورد الذي كان قريبهما وقريب بنتي لافرانس : فقد كانت أمه غودرون إيفارسداتر أختاً لتروند غيبسلنغ وراغنفريد أوف يوروندغارد . وقد انتقل إيفار غيبسلنغ إلى رنغهايم في توتن ، وهي ضيعة امتلكها مع زوجته . وكان من المحتمل أن يجد أولاده بيتاً لهم هناك حيث أقارب أمهم وأراضيها الإرثية . كان هافارد لازال يملك الكثير من الأراضي ، ولكن كان معظمها في فالدرس، والآن وبسبب الزواج كانت ضيع عظيمة في بورغسيسل قد أصبحت ملكه . أما بالنسبة لرجال فاغه ورجال "الديل" الشمالي ، فقد بدا أنها محنة كبرى بأن يفترق نسل البارونات الكبار عن سوندبو ، حيث عاش آباؤهم وحكموا الريف منذ غابر الأيام .

لفترة قصيرة بقيت سوندبو بين يدي بارون الملك هاكون هاكونسون المخلص المسمى إرلند الديارن أوف غودالاند في أغدر . . لم يكن آل غيبسلينغ قط أصدقاء حميمين للملك" سفير" ونسله ، وكانوا قد انضووا تحت لواء الدوق سكوله حين تمرد على الملك هاكون ، ولكن إيفار الشاب استعاد سوندبو بمقايضة

أراض مع إرلند إلديارن وتزويج كبرى بناته السماة غودورن له . إلا أنَّ ابن إيفار المسمى تروند لم يشرّف أسرته قط وبأي حال من الأحوال ، إلاّ أن أبناءه الأربعة كانوا وسيمين ومحبوبين وشجعان وقد حزن الناس حين فقد هؤلاء بيتهم .

وقبل أن يغادر إيفار "ديل" حلت مصيبة أثارت المزيد من الحزن والغضب بين الناس على مصير آل غييسلنغ البائس . كان غوتورم أعزب ، ولكن حين هرب بورغار ، فإن زوجته الشابة بقيت في سونبو . وكانت داغني بيارنسداتر هذه ضعيفة المدارك نوعاً ما ، وكانت قد أظهرت أن حبها لزوجها يفوق كل التصورات . كان بورغار تروندسون شاباً وسيماً ، وإن يكن يحيا حياة متحررة . وفي الشتاء اللاحق لهربه من البلاد ، سقطت داغني في حفرة ضمن الجليد على بحيرة "فاغه" . قال الناس إنه سوء الحظ ، لكنهم كانوا يعرفون جيداً أن الحزن والشوق قد جردا داغني من تلك البقية الباقية من العقل التي كان لديها ، وأشفق الرجال من كل قلوبهم على هذه المرأة الشابة البسيطة العذبة التي ماتت هذه الميتة البشعة . وبعد ذلك ثار المزيد من غضب الناس على إرلند نيكولاوسون الذي جلب كل هذه المآسي على أفضل الناس في الأبرشية . وكانت الناس تحكي الآن عن كيفية تصرفه في تلك الأيام حين كان سيتزوج ابنة لافرانس لاغماندسون . . .أجل وقد كانت هي أيضاً من آل غييسلنغ من جهة أمها . . .

لم يكن سيد" سوندبو" الجديد محبوباً ، رغم أنه لم يكن هناك ما يقال ضد سيغورد نفسه . إلاّ أنه كان غريباً قادماً من "إيدج" وكان أبوه إلديارن قد أوجد لنفسه أعداء بين كل سكان الريف الذين تعاملوا معه . لم يكن قد سبق لكريستين ورامبورغ أن قابلتا ابن خالهما ذاك . كان سايمون يعرف السير سيغورد في راوماريكه . . . فقد كان قريباً لعائلة هافتورسون وكانوا من أقرباء زوجة"غيرد دار" . ولكن رغم تشابك كل هذه الأمور الآن ، كان آل تروندسون أصدقاءه الأعزاء . كما كان من عادة رامبورغ وزوجتي إيفار وبورغار الذهاب كل عام لتبادل

الزيارات . كما كان السير سيغورد إرلندسون أيضاً أكبر سناً بكثير من سايمون أندرسون . . . إذ كان قد أصبح في الستين من عمره .

•

لذلك بدا الأمر لسايمون دار وكأن الأمور قد تشابكت كثيراً مع قدوم إرلند وكريستين للسكن في يورونداغارد ، حتى رغم أن زواج وكيل مزرعتهم لم يكن ممكناً اعتباره مسألة هامة ، إلا أنه كان كافياً لجعل الأمور تتدهور نحو الأسوأ . ولم يكن من عادته في الأحايين الأخرى أن يزعج زوجته الشابة بأي مسألة إلا إذا كانت قد أقلقته كثيراً أو أغضبته . ولكنه لم يستطع الآن أن يمنع نفسه من أن يحادث رامبورغ عن هذه الأمور . وقد كان في ذلك مدعاة للتفاؤل والفرح أن يرى كيف أنها تكلمت عن المسألة بتفهم ، وكيف أنها حاولت بإرادة طيبة أن تفعل ما بوسعها لتقديم يد العون .

كانت قد أصبحت تزور أختها في يورونداغارد مرات أكثر بكثير من عادتها ، وكانت قد خلعت عنها ذلك الوجه الكئيب الذي كانت تعطيه لإرلند . في يوم عيد الميلاد حين التقوا على مرج الكنيسة بعد القداس ، لم تقبل رامبورغ كريستين فحسب بل وزوجها أيضاً . وكان من عادتها أن تتهكم بشدة على عاداته الأجنبية هذه . . .لأنه اعتاد تقبيل حماته كلما كان يحييها وما شابه .

وقد خطر لسايمون حين شاهد رامبورغ تضع يديها من حول عنق إرلند أن يقوم بالشيء نفسه مع أخت زوجته . ولكنه شعر أنه لن يستطيع ذلك . وعلاوة على ذلك ، لم يكن قد سبق له ومارس عادة تقبيل قريباته . . .وكانت أمه وأخواته يضحكن منه كثيراً لو عرض أن يحاول ذلك معهن كلما عاد إلى البيت حين كان يعمل وصيفاً في الحرس الملكي الخاص .

في وليمة عيد الميلاد وضعت رامبورغ زوجة أولف هالدورسون الشابة في كرسي عال ومشرف ، وأبدت لها وله كل التشريفات التي تليق بعروس وعريس .

وقد ذهبت إلى يورودغارد وكانت مع يارترود حين ولدت طفلها .

وقد جرى هذا بعد شهر من عيد الميلاد -وقبل شهرين من الموعد المرتقب- ولكن الصبي ولد ميتاً . حزنت يارترود بمرارة : لو عرفت أن الأمور ستجري على هذا النحو لما كانت تزوجت من أولف . ولكن ما جرى قد جرى وسبق السيف العذل .

ولم يكن هناك من يعرف كيف فكر أولف هالدورسون بالمسألة . . .فهو لم يقل شيئاً .

وفي الأسبوع السابق على منتصف فترة الصوم ركب إرلند نيكولاوسون وسايمون أندرسون معاً باتجاه الجنوب إلى "كفام" . فقبل أن يموت ببضع سنوات اشترى لافرانس ، مع مزارعين آخرين ، مزرعة صغيرة في تلك الأبرشية . وكان الملاّك الأحرار راغبين في شرائها مجدداً ، ولكن لم يكن واضحاً رأي القانون في تلك المسألة في ذلك الريف ، ولا إلى أي حد طالب فيه البائعون بحقوقهم قانونياً . بعد وفاة لافرانس وحين وزعت أملاكه بين ورثته ، فإن هذه المزرعة وممتلكات صغيرة أخرى ، وهذه كان حق ملكيتها خاضعاً لقضايا في المحاكم ، قد تركت دون توزيع على الورثة ، وكانت الأختان تتقاسمان فيما بينهما العائدات . لذلك ذهب كلا صهري لافرانس إلى الاجتماع نيابة عن زوجتيهما .

اجتمع عدد كبير من الناس ، وبما أن زوجة المستأجر وأطفاله كانوا طريحي الفراش في المنزل من المرض ، فقد عقد الرجال اجتماعهم في كوخ قديم في المزرعة . كان متصدعاً يرشح منه ماء المطر لذلك أبقى الرجال معاطفهم الفرو عليهم . كان كل رجل يحتفظ بأسلحته قريباً منه ، وسيفه في حزامه . . . لم يكن أحد ينوي البقاء هنا أكثر ممّا تدعو إليه الحاجة . ولكن كان عليهم أن يتناولوا لقمة من اللحم قبل الفراق ، لذلك عند العصر ، وحين انتهى العمل ، مدّ كل رجل يده

إلى جرابه وجلس وراح يأكل وقد وضع الجراب على المقعد أو أمامه على الأرض . . . لم تكن هناك مائدة في الكوخ .

ونيابة عن كاهن أبرشية كفام حضر ابنه هولمغير مويزيسون الاجتماع . كان شاباً منفلت اللسان لا يمكن الوثوق فيه ، ولم يكن محبوباً . ولكن أباه كان محبوباً جداً كما كانت أمه من أسرة طيبة . وعلاوة على ذلك كان هولمغير رجلاً ضخماً قوياً ناريّ المزاج وسريعاً في مهاجمة الناس . لذلك لم يكن هناك من يرغب بالتشاجر مع ابن الكاهن هذا ، كما كان الكثيرون يعتبرونه لاذع اللسان ذكي الكلام .

كانت معرفة سايمون به قليلة ، كما كان يكره مظهره . . .فقد كان له وجه طويل وضيق مغطى بنمش فاتح اللون ، مع شفة عليا قصيرة حتى أن الأسنان الكبيرة الصفراء كانت تبرز إلى الأمام كأسنان جرذ . ولكن سيرا مويزيس كان صديقاً جيداً للافرانس ، وكان الابن-حتى استطاع أبوه أن يجعله ابناً شرعياً له- قد ترعرع في يوروندغارد لفترة من الزمن ، وذلك كخادم وابن بالتربية . لذلك كان من عادة سايمون أن يقابل هولمغير مويزيسون بأسلوب ودّي .

كان قد دحرج قطعة حطب كبيرة نحو الموقد وجلس وهو يشك بخنجره قطعاً من لحم طائر السمان المشوي وشرائح لحم الخنزير المقدّد ويسخنها على النار . لقد كان مريضاً واضطر إلى الاستراحة أربعة عشر يوما كما قال للآخرين ، الذين جلسوا وهم يأكلون الخبز والسمك المجمد القاسي ، بينما راحت الرائحة اللذيذة لطعام هولمغير تتسلل إلى أنوفهم .

كان سايمون منحرف المزاج . . .ليس في مزاج سيئ تماماً إنما فاتر الهمة متبلد الإحساس . لم يكن من السهل فهم القضية ، والرسائل التي تركها حموه لم تكن واضحة . ومع ذلك حين غادر بيته كان يظن على أي حال أنه وصل إلى فهم صحيح لها إذ قارنها مع رسائل أخرى . ولكن حين حدث هنا في الاجتماع أن سمع شهادة الشهود ورأى الرسائل التي قدمها الآخرون ، فقد شعر أن وجهة نظره

في المسألة لم تكن قابلة للدفاع عنها . ولكن لم يكن أحد من الآخرين أكثر مقدرة على وضع الأمور في نصابها . . .وحتى مأمور الوصي على العرش ، الذي تواجد هناك أيضاً ، كان في حالة ذهول . كان البعض قد بدأوا يقولون إنه يبدو أن من الأفضل إحالة القضية على" المجلس " . . .ولكن إرلند تكلم فجأة وطالب بمشاهدة الرسائل .

حتى ذلك الحين كان قد جلس وراح يصغي ، وكأنه لا دور له في المسألة . وبدا الأمر الآن وكأنه قد استيقظ فجأة . قرأ بعناية كل الأوراق ، والبعض منها قرأها أكثر من مرة . ثم قام بتلخيص القضية باختصار ووضوح : كتب القانون تقول كذا وكذا ، وهكذا فهي مفهومة من قبل الجميع . وإن صياغة هذه الرسائل على هذا النحو الغامض المرتبك لا بدّ أن تعني إما هذا الأمر أو ذاك . ولو كانت القضية ستحال على المجلس فسيكون الحق لصالح هذه الجهة أو تلك . ثم اقترح تسوية قد ترضي الملاّك الأحرار ومع ذلك فهي ليست بالمرفوضة من قبل المالكين الحاليين .

كان واقفاً وهو يتكلم وقد أراح يده اليسرى بخفة على مقبض سيفه وأمسك برزمة الرسائل بإهمال في يده اليمنى . لقد تصرف كأنه هو من يمسك بزمام الأمور في هذا الاجتماع . . .ولكن سايمون رأى أنه لم يفكر في هذا هو نفسه . كان من دأبه أن يقف ويتكلم على هذا النحو حين كان يحضر مجلس الوصي على العرش في مقاطعته . . . وحين كان يلتفت إلى واحد من الآخرين ويسأل إن لم يكن الأمر كذلك أو هل فهموا الأمر الذي طرحه ، وكان يتكلم كمن يستجوب الشهود . . . ليس بفظاظة ولكن كأنما كان دوره طرح الأسئلة ودور الآخرين أن يجيبوا عليها . حين أنهى كلامه ، سلم الرسائل إلى المأمور وكأن الرجل كان خادمه ، وجلس مجدداً . وبينما راح الآخرون يتبادلون الكلام ، وكان لدى سايمون أيضاً ما يقوله لرفيقه ، أصغى إرلند إليه حقاً ، ولكن كأنما لم يكن له هو شخصياً علاقة بالقضية . كان يعطي أجوبة قصيرة واضحة منوّرة حين يخاطبه أي شخص . . .

وكان منهمكاً طوال الوقت في حك بقع الدهن من على صدر معطفه بأظافره أو بتسوية حزامه أو بارتداء قفازيه ، وقد بدا عليه أنه ينتظر نهاية النقاش نافد الصبر تقريباً .

وافق الآخرون على التسوية التي وضعها إرلند أمامهم وهي تسْوية لم يشعر سايمون بعدم الرضا تجاهها ، فهو لم يكن سيكسب أكثر من ذلك لو أحيلت القضية إلى القضاء .

ولكنه أحس بالغضب . لقد اعتبر أنه أمر طفولي إلى أبعد حد أنه يكون قد انزعج لأن عديله قد فهم القضية وهو لم يستطع ذلك . ولكن كان أمراً منطقياً أن يكون إرلند أمهر في فهم القانون وتوضيح معاني الرسائل الغامضة ، بما أنه كان يحتل منصباً يتضمن القيام بالتحقيقات وتوجيه الناس إلى الطريق الصحيح في القضايا المتنازع عليها . ولكن حلّ الأمر على سايمون دون أن يتوقعه : ففي المساء السابق في يورونداغارد حين تحدث معه ومع كريستين عن هذا الاجتماع ، لم يذكر إرلند شيئاً مّما كان يفكر فيه . . .لكأنه كان يصغي نصف إصغاء فحسب . أجل ، كان واضحاً أن إرلند كان أفضل اطلاعاً على القانون من المزارعين البسطاء . . .ولكن كان يبدو أن القانون لم يكن يمسّه هو ، وهو جالس هناك يوجه الآخرين بودّ يتميز عدم الاهتمام . . .فقد خطر لسايمون إحساس غامض بأن إرلند لم يكن يهتم قط بالقانون كأحكام تتعلق بحياته هو . . .

كما كان أمراً غريباً جداً أنه استطاع أن يقف على هذا النحو دون خجل على الإطلاق . لا بدّ أنه يعرف أن هذا يدير عقول كل من يفكر في مسألة من وما كان عليه إرلند نيكولاوسون ، وما هو وضعه الآن . أحس سايمون أن الآخرون كانوا يجلسون ويفكرون بالموضوع . . .أحس البعض بالغضب دون شك من هذا الرجل الذي ما كان يكترث برأي هؤلاء الناس فيه . ولكن لم يقل أحد شيئاً . وحين جلس الكاتب الذي أزرقّ من البرد والذي كان يرافق مأمور الوصيّ على العرش

ووضع لوح الكتابة على ركبتيه ، فقد بقي طوال الوقت يسأل إرلند وإرلند يتهجأ له ليكتب ، وخلال تلك الأثناء كان يلعب بأعواد من القش كان قد التقطها من على الأرض وراح يجدلها من حول أصابعه الطويلة السمراء ويضفرها على شكل خاتم . وحين انتهى الكاتب من عمله مدّ الورقة إلى إرلند . رمى إرلند خاتم القش إلى النار وأخذ الصك وقرأه بصوت نصف عال :

" إلى كل من يطلع على أو يسمع بهذا الصك ، فإن سايمون أندرسون أوف فورمو وإرلند نيكولاوسون أوف يوروندغارد وفيدار ستاينسون أوف كلاوفاستاد وأنجموند وتورالد بيورنسون أوف لوندار وآلف آينارسون وهولمغير مويزيسون يرسلون تحيات الرب وتحياتهم . . ."هل الشمع جاهز . . .سأل الكاتب الذي وقف ينفخ على أصابعه المتجمدة . " فليكن معروفاً لكم أنه في سنة ألف وثلاثمائة وثمانية وثلاثين من ميلاد سيدنا ، وفي يوم الجمعة السابق على يوم أحد منتصف الصوم الكبير ، فإننا نحن المذكورين أعلاه قد اجتمعنا في غرانهايم في أبرشية كنيسة كفام . . .

" . . .نستطيع أن نأخذ الصندوق يا آلف ، ذاك الذي يقف هناك في المنزل الخارجي وسوف نستخدمه كمائدة" ثم التفت نحو المأمور وهو يعيد الصك إلى الكاتب .

تذكر سايمون كيف كان إرلند خلال عيشه وانتقاله بين أقرانه في الشمال . كان واثقاً من نفسه وجريئاً إلى حد كاف ، كما كان مجازفاً سليط اللسان . . .ولكن في أسلوبه شيء من المحاباة ومن النوع الذي يخصه هو . لم يكن قط متهوّراً فيما يخص رأي أولئك الذين يعتبر أنهم أقرانه وأقرباءه . كلا ، فقد كان يعتمد كثيراً على أن يتمتع بسمعة طيبة بينهم .

وبمرارة قوية إلى حد غريب أحس سايمون فجأة أنه واحد من مزارعي "ديل" أولئك الذين كان إرلند ينظر إليهم دون احترام كبير حتى أنه لم يكن ليتساءل عن

رأيهم فيه . لقد أصبح واحداً منهم لأجل خاطر إرلند . . .ومن أجله كان قد ودّع صحبة الأغنياء والنبلاء . كان أمراً جيداً بما فيه الكفاية أن يكون المزارع الغني في فورمو . . .أجل ولكنه لم يستطع أن ينسى أنه قد أدار ظهره لأقرانه واقربائه وأصدقاء شبابه ، وذلك لأنه كان قد تجول فيما بينهم في مهمة أشبه بمهمة الشحاذ حتى أنه ما عاد قادراً على تحمل الالتقاء بهم مجدداً . . .وهو لم يعد يستطيع إلا بالكاد أن يتحمل التفكير في ذلك . إلاّ أن عديله هذا قد تحدّى ملكه وخرج عن صفوف حرسه . كان يعرّي نفسه أمام إرلند على نحو كان التفكير فيه أشد مرارة له من الموت . وكان إرلند يتصرف معه وكأنه لم يكن يفهم أو يتذكر شيئاً . لم يكن هذا الشخص يشعر بالقلق نفسه كثيراً لأنه شوّه حياة رجل آخر . . .

عند ذاك خاطبه إرلند :

"علينا أن نتمكن من الرؤية وأن نكون قد شققنا طريقنا يا سايمون إن كنّا سنصل البيت الليلة . . .سأذهب الآن لأجهز الجياد . . ." رفع سايمون نظره وقد انتابه كره غريب مثير للغثيان إلى الشكل الطويل الوسيم للرجل الآخر . تحت قبعة عباءته كان إرلند يرتدي طاقية صغيرة من الحرير الأسود تحيط برأسه وقد ربطت تحت ذقنه . . .كان الوجه الضيق الأسمر ذو العينين الكبيرتين الزرقاوين الفاتحتين الغائرتين تحت ظل حاجبيه ، يبدو أكثر شباباً ووسامة . ثم قال من الباب وهو يخرج : "واحزم لي حقيبتي في هذه الأثناء" .

كان الرجل الآخر قد استمر يتحدث عن القضية . كان أمراً غريباً بالفعل على أي حال ، كما قال البعض ، بأن لافرانس كان قد رتب هذه المسألة دون شك بقليل جداً من التفكير ، مع أن ذلك الرجل كان معتاداً خلاف ذلك أن يعرف ما كان يفعله . . .كان أكثر مهارة من أي شخص آخر في "ديل" بكل ما يتعلق بشراء وبيع الأراضي .

قال هولمغير برستسون :"من المحتمل أن أبي هو الملوم على هذا . لقد قال لي هذا الصباح إنه لو أصغى إلى لافرانس في تلك المرة لكانت كل الأمور صحيحة وواضحة . ولكنكم تعرفون كيف كان لافرانس . . .كان دائماً مطيعاً وخجولاً أمام الكهان كأنه الحمل . . ."

وقال أحدهم إن لافرانس أوف يوروندغارد كان معتاداً على معرفة صالحه .

"أجل ، ربما فكر في أنه فعل ذلك حين أصغى إلى استشارة الكهان" قال هولمغير ضاحكاً . "إنه دور الحكمة أحياناً وحتى في الأمور الدنيوية . . .طالما كان المرء لا يضع عينه على القطعة نفسها التي وضعت الكنيسة عينها عليها" . . .

لا شك أن لافرانس كان ورعاً بشكل رائع كما اعتبر "فيدار" . . .فهو لم يكن يبخل لا بالبضاعة ولا بالبقر حين يتعلق الأمر بالكنيسة أو الفقراء .

قال هولمغير متأملاً :"كلا . أجل ، لو كنت رجلاً غنياً جداً ، لكان من شأني أن أنفق لأجل سلام روحي . ولكني لن أكون ميالاً إلى تبذير أموالي بيدي الاثنتين ، كما فعل هو ، ثم أتجول علاوة على ذلك بعينين حمراوين ووجنتين بيضاوين في كل مرة أذهب فيها إلى الكاهن وأعترف فيها بذنوبي . . .وكان لافرانس يذهب للاعتراف كل شهر ، حقاً . . ."

قال إنجموند بيورنسون العجوز :" دموع التوبة هي عطايا الروح القدس الكريمة ، عطايا السماح الإلهي يا هولمغير . فليتبارك ذاك الذي يستطيع أن يبكي خطاياه في هذه الدار الفانية ، وذلك ليسهل عليه دخول دار البقاء . . ."

"أجل ، لا بد أن يكون لافرانس قد دخل الجنة منذ زمن طويل إذن" ، قال الآخر . " وهكذا بينما كان يصوم ويكبح شهواته . . .فإنه كان يقفل الباب على نفسه في يوم الجمعة الحزينة في علية المستودع ويجلد نفسه بالسوط كما سمعت . . ."

قال سايمون أندرسون وهو يرتجف غضباً : "أمسك عليك لسانك" . كان

وجهه قد تضرج بالدم . لم يكن يعرف إن كان ما قاله هولمغير صحيحاً أم لا ، ولكنه حين رتب خزائن حميه ، فقد وجد في قعر خزانة الكتب صندوقاً خشبياً صغيراً ضيقاً وطويلاً وكان فيه سوط يشبه ما يوجد في الأديرة ويسمى "التأديب" . كانت الجدائل الجلدية المضفورة مبقعة بلون داكن ، وربما من الدم . كان سايمون قد أحرقه . . .وذلك بنوع من الرعب المترع بالأسى : لقد أحس أنه اكتشف شيئاً في حياة الآخر لم يكن لافرانس يريد لأي شخص أن يعرف به .

" . . .مهما يكن الأمر فإنه لم يذكره أمام خدمه" ، قال سايمون حين عادت إليه الثقة بنفسه إلى حد القدرة على الكلام .

"كلا ، ربما تكون مجرد حكاية اختلقها الناس" ، أجاب هولمغير برقة .

" أعتقد جيداً أنه لم تكن لديه خطايا يكفر عنها . . ." تكلف الرجل الابتسام قليلاً . . ." لو عشت حياة كلها فضيلة وورع شأن لافرانس بيورغولفسون . . .وكنت متزوجاً من امرأة تعيسة شأن راغنفريد إيفارسداتر . . .لكنت سأبكي على الخطايا التي لم أرتكبها . . ."

قفز سايمون وضرب هولمغير بقوة على الفم ، حتى أن الرجل تراجع نحو الخلف باتجاه الموقد . سقط الخنجر من يده . . .وفي اللحظة التالية أمسك بالخنجر واندفع نحو الآخر . تجنبه سايمون بالذراع التي كان ألقى عليها عباءته وأمسك بهولمغير من الرسغ وحاول أن يخلص السكين من يده . . .بينما راح ابن الكاهن يضربه المرة إثر الأخرى على وجهه . ولكن سايمون كان الآن قد أمسك بكلتا ذراعي الآخر ، إلا أن الشاب عضّ الرجل من يده .

"أتعضّ أيها الكلب . . .؟" أفلته سايمون وقفز إلى الخلف بضع خطوات ثم استل سيفه بعنف من غمده ، وطعن هولمغير . . . انحنى جسد الشاب نحو الخلف وقد اخترق الفولاذ صدره بطول بوصتين . ثم سقط جسد هولمغير بعيداً عن رأس السيف وهوى بثقل على الموقد .

رمى سايمون بسيفه وانحنى ليرفع هولمغير عن النار ، ثم لمح فأس فيدار فوق رأسه وقد ارتفعت لتضربه . تفاداها نحو الجانب وأمسك بالسيف مجدداً واستطاع في الوقت الملائم أن يتجنب بسيفه سيف آلف آينارسون المأمور . . . ثم دار حول نفسه ليتفادى فأس فيدار . . .ولكنه رأى بزاوية عينه أن أولاد بيورن وبيورن أوف لونده كانوا يندفعون نحوه برماحهم من الجانب الآخر من الموقد . عند هذا ، دفع بآلف أمامه نحو الجدار البعيد ولكنه لاحظ الآن أن فيدار كان يتقدم نحوه من الخلف (كان فيدار قد أبعد هولمغير عن النار ، فقد كانا ابني عم) وكانت جماعة لونده تتقدم نحوه لتطبق عليه من حول الموقد . كان محاصراً وغير مغطى من أي جانب وبين ذلك كله تساءل -رغم أن انتباهه كان يجب أن يتركز على إنقاذ حياته- بتعجب غامض بائس عن السبب في أن كل الرجال كانوا ضده . . .

في اللحظة التالية كان سيف إرلند يلتمع بينه وبين رجال لونده . ترنح تورالد جانباً وبعيداً وانهار على الجدار . وبسرعة البرق نقل إرلند سيفه إلى يده اليسرى وضرب سلاح آلف فسقط من يده وهوى يجلجل على الأرض ، بينما أمسك بيده اليمنى في الوقت نفسه قناة رمح بيورن ولواها إلى الأسفل . . .

قال لسايمون لاهثاً وهو يحرس عديله من فيدار "هيا اخرج" . صرّ سايمون بأسنانه واندفع نحو الداخل ليقابل بيورن وانجموند . كان إرلند إلى جانبه وهو يصرخ عبر أصوات الوطء وقعقعة السلاح : "أخرج ، ألا تسمعني أيها الأحمق ؟ اتجه نحو الباب . . . علينا أن نولي الأدبار!".

حين رأى أن إرلند كان يعني أن يخرجا كلاهما ، فقد تراجع وهو يبارز نحو الباب . وقد ركضا عبر الغرفة الخارجية ووقفا في الباحة . . .على مسافة خطوة أو اثنين بعيداً عن المبنى ، وإرلند أمام الباب مباشرة ، وسيفه نصف مرفوع ، مواجهاً الرجال الذين اندفعوا يلاحقونهما .

كان سايمون مبهور النظر للحظة . . .فقد كان اليوم الشتائي شديد السطوع في الخارج . . .فتحت السماء الزرقاء كانت القبة البيضاء لقمة الجبل تلتمع ذهبية تحت آخر نور للشمس . أما الغابات فكانت مغطاة بالثلج والجليد . وعبر الحقول كلها كان التماع باهر مشع كأنما هو صادر عن جواهر . . .

سمع إرلند يقول :

"لن يكون حال هذه الحادثة المؤسفة أفضل لو قُتل المزيد من الرجال . فلنعد إلى عقولنا أيها الرجال الطيبون ، ونتوقف عن سفك الدماء . . . يكفي عديلي سوءاً أنه قتل أحد الرجال . . ."

تقدم سايمون ووقف إلى جانب إرلند .

" لقد قتلت ابن عمي دون طائل يا سايمون أندرسون " ، قال فيدار أوف كلاوفاستاد . . .كان يقف في المقدمة عند الباب .

"أعتقد أنه لم يسقط دون طائل . ولكنك تعرف جيداً يا فيدار أني لن أتهرب من المسؤولية . . .وسوف أعوض عن السوء الذي ارتكبته في حقكم . وكلكم تعرفون أين تجدونني في بيتي . . ."

تلفظ إرلند ببعض الكلمات مخاطباً المزارعين :

" آلف ما رأيك بي ؟"ودخل مع الرجال .

ترك سايمون خارجاً وقد أصبح غير قادر على النطق . خرج إرلند بعد فترة وقال :" فلنركب حصاننا الآن " ، ثم اتجه نحو الإسطبل .

سأل سايمون :" هل مات ؟ "

"أجل ، وآلف وتورالد وفيدار مصابون بجروح جميعاً . . .ولكن دون إصابات خطيرة على ما أعتقد . لقد أحرق هولمغير شعره من الخلف " . تكلم إرلند بكل هدوء . . . ثم حدث فجأة أن انفجر ضاحكاً : " هناك الآن رائحة نتنة نادرة ، رائحة السمّان المحترق في ذلك المكان وثق بي ! يا للشيطان . . .كيف حدث

أن تورطت حتى أذنيك خلال فترة قصيرة جداً من الزمن ؟ " سأله في دهشة كبيرة .

وقف صبي يافع ممسكاً بجواديهما . . .لم يكن أي من العديلين قد جلب أحداً من خدمه معه في هذه الرحلة .

كانا لا يزالان يحملان سيفيهما . تناول إرلند حزمة من العشب ومسح الدم عن سيفه ، كذلك فعل سايمون . وحين تخلص من معظمه ، أعاد السيف إلى غمده . نظف إرلند سيفه بعناية كبيرة وفي النهاية مسحه بطرف عباءته ، ثم طعن به الهواء مرات عديدة وهو يبتسم ابتسامة كأنما تذكر شيئاً ما . . .ورمى السيف عالياً في الهواء ، وأمسك به مجدداً من مقبضه وأغمده .

"جراحك . . .علينا أن ندخل إلى المبنى وسوف أضمّدها لك . . ." ، ولكن سايمون قال إنها لا شيء . . .

"وأنت تنزف أيضاً يا إرلند!"

"لا خوف عليّ . لحمي يشفى جيداً . أما الأشخاص البدينون فشفائهم أبطأ ، كما لاحظت . ولكن الآن في هذا البرد . . .وأمامنا طريق طويل نقطعه . . ."

حصل إرلند على شحم وقماش من الفلاح المستأجر للمزرعة ، وضمد جراح سايمون بعناية . . .كان هناك جرحان في اللحم قريبان الواحد إلى الآخر في ثديه الأيسر . لقد نزفا كثيراً في البداية ، ولكنهما لم يكونا خطيرين . كان إرلند قد تلقى خدشاً من رأس رمح بيورن على فخذه . . . ولا بدّ أنه كان أمراً متعباً الركوب مع ذلك الجرح ، كما قال سايمون ، ولكن عديله ضحك : إنه لم يخترق إلا بالكاد بنطاله الجلدي . وضع القليل من الشحم فوقه وربطه جيداً حتى يصمد أمام الصقيع .

•

كان البرد قارساً . وقبل أن يهبطا من التل حيث كانت المزرعة ، بدأ الجليد يتجمع فوق الحصانين كما أضحت حواشي الفراء على قبعتيهما بيضاء .

ارتجف إرلند :"هو ، هو! لكم أتمنى لو أننا في البيت !علينا أن ندخل المزرعة في الأسفل هنا حتى تعلن عن نفسك بأنك القاتل ."

"هل هذا ضروري ؟" سأل سايمون :"لقد تكلمت كما تعرف مع فيدار والـ . . ."

قال إرلند :" الأفضل أن تفعل ذلك ، أن تروي ما حدث بنفسك . لا تترك لهم الفرصة ليقولوا أي شيء ضدك ."

كانت الشمس خلف الجبال الآن والمساء بلون أزرق رمادي شاحب ، إلا أن النور لا يزال موجوداً . سارا على امتداد جدول تحت أشجار البتولا الأكثر خشونة الآن بسبب الجليد من الغابات المحيطة : كانت هناك رائحة الضباب الجليدي في الهواء هنا ، الجديرة بخنق الأنفاس في حلق الإنسان . غمغم إرلند نافذ الصبر من طول فترة التعرض للبرد وعلى الرحلة الباردة التي لازال عليهما أن يقطعاها .

"لم يصب وجهك بقضمة الصقيع ، ألا تعتقد ذلك يا عديلي . . .؟ " حدق بقلق تحت قبعة سايمون . فرك سايمون وجهه . . .لم يكن قد قضمه الصقيع ، ولكنه كان شاحباً نوعاً ما وهو منطلق على جواده . لقد أمرضه ذلك ، فقد كان وجهه الكبير البدين مسفوعاً من الطقس ومنقطاً بلون أحمر ، وكان الشحوب منتشراً فوقه في بقع رمادية مّما يجعل لونه يبدو وكأنه غير نظيف .

" هل سبق لك وشاهدت رجلاً ينكش الروث بسيفه؟" قال إرلند . . .ثم انفجر ضاحكاً على هذه الفكرة ، وانحنى نحو الأمام في سرجه وقلّد الحركات على نحو ساخر . . ."مثل آلف هناك . . .شخص نادر في منصب المأمور! كان عليك أن ترى أولف وهو يلعب بالسيف ، يا سايمون ، يا للمسيح ومريم!"

يلعب . . .أجل ، الآن ، بالفعل ، لقد رأى إرلند نيكولاوسون في ذلك اللعب . ومن جديد رأى نفسه وأولئك الرجال في تلك المعركة هناك عند الموقد ،

مثل الفلاحين الذين يقطعون الخشب أو يرفعون القش . . .وكذلك شكل إرلند الرشيق المومض بينهم ، لمحاته السريعة كالبرق ورسغه الواثق وهو يلعب معهم بتفكير سريع ومهارة في المناجزة . . .

لقد مرّت عشرون عاماً أو تزيد منذ ذلك الحين الذي كان هو محسوباً بين الأوائل في مهارات السلاح بين شبان الحرس الشخصي للملك . . .حين كانوا يتمرنون على السلاح فوق المروج . ومنذ ذلك الحين لم يستخدم إلاّ قليلاً من مهارات المبارزة بالسيف الخاصة بمرشح لرتبة الفارس .

وهاهو يركب الآن ، حزيناً من القلب لأنه قتل رجلاً . . .رأى جثة هولمغير وهي تسقط بعيداً عن سيفه نحو النار ، كان يسمع صرخة موته القصيرة المبحوحة في أذنيه ويرى ثانية وثانية لمحات من العراك القصير الضاري الذي تبع ذلك . كان حزين القلب ويائساً وحائراً : لقد انقضوا عليه في لحظة واحدة ليقتلوه ، كل أولئك الرجال الذي كان يجالسهم ، وهو الذي يشعر أنه ينتمي إليهم . . .وقد جاء إرلند لنجدته . . .

لم يكن يعتبر نفسه جباناً قط . لقد اصطاد ستة دببة في السنوات التي قضاها في فورمو . . .كما جازف بحياته مرتين بكل التهور الممكن . كان بينه وبين الدبة المجنونة الجريحة مجرد جذع شجرة تنوب رقيق وكان دون سلاح عدا رأس رمحه وقطعة من قناة الرمح لا يتجاوز طولها اليد . . .لم يؤثر خطر اللعبة على ثقته بنفسه وفعله وحسّه . والآن هناك في الكوخ . . .لم يكن يعرف إن كان شعر بالخوف ، ولكنه كان مذهولاً . . .لقد خانته فطنته . . .

وحين جلس في البيت بعد صيد الدببة ، وملابسه مكومة فوقه وذراعه في أرجوحة والحمى تشتعل فيه ، وكتفه متيبس وممزق ، فإنه لم يشعر بأي شيء عدا الفرحة الغالبة . . . إذ كان من شأن الأمور أن تكون أسوأ . . .كيف لم يفكر إلى ذلك الحد . ولكن عليه الآن أن يفكر ويفكر ، إلى ما لا نهاية ، كيف كان كل

شيء سينتهي لولا أن إرلند وصل في الوقت الملائم جداً لنجدته . لم يكن خائفاً بالتأكيد ، ولكنه كان محبطاً إلى حد غريب . كان النظر في وجوه الرجال الآخرين . . .وجثة هولمغير المحتضر .

لم يسبق له أن كان قاتل بشر .

. . .ذلك الجندي السويدي الذي كان قد قتله بالسيف . . .كان ذلك في السنة التي حمل فيها الملك هاكون الحرب إلى السويد للانتقام من مقتل الدوقين . لقد أرسل للاستكشاف . . .وكان معه ثلاثة رجال ، وهو قائدهم ، وكان شديد المرح والاعتزاز بالنفس . تذكر سايمون أن سيفه علق بسرعة في خوذة الجندي الفولاذية ، لذلك كان عليه أن يثني سيفه وينتزعه انتزاعاً . وجد حدّه مثلّماً حين نظر إليه في الصباح . لم يكن قد فكر بذلك إلا برضا . . .وكان هناك ثمانية من السويديين أيضاً . . .ولقد ذاق طعم الحرب على الأقل ، ولم يكن هذا قدر كل الرجال الذين ساروا مع الحرس في ذلك العام . . .وحين حلّ الفجر رأى أن هنالك دماً وبقايا دماغ قد تناثرت فوق درعه كله . . .وقد حاول أن يبدو متواضعاً وليس متفاخراً وهو يغسلها . . .

ولكنه لم يجد عوناً في التفكير في ذاك الجندي المسكين الآن . كلا ، في ذلك الحين لم يكن الأمر ما كان عليه الآن . لم يستطع أن يمنع نفسه من الحزن على هولمغير مويزيسون .

وهناك أيضاً الآن عبء أنه أصبح مديناً بحياته لإرلند . لم يكن يعرف كم سيكون ثمن ذلك . ولكنه أحس وكأن كل الأمور قد تغيرت الآن بعد أن أصبحا متعادلين هو وإرلند . . .

فيما يخص تلك المسألة فقد أصبحا متعادلين ، أجل . . .

تابع العديلان طريقهما دون كلمة واحدة تقريباً . ولكن إرلند قال مرة :

" أجل ، كان ذاك فعلاً أحمق منك يا سايمون ، ألم تفكر بالاتجاه نحو الباب منذ البداية . . ."

سأله سايمون باختصار :" وكيف ذلك ؟ لأنك كنت في الخارج ؟ "

"كلا . . ." كانت هناك ضحكة صغيرة في صوت إرلند ." أجل ، ذلك أيضاً . . .رغم لأني لم أفكر في ذلك . ولكن خارج ذلك الباب الضيق ، ما كان ممكناً لهم أن يخرجوا إليك إلا واحداً في إثر الآخر . . .وعلاوة على ذلك فإن الأمر العجيب أن نرى غالباً كم يعود الناس إلى رشدهم ما أن يخرجوا تحت السماء المفتوحة . إني لاستعجب جداً الآن أنه لم يقتل سوى رجل واحد ."

وقد سأل سايمون عن جروحه المرة إثر الأخرى . قال الآخر إنه لم يكن يشعر بها كثيراً . . .رغم أنها كانت تؤلمه بشدة في الواقع .

●

وصلا إلى فورمو في وقت متأخر من الليل ، وبات إرلند تلك الليلة مع عديله . كان قد تشاور معه حول أن يكتب كتاباً إلى الوصي على العرش ، ربما في الصباح ، لشرح ما جرى ، وذلك حتى يتم تحضير "صك السماح " (١) ، بأسرع وقت ممكن . يمكن لإرلند أن يعدّ الكتاب لسايمون في الليلة نفسها . . .لاشك أن الجروح التي في صدره ستعيقه عن الكتابة :"وغداً ستكون مرتاحاً في فراشك على ما أعتقد ، لأنه من المحتمل أن تصيبك حمى الجراح . . ."

كانت رامبورغ وآرنغيبرد ساهرتين تنتظران . وبسبب البرد كانتا قد زحفتا إلى المقعد أمام جدار الموقد الدافئ ، وقد جعلتا أقدامهما من تحتهما . . .كان بينهما لوح الداما . . .بدتا كطفلتين .

ما أن تلفظ سايمون ببضع كلمات حول ما حدث حتى كانت زوجته الشابة قد قفزت نحوه وطوقت عنقه بذراعيها . جذبت وجهه إلى وجهها وضغطت بخدها على خده . . .كما أمسكت بيدي إرلند بشدة إلى حد أنه قال إنه لم يكن يظن أن رامبورغ قوية الأصابع إلى ذلك الحد . . .

لا شيء أفضل من أن ينام هناك في تلك الليلة وأن تسهر هي إلى جانبه . وقد توسلت أن تقوم بهذا وهي تبكي تقريباً ، ولكن إرلند عرض أن يبقى هناك وأن ينام إلى القرب من سايمون إن كانت سترسل رجلاً شمالاً إلى يورونداغارد حاملاً رسالة . . .وعلى أي حال كان الوقت متأخرا على متابعة طريقه إلى البيت :"ومن المؤسف ان تسهر كريستين حتى وقت متأخر كهذا في هذا البرد . . .فهي أيضاً تنتظرني دائماً بنفسها ، وأنتما زوجتان طيبتان يا بنتي لافرانس" . . .

وبينما كان الرجلان يأكلان ويشربان ، كانت رامبورغ جالسة وقد التصقت بزوجها . كان سايمون يربت على ذراعها بين الحين والآخر . . .كان كثير التأثر ، ولكنه كان منزعجاً قليلاً أيضاً لإظهارها كل هذا الحب له والخوف عليه . وبما أنهم كانوا في الصوم الكبير الآن ، فقد كان سايمون ينام لوحده في قاعة سايموندز ، وحين مضى الرجلان إلى هناك ، ذهبت رامبورغ معهما ووضعت وعاء كبيراً من جعة العسل قرب حافة الموقد الحجري لتدفأ .

كانت قاعة سايموندز مبنىً قديماً مؤلفاً من غرفة واحدة بموقد وكانت دافئة عصية على الريح . . . كانت الجذوع ضخمة جداً بحيث كان الجدار الواحد مؤلفاً من أربعة زنود خشبية فحسب . كان الجو بارداً هناك الآن ، ولكن سايمون ألقى كومة من جذور الصنوبر في النار وطارد كلبه حتى السرير . . .كان يمكنه الاستلقاء هناك وتدفئته لهما . جرّا الكرسي الضخم والمقعد الخشبي إلى قرب الموقد وجلسا ليتدفأا فقد كان البرد قد نخر عظامهما من رحلتهما الطويلة ولم تكن الوجبة التي تناولاها في القاعة الكبيرة قد بعثت فيهما الدفء بالكامل .

كتب إرلند الرسالة لأجل سايمون . ثم راحا يخلعان ملابسهما . . . وبما أن جروح سايمون قد بدأت تنزف مجدداً حين راح يحرك ذراعيه كثيراً فقد ساعده عديله على خلع ملابسه من فوق رأسه وخلع جزمته من قدميه . كان إرلند نفسه يعرج على ساقه الجريحة قليلاً . . .كانت قد تيبست وتخدرت من ركوب

الحصان لفترة طويلة ، كما قال ، ولكنها لا شيء . وحين استقرا قرب النار مجدداً وقد خلعا نصف ملابسهما . . .فقد شعرا بأن الجو كان جيداً ودافئاً هناك الآن ، وكان الوعاء لا يزال يحوي الكثير من الجعة بعد .

"إنك تحمّل هذا الأمر أكثر ممّا يستحق يا عديلي ، وأنا أرى ذلك جيداً" قال إرلند . كانا جالسين وهما يغالبان النعاس ويحدقان إلى النار . "لم يكن خسارة كبيرة جداً ، هولمغير هذا . . ."

قال سايمون بصوت خفيض :"لن يبدو الأمر كذلك لسيرا مويزيس . إنه رجل عجوز وكاهن جيد . . ."

"إنه لأمر محزن أن تخلق عدواً لنفسك من رجل كهذا . وأنت تعرف جيداً أني غالباً ما أذهب في مهمات إلى تلك الأبرشية . . ."

"أوه! . . .ولكن حين يقال كل شيء ، فقد يحدث شيء كهذا لأي واحد منا . لا شك أنهم سيطلبون منك دفع عشرة أو اثني عشر ماركاً ذهبياً كديّة . أجل ، وأنت تعرف أيضاً أن الأسقف هالفارد سيد صارم ، حين يكون عليه أن يغفر لشخص عن فعل دموي . . .كما أن والد الشاب واحد من كهنته . ولكنك لن تخرج في حال أسوأ بكثير من كلا الاحتمالين . . ."

لم يقل سايمون شيئاً . تابع إرلند كلامه :

" سيكون عليّ أن أقدم تعويضاً عن الجروح على ما أعتقد . . ." ابتسم لنفسه . . . "ولم يعد لديّ أملاك في الأراضي النرويجية سوى تلك المزرعة في دوفر . . ."

سأل سايمون : "كم حجم مزرعة هاوغن؟"

"لا أعرف على وجه الدقة . . .وهذا مكتوب في الصك . ولكن الناس الذين يزرعون الأرض لا يدفعون مقابل الإيجار سوى بعض التبن . لا يسكن فيها أحد . . . فالأبنية تكاد تكون خرائب كما يقال لي . . .وأنت تعرف أن الناس

يقولون إن آشيلد والسير بيورن لازالا يسكنان في المكان حتى بعد الموت . . ."

"ولكن على الأقل أعرف جيداً أنه لأجل عمل هذا اليوم أدين بالشكر لزوجتي . زوجتي تحبك يا سايمون وكأنك أخوها ."

ما كان ممكناً ملاحظة ابتسامة سايمون إلا بالكاد وهو جالس في الظل هناك . لقد أعاد الكرسي الضخم إلى الخلف قليلاً وغطى عينيه بيده من حرارة اللهب . ولكن إرلند كان يستمتع بالنار كقطة . . لقد جلس قريباً جداً من الموقد وهو يتكيء على زاوية المقعد وذراعه على ظهر المقعد وساقه الجريحة ممدودة فوق المسند الآخر .

"أجل ، لقد تحدثت عن ذلك هنا في أحد أيام الخريف" قال سايمون بعد برهة ، وكان لصوته نبرة ساخرة تقريباً . :"لقد أظهرت هنا في الخريف الماضي حين مرض ابننا أنها أخت مخلصة ." كان يتكلم بجدية الآن . . .ولكن كان في صوته شيء من السخرية مجدداً ." والآن يا إرلند ، لقد حافظنا على وعودنا الواحد للآخر ، وذلك حين أقسمنا على ذلك حين وضعنا أيدينا بين يدي لافرانس وتعهدنا بأن يساند واحدنا الآخر كأخوين . . ."

قال إرلند ببساطة : " أجل ، أنا سعيد بعمل هذا اليوم أيضاً يا سايمون" . جلسا صامتين وهلة من الزمن . ثم مدّ إرلند كأنما ليبرهن على ذلك يده نحو الآخر . أخذها سايمون وقام كل واحد بسحق أصابع الآخر بقوة ثم أفلت كل واحد يد الآخر وتراجعا خجلين ، كل واحد إلى مكانه .

وأخيراً حطم إرلند الصمت . كان قد جلس طويلاً وذقنه في يديه وهو يحدق إلى النار ، حيث لم يكن هناك الآن سوى لهب صغير وآخر قد أومض قليلاً ولعب على امتداد القضبان المحروقة التي راحت تطقطق وتتساقط قطعاً بتنهدات قصيرة موجزة . وسرعان ما أصبحت الحرارة غير ملموسة إلاّ ما يصدر منها عن الفحم والحجر .

قال إرلند بصوت خفيض جداً :

" لقد عاملتني بكل طيبة قلب يا سايمون دار حتى أني أعتقد أن أندادك بين الرجال قلة قليلة . . .لم أنس بعد . . ."

"اصمت! . . . . . .أنت لا تعرف يا إرلند . . .الرب في السماء وحده يعرف" همس في خوف وبؤس . . ."كل ما يرد في ذهن المرء . . ."

قال إرلند بصوت خفيض وبتوق :" الأمر كذلك . نحتاج جميعاً إلى أن يحكم علينا الرب برحمته . . ."

" . . .ولكن على الرجل أن يحكم على الرجل بأفعاله . وأنا . . .أنا . . .فليجزك الله خيراً يا عديلي!"

وبعد هذا جلسا في صمت مطبق . . .لم يتجرأا على الحركة حتى لا يشعرا بالخجل .

وأخيراً حدث فجأة أن ترك إرلند يده تسقط على ركبته . . .التمع شعاع أزرق ناري من حجر الخاتم الذي على سبابته اليمنى . عرف سايمون أنه أخذه من كريستين حين خرج من سجنه .

قال برقة :"ولكن عليك أن تتذكر يا سايمون المثل القديم : قد يربح كثير من الناس ما كان سيؤول إلى آخرين ، ولكن لا يربح أحد قدر شخص آخر ."

رفع سايمون رأسه وقد أجفل فجأة . وببطء تضرج وجهه . . .كانت العروق في صدغيه قد برزت كحبال سوداء ملتوية .

نظر إرلند إلى الآخر . . .ثم سحب عينيه بسرعة . ثم تضرج وجهه هو أيضاً . . .وكان ذلك تضرجاً غريباً وأشبه بخجل البنات وقد راح ينتشر تحت بشرته السمراء . جلس صامتاً وخجولاً وحيياً وفمه فاغر قليلاً كطفل . نهض سايمون بقوة ومضى نحو السرير .

"الأفضل لك أن تنام في الطرف الخارجي ، على ما أعتقد " . حاول أن

يتكلم بهدوء وبصوت عادي ولكن صوته كان يرتجف .

"كلا . . .ليكن الأمر كما تريد " ، قال إرلند بتردد . نهض على قدميه كأنه في حالة من الذهول . سأل : "النار؟ هل أحرسها . . .؟ بدأ يحرك الرماد .

"يكفي الآن . . .تعال واضطجع" ، قال سايمون كما من قبل . كان قلبه يدق بقوة حتى أنه لم يكن يستطيع الكلام إلا بالكاد .

في العتمة زحف إرلند صامتاً كأنه ظل ، وذلك ليندس بين الجلود عند الحافة الخارجية للسرير ، واستلقى هادئاً كأنه وحش من وحوش الغابة . بدا لسايمون أن وجود الآخر إلى القرب منه في سريره لا بدّ سيخنقه .

-٦-

في كل عام و في أسبوع عيد الفصح ، كان سايمون أندرسون يقيم وليمة الفصح و يدعو إليها الناس من كل الأبرشية . كانوا يأتون إلى فورمو في اليوم الثالث بعد القداس و يمكثون فيها حتى يوم الخميس .

لم تكن كريستين تستمتع كثيراً بهذه الولائم و حين يكون اللهو و المرح قائمين على قدم وساق ، كان سايمون ورامبورغ يبدوان وكأنهما كلما زادت الجلبة والصخب في الوليمة كلما وجداها أفضل . وكان سايمون يرجو دائماً من ضيوفه أن يجلبوا أطفالهم معهم وكذلك خدمهم مع أطفالهم و ذلك بأكبر عدد يمكن الاستغناء عن وجوده في المنزل . في اليوم الأول مرت الأمور بهدوء و سلام ، وكان كبار القوم وأكبرهم سناً يقودون الحوار بينما يصغي الشباب ويأكلون ويشربون ، أما الأطفال الصغار فيكونون على الأغلب في مبنى آخر . ولكن في اليوم الثاني تحوّل المضيف منذ الصباح الباكر وحثّ الشباب والأشخاص غير الوقورين والأطفال على الشرب والمرح ، ولم يمر وقت طويل ، حتى كان المرح قد أصبح عنيفاً و شهوانياً إلى حد أن الزوجات والفتيات قد انكمشن في الزوايا ووقفن هناك في مجموعات وهن يضحكن ضحكات نصف مكبوتة وقد جهزن أنفسهن للفرار ؛

بينما تجمعت أكثر ربات البيوت ورعاً في مبنى السيدات الخاص برامبورغ ، حيث كانت الأمهات قد حملن أولادهن الصغار إلى هناك مسبقاً بعيداً عن الصخب في القاعة الكبرى .

ولكن في هذا العام جلب عيد الفصح طقساً ربيعيّاً جميلاً رائعاً . و في يوم الأربعاء ، ومنذ الصباح الباكر ، كان الجو دافئاً . مشمساً حتى أنه ما أن انتهت وجبة الصباح حتى اندفع الجميع خارجين إلى الباحة . وبدلاً عن الصخب القصف ، سرعان ما راح الشبان يلعبون الكرة أو يتبارون على إصابة الهدف ، أو يشدون الحبال . ثم بدأت لعبة الأيل والرقص على جذع الشجرة ، وبعد ذلك جعلوا غيرموند أوف كروكه يعزف على قيثارته ويغني . . . وبعد ذلك كله ، فإن الكبار و الصغار سرعان ما انخرطوا في الرقص . كان الثلج ما يزال قليلاً في الحقول ، ولكن غابات جار الماء كانت بنية اللون من البراعم و الشمس تشع دافئة وجميلة فوق كل حافة جبل عارية . وحين خرج الناس بعد العشاء كان هناك غناء للطيور في كل مكان . . . و قد تم إشعال مشعلة في الحقل الذي وراء ورشة الحدادة وراح الناس يغنون ويرقصون حتى وقت متأخر من الليل . في صباح اليوم التالي تأخر الضيوف في أسرتهم ، وهكذا فقد تفرقوا ثم طلبوا الإذن بالرحيل في وقت متأخر عما اعتادوا عليه . كان من عادة جماعة يورروندغارد أن تكون آخر الراحلين . . .وهكذا طلب سايمون من إرلند وكريستين أن يبقيا حتى اليوم التالي . . .فقد كانت جماعة كروكه ستبقى حتى نهاية الأسبوع في فورمو .

كان سايمون قد مضى نحو الطريق العام مع آخر دفعة من الضيوف . كانت شمس المساء تشع على نحو رائع فوق أراضيه المنتشرة فوق منحدرات الجبال . كان سايمون يشعر بالدفء والمرح بعد الشراب والوليمة ، وحين نزل بين الأسيجة متجهاً إلى البيت حيث الصداقة الهادئة السهلة التي يشعر بها الناس بعد وليمة كبيرة ، وتترك حلقة صغيرة من الأقارب معاً ، فقد أحس هو بنفسه أسعد وأخف قلباً ممّا كان عليه منذ وقت طويل .

في الحقول قرب ورشة الحدادة كانوا قد أشعلوا المشعلة مجدداً . . .أولاد إرلند وأكبر أولاد سيغريد وأبناء يون دالك وبنتاه الاثنتان . تلبث سايمون قليلاً عند السياج وهو يراقبهم . كان ثوب العيد الذي ارتدته أولفهيلد يشع بلون قرمزي في الشمس . . .راحت تتراكض في المكان وهي تجر فروع الشجر وترميها إلى النار . . . وهاهي تستلقي بطولها على الأرض ! صرخ أبوها عليهم ضاحكاً ، ولكنهم لم يسمعوه . . .

في الباحة جلست امرأتان كانتا تهتمان بالأطفال الصغار . . .كانوا جالسين جميعاً إلى القرب من جدار المنزل الصيفي وهم يتشمسون . فوق رؤوسهم كان نور المساء يشتعل مثل الذهب المنصهر فوق زجاج النافذة الصغيرة . . .أخذ سايمون إنغا غيرموندسداتر الصغيرة ورماها عالياً في الهواء ثم وضعها على ذراعه : "هل تستطيعين الغناء اليوم لعمك ، يا إنغا الفاتنة . . .؟" وعند هذا راح أخوها وأندرس يلحان عليه أن يرميهما عالياً هما أيضاً . . .

صعد الدرج وهو يصفّر نحو القاعة العليا . كانت الشمس تشع بقوة . . .وكان الباب مفتوحاً على وسعه . كان الجالسون في الداخل هادئين تماماً . في نهاية المائدة كان إرلند وغيرموند منحنين فوق القيثارة وهما يركبان لها أوتاراً جديدةً . كان قرن شراب الميد إلى جوارهما على المائدة وكانت سيغريد مستلقية على السرير وقد ألقمت أصغر أولادها ثديها . جلست كريستبن و رامبورغ إلى القرب منها . كان إبريق فضي موضوع على لوح السرير الخلفي بين الأختين . ملأ سايمون كأسه المذهب بالنبيذ ومضى نحو السرير وشرب نخب سيغريد .

"كل الناس هنا لديهم ما يكفي لإطفاء ظمئهم ، على ما أرى ، إلا أنت يا أختي !"

رفعت نفسها على مرفقها ضاحكة وأخذت الكأس . انفجر الطفل الصغير الذي قوطعت وجبته يزعق غاضباً .

جلس سايمون على المقعد ، وهو لا يزال يصفّر برقة ويصغي إلى الآخرين نصف إصغاء . كانت سيغريد و كريستين تثرثران حول أطفالهما . جلست رامبورغ تعبث بطاحونة صغيرة تخص أندرس . راح الرجال الجالسون حول المائدة يعزفون على أوتار القيثارة ليجربوها . . .غنى إرلند مقطعاً شعرياً برقة شديدة . رافق غايرموند اللحن على القيثارة وغنى المقطع الشعري وراءه . . . كان لهما كلاهما صوت متناغم . . .

بعد قليل خرج سايمون إلى الشرفة ، ووقف مستنداً على العامود المنحوت وراح يحدق فيما حوله . ومن زريبة الأبقار جاء الخوار الجائع الأبدي . ! إذا استمر هذا الطقس لفترة أخرى ربما لن تستمر مجاعة الربيع طويلاً في هذا العام .

وصلت كريستين . لم يكن في حاجة إلى الالتفات . . .كان يعرف خطواتها الخفيفة . خرجت ووقفت إلى جانبه في نور الشمس المسائي .

كانت جميلة ونقية جداً ، لم تبد له من قبل جميلة إلى هذا الحد . وفوراً أحس وكأنه أرتفع عالياً نوعاً ما ، وكأنه يعوم في نور الشمس . . .سحب نفساً طويلاً : وفجأة خطرت له الفكرة . . .كان أمراً جيداً ، من الجيد أن نكون أحياء . غمرت سعادة غنية وذهبية كل كيانه . . .

كانت هي حبّه العذب . . .وكانت كل الأفكار الثقيلة المرّة التي كان قد فكر فيها مجرد حماقات نصف منسية . يا لحبيبتي المسكينة . . . ألا يمكن أن أفعل أي شيء جيد لك . . . لو كنت ستصبحين سعيدة مرة أخرى . . . فسوف يسعدني أن أضع حياتي في خدمتك إن كان من شأن ذلك أن يساعدك . . .

أوه ، أجل ! فقد رأى وجهها المحبوب وقد اعتراه الإنهاك والتقدم في العمر . كانت تجاعيد دقيقة صغيرة قد تجمعت تحت عينيها ، وفقدت بشرتها لمعتها النقية . . .لقد أصبحت أخشن وسفعتها الشمس ، كما كانت شاحبة تحت هذا اللون الأسمر . ولكن بالنسبة إليه ستبقى أبداً جميلة على حد سواء . فقد كانت

عـيناها الرمـاديتـان الواسـعـتـان وفـمـهـا الجـمـيـل الهـادئ وذقنهـا الصـغـيـر المستدير . . .ووقفتها المرتاحة المتزنة أجمل الأشياء على الأرض .

وكـان أمراً جيـداً أيضـاً . . .أن يراها مـرة أخـرى ترتدي مـلابس تليق بسيـدة رفيعة المقام . . .المنديل الحريري الصغير الرقيق يخبئ بعضاً من شعرها الأصفر الخروبي . . .والضفائر مرفوعة ، حتى أنها كانت تطل من فوق أذنيها . . .كانت هناك خطوط رمادية في شعرها الآن ، ولكن لا يهم . كما كانت ترتدي ثوباً فخماً أزرق اللون من المخمل ، وقـد زين بفـرو القاقـوم . . . كـانت قـصـتـه عـمـيـقـة عند الصـدر ، وكـانت شـقـوق الذراعين طويلة ، حـتى أنه لم يكن يظهـر فـوق الصـدر والكتفين أكثر مما يظهر من شرائط اللجام فوق صدر حصان . . .كان أمراً رائعاً النظر إليه . من تحته كـان هناك ثوب داخلي أصفر اللون كالرمل يلتصق بالجسد ، ويرتفع عالياً حتى حنجرتها ثم ينزل نحو الرسغين . كان مزرراً بأزرار صغيرة كثيرة مذهبة ، وقد أثر فيه ذلك كله حتى القلب . . .فليسامحه الله ، كل هذه الأزرار الصغيرة المذهبة أسعدته مثل مشهد فرقة من الملائكة .

وقف وهو يحسّ بدقـات قلبـه القـوية الهـادئة . كـان شيء مـا قـد أنزلق منه . . .أجل ، مثل الأصفاد . أحلام شريرة كريهة . . .كانت مجرد ظلال ليلية ، والآن رأى حبيبته تحت نور النهار ، تحت شعاع الشمس .

"إنك لتنظر إليّ على نحو غريب جداً يا سايمون . . .لم تبتسم على هذا النحو؟ . . ."

"ضحك الرجل بصوت خفيض مرح ، ولكنه لم يجب . كـان يمتد أمامهم "الديل" ممتلئاً بوهج شمس المساء . كانت أسراب العصافير تزقزق وتشدو على حدود الغابة . . .ثم وصل من مكان عميق في الغابة غناء السمّن الواضح المليء . و هاهي تقف هناك تدفئها الشمس وتلتمع في ملابس العيد . . .بعد أن هربت من المنزل البارد المعتم والملابس الخشنة الثقيلة العابقة برائحة العرق والعمل الشاق . . .يا كريستيني . . .إنه لأمر جيد أن أراك هكذا مجدداً . . .

أخذ يدها التي كانت مسندة أمامه على الدرابزين . . .ورفعها نحو وجهه :"هذا الخاتم الذي تلبسينه بإصبعك جميل!" دوّر الخاتم قليلاً ثم ترك يدها مجدداً . كانت اليد مقرحة ومحمرّة الآن ، ولم يعرف كيف يستطيع أن يقوم بما فيه الكفاية ليعوض عنها . . .لقد كانت جميلة جداً يدها الطويلة والرشيقة . . .

قالت كريستين :"إنهما آرنغييرد وغاوته يتشاجران مجدداً . "

من تحت شرفة العلية وصلت الأصوات عالية وغاضبة . والآن صرخت الفتاة غاضبة .

" . . .أجل فلتذكرني بذلك أنت! . . .يبدو لي أنه لشرف أكبر أن أدعى بالابنة غير الشرعية لأبي على أن أكون الابن الشرعي لأبيك!"

التفتت كريستين بحدة ونزلت الدرج . لحق بها سايمون وسمع صوت صفعتين أو ثلاث على الخد . ورآها تقف تحت الشرفة وهي تمسك بابنها من كتفه .

وقف الطفلان ينظران أرضاً وقد احمر وجهاهما وكانا صامتين وكئيبين .

"أرى جيداً أنك تعرف كيف تتصرف مع مضيفيك . . .أنت تشرفنا في الواقع ، أبوك وأنا . . ."

نظر غاوته إلى الأرض . أجاب أمه بصوت خفيض وغاضب :"لقد قالت شيئاً ما . . .لن أكرره ثانية . . ."

أمسك سايمون بابنته من ذقنها وأجبرها على أن ترفع بصرها إليه . ازداد تضرج وجه آرنغييرد ثم أغمضت عينيها تحت نظرات أبيها .

أفلتت منه . "أجل . . .لقد ذكّرت غاوته بأن أباه قد حكم عليه بأنه جبان وخائن لملكه . . .ولكنه سمّاك أولاً يا أبي . . .لقد قال إنك أنت الخائن وإنك مدين لإرلند كونك تجلس هنا موسراً وسليماً في ضيعتك . . ."

"ظننتك أصبحت فتاة ناضجة الآن . . .فهل يثور غضبك من ثرثرة طفل حتى تنسي حسن السلوك وواجبات القرابة؟ . . ." دفع ابنته بعيداً عنه بغضب ، والتفت إلى غاوته و سأله بكل جدية :

"ما الذي تعنيه يا صديقي غاوته بأني خنت أباك؟ لقد أحسست سابقاً أنك غاضب مني . . .والآن عليك أن تقول السبب . "

"أنت تعرفه جيداً !"

هزّ سايمون رأسه . ثم صاح الصبي وهو يتقد حنقاً :

"الرسالة التي عذّبوا أبي على الخلعة لأجلها ، ليجعلوه يفشي بأسماء من وضعوا أختامهم عليها . . .لقد رأيتها . كنت أنا من هرب بها وأحرقها . . ."

"اصمت !" انفجر إرلند بينهم . كان وجهه قد شحب حتى أن لون شفتيه قد ابيضّ واتقدت عيناه .

"كلا يا إرلند . . .الأفضل أن نصل الآن إلى حقيقة هذا الأمر . أكان أسمي في تلك الرسالة إذن؟"

"صه !"وبغضب مجنون أمسك إرلند بابنه غاوته من صدره وكتفه . "لقد وثقت بك . . .أنت ابني ! لو قتلتك لكان ذلك من حقي . . ."

قفزت كريستين إلى الأمام وكذلك سايمون . تخلص الصبي من قبضة أبيه وتعلق بأمه . وبما أنه كان شديد الانفعال إلى حد الجنون ، فقد صرخ بشدة وهو يخبئ نفسه خلف ذراع أمه :

"لقد نظرت إلى الأختام قبل أن أحرقها . . .يا أبي ! لقد ظننت أنه سيأتي يوم أستطيع فيه أن أقدم لك خدمة بذلك . . ."

"لعنة الله عليك !" ثم صدر عن إرلند بكاء قصير جاف . كان سايمون قد شحب ثم تضرج لونه من خجله من الآخر . لم يجرؤ على النظر إلى حيث كان يقف إرلند . . .كان منظر إذلال الرجل يبدو وكأنه يخنقه .

وقفت كريستين كالمصعوقة . . .وهي لا تزال تحيط ابنها بذراعيها كأنما لتحميه . ولكن ضمن عقلها كانت الأفكار تتصارع بسرعة البرق .

كان إرلند يحتفظ بخاتم سايمون الصغير فترة قصيرة في ذلك الربيع . . .فقد كان العديلان يبيعان مستودع لافرانس في "فيوي" إلى رهبان دير "هولم" . كان إرلند قد قال إن هذا قد يكون غير قانوني ، ولكن لا يبدو أنه كان هناك من سيحقق في الأمر . لقد أراها الخاتم وقال إن سايمون قد يكون حصل على واحد أفضل نحتاً . . .فقد كان الأخوة الثلاثة كلهم قد حفروا على أختامهم شعار أبيهم ، أما الكتابات التفسيرية فكانت مختلفة . ولكن خاتم غيرد كان أفضل نحتاً كما قال إرلند . . .

. . ."غيرد دار" . . .كان إرلند قد جلب لها تحيات منه ، في آخر مرتين جاء فيها من الجنوب . . .تذكرت أنها تعجبت من زيارة إرلند لغيرد في دايفرين . . .كانا قد التقيا مرة واحدة فحسب ، في زفاف رامبورغ . . .كان أولف ساكسسون هو عديل غيرد دار . إذن كان أولف ضمن المؤامرة . . .

قال سايمون بصوت خفيض وثابت : "لم تر على النحو الصحيح " .

"سايمون!" أمسكت كريستين على نحو أعمى بيد زوجها . "تذكر . . .كان هناك رجال آخرون غيرك يحملون الشعار نفسه على أختامهم . . ."

"اصمتي !أنت أيضاً . . .! " انتزع إرلند نفسه من قبضة زوجته بصرخة معذبة واندفع عبر الباحة نحو الإسطبل . قفز سايمون من خلفه .

"إرلند . . .هل كان أخي . . .؟"

"أرسلي وراء الأولاد و الحقي بي" صرخ إرلند مخاطباً زوجته .

لحق به سايمون ثانية عند باب الإسطبل ، وأمسك به من ذراعه :

"إرلند . . .هل كان غيرد؟"

لم يجب إرلند . . .حاول أن يخلص نفسه من قبضته . كان وجهه جامداً و مجعداً وشاحباً كالموت .

"إرلند . . .أجبني . . .هل كان أخي معك في المؤامرة ؟"

"ربما كنت تريد اختبار مهارتي بالسيف أيضاً . . ." زمجر إرلند بهذه الكلمات وأحس سايمون وهما يتصارعان بأن جسد الآخر كله كان يرتجف .

"أنت تعرف أني لن أفعل ." حرّر سايمون إرلند من قبضته وترنّح نحو الخلف على عضادة الباب . "إرلند . . .من أجل حب الرب الذي مات لأجلنا . . .قل الأمر إن كان هو كذلك حقاً !"

قاد إرلند سايمون إلى الخارج مبعداً إياه بالقوة عن الباب . جلب أحد الخدم السرج واللجام . أخذهما سايمون وأرسل الرجل بعيداً . أخذهما إرلند من سايمون .

"إرلند . . .لا شك أن تستطيع أن تحكي الأمر الآن! . . .لي أنا!" لم يعرف هو نفسه لم كان يرجوه على هذا النحو ، و كأنه يرجو أن ينجو بحياته .

"إرلند . . .أجبني . . .استحلفك بندبات جروح المسيح . . .قل لي يا رجل! "

" يمكنك أن تستمر في التفكير بما فكرت به " قال إرلند بصوت خفيض ساخر .

"إرلند . . .لقد فكرت . . .لا شيء . . ."

"أعرف ما فكرت فيه " صعد إرلند إلى السرج . أمسك سايمون بالحصان من عذاره . انتصب الحصان على قائمتيه الخلفيتين وراح يتحرك بجنون .

"دعه أو أدهسك به" قال إرلند .

"إذن سأسأل غيرد . . .في الغد سأركب جنوباً . . .أستحلفك بالله يا إرلند أن تقول لي . . ."

" أجل ، ستحصل على جواب منه ، لا أشك في هذا" ، قال إرلند باحتقار . . .وقد حثّ الحصان وكان على سايمون أن يقفز جانباً . وانطلق الآخر مسرعاً وهو يخرج من الضيعة .

عند منتصف الطريق عبر الباحة قابل سايمون كريستين . كانت ترتدي عباءتها . كان غاوته يسير إلى القرب منها ، وهو يحمل الحقيبة التي تحوي ملابسهم . كانت رامبورغ ترافق أختها .

رفع الصبي نظره لحظة وهو خائف وضائع . ثم نظر بعيداً . ولكن كريستين ثبتت عينيها الواسعتين عليه . . .كانتا داكنتين من الحزن والغضب :

" هل تستطيع أن تصدق هذا عن إرلند . . .أنه يمكن أن يخونك على هذا النحو ؟"

قال سايمون بحرارة : " لم أصدق ذلك . لقد اعتقدت أنه مجرد هذر أحمق من ذلك الشيطان الصغير . . ."

" كلا يا سايمون . . .لن أدعك تذهب معي " ، قالت كريستنين بصوت خفيض .

لاحظ أنها كانت تشعر بالإهانة والحزن إلى لا يمكن التعبير عنه .

●

في المساء ، حين بقي لوحده مع زوجته في القاعة الكبرى . . .وكانا يخلعان ملابسهما ، وكان قد سبق للبنتين أن نامتا مسبقاً في السرير الآخر . . .سألته رامبورغ على الفور :

" أما كنت تعرف شيئاً عن هذا يا سايمون؟"

"كلا . . .وأنت ألم تعرفي أي شيء ؟" سألها بقلق .

اقتربت منه رامبورغ ووقفت ضمن نور الشمعة الموضوعة على المائدة . كانت قد خلعت نصف ملابسها . . .لقد بقيت في الشلحة وفي صدار مطرز ، وشعرها كان حراً في غدائر من حول وجهها .

" هل عرفتُ ؟ . . .كانت لديّ أفكاري . كانت هيلغا شديدة الغرابة" . . .التوى وجهها في نوع من ابتسامة بدت وكأنها باردة . " لقد تحدثت عن أنه ستأتي على النرويج أزمان أخرى . والنبلاء الكبار . . ." ابتسمت رامبورغ ابتسامة ملتوية خفيفة . . ." سيصلون إلى حقوقهم هنا كما في البلاد الأخرى . والفرسان والبارونات . . .سيدعون مرة أخرى . . .

" . . .لاحقاً ، حين رأيتك تدافع عن قضيتهم بكل تلك الحماسة . . . كنت بعيداً عن البيت طوال العام تقريباً . . .لم تكن تجد الوقت لتتجه شمالاً إليّ في رينغهايم حين كنت سألد طفلك في منزل رجل غريب . . .وبعد ذلك ظننت أنك كنت تعرف ربما . . .بوجود قضية أشخاص آخرين متورطين غير إرلند . . ."

"هوه ! فرسان و بارونات !" ضحك سايمون ضحكة قصيرة وغاضبة .

"ألم تفعل ذلك لأجل كريستين فحسب ؟ "

رأى وجهها شاحباً وكأنه قد أصابه الصقيع . كان من المستحيل التظاهر بأنه لم يفهم المغزى الذي أرادته . فانفجر يائساً و متحدياً وهو يقول :

" أخ !"

ثم فكر في الأمر . . .عجباً إنها مجنونة . . .وهو نفسه كان مجنوناً . إرلند كان مجنوناً . . .العالم كله فقد عقله في ذلك اليوم . ولكن لا بد من وجود نهاية للأمر كله الآن .

قال بهدوء : " فعلت ما فعلت لأجل خاطر أختك ، ولأجل الأطفال الذين لم يكن هناك رجل أقرب إليهم مني ليساندهم . ولأجل إرلند ، بما أننا عديلان . . . والآن لا تبدئي بالكلام المجنون . . .فقد رأيت منه ما يكفي وزيادة في هذا البيت اليوم . . ." ثم انفجر ورمى بالحذاء الذي خلعه على الجدار .

ذهبت رامبورغ والتقطته ونظرت إلى جذع الخشب الذي أصابه الحذاء :

"من العار ألا تفكر توربيورغ بذلك هي أيضاً . . .أن تغسل السخام هنا لأجل المأدبة . . .لقد نسيت أن أذكر لها ذلك " . مسحت الحذاء . . .كان أفضل زوج لدى سايمون وله مقدمه طويلة وكعب أحمر . . .ثم أخذت فردة الحذاء الأخرى ووضعتهما في خزانة ملابسه . ولكنه لاحظ أن يديها كانت ترتجفان بشدة وهي تفعل ذلك .

عند ذلك ذهب وضمها بين ذراعيه . لفت زوجها بأطرافها النحيلة ، بينما راحت ترتجف ببكاء مخنوق وتهمس على صدره أنها كانت مرهقة جداً . . .

●

في اليوم السابع الذي تلى ذلك اليوم كان سايمون وخدمه يسيرون شمالاً من دايفرين عبر كفام . كانوا يناضلون ضد عاصفة من الثلج الذي راح يتساقط بندف كبيرة لاصقة . وعندما اقترب الظهر وصلوا إلى مزرعة صغيرة قرب الطريق العام حيث كانت توجد حانة .

خرجت المرأة ورجت سايمون أن يدخل إلى منزلهم . . .أما الخدم فأرسلوا إلى بيت الراحة . نفضت له ملابسه الخارجية المبللة وعلقتها لتجف على العارضة فوق الموقد وهي تتكلم : يا له من طقس قذر . . .أمر مؤسف للجياد . . .لا بد أن عليه أن يقطع الطريق كله . . .ربما لا مجال للمرور بـ "ميوس" الآن؟

"أوه أجل ، إذا كان المرء متعباً من حياته بما فيه الكفاية . . ."

ضحكت المرأة والأطفال الواقفون إلى جوارها من كل قلوبهم . الكبار منهم راحوا يقومون بمهمات في الغرفة مثل إحضار الحطب والجعة . أما الصغار فتجمعوا معاً عند الباب . غالباً ما كانوا ينالون قروشاً من الماستر سايمون أوف فورمو حين كان يتوقف هناك ، ولو كان معه شيء جيد لأولاده من سوق هامار كانوا يحصلون على شيء منه . ولكن يبدو اليوم أنه لا يرغب في النظر إليهم .

جلس على المقعد وانحنى نحو الأمام ويداه فوق ركبتيه وهو يحدق إلى نار المدفأة ويجيب بكلمة هنا أو هناك على ثرثرة المرأة . ثم قالت إن إرلند نيكولاوسون كان في غرانهايم هذا اليوم . . .كان اليوم هو موعد تسديد رجال الإقطاع لأول دفعة من أموال التعويض إلى المالكين السابقين . هل عليها أن ترسل أحد الأطفال إلى عديله حتى يذهبا إلى البيت معاً ؟

قال سايمون لا . ربما تقدم له بعض الطعام وبعد ذلك سينام قليلاً .

أما إرلند فهو سيقابله قريباً جداً . ما كان يريد قوله فهو يريد من غاوته أن يسمعه . ولكنه كان يفضل أن يتحدث عن الأمر أكثر من مرة واحدة .

كان خادمه سيغورد قد استقر في المطبخ بينما راحت المرأة تطهو الطعام . أجل ، إنها رحلة متعبة . . .وعلاوة على ذلك ، فإن السيد كان يبدو كثور غاضب طوال الطريق تقريباً . كان من عادة سايمون أندرسون الإصغاء بسعادة إلى كل أنباء أبرشية مسقط رأسه التي كان بمقدور رجاله التقاطها وهم في دايفرين . كان غالباً ما يدعو شخصاً أو أكثر من "راومريكه" إلى الطعام : كان الناس يحضرون ويطلبون منه معروفاً حين يكون في دايفرين ، فقد كان معروفاً بكرمه وطيبته ومرحه ولم يكن من عادته أن يكون متعالياً أو شديداً مع خدمه . ولكن "أمسك عليك لسانك" كانت ألطف عبارة سمعها سيغورد من سيده في هذه الرحلة .

وزد على ذلك فقد بدا أنه ليس على وفاق مع أخوته . . .فهو لم ينم حتى ليلة واحدة في دايفرين ، إذ ناموا في مزرعة مستأجرة قريبة في الأبرشية . السير غيرد . . .أجل ، لا بد أنه يعرف أن الملك قد رسم شقيق السيد فارساً في فترة عيد الميلاد . . .لقد خرج السير غيرد إلى الباحة وطلب من سايمون بكل لطف أن يبقى . . .ولم يرد سايمون إلاّ بالكاد على شقيقه . وقد صاحوا وصرخوا وأرعدوا ، أولئك السادة في القاعة التي في العلية . . .كان السير أولف ساكسون وغودموند أندرسون في الضيعة . . .بما يكفي لإخافة الناس . الرب وحده يعرف ما الذي كانوا متورطين فيه . . .

مرّ سايمون بباب المطبخ وتوقف لحظة وحدق إلى الداخل . قال سيغورد إنه كان سيحضر مثقباً وإبزيماً لإصلاح السرج الذي تخرب هذا الصباح .

"وهل لديهم مثل هذه الأشياء في المطبخ في هذه المزرعة . . .؟"رد عليه سايمون بغضب ومضى في طريقه . هز سيغورد رأسه وأومأ إلى المرأة حين أصبح سايمون بعيداً عن الأنظار .

•

أبعد سايمون الطبق عنه وجلس إلى المائدة . كان مرهقاً جداً إلى حد أنه لم يستطع النهوض . ولكنه مضى بعد فترة ورمى بنفسه على السرير بجزمته ومهمازيه . . .ولكنه فكر آنذاك إنه ليشفق حتى على السرير فقد كان نظيفاً وجيداً بالمقارنة مع هذا المنزل المتواضع . جلس في السرير وخلع جزمته . كان متيبساً ومنهكاً ، لا شك أنه سينام الآن . . . وكان مبللاً ومرتجفاً من البرد ، رغم أن وجهه كان يحرقه بعد هذه الرحلة الطويلة في العاصفة .

زحف تحت غطاء السرير وتقلّب على الوسائد . . .كانت لها - ويا للغرابة - رائحة السمك . ثم هدأ وقد اتكأ على مرفقه .

بدأت أفكاره تدور من جديد في حلقة . كان قد فكر وفكر في هذه الأيام كما يدور حيوان حول نفسه وقد شد بحبل إلى وتد .

. . . حتى لو كان إرلينغ فيدكونسون يعرف مسبقاً أنها قد تكلف غيرد وغودموند دار حياتهما وأموالهما لو دفع إرلند نيكولاوسون إلى الكلام . . .أجل ، ولكن ذلك لم يجعل الأمر أسوأ لأنه بذل قصارى جهده ليكسب مساعدة فارس بياركو . العكس هو الصحيح بالأحرى . . .لا شك أن المرء يدين لأخوته بالوقوف إلى جانبهم وحتى الموت عند الحاجة . ولكن لو أنه كان يعرف بالفعل إن كان إرلينغ يعرف مسبقاً بالأمر . وازن سايمون بذهنه بين الأسباب المؤيدة والأسباب غير المؤيدة . ما كان يمكن له أن يكون غير مطلع على التمرد الذي كان يجري تحضيره . ولكن ما الذي كان إرلينغ يعرفه ؟ لم يكن غيرد وأولف على الأقل يبدوان بأنهما يعرفان إن كان الرجل عارفاً بأنهما متورطان في التمرد . ولكن سايمون تذكر أن إرلينغ سمى آل هافتورسون وقد شاوره في طلب المساعدة منهم ، فقد كان أصدقاؤهما هم من في حاجة إلى أن يكونوا خائفين . . .كان آل هافتورسون أولاد عم أولف ساكسسون وهلغا . الأنف قريب من العينين . . .!

ولكن حتى لو كان إرلينغ فيدكونسون قد اعتقد أن سايمون كان يفكر بأخويه أيضاً ، إلا أن ما فعله كان لأجل ذلك بكل تأكيد . وإن إرلينغ قد رأى جيداً أيضاً أنه لم يكن يعرف شيئاً عن الخطر المحدق بأخويه . وعلاوة على ذلك فهو لم يقل ذلك بنفسه . . . لقد تذكر أنه قال ذلك لستيغ . . .وهو لم يعتقد أنهم كانوا قادرين على انتزاع الكلام من إرلند .

وعلى أي حال ، فقد كانوا في حاجة إلى الخوف من لسان إرلند . وبعد أن بقي صامتاً رغم الأغلال والعذاب ، فقد كان شخصاً يمكنه أن يخون نفسه بسبب زلة في اللسان . سيكون ذلك هو دأبه . . .ومع ذلك . . .كان هذا هو الشيء نفسه الذي يمكنه من أن يكون واثقاً من أن إرلند لن يفعل ذلك . كان صامتاً كالحجر في كل مرة دار فيها الحديث في ذلك الاتجاه ، خشية أن يزل فيقول أكثر من المطلوب . لقد رأى سايمون خوف إرلند المحموم الطفولي تقريباً من الحنث بقسمه . . .ربما كان طفولياً ، لأنه هو نفسه قد خان المشروع الجريء عندما ترك عشيقته تعلم به ، إلاّ أن إرلند كما هو واضح لم يكن يعتبر ذلك لطخة على شرفه . مثل هذا الأمر ، كما بدا أنه كان يعتقد ، قد يحدث لأفضل الناس وطالما كان يحفظ لسانه فقد كان يعتبر أن شرفه غير ملطخ وقسمه لم يحنث . . .وقد رأى سايمون جيداً أن إرلند كان حساساً لشرفه ، طالما كان يفهم ما تعنيه السمعة الجيدة والشرف . أو لم يجعله اليأس والغضب يخرج عن طوره من مجرد فكرة أن أياً من زملائه في المؤامرة قد يفشي سره . . .(والآن بعد فترة طويلة من ذلك فلا يمكن ألاّ يكون الأمر دون معنى للرجال الذين حماهم بحياته وشرفه وثروته) . . . وذلك بواسطة كلمات ابنه التي قيلت له (لسايمون) وهو أقرب الأقرباء إلى هؤلاء الرجال أنفسهم . . .؟

. . .سيرتب الأمر بحيث أنه لو سارت الأمور على النحو غير الصحيح ،

فسوف يدفع الثمن عنهم جميعاً . . .وكان إرلند قد أقسم على الصليب أمام كل من انضم إليه في مشروعه الجريء . ولكن أن يقوم رجال راشدون في كامل قواهم العقلية بوضع ثقتهم في مثل هذا القسم! . . .فقد كان واضحاً أن القضية لم تكن في يد إرلند . والآن بعد أن عرف كل شيء عن المؤامرة اعتبر سايمون أنها كانت أكبر حماقة مجنونة سمع بها في حياته . كان إرلند مستعداً أن يُمزَق شلواً شلواً قبل أن يحنث بقسمه . وطوال هذا الوقت فإن السر بقي بين يدي طفل في العاشرة من عمره . . .كان إرلند قد وضعه هناك . ولا يبدو أن الخطأ كان خطأه أيضاً أن سونيفا أولافسداتر لم تكن تعرف أكثر مما عرفته . . .هل يمكن لأي شخص أن يفهم هذا الرجل؟ . . .

إذن ، لو فكر لحظة . . .أجل ، ما اعتبر إرلند وزوجته أنه قد فكر به . . .الله يعرف بأن الفكرة كانت قريبة جداً من يده حين خرج غاوته بحكاية عن أنه رأى الختم في أسفل الرسالة الخيانية . وكأنهما كلاهما قد تذكرا ربما أنه كان يعرف شيئاً ما أو آخر عن إرلند نيكولاوسون يعطيه مجالاً أقل من كل الرجال حتى يحمل طوال الوقت أفضل الأفكار عن هذا الشخص الشهم . ولكن ربما كانا قد نسيا منذ فترة طويلة كيف أنه داهمهما ذات مرة ورأى أعماق عارهما . . .

لذلك تمدد هناك وهو خجول ككلب مضروب لأنه أساء إلى إرلند في أفكاره . الله يعلم . . .لم يكن هو سعيداً في النظر نظرة سوء إلى عديله . . .لم يشعر سوى بالتعاسة بسبب هذه الفكرة . ولكنه كان يعرف أنها كانت فكرة خاطئة حمقاء مجنونة . . .كان سيرى مباشرة ، حتى دون كلمات كريستين ، أن الأمر ما كان ممكناً أن يكون على ذلك النحو . ما أن خطر له الخاطر -أن إرلند قد يكون أساء استخدام ختمه-حتى شعر بذلك : كلا ، ما كان يمكن لإرلند أن يفعل أمراً مشابهاً . لم يسبق لإرلند طوال حياته أن ارتكب فعلاً غير شريف عن سابق تصميم . . .أو تفكير . . .

تقلب سايمون في السرير وراح يئن . لقد دفعوه إلى الجنون هو نفسه بكل هذه الحماقة . كان يؤلمه كثيراً كثيراً أن يفكر في أن غاوته قد راح لسنوات يفكر فيه على هذا النحو . . . ولكن كان أمراً مضاداً للمنطق أن يأخذ الأمر على هذا النحو السيئ . ورغم انه كان يحب ذلك الصبي ، وكل أولاد كريستين . . .إلا أنهم يبقون مجرد أطفال على أي حال . هل كان عليه أن يهتم كثيراً برأيهم به ؟

ولماذا كان على هذا الغضب أن ينتابه حين فكر في الرجال الذين وضعوا أيديهم على مقبض سيف إرلند واقسموا على طاعة زعيمهم ؟ لو كانوا حقاً غنماً إلى هذا الحد بحيث يتركون أنفسهم يخدعون بلسان إرلند الزلق وجرأته ، وأن يعتبروا ذلك الرجل قادراً على أن يصبح زعيماً . . .إذن فليس أمراً غير متوقع أن يتصرفوا كالغنم المذعورة بعد فشل المحاولة . كان لا يزال يشعر بالدوخة حين فكر فيما سمعه في دايفرين قبل قليل . . .كثير من الرجال كانوا راغبين في تسليم أمن البلاد ومصالحهم إلى يدي إرلند . . .هافتور أولافسون وبورغار تروندسون . . .! ولم يكن لدى أي منهم ما يكفي من الرجولة ليتقدم ويطلب من الملك أن يمنح إرلند عفواً مشرفاً وأماناً لأراضيه الإرثية .

كانوا كثيرين إلى حد أنه لو وقفوا صفاً واحداً فحسب ، لما كان أمراً صعباً فرض إرادتهم . لقد بدا أنه بين نبلاء النرويج كان هناك نقص في الذكاء والرجولة بالمقارنة مع ما كان يحسبه . . .

وكان غاضباً أيضاً لأنه قد تُرك بعيداً عن تلك المشاورات . لا يعني ذلك أنهم كانوا سيجعلونه ينضم إليهم في مثل تلك المؤامرة الخالية من العقل . ولكن لأن إرلند وغيرد قد تصرفا دون معرفته وأبقياه في العتمة . . .ألم يكن هو نبيلاً بقدر البقية ؟ أولم يكن ذا شأن كبير في الريف حيث يعرفه الناس . . .؟

بأسلوب ما كان يعتبر غيرد على حق . إذن فقد أوصل إرلند سفينة زعامته إلى الدمار ، فلم يكن الرجل قادراً على أن يطلب على نحو معقول أن يتقدم رفاقه

في المؤامرة ويعترفوا بأنهم مرتبطون معه . كان سايمون يعرف أنه لو وجد غيرد لوحده لما كان سيفارق إخوته على هذا النحو . ولكن كان هناك السير أولف بساقيه الطويلتين ممدودتين أمامه وهو يحاور حول قلة الحكمة لدى إرلند . . .والآن بعد الشجار ! ثم دخل غودموند إلى المشهد . لا غيرد ولا هو نفسه سبق لهما وعرفاه يخالفهما في أي شيء . ولكن بما أنه تزوج من عشيقة الكاهن- التي أصبحت عشيقته لاحقاً - فإن الصبي قد أصبح متضخم الذات وممجداً لذاته - وبينما كان سايمون جالساً هناك فإنه سرعان ما جن جنونه من منظره بالذات . . . لقد ثرثر بحيوية . . . وبدا وجهه المستدير الأحمر مثل قفا طفل صغير حتى أن يدي سايمون راحتا تحكانه من شدة رغبته في صفعه . . . وفي النهاية لم يعرف هو نفسه ما قاله للرجال الثلاثة .

لذلك حصل شقاق بينه وبين أخوته . أحسّ وكأن عليه أن ينزف حتى الموت حين فكر في ذلك . . . وكأن روابط اللحم والدم قد تمزقت إرباً . لقد جعلته فقيراً . والظهر بدون أخوة ظهر عارٍ لا حماية له . . .

ولكن سواء كان الأمر على هذا النحو أو خلافه ، ففي وسط شجارهم الغاضب كان قد فهم فجأة -هو نفسه لم يعرف كيف -أن طريقة تصرف غيرد اللامبالية الفاترة لم يكن مصدرها حاجته الملحة لبعض السلام في بيته فحسب . لقد رأى في لمحة أن غيرد كان لا يزال يحب هيلغا ، وكان هذا ما جعل أخاه يبدو كثير القيود ودون حول أو قوة . ويا للغرابة فهو لم يفهم كيف أثاره هذا حتى الغضب ضد . . . أجل ضد الحياة كلها .

خبأ سايمون وجهه في يديه . أجل ، كان هذا هو ما يعنيه أن يكون لك أبناء صالحون بارّون . لقد كان سهلاً على غيرد وعليه هو نفسه أن يشعر بالحب تجاه العروسين اللتين جاء أبوهما ليقول إنه قد اختارهما لهما . لقد تكلم إليهما الرجل في إحدى الأمسيات بكلمات طيبة عبّر فيها عن رأيه . . .وهكذا جلسا هنا أخيراً

خجلين ، كليهما . . .من الزواج والصداقة والإخلاص بين الأزواج الشرفاء الذين يحيون حياة نظيفة . أجل وأخيراً فإن أباهما تكلم عن الصلاة والشفاعة والقداسات . كان أمراً مثيراً للأسى أن أباهما لم يجعلهما يتعهدان بالنسيان أيضاً . . .حين تكون الصداقة محطمة والشرف ميتاً والإخلاص خطيئة وسراً وعذاباً مخجلاً لا يترك القيد سوى ألم نازف لا يمكن شفاؤه . . .

بعد تحرير إرلند من السجن ، حلّ نوع من السلام عليه . . .ولو كان ذلك فحسب لأن الرجل لا يستطيع الاستمرار في المعاناة من مثل هذا الألم كما عانى هو في ذلك الحين في أوسلو . إما أن يحدث شيء ما . . .أو سيصبح الأمر أفضل من تلقاء ذاته .

لم يكن سعيداً حين انتقلت هي إلى يورونداغارد مع زوجها وكل أطفالهما ، وكان عليه مقابلتهم وأن يبقى على علاقة ودية معهم مع الحفاظ على واجبات القرابة . ولكنه سرى عن نفسه : كان الأمر أسوأ بكثير حين كان عليه أن يسكن معها لأن الرجل لا يستطيع احتمال العيش مع امرأة يحبها ، إن لم تكن زوجته ولا قريبته . وما جرى بين إرلند وبينه في تلك الليلة التي احتفلوا فيها بخلاص إرلند من السجن . . .وقد استخف بذلك : إرلند -على الأرجح-ما كان قد فهم أكثر من نصف المسألة ويبدو أنه لم يفكر إلا قليلاً فيها . كان إرلند يتمتع بموهبة نادرة في النسيان . وهو نفسه كانت لديه ضيعته وزوجته التي كانت عزيزة عليه وكذلك أولاده .

لقد وجد السلام على نحو ما . لم تكن غلطته أنه كان يحب أخت زوجته . لقد كانت خطيبته ذات مرة . . .لم يكن هو الذي فسخ الخطوبة . حين أحب كريستين لافرانسداتر لأول مرة ، كان ذاك مجرد واجب مفروض عليه ، لأنه اعتبر آنذاك أنها ستصبح زوجته . ولكن حصوله على أختها كان أمراً من فعل رامبورغ وأبيها لافرانس ، رغم أنه كان رجلاً حكيماً ولم يخطر له أن يسأل إن كان

سايمون قد نسي . وحتى لو عرف ، فما كان من شأن لافرانس أن يسأل مثل هذا السؤال .

لم يكن جيداً في النسيان . لم يكن الخطأ خطأه . وهو لم يتلفظ بكلمة واحدة كان يجب أن تبقى غير ملفوظة . لم يكن قادراً على مغالبة الأمر لو أن الشيطان أغواه بأحلام وإغواءات تسيء إلى رابطة الدم . . .وهو لم يستسلم أبداً أمام أفكار الحب المترعة بالخطيئة . وفي الأفعال كان هو أخاها الموثوق . كان يعرف هذا بنفسه .

وأخيراً توصل إلى ألاّ يكون غير راض عن مصيره .

طالما كان يعرف أنه هو الذي خدم هذين الشخصين هناك -كريستين والرجل الذي تخلت عن سايمون لأجله - فقد كانا مضطرين دائماً إلى طلب النجدة منه .

لم يعد الأمر كذلك الآن . لقد خاطرت كريستين بحياتها وشفاء روحها لإنقاذ حياة ابنه . لكأنما تفتحت كل الجروح القديمة منذ أن ترك هذا الأمر يحدث .

ومنذ ذلك الحين فقد أصبح يعتبر أنه مدين لإرلند بحياته .

. . .وثم فإنه قد أخطأ في حقه بدوره . . .ليس بإرادته - في أفكاره فحسب-ومع ذلك . . .!

. . ." إت ديميتا نوبيسديبيتا نوسترا ، سيكوت إت نوس ديميتموس ديبيتوريبوس نوستريس . . .غريب أن لا يكون الرب علمنا أيضاً أن نصلي :" سيكوت إت نوس ديميتيموس كريديتوريبوس نوستريس"

. . . كان لا يعرف إن كان ذلك صحيحاً باللاتينية . . .لم يكن قوياً بتلك اللغة . ولكنه كان يعرف أنه لم يكن قادراً على جعل نفسه يسامح دائنيه إلى حد كاف . بدا له أصعب بكثير أن يسامح شخصاً وضع عبئاً من الدين على كتفيه . . .

والآن حين أصبحا قادرين على القول إنهم أصبحوا متعادلين . . .هو وهما . . .فقد شعر بكل حقد قديم داسه تحت قدميه في هذه السنوات الكثيرة وكأنه قد نبت ونما . . .

لم يعد قادراً على إزاحة إرلند جانباً في أفكاره . . .على أنه ثرثار أحمق لا يستطيع أن يرى أو يتعلم أو يفكر ولا أن يحمل شيئاً في ذهنه . لقد أصبح الآخر يثقل على روحه الآن ، وذلك لأنه لا أحد يستطيع أن يعرف ما رآه إرلند وفكر به وتذكره . . .لم يكن هناك من يحاسبه .

"قد يكسب رجال كثيرون ما كان من نصيب الآخرين ولكن لا يكسب أحد قدر شخص آخر . "

كان قولاً صحيحاً صادقاً .

لقد أحب عروسه الشابة . لو حصل عليها لكان رجلاً راضياً جداً . وربما كانا – على الأرجح – سيعيشان سعيدين معاً . وكانت ستبقى كما كانت حين تقابلا لأول مرة : لطيفة ونقية وحكيمة حتى يمكن للمرء أن يشاورها في عظائم الأمور . في المسائل الصغيرة هي عنيدة نوعاً ما ، ولكنها طيّعة في الأغلب ، إذ كانت معتادة حين كانت تحت رعاية أبيها على أن تترك نفسها تُقاد وتُساعد وتُحمى . . .ثم جاء هذا الرجل وتمكن منها . . .وهو شخص غير قادر على أن يوجه نفسه ، ولم يسبق له أن حمى أحداً . لقد انتهك عذريتها وحطم هدوءها الأبيّ ومزّق روح المرأة فيها ، وأجبرها على أن تمدّ قوتها إلى آخر حد ممكن . كان عليها أن تقف مع عشيقها كما يحرس طائر صغير عشه ، بجسد نابض وصرخات حادة ، حين يقترب من بيته أي شيء . كان جسدها العذب الرشيق قد بدا له وكأنه يُرفع عالياً بين ذراعي رجل ويُحمى بحب . . .لقد رآه متوتراً بالعناد الجنون بينما قلبها يدق في جوفها من الخوف والشجاعة وشهوة القتال ؛ وقد قاتلت لأجل زوجها وأطفالها كما قد تصبح حتى الحمامة عنيفة شرسة جريئة حين يكون لديها صغار .

لو كان هو زوجها . . .لو عاشت خمسة عشر شتاء في حمى إرادته الطيبة الصادقة . . .كان يعرف جيداً أنها كانت ستقف دفاعاً عنه لو حلّت به أي مصيبة . وبالحكمة وبالإرادة المصممة كانت ستقف إلى جانبه . ولكنه ما كان سيرى الوجه الحجري الذي قابلته به تلك الليلة في أوسلو ، وهي تحكي له أنها ذهبت إلى ذلك المنزل وتجولت فيه . ما كان سيسمعها قط تصرخ باسمه بصوت اليأس والحزن المجنونين . ولم يكن ذلك هو الحب النقي والشريف لشبابه الذي أصيب في قلبه . كان التوق المجنون الذي برز وصرخ جواباً على غضبها المجنون . . .لم يسبق له أن تعلم أنه ما كان هناك شيء يمكنه أن يسكن في روحه على هذا النحو لو سارت الخطة التي رسمها لهما أبواهما كما كان متوجباً . . .

يا لوجهها وهي تمر به ليلاً لتنشد العون لطفله . . .لم تكن لتجرؤ قط على السير في ذلك الدرب لو لم تكن زوجة لإرلند وقد اعتادت منذ زمن طويل على الانطلاق دون وجل ، حتى لو كان قلبها يرتجف من الخوف . ويا للابتسامة على وجهها الدامع حين أيقظته وقالت إن الصبي كان ينادي أباه . . .لا يمكن لأحد أن يبتسم ابتسامة بتلك العذوبة الخارقة إلا العارف بمعنى أن تخسر معركة ومعنى أن تكسبها . . .

كانت زوجة إرلند هي من يحب . . .وهو لا يزال يحبها . ولكن حبه خطيئة ولا أمل فيه . . .عليه أن يكون تعيساً . . .لقد كان تعيساً إلى حد أنه ما كان يشعر أحياناً إلا باستغراب كبير كونه هو الذي وصل إلى هذا الدرب وهو الذي ما كان قادراً على تلمس الطريق الذي يخلصه من تعاسته .

. . . حين داس على شرفه وكل تربيته الراقية وذكّر إرلينغ فيدكونسون بأشياء ما كان لرجل شريف أن يهمس بها حسب علمه . . . وقد فعل ذلك ، ليس من أجل إخوته وأقربائه ، ولكن من أجلها هي فحسب . لأجلها هي فحسب جعل نفسه يتسول من الرجل الآخر كما يتسول المجذومون عند أبواب

الكنيسة في المدن الكبرى وهم يعرضون على العيان قروحهم الكريهة . . . . . .

لقد فكر . . . لابدّ أنها ستعرف بالأمر ذات يوم . ليس كل شيء ، ليس إلى أي درك أوصل نفسه . ولكن حين سيشيخان كلاهما في يوم من الأيام ، فإنه قد فكر في أنه سيقول لكريستين ما يلي : لقد ساعدتك بقدر ما استطعت لأني تذكرت كم كنت أحبك حينما كنت خطيبتي .

كان هناك أمر واحد لا يجرؤ على التفكير فيه . ألم يقل إرلند أي شيء لكريستين؟ . . .أجل لقد فكر في أنها يوماً ما ستسمع الأمر من فمه هو : . . لم أنس قط أني أحببتك حين كنا شابين صغيرين . ولكن لو حدث أنها تعرف ، وأنها عرفت ذلك من زوجها . . . كلا ، عندها لن يعود قادراً على التحمل أكثر من ذلك . . .

كان ينوي أن يقول لها لوحدها . . . يوماً ما ، بعد زمن طويل . حين كان يفكر في تلك الساعة التي سيفشي بها هو نفسه بسره . . . عن تعثر إرلند بذلك الشيء الذي ظنه هو مخبأ في أعمق أعماق قلبه! وكانت رامبورغ تعرفه . . . رغم أنه لم يستطع أن يفهم كيف رأته . . .

زوجته هو . . . وزوجها هي . . . كانا على علم بذلك . . .

صرخ سايمون صرخة مجنونة خانقة ، وهو يرمي بنفسه فجأة على الجانب الآخر من السرير . . .

فليساعده الرب ! كان دوره الآن في الاستلقاء عارياً تماماً وغاضباً ونازفاً من جراح التعذيب ومرتجفاً من العار . . .

•

فتحت المرأة الباب . من السرير قابلت عينيها عينا سايمون الحمراوان الجافتان اللامعتان :"ألم تنم؟ . . .لقد مرّ إرلند نيكولاوسون للتو مع شخصين آخرين

. . .على الأرجح هما ابناه اللذان كانا معه" . هممهم سايمون كجواب بشيء غاضب لا معنى له .

•

سيتركهم يسبقونه . ولكن سرعان ما سيكون قد آن الأوان ليفكر هو في الاتجاه نحو بيته . . .

. . .ما أن يهبط إلى القاعة ويخلع ملابسه الخارجية حتى يكون أندرس قد أمسك بقبعته الفرو ووضعها على رأسه . وبينما يجلس الصبي على المقعد كأنه حصان ليذهب إلى عمه في دايفرين ، ستنزلق القبعة الكبيرة فوق الأنف الصغير ثم تعود إلى الخصل الجميلة اللامعة . . .ولكن ما كان يفيده قط التفكير في مثل هذه الأمور . . .الرب يعرف متى ، سيذهب الصبي لزيارة عمه في دايفرين . . .وبدلاً عن ذلك جاءته ذكرى ابن آخر له . . .طفل هالفريد . إرلينغ . . .لم يكن يفكر فيه غالباً . جسد طفل أزرق رمادي . . .ما كان قد رآه إلا نادراً خلال الأيام التي عاشها . . .كان عليه أن يسهر قرب سرير أم الطفل المحتضرة . لو بقي ذلك الطفل حياً . أو لو عاش فترة أطول من أمه . . .لكانت "ماندفيك" ستصبح ملكاً له . وعندها كان على الأرجح سيبحث عن زوجة جديدة هناك في الجنوب . ما كان سيزور ضيعته هنا إلا لماماً ، شمالاً في "الديل" . وربما على الأرجح كان لن ينسى كريستين - فقد راقصته رقصة رائعة إلى حد ما كان معها سينساها . . .يا للشيطان . . .يمكن للرجل دون شك أن يتذكر ، كمغامرة ، أنه كان مضطراً إلى جلب خطيبته ، عذراء رفيعة المولد ، تربت بأسلوب طاهر مسيحي ، إلى بيتها من ماخور ومن سرير رجل آخر . ولكنه ربما لن يستمر في تذكرها هي التي عذبته وسلبته كل سعادة كان يمكن للحياة الطيبة أن تمنحه إياها . . .

لو عاش إرلينغ لكان في الرابعة عشرة من عمره الآن . . .حين سيبلغ أندرس مبلغ الرشد سيكون هو عجوزاً منزوياً . . .

أوه أجل يا هالفريد . . .لم تكوني سعيدة معي . ربما أستحق أن تكون الأمور قد سارت معي كما سارت حتى الآن . . .

وثم لا شك أن إرلند نيكولاوسون كان سيضطر إلى دفع ثمن حماقته وكانت كريستين جالسة الآن في يورونداغارد كأرملة . . .

وكان هو نفسه سيتجول على الأرجح في أرجاء المكان وهو يتوجع لأنه رجل متزوج! ما كان هناك أمر تنقصه الحكمة مثل أن يصدق هو ذلك بنفسه الآن . . .

●

كانت الريح قد هدأت الآن ولكن رقاقات كبيرة رطبة من ثلج الربيع كانت لا تزال تهطل حين انطلق سايمون من باحة النزل ، والآن مع اقتراب المساء ، كانت الطيور تغني وتغرد في الأجمات رغم الثلج الهاطل .

كما ينكأ جرح مع حركة سريعة فإن الذكرى العابرة تسبب الألم . . .فقبل مدة قصيرة في وليمة عيد الفصح التي أقامها -جلست مجموعة كاملة منهم في الخارج يتشمسون تحت شمس منتصف النهار . فوقهم عالياً في شجرة بتولا كان يجلس طائر أبو الحناء وهو يغني في الهواء الأزرق الدافئ . وصل غيرموند بعد أن التف من حول المنزل وهو يعرج ويجر نفسه على عصاه وإحدى يديه على كتف أبنه الأكبر . رفع بصره وتوقف وقلّد الطائر . كما بوّز الغلام فمه وصفّر . كانوا قادرين على تقليد كل لحن من ألحان الطيور تقريباً . وقفت كريستين بعيداً وسط بعض النسوة الأخريات . كانت ابتسامتها جميلة جداً وهي تصغي . . .

مع اقتراب الغروب أصبح الغيم رقيقاً في الغرب . . .ثم تدفقت غيوم ذهبية على امتداد جوانب الجبال وملأت الوديان والوهاد الصغيرة بسديم رمادي سميك . كان للنهر وميض كليل ، كأنما هو وميض نحاسي . . . كان يندفع ويتموج عريضاً ومعتماً من حول الصخور في مجراه وعلى كل حجر كانت وسادة بيضاء صغيرة من الثلج المتساقط حديثاً .

تقدمت الجياد المنهكة ببطء فوق الطرقات الثقيلة . كانت ليلة بيضاء كالحليب مع بدر يطلّ عبر الغيوم والسديم ، وذلك بينما كان سايمون يهبط الضفاف المنحدرة لنهر "أولا" . وبعد أن عبر الجسر ثم انطلق عبر أشجار التنوب حيث يمر الطريق خلال الشتاء ، أسرعت الجياد . . .كانت تعرف أنها تقترب من إسطبلاتها . ربت سايمون على عنق ديغربايين المبلّل . كان سعيداً على أي حال أن رحلته قد اقتربت من نهايتها . على الأرجح ستكون رامبورغ قد نامت قبل فترة طويلة من الآن .

وحيث يلتف الطريق بحدة مغادراً الغابات كان هناك منزل صغير . كان قد وصله بالضبط حين أحس بأن بعض الرجال على جيادهم قد توقفوا أمام الباب . سمع صوت إرلند وهو يصيح :

"إذن إنه لأمر أكيد أن تأتي في اليوم الأول بعد العيد . . .هل سأقول ذلك لزوجتي . . .؟"

صرخ سايمون محيّياً . سيكون أمراً خالياً من التهذيب عدم مرافقتهم في طريقهم ، ولكنه طلب من سيغورد الاستمرار . ثم اقترب من الآخرين . كانا ناكفه وغاوته . تقدم إرلند من باب المنزل في اللحظة نفسها .

حياهم مجدداً . . .ورد عليه الثلاثة التحية ببعض الحرج نوعاً ما . استطاع أن يرى وجوههم بصعوبة في النور المومض . . .بدا لسايمون أنهم ينظرون إليه بريبة . . .وقد بدا عليه الفضول والامتعاض فوراً . لذلك قال مباشرة :

"وصلت من دايفرين لتوي يا عديلي" .

"أجل ، سمعت أنك اتجهت جنوباً . كان إرلند واقفاً ويده على قوس السرج وهو ينظر إلى الأسفل . "لقد قطعت الطريق بسرعة كما يبدو" ، أضاف وكأنه يريد تحطيم صمت مزعج .

قال سايمون للشابين وهما ينويان الاستمرار في سيرهما :"كلا توقفا قليلاً ،

وأنت أيضاً عليك أن تسمع ما أريد قوله : كان ختم أخي ما رأيته على تلك الرسالة ، يا غاوته . وأعتقد أن الأمر يبدو لك وكأن الفرسان الآخرين الذين وضعوا أختامهم على رسالة الأمير هاكون التي كان أبوك سيحملها إلى الدنمارك قد خانوا أباك . . ."

نظر الشابان إلى الأرض في صمت . قال إرلند :

"هناك شيء واحد أعتقد أنك لم تفكر فيه يا سايمون حين ذهبت للتشاور مع أخيك . لقد اشتريت السلامة لغيرد والآخرين بثمن غال . . .بكل ما ملكت عدا سمعة الرجل الثقة الذي يتمسّك بكلمته . والآن يعتقد غيرد دار حقاً أنه لم تتبقَ لي حتى تلك السمعة . . ."

أحنى سايمون رأسه خجلاً . لم يكن قد فكر في ذلك .

"لِمَ لَمْ تقل هذا لي يا إرلند حين قلت لك إني سأذهب إلى دايفرين . . .؟"

" لا شك أنك رأيت بنفسك أني كنت غاضباً جداً حين غادرت ضيعتك ، فلم أكن قادراً على التفكير أو التشاور . . ."

"لم أكن في كامل عقلي أنا أيضاً يا إرلند . . ."

"كلا ، ولكن بدا لي أنه قد يكون لديك وقت للتفكير خلال هذا الطريق الطويل . كما أني لم أكن قادراً على جعلك تتخلى عن نيتك في استجواب أخيك ، دون الإفشاء بالأمور التي أقسمت بأن أبقيها طي الكتمان . . ."

لم يقل سايمون شيئاً لبعض الوقت . . .في البداية بدا له أن الآخر كان على حق . ثم خطر له . . .كلا ، الآن كان إرلند عنيداً جداً . هل سيبقى صامتاً ويجعل كريستين والأبناء يظنون به الظنون؟ سأل هذا على نحو حاد نوعاً ما .

"لم أذكر كلمة من هذا يا قريبي لأمي أو لأخوتي " ، قال غاوته وهو يلتفت بوجهه الوسيم اللامع إلى سايمون .

"أجل ، ولكنه عرفوا به في النهاية على أي حال " ، أجاب بعناد . "أعتقد

أنه بعد كل ما جرى في بيتي في ذلك اليوم أصبحت الحاجة تدعو الآن إلى جلاء الأمور . ولا أرى كيف خطر ذلك لأبيك على حين غرة . . .وأنت لست أكثر من طفل الآن يا غاوته وكنت صغيراً تماماً حين جعلك شريكاً في هذه الأمور السرية" .

صاح إرلند بغضب :" لقد عرفت أني كنت أستطيع الثقة بابني . ولم يكن أمامي خيار حين كان عليّ أن أنقذ الرسالة . كان عليّ إما أن أعطيها لغاوته أو أترك الوصي على العرش يجدها . . ."

بدا لسايمون أنه لا طائل من المزيد من الكلام حول هذه القضية . ولكنه لم يستطع منع نفسه من القول :

" لم يعجبني الأمر حين علمت أن الصبي كان لمدة سنوات أربع يظن بي الظنون . لقد تحملت منك الكثير يا غاوته . "

حث الصبي حصانه إلى الأمام لبضع خطوات . ثم مدّ يده ورأى سايمون وجهه يعتم وكأنه قد تضرج .

" عليك أن تسامحني يا سايمون !"

أمسك سايمون بيد الصبي . كان وجه غاوته أحياناً يبدو شبيهاً جداً بوجه جده لأمه وكان ذلك يؤثر كثيراً في سايمون . كانت له ساقان محنيتان قليلاً ويبدو قصير القامة وهو مترجل ، ولكنه كان فارساً من الطراز النادر ، وعلى متن الحصان كان يبدو كفتى يتحلى برجولة مبكرة مّا يثلج صدر أبيه .

والآن هاهم يتجهون شمالاً ، أربعتهم ، والشابان الصغيران في المقدمة . وحين أصبحا خارج مسمع الصوت قال سايمون :

"فلتفهم يا إرلند . . .أعتقد أنك لا تستطيع أن تلومني لأني ذهبت إلى أخي وطلبت منه أن يقول لي الحقيقة حول المسألة . ولكني أعتقد أنك كنت محقاً إذ غضبت مني ، أنت وكذلك كريستين . لأنه ما أن . . ." وهنا بدأ يتلمس

باحثاً عن الكلمات . . ." ما أن خرجت هذه الكلمات إلى العلن . . .أي ما قاله غاوته عن الختم . . .لم أعد أستطيع إنكار الفكرة . . .فهمت أنك تعتقد أني فكرت فيما هو غير قابل للتفكير فيه . لذلك أقول إنه كان لديك من الأسباب ما يجعلك غاضباً . . ."

نثرت الجياد الطين الثلجي وهي تتقدم . لم يجب إرلند إلا بعد فترة وقد بدا صوته خجولاً ورقيقاً :

"لا أعرف على أي حال ما كنت ستفكر فيه . كان ذلك أسهل الأمور على التفكير . . ."

" آه كلا ، كان عليّ أن أعرف جيداً أن ذلك كان مستحيلاً " ، قاطع سايمون متألماً . ثم سأل بعد وهلة :

"هل ظننت أني كنت أعرف بالأمر . . .أمر أخي ؟ وأنه لأجله حاولت مساعدتك ؟"

قال إرلند متعجباً : "كلا ، كنت أعرف عن ثقة أنك ما كنت لتعرف . وأنا لم أقل شيئاً وهذا ما عرفته . وأن أخاك لم يزلّ لسانه فهو أمر كنت قادراً على الوثوق منه . "ضحك قليلاً . ثم أصبح جدياً . "أعرف أنك فعلت ذلك لأجل حمينا . . .ولأنك طيب . . ." قال إرلند برقة .

تابع سايمون السير فترة من الزمن دون أن يقول شيئاً .

سأل بعد قليل :

"أكنت غاضباً بمرارة يا ترى ؟"

" أوه ! . . .حين أتيح لي الوقت لأفكر . . .لا أرى وجود أي معنى آخر تستطيع إضفاءه على المسألة . . ."

" وماذا عن كريستين " ، سأل سايمون بصوت أخفض .

"أجل ، هي . . .!" ضحك إرلند كما من قبل . " تعرف جيداً أنها لا تطيق

أن يشير إليّ أي شخص بالبنان . . .إلا هي نفسها . إنها تعتبر أنها تستطيع أن تعتني بالأمر جيداً بنفسها . وهذا ينطبق على أولادنا . فليرحمني الرب لو أني وجّهت لهم كلمة لوم واحدة ! ولكن ثق بي ، لقد جعلتها تعرف ما هو الصحيح . . ."

"هل فعلت ذلك . . .؟"

"أجل . . .حين يكون الوقت والجو ملائمين سأجعلها تفهم دون شك . أنت تعرف جيداً أن كريستين هي من النوع الذي ما أن يتأمل في الأمر ، فإنه سيتذكر أنك قد أبديت لنا صداقة مخلصة . . ."

أحس سايمون بقلبه يرتجف من الغضب اللاذع . أحسّ أن الأمر كان أكثر من أن يستطيع احتماله . . .بدا الآخر وكأنه يفكر أنهم يبعدون هذه الفكرة عن أذهانهم نهائياً . كان وجهه تحت نور القمر الشاحب يبدو في سلام تام . ارتجف صوت سايمون لتغيّر مزاجه وهو يتكلم مجدداً :

" سامحني يا إرلند ، لا أفهم كيف أستطيع أن أصدق . . ."

قاطعه الآخر نافذ الصبر :" أنت تعرف أني أفهم . أعتقد أنه كان صعباً عليك أن تصدق خلاف ذلك . . ."

" لكم أتمنى على الرب لو أن هذين الشابين الأحمقين لم ينطقا قط" ، قال سايمون بقوة .

"أجل . . .لم يسبق لغاوته أن تلقى عقوبة مثل تلك في حياته من قبل . . .وأن تفكر في أن ذلك كله حصل بسبب التشاحن حول أجدادهم الأبعدين . . .رايدار بيركباين والملك سكوله والأسقف نيكولاوس . " هز إرلند رأسه . "ولكن هيا يا عديلي ، لا تفكر في الأمر أكثر من ذلك . . . الأفضل أن ننسى كل هذا بأسرع ما نستطيع . . ."

" لا أستطيع !"

"كلا يا سايمون !" وقد حصل هذا كنوع من الاحتجاج ولكن بلطف وتساؤل . " لا يستحق الأمر أن نأخذه بهذه الجدية . . .!"

"لا أستطيع ، أتسمعني ! لست رجلاً صالحاً بالدرجة نفسها التي أنت عليها!"

نظر إليه إرلند مذهولاً :

" لا أعرف ما تعنيه الآن " .

" أنا لست بالرجل الصالح بالدرجة نفسها التي أنت عليها! لا أستطيع أن أغفر بكل هذه السهولة لأولئك الذين أخطأت في حقهم . "

" لا أعرف ما تعنيه " ، قال الآخر كما من قبل .

" أعني . . ." أصبح وجه سايمون مجعداً ومشوهاً بالألم والانفعال ، تحدث بصوت خفيض وكأنه يكبح توقاً إلى الصراخ عالياً . " أعني . . . لقد سمعتك تقول كلمات طيبة عن سيغورد ، ذلك اللاغماند في ستايغن ، ذلك الرجل العجوز الذي سرقت منه زوجته . لقد رأيت وعرفت أنك أحببت لافرانس بكل حب قد يكنّه الابن لأبيه . ولم ألاحظ قط أنك تحمل أي ضغينة ضدي لأنك -أغويت خطيبتي وأخذتها مني . لستُ سامي المبادئ كما تظن يا إرلند - لست سامي المبادئ مثلك . . .أنا . . .أنا أحقد على الرجل الذي أخطأت في حقه . . ."

كانت وجنتاه قد تضرجتا من الانفعال ، فحدق إلى عيني الآخر . كان إرلند قد أصغى إليه بفم نصف مفتوح .

" هذا ما لم أحلم به حتى هذه الساعة ! هل تكرهني يا سايمون ؟ " همس مصعوقاً .

"ألا يبدو لك أن لديّ سبباً لذلك . . .؟"

ودون أن يعرف الرجلان ذلك فقد أوقفا جواديهما كلاهما . جلسا يحدقان

كلٌ إلى وجه الآخر : كانت عينا سايمون الصغيرتان تلتمعان مثل الفولاذ . في النور الأبيض السديمي لليل رأى أن ملامح إرلند الدقيقة كانت ترتجف ، وكأن شيئاً ما كان يتحرك فيه . . .استيقاظ ما . . .رفع نظره من تحت جفنيه نصف المغلقين ، وعضّ على شفته السفلى المرتجفة .

" لا أستطيع احتمال لقائك مرة أخرى ! "

"يا رجل ! . . . لقد حدث ما حدث قبل عشرين عاماً " ، انفجر إرلند مذهولاً .

" أجل . ألا تظنّ أنها تستحق التذكّر مدة عشرين عاماً ؟ "

انتصب إرلند في سرجه . . .وقابل تحديقة سايمون بثبات . راح نور القمر يعطي شرارة خضراء زرقاء في عينيه الفاتحتين الواسعتين .

" أجل . فليباركها الرب !"

وهكذا جلس للحظة . ثم همز جواده واندفع إلى الأمام على امتداد الطريق الموحل ، ناثراً الماء عالياً خلفه . كبح سايمون ديغربابن . . .كاد يقع أرضاً ، فقد كبح الجواد على نحو فجائي جداً . تأخر هناك على حافة الغابة محاولاً كبح الحيوان نافد الصبر ، طالما كان قادراً على سماع وقع الحوافر في الطين .

كان الندم قد غلبه في اللحظة التي قال فيها ما قاله . الندم والعار . . .لكأنه قد ضرب أكثر المخلوقات عجزاً . . .طفلاً . . . أو حيواناً جميلاً ولطيفاً دون عقل . . . في غضب لا معنى له . بدا له حقده كرمح مرتجف . . .بدا هو نفسه وقد انكمش بسبب بساطة هذا الرجل الخالية من الحكمة . . .طائر الشؤم هذا ، إرلند نيكولاوسون ، لا يتمتع إلا بالقليل جداً من الفهم ، لكأنما كان يجب أن نعتبره عاجزاً وبريئاً في آن معاً . . .

لعن وشتم في صمت وهو على حصانه . بريء . . .تجاوز الرجل الأربعين من عمره منذ زمن طويل . . .لقد آن الأوان كي يتعلم أن يتحمل أن يُخاطبه رجلاً

لرجل . إن كان سايمون قد جرح نفسه . . . أجل ، فليأخذه الشيطان إن لم يكن ذاك ثمناً بخساً يدفعه إن كان قد وجّه ضربة إلى إرلند ولو لمرة واحدة .

هاهو ينطلق الآن نحو البيت إليها . . ." ليباركها الرب " ، قال وهو يقلّده بسخرية . ثم ستكون هناك نهاية لكل هذا النضال لأجل الحب الأخوي . . .بين هذين الاثنين هناك ، بينه هو وبين ذاك . لم يعد في حاجة بعد الآن إلى مقابلة كريستين لافرانسداتر . . .

. . .جعلته الفكرة مبهور الأنفاس . . .ومع ذلك فليأخذ الشيطان كل ذلك ! ولم لا . . .؟ " إن آلمتك عينك فاقلعها " قالت الكهنة . ولأجل هذا السبب ، كما قال لنفسه ، قام بهذا الأمر . . .ليهرب من الإدعاء بوجود حب أخوي بينه وبين كريستين . . .لم يعد يحتمل الأمر . . .

كانت لديه أمنية واحدة الآن . . . ألا تستيقظ رامبورغ حين يعود إلى البيت .

ولكن ما أن سار بين الأسيجة حتى رأى شكلاً معتماً في عباءة يقف تحت شجر الحور الرجراج . كان كتان غطاء رأسها أبيض ظاهراً .

●

كانت تنتظر هنا كما قالت منذ أن وصل سيغورد إلى البيت . كانت الخادمات نائمات وكانت رامبورغ تحرك العصيدة بنفسها بعد أن صبتها من القدر لتبقى دافئة ووضعت لحم الخنزير المقدد والخبز على المائدة وجلبت جعة طازجة .

سألها الرجل وهو يأكل :" ألا تريدين أن تأوي إلى فراشك يا رامبورغ ؟"

لم تجب رامبورغ . ذهبت إلى نولها وبدأت تدخل وتخرج الكرات ذات الألوان المتعدّدة من السداة . كانت قد بدأت تصنع نسيجاً مطرزاً قبل عيد الميلاد ، ولكنها لم تكن أنجزت جزءاً كبيراً منه .

قالت وهي تقف وظهرها باتجاهه :" لقد انطلق إرلند شمالاً قبل فترة وجيزة . لقد ظننت مما قاله سيغورد أنك كنت قادماً معه ؟"

" كلا . . . لم يحدث ذلك . . ."

"أكان إرلند أكثر توقاً للبيت والفراش منك؟" ضحكت قليلاً . وحين لم تحصل على جواب قالت مجدداً : " إنه يتوق دائماً للعودة إلى البيت إلى كريستين حين تكون لديه مهمة تبعده عن البيت . . ."

بقي سايمون صامتاً فترة طويلة قبل أن يجيب : "لم نفترق إرلند وأنا كصديقين . "التفتت رامبورغ بحدّة . . .ثم قال لها ما سمعه في دايفرين ، وعن الجزء الأول من حواره مع إرلند وولديه .

" أعتقد أنه ليس أمراً منطقياً الاختلاف حول هذا . . .بعد أن استطعتما البقاء صديقين حتى الآن . "

"ربما . . .ولكن هذا ما جرى . ولكن كان صعباً سرد الحكاية كلها الليلة . "

•

التفتت رامبورغ إلى نولها وأشغلت نفسها بالعمل مجدداً .

سألته فجأة :" سايمون ، أتذكر الحكاية التي كان سيرا آيريك يقرأها لنا في بعض المرات-من الكتاب المقدس-عن فتاة شابة تسمى أبيشاع الشوناميتية؟"(*)

" كلا " .

" حين أصبح الملك داود شيخاً وبدأت قوته ورجولته تخونانه " ، بدأت زوجته بالكلام ولكن سايمون قاطعها :

"يا رامبورغ ، لقد مضى الشطر الأكبر من الليل . ليس الوقت ملائماً لسرد حكاية الآن . . .وأذكر أيضاً الآن كيف أطلق اسمها عليها . . ."

ضربت رامبورغ اللحمة بالقصبة . صمتت قليلاً ، ثم قالت مجدداً :

" أتذكر تلك الحكاية التي كان أبي يحكيها . . .عن تريستان(* *) الوسيم و إزولده الشقراء و إزولده السوداء؟"

" أجل ، أذكر تلك الحكاية " . دفع سايمون بالطبق بعيداً عنه ومسح فمه بقفا يده ونهض . اقترب من المدفأة . وضع قدماً على الحافة ومرفقه على ركبته وذقنه في يده ، ووقف ينظر إلى النار التي كانت تحرق نفسها في المدفأة الحجرية .

ومن الزاوية قرب النول جاء صوت رامبورغ المرتجف الذي يكاد ينهار :

" كنت أظن دائماً حين كنت أسمع تلك الحكايات بأن أولئك الرجال شأن الملك داوود والسير تريستان . . . لقد بدا ذاك أمراً أحمق وقاسياً ألا يحبوا زوجاتهم الشابات اللواتي كن يقدمن لهم عذريتهن وحب قلوبهن بكل لطف ونقاء ، أكثر من نساء شأن ليدي بيث-شيبا (* * *) أو إيزولده الشقراء اللتين ضيعتا نفسيهما بين ذراعي رجال آخرين . أعتقد أني لو كنت رجلاً لما كنت رجلاً شديد الافتقار إلى الاعتزاز بالنفس أو قسوة القلب" . . .توقفت منهكة . . ."أعتقد أنه أسوأ مصير ذاك الذي جرى لأبيشاع وإزولده أوف بريتلاند تلك . . ." التفتت بقوة وعبرت الغرفة ووقفت أمام زوجها . " ما الذي يقلقك يا رامبورغ ؟" تكلم سايمون بصوت خفيض دون تسامح . "لا أعرف ما تعنينه بهذا . . ."

قالت بقوة :"أجل بل تعرف . أنت تشبه تريستان ذاك . . ."

حاول أن يضحك . " هذا ما لا أعرفه إلا بالكاد ، أني أشبه . . .تريستان الأشقر . . .أما المرأتان اللتان ذكرت اسميهما . . .لو تذكرت على النحو الصحيح ، فقد عاشتا وماتتا عذراوين دون أن يلمسهما زوجاهما . . ." نظر إلى زوجته : كان وجهه الصغير ذو الزوايا الثلاثة شاحباً ، وعضت على شفتيها .

وضع سايمون قدمه على الأرض ووقف منتصباً ثم وضع يديه كلتيهما على كتفيها :

" رامبورغ ، ألم نرزق بولدين أنت وأنا ؟ " قال برقة . لم تجب .

" لقد حاولت أن أظهر لك أني كنت ممتناً لك لأجل تلك الهدية . لقد اعتبرت نفسي . . .لقد حاولت أن أكون زوجاً جيداً . . ."

لم تقل شيئاً بعد ، ترك يديه تسقطان . ذهب وجلس على المقعد . لحقت به رامبورغ ووقفت أمامه وهي تنظر إلى زوجها : الفخذان العريضان في بنطال مبلل موحل والجسم الضخم والوجه الثقيل الأحمر البني . بّوزت شفتيها في اشمئزاز .

" لقد أصبحت قبيحاً أيضاً مع السنين يا سايمون "

" أجل فأنا لم أعتبر نفسي قط رجلاً وسيماً " ، قال بجد .

"وأنا لست شابة وجميلة . . ." جلست على حضنه ، والدموع بدأت تنهمر من عينيها وهي تمسك برأسه بكلتا يديها : " سايمون - انظر إليّ - لماذا لا تستطيع أن تجازيني من هذا؟ . . .لم أرغب قط بأي رجل سواك . . .اعتقدت ، حتى منذ أن كنت فتاة صغيرة ، أن زوجي يجب أن يكون رجلاً مثلك . . .أتذكر كيف قدتنا كلتينا ، أولفهيلد وأنا من يدينا ؟ . . .كنت ستذهب مع أبي إلى الحظيرة لترى طيوره . . .حملتها فوق الجدول ، وكان أبي يريد حملي ولكني صرخت بأن عليك أنت أن تحملني أنا أيضاً ، أتذكر ؟ "

أومأ سايمون برأسه . تذكر جيداً أنه كان مغرماً جداً بأولفهيلد الطفلة الجميلة المعاقة التي بدت له مثيرة جداً للشفقة . . أما عن الصغرى فلم تكن لديه ذكرى سوى أنه كانت هناك واحدة أصغر من أولفهيلد .

" كان لك أجمل شعر . . ." تخللت أصابعها غرّته الكثيفة المموجة البنية الفاتحة اللون التي كانت تتدلى فوق جبينه . "ولا شعرة رمادية واحدة قد ظهرت في رأسك بعد . . .سرعان ما سيصبح شعر إرلند نصفه رمادياً ونصفه أسود . . .كما كنت أحب كثيراً غمازتيك في وجنتيك حين كنت تبتسم . . .وأنك كنت مرح الكلام جداً . . ."

" أجل ، ربما كنت أوسم آنذاك مّما أنا عليه الآن . . ."

" كلا" ، همست بقوة . . ." ليس حين تنظر بلطف إليّ . . .أتذكر أول مرة نمت فيها بين ذراعيك ؟ .

" . . .نمت في السرير وأنا أبكي من ألم في ضرسي . . .كان أبي وأمي قد ناما . وكانت العلية مظلمة ، ولكنك اقتربت من المكان الذي كنا ننام فيه ، أولفهيلد وأنا ، وسألتني عن سبب بكائي . طلبت مني أن أهدأ وألا أوقظ الآخرين ، ثم حملتني بين ذراعيك وأشعلت الشمعة ثم قلّمت شريحة صغيرة من الخشب وفركت بها الضرس الفاسد حتى خرج الدم منه . ثم تلوت شيئاً مباركاً على الضرس وسرعان ما أصبحت في حالة جيدة ، وطلبت الإذن لأنام في سريرك وقد ضممتني بذراعيك . . ."

وضع سايمون يده على رأسها وضمه إلى كتفه . لقد تحدثت الآن عن الأمر وتذكره : جرى ذلك في تلك المرة التي كان فيها في يورونغارد ليطلب من لافرانس أن يفك خطبته من كريستين . لم يكن قد نام سوى قليلاً في تلك الليلة ، وتذكر الآن أنه نهض مرة من فراشه وفعل شيئاً ما ليساعد رامبورغ الصغيرة التي كانت تستلقي وهي تتذمر من ألم في ضرسها . . .

" هل فعلت شيئاً يا رامبورغ في أي وقت من الأوقات يجعلك تعتبرين أن لك الحق في أن تقولي إني لا أحبك ؟ . . ."

" سايمون . . .ألا يبدو لك أني أستحق منك أن تحبني أكثر من كريستين؟ لقد كانت شريرة وغير وفية معك . . .أما أنا فقد تبعتك مثل كلب حضن صغير طوال هذه السنين . . ."

رفعها سايمون بلطف من حضنه ونهض وأمسك بيديها بين يديه!

" لا تذكري أختك بعد الآن يا رامبورغ . . .على ذلك النحو . أتساءل إن كنت تفهمين ما تقولينه . ألا تعتقدين أني أخشى الرب -هل تعتقدين أني أستطيع أن أكون دون خشية من العار وأسوأ الخطايا أو أني لن أتذكر أولادي وكل

أقربائي ؟ أنا زوجك يا رامبورغ . . .لا تنسي ذلك ولا تكلميني على هذا النحو . . ."

"أعرف أنك لم تنتهك قوانين الرب أو أنك تخليت عن إيمانك وشرفك . . ."

" لم يسبق أن تلفظت بكلمة واحدة لأختك أو لمستها بيدي على أي نحو لا أستطيع تحمل مسؤوليته يوم الحساب . . .والله والقديس سايمون الرسول شاهدان على ذلك . . ."

أومأت رامبورغ بصمت .

"أتظنين أن أختك كانت ستقابلني كما فعلت طوال هذه السنين لو فكرت كما تفكرين ، أي أني أحبها بشهوة آثمة ؟ كلا ، إذن فأنت لا تعرفين كريستين" .

" أوه ، إنها لم تفكر حتى في أن أي رجل آخر يحبها سوى إرلند . إنها لا تفكر بنا نحن الآخرين على أننا لحم ودم . . ."

" أجل ، لقد نطقت عين الصواب يا رامبورغ " ، قال سايمون بهدوء ." ولكنك تستطيعين أن تفهمي بنفسك كم كنت حمقاء حين رحت تزعجينني بمسألة الغيرة . "

سحبت رامبورغ يديها بعيداً .

" لم أقصد ذلك يا سايمون " . ولكنك لم تهتم بي قط كما تهتم بها . إنها دائماً في فكرك حتى الآن . . .ولكنك لا تفكر بي إلا نادراً حين لا تراني . "

" هذا ليس خطئي يا رامبورغ ، فقد جبل قلب الرجل على أن ما يكتب فيه في سن الشباب والنضارة يبقى محفوراً على نحو أعمق من كل الحروف التي ستكتب فيه لاحقاً . . ."

" ألم تسمع المثل الذي يقول : قلب الرجل هو أول شيء يتحرك في رحم

أمه ، وآخر شيء يموت فيه؟" قالت رامبورغ برقة .

" كلا . . . هل هناك مثل كهذا ؟ أجل وقد يكون صحيحاً أيضاً . ربت على خدها بخفة . "ولكن لو كنا سننام هذه الليلة ، فعلينا الذهاب إلى السرير الآن" ، قال لها متعباً .

نامت رامبورغ بعد فترة قصيرة ، بينما سحب سايمون ذراعه خلسة من تحت عنقها ، وتحرك بلطف نحو حافة السرير الخارجية وسحب الغطاء الفرو إلى تحت ذقنه ، كان قميصه عند الكتف مبلّلاً من دموعها . كان يتألم بمرارة لأجل زوجته . . .وقد فهم أيضاً ، بيأس جديد ، أنه لم يعد قادراً بعد الآن أن يعيش معها وهو يحسبها طفلة عمياء غريرة . عليه الآن أن يحسب حساب أن رامبورغ قد أضحت امرأة ناضجة .

كان زجاج النافذة رمادياً من الفجر . . .وقد أوشكت ليلة شهر أيار (مايو) هذه على النهاية . كان منهكاً حتى الموت . . .وغداً يوم قداس . لن يذهب إلى الكنيسة غداً . . .رغم أنه كان في حاجة ماسة للذهاب . لقد وعد لافرانس ذات مرة بل أنه لن يفوت أبداً قداساً دون سبب جيد . . .ولكنه فكر بمرارة أن حفاظه على عهده ذاك لم يساعده كثيراً خلال هذه السنوات كلها . غداً لن يذهب إلى القداس . . .

(*) أبيشاع : أمة داوود في شيخوخته . أراد أدونياه الزواج منها بعد موت داوود مما أثار حفيظة سليمان .(المترجم)

(**) تريستان وأزولده : حكاية رومانسية أيرلندية الأصل من العصور الوسطى حول تريستان الذي أرسل ليحضر أزولده عروس الملك مارك ملك كورنوول ، ولكنهما يشربان ترياق الحب فلا يستطيعان السيطرة على عواطفهما مما يؤدي بالتالي إلى موتها كليهما .(المترجم)

(***) باث-شيبا زوجة يورياه الحثي . أرسله داوود إلى الموت حتى يتزوجها من بعده . ولدت له سليمان (المترجم)

القسم الثاني

الدائنون

-١-

عرفت كريستين(٢) إنما جزئياً ما جرى بين إرلند وسايمون . حكى لها زوجها وبيورغولف ما قاله سايمون عن رحلته إلى دايفرين ، وأنهما تبادلا بعد ذلك كلمات سامية وفي النهاية افترقا دون وئام . " لا أستطيع أن أحكي لك عن هذه المسألة . "

كان إرلند شاحباً بعض الشيء وكان وجهه مكفهراً وقاسياً . لقد رأته على هذه الحال بضع مرات من قبل ، خلال سنوات زواجهما . وعرفت أن ذلك علامة على أن هذه مسائل لن يذكر عنها المزيد بعد الآن .

لم تكن ترتاح حين يقابل إرلند أسئلتها بهذه النظرة . والرب يعرف أنها لم تحب أن تعامل على أنها مجرد امرأة بسيطة . كانت ترغب في عدم تحمل أي مسؤولية سوى أطفالها ومنزلها . ولكنها دفعت إلى التدخل في كثير من الأمور بدا لها أن الرجل أقوى على التعامل معها . . .واتضح أن إرلند قد رأى أنه أمر ملائم ترك مثل هذه الأمور التي تثقل على كاهلها . وهكذا لم يبد له أنه أمر ملائم أن يأخذ هذه الأمور على محمل الجد وأن يجيب بلطف حين حاولت أن تعرف حقيقة أفعاله التي تؤثر على مصلحتهم جميعاً .

كانت تنظر إلى هذه الصداقة بين إرلند وسايمون دار بجدية . فقد كانت رامبورغ أختها الوحيدة . وحين فكرت بالأمر ، في أن سايمون لن يكون بينهم بعد الآن ، فهمت تماماً ، للمرة الأولى ، كم أصبحت تحب هذا الرجل وكم تدين له بالشكر . . .فضمن قدرها المحفوف بالأخطار كانت قد وضعت ثقتها في صداقته المخلصة .

وقد أضحت تعرف أنه في الريف كله الآن ستكون لدى النساء مادة جديدة للإشاعات . . .أن سكان يوروندغارد هناك قد تخاصموا مع سايمون أوف فورمو أيضاً . كان سايمون ورامبورغ محبوبين ومحترمين من قبل الجميع . أما هي وزوجها وأولادها فكان ينظر إليهم ـ على الأغلب ـ بريبة وكره . . .وكانت تعرف هذا منذ زمن طويل . و هاهم الآن قد بقوا دون أصدقاء . . .

شعرت كريستين وكأن عليها أن تنهار أرضاً من الحزن والعار في أول يوم أحد حين وصلت إلى مرج الكنيسة ورأت سايمون يقف هناك ، بعيداً بعض الشيء ، ضمن مجموعة من المرشحين لرتبة فارس . أومأ برأسه محيياً إياها ثم رداً على تحيتها ، ولكنها كانت المرة الأولى التي لا يتقدم فيها نحوها ليصافحها .

ولكن رامبورغ مضت نحو أختها وأخذت يدها :

" إنه لأمر سيئ يا أختي أن يتخاصم زوجانا . . .ولكني لا أرى داعياً للتخاصم فيما بيننا . . ."

ثم وقفت على أصابع قدميها وقبلت كريستين حتى يرى ذلك الناس المتواجدون في باحة الكنيسة . ولكن كريستين لم تعرف الأمر على حقيقته : بدا أنها تشعر في داخلها أن رامبورغ على أي حال لم تكن حزينة جداً . فهي لم يسبق لها أن أحبت إرلند قط . . .والله أعلم إن لم تكن حفزت زوجها ضدهم بمعرفة أو دون معرفة منها . . .

ومع ذلك كانت رامبورغ تتقدم دائماً بعد ذلك لتحييّ أختها حين تتقابلان

في الكنيسة . وقد صاحت أولفهيلد بصوت مرتفع متسائلة عن السبب في أن خالتها لم تعد تحضر لزيارتهم . ثم عدت نحو إرلند وتشبثت به وبأولاده الكبار . أما آرنغييرد التي كانت تقف هادئة قرب زوجة أبيها ، فقد أمسكت بيد كريستين وبدت مضطربة . هذا وقد حرص سايمون وإرلند وأبناؤه على الابتعاد عن بعضهم البعض ما وسعهم ذلك .

كانت كريستين تفتقد أولاد أختها بشدة . كانت تحب البنتين كثيراً . وفي أحد الأيام حين أحضرت رامبورغ ابنها إلى القداس ، وكانت كريستين تقبّل أندرس بعد انتهاء الطقوس ، فقد راحت تبكي . فهذا الصبي ضعيف البنية رقيق الصحة قد أصبح عزيزاً جداً عليها . . .ولم تستطع مغالبة الشعور بأنه لم يعد لديها أطفال صغار وأنه كان أمراً يبعث على السلوان حقاً أن تهتم بابن أختها الصغير هذا في فورمو و تدلّله ، وذلك حين كان والداه يحضرانه معهما إلى يوروندغارد .

•

ومن غاوته سمعت المزيد عن الأمر ، فقد حكى لها الكلمات التي تبودلت بين إرلند وسايمون في الليلة التي تقابلا فيها كوخ سكيندفيلد غودرون . كانت كلما تأملت في هذه الأمور كلما بدا لها أن إرلند كان المخطئ . كانت غاضبة من سايمون فلا شك أنه يعرف إرلند جيداً إلى حد أنه يعلم أن إرلند ما كان قادراً على خداع عديله على ذلك النحو . . . فما أغرب الأشياء التي قد يقوم بها دون تفكير أو بسبب مزاجه الناري . . .وحين يلاحظ ما جرى كان غالباً ما كان يتصرف كجواد خجول أفلت من صاحبه وانقض من الخوف بجنون على ما كان يجرّه خلفه .

ولكن إرلند لم يستطع أن يفهم أن بعض الناس كان أحياناً مضطراً إلى مخاصمته لتجنب الأذى الذي كان يتحلى بموهبة نادرة في إلحاقه بالآخرين! ولم

يكن يهتم آنئذ بما يقوله أو بكيفية تصرفه ! تذكرت تلك الأيام حين كانت هي نفسها شابة ورقيقة . . .فقد شعرت المرة تلو الأخرى وكأنه كان يدوس على قلبها بأفعاله المتهورة . حتى أخوه غونولف كان قد قاطعه . وحتى قبل لجوئه إلى الدير ، كان أخوه هذا قد ابتعد عنهم ، وعرفت أن إرلند هو الملوم في ذلك . . .فغالباً ما كان يسيئ إلى هذا الأخ الورع النبيل ، رغم أن غونولف لم يسبق له قط أن أساء إلى إرلند بحسب ما تعرف . وهاهو الآن قد أبعد سايمون عنه ، وحين أرادت أن تعرف السبب وراء الخصام بينه وبين صديقهم الوحيد ، كان يتخذ وضعية مترعة بالتكبر ويقول إنه لن يخبرها . . .

•

أما لناكفه فقد حكى تفاصيل أخرى كما لاحظت .

أضحت الأم أكثر تألماً وقلقاً حين لاحظت أن إرلند وابنها البكر كانا يصمتان أو يحولان حديثهما إلى قضية أخرى ما أن تقترب منهما . . .ولم يكن هذا يحدث نادراً .

كان غاوته ولافرانس ومونان أقرب إلى أمهما مّما كان نيكولاوس قط ، وقد كانت تحادثهم أكثر بكثير مما تحادثه . ومع ذلك فقد بدا لها دائماً أن بكرها بين كل الأبناء كان بطريقة من الطرق هو الأقرب إلى قلبها . وبما أنها عادت لتسكن في يورونداغارد مجدداً ، فإن ذكريات ذلك الزمن الذي كانت فيه حاملاً بهذا الابن تحت قلبها ، ومولده ، كانت ذكريات حية وقريبة إلى حد غريب . فقد أدركت بطرق كثيرة أنه هنا في"سيل" ، لم يكن الناس قد نسوا خطيئة شبابها . لكأنما كانوا يحملونها مسؤولية تلطيخ شرف الريف الذي شهد مولدها كله ، هي ، ابنة الرجل الذي كان الجميع هنا ينظرون إليه كزعيم لهم ، قد ضلت الطريق . لم يكونوا قد غفروا لها حتى الآن أنها وإرلند قد أضافا إلى عاره و أساه الإهانة حين

خدعاه إذ جعلاه يزف بنتاً خاطئة في أفخر طقوس زفافيّة جرت هنا في الديل الشمالي يستطيع أي شخص أن يتذكرها .

لم تستطع كريستين أن تعرف إن كان إرلند يعلم أن الناس كانوا الآن ينبشون الحكايات القديمة مجدداً . ولكنه حتى لو عرف فإنه لا يبدو كمن يهتم إطلاقاً في الأمر . لم يكن لسكان "الديل" أي قيمة لديه إلا باعتبارهم مزارعين يلبسون ثياباً من الصوف الخشن وعمال زراعة قرويين ، جميعاً . . .وقد علّم أولاده أن يفكروا على نحو مشابه . كان مؤلماً لروحها أن تعرف أن هؤلاء الرجال والنساء الذين كانوا يفكرون بها كثيراً ويتمنون لها الخير في تلك الأيام حين كانت ابنة لافرانس بيورغولفسون الفاتنة ، و"وزهرة الديل" ، أصبحوا الآن يحتقرون إرلند نيكولاوسون وزوجته و يحكمون عليهما بقسوة . لم تتوسل هؤلاء الناس و لم تبك لأنها أصبحت غريبة بينهم . ولكن ذلك آلمها بشدة . وقد بدا لها أنه حتى الجبال المحيطة بالديل والتي كانت تحمي وتحرس طفولتها راحت تنظر إليها وإلى بيتها على نحو آخر . . .بحقد أسود وإرادة قاسية رمادية حتى تضعف روحها .

لقد بكت بمرارة ذات مرة . . .وقد عرف إرلند بذلك ، ولم يكن صبوراً معها آنذاك . وحين علم أنها أمضت تلك الشهور الكثيرة لوحدها مع طفله ، حمل ثقيل تحت قلبها الحزين الخائف ، فإنه لم يضمها بين ذراعيه ويواسيها برقّته وكلماته المترعة بالحب . لقد غضب وأحس بالعار حين رأى أنه سيتكشف الآن كم كان غير جدير في معاملته للافرانس . . .ولكنه لم يفكر كم قد يكون الأمر أسوأ بالنسبة لها حين يكون عليها أن تقف مجللة بالعار أمام أبيها الفخور بنفسه والذي يحبها .

كما أن إرلند لم يستقبل ابنه بالكثير من الفرح حين ولدت له أخيراً هذا الطفل ليشاهد النور . في تلك الساعة ، حين ارتاحت من ألمها الروحي الذي لا نهاية له ، ومن الرعب والعذاب ، ورأت العبء البشع عديم الشكل لخطيئتها وهو

يمتلئ حياة تحت صلوات كاهنها القوية ويتحول ليصبح أجمل الأطفال، سليماً معافى دون أي شائنة . . .في تلك اللحظة بدا لها وكأن قلبها ذاب من السعادة المتواضعة، وأنه حتى دم جسدها الحار المتحدي تحول إلى حليب أبيض حلو بريء . أجل، بعون الله قد يصبح بشرياً مع مرور الزمن كما قال إرلند، وهي مستلقية هناك في الفراش وكانت تريد منه أن يفرح معها لهذا الكنز النفيس، حتى أنها ما كانت تتحمل أن يؤخذ من يديها فترة كافية لتقوم النساء برعايته . ومع ذلك فقد أحب طفليه من إلين أورمسداتر . وقد رأت ذلك وعرفته . ولكنها حين حملت ناكفه إلى أبيه وأرادت أن تضعه بين ذراعيه، عبس إرلند وسألها عما يستطيع فعله بهذا الطفل الذي كان يرشح من الأعلى ومن الأسفل . بقي إرلند ينظر شزراً مدة طويلة إلى ابنه البكر . . .ولم يستطع أن ينسى أنه قد جاء إلى هذه الدنيا في وقت غير ملائم . . .مع أن الصبي كان وسيماً وفاتناً ومحبوباً جداً حتى أن أي أب كان سيشبع سعادة وهو يرى ابنه ينمو ليحلّ محله .

وقد أحب ناكفه أباه حتى أنه كان أمراً عجباً مشاهدة ذلك . . .وحتى منذ أن كان رضيعاً صغيراً . كان وجهه الصغير يشع كالشمس لو وضعه أبوه بين ركبتيه لحظة واحدة وقال له كلمتين فحسب، أو لو تركه الرجل يمسك بيده وهو يعبر الباحة . كان ناكفه يبذل قصارى جهده ليكسب رضا والده في تلك الأيام حين كان إرلند يحب كل أطفاله الآخرين أكثر من هذا الطفل . كان بيورغولف ابن أبيه المفضل حين كان الآخرون صغاراً . ثم كان إرلند يأخذ أبناءه الصغار معه إلى مخزن سلاح الفرسان حين تكون لديه مهمة هناك . . .كل الدروع والأسلحة غير المستخدمة يومياً في هوسابي كانت محفوظة هناك . وبينما كان الأب يتكلم ويمزح مع بيورغولف، كان ناكفه يجلس هادئاً كفأر على خزانة . . .كان يلهث من شدة فرحه لأنه أذن له بالجلوس هناك .

ولكن مع مرور الوقت وبسبب بصره الضعيف لم يكن بيورغولف يغادر مع أبيه ، شأن إخوته ، وحين أصبح الصبي أكثر عزلة وصمتاً حين يكون مع أبيه ، فقد تغير هذا كله . لكأنما أصبح إرلند خجلاً بعض الشيء من ابنه . كانت كريستين تتساءل أحياناً إن لم يكن بيورغولف يلوم أباه في قلبه لأنه ضيع كل ثروتهم وأطاح بحظوظ أولاده معه حين تعرض هو للسقوط . . .وإن لم يكن إرلند يعرف أو يخمن هذا . وعلى أي حال ، فقد بدا وكأن بيورغولف وحده ، بين كل أبناء إرلند ، لا ينظر إلى أبيه بعيون الحب الأعمى أو باعتزاز لا حدود له وهو يناديه بأبي .

في أحد الأيام لاحظ الاثنان الأصغر سناً بين الأبناء أن أباهما كان يقرأ المزامير في الصباح ويصوم على الخبز والماء . سألاه عن السبب في ذلك . . .فلم يكن ذلك اليوم يوم صيام . أجاب إرلند إن ذاك لأجل التكفير عن خطاياه . عرفت كريستين أن أيام الصوم هذه كانت جزءاً من الكفارة التي فرضت على إرلند لأجل الزنا الذي ارتكبه مع سونيفا أولافسداتر ، وأن أكبر الأبناء على الأقل كان يعرف بذلك . بدا ناكفه وغاوته وكأنهما لا يفكران في ذلك ، ولكن حدث أنها نظرت آنذاك إلى بيورغولف : كان الصبي يجلس هناك يرمش بعينيه الحسيرتين إلى طبق اللحم خاصته وهو يبتسم لنفسه . . .هكذا رأت كريستين غونولف يبتسم ذات مرة ثم مرة أخرى حين ركب إرلند الحصان العالي . لم تعجب الأم بالمشهد .

والآن كان ناكفه هو الذي يصاحب إرلند باستمرار . وقد عاش وكأن جذور كيانه كلها كانت محبوكة مع أبيه . خدم ناكفه أباه كما يخدم وصيف شاب سيده وزعيمه : كان لا يدع أحداً غيره يعتني بحصان أبيه ويرعى له عدة ركوبه وأسلحته . كان يثبت له مهمازه على قدمه ويحمل له قبعته وعباءته حين يغادر . كان يملأ كوب أبيه ويقطع له خبزه على المائدة حين يجلس إلى يمين إرلند .كان

إرلند يضحك قليلاً من تصرفات الشاب المهذبة ، ولكنه كان يحبها جيداً وشيئاً فشيئاً أصبح ناكفه ملكاً خاصاً لأبيه .

لاحظت كريستين أنه قد نسي الآن تماماً كم كافحت وصلّت لتكسب منه القليل من الحب الأبوي لهذا الطفل . كما كان ناكفه قد نسي ذلك الزمن حين كان صغيراً وكان يلجأ إلى أمه لينشد الراحة من كل الشرور ويشاورها في كل مشاكله . كان دائماً ابناً محباً لأمه ، وكان لا يزال على هذه الشاكلة ، ولكنها أحست أن الصبي كان كلما كبر كلما ابتعد عنها وعن كل همومها . لم يكن ناكفه يكترث بأي من مشاكلها الكثيرة . لم يكره تنفيذ أي شيء تطلبه منه ، ولكنه كان أخرق في استخدام يديه وغير ماهر في كل ما له علاقة بالأعمال الزراعية . . .وكان يؤديها دون حياة وبفتور ، ولم يكن بنهي أي عمل . كان كثير الشبه بأخيه غير الشقيق الراحل أورم إرلندسون وذلك من نواح كثيرة ، كما فكرت أمه . . .وكان يشبهه من حيث المظهر أيضاً . ولكن ناكفه كان قوياً سليم البنية ، محباً للرقص وكل أنواع الرياضة ، كما كان ماهراً برمي القوس وماهراً أيضاً في استخدام الأسلحة الأخرى وفارساً جيداً وراكب زلاّجة متميزاً . وقد تحدثت كريستين ذات يوم مع أولف هالدورسون حول هذا ، وكان هذا أباه بالتبني ، فقال أولف :

" لم يخسر أحد بسبب حماقة إرلند بقدر ما خسر هذا الشاب . لا يوجد من يبزّ ناكفه في النرويج في هذه الأيام ليكون فارساً ونبيلاً عظيماً . "

ولكن أمه رأت أن ناكفه لم يفكر قط فيما حرم منه بسبب غلطة أبيه .

●

في هذه الفترة حدثت أيضاً قلاقل كبيرة في النرويج وسرت إشاعات شمالاً عبر أبرشيات الديل ، وربما كان بعضها غير قابل للتصديق إطلاقاً . كان اللوردات الكبار جنوباً وغرباً في المملكة وعبر " الأراضي المرتفعة" يشعرون بالسخط

الشديد من حكم الملك ماغنوس . . .وكان يقال إنهم هددوا بصراحة باللجوء إلى السلاح ، وإثارة العامة وإحضار السير ماغنوس إريكسون ليحكمهم حسب إرادتهم و مشورتهم ، أو تنصيب ابن خالته يون هافتورسون أوف سودرهايم ملكاً بدلاً عنه . . .كانت أمه هي الليدي آغنس بنت الملك هاكون هالغ طيب الذكر . لم يكن يعرف عن يون نفسه سوى القليل ، ولكن كان يقال إن أخاه سيغورد كان زعيم ومحرك المشروع الجريء كله وكذلك كان بيارن بن إرلينغ فيدكونسون الشاب بين مستشاريهم . . .وحكى الناس كيف أن سيغورد قد أقسم أنه لو أصبح يون ملكاً فسوف يتزوج إحدى أخوات بيارن لينصبها ملكة له ، فقد كانت العذارى في غيسكه أيضاً من نسل الملوك النرويجيين القدامى . ويقال أن السير إيفار أوغموندسون ، وكان سابقاً من أكبر مؤيدي الملك ماغنوس ، قد انضم إلى فريق هؤلاء النبلاء الشبان وكثير من الرجال الآخرين الأغنى والأنبل في البلاد . . .كما كان يقال عن إرلينغ فيدكونسون وأسقف بيورغفين إنهما كانا يحرّضان الناس من بعيد .

أصغت كريستين قليلاً فحسب لهذه الإشاعات . فكرت ببرارة : إنهم مجرد أناس صغار من حيث المقام الآن ، ولم تكن قضايا المملكة تخصّهم . ومع ذلك ففي الخريف الماضي كانت قد تكلمت عن هذه الأمور مع سايمون أندرسون ، وكانت تعرف أنه تكلم عنها مع إرلند . ولكن رأت أن سايمون لم يكن راغباً في الحديث عن هذه القضايا . . .وذلك لأنه لم يكن يحب أن يتورط أخوته في هذه الأفعال الخطرة ، ولأن غيرد على الأقل كما كانت تعرف ، كان يقاد من أنفه من قبل أهل زوجته . ولكنه كان يخشى أيضاً أن الحديث عن مثل هذه الأمور يقلق إرلند ، حيث أنه كان مولوداً ليجلس بين الرجال الذين يتقابلون للتشاور حول مملكة النرويج ، ولكن سوء الحظ حرمه من زمالة أنداده .

ولكن كريستين كانت تعرف أن إرلند كان يكلم أولاده عن هذه الأمور . وفي أحد الأيام سمعت ناكفه يقول :

"ولكن لو استطاع هؤلاء اللوردات أن يثبتوا وجودهم أمام الملك ماغنوس ، فلا يمكنهم دون شك أن يكونوا وضيعين إلى حد لا يطالبون الملك معه أن يصحح الخطأ الذي ارتكبه بحقك . "

ضحك إرلند ، ولكن ابنه تابع يقول :

"لقد ارشدت هؤلاء اللوردات الى الطريق وذكّرت الناس بأنه ليس من عادة زعماء النرويج في القديم أن يجلسوا ساكنين ويتأملوا الاضطهاد الذي يمارسه ملوكهم . لقد كلفك ذلك أراضيك التي ورثتها وإقطاعاتك . . .أما الرجال الذين تحالفوا معك فلم يصابوا بأي أذى . . .لقد دفعت وحدك الثمن عنهم جميعاً . . ."

"أجل ، لذلك لديهم سبب أفضل لينسوني ، على ما أعتقد " ، قال إرلند ضاحكاً . " كما أصبحت هوسابي تحت عهدة الأسقفية . أعتقد أن لوردات المجلس لن يزعجوا قط الملك ماغنوس اليائس الفقير المفلس ليعيد إليّ ما فقدته . . ."

" الملك قريبك وكذلك سيغورد هافتورسون ومعظم هؤلاء الرجال " ، أجاب ناكفه بقوة . " كيف يمكنهم دون خجل أن يتخلوا عن ذلك الرجل بالذات بين كل نبلاء النرويج الذي حمل ترسه بشرف إلى المستنقعات الشمالية وطهّر فنلندا وشاطئ غاندفيك من أعداء الملك والرب . . .سيكونون جبناء خسيسين . . ."

صفّر إرلند .

" يا بنيّ . . .هناك شيء واحد أستطيع أن أقوله لك . لا أعرف كيف سينتهي إليه مشروع أولاد هافتور ، ولكني أراهن بعنقي أنهم لن يتجرؤوا على رفع سيف نرويجي مجرد على السير ماغنوس . أعتقد أنه ستكون هناك مقايضات

ونقاش ، ولكن لن يطلق سهم واحد . وهؤلاء السادة لن يتقدموا بأي قضية لأنهم يعرفونني ويعرفون جيداً أني لست أجبن أمام الفولاذ البارد شأن الآخرين . . .

"تقول إنهم أقربائي . . .أجل إنهم أولاد عمك من الدرجة الثالثة ، كل من ماغنوس وأولاد هافتور . أتذكرهم من أيام خدمتي في بلاط الملك هاكون . . .كان الأمر جيداً لقريبتك الليدي أغنس كونها ابنة الملك . . .وإلاّ لاضطرت ربما أن تعيش من العمل على المغزل وتنظيف السمك ، لولا أن سيدة كأمك قد استأجرتها لتساعدها في حظيرة البقر كنوع من الإحسان الناجم عن الورع . لقد جففت مرات كثيرة أنوف أولاد هافتور أولئك حين كانوا يحضرون أمام جدهم لأمهم وكانوا يدخلون إلى القاعة مهرولين وقد تلوثت أنوفهم كأنهم ولدوا للتو . . .ولو رأيتهم يتشاجرون كنت كابن عم لهم ألقنهم آداب السلوك . كانوا يصرخون كخنازير عالقة . لقد سمعت أن هؤلاء الحمقى من سودرهايم قد أصبحوا رجالاً أخيراً . ولكن أن تطلب مساعدة منهم كأقرباء . . .أشبه بغزل الثلج لتحصل على الصوف . . ."

لاحقاً قالت كريستين لإرلند :

" ناكفه لازال شاباً صغيراً يا زوجي العزيز . . .ألا تعتقد أنه من غير الحكمة التحدث معه بكل هذه الحرية حول مثل هذه القضايا؟"

" وأنت رقيقة الحديث جداً يا زوجتي العزيزة ، " ، قال مبتسماً " حتى أني أرى جيداً أنك ستعنفينني . . .حين كنت في سن ناكفه ، كنت قد سافرت شمالاً إلى فارغوي للمرة الأولى . لو كانت الليدي إنجيبورغ مخلصة وصادقة معي" ، وهنا أنفجر غاضباً ، " لكنت سأرسل لها ناكفه وغاوته للعمل بخدمتها . . .هناك في الدانمارك توجد فرصة أفضل للتقدم أمام شابين حيويين يحملان دماً دافئاً في شرايينهما ."

قالت كريستين بمرارة : " لم أفكر حين ولدت لك هؤلاء الأولاد أن أبناءنا سيبحثون عن خبزهم في بلاد أجنبية" .

قال إرلند :" تعرفين أني لم أفكر في ذلك أيضاً ولكن الإنسان يتمنى والرب يتصرف . . ."

•

وهكذا قالت كريستين في نفسها إنه لم يكن يؤلم قلبها وحدها أن تلاحظ أن إرلند وأبناءها ، وهم قد كبروا الآن ، كانوا يتصرفون وكأن شؤونهم كانت خارجة عن محيط اهتمام النساء . وكانت تخشى أيضاً من لسان إرلند المتهور . . .لم يكن يتذكر قط أن أبناءه لم يكونوا أكثر من مجرد أطفال .

ورغم أنهم كانوا لا يزالون يافعين وصغاراً : كان نيكولاوس في السابعة عشرة الآن وبيورغولف في السادسة عشرة وغاوته سيصبح في الخامسة عشرة في وقت الحصاد . . .فقد سبق لهؤلاء الثلاثة أن كانت لهم مع النساء أموراً جعلت أمهم تشعر بالقلق .

صحيح أنه لم يحدث شيء يمكنها أن تشير إليه حقاً . لم يكونوا يجرون وراء النساء ولم يكونوا من النوع الفظ في كلامه أو قذر اللسان ، ولم يكونوا راضين حين كان الخدم يعرضون أن يرموا أمامهم نكات بذيئة أو يقصوا حكايات شبقة أمام سكان الضيعة . ولكن إرلند أيضاً كان يتصرف دائماً على نحو لائق ومتواضع فيما يخص هذه المسائل . . .لقد لاحظت أنه كان يخجل من الحديث الذي كان يجعل أباها وسايمون يضحكان من كل قلبيهما . ولكن في تلك الأيام كانت تشعر على نحو غامض أن الآخرين كانوا يضحكون كما يضحك الفلاحون من حكايات تحكى عن غباء الشيطان . . .بينما العلماء الذين يعرفون أساليبه الشريرة لا يهتمون إلا قليلاً بمثل هذا المزاح .

وقد يدعي إرلند أيضاً أنه بريء من إثم الجري خلف النساء . . .فقط الناس الذين لم يعرفوا الرجل كانوا يظنونه متحرراً من حيث إغوائهن وتضليلهن عن طريق الصواب . لم تنكر لنفسها أن إرلند قد نفذ إرادته معها دون استخدام أشربة الحب السحرية ودون استخدام القوة أو الخداع . أما بالنسبة للمرأتين المتزوجتين اللتين مارس الخطيئة معهما ، فقد كانت متأكدة أن إرلند لم يكن هو الذي مارس الإغواء . ولكن حين تقابله نساء خفيفات في منتصف الطريق مع ضحكة مغوية وجريئة ، فقد لاحظت أنه يصبح فضولياً كطفل صغير . . .ويبدو وكأن دفقاً من الخفة السرية الجريئة يخرج من كامل جسد الرجل .

وبرعب ، فقد اعتبرت أنها رأت أولاد إرلند مشابهين لأبيهم في هذا الخصوص . . .كانوا ينسون أن يفكروا قبل القيام بأي عمل ، بحكم الناس الآخرين . . .رغم أنهم كانوا يتأثرون جداً لاحقاً بما كان يقال . وحين كانت النساء تقابلهن بابتسامات وترحاب ، لم يكونوا خجولين أو متعثرين أو كئيبين ، مثل معظم الشبان في أعمارهم . . .بل كانوا يبتسمون ويثرثرون ويتصرفون بسهولة وحرية كما لو كانوا قد ذهبوا إلى بلاط الملك وتعلموا أساليب البلاط . كانت كريستين خائفة من أن يتعرضوا للمشاكل من مجرد بساطتهم . . .لقد بدت لأمهم ربات البيوت الغنيات وبناتهن ، وكذلك النساء الخادمات الفقيرات أكثر جرأة في أسلوبهن تجاه هؤلاء الشبان الصغار الوسيمين . . .ولكنهم كانوا يحتدون من الغضب شأنهم شأن الشبان ، لو مازحهم أحد ما حول امرأة ما . لقد فعلت ذلك غالباً فريدا ستيركرسداتر على وجه الخصوص . . .كانت حمقاء المزاج ، عجوزاً ليس أصغر بسنوات كثيرة من سيدة المنزل نفسها ، وكان لها طفلان غير شرعيين . . .وبالنسبة إلى الطفل الأخير فقد صممت على أن تجد له أباً ، ولكن كريستين كانت تقدم الحماية للمخلوقة المسكينة ، فقد رعت بيورغولف وسكوله بعناية وحب ، إذ كانت تهذر مع الصبيان حول العذارى الشابات .

فكرت كريستين الآن أنه من الأفضل لها لو استطاعت تزويج أبنائها في سن مبكرة . ولكنها عرفت أن هذا لن يكون سهلاً . . .فالرجال الذين تلائم بناتهم ناكفه وبيورغولف من حيث المحتد والنسب ، سيعتبرون أن أبنائي ليسوا أغنياء بما فيه الكفاية . أما عداوة الملك والحكم الذي حلّ بأبيهم فسيقفان حجر عثرة في الطريق لو حاول أولادها تحسين مصيرهما في خدمة لوردات كبار . فكرت بمرارة بتلك الأزمنة حين كان إرلند وإرلينغ فيدكونسون يتحدثان عن الزواج بين ناكفه وإحدى بنات الوصي السامي على العرش .

كانت تعرف بالفعل فتاة يافعة أو أكثر بين الوديان يمكن أن تكون إحداهن ملائمة ، غنية ومن عائلة جيدة ، رغم أن أسلافهن قبل عدة أجيال لم يخدموا في البلاط ، وبقوا في مواطنهم . ولكنها لم تستطع مغالبة الأفكار في أنها وإرلند قد يحصلان على جواب بالرفض لو خطبا بنت أحد هؤلاء الملاّك الكبار للأراضي . وهنا كان يمكن لسايمون دار أن يكون أفضل ناطق باسمها . . .والآن حرمهم إرلند هذا المعاون .

لم يكن أي من أبنائها ذا ميل للانضمام إلى خدمة الكنيسة . . .ما لم يكن ذاك هو غاوته أو لافرانس . ولكن لافرانس كان لا يزال صغيراً . وبين كل أبنائها كان غاوته هو الوحيد الذي كانت مساعدته في المزرعة ذات فائدة لها .

كانت العاصفة والثلج قد دمرا الأسيجة في هذه السنة ، وكان سقوط الثلج في أيام الربيع في " قداس الصليب المقدس" (٣أيار/مايو) قد أعاق العمل ، حتى أن الناس كانوا مدفوعين للانتهاء في الوقت الملائم . لذلك أرسلت كريستين في أحد الأيام ناكفه وبيورغولف لإصلاح السياج من حول حقل كان قريباً من الطريق العام .

في فترة العصر مضت أمهما لترى كيف كان الشابان يؤديان هذا العمل غير المعتاد . كان بيورغولف يعمل على إصلاح سياج طريق المزرعة . . .توقفت قليلاً لتحادثه . ثم تابعت طريقها شمالاً . وسرعان ما شاهدت ناكفه منحنياً فوق السياج يحادث امرأة تركب حصاناً توقفت عند سياج الطريق قريباً من الوتد . كان يداعب الحصان ثم أمسك بالفتاة من كاحلها وسرعان ما حرك يده قليلاً نحو الأعلى كأنما بجرأة .

شاهدت الفتاة الشابة الأم أولاً . احمر وجهها وقالت شيئاً ما لناكفه . سحب يده بسرعة وبدا محبطاً نوعاً ما . كانت الفتاة ستتابع سيرها ، ولكن كريستين نادتها محيية ، ثم حادثتها قليلاً بعد ذلك وسألت عن قريبتها . . .كانت ابنة أخت سيدة أولفسفولدين ، وكانت في زيارة إلى هناك مؤخراً . تظاهرت كريستين بأنها لم تر شيئاً ، ثم حادثت ناكفه قليلاً عند السياج بعد رحيل الفتاة .

وقد صدف بعد هذا بفترة غير طويلة أن كانت كريستين في أولفسفولدين لمدة أسبوعين . فالمرأة هناك كانت في المخاض ، وقد عانت بعد ولادة الطفل من مرض خطير . بقيت كريستين هناك كجارة لها وكامرأة تعتبر الأكثر مهارة كحكيمة في الأبرشية كلها . خلال هذه الفترة كان ناكفه غالباً ما يأتي حاملاً الرسائل والمهمات لأمه ، وكانت هذه الفتاة ، إيفور هاكونسداتر ، غالباً ما تجد الوسيلة لمقابلته والتحدث إليه . لم ينل هذا رضى كريستين . . .فهي لم تجد ميلاً في نفسها لهذه الفتاة ولا استطاعت أن ترى أن إيفور كانت جميلة كما كان معظم الرجال يرونها حسب ما سمعت . كانت سعيدة في اليوم الذي سمعت فيه أن إيفور ستعود إلى بيتها مجدداً في راومسدال .

ومع ذلك فهي لم تعتبر أن ناكفه لم يكن مهتماً بإيفور ، خاصة حين سمعت فريدا تمازح ابنة المنزل في لوبتسغارد ، " آستا أودونسداتر " ، وتغيظ ناكفه حول هذا الموضوع .

كانت كريستين في أحد الأيام في غرفة الجعة تغلي منقوع العرعر، وسمعت فريدا تثرثر مجدداً حول هذا الأمر . كان ناكفه وغاوته وأبوهما في الخارج في الباحة الخلفية ، يعملون على صنع زورق يريدون استخدامه لصيد السمك في البحيرة هناك عالياً بين الجبال . . .كان إرلند ماهراً في صنع الزوارق . وكان ناكفه يشمع الخشب ، ولكن غاوته انضم الآن إلى الإغاظة . . .كانت آستا عروساً مناسبة كما قال .

قال أخوه بغضب :" اطلبها لنفسك إذا كنت تعتبرها كذلك . "

أجاب غاوته : " كلا ، لا أريدها ، سمعت أن الشعر الأحمر وغابة التنوب يزدهران على الأرض القاحلة . . . ولكني أتمنى لو كان لديك ميل للشعر الأحمر . . ."

" أجل ، ولكن هذه الكلمة لا تنطبق على النساء أيضاً يا بني " ، قال إرلند ضاحكاً . " الزوجات حمراوات الشعر يكنَّ بيضاوات طريات اللحم . . . "

ضحكت فريدا عالياً ، ولكن كريستين أحست بالغضب . بدا لها هذا كلاماً غير ملائم أمام فتيين صغيرين . ثم تذكرت أيضاً أن سونيفا أولافسداتر كانت ذات شعر أحمر ، رغم أن صديقاتها يقلن إنه ذهبي . ثم قال غاوته :

" كن سعيداً لأني لم أذكر هذا من قبل فأنا لم أجرؤ خوفاً من الخطيئة . في ليلة الحراسة في وايتسنداي ، جلست أنت مع آستا في حظيرة العشر طوال الوقت الذي كنا نرقص فيه على مرج الكنيسة . . .فلا شك أنك تحبها . . ."

كان ناكفه سينقض على أخيه لولا أن كريستين خرجت في تلك اللحظة . وبعد أن ذهب غاوته سألت الأم الفتى الآخر :

" ما هذا الذي قاله غاوته عنك وعن آستا أودونسداتر ؟ "

" أعتقد يا أمي أن لا شيء قيل ولم تسمعيه " . هكذا أجاب الفتى . . .وقد تضرج وجهه وعبس غاضباً .

قالت كريستين مستثارة :

" إنه لأمر سيئ ألاّ تقوموا أنتم الشبان بالمحافظة على ليلة الحراسة بل بالرقص والعبث بين النوبات . لم يكن ذلك دأبنا حين كنت لا أزال شابة صغيرة . . . "

" لقد قلت يا أمي إنك حين كنت صغيرة كان جدي يغنّي غالباً للناس حين كانوا يرقصون على مرج الكنيسة . . . "

قالت الأم : " أجل ، ولكنها لم تكن أغاني كهذه ولم يكن الرقص مجنوناً كهذا . وكنا نحن معشر الشباب نبقى إلى القرب من آبائنا . . . لم نكن ننطلق زوجاً زوجاً للجلوس في الحظائر . . . "

بدا ناكفه مستعداً للرد بغضب ، حين حدث أن نظرت كريستين إلى إرلند . كان يبتسم خفية ، بينما ينظر بعين واحدة على امتداد لوح الخشب الذي كان يشذبه بفأسه . عادت إلى غرفة التخمير مجدداً وهي غاضبة وحزينة .

ولكنها لم تفكر إلا قليلاً فيما سمعته . لم تكن آستا أودونسداتر عروساً غير ملائمة . . . فقد كان هناك غنى في لوبتسغارد وثلاث بنات فحسب ، ولكن لا أبناء ، وكانت إنجيبورغ ، أم آستا ، تنتمي إلى أسرة مرموقة .

لم تكن قد فكرت قط في أنهم في يوروندغارد سيصبحون ذات يوم أقرباء لأودون توربيرغسون . ولكن كان قد أصيب بجلطة دماغية في الشتاء ولم يكن الناس يظنون أنه سيعيش طويلاً . . . وكانت الفتاة على درجة من التهذيب وجذابة وفذة في المنزل كما كانت كريستين قد سمعت عنها . ولو كان ناكفه يحب الفتاة فعلاً ، فلم يكن أمراً حكيماً الوقوف أمام فرصة الزواج . عليهم الانتظار عامين قبل الزفاف . . . فكلا العروسين آستا وناكفه لا يزالان صغيرين بعد . . . ولكنها سترحب بآستا كزوجة لابنها بكل سرور .

●

ولكن حدث في أحد الأيام الصافية في منتصف الصيف أن زارت أخت سيرا سولموند كريستين لتستعير شيئاً . كانت المرأتان واقفتين في الخارج أمام المستودعات تودعان الواحدة الأخرى حين قالت أخت الكاهن : كلا ، ولكن إيفور هاكونسداتر ! لقد طردها أبوها من المنزل لأنها حامل . . . لذلك عادت الآن إلى أولفسفولدين باحثة عن مأوى .

كان ناكفه ينفذ مهمة ما في علية المستودع . . . توقف عند آخر درجة . وحين لمحت أمه وجهه ، اعتراها الغثيان وأحست أن ساقيها لا تستطيعان حملها إلا بالكاد . كان الصبي قد تضرج لونه حتى جذور شعره وهو يمرّ عبرهما نحو المباني السكنية .

ولكنها سرعان ما لاحظت من ثرثرة المرأة الأخرى أن الأمور كانت ما هي عليه مع إيفور قبل أن تصل للمرة الأولى إلى الأبرشية في ذلك الربيع . يا لابني المسكين غير المؤذي ، هكذا فكرت كريستين مع تنهيدة راحة . . . إنه يشعر بالخجل الآن لأنه كان يظن بالفتاة أحسن الظنون .

بعد ليال قليلة كانت كريستين تستلقي في فراشها وحيدة فقد كان إرلند قد غادر المنزل لصيد السمك . كانت تعرف أن ناكفه وغاوته كانا في صحبته . ولكنها استيقظت على ناكفه وهو يلمسها ويهمس لها بأن عليه أن يكلمها . زحف وجلس على السرير قرب لوح السرير الخلفي :

" أمي . . . لقد ذهبت وتكلمت مع تلك المرأة المسكينة ، إيفور ، هذه الليلة . . . عرفت أنه كذبوا فيما يخصها . . . كنت متأكداً جداً ، وقد أمسكت حديداً حامياً بيدي لأثبت أنها كانت تكذب تلك المرأة الثرثارة من روموندغارد . . . "

بقيت أمه صامته انتظرت . حاول أن يتكلم بثبات ، ولكن صوته بقي مع ذلك يتأرجح صعوداً وهبوطاً مع سرعة معنوياته :

" كانت في طريقها إلى صلاة الصباح في اليوم التالي على عيد الميلاد . . . كانت لوحدها ، والطريق من مزرعتهم يمتد لمسافة طويلة عبر غابة . وهناك قابلت رجلين . . . كان الظلام لا يزال مخيماً ، فلم تعرف من هما . ربما كانا لصين خارجين عن القانون من الجبال . . . وأخيراً لم تستطع صدهما تلك الفتاة المسكينة الضعيفة . ولم تستطع أن تبوح لأحد بمصيبتها . . . وحين رأى أمها وأبوها بليتها ، جراها من شعرها وألقيا بها خارج المنزل مع الضرب واللعنات . لقد بكت بشدة يا أمي حين حكت لي كل هذا ، وكان من شأن بكائها أن يذيب الصخر في الجبال ." توقف ناكفه عن الكلام فجأة وتنفس بعمق .

قالت كريستين إن الأمر يبدو لها كسوء حظ فظيع أن يكون هذان الشريران قد هربا بفعلتهما . وقد تمنت أن تطالهما عدالة الرب وأن ينالا جزاءهما على شجرة المشنقة .

عندها بدأ ناكفه يحكي عن والد إيفور ، وكم كان غنياً ، وهو من أقرباء أكثر من عائلة عريقة . وإيفور سترسل الطفل إلى أبوين بالتبني في أبرشية أخرى . لقد حملت زوجة غودموند دار بطفل غير شرعي من كاهن . . . و هاهي سيغريد أندرسداتر تقبع في كروكه كامرأة صالحة ومشرفة . . . على المرء أن يكون قاسي القلب وظالماً حتى يعتبر إيفور منبوذة ، لأن ما حدث كان ضد إرادتها ، وكان قدرها أن تعاني من سوء حظ مترع بالعار . . . وقد تكون جديرة على أي حال بأن تكون زوجة رجل يعتز بشرفه . . .

رثت كريستين لحال الفتاة ولعنت من اعتدى عليها . . . وفي قلبها شكرت وحمدت الحظ أن ناكفه لن يبلغ سن الرشد قبل ثلاث سنوات أخرى . ثم رجته بلطف أن يتوخى الحذر ، وألاّ يزور إيفور في غرفة نومها في وقت متأخر من الليل ، كما فعل هذه الليلة ، ولا أن يراه أحد في أولفسفولدين إلاّ حين يذهب في مهمة إلى أهل المنزل ، وإلا فإن الناس ستنتشر إشاعة قبيحة عن الفتاة الشابة سيئة

الحظ . أجل ، إن أولئك الذين يشكون في كلام إيفور ولا يصدقون أنها غير ملومة في محنتها ، سيجدون مزيداً من الأسباب يلوكون بها سمعتها . . . وسيكون أمراً سيئاً على أي حال للفتاة المسكينة لو جرى المزيد من الكلام . . .

بعد ثلاثة أسابيع وصل والد إيفور واصطحب ابنته إلى البيت إلى خطبتها وزفافها . لقد كان الملوم هو ابن مزارع من أبرشيتها . كان الوالدان من كلا الجانبين ضد هذا الزواج في البداية لأنهم كانوا على خلاف حول أراضي إحدى المزارع . وفي الشتاء الأخير كان الرجلان قد تصالحا مجدداً ، وكان الشابان سيصبحان خطيبين ، ولكن إيفور رفضت فجأة ذلك . . . لقد أعجبت بشاب آخر . ولكنها فهمت لاحقاً أنها ستكون الخاسرة لو رمت بعيداً بعاشقها الأول . ومع ذلك ذهبت لتمكث مع خالتها في "سيل" ، على أساس أنها ستجد هناك العون على إخفاء محنتها ، فقد كانت مصممة آنئذ على أن تنال ذلك الرجل الجديد . ولكن حين رأت هيلبيورغ في أولفسفولدين حالة الفتاة ، فقد أعادتها إلى والديها . كان الأب قد جن غضباً وضرب ابنته مرة ثم أخرى لأنها هربت إلى هنا مرة أخرى ، كل هذا كان صحيحاً . ولكن كان قد وصل الآن إلى اتفاق مع الخاطب الأول . . . وعلى إيفور أن ترضى به ، ولو لم تحب الأمر كثيراً .

لاحظت كريستين أن ناكفه قد استصعب قبول هذا الأمر . وقد بقي أياماً عدة لا يكلم أحداً ، وقد أشفقت أمه عليه حتى أنها لم تكن تجرؤ على النظر باتجاهه . . . لأنه كان كلما قابلت عيناه عيني أمه ، كان وجهه يتضرج ويبدو خجلاً إلى حد كان يؤلم كريستين إلى حد كبير .

وحين راح الخدم في يوروندغارد يثرثرون حول هذه الأمور ، أمرتهم السيدة أن يمسكوا عليهم ألسنتهم . . . ما كانت ترضى أن تسمح بذكر هذه القضية القذرة أو اسم هذه المرأة البائسة في منزلها . وقد تعجبت فريدا إلى حد كبير : أولم تسمع مرات عديدة كريستين لافرانسداتر وهي تحكم برقة وتقدم لها يد المساعدة السخية

على فتاة وقعت في محنة مشابهة . . . لقد وجدت فريدا نفسها المأوى الآن تحت رحمة سيدتها . ولكن في القليل الذي ذكرته عن إيفور هاكونسداتر فقد تكلمت عنها بكل سوء كما قد تتكلم أي امرأة عن أخرى .

●

ضحك إرلند حين حكت له كم كان ناكفه حزيناً بعد الخدعة التي تعرض لها . . . حدث ذلك في إحدى الأمسيات حين جلست خارجاً على المرج وراحت تغزل ، ووصل زوجها واستلقى على العشب إلى جانبها .

قال الأب : " لم يصبه أذى كبير ، يبدو الأمر لي وكأن الفتى تعلم درساً يخص الرجال بثمن بخس : لا تضع ثقتك في امرأة . . . "

" أتقول هذا ؟" سألته زوجته وصوتها يرتجف من الغضب المكبوت .

ابتسم إرلند : " أجل . . .ألا ترين ، لقد صدقت في أول مرة قابلتك فيها أنك كنت لطيفة جداً إلى حد أنك لا تستطيعين العضّ على قطعة جبن . . .كنت مستسلمة كشريط من الحرير وطيّعة كحمامة . . .ولكنك خدعتني جيداً يا كريستين . . ."

سألته :" كيف تعتقد أن الأمور كانت ستسير بنا كلنا لو كنت طيعة ولطيفة إلى ذلك الحد؟"

"كلا . . ." أخذ إرلند يدها حتى اضطرت إلى وقف عملها . ابتسم لها وهو يشع سعادة . ثم وضع رأسه في حجرها . " كلا ، لم أكن أعرف يا حلوتي كم كنت محظوظاً حين قادك الرب إلى طريقي يا كريستين !"

●

ولكن لأن عليها أن تضبط نفسها دائماً وأن تخفي يأسها من تهور إرلند الأبدي ، فقد يحدث أحياناً أن يتحكم بها مزاجها حين يكون عليها أن تقوم اعوجاج أولادها : كانت تثقل عليهم بالضرب والكلام . وكان إيفار وسكوله هما من يتحمل الجزء الأكبر من هذا العبء .

كانا في أسوأ سن الآن ، في عامهما الثالث عشر ، وكانا شديدي الجموح والعناد حتى أن كريستين كادت تجنّ منهما ، وفكرت مرات عدة إن كانت هناك ياترى أم في النرويج تربي مثل هذين الوغدين شأنها هي . كانا وسيمين شأن كل أولادها ، بشعر أسود ناعم كالحرير ومجعد ، وعينين زرقاوين تحت حاجبين أسودين ضيقين ووجه دقيق الملامح . كانا أطول قامة من أندادهما بكثير ، إلا أن أكتافهما كانت لا تزال ضيقة ، مع أعضاء طويلة ونحيلة ، وكانت مفاصلهما ناتئة مثل عقد سنبلة القمح . كانا متشابهين إلى حد أنه ما كان هناك من شخص خارج منزلهما يستطيع تمييز الواحد عن الآخر ، وكان الناس في كل الأبرشية يسمونهما : " حاملا خناجر يوروندغارد " . . . ولم يكن هذا اللقب مقصوداً به إضفاء صفة التشريف عليهما . كان سايمون أول من أطلق عليها هذا اللقب مزاحاً ، فقد كان إرلند قد منح كلاً منهما خنجراً ، وهذان السيفان القصيران لا يفارقانهما إلاّ حين يدخلان الكنيسة . لم تكن كريستين راضية عن حصولهما على هذين الخنجرين ، أو عن تجوالهما الدائم وهما يحملان الفؤوس والرماح أو الأقواس . كانت تخشى أن يجلب هذان الصبيان المتهوران الأذى لنفسيهما بمثل هذه الأشياء . ولكن إرلند قال بلطف أنهما أصبحا كبيرين بما فيه الكفاية وقد حان وقت اعتيادهما على حمل السلاح .

كانت تعيش في رعب لا ينتهي فيما يخص هذين التوأمين . وحين كانت لا تعرف أين ذهبا ، كانت الأم تفرك يديها سراً وتتوسل إلى مريم العذراء والقديس أولاف ليعيداهما إلى المنزل مجدداً حيّين دون أذى . كانا يتسلقان الجبال عبر

الصدوع أو الجروف العامودية التي لم يسبق لأحد أن تسلقها . كانا يسرقان أعشاش النسور ويعودان إلى البيت حاملين أفراخاً قبيحة ذات عيون صفراء تهسهس في عبّ معطفيهما . كانا يزحفان بين الصخور الإردوازية على امتداد نهر "لاغن" ، شمالاً في الوادي ، حيث يندفع النهر من منحدر إلى آخر . وقد علق إيفار مرة في ركاب جواده فسحبه الجواد وراءه وكاد يُقتل . . . وكان يحاول أن يركب فحلاً صغيراً نصف مروّض وضع الصبيان سرجاً عليه ، والله وحده يعرف كيف حدث ذلك . وقد دخلوا ـ دون مهمة ولا لأجل شيء عدا التطفل إلى كوخ الفنلندي في غابات تولدستاد ـ كانا قد تعلّما من أبيهما بعض الكلمات من لغة اللابلانديين (*) وحين قاما بتحية الساحرة الفنلندية العجوز بهذه الكلمات ، فقد قدمت لهم بسخاء اللحم والشراب ، وقد أتخما نفسيهما حتى الانفجار وكان ذلك يوم صوم . وكانت كريستين قد التزمت بعادة مفادها أنه حين يصوم الكبار ، فإن على الأطفال أن يقنعوا بالقليل من الطعام وبأشياء لا يحبونها عادة . . . فقد عودها والداها على هذا حين كانت صغيرة . في هذه المرة ، ولمرةّ واحدة ، كان إرلند صارماً معهما ، فأخذ الحلوى التي قدمتها لهما الزوجة الفنلندية ليحضراها معهما وأحرقها ، بينما حظر عليهما الاقتراب حتى من حافة الغابة حيث كان الفنلنديون يقيمون . ولكن رغم ذلك ، فقد دغدغه سماع مغامرة الصبيين . ولاحقاً كان غالباً ما يروي لإيفار وسكوله حكايات أفعاله وسفراته في الشمال ، وما رآه هناك من أساليب عيش هؤلاء الناس ، وكان يحادثهم بلغة أهل تلك البلاد القبيحة الوثنية .

أما بالنسبة للبقية ، فقد كان إرلند نادراً ما يقرّع أولاده ، وكان يتحول إلى المزاح جانباً حين كانت كريستين تتفجّع على أفعال التوأمين . في الضيعة كانا

---

*سكان شمال فنلندا والسويد والنرويج .ينطقون بلغة خاصة بهم "المترجم"

يقومون بأعمال خبيثة على الدوام ، رغم أنهما كانا قادرين على أن يكونا مفيدين أيضاً عند اللزوم ـ لم يكونا غير بارعين مثل ناكفه . ولكن حين كانت أمهما تطلب منهما أداء عمل معين ثم تصل لترى كيف كانا ينجزانه ، كانت الأدوات مرمية هناك والصبيان واقفين هناك يراقبان أباهما وهو يريهما كيف يعقد البحارة العقد وما شابه ذلك . . .

كان من عادة لافرانس بيورغولفسون ، حين يرسم إشارة الصليب بالقار على باب الزريبة ، أو على أماكن أخرى مشابهة ، أن يرسم شيئاً بالفرشاة . . .مثل حلقة أو ضربة على كل ذراع من أذرع الصليب . في أحد الأيام فكر التوأمان في صنع هدف من أحد علامات الصليب هذه . جن جنون كريستين من اليأس والغضب من هذه الأفعال اليهودية ، ولكن إرلند وقف إلى جانب الصبيين : كانا صغيرين بعد ، ولا يتوقع منهما المرء أن يفكرا في قدسية الصليب في كل مرة يرونه مرسوماً بالقار على باب زريبة أو ظهر بقرة . دع الصبيين يذهبان إلى الصليب المنصوب على مرج الكنيسة ، ويركعان أمامه ويقبلانه ، ثم عليهما أن يتلوا خمس مرات " أبانا الذي " وخمس عشرة مرة " السلام عليك يا مريم " . . .ولا حاجة إلى جر سيرا سولموند إلى الضيعة لأجل هذا الأمر . ولكن في هذه المرة وقف بيورغولف وناكفه إلى جانب أمهما . وقد حضر الكاهن ورش ماء مقدساً على الجدار وأنّب الخاطئين الصغيرين بشدة .

كانا قد أعطيا ثيران وتيوس كريستين رؤوس الأفاعي لتأكلها حتى يجنّ جنونها وتروح تنطح بقرونها . كانا يغيظان مونان لأنه كان لا يزال يتشبث بتنورة أمه ، وغاوته أيضاً ـ فقد كانا على خلاف معه غالباً ـ وعلى الأكثر فإن أولاد إرلند كانوا مترابطين في أخوة ممتازة . ولكن بين الحين والآخر ، حين كان التوأمان يفرطان في أفعالهما إلى حد لا يحتمل ، كان غاوته يضربهما . فقد كان تأنيبهما بالكلمات أشبه بمخاطبة جدار . . .ولو غضبت أمهما منهما ، كانا يقفان

متخشبين بقبضات مشدودة ويقطبان وجهيهما بعيون لامعة من تحت جبينين متغضنّين متضرجين باللون الأحمر من شدة الغضب . فكرت كريستين فيما قاله لها غونولف عن إرلند . . .كان قد رمى أباه بخنجره ورفع يده عليه مرات كثيرة وهو بعد مجرد طفل . لذلك كانت تضرب التوأمين بقسوة ، فقد كانت تفكر برعب فيما يمكنه أن يحدث لهذين الطفلين من أطفالها إذا لم يُروَّضا في الوقت الملائم .

كان سايمون دار هو الوحيد الذي كان قادراً على فعل شيء ما مع هذين المجنونين : كانا يحبان زوج خالتهما ويصبحان خنوعين وطيعين حين يتحدث إليهما بلطف وهدوء . ولكن بما أنهما لم يعودا يريانه الآن ، فإن أمهما لم تلاحظ أنهما كانا يفتقدانه . فكرت كريستين بحزن : قلب الطفل قلّب .

وكانت المرأة تعرف في سرها أنه رغم كل شيء ، فإنها كانت أشد فخراً بهذين الصبيين تقريباً . ولو استطاعت أن تحطم هذا التحدي المشؤوم وهذا الجموح ، لما كان أي من الأخوة واعداً برجولة أفضل من هذين . كانا معافيين وقويين وصحيحي الجسم ، وكانا جريئين وصادقين وكريمين وطيبين مع كل الفقراء ، وفي مرات كثيرة أظهرا استعداداً وسرعة في إبداء الرأي تجاوزا ، كما فكرت ، ما يمكن للمرء أن يتطلع إليه من هذين الفتيين .

في إحدى الأمسيات في موسم حصاد التبن كانت كريستين قد تأخرت في المطبخ حتى وصل مونان مندفعاً وهو يصرخ بأن حظيرة الماعز العتيقة كانت تحترق . لم يكن هناك رجال في المنزل أو قريباً منه . . .كان البعض في ورشة الحدادة يسنون مناجلهم ، والبعض قد اتجه شمالاً إلى الجسر ، حيث اعتاد الشبان التجمع في أمسيات الصيف . أمسكت السيدة بزوج من الدلاء وركضت وهي تنادي على خادماتها للحاق بها .

كانت حظيرة الماعز مجرد مبنى صغير عتيق له سقف يصل حتى الأرض ، ينتصب في الطريق الضيق بين الباحة وساحة المزرعة أمام وسط جدار الإسطبل المركزي ومع أبنية أخرى مبنية إلى القرب منه من كلا الجانبين . ركضت كريستين نحو علية غرفة الموقد وأمسكت بفأس وبخطاف حريق ، ولكنها حين التفّت من حول زاوية الإسطبل لم تر أي نيران ، ولكن مجرد غيمة كثيفة من الدخان تندفع من ثقب في سقف حظيرة الماعز . كان إيفار جالساً على حافة السقف وهو يضرب السقف بفأس ، وكان سكوله ولافرانس ضمن المبنى وهما يفصلان الرقاقات المحترقة من السقيفة ويدوسان على النار . وهاهو إرلند قد وصل يعدو ومعه أولف والرجال الذين كانوا في ورشة الحدادة . كان مونان قد ركض إلى هناك وحذرهم . . .والآن سرعان ما كانت النار قد أطفئت . ولكن أسوأ بلية كان يمكن أن تحدث . . .كان المساء هادئاً ساكناً ، ولكن مع نفحة هواء من الريح من الجنوب كان من شأن الحريق بعد أن اشتعل في حظيرة الماعز أن يمتد إلى كل المباني من حولها إلى شمال الباحة والإسطبلات والمستودعات وبيوت السكن نفسها .

كان إيفار وسكوله فوق سطح الإسطبل . . .كانوا قد أوقعوا صقراً في الفخ وصعدا ليعلقاه من صليب الجملون . . .وذلك حين اشتما شيئاً يحترق ورأيا الدخان يصعد من السقف تحتهما . فقفزا مباشرة إلى سقف الحظيرة وبالفأسين الصغيرين اللذين كانا معهما بدأا بفصل الخث المحترق بينما أرسلا لافرانس ومونان اللذين كانا يلعبان في الجوار ، الأول ليحضر الخطافات والآخر إلى أمهما . ولحسن الحظ كانت الشرائح الخشبية وعوارض السقف متعفنة جداً بحيث لا تحترق بسرعة . ولكن كان جلياً في هذه المرة أن التوأمين أنقذا ضيعة أمهما وذلك إذ انطلقا إلى العمل فوراً ففصلا السقف المحترق ولم يضيعا وقتاً في طلب عون الكبار أولاً .

لم يكن سهلاً فهم كيف بدأت النار أولاً ، لولا أن غاوته كان قد مرّ قبل ساعة من ذلك الطريق حاملاً الجمر من ورشة الحدادة ، وقال إن وعاء النار لم يكن مغطى . . .لذلك على الأرجح أن شرارة قد طارت إلى سقف الخث الجاف .

ولكن ما قيل عن هذا كان أقل مما قيل عن جاهزية التوأمين ولافرانس . . .وذلك خلال الحراسة الخاصة بالحريق التي هيأها أولف ، وحيث كان على كل سكان المنزل أن يرافقوه إلى وقت متأخر من الليل ، بينما راحت كريستين تقدم الجعة الثقيلة والميد إليهم . كان الصبيان الثلاثة يعانون جميعاً من حروق في اليدين والقدمين . . .كانت أحذيتهم محترقة إلى حد أنها قد تفتّتت تماماً . كان لافرانس في التاسعة من عمره فحسب ، لذلك كان صعباً عليه أن يتحمل الألم بصبر لفترة طويلة ، ولكنه كان في البداية الأكثر اعتزازاً من الجميع وهو يتجول بيدين مضمومتين ويسمع كل أهل الضيعة يمتدحونه .

في تلك الليلة ، حين ذهبوا ليرتاحوا ، ضم إرلند زوجته إليه .

" يا كريستين ، يا كريستين . . .لا تكوني شديدة الحرص والاهتمام بأطفالك . . .ألا ترين من أي معدن صنعوا؟ تتصرفين مع هذين الصبين المفعمين نشاطاً وكأنك تتوقعين أن يكون طريقهما بين المشنقة والنطع . أعتقد الآن أن عليك أن تتمتعي بمكافأتك لقاء كل ما تحملته من الآم وأوجاع ومشاق ، في تلك السنوات التي كنت حاملاً فيها بطفل تحت حزامك وآخر على صدرك وثالث على ذراعك . . .وما كنت تتحدثين عن أي شيء آنئذ عدا الأطفال الصغار ، والآن ، حين كبروا ليصلوا إلى سن الحكمة والرجولة ، فأنت تتجولين فيما بينهم كأنك صماء وبكماء ، دون أن تنتبهي بما يكفي للإجابة لو حادثوك . فليساعدني الرب ، سيبدو الأمر وكأنك تحبينهم أقل الآن بعد أن ارتحت من مشاكل طفولتهم ، واصبح أبناؤنا الكبار متعة وبركة لك . . ."

لم تثق كريستين بنفسها لتجيب بكلمة واحدة .

ولكنها استلقت هناك ولم تستطع النوم . ومع اقتراب الصباح هبطت من فوق الرجل النائم بهدوء ومضت حافية القدمين نحو النافذة وفتحتها .

كانت السماء رمادية ومغطاة بالسحاب والهواء بارداً . . .إلى البعيد نحو الجنوب حيث كانت الجبال تقترب من بعضها البعض وتغلق "الديل" ، كان المطر يجتاح الأراضي العالية . وقفت السيدة برهة تنظر إلى الخارج . . .كان الجو حاراً وكثيفاً في علّية المستودع الجديد هنا ، حيث ينامون صيفاً . فوق رائحة الرطوبة التي كانت في الجو ، كانت رائحة التبن تصل إليها قوية وعذبة . كان طير هنا أو هناك في الليل الصيفي ، يزقزق قليلاً في نومه .

وجدت كريستين قداحتها الفولاذية وأشعلت شمعة . زحفت إلى حيث كان إيفار وسكوله نائمين في سريرهما المقعدي . . .وتركت النور يسقط عليهما وهي تتحسس وجناتهما بقفا يدها . . .لاشك أنهما يعانيان من بعض الحمى . تلت برقة " السلام عليك يا مريم " ورسمت إشارة الصليب فوقهما . المشنقة والنطع ـ كيف يستطيع إرلند أن يمزح بمثل هذه الأمور ـ وهو الذي كان بنفسه قريباً جداً من . . .

أنّ لافرانس وهمهم في نومه . وقفت الأم قليلاً وانحنت فوق الاثنين الأصغر سناً اللذين كانا نائمين فوق سرير صغير خلف سرير والديهما . كان لافرانس ساخناً متضرج الوجه ويتقلب في نومه ، ولكنه لم يستيقظ حين لمسته .

كان غاوته مضطجعاً وذراعاه البيضاوان الحليبيتان خلف عنقه وقد اندسا في شعره الأصفر الطويل التبني . . .كانت أغطية السرير قد رميت بعيداً عنه . كان له دم حار بحيث كان ينام عارياً ، وكان يلتمع ببشرة بيضاء سفعتها الشمس فوق الوجه والعنق واليدين . غطته أمه إلى ما فوق الخصر .

كان صعباً عليها أن تشعر بالغضب من غاوته . . .كان يشبه أباها كثيراً . لم تكن قد قالت له سوى القليل عن المصيبة التي كاد ينزلها فيهم . كان صافي الذهن ومتأملاً ، واعتقدت أنه سيلوم نفسه بنفسه ولن ينسى ذلك أبداً .

كان لناكفه وبيورغولف ثاني السريرين الكبيرين في العلية . وقفت الأم فترة طويلة وهي تترك النور يسقط على الشابين النائمين . كان اللون الأسود وقد بدأ يظلّل الفم الأحمر الطري الطفولي . كانت قدم ناكفه قد برزت من تحت غطاء السرير . . . قدمه ضيقة ، ومشطها عال وذو قوس عميق في أخمصها . . .ليست نظيفة . ومع ذلك بدا للأم أنه لم يمر وقت طويل منذ أن كانت قدم هذا الشاب صغيرة جداً إلى حد أنها كانت تخفيها كلها في قبضة يدها ، وكانت تضغطها تحت صدرها وترفعها إلى فمها وتعض كل إصبع صغيرة مدورة ، فقد كانت أصابعه زهرية اللون وعذبة كتيجان الزهور فوق شجيرة عنب الدب .

ربما يكون الأمر وما فيه أنها لم تكن ممتنة بما فيه الكفاية لقدرها الذي أراده الله لها . كانت ذكرى الأيام السابقة على مولد ناكفه ، ورؤى الرعب التي كانت تتلوى تحتها . . .تندفع أحياناً كالنار عبر ذهنها : لقد وصلت إلى الخلاص ، كما يحدث حين يستيقظ المرء من أهوال المنام وعبء الكوابيس ليرى أمامه نور النهار المبارك . ولكن نساء أخريات استيقظن ليجدن بؤس النهار أسوأ من أسوأ أحلامهن . وحتى الآن حين كانت ترى شخصاً مقعداً أو مشوهاً ، كان قلب كريستين يضطرب من ذكرى خوفها على ولدها الذي لم يكن قد ولد بعد . عندها كانت ستذل نفسها بكل حماسة أمام الرب وأولاف المقدس . كانت ترمي نفسها في أعمال البرّ . كانت تكافح لتذرف دمع التوبة الصادقة من عينيها خلال صلاتها . ولكنها كانت تشعر في قلبها دائماً بهذا السخط الذي لا ينتهي وبأن الوهج الدافئ قد خبا ، ودموع التوبة قد غارت في روحها كما يغور الماء في الرمل . ثم راحت تواسي نفسها : لأنه لم تكن لديها موهبة الورع التي أملت ذات مرة أن ترثها من أبيها . كانت قاسية وخاطئة ، ولكن ربما لم تكن أسوأ من معظم الناس ، وشأن معظم الناس عليها أن تعاني في بيتها الثاني الحرائق المتقدة التي كانت ضرورية لإذابة قلبها وتطهيره .

وبعد ذلك ، بين الحين والآخر ، كانت تتوق إلى أن تكون امرأة أخرى . كانت تنظر إلى أبنائها السبعة الوسيمين الجالسين إلى مائدتها ، وحين كانت تمشي في صباحات يوم القداس نحو الكنيسة ، بينما الأجراس تقرع وتدعو على نحو عذب جداً الناس إلى السعادة وسلام الرب ، ترى ذلك القطيع من الشبان الصغار طوال القامة جيدي الهندام وهم يصعدون المنحدر أمامها . لم تكن هناك امرأة أخرى ولدت هذا العدد الكبير من الأطفال دون أن تعرف قط معنى خسارة أحدهم ـ وكانوا كلهم وسيمين مترعين بالعافية ، دون أي عيب في الجسم أو العقل ـ بيورغولف فحسب كان حسير البصر ، كانت تتوق إلى أن تكون قادرة على نسيان همومها كلها ، أن تصبح لطيفة وممتنّة ، أن تحب الرب وتخشاه ، كما فعل أبوها . . .تذكرت أن أباها قال أن من تذكر بقلب نادم خطاياه ، وانحنى أمام صليب الرب ، ليس في حاجة إلى أن يحني عنقه تحت سوء الطالع أو أخطاء الدنيا .

أطفأت كريستين الشمعة ثم وضعتها في مكانها تحت أعلى جذع في الجدار . مضت نحو النافذة مجدداً . . .كان نور النهار طاغياً في الخارج إلا أنه كان رمادياً وميتاً . . .نظرت من فوق أسقف المباني الأخفض فرأت العشب القليل الذي سفعته الشمس يهتز بلطف تحت الريح . كان صوت صفير هامس يسري عبر أوراق شجر البتولا التي ظهرت أمامها أعلى من سقف مبنى القاعة .

نظرت إلى يديها وهي تمسك بإطار النافذة . كانتا خشنتين مرهقتين من العمل ، وذراعاها حتى المرفقين كانا أسمرين والعضلات متورمة وقاسية كالخشب . حين كانت لا تزال شابة ، كان الأطفال يمتصون الدم والحليب منها حتى افتقدت كل استدارات الفتاة الناعمة النضرة من جسدها . والآن كان جهد كل يوم يسرق منها شيئاً مّما كان قد تبقى من جمالها الذي كان يميزها كابنة وزوجة وأم لأبناء من نسل نبيل . . .اليدان البيضاوان النحيلتان ، الذراعان

العبلاوان واللون الصافي الرقيق للوجه الذي كانت تقيه من الشمس بكل حذر بمنديل ، وتعتني به بغسول يتم تحضيره ببراعة . قبل الآن بفترة طويلة كانت قد أصبحت لا تهتم إن كانت أشعة الشمس تنصب مباشرة على وجهها المتعرق وتحرقه ليصبح أسمر شأن وجوه زوجات الفلاحين الفقراء .

كان شعرها هو كل ما تبقى لها من جمالها وهي عذراء . كان كثيفاً بني اللون كما كان دائماً ، رغم أنها ما عادت تجد إلا نادراً ما يكفي من الوقت لغسله والعناية به . كانت الجديلة الثقيلة المشبكة التي تتدلى على ظهرها قد بقيت دون حلّ منذ ثلاثة أيام .

قذفتها كريستين إلى الأمام من فوق كتفها ، حلت شعرها وهزته . . .كان لا يزال يلتف من حولها كعباءة ويصل إلى ما دون ركبتها . أخذت مشطاً من خزانتها وبينما راحت ترتجف قليلاً بين الحين والآخر ، وهي جالسة هناك في شلحتها ، تحت النافذة الصغيرة المفتوحة أمام نسيم الصباح البارد ، فقد مشطت الكتلة المتشابكة بعناية .

بعد أن سرحت شعرها وضفرته مجدداً غي حبل متين وثقيل ، كأنما شعرت بأنها أفضل . ثم رفعت مونان وهو مستغرق في النوم بعناية بين ذراعيها ووضعته قرب الجدار في السرير الكبير ، ثم انزلقت بينه وبين الرجل النائم . ضمت أصغر أبنائها بين ذراعيها ووضعت رأسها لترتاح على كتفها ثم نامت . . .

●

تأخرت في النوم في الصباح التالي . وحين استيقظت كان إرلند والأولاد قد نهضوا من فراشهم . " أعتقد حقاً أنك لا تزال ترضع من أمك حين لا يكون هناك شهود " ، قال إرلند حين رأى أن مونان كان ينام قرب أمه . غضب الصبي من هذا الكلام فخرج وزحف فوق رأس أحد الأعمدة التي تحمل الشرفة . . . كان

يريد البرهنة على رجولته . "اقفزا!" صاح ناكفه من الباحة في الأسفل . أمسك بأخيه الصغير بين ذراعيه ثم قلبه عاليه سافله ورماه إلى بيورغولف . . .وراح أخوته الكبار يلعبون به حتى ضحك وصرخ .

ولكن في اليوم التالي عندما وقف مونان يبكي لأن وتر القوس قد لسع أصابعه في ارتداده ، أخذه التوأمان ولفّاه في غطاء السرير وحملاه إلى سرير أمه ، ثم حشوا فمه بقطعة من الخبز كبيرة كاد الصبي يختنق معها .

-٢-

كان كاهن منزل إرلند في هوسابي قد علّم الأبناء الثلاثة الكبار كتبهم . لم يكونوا من الطلاب المجدين ، ولكنهم كانوا قابلين للتعلم ، ثلاثتهم ، وأمهم التي تربت على العلم ، كانت تراقبهم حتى يتعلموا جيداً .

وفي السنة التي قضاها بيورغولف ونيكولاوس في دير تاوترا مع سيرا آيليف ، فقد راحا يرضعان ـ كما قال الكاهن ـ من ثديي "السيدة معرفة" بحماسة متقدة . كان المعلم هناك راهباً مسناً كثير الأشغال كالنحلة ، وكان قد جمع المعرفة طوال حياته من كل الكتب التي استطاع أن يجدها ، سواء باللاتينية أو بالنرويجية . وكان السيرا آيليف نفسه عاشقاً للحكمة ، ولكن خلال السنوات في هوسابي لم تتح له سوى فرصة ضئيلة لمتابعة حبه للكتب . أما بالنسبة إليه فقد كانت زمالته مع "آسلاك" قارئ الكتاب المقدس أشبه بمرعى السايتر للقطيع الجائع حتى الموت . وكان الصبيان الصغيران اللذان كانا يتشبثان بكاهن دارهما ، بين كل الرهبان الآخرين ، يتابعان بفمين مشدوهين حديث الرجلين المثقف . وكان الأخ "آسلاك" والسيرا آيليف يجدان متعة في تغذية العقلين الشابين بألذ عسل من مكتبة الدير ، حيث كان الأخ "آسلاك" نفسه يضيف نسخاً ومقتطفات

كثيرة من أنفس الكتب . وسرعان ما أصبح الصبيان شديدي المهارة حتى أن الراهب ما عاد في حاجة إلى محادثتهما باللغة النرويجية . وحين وصل والداهما لإحضارهما ، كانا قادرين كلاهما على إجابة الكاهن باللاتينية بطلاقة ودون أخطاء كثيرة .

وقد حافظ الأخوان على هذه المعرفة منذ ذلك الحين . كان هناك الكثير من الكتب في يورروندغارد . . . إذ كان لدى لافرانس خمسة كتب ، منها اثنان ذهبا إلى رامبورغ عند وداعها للضيعة ، ولكنها لم تكن تفكر قط في تعلم القراءة ، ولم يكن سايمون شديد المهارة في الأحرف بحيث يقرأ ليستمتع ، رغم أنه كان قادراً على قراءة الرسالة وكتابتها جيداً إلى حد كاف . لذلك رجا كريستين أن تبقي الكتب حتى يكبر أولاده أكثر . كانت ثلاثة من الكتب التي تخص والدي إرلند قد منحهما هو إلى كريستين بعد فترة وجيزة من زواجهما ، وكانت قد نالت كتاباً آخر كهدية من غونولف نيكولاوسون . وقد كان هو قد طلب تجميع المادة ونسخها لأجل زوجة أخيه من الكتب حول القديس أولاف ومعجزاته ، وكذلك بعض حكايات القديسين ، والكتابات التي أرسلها الفرنسيسكان في أوسلو إلى "البابا" حول الأخ إدفين ريكاردسون ، يتوسلون فيها أن يطوّب . وأخيراً ، فإن ناكفه قد حصل على كتاب صلاة من سيرا أيليف حين افترقا . لذلك كان ناكفه يقرأ لأخيه كثيراً . . . كان يقرأ بسهولة وجيداً ، وبصوت غنائي نوعاً ما مثلما كان الأخ "آسلاك" قد علّمه . ولكنه كان يحب الكتب اللاتينية أكثر من غيرها . . . كتاب صلواته وكتاب آخر كان يخص لافرانس بيورغولفسون . ومع ذلك فإنه كان يثمّن عالياً كتاباً ضخماً منسوخاً بخط جميل جداً تم توارثه في الأسرة منذ الجد الشهير الأسقف نيكولاوس أرنسون نفسه .

كانت كريستين تتمنى لو يتلقّى أولادها الأصغر سنّاً المزيد من العلم أيضاً كما هو جدير برجال من محتد نبيل . ولكن لم يكن سهلاً حدوث ذلك : فقد

كان سيرا آيريك عجوزاً جداً ولم يكن السيرا سولموند قادراً سوى على القراءة من الكتب التي يستخدمها في القداس : والكثير من الأمور التي كان يقرأها لم يكن يفهمها جيداً هو نفسه . كان من شأن لافرانس أن يستمتع بين الحين والآخر في المساء بالجلوس إلى قرب ناكفه ويسمح لأخيه أن يعلّمه الأحرف على لوح الشمع . . . ولكن الثلاثة الآخرين لم يكونوا راغبين قط في اكتساب مثل هذه المعرفة . في أحد الأيام تناولت كريستين كتاباً نرويجياً وطلبت من غاوته أن يرى إن كان يتذكر أي شيء مما تعلمه صغيراً من سيرا آيليف . ولكن غاوته لم يستطع أن يتهجى ثلاث كلمات ، وحين وصل إلى أول إشارة تدل على أحرف عديدة ، أغلق الكتاب ضاحكاً وقال إنه لا يحب ممارسة هذه اللعبة .

والآن ، ولهذا السبب فإن سيرا سولموند وصل في إحدى أمسيات أواخر الصيف وطلب إلى نيكولاوس أن يأتي معه إلى بيته . كان هناك فارس أجنبي وصل من قداس وقد استعار بيتاً في روموندغارد ، ولكن لم يكن هو ولا أحد من تابعيه أو خدمه يتكلمون باللغة النرويجية . كان الدليل الذي أوصلهما إلى هناك لا يفهم سوى كلمة أو اثنين من حديثهما . كان سيرا آيريك مريضاً . . . ألم يكن ناكفه قادراً على القدوم والتكلم مع الفارس باللاتينية؟

لم يبد على ناكفه أنه غير سعيد بالذهاب للترجمة ، ولكنه تظاهر بأنه لا يهتم بالأمر وذهب مع الكاهن . وقد عاد إلى البيت بوقت متأخر جداً في الليل ، في حال من السكر بعد أن شرب الكثير من النبيذ . كان لدى الفارس الأجنبي الكثير من النبيذ ، وقد جعله يسيل أمام الكاهن والقندلفت وناكفه أيضاً وبكل كرم . كان اسمه شيئاً أشبه بالسير "آلان" أو "آلارت أوف بكلار" . كان من الفلاندرز وهو في رحلة حج إلى الأماكن المقدسة في الدول الشمالية . كان ودوداً جداً وقد انطلق الكلام بينهم بسيولة . . . ثم ذكر ناكفه رسالة الفارس . كان الفارس ذاهباً إلى أوسلو ثم إلى أمكنة أخرى للحج في الدنمارك وألمانيا ، وكان راغباً

في اصطحاب ناكفه معه ليكون ترجماناً له على الأقل خلال وجوده في النرويج . وعلاوة على ذلك فقد كان قد ألمح إلى أن الشاب الصغير لو كان سيصحبه دائماً فإن من شأنه أن يكسبه ثروة . . .لقد بدا وكأن البلاد التي جاء منها كان فيها مهاميز وسلاسل عنق ذهبية وأكياس نقود ثقيلة وأسلحة جيدة جاهزة تنتظر شاباً صغيراً شأن نيكولاوس إرلندسون ليحضر ويلتقطها من على الأرض . وقد أجاب ناكفه بأنه كان لا يزال دون سن الرشد ، وعليه أن يستأذن أباه . . . ولكن السير آلارت أجبره على تقبل هدية على أي حال . ولن تكون الهدية ملزمة كما قال بصراحة . . . كانت سترة قصيرة دون أكمام من الحرير ولها لون الخوخ مع أجراس فضية على الأكمام .

أصغى إرلند إليه صامتاً مع نظرة غريبة شديدة الانفعال . وحين انتهى ناكفه من الكلام ، أرسل غاوته ليحضر صندوق عدة الكتابة ، وانطلق يملي رسالة باللاتينية . . . وقد ساعده بيورغولف فلم يكن ناكفه قادراً على أن يكون ذا نفع في حالته تلك وأرسله أبوه إلى السرير . في الرسالة كتب أن إرلند يطلب من الفارس الحضور إلى بيته في اليوم التالي وذلك ليتبادلا الحديث حول عرض السير آلارت في جعل نيكولاوس إرلندسون يعمل في خدمته كتابع له . وقد رجا الفارس أن يغفر له إعادته للهدية مع الرجاء بأن يحتفظ بها السير آلارت حتى يكون نيكولاوس ، بعد أن يأخذ الإذن من أبيه ، قد أقسم يمين الولاء للعمل في خدمة الغريب ، حسب العادة السائدة بين فرسان كل البلاد .

أسقط إرلند بعض الشمع على أسفل الرسالة وضغط عليه بختمه الصغير ـ الذي على خاتم يده ـ بخفة . ثم أرسل خادماً إلى روموندغارد مع الرسالة والسترة الحريرية .

" يا زوجي . . . لا شك أنك لا تفكر في إرسال ابنك الشاب إلى بلاد أجنبية مع رجل غير معروف وأجنبي . . ." قالت كريستين وهي ترتجف .

" علينا أن نرى . . ." قال إرلند وهو يبتسم على نحو غريب جداً . " . . . ولكني لا أعتقد أن الأمر سيكون كذلك ." قال هذا حين رآها مضطربة ، ثم ابتسم على نحو أوسع وربت على خدها .

وبناء على طلب إرلند قامت كريستين بنثر العرعر والزهور على أرض القاعة العليا ونشرت أفضل الوسائد على المقاعد وغطت المائدة بقماش كتاني ووضعت اللحم في أطباق من الخشب النفيس والشراب في كؤوس نادرة مطعمة بالفضة ورثتها الضيعة من لافرانس . كان إرلند قد حلق لحيته بعناية وجعّد شعره وارتدى معطفاً أسود مطرزاً على نحو فاخر وطويل صُنع من قماش أجنبي . مضى نحو بوابة الضيعة ليقابل ضيفه ، وحين عبرا الباحة معاً ،لم تستطع كريستين سوى أن تعتبر أن زوجها كان يبدو أشبه بكثير بواحد من فرسان فالاند أولئك الذين تروى عنهم الحكايات من الغريب الأشقر الأجنبي المرتدي ملابس زاهية متعددة الألوان من الحرير الرقيق والمخمل . وقفت على شرفة القاعة العليا وقد ارتدت غطاء رأسها المطرز الحريري . قبّل الفلمنكي يدها حين حيته قائلة بالفرنسية : "أهلاً بك" ، ولم يتبادلا سوى هاتين الكلمتين طوال وجوده الذي دام ساعات معهم . لم تفهم شيئاً من كلام الرجل وكذلك سيرا سولموند الذي كان مع ضيفه . ولكن الكاهن قال للسيدة إنه واثق من أنه ضمن ثروة لنيكولاوس . ولم تجب هي لا سلباً ولا إيجاباً .

كان إرلند يتكلم القليل من الفرنسية وكذلك بعض الألمانية بشكل سطحي كالتي يعرفها الجنود المرتزقة ، وتم تبادل الحوار بينه وبين الفارس الغريب بسلاسة وتهذيب . ولكن كريستين لاحظت أن الفلمنكي بدا غير مسرور إلى حد كبير مع استمرار الحوار رغم أنه حاول إخفاء ذلك . وكان إرلند قد أمر أبناءه بالانتظار في علية المخزن الجديد حتى يرسل وراءهم . . . ولكنه لم يرسل وراءهم .

ذهب إرلند والسيدة مع الفارس والكاهن نحو البوابة . وحين كان الضيفان قد

اختفيا بين الحقول التفت إرلند إلى كريستين وقال بابتسامة لم تعجبها :

"مع ذاك الشخص لا يمكنني إرسال نيكولاوس حتى من هنا إلى برايدن . . ."

وصل إليهما أولف هالدورسون . كان قد تكلم هو وإرلند على نحو لا تسمعه كريستين ، ولكن أولف شتم بعنف ثم بصق . ضحك إرلند وربت على كتف الرجل :

" أجل ، لو كنت شخصاً من النوع الذي لا يغادر منزله أبداً مثل هؤلاء المزارعين هنا . . . ولكني رأيت الكثير حتى أني لأتعهد لك بأني لن أبيع صقوري الشابة الوسيمة لأسلمها بيديّ إلى الشيطان . . لم يفهم سيرا سولموند شيئاً ، رأس العجل المقدس ذاك . . ."

وقفت كريستين بذراعين مدلاتين . كان وجهها يحمر ثم يشحب . وكان الاشمئزاز والعار قد سيطرا عليها ، حتى شعرت بالغثيان . بدت لها ساقاها وكأنهما تخونانها . لا شك أنها عرفت بوجود مثل هذه الأمور ـ على أنها أشياء بعيدة جداً ـ ولكن أن يقتحم علها هذا الشيء الذي لا اسم له عتبة منزلها . . . كأنما كانت تلك آخر موجة عليها أن تقلب زورقها الذي عصفت به العاصفة فزعزعته . يا مريم المقدسة . . . هل عليها أن تخاف من مثل هذه الأمور أيضاً على أبنائها؟ . . .

قال إرلند بالابتسامة البشعة نفسها :

" فكرت في نفسي البارحة مساء . . . لقد بدا السير آلارت لي على أنه شديد التهذيب حسب ما حكى ناكفه . ولكني أعرف جيداً أنه ليس من عادة الفرسان في أي مكان من العالم أن يحيّوا شاباً سيعمل في خدمتهم بقبلة على الفم ، ولا أن يهدوه هدايا ثمينة حتى قبل أن يثبت جدارته . . ."

قالت كربستين وهي ترتجف من رأسها إلى أخمص قدميها :

" ولماذا جعلتني أنثر الأرض بالزهور وأن أفرش مائدتي بالأغطية الكتانية لمثل ذاك الـ . . ." وهنا نطقت أسوأ الكلمات .

عقد إرلند حاجبيه . كان قد التقط حجراً . . . وراح يراقب قط مونان الأحمر الذي كان يتسلل خلسة على بطنه عبر العشب الطويل تحت جدار المنزل ، نحو الفراريج القريبة من باب الإسطبل . ثم أطلق الحجر وكان أن هرب القط في ومضة ، وتناثرت الدجاجات هنا وهناك . التفت إلى زوجته :

" . . . لقد فكرت أنه لا بأس من رؤية الرجل ، فلو كان شخصاً قيّماً . . . آنذاك . . . وحتى أراه عليّ أن أظهر له الكياسة . . .لست كاهن اعتراف السير آلارت . ولقد سمعت أيضاً أنه متجه إلى أوسلو ." ضحك إرلند مجدداً . "والآن فإن بعض أصدقائي الخلّص وأقربائي السابقين الأعزاء قد يسمعون أننا لا نجلس هنا في يوروندغارد فحسب ، لنزيل القمل عن خرقنا ونأكل سمك الرنة وكعكة دقيق الشوفان . . ."

•

كان بيورغولف يعاني من الصداع وقد لزم الفراش حين دخلت كريستين إلى العلية وقت العشاء ، كما قال ناكفه إنه لن يذهب إلى القاعة للعشاء .

" اعتقد أنك كئيب هذا المساء يا بني" ، قالت له أمه .

" كلا ، كيف يمكنك أن تفكري هكذا يا أمي؟" . . . ابتسم ناكفه بازدراء . "إني أبدو أكثر حماقة من الرجال الآخرين وأنه لأمر سهل ذر الرماد في عيوني ، ليست مسألة تستحق التفكير ، هذا أكيد . . ."

قال أبوه حين جلسوا إلى المائدة وكان ناكفه لا يزال أكثر صمتاً من عادته : "عليك أن تشعر بالراحة فأنت ستخرج إلى العالم لتجرب حظك . . ."

أجاب ناكفه بصوت خفيض وكأنه لا يريد سوى إرلند أن يسمعه : "هذا يعتمد يا أبي على ما إذا كان بيورغولف سيتحمل رفقتي" . ثم ضحك بهدوء .

"ولكن قل لإيفار وسكوله ما قلته لي . . . هذا توقهم الوحيد ، على ما أعتقد ، أن يكبرا ويبلغا سنّ الرشد لينطلقا . . ."

نهضت كريستين وارتدت عباءة ذات قبعة . كانت تفكر في الذهاب شمالاً إلى الشحاذ العجوز في كوخ انجيبورغ ، كما قالت لهم . عرض التوأمان مرافقتها وحمل الكيس عنها ، ولكنها قالت إنها تفضل الذهاب لوحدها .

•

كانت الأمسيات قد سبق لها وأصبحت داكنة العتمة ، وإلى شمال الكنيسة كان الطريق يمر بالغابات وتحت ظل جبل "هامار" . هنا كانت هبات باردة تأتي من الوادي ، وكان هدير النهر المزمجر يجلب معه أنفاساً رطبة . كانت أسراب من فراشات العث البيضاء الكبيرة تحلق وترتعش تحت الأشجار . . .كانت تتجه أحياناً إلى اليمين باتجاه المرأة . بدا لها في الغسق ، أن الغطاء الكتاني من حول رأسها وصدرها كان يجذب الفراشات . راحت تضربها بيدها وهي تسرع صاعدة ، وتنزلق على السجادة الناعمة من أبر الصنوبر وتتعثر فوق الجذور الملتوية التي كانت تلتف عبر الممر الذي كانت تسير فيه .

. . .كان هناك حلم سبق له وراح يقلق ليالي كريستين منذ سنوات كثيرة . في المرة الأولى التي حلمت فيها به كان الليلة التي سبقت مولد غاوته ، ولكن حتى الآن كان يحدث أن تستيقظ وهي متعرقة وقلبها يدق وكأنه سيتمزق في صدرها ، وكانت تعرف أنها قد رأت الحلم نفسه سابقاً . . .

كانت تشاهد مرجاً مغطى بالأزهار . . . منحدراً جبلياً شاهقاً مغطى بغابة من الصنوبر كانت محاطة بالمروج من ثلاثة جوانب ، مروج كثيفة ومعتمة . عند سفح المنحدر كانت بحيرة جبلية صغيرة تعكس الغابات الداكنة والفسحة الخضراء المتلألئة . كانت الشمس خلف الأشجار . . . من أعالي الجبال كان آخر نور ذهبي ينخل أشعة طويلة عبر أشجار التنوب ، وفي أعماق البركة كانت غيوم

غروب لامعة تسبح بين أوراق ليلك الماء .

في وسط المنحدر ، كانت ترى طفلها وهو واقف في ركام من المنثور البري والحوذان وغيوم مزبدة من حشيشة الملاك .لا بدّ أنه كان ناكفه في أول مرة رأت فيها هذا الحلم . . . وكان لديها اثنان فقط في ذلك الحين ، وكان بيورغولف لا يزال في المهد . وبعد ذلك لم تكن تعرف على وجه الثقة أياً من أطفالها كان من تراه في الحلم . . . كان الوجه الصغير المستدير الذي سفعته الشمس تحت الشعر الأصفر البني المقصوص على نحو دائري يبدو لها الآن مثل هذا الابن أو الآخر ، ولكن الطفل كان دائماً في عمر السنتين أو الثلاث سنوات ، ويرتدي معطفاً أصفر داكناً صغيراً كالذي اعتادت أن تخيطه لأولادها الصغار للاستعمال اليومي . . .من الصوف المغزول منزلياً والمصبوغ بصبغة عباد الشمس وله حاشية حمراء .

وهي نفسها ، كما كان يبدو لها أحياناً ، تكون على الجانب البعيد من البحيرة الجبلية . أو أنها لا تكون في المكان إطلاقاً ، ولكنها معه ذلك ترى كل ما يحدث . . .

كانت ترى ابنها الصغير يتحرك هنا وهناك ، ويلتفت بوجهه وهو يقطف الأزهار . كان خوف غير واضح يضغط بثقل على قلبها ، تنبؤ بأمر شرير على وشك الحدوث . ولكن في البداية كان يأتي مع الحلم عذوبة مؤلمة قوية ، وهي تحدق إلى الطفل الأشقر هناك في المرج .

ثم تبدأ تعي بأنه من ظلام حافة الغابة تخرج كتلة مشعثة حية . إنها تتحرك دون صوت . تومض عينان شريرتان . إلى المرج الأعلى يأتي الدب ، يقف ويؤرجح رأسه وكتفيه وهو يتشمم نحو الأسفل . ثم يقفز . لم يسبق لكريستين أن رأت دباً حياً ، ولكنه تعرف أن الدببة تقفز على هذا النحو . ولكن هذا ليس دباً . هذا يتحرك كقطة ـ لقد أصبح لونه رمادياً ـ يقفز مثل قطة ضخمة شعثاء رمادية بقفزات طويلة رشيقة هابطاً المنحدر العشبي . . .

تراقب الأم وقد حلّ بها ألم كألم الموت . . . ولا تستطيع أن تتقدم إلى حيث كان الطفل الصغير لتنقذه ، وهي لا تستطيع تحذيره بصوت واحد . ثم يعي الطفل أن "شيئاً ما" موجود هناك . يلتفت نصف التفاتة وينظر عبر كتفه . وبصرخة صغيرة خفيضة مليئة بالرعب يحاول أن يهبط المنحدر وهو يرفع ساقيه كما يفعل الأطفال الصغار ، عالياً في العشب الطويل ، وتسمع الأم بوضوح الأصوات الصغيرة للسيقان المليئة بالعصارة وهي تتكسر بينما الطفل يندفع في طريقه عبر الزهور المتشابكة . ثم يتعثر بشيء ما في العشب ويقع على وجهه ، وفي اللحظة التالية يكون الوحش قد انقض عليه بظهر مقوس ورأس مندفعة بين طرفيه الأماميين . ثم تستيقظ . . .

. . . وفي كل مرة كانت تبقى مستيقظة لساعات قبل أن تستطيع تهدئة نفسها . . . وذلك بالتفكير في أن هذا كان مجرد حلم! كانت تشد أصغر أطفالها الذي ينام بينها وبين الجدار إليها وكانت تفكر في أنه لو كان الأمر حقيقة لكانت قد فعلت هذا أو ذاك . . . كانت ستفزع الوحش بالصراخ أو بعصا . . . وكان في حزامها دوماً سكين حادة طويلة . . .

ما أن تهدئ بنفسها من روعها على هذا النحو ، كان ينتابها مجدداً الألم غير المحتمل ، كما في منامها ، وكانت تقف عاجزة وترى جهود صغيرها المسكين العبثية في محاولته الهروب من الوحش السريع والقوي والوحشي والمميت . أحست كأن الدم كان يغلي ويموج في جوفها ، وكأن جسدها كان يتورم وقلبها يكاد ينفجر ، حيث أنه ما كان قادراً على احتواء كل تلك الموجة من الدم . . .

كان الكوخ المسمى " كوخ انجيبورغ" يقع فوق جبل هامر ، تحت الطريق العام بقليل كوخاً مهجوراً منذ سنوات كثيرة ، والأرض مؤجرة إلى رجل حصل على الإذن بتنظيف المكان وللبناء في الجوار . كان شحاذاً عجوزاً تخلت عنه عصابة من الشحاذين ، قد حصل على الإذن باستعماله . وحين سمعت كريستين بذلك ،

فقد أرسلت اللحم والملابس والأعشاب الشافية ، ولكنها هي نفسها لم يتح لها الوقت حتى الآن للذهاب إلى هناك .

سرعان ما سينتهي أمر الرجل المسكين كما استطاعت أن ترى . أعطت حقيبتها إلى المرأة المتسولة التي بقيت معه ، وحين علمت أنها أرسلت تطلب الكاهن ، فقد غسلت له وجهه ويديه وقدميه حتى يكون نظيفاً ومستعداً لآخر مسح بالزيت عليه .

كان الجو كثيفاً في الداخل من الدخان في الكوخ الصغير ، وكانت هناك رائحة رهيبة مقززة وكريهة . وحين دخلت امرأتان من جماعة المستوطنين ، رجتهما كريستين أن ترسلا إلى يوروندغارد في طلب أي شيء تحتاجان إليه ، ثم ودعتهم ورحلت . انتابها خوف غريب ممرض من لقاء الكاهن الذي سيكون حاملاً لجسد الرب ، فانعطفت في أول ممر جانبي وصلت إليه .

سرعان ما لاحظت أنه كان مجرد ممرّ للأبقار . ووجدت نفسها في مكان لا تعرفه دون آثار تتقفاها . كانت هناك أشجار ساقطة مع كتل متشابكة من الجذور تخيف الناظر إليها . كان عليها أن تمر من فوقها ، ثم لم تعد تستطيع أن تجد طريقها . كانت رقاقات من الطحالب-تنزلق من تحت قدميها حين راحت تشق طريقها بين أحجار كبيرة . التصقت خيوط العناكب بوجهها وراحت الأغصان تضرب بها وتتمسك بملابسها . وحين كان عليها أن تمر فوق جدول صغير ، أو تصل إلى فسحة مستنقعية واطئة في الغابة ، كان أمراً مستحيلاً تقريباً أن تجد مكاناً تستطيع منه أن تتسلل عبر الشجيرات الورقية الرطبة . وكانت فراشات العث البيضاء الكريهة في كل مكان ، كثيفة تحت الأشجار في العتمة ، وتحتشد في سحابة كبيرة عند أجمات الخلنج حيث كانت تدوسها بقدميها .

ولكنها خرجت أخيراً إلى التلال المنخفضة نحو "الاغن" . هنا كانت غابة من أشجار التنوب غير كثيفة ومتباعدة ، فقد كان على الأشجار هنا أن ترسل

جذورها لتتغلغل بعيداً في الصخر العاري ، وكانت أرض الغابة مغطاة فقط بطحالب الرنة الرمادية البيضاء الجافة التي كانت تطقطق تحت قدميها . . . وبينها بعض شجيرات الخلنج المتناثرة السوداء . كانت رائحة أبر الصنوبر أكثر حرارة وجفافاً وحدّة منها في الأعالي . . . فهنا كانت الغابة دائماً ذات أبر مسفوعة وصفراء منذ بداية الربيع . وكانت فراشات العث البيضاء لا تزال تلاحقها . . .

كان هدير النهر يجذبها نحو الأسفل . مضت حتى الحافة ونظرت إلى الأسفل . في الأسفل هناك في الأعماق كان الماء يلتمع أبيض حيث كان يغلي ويهدر فوق الصخور الملساء من بركة إلى أخرى .

كان هدير الشلالات المتواصل يرتجف عبر جسدها وروحها المتشنجين . وقد ذكرها هذا مراراً بزمن بعيد مضى حين عرفت حتى آنذاك أنها لا تستطيع احتمال المصير الذي اختارته لنفسها . لقد عرت حياتها ، حياة الفتاة المحمية الرقيقة ، أمام سطوة الحب الجسدي المهلك . . . وقد عاشت منذ ذلك الحين في رعب ، في رعب ، في رعب ، وأضحت جارية منذ ساعة الأمومة الأولى . لقد سلمت نفسها للدنيا في شبابها ، وكلما كافحت وناضلت ضمن شرك الدنيا هذا كلما وجدت نفسها أكثر تورطاً وانحباساً فيه . لقد ناضلت لتحمي أبناءها بجناحين مرفرفين عبثاً وقد قيدتهما متاعب الدنيا . كانت تبذل جهدها لتخفي خوفها وضعفها اللذين لا يوصفان عن كل الناس ، وقد تقدمت بظهر منتصب ووجه هادئ ، وقد حافظت على صمتها وقاتلت لتحمي مصالح أولادها بكل ما تستطيعه من قوة . . .

ولكن كان ذلك الخوف الخفي اللاهث يصاحبها دائماً . . . لو أصيبوا بالمرض ، فهو أمر أكبر من أن أستطيع تحمله . . . وكانت أعماق قلبها تئنّ من ذكرى أبيها وأمها . حتى حين كانا يسيران مترعين بالخوف والحرص على أطفالهما ، يوماً بعد يوم ، نحو الموت ، فقد كانت لديهما القوة على حمل

عبثهما ، ولم يكن الأمر وما فيه أنهما كانا يحبان أولادهما أقل منها ، ولكنهما كانا يحبانهم حباً أفضل . . .

وهل كانت سترى الآن كفاحها ينتهي على هذا النحو؟ . . .ماذا لو أنها ربت فحسب صغار الصقور القلقة التي تقبع في عشها دون صبر ، منتظرة ساعة نمو أجنحتها لتحملها خارجاً عبر الجبال الزرقاء الأبعد . . .؟ وكان أبوهم يصفق بيديه ويضحك . . . طيري . . . طيري . . . يا طيوري الصغيرة . . .

كان من شأنهم أن يخلعوا أليافاً دموية من جذور قلبها وهم ينطلقون طائرين ، وهم لن يعرفوا شيئاً عن ذلك . وستُترك هي وحيدة ، وكانت كل خيوط القلب التي ربطتها ذات مرات ببيتها العتيق هذا قد مزقتها هي بيدها قبل زمن بعيد . . . لا شك أنها ستكون حياة لا هي بالحياة ولا هي بالموت .

●

التفتت وعدت نصف عدو بخطوات متعثرة ، عبر السجادة الشاحبة الذاوية من طحالب الرنّة ، وقد تجمعت عباءتها من حولها ، فقد كان أمراً صعباً أن تعلق بين الشجيرات . وأخيراً خرجت إلى حقول التبن الصغيرة شمال مبنى النقابة والكنيسة . وبينما راحت تمضي بخط منحرف عبر الحقل أحست بوجود شخص واقف على الطريق . نادى :" أهي أنت يا كريستين؟" . . . عرفت أن ذاك كان زوجها .

قال إرلند :"لقد أطلت الغياب . أوغل الليل يا كريستين وقد بدأت أشعر بالخوف ."

" أكنت خائفاً عليّ؟" خرج صوتها منها أقسى وأكثر تعالياً مّما أرادته أن يكون .

" ليس خائفاً جداً . ولكن خطر لي أن أخرج وألاقيك على الطريق ."

لم ينطقا بكلمة تقريباً وهما يتجهان جنوباً . كان كل شيء هادئاً حين دخلا

الباحة . كانت بعض الجياد التي لديهم في البيت تمشي متثاقلة تحت جدران المبنى وهي ترعى ، ولكن كان جميع من في البيت قد أووا إلى فراشهم .

مضى إرلند مباشرة إلى علية المخزن ، ولكن كريستين انعطفت نحو المطبخ . " عليّ أن ألقي نظرة" ، أجابت على سؤال زوجها .

وقف على الشرفة منتظراً زوجته . . . ثم رآها تخرج من المطبخ حاملة مشعلاً مناراً من جذور الصنوبر بيدها ثم تتجه نحو مبنى الموقد . انتظر الرجل قليلاً . . . ثم هرع إلى الأسفل ولحق بها .

كانت قد أوقدت شمعة ووضعتها على المائدة . أحس إرلند بقشعريرة خوف غريبة تتخلله وهو يراها واقفة هناك قرب الشمعة الوحيدة في المبنى الخالي . . . لم يكن هناك شيء في الغرفة عدا الأثاث الثابت ، وفي نور الشمعة كان الخشب المهترىء يلتمع مجرداً أو عارياً . كان الموقد بارداً ونظيفاً ، باستثناء جذر الصنوبر الذي كان ملقى هناك حيث رمته وهو لا يزال متوهجاً . لم يكن من عادة إرلند وكريستين استخدام هذه الغرفة ، وربما لم تشعل نار فيها منذ نصف سنة . كان الهواء كثيفاً على نحو غريب . كانت الروائح الحية المختلطة التي يتركها سكن الإنسان ورواحه ومجيئه ، غير موجودة هنا ، كما لم تكن فتحت فتحة الدخان ولا الباب طوال هذه الفترة . . . لذا كانت رائحة المكان هي رائحة الصوف والجلود . كان بعض الفراء والجلود الملفوفة التي أخرجتها كريستين من المخزن قد كوّمت في السرير الفارغ الذي كان يخص لافرانس وراغنفريد .

فوق المائدة كانت شلل خيوط كثيرة . . . خيوط للخياطة والغزل التي تستعمل للرفء مع خيوط كتانية وصوفية وضعتها كريستين على نحو منفصل حين كانت تصبغ . وقد وقفت الآن وراحت تعبث بها بأصابعها وترتبها .

جلس إرلند في المقعد العالي عند نهاية المائدة . بدت الغرفة واسعة وفارغة إلى حد غريب من حول الرجل الرشيق ، وهي فاغرة فاها هناك مجردة من الوسائد

والستائر . كان المحاربان من أتباع القديس أولاف اللابسان لخوذتين وترسين عليهما علامة الصليب واللذان كان لافرانس قد نحتهما على أعمدة المقعد العالي يقطبان بكآبة ومزاجية من تحت يدي إرلند السمراوين النحيلتين . لم يكن هناك رجل قادر على نحت الزخرفة النباتية والحيوانات على نحو أجمل مما فعله لافرانس ، ولكنه لم يكن ناجحاً جداً في نحت الأشكال البشرية .

بقي الاثنان صامتين فترة طويلة حتى أنه لم يكن يسمع أي صوت إلاّ صوت وقع حوافر الجياد على المرج في الخارج حيث كانت هذه تتجول في ليل الصيف .

سألها أخيراً : " ألن تؤوي إلى الفراش قريباً يا كريستين؟"

" وماذا عنك أنت؟"

قال الرجل :" فكرت في انتظارك . . . "

" لا أفكر بالصعود إلى هناك بعد . . . لا أستطيع النوم . . . "

سألها بعد قليل : " وما هو هذا الأمر الذي يثقل على أفكارك يا كريستين حتى يجعلك تظنين أنك لن تنامي؟"

نهضت كريستين ووقفت وبيدها شلة من الصوف الأخضر بلون الخلنج راحت تشدها وتلويها بين أصابعها .

" ما الذي حدثت عنه ناكفه اليوم؟" بلعت ريقها مرة أو مرتين ، كان حلقها شديد الجفاف . "خطة ما . . . لم يبد عليه أنها تلائمه . . . ولكنك تحدثت عن كيف أن إيفار وسكوله . . . "

" أوه . . . ذلك الأمر" ، ابتسم إرلند قليلاً . لقد قلت للشاب فحسب أن لديّ صهراً أنا أيضاً كما تذكرت الآن . . . رغم أن غرلاك ، على ما أعتقد ، لن يكون مستعداً قط لتقبيل يديّ وأن يأخذ مني عباءتي وسيفي كما كان دأبه سابقاً . ولكن لديه سفن في البحر . . . وأقرباء موسرون في " بريمن" وفي "الين" . ولا

شك أن الرجل يجب أن يفهم أنه يليق به أن يساعد إخوة زوجته . . . وأنا لم أكن أبخل ببضاعتي وعدتي حين كنت رجلاً غنياً ومنحت يد ابنتي إلى غرلاك تيدكنسون ."

لم تقل كريستين شيئاً . وأخيراً قال إرلند على نحو أشد حرارة :

"يا للمسيح يا كريستين ، لا تقفي منتصبة هكذا وكأنك قددت من حجر . . ."

" لم أفكر قط حين تزوجنا أن أولادنا سيضطرون إلى التجول في هذا العالم وهم يتسولون الخبز في بيوت الأغراب . . . "

" كلا ، فليأخذني الشيطان لو كنت أعني أن عليهم أن يتسولوا! ولكن لو اضطروا جميعاً ، سبعتهم ، إلى اعتصار رزقهم من مزرعتك هنا ، فسيكون مصيرهم مصير الفلاحين يا كريستين . . . وأعتقد أن أبنائي ليسوا مهيئين لهذا . يبدو لي إيفار وسكوله على أنهما متنمّران . . . وهناك في العالم في الخارج خبز حنطة وكعك للرجل الذي يكسب اللحم بسيفه ."

" أتريد لأبنائك أن يكونوا مرتزقة وخدماً ؟"

" لقد عملت مرتزقاً في أيام شبابي والتحقت بخدمة الكونت ياكوب فليرحمه الله . . . لقد تعلمت آنذاك أن الرجل لا يكسب المعرفة في البيت في بلادنا هذه . . . هنا إما أن يجلس كالطاووس في مقعده العالي وحزام فضي يطوق بطنه ، يملأ نفسه حتى الثمالة بالجعة أو يمشي خلف المحراث يتشمّم كفلي حصانه . كانت حياة مرحة عشتها في خدمة الكونت . . . أقول هذا رغم أني تورطت في هذا وأنا بعد في سن ناكفه . . . ولكني على الأقل نلت بعض المتع في شبابي . . . "

"أصمت! " بدأت عينا كريستين تتحولان إلى اللون الأسود . " ألا تعتقد أنه سيكون أسوأ أنواع الأذى لو أن أبنائك تورطوا في مثل هذه الخطيئة

والبلية . . .؟

" أجل ، فليحمهم الرب من شيء كهذا . . . ولكن لم تكن هناك حاجة أيضاً إلى أن يقعوا في أخطاء أبيهم نفسها . يمكن للمرء طبعاً أن يخدم رجلاً نبيلاً يا كريستين دون أن تشوب صفحته شائبة . . . "

" من يقتل بالسيف بالسيف يُقتل ، هذا ما هو مكتوب يا إرلند؟ "

"أجل ، لقد سمعت به يا عزيزتي . ولكن معظم أجدادك وأجدادي ماتوا ميتة جيدة ومسيحية في فراشهم ، مع المسح الأخير بالزيت وكل الراحة الروحية . عليك أن تتذكري فحسب أباك . . . لقد أظهر في شبابه أنه رجل يستطيع استخدام السيف . . . "

" كان ذلك في أيام الحرب يا إرلند ، فبناء على أمر الملك ذهبوا ليحموا بيوتهم ومواقدهم ، وهذا هو السبب في أن أبي والآخرين حملوا السلاح . ومع ذلك قال أبي نفسه إنه لم تكن إرادة الرب أن نحمل السلاح . . . رجال مسيحيون معمّدون ـ يجرد الواحد سلاحه ضد الآخر . . . "

" كلا أعرف ذلك . ولكن العالم على ما هو عليه منذ أن أكل آدم وحواء من الشجرة . . . وكان ذلك قبل زماني . ليس الذنب ذنبي أننا ولدنا والخطيئة فينا . . . !"

" كلامك معيب . . .!"

قاطعها إرلند بقوة :

" كريستين . . . أنت تعرفين الأمر جيداً . . . لم أكن قط بطيئاً في التوبة والتكفير عن خطاياي كما هو ملائم . لست بالرجل الورع ، هذا صحيح . لقد رأيت الكثير حين كنت طفلاً ثم شاباً . . . كان أبي صديقاً عزيزاً للوردات الكبار من جماعة الكنيسة . . . كانوا يأتون إلى منزله ويذهبون كالخنازير الرمادية . اللورد آيليف حين كان كاهناً والسير سيغفات لانده وكل أتباعهما . وكان لا يأتي معهم

سوى التشاحن والصرير . . . كانوا قساة القلوب لا يعرفون الشفقة مع أسقفهم . . . وما كانوا ورعين ولا محبين للسلام مع أنهم كانوا يحملون كل يوم في أيديهم أقدس المقدسات ويرفعون الرب نفسه عالياً في الخبز والخمر . . . "

" لسنا من يحكم على الكهنة . . . كان أبي يقول إن واجبنا هو أن ننحني أمام كونهم كهنة وأن نطيعهم ، ولكنهم كأشخاص طبيعيين واقعون تحت حكم الرب كلي القدرة وحده . . . "

" أجل . تمهل إرلند وهو يتلفظ الكلمة . " لذا أعرف أنه قال وأنت قلت ذلك أيضاً قبل الآن . وأعرف أنك أكثر ورعاً في مثل هذه الأمور مني . . . ومع ذلك يا كريستين فإنه من الصعب عليّ أن أفهم كيف يمكن أن تكون القراءة الصحيحة لكلمة الرب هو الاستمرار ، حسب طريقتك ، في تخزين الغضب وعدم النسيان . كما كان لافرانس يتحلى بذاكرة طويلة . . . أوه كلا! لن أقول شيئاً عن أبيك سوى أنه كان ورعاً وطيباً على نحو نبيل ، وأنك أيضاً كذلك كما أعرف . . . ولكن غالباً عندما تتحدثين بكل رقة وعذوبة ، وحين يكون فمك مليئاً بالعسل ، أخشى أنك تفكرين بالأخطاء القديمة ، والرب سيحكم إذا كان قلبك ورعاً مثل فمك . . ."

وفجأة انهارت وتمددت فوق المائدة ووجهها مخفي فوق ذراعيها وراحت تبكي بصوت مرتفع . قفز إرلند . . . بقيت تبكي بصوت مبحوح راح يهز جسمها . وضع إرلند ذراعه على كتفيها .

" كريستين ، ما الأمر . . .؟ ما الأمر؟" كرر وهو جالس على المقعد إلى جوارها ويحاول أن يرفع رأسها . " كريستين . . . كلا ، لا تبكي . . . أعتقد أنك فقدت صوابك . . . "

" أنا خائفة!" انتصبت في جلستها ووضعت يديها في حضنها . " أنا خائفة جداً . يا مريم ، أيتها السيدة الكريمة ، ساعدينا جميعاً . . . أنا خائفة جداً . . . ما الذي سيحدث لكل أبنائي . . .؟"

" أجل يا كريستين يا عزيزتي . . . ولكن عليك أن تعتادي على الفكرة . . . لم يعد ممكناً بعد الآن أن تخبيئهم تحت تنورتك . . . سرعان ما سيصبحون رجالاً ناضجين ، كل أبنائنا . . . وأنت لا تزالين كالكلبة . . ." جلس ووضع ساقاً فوق أخرى ويداه مطويتان فوق ركبته وقد راح ينظر بقلق إلى زوجته . . . " تعضين كالعمياء كلاً من الأصدقاء والأعداء ، حين لا يكون هناك ما يهدّد أطفالك ."

نهضت بحدة ووقفت لحظة وهي صامتة تعصر يديها . ثم بدأت تذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً وبسرعة . لم تقل شيئاً وجلس إرلند صامتاً وهو ينظر إليها .

توقفت أمام الرجل وقالت : " سكوله . . . يا له من اسم تعيس الحظ اخترته لابنك . ولكنك أردته . . . لقد أردت أن يعيش الدوق مجدداً من خلال ذلك الطفل . . ."

" إنه اسم جيد بما فيه الكفاية . أما من حيث سوء الحظ فإن هناك سوء حظ من أنواع كثيرة . حسناً لقد تذكرت ، حين أسميت ابني باسم جد أبي لأمه ، وهو الذي خانه الحظ ، ولكنه كان ملكاً على أي حال ، مع حقوق أفضل من بذرة صانع الأمشاط (٣) . . ."

" كنت فخوراً بما فيه الكفاية أنت ومونان باردسون بأنكم كنتم من أقرباء الملك هاكون هاليغ . . ."

" أجل ، فأنت تعرفين أن عمة أبي ، مارغريت سكولسداتر قد جلبت دماً ملكياً إلى نسل آل سفير . . ."

ولفترة طويلة جداً وقف الزوج والزوجة وراحا يحدقان الواحد في عيني الآخر .

" أجل أعرف ما تفكرين به يا زوجتي الجميلة" . مضى إرلند وجلس مجدداً في المقعد العالي . وبيديه وهما تستريحان على رأسي المحاربين انحنى نحو الأمام قليلاً . ابتسم ابتسامة باردة مغيظة . " ولكنك تعرفين يا كريستين أني لم أتحطم ، أني أصبحت فقيراً ودون أصدقاء . إنه لأمر جيد أن تعرفي ذلك . . .

لست خائفاً من أن نسل أبي سيسقط معي من قمة القمة والشرف . لقد تمت خيانتي أنا أيضاً من قبل الحظ . . . ولكن لو نجحت خطتي لكنت أنا وأبنائي الآن جالسين في الكراسي التي على يمين الملك ، ونحن جديرون بها كأقرباء له . وبالنسبة إليّ انتهت اللعبة الآن ، ربما ، ولكني أستطيع أن أرى ذلك في أبنائي يا كريستين . . . فهم سيستعيدون المكانة التي تلائم محتدهم النبيل . ليس عليك أن تحزني إلى هذا الحد عليهم ، ولا تناضلي كل هذا النضال لتربطيهم هنا في هذا الوادي المنغلق خاصتك . . . دعيهم يبرهنوا على جدارتهم بحرية وسوف ترين على الأرجح ، قبل أن تموتي ، أنهم سيكسبون منزلة وطيدة مجدداً في إرث أبيهم الشرعي . . . "

" أوه ، تستطيع الكلام!" راحت دموع الغضب الحارة المرة تخز عيني المرأة ، ولكنها أعادتها وضحكت ، وقد التوى فمها :

" أعتقد أنك لا تزال أكثر طفولية من الشبان اليافعين يا إرلند! تستطيع أن تجلس وتتكلم على هذا النحو . . . وتتجرأ الحديث في هذا اليوم بالذات حين كان ناكفه على وشك أن يحظى بحظ لا يستطيع فم المسيحي أن يتلفظ به . . . لولا أن الرب حمانا . . . "

" أجل ، ولكن في هذه المرة كنت أنا المحظوظ إذ كنت أداة الرب في ذلك . . ." هزّ إرلند كتفيه . ثم قال بحماسة :

" مثل هذه الأمور . . . ليس عليك أن تخشيها يا كريستين . . . أليس هذا هو ما كاد يطيح بعقلك أيتها المسكينة؟ " نظر إلى الأسفل وقال بخجل تقريباً : "عليك أن تتذكري يا كريستين . . . لقد صلّى أبوك طيب الذكر لأجل أولادنا ، كما صلّى من أجلنا جميعاً ، في البداية وفي النهاية . وأعتقد بكل ثقة وثبات أن ذلك يفيد للخلاص من أمور كثيرة . . . من أسوأ الأمور إطلاقاً . . . جيدة جداً شفاعة ذلك الرجل . . ." رأت الرجل يرسم إشارة الصليب على صدره بإبهامه وكأنما خلسة .

ولكنها كانت شديدة الغضب ، لقد آلمها ذلك أكثر .

" إذاً . . . أنت تواسي نفسك بهذه الفكرة يا إرلند ، وأنت تجلس هناك في مقعد أبي العالي ، بأن أبناءك سينقذون بفضل صلواته ، حتى وهم يطعمون من أراضيه . . . "

شحب وجه إرلند :

" أتعنين يا كريستين أني غير جدير بالجلوس في مقعد لافرانس بيورغولفسون العالي . . .؟ "

تحركت شفتا زوجته ، ولكنهما لم تخرجا أي صوت . نهض إرلند ووقف دون حراك :

" أتعنين هذا . . . إذاً أقول لك أنه بقدر ما هو أكيد أن الرب يعلونا كلينا . . . إني لن أجلس هنا ثانية قط ."

" أجيبي " ، قالها مجدداً وهي واقفة دون كلام . هزت رجفة طويلة جسم المرأة .

" كان سيداً أفضل ذاك الذي جلس هناك من قبلك . . ." كانت قادرة بالكاد على إخراج الكلمات من فمها على نحو مسموع .

" انتبهي للسانك الآن يا كريستين!" وبسرعة قطع إرلند خطوة أو اثنتين باتجاهها . وقفت منتصبة وهي مجفلة :

" أجل ، اضربني . . . لقد تحملت منك ذلك قبل الآن . أستطيع احتماله مجدداً ."

" أضربك . . . لم أفكر في ذلك ." وقف ويده مستندة إلى المائدة . ومن جديد راحا يحدقان كل في وجه الآخر ، ومن جديد كان يسود وجهه ذلك الهدوء البعيد الذي رأته فوقه في بعض اللحظات النادرة . والآن كان هذا يجعلها تشرد . كانت تعرف أنها هي من كانت على حق . . . كان كلام إرلند خالياً من

الحكمة ومتهوراً . ولكن وجهه ذاك جعلها تشعر وكأن الخطأ كان خطأها وحدها .

نظرت إليه ولشعورها بالغثيان من الخوف مّما قالته فقد نطقت :

" أخشى ألاّ يكون أبنائي هم نسلك الذي سيزدهر مجدداً في ريف تروندهايم . . ."

تضرج وجه إرلند :

" لا تمتنعين عن تذكيري بسونيفا أولافسداتر ، كما أرى ."

" لم أكن أنا من ذكر اسمها ، بل أنت ."

تضرج وجه إرلند على نحو أشد .

" هل سبق لك وفكرت يا كريستين بأنك لم تكوني غير ملومة بالكامل في تلك . . . المصيبة . . . "

" أتذكرين تلك الليلة في نيداروس . . . وصلت ووقفت أمام سريرك . كنت متواضعاً جداً وآسفاً لأني أسأت إليك يا زوجتي . . . جئت لأتوسل إليك . . . حتى تسامحيني على خطئي . وكان جوابك أن أمرتني بالذهاب والنوم حيث كنت في الليلة الفائتة . . . "

" وكيف كنت سأعرف أنك كنت نائماً مع زوجة قريبك . . ."

توقف إرلند قليلاً . شحب وجهه ثم تضرج مجدداً . ثم التفت وخرج من الغرفة دون كلمة واحدة .

لم تتحرك الزوجة . . . بل وقفت دون حراك فترة طويلة ويداها تضغط على ما تحت ذقنها وهي تحدق إلى النور .

ثم رفعت رأسها وأخذت نفساً طويلاً . أحياناً عليه أن يتحمل سماعها . . .

•

ثم سمعت وقع حوافر جواد في الباحة . . . ومن مشيته عرفت أنه حصان يقوده خادم . انسلت نحو الباب ثم إلى المنزل الملحق ووقفت وراء عمود الباب وراحت تحدق .

كان قد سبق لليل وأضحى رمادياً من الفجر . في الباحة وقف إرلند وأولف هالدرسون . كان إرلند ممسكاً بحصانه ورأت أنه كان مسرجاً وأن الرجل كان يرتدي ملابس الركوب . تحدث الاثنان معاً فترة ، ولكنها لم تستطع أن تسمع كلمة واحدة . ثم قفز إرلند إلى السرج وبدأ يتجه شمالاً نحو بوابة الضيعة ،لم ينظر إلى الخلف ، ولكن بدا عليه أنه كان يحادث أولف الذي كان يمشي إلى جانب الحصان .

وحين ابتعدا عن النظر نحو الطريق ، خرجت من مكانها وأسرعت بصمت إلى البوابة ووقفت هناك وراحت تصغي . . . وقد سمعت إرلند الآن وقد راح يقود " ستوتن " خبباً على الطريق العام .

بعد قليل عاد أولف . توقف حين رأى المرأة هناك عند البوابة . وقفا برهة يحدق واحدهما إلى الآخر في نور الغسق الرمادي . كانت قدما أولف عاريتين في حذائه ولم يكن يرتدي سوى قميص كتاني تحت عباءته .

سألت السيدة بجنون : " ما هذا ؟ "

" لاشك أنك تعرفين . . . وأنا لا أعرف ."

سألت مجدداً : " إلى أين ذهب ؟"

" إلى هاوغن " . وقف أولف قليلاً . "لقد دخل إرلند وأيقظني . . . قال إنه يريد الذهاب إلى هناك هذه الليلة . . . لقد بدا على عجلة من أمره . كانت هناك بعض الأمور التي رجاني أن أقوم بها بعد رحيله ."

صمتت كريستين برهة .

" أكان غاضباً إذاً ؟"

" كان هادئاً " . ثم قال أولف بصوت خفيض : " أنا خائف يا كريستين . . . أتساءل إن لم تكوني قد قلت ما كان يجدر بك أن تدعيه مكتوماً . . . "

"لا شك أن إرلند قد يتحمل أن يخاطبه المرء ولو مرة واحدة على أنه رجل

ناضج" ، قالت الزوجة بقوة .

مضيا ببطء نحو الأسفل . أتجه أولف نحو منزله ، ولحقت هي به .

" أولف ، يا قريبي ، توسلت إليه بخوف . " في الأيام الخالية كنت أنت الذي قال لي إن عليّ عاجلاً أو آجلاً أن أخاطب إرلند لأجل مصلحة أبنائي " .

" أجل . . . لقد أصبحتُ أكثر حكمة مع مرور السنين يا كريستين أما أنت فلا" ، أجابها كما من قبل .

قالت بمرارة :" يا للسلوان الذي تمنحني إياه " .

وضع يده بثقل على كتف المرأة ، ولكنه لم يقل شيئاً في البداية . وقف هناك . . . كان الجو هادئاً جداً حتى أنهما سمعا كلاهما الهدير اللانهائي للنهر الذي لم يكن يصل إلى أذنيهما سابقاً . في المزارع من حولهما كانت الديكة تصيح ومن الإسطبل راح ديك كريستين يجيبها بصوت رنان .

" أجل . . . لقد كان عليّ أن أتعلم وأتعامل بحرص مع السلوان يا كريستين . . . لقد مرّ هذا الأمر بثقل طوال هذه السنين . . . علينا أن نرعاه بحرص الآن لأننا لا نعرف كم سيدوم الآن . . . "

تخلصت من يده وأسنانها تعض بشدة على شفتها السفلى ، والتفتت بوجهها جانباً . . . ثم هرعت نازلة إلى مبنى غرفة الموقد .

كان برد الصباح قارساً فلفت عباءتها من حولها وجذبت القبعة فوق رأسها . جلست بحذائها المبلل بالندى وقد وضعته تحت تنورتها وذراعاها تتصالبان فوق ركبتيها ، عند حافة الموقد القديم ، وهي تفكر . كان وجهها يرتجف بين الحين والآخر . . . ولكنها لم تبك .

لا بد أنها نامت . . . فقد أفاقت من ألم في الظهر وتيبس في الأطراف وتجمد حتى نقي العظام . كان الباب مفتوحاً . . . شاهدت أن الشمس كانت مشرقة في الباحة .

خرجت كريستين إلى المشرقة . . . كانت الشمس قد ارتفعت في كبد السماء ، ومن مرعى المنزل سمعت الجرس على الحصان الذي أصبح أعرج . نظرت نحو المخزن الجديد . ثم أحست أن مونان الصغير كان يقف على الشرفة محدقاً عبر أقواس الدربزون .

أبناؤها . . . التمعت الفكرة في رأسها . ما الذي فكروا به حين استيقظوا ووجدوا سرير أبويهما لم يمس .

ركضت عبر الباحة وصعدت نحو الطفل . . . لم يكن مونان يرتدي سوى قميصه . ما أن دخلت أمه حتى دفع يده إلى يدها كأنه خائف .

في العلية لم يكن أي من الأولاد قد ارتدى كامل ملابسه . . . لم يكن قد أيقظهم أحد كما رأت . نظر الجميع بسرعة نحو أمهم ثم نحو الأسفل . أخذت بنطال مونان وأرادت مساعدته على ارتدائه .

سأل لافرانس متعجباً : " أين ذهب أبي؟ "

أجابت : " لقد ذهب أبوك شمالاً إلى هاوغن عند الفجر " . لاحظت أن الأولاد الكبار كانوا يصغون إليها ، فقالت : " تعرفون أنه قال منذ زمن إن عليه أن يذهب إلى هناك ذات مرة ليرعى أحوال مزرعته . "

نظر الولدان الأصغر إلى وجه أمهما بعيون مفتوحة متسائلة ، ولكن الخمسة الأكبر أخفوا نظراتهم عنها وهم خارجون من العلية .

-٣-

ومرت الأيام . في البداية لم تشعر كريستين بأي خوف . لم تكن تكترث بالتفكير فيما قد يعنيه إرلند بهذه الأفعال . . . أن يهرب من المنزل في غضب فجائي في جوف الليل البهيم . . . أو كم كان ينوي البقاء شمالاً هناك في مزرعته الجبلية ويعاقبها بغيابه . كانت غاضبة على نحو مرير من زوجها ، وغاضبة أكثر لأنها لم تنكر لنفسها أنها كانت على خطأ وأنها تلفظت بكلمات كانت تتمنى من كل قلبها لو أنها لم تنطق بها .

لا شك أنها أخطأت مرات عديدة وأنها غالباً وهي في حالة غضب قد قالت أشياء كريهة غير لائقة لزوجها . ولكن ما كان يؤلمها أشد الألم وهو أن إرلند لم يستطع قط أن ينسى وأن يسامح ، إلاّ إذا قامت هي بالتنازل وتوسلت له بضعة . لقد حدث كثيراً أيضاً أنها لم تكن هي المخطئة ـ كما فكرت ـ ألم يستطع أن يفهم أنها غالباً ما كانت قلقة ومرهقة من المخاوف التي ناضلت لتتحملها بصمت؟ . . . عندها كانت تفقد السيطرة على نفسها . لقد اعتبرت أن إرلند قد يكون تذكر ذلك ، إلى جانب كل القلق حول مستقبل أبنائهما الذي تحملته طوال تلك الأيام الكثيرة العديدة ، وقد مرّت خلال هذا الصيف بتجربتين مميتتين من الخوف على

ناكفه . لقد أصبحت عيناها مفتوحتين الآن لترى أنه بعد أن تنتهي الآم الأم الشابة ومشقتها ، فإن الأم المتقدمة في السن تعاني من مخاوف والآم من نوع جديد . . . إن حديثه الخالي من الهم عن كونه لا يخاف على مستقبل أبنائهما قد أغاظها حتى أضحت أشبه بالدبة الأم الثائرة . . . أو ككلبة ذات جراء . لم تعد تأبه لو أن إرلند شبّهها بالكلبة في كل ما يتعلق بأطفالها . من أجلهم ستبقى يقظة حريصة كالكلبة الأم ، طالما بقيت فيها حياة .

وحتى لو ، لأجل ذلك الأمر ، كان هو قادراً على نسيان أنها وقفت إلى جانبه في كل مرة كان في حاجة إليها ، وبكل قوتها ، وأنه رغم غضبها فقد كانت منصفة ومتسامحة وذلك حين ضربها وحين خانها مع تلك المرأة الكريهة الفاسدة من لنسفيك ، إذاً فإن عليه حتى أن ينسى . حتى الآن ، حين كانت تفكر في الأمر ، لم تكن قادرة على أن تشعر بالكثير من الغضب والمرارة ضد إرلند بسبب هذا ، وهو أسوأ إساءاته إليها . . . وذلك حين كانت تقرعه على ذلك ، فذلك لأنها كانت تعرف أنه كان يندم بنفسه ، وأنه كان يرى ويشعر في هذا أنه قد ارتكب شراً . ولكن لم يسبق لها أن كانت شديدة الغضب من إرلند . . . ولم تكن كذلك الآن . . . وأن ذكرى ضربه لها وذكرى خيانته مع كل ما سببته لم يكونا يزعجانها ، وخاصة لأجل خاطر الرجل نفسه . . . لقد شعرت دائماً أن في انفجاراته روحاً غير مسيطر عليها وأنه قد ارتكب الإثم ضد نفسه وضد صلاح روحه أكثر مما كان ذلك ضدها هي .

ما كان يثير ضغينة روحها هو كل تلك الجروح الصغيرة التي سببها لها بتهوره القاسي وقلة صبره الطفولية . . . وحتى بطريقته الطائشة والمتهورة في الحب ، حين كان يظهر أحياناً أنه يحبها رغم كل شيء . كان ذلك في كل تلك السنين حين كانت لا تزال شابة طرية الروح ، وكانت تشعر أن الصحة والشجاعة لن تلغياها . . . فقد كان تحمل عبء كل أولئك الأطفال الصغار العاجزين . . . إذ

لم يظهر الأب والزوج أن لديه القوة والعطف المترعين بالحب بحيث يحميها وأولادها الصغار القابعين في حضنها . كان عذاباً كبيراً لها أن تشعر بنفسها أنها ضعيفة في الجسد ، بسيطة دون خبرة في مسائل الذهن والعقل ، ولا تجرؤ على الثقة بزوجها على نحو يمنحها الأمان بقوته وحكمته . . . كأنما أصيبت بجراح قلبية آنذاك ولم تعد قابلة للاندمال . وحتى المتعة الحلوة المتأتية من حمل رضيعها ووضع فمه المحبوب على ثديها ، والشعور بجسده الدافئ الطري على ذراعها ، كانت قد أصبحت مُرةً من الخوف والقلق . . . أنت صغير جداً وعاجز جداً ، وغالباً ما ينسى أبوك أن يجعل همه الأول أن تكون في أمان .

والآن ، بعد أن نمت عظام أبنائها الصغار وتقسّت رؤوسهم ، إلا أنهم لا زالوا في حاجة نوعاً ما إلى حكمة رجل ناضج . . . ولكنه كان يغريهم بالابتعاد عنها . كانوا يبتعدون عنها تدريجياً ، القطيع كله ، الزوج والأولاد ، في تلك الخفة العقلية الغريبة الصبيانية التي فكرت في أنها لمحت شيئاً منها في كل الرجال الذين قابلتهم ، وحيث لا يمكن لامرأة حزينة حريصة أن تتبعهم .

لذلك من ناحيتها ، كانت تشعر بالحزن والغضب حين تفكر في إرلند . ولكنها تصبح خائفة حين تتساءل عما يفكر فيه أبناؤها الآن .

لقد ذهب أولف إلى دوفر مع حصاني حمولة ، وذلك ليحمل إلى إرلند الأشياء التي طلب أن ترسل وراءه : ثياب وأسلحة كثيرة : كل أقواسه الأربعة وأكياس ملأى برؤوس الأسهم وعزقات الأقواس وثلاثة من الكلاب . بكى مونان ولافرانس بمرارة حين أخذ أولف الكلبة الصغيرة ذات الشعر الناعم التي كان إرلند قد حصل عليها من القسيس في هولم . كان امتلاك أبيه لمثل هذا الكلب النادر يبدو أكثر من أي شيء آخر وكأنه يرفعه فوق كل الأشخاص الآخرين في عيون هذين الصغيرين . وكان والدهما قد وعدهما بأنه حين ستضع الكلبة جراء من جديد ، فسوف يختار كل واحد منهما جرواً بين مجموعة الجراء .

حين عاد أولف هالدورسون سألته كريستين إن كان إرلند قد قال متى يفكر في العودة إلى البيت .

قال أولف : " كلا . يبدو وكأنه يفكر في البقاء هناك "

ولم يقل أولف من تلقاء ذاته سوى القليل عن رحلته إلى هاوغن . وكرهت كريستين أن تسأله .

في الخريف حين انتقلوا من المستودع الجديد ، فإن أكبر الأبناء قالوا أنهم يحبون في هذا الشتاء أن يناموا في الطابق العلوي في غرفة القاعة العليا . سمحت لهم كريستين بذلك ، وهكذا تركت لتنام مع الابنين الأصغر في القاعة الكبرى في الأسفل . في المساء الأول قالت إن لافرانس أيضاً قد ينام في السرير معها الآن .

استلقى الصبي مسروراً وراح يتدحرج على السرير . كان من عادة الأطفال أن يناموا على المقعد ، على أكياس جلدية ملأى بالقش ، وأن يلفوا في قطع من الفراء . ولكن في السرير كانت هناك حشايا زرقاء للنوم فوقها أغطية سرير ناعمة إلى جانب الفراء . . . وكان للوالدين أغطية من الكتان الأبيض الرقيق على وسادتيهما .

"هل سأنام هنا حتى يعود أبي إلى البيت؟ " سأل لافرانس ، ثم أردف قائلاً : "عندها على الأرجح سنعود إلى المقعد ثانية يا أمي ، أليس كذلك ؟"

"عندها يمكنك النوم في سرير ناكفه وبيورغولف " أجابت الأم . " لو غيّر الشبان رأيهم وهبطوا إلى هنا ثانية ، ما أن يصبح الجو بارداً . " في الطابق العلوي أيضاً كانت هناك مدفأة صغيرة من الحجر ، ولكنها كانت تعطي من الدخان أكثر مما تعطيه من الدفء وكان المرء يشعر بآثار الريح وعوامل الطقس أكثر بكثير في الطابق العلوي .

ومع نهاية الخريف اجتاح خوف غامض كريستين . كان يتعاظم من يوم إلى

آخر ، وكان التوتر يجعل الحياة صعبة الاحتمال . لم يبد أن هناك من سمع كلمة أو همسة من إرلند .

في ليالي الخريف الطويلة الداكنة كانت تستلقي مستيقظة ، وتسمع الصبيين الصغيرين يتنفسان ، وتصغي إلى صوت العاصفة من حول زوايا المنزل ، وتفكر في إرلند . لو لم يكن في تلك المزرعة . . .

كانت لا ترتاح حين كان ولدا الخالة يتحدثان عن "هاوغن" . . . مونان باردسون كان معهم في مسكنهما في آخر الأمسيات قبل أن ينطلقوا إلى أوسلو . في ذلك الحين كان مونان المالك الوحيد لهذه المزرعة الصغيرة . . . وقد ورثها عن أمه . كانا يمرحان هو وإرلند ، وكانا كلاهما ثملين تماماً ، وبينما جلست هي غاضبة لأنهما ذكرا ذلك المكان اللعين في كلامهما ، جرت الأمور على نحو جعلت مونان يمنح إرلند المزرعة . . . حتى لا يكون دون أرض في بلاد النرويج . تمت تسوية الأمر بين المزاح والضحك . . . حتى أنهم ضحكوا من تلك الشائعات عن أن الناس لا تستطيع أن تقطن في المزرعة لأنها مسكونة . إن الرعب الذي أصاب مونان باردسون حين وصلت أمه وزوجها إلى نهايتها البائسة هناك بدا في ذلك الحين وكأنه أنهك الفارس إلى حد ما .

ولا شك أنه تنازل عن هاوغن إلى إرلند بواسطة صك قانوني . لم تستطع كريستين أن تخفي كم كان الأمر كريهاً بالنسبة إليها أن يمتلك زوجها ذلك المكان العجيب . ولكن إرلند التفّ على الموضوع بمزحة :

" من غير المحتمل أن نطأ أنت أو أنا أرض تلك المباني هناك . . . إن كانت لا تزال منتصبة ولم تتحول إلى خرائب . . . وأعتقد أن الخالة آشيلد والسير بيورن لن يجلبا لنا بدل الإيجارات شخصياً . لذلك لا يهمنا لو كان ذلك صحيحاً ، كما يقول الناس ، أنهما لا يزالان يمشيان هناك . . . "

●

مع انقضاء السنة ، وأفكار كريستين تدور دائماً حول أمور إرلند في الشمال هناك في هاوغن ، فقد أصبحت قليلة الكلام إلى حد أنها كانت لا تنطق بكلمة واحدة مخاطبة أطفالها أو خدمها ، ما لم يكن جواباً على أسئلتهم . . . وكانوا قد بدأوا يكرهون التحدث إلى السيدة إلا عند اللزوم ، فقد كانت ترد بأجوبة قصيرة نافدة الصبر حين كانوا يقاطعون تأملها القلق المتوتر . وكانت هي نفسها غير واعية بذلك ، حتى لاحظت أخيراً أن أصغر ولديها قد توقفا عن طرح الأسئلة عن أبيهما أو ذكره أمامها ، فتنهدت وفكرت : ينسى الأطفال بسرعة . . . فهي لم تعرف كم مرة أخافتهما بأجوبتها نافدة الصبر وكم أمرتهما أن يصمتا ولا يزعجاها .

أما مع الأبناء الأكبر فلم تكن تحدثهم إطلاقاً إلا ما ندر .

●

مع دوام الجليد الجاف كانت لا تزال تجيب على الغرباء الذين كانوا يصلون إلى الضيعة ويطلبون السيد ، فتقول إنه في الجبال يجرب حظه في القنص . ثم هطل الثلج كثيفاً في الأبرشية وفي الجبال في أول الأسابيع السابقة على عيد الميلاد .

في وقت مبكر من صباح يوم " مساء القديسة لوسيا " (١٣كانون الأول/ديسمبر) وبينما كان الظلام مخيماً في الخارج والنجوم لامعة واضحة ، وصلت كريستين من الحظيرة . ثم رأت تحت نور مشعل الصنوبر المحشور في كومة من الثلج أن ثلاثة من أبنائها كانوا واقفين خارج باب الدار وأدوات التزلج بين أيديهم ، وهم يثبتونها على أقدامهم . . . وعلى مسافة قصيرة وقف حصان غاوته وقد ألبس حذاء ثلج في أقدامه ووضع سرج حمولة على ظهره . وقد خمنت مقصدهم ، ولم تجرؤ على قول أي شيء سوى أن تسأل حين رأت أن أحد الشبان كان بيورغولف والآخران ناكفه وغاوته :

"هل ستخرجون اليوم للتزلج يا بيورغولف؟ يبدو الطقس وكأنه سيصحو يا بني" .

" كما ترين يا أمي" .

" ربما ستعودون إلى البيت قبل منتصف النهار إذاً ؟ " سألت وهي ضائعة نوعاً ما . كان بيورغولف غير ماهر في التزلج ، فالوهج الذي يعطيه الثلج يؤلم عينيه بسرعة ، وكان يبقي نفسه غالباً ضمن المنزل في فصل الشتاء . ولكن ناكفه أجاب بأنهم قد يغيبون لبضعة أيام .

تركت كريستين في البيت وقد انتابها القلق والخوف . كان التوأمان في حالة من الكآبة والغيظ . . . وقد لاحظت أنهما كانا راغبين في الذهاب ولكن إخوتهما الكبار رفضوا ذلك .

في وقت مبكر من اليوم الخامس ، في وقت الإفطار ، عاد الثلاثة . كانوا قد انطلقوا عند صياح الديك لأجل بيورغولف ، كما قال ناكفه . . . حتى يصلوا إلى البيت قبل أن تبزغ الشمس . وقد صعد هذان مباشرة إلى القاعة العليا . . . أما بيورغولف فبدا وكأنه سيقع أرضاً من الإنهاك . . . ولكن غاوته حمل الأجربة وسرج الحمولة إلى الغرفة . كان معه جروان جميلان لأجل لافرانس ومونان ، اللذين ما أن شاهدا الجروين حتى نسيا كل الأسئلة وكل المشاغل . بدا غاوته وكأنه منزعج ولكنه حاول إخفاء ذلك :

" . . . وهذا . . ." قال وهو يخرجه من الجراب ، " هذا طلب مني أبي أن أعطيك إياه ."

كانت فروات أربعة عشر قاقوماً من النوع الجميل . أخذتها أمه بنوع من عدم الرضا . . . ولم تستطع أن تجد كلمة واحدة تجيبه بها . كانت هناك أمور كثيرة ترغب بالسؤال عنها ، ولكنها خشيت أن تفقد سيطرتها على نفسها لو أنها أتاحت لقلبها أن يكشف عن مكنوناته . . . وكان غاوته صغيراً بعد . لذلك لم تذكر شيئاً

منها سوى أن قالت :

"سبق لها وأضحت بيضاء كما أرى . . . أجل نحن في منتصف الشتاء الآن . . ."

وحين نزل ناكفه ، وجلس هو وغاوته ليتناولا طبق العصيدة ، قالت كريستين بسرعة لفريدا إنها ستحمل بنفسها الطعام إلى بيورغولف في العلية . لقد خطر لها فوراً أنه بالنسبة للشاب الصامت الذي خمنت أنه كان أنضج عقلاً من أخوته ، فربما ستستطيع تناول الموضوع معه .

كان قد استلقى على السرير ، ووضع قطعة من القماش الكتاني فوق عينيه . علقت أمه إبريقاً من الماء على كلاّب القدر في الموقد ، وبينما اتكأ بيورغولف على مرفقه وراح يأكل فإنها راحت تغلي غسولاً من العشب المجفّف وبقلة الخطاطيف .

أخذت منه كريستين وعاء العصيدة الفارغ وغسلت له عينيه الحمراوين المتورمتين بالغسول ووضعت قماشاً كتانياً مبللاً فوقهما . ثم وجدت الشجاعة لتسأله أخيراً :

" ألم يقل أبوك شيئاً عن موعد عودته إلى البيت وإلينا ؟ "

" كلا " .

" أنت ضنين جداً بكلماتك يا بيورغولف " ، قالت أمه بعد قليل .

قال بعد برهة قصيرة : " هذا أمر متوارث يا أمي . لقد قابلنا سايمون ورجاله في مكان قريب من هنا ، شمال الوادي . . . كان على زلاجات محملة ويتجه شمالاً . "

سألت المرأة : " هل تبادلتم الكلام معهم ؟ "

" كلا . . . " ضحك كما من قبل . " يبدو أن هذا أشبه بمرض في سلالتنا . . . فالصداقة لا تزدهر بيننا . "

" هل تقصد أن تلومني على ذلك ؟ " ، اندفعت معه قائلة : " مرة تتذمر

من أننا نصمت كثيراً ثم تقول إننا لا نستطيع المحافظة على صداقاتنا . . . "

ضحك بيورغولف مجدداً . ثم اتكأ على مرفقه وكأنه يصغي إلى تنفس أمه :

"باسم الرب يا أمي لا تبدأي بالبكاء الآن . . . أنا محبط ومنهك . . . لست معتاداً قط على التزلج على الجليد . . . ولا تأبهي بما أقول : أعرف جيداً أنك لست امرأة قنوعة . "

سرعان ما غادرت كريستين العلية . فهي لا تجرؤ الآن قط على سؤال هذا الابن عما كان الأخوة الصغار يفكرون فيه فيما يخص هذه القضايا .

●

وهكذا استلقت ، ليلة في إثر أخرى ، بعد صعود الشبان إلى العلية . . . كانت مستيقظة ومصغية . هل كانوا يتبادلون الكلام حين يكونون لوحدهم في الأعلى؟ هكذا تساءلت . كان هناك صوت ارتطام الأحذية التي ترمى على الأرضية ، وقعقعة أحزمة الخناجر التي تسقط أرضاً . . . سمعت أصواتهم ولكنها لم تستطع فهم كلماتهم . . . كانت ألسنتهم تعمل كلها معاً . كانت أصواتهم تعلو . . . بدا الأمر وكأنه نصف شجار ونصف مزاح . صرخ أحد التوأمين عالياً . . . ثم جرى سحب شخص ما على الأرض ، حتى أن الغبار هطل من ألواح الخشب التي فوقها . . . فتح باب الشرفة بقوة . . . سقط شيء بثقل على أرض الشرفة ، وسمعت صوت إيفار وسكوله يهدران ويصيحان هناك ، وهما يقرعان على الباب . . . ثم سمعت صوت غاوته العالي والضاحك .كان يقف في الباب ، كما استطاعت أن تسمع . . . كان واضحاً أنه سقط هو والتوأمان ، وكانت النهاية أن رمى بهما غاوته خارجاً . وأخيراً سمعت صوت ناكفه الرجولي الناضج . . . كان يقيم الصلح بينهم . دخل الاثنان . واستمرّ الكلام والضحك فترة من الزمن ، ثم سمعت أصوات أويهم إلى الفراش . وحلّ الصمت أخيراً . . . وخلال فترة قصيرة

سـمـعت أزيزاً مطرداً ، مع هدوء شـامل . . . إنه أزيز أشـبـه برعد بعـيـد هناك في الجبال .

ابتسمت الأم في العتمة . كان غاوته يشخر حين يكون منهكاً . وهكذا كان أبوهما . كان غريباً أمر هذا التشابه . . . فالأبناء الذين يشبهون إرلند في الشكل الخارجي كانوا يشبهونه أيضاً من حيث النوم الهادئ كنوم الطيور . وبينما كانت مستلقية هناك وهي تفكر في كل العلامات الصغيرة الخاصة بالقرابة التي يجدها المرء على نحو غريب جداً في حياة إثر حياة ، ضمن سلالة معينة ؛ ولم تستطع منع نفسها من الابتسام وهي مستلقية هناك . كان التوتر المعذّب في ذهن الأم قد ارتخى قليلاً ، وكان النعاس يأتي ويشبك كل خيوط تفكيرها ، بينما غرقت الآن أولاً في راحة مباركة ثم في النسيان .

. . . كانوا صغاراً ، كما راحت تواسي نفسها . . . كأنهم لم يكونوا يأخذون الأمر مأخذ الجد إلى ذلك الحد . . .

●

ولكن في أحد الأيام حين بدأ العام الجديد ، وصل سيرا سولموند ، الكاهن ، ليزور كريستين في يورondغارد . كانت تلك أول مرة يصل فيها إلى هناك دون دعوة ، ورحبت به كريستين أجمل ترحيب ، رغم أن عقلها تنبأ بالشر على الفور . وقد صحّ حدسها . . . فقد رأى هذا أن من واجبه أن يكتشف ما إذا كانت هي وزوجها قد فصما عرى علاقتهما عن عمد وعلى نحو آثم ، وإن كان الأمر كذلك ، فأي من الشريكين هو الذي يتحمل الملامة على انتهاك قانون الرب .

أحست كريستين أن عينيها قد احولتا وأن لسانها قد أصبح ذرباً وأنها استخدمت كثيراً من الكلمات وهي تشرح للكاهن كيف أن إرلند قد وجد أنه من الضروري أن يعتني بأملاكه شمال دوفر والتي كانت مهملة تماماً لسنوات كثيرة . فالمباني كانت قد تخربت . . .وهو لديه الكثير من الأولاد ، وعليه أن يهتم

بمصالحهم . . . وما شابه . وقد عبرت عن الأمر بكلمات كثيرة حتى أن سيرا سولموند وهو رجل كليل البصر ، قد لاحظ دون شك أنها لم تكن واثقة من نفسها . . . وهاهي تتكلم وتتكلم الآن عن إرلند التواق إلى الصيد ، والكاهن كان يعرف ذلك . وقد أخرجت له فروات القاقوم التي أرسلها لها زوجها . . . وفي اضطرابها كانت قد قدمتها إلى الكاهن قبل أن تدرك هي بنفسها ذلك ، وحتى قبل أن تفكر في ذلك . . .

وقد راحت تشتكي بعد رحيل سيرا سولموند . . . لا بد أن إرلند كان يعرف أنه بالابتعاد عن بيته هذه الفترة الطويلة ، فإن الكاهن الذي لديهم الآن سيأتي لا بدّ ليتفحّص متطفلاً ليعرف إن كان هناك ما هو على غير ما يرام . . .

كان مظهر سيرا سولموند قميئاً . ولم يكن أمراً سهلاً التنبؤ بعمره الحقيقي ، ولكن الناس كانت تظنه في سن تقارب الأربعين شتاء الآن . لم يكن شديد الذكاء ولا ذا علم واسع ، إلا أنه كان كاهناً شريفاً وورعاً .

كانت له أخت غريبة الأطوار ، أرملة لم تنجب أطفالاً ، ولكنها ثرثارة ناشرة للفضائح تعتني بمنزله الصغير .

كان يود أن يظهر نفسه كخادم متحمس للكنيسة ، ولكنه ما كان يهتم إلا بالمسائل الصغيرة والناس الصغار . . . إذ كان ذا روح جبانة ويخجل من التصادم مع ملاك الأراضي الكبار أو معالجة المسائل الحساسة . ولكن لو فعل ذلك ذات مرة ، فقد كان من شأنه أن يصبح عنيداً ومشاكساً .

وبسبب هذا كله فقد كان محبوباً من قبل أبناء أبرشيته . من ناحية كانت الناس تقدره بسبب أسلوبه الهادئ الوقور في الحياة ومن ناحية أخرى لأنه لم يكن شديد الطمع بالمال أو شديد التعصب في أمور تتعلق بحقوق الكنيسة أو واجبات الناس كما كان سيرا آيريك . وربما كان هذا في الأصل من افتقاره لجرأة ذلك الكاهن العجوز .

ولكن سيرا آيريك كان محبوباً ومبجلاً من قبل كل رجل وطفل في الأبرشيات المجاورة . لقد استكبرت الناس غالباً فيما سبق من الأيام الأمر حين كان الكاهن يناضل بطمع غير لائق لإغناء وتأمين الأطفال الذين رزق بهم على نحو غير شرعي من خادمته . وحين وصل في البداية ليسكن في الأبرشية ، فإن سكان "سيل" انزعجوا من تصلّبه نحو جميع من كان ينتهك أقل حقوق الكنيسة . كان محارباً قبل أن يصبح كاهناً ، وكان من أتباع جوال البحار السير آلف أوتورنبرغ في شبابه . وكان من السهل ملاحظة ذلك في أساليبه .

ولكن رغم ذلك كان سكان الأبرشية فخورين بكاهنهم ، فقد كان أفضل من معظم كهنة الأبرشيات الريفية علماً وحكمة وقوة في الجسد ومهابة في المظهر ، وكان ذات صوت جميل نبيل . ومع تقدم السنين وتحت عبء المحن التي أنزلها الرب على خادمه بسبب نزوات شبابه الخالية من الورع ، فإن سيرا آيريك كارسون قد ازداد حكمة وورعاً وفضيلة حتى أضحى اسمه معروفاً ومبجلاً في كل أنحاء الأسقفية . حين كان يسافر إلى السنودس في بلدة هامار ، كان يكرم كأب من قبل كل الكهنة الآخرين ، ويقال إن الأسقف هالفارد كان يفضل تعيينه في كنيسة تحمل معها لقباً نبيلاً وكرسياً في المجلس الكاتدرائي . ولكن سيرا آيريك قد توسل أن يبقى حيث هو . . . وقد احتج بسنّه وبنظره الذي أصبح كليلاً في هذه السنوات الأخيرة .

في " سيل " قرب الطريق العام ، إلى الجنوب قليلاً من فورمو ، كان ينتصب صليب جميل من حجر القدور كان سيرا آيريك قد رفعه على نفقته ، حيث كان انزلاق جبلي من الجبل قد سلبه كلا ولديه الشابين الواعدين قبل أربعين سنة خلت . وحتى الآن فإن كهول الأبرشية ما كانوا يمرون به دون التوقف لتلاوة صلاة " أبانا الذي " و" السلام عليك يا مريم " لأجل روحي " آلف " و "كاره " .

كان الكاهن قد زوج ابنته بصداق كبير من الأمتعة والقطعان الى ابن مزارع وسيم من عائلة طيبة من " فيكن " . كان " يون فيس " في نظر الجميع شاباً طيباً . وبعد ست سنوات عادت إلى بيت أبيها مجوعة ومحطمة في ملابس رثة وقذرة مع طفل في كل يد وثالث تحت حزامها كان الناس القاطنون في "سيل " في تلك الأيام يعرفون جيداً ، رغم أنهم لم يذكروا ذلك قط : فقد كان والد الأطفال قد شنق كلص في أوسلو . وقد كبر أولاد "يون " ذاك ليكونوا شريرين . . . وكان ثلاثتهم في عداد الموتى الآن .

وحتى حين كان نسله لا يزال حياً ، فقد كان سيرا آيريك حريصاً على تزيين وتكريم كنيسته بالهدايا . والآن على الأرجح ستأخذ الكنيسة الجديدة " كنيسة القديس أولاف والقديس توماس " في " سيل " الجزء الأكبر من ثروته وكتبه النفيسة ، فهي أضخم وأفخم من الكنيسة القديمة التي احترقت ، وقد منحها سيرا آيريك الكثير من الزخارف والحلي الثمينة الفاخرة . كان يذهب كل يوم إلى الكنيسة للصلاة والتأمل ، ولكنه ما كان يتلو القداس أمام الناس إلا في الأعياد الكبيرة فقط .

كان سيرا سولموند أيضاً هو الذي يقوم بمعظم واجبات منصب الكاهن . ولكن حين كان الناس في حالة حزن كبير أو يعانون من مشاكل تثقل على كاهلهم أو من وخز للضمير كانوا يفضلون نشدان كاهن الأبرشية القديم ، وكان الجميع يعتبرون أنهم يعودون إلى بيوتهم مرتاحين بعد التناول مع سيرا آيريك .

وهكذا حدث أن مضت كريستين لافرانسداتر قبل حلول الربيع إلى روموندغارد وقرعت على باب منزل سيرا آيريك . ولكنها ما كانت تعرف هي نفسها كيف ستتطرق إلى المسألة التي تريد طرحها معه . لذلك وبعد أن قدمت قربانها ، جلست وراحت تتحدث عن هذا الأمر وذاك . وأخيراً قال الرجل العجوز شيئاً ما بلهجة تدل على نفاد الصبر :

" هل جئت لتحيتي فحسب يا كريستين ولتري كيف هي حالي؟ هذا لطف منك إن كان الأمر كذلك . . . ولكني أعتقد أن هناك شيئاً آخر في قلبك ، فلو صح ظني فهيا وتكلمي ، ولا تضيعي الوقت بالكلام الفارغ . . . "

وضعت كريستين يديها معاً في حضنها ونظرت إلى الأرض :

"إنه لأمر يزعجني كثيراً يا سيرا آيريك أن يقيم زوجي بعيداً هناك في هاوغن" .

قال الكاهن : " أعتقد أن الطريق ليست طويلة إلى ذلك الحد ، ولكنك تستطيعين الذهاب إلى هناك بسهولة والتحدث إليه للعودة إلى البيت عاجلاً . لا يمكن أن يكون هناك الكثير من المشاغل في تلك المزرعة الصغيرة حتى تبقيه هناك لفترة أطول . "

"أنا أشعر بالخوف وأنا أفكر فيه وهو يسكن هناك لوحده في ليالي الشتاء هذه " ، قالت الزوجة وهي ترتجف .

"إرلند نيكولاوسون رجل ناضج وشجاع بما فيه الكفاية ليعتني بنفسه" .

" سيرا آيريك . . . أنت تعرف كل ما جرى هناك ذات مرة " ، همست كريستين بصوت خفيض يكاد لا يسمع .

التفت الكاهن بعينيه العجوزين الكليلتين نحوها . . . كانتا سوداوين بلون الفحم ذات مرة ، لامعتين وحادتين . لم يقل شيئاً .

"لقد سمعت أيضاً على الأرجح ما يقوله الناس" ، قالت بصوت خفيض كما من قبل . "أن . . . الموتى يعيشون هناك" .

"هل تعنين أنك لا تجرئين على اللحاق به إلى هناك بسبب ذلك . . . أو هل أنت تخشين من أن الأشباح ستحطم رقبة زوجك؟ لو أنها لم تفعل ذلك بعد يا كريستين ، فإن المرجح أن تدعه في حاله بعد ذلك . . . "ضحك الكاهن بخشونة . "إنها حماقة ، لا شيء سوى ثرثرة وثنية خرافية ، معظم تلك الحكايات

التي ينشرها الناس حول الجنيات والموتى الذين يمشون . هناك حراس أبواب صارمون حيث يقبع السير بيورن والليدي آشيلد على ما أعتقد ."

همست مرتجفة :"سيرا آيريك ، أتظن أنه لن يكون هناك خلاص لهاتين الروحين المسكينتين . . .؟"

"لا سمح الله أن أكون جريئاً إلى ذلك الحد ، حتى أقرر حدود رحمته . ولكني لا أعتقد أن هذين قد أديا حسابهما بهذه السرعة . . . لم يتم عرض كل الألواح التي حفر عليها هذان شهادتيهما . . . أطفالها الذين تخلت عنهم . وأنتما اللذان كنتما متدربين في مدرسة تلك السيدة الحكيمة . لو اعتبرت أن الأمر قد يكون مفيداً ، وأن يتم تصحيح الخطأ الذي ارتكبته ، ولكن بما أن إرلند يتمهل هناك ، فيبدو أن الرب لا يظن أن الأمر سيفيد لو أن خالته ظهرت له وحذرته ، فنحن نعرف ، أنه برحمة الرب وشفقة سيدتنا العذراء وصلوات الكنيسة فقد يحدث أن روحاً مسكينة قد نالت الإذن للعودة إلى هذا البيت الأرضي من نيران "المطهر" ، إن كان خطؤها ممكناً إصلاحه بمساعدة البشر الأحياء وبذلك يتم تقصير فترة عذابها . . . كما حدث للروح التعيسة التي نقلت الحدود بين "هوف" و"ياربستاد" ، وكذلك المزارع في موسدال ذو الرسائل المزيفة المتعلقة بقناة الطاحون . ولكن لا يمكن لروح أن تخرج من نار "المطهر" إن لم تكن لديها تلك المهمة المشروعة . . . وكل شئ آخر هراء أي معظم ما يثرثر به الناس حول العفاريت و الأشباح . أو هي حيل الشيطان التي تتلاشى كالدخان حين تحمي نفسك واسم الرب . . ."

"ولكن ماذا عن المباركين الذين هم مع الرب يا سيرا آيريك؟" سألت مجدداً بصوت خفيض .

"القديسون الذين هم مع الرب تعرفين جيداً أنه يستطيع إرسالهم في مهمات مع هدايا طيبة ورسائل من الفردوس" .

"لقد قلت لك مرة إني رأيت الأخ إدفين ريكاردسون" ، قالت كما من قبل .

"أجل ، إما أن يكون حلماً . . . أوقد يكون الرب قد أرسله أو ملاكك الحارس . . . أو أن ذلك الراهب قديس ورع" .

همست كريستين وهي ترتجف :

" ولكن ماذا عن أبي . . . يا سيرا آيريك ، لقد صليت كثيراً حتى أمنح فرصة مشاهدة وجهه ولو مرة واحدة . أتوق إلى مشاهدته إلى حد كبير يا سيرا آيريك . . . وربما قد أفهم من سحنته رغبته فيما يخص ما عليّ فعله . هل يمكنني أن أرى أبي ولو مرة واحدة . . . " كان عليها أن تعض على شفتيها وأن تمسح دموعها التي كانت تهم بالهطول . مع سقوط غطاء رأسها .

هزّ الكاهن رأسه :

"صليّ لأجل روحه يا كريستين . . . رغم أني أعتقد جيداً أن لافرانس وأمك في حالة من الراحة منذ وقت طويل ، في منزل أولئك الذين حاولا التخفيف عن أحزانهم وهما لا يزالان على الأرض هنا . ولا شك أن لافرانس يتشبث بك بقوة وذلك بواسطة حبه لك في ذلك المكان أيضاً . . . ولكن صلواتك وقداديسك لأجل سلام روحه ستربطك وتربطنا جميعاً به . . . أجل ، وهذا أحد الأمور السرية الصعبة على الفهم . . . ولكن لا تشكّي في أن هذا الطريق أفضل من أن يُعكر عليه صفو سلامه فيحضر إلى هنا ويظهر نفسه لك . . ."

اضطرت كريستين إلى الجلوس قليلاً قبل أن تستطيع السيطرة على نفسها مجدداً بحيث تتجرأ على الكلام . ولكنها حكت الآن للكاهن كل ما جرى بينها وبين إرلند في تلك الليلة في غرفة الموقد ، وكررت له كل كلمة قيلت بقدر ما استطاعت .

جلس الكاهن صامتاً فترة من الزمن بعد أن انتهت من الكلام . ثم صفقت بيديها بقوة :

"سيرا آيريك! أتظن أن اللوم يقع في معظمه عليّ أنا؟ أتعتقد أن الكثير من

اللوم يقع عليّ أنا وأنه ليس إثماً من جانب إرلند أن يهرب مني ومن كل أبنائنا على هذا النحو؟ أتعتقد أنه من العدل أن يطلب أن أقوم أنا باللحاق به والركوع أمامه وأن أبتلع كلماتي التي نطقت بها خطأ؟ . . . وأنا أعرف أنه دون هذا لن يعود إلينا!"

"أتعتقدين أنك في حاجة إلى استدعاء لافرانس من بيته الآخر لتسأليه عن رأيه في هذه القضية؟" نهض الكاهن ووضع يده فوق كتف المرأة : "في أول مرة رأيتك فيها يا كريستين كنت فتاة صغيرة رقيقة . . . أخذك لافرانس بين ركبتيه ووضع يديه على نحو متصالب على صدرك ، وطلب منك تلاوة (أبانا الذي) أمامي . . . وقد تلوتها بوضوح وعذوبة ، رغم أنك لم تفهمي منها كلمة واحدة . . . وبعد ذلك تعلمت معنى كلمة صلاة بلغتنا . . . وربما نسيته الآن . . .؟

"هل نسيت أن أباك علمك وأكرمك وأحبك . . . وقد أكرم هذا الرجل الذي تخشين الآن من أن تتواضعي أمامه . . . أم هل نسيت كم كان الحفل الذي أقامه لكما رائعاً؟ وكيف غادرتما ضيعته كلصين . . . وسرقتما معكم ورع وشرف لافرانس بيورغولفسون؟"

أخفت كريستين وجهها بين يديها باكية .

"ألا تتذكرين يا كريستين . . . هل طلب إليك أن تسقطي على ركبتيك أمامه قبل أن يعتبر أنه قادر على رفعك ثانية إلى حبه الأبوي؟ أتظنين أنه أمر صعب جداً على اعتزازك بنفسك لو انحنيت الآن أمام رجل أسأت إليه ربما أقل مما أسأت إلى أبيك . . .؟"

"يا يسوع!" بكت كريستين على نحو أشد إثارة للشفقة . "يا يسوع . . . ارحمني . . ."

"لا زلت تذكرين اسمه كما أسمع" ، قال الكاهن . "اسم الذي ناضل أبوك

ليتبعه كتلميذ وأن يخدمه كفارس مخلص ." لمس الصليب الصغير الذي كان معلقاً فوقهما . "القد مات ابن الرب دون خطيئة على الصليب ليكفر عن خطايانا في حقه . . .

"اذهبي إلى بيتك الآن يا كريستين وفكري في هذا الذي قلته لك " ، قال سيرا آيريك حين خف نحيبها قليلاً .

●

ولكن حدث في تلك الأيام نفسها أن انطلقت العواصف والرياح الباردة والمطر المتجمد ووابل المطر . . . حتى أصبح صعباً على الناس أحياناً أن يعبروا باحات منازلهم دون خطر أن تعصف بهم الرياح إلى أعلى المنازل ، كما قد يفكر المرء . لم يكن أحد قادراً على السفر عبر طرقات الأبرشية . ثم جاءت سيول الربيع على نحو مفاجئ وعنيف جداً حتى هرب الناس من المزارع التي كان الخطر فيها وشيكاً . نقلت كريستين معظم أمتعتها إلى علية المخزن الجديد ، وحصلت على الإذن لتضع الحيوانات في حظيرة سيرا آيريك الربيعية . . . كانت حظيرة يورروندغارد الربيعية تقع على الجانب الأبعد من النهر . كان العمل مرهقاً جداً في الطقس العاصف . . . عبر الحقول الصغيرة كلها كان الثلج طرياً كالزبدة السائحة . . . وكانت الحيوانات ضعيفة وفي حالة مزرية . كان شتاء قاسياً . وقد كسر أفضل جوادين صغيرين ساقاً وهما يمشيان ، تحطمت الساقان كأنهما عودان هشان .

في اليوم الذي نقلوا فيه الحيوانات ، ظهر سايمون دار مع أربعة من خدمه المنزلي فجأة في منتصف الطريق . وقد راحوا يقدمون يد العون . وفي وسط الريح والمطر وكل الضغوط والجلبة ، مع الأبقار التي كان يتوجب الإمساك بها والخراف والحملان التي يجب أن تحمل ما كان ممكناً للمرء أن يسمعه أحد لو تكلم ، ولا مجال للأقارب أن يتبادلوا الحديث . ولكن حين دخلوا إلى يورروندغارد في المساء ،

وجعلت كريستين سايمون ورجاله يجلسون في القاعة ـ كل من كان يعمل في ذلك اليوم كان في حاجة ماسة إلى جرعة من الجعة الدافئة ـ استطاع سايمون أن يتبادل الحديث معها . توسل إليها أن تأتي إلى فورمو مع النساء والأطفال ، وكان هو واثنان من رجاله سيبقون هنا مع أولف والشبان . شكرته ولكنها قالت إنها ستبقى في ضيعتها . كان لافرانس ومونان في أولفسفولدين وقد لجأت يارترود إلى منزل سيرا سولموند . . . فهي قد أصبحت على صلة وثيقة بأخت الكاهن . قال سايمون :

"يعتبر الناس يا كريستين الأمر غريباً لأنكما كأختين لم تعودا تتقابلان . ستكون رامبورغ غاضبة لو عدت إلى البيت دونك ."

قالت المرأة :" أعرف أن الأمر يبدو غريباً ، ولكنه سيبدو أغرب على ما أعتقد لو ذهبت لزيارة أختي الآن ، بينما سيد هذا المنزل بعيد . . . والناس تعرف أنكما لستما على وئام ."

عند هذا توقف سايمون عن الكلام ، وسرعان ما استأذن هو ورجاله بالانصراف .

●

جاء أسبوع الابتهال قبل عيد الصعود بعاصفة مخيفة . ومع حلول يوم الثلاثاء انتشر النبأ بين المزارع في شمال الأبرشية بأن السيل قد اجتاح الجسر فوق الوادي الذي يعبر الناس عليه حين يتجهون نحو سايترات هوفرينغ . كانت هناك خشية على الجسر الكبير إلى الجنوب من الكنيسة . وهو قوي البنيان فقد بني من أقسى أنواع الخشب ، كما كان ذا قوس عال في الوسط ، ومدعماً في الأسفل بجذوع أشجار ضخمة أقحمت عميقاً في حوض النهر . ولكن الماء كان قد اجتاح الآن نهايتي الجسر حيث كانا يرتبطان بالضفتين ، وكان قوس الجسر متخماً بكل أنواع المواد التي جرفها النهر من الشمال . كان نهر "لاغن" قد فاض الآن على

الحقول المنخفضة على كلتا الضفتين ، وفي أحد الأماكن في أراضي يوروندغارد ، حيث كانت هناك فجوة في المروج ، تسرب الماء إلى الداخل كخليج ، ووصل حتى المنازل . . . كان سقف ورشة الحدادة وأسقف الأشجار تظهر من فوقه كجزر صغيرة . أما مخزن الحبوب الخارجي على الأرض المنخفضة قرب النهر فكان قد سبق له وانجرف مع السيل .

من المزارع على الجانب الشرقي من النهر لم يكن قد وصل إلى الكنيسة سوى عدد قليل من الرجال . وكانوا خائفين من أن ينهار الجسر خلال الصلاة في الكنيسة ويمنعهم من العودة إلى بيوتهم . ولكن هناك عالياً على الضفة الأخرى ، على جانب الجبل تحت مخزن حبوب لاوغاربرو ، حيث كان هناك ملجأ صغير من العاصفة ، كان يمكن أن يرى ، بين هطولات الثلج حشد أسود من الناس . لقد سرت الأنباء بأن سيرا آيريك قال إنه سيحمل الصليب فوق الجسر ويضعه على الضفة الشرقية ، حتى لو لم يتجرأ أحد على اللحاق به .

صفعت هبة ثلجية وجوه الرجال مع تقدم الموكب من الكنيسة . كان الثلج ينطلق عبر الهواء في خطوط مائلة ـ ما كان ممكناً مشاهدة سوى لمحات من الريف ـ وبين الحين والآخر كانت ترى أجزاء من البحيرة السوداء التي حلت محل المروج . كانت الغيوم تجتاح أعالي الجبال وألسنة الغابة على جوانب الجبال ؛ ولمحات من قمم شاهقة أمام غيوم مكومة في الأعالي . كان الهواء محملاً بزمجرة مختلطة . . . هدير النهر الصاعد والهابط ، والضجيج المندفع للغابات ، عواء الريح . . . ودائماً كان هناك صوت العاصفة بين الجبال ورعد انزلاقات الثلج الجديد .

كانت الشموع تنطفىء ما أن تحمل من خارج طريق رواق الكنيسة . في هذا اليوم ارتدى الشبان الناضجون أردية صبية الكورس البيضاء . . . راحت الريح تعصف بها . مشوا جميعاً وهم يرفعون الراية والأيدي تمسك بقماش الراية حتى لا

تمزقه الريح ، بينما شق الموكب طريقه بأجسام منحنية نحو الأمام ضد الريح عبر جانب الجبل . ولكن فوق هدير العاصفة كانت بعض ألفاظ سيرا آيريك ترتفع وهو يناضل شاقاً طريقه نحو الأمام منشداً باللاتينية :

"هلم نرجع إلى الرب لأنه هو افترس فُيشفينا . ضرب فيجبرنا . يحيينا بعد يومين . في اليوم الثالث يقيمنا فنحيا أمامه . لنعرف فنتتبع" (هوشع - الإصحاح السادس ١ - ٣) .

توقفت كريستين هي وكل النساء الأخريات ، حين وصل الموكب إلى المكان الذي فاضت فيه المياه على الطريق ، و لكن الشبان في الملابس البيضاء والقدالفة (جمع قندلفت) والكهنة فكانوا قد سبق لهم ووصلوا الجسر و تقريباً كان كل الرجال قد لحقوا بهم . . . وصل الماء إلى ركبهم .

اهتز الجسر وارتجف ، و قد أدركت النساء الآن أن منزلاً بكامله كان ينجرف مع مجرى النهر باتجاه الجسر . كان التيّار يدوّر المنزل الذي انقسم إلى شطرين و كانت جذوعه قد انشطرت و لكنها ما تزال ملتصقة بعضها البعض . كانت الزوجة من أولفسفولدين قد التصقت بكريستين لافرانسداتر وراحت تنتحب بصوت مرتفع . . . كان شقيقا زوجها الشابان بين جماعة الكورس . تضرعت كريستين بصمت إلى مريم العذراء و ركزت عينيها نحو الجمهرة الواقفة في وسط الجسر ، حيث استطاعت تتميز شكل ناكفه المرتدي للون الأبيض بين الرجال الحاملين للراية . عبر كل هذا الهرج والمرج ، فإن النساء كن لا يزلن قادرات على سماع إنشاد سيرا آيريك .

توقف عند قمة الجسر ورفع الصليب عالياً حين ضرب المنزل بالجسر . ترنّح الجسر وأنّ . . . وبالنسبة للناس الواقفين على كلا الضفتين بدا وكأنه استقر جنوباً . ثم مضى الموكب واختفى عن الأبصار خلف ظهر الجسر المقوس . . . ثم بدا لهم مجدداً فوق الضفة الأخرى . كان المنزل المحطم قد علق في كومة المواد

المنجرفة الأخرى التي كانت عالقة بالجذوع السفلى للطريق .

ثم وعلى نحو فجائي و كإشارة سماوية سقط نور فضّي عبر كتل الغيوم التي تجرفها الريح . . . شعاع باهت ، كأنما من الرصاص المنصهر ، وانتشر فوق النهر المتورم ، على نحو واسع . تباعد الضباب والغيوم . . . اخترقتهما الشمس وحين وصل الركب ليعبر الجسر مجدداً ، التمعت أشعتها فوق الصليب . فوق ثوب الكاهن الكهنوتي الطويل كانت الخطوط المتصالبة للدثار تلتمع بلون أزرق أرجواني رائع . كان وادي "ديل" ذهبياً ولامعاً كما في قعر كهف من الظلمة الزرقاء ، لأن غيوم العاصفة التي ضربتها أشعة الشمس راحت تتجمع عالياً من حول جبهات الجبال وتلوّن الأراضي المرتفعة بلون أسود . . . بين المرتفعات كان الضباب يتلاشى ، وبرزت قبة الجبل الكبيرة فوق "فورمو" عالية في العتمة ، بيضاء من الثلج المتساقط حديثاً .

لقد رأت ناكفه وهو يمرّ بها . كانت الملابس المبتلة تلتصق بالشبان وهم ينشدون بقوة وعنف تحت نور الشمس باللاتينية :

" يا منقذ العالم ، نجنا جميعاً . أيها الرب ارحمنا . يا يسوع اسمعنا . "

مرّ الكهنة والصليب . لحقت بهم جمهرة المزارعين مثقلين بملابسهم المبتلة . ولكنهم راحوا ينظرون من حولهم بعيون متسائلة لامعة نحو العاصفة المغادرة ، وهم ينشدون مع الجميع : "كيري إيلايسون!"

ثم شاهدت . . . لم تصدق عينيها ، كانت هي الآن من يتشبث بجارتها حتى تجد منها الدعم . كان إرلند هناك ضمن الموكب . كان يرتدي معطفاً من جلد الرنة المبتل والقبعة فوق رأسه . . . ولكنه كان هو دون شك . . . وبفم نصف مفتوح كان يصرخ "كيري إيلايسون" كالآخرين . . . وهاهو ينظر إليها مباشرة وهو يمرّ بها . . . لم تستطع فهم النظرة التي كانت على وجهه بدقة . كان هناك شيء يشبه الابتسامة عليه . . .

ومع النساء الأخريات تبعت الموكب فوق مرج الكنيسة وهي تنشد عالياً مع الآخرين وفي انسجام مع الشبان الذين كانوا ينشدون الابتهال . لم تكن واعية بشيء عدا دقات قلبها المجنونة .

خلال القداس لمحته مرة واحدة فقط . لم تتجرأ على الوقوف في مكانها المعتاد . . . خبأت نفسها في عتمة الجناح الشمالي .

ما أن انتهى القداس حتى أسرعت في الخروج . هربت من خادماتها اللواتي كن في الكنيسة . في الخارج كان الوادي كله يتبخر تحت الشمس . هرعت كريستين إلى بيتها دون أن تكترث بوحل الطريق العميق .

فرشت مائدتها ووضعت قرن الميد الطافح أمام المقعد العالي الخاص بالسيد ، وذلك قبل أن تمنح نفسها الفرصة لتبدل ملابسها المبتلة وترتدي ملابس الأعياد . . . الثوب الأزرق الداكن المطرز والحزام الفضي والحذاء ذو الإبزيم وغطاء الرأس ذو الحواف الزرقاء . ثم سقطت على ركبتيها في المختلى . لم تستطع التفكير ، ولم تجد العبارات الملائمة كما تمنت . . . وكررت مرات عديدة : "السلام عليك يا مريم . . . أيتها السيدة المباركة ، أيها الرب العزيز ، ابن العذراء . . . أنت تعرف ما أريد قوله . . . "

مرّ الوقت بطيئاً . وقد سمعت من خادماتها أن الرجال قد ذهبوا ثانية إلى الجسر . . . كانوا يحملون الفؤوس والخطاطيف لتخليص الحطام الذي التصق به بشدة . . . في محاولة لإنقاذ الجسر . كان الكهنة قد ذهبوا معهم أيضاً بعد أن خلعوا ملابسهم الكهنوتية .

لم يصل الرجال إلا بعد انقضاء منتصف النهار بوقت طويل . عاد أبناؤها وأولف هالدورسون والخدم الثلاثة ورجل عجوز وصبيان من الأبرشية كانوا يعملون في الضيعة .

كان قد سبق لناكفه أن جلس في مكانه ، إلى يمين كرسي السيد العالي .

وفجأة نهض وغادر مكانه واتجه نحو الباب .

نادته كريستين بالاسم ، بصوت نصف مرتفع .

عندها عاد وجلس ثانية . تضرج وجه الشاب ثم شحب . أبقى عينيه أرضاً وهو يعض على شفته السفلى . لاحظت أمه أنه كان يجاهد ليسيطر على نفسه . . . ولكنه نجح في النهاية .

وأخيراً انتهت وجبة الطعام . نهض الأبناء الجالسون على المقعد الداخلي وداروا من حول نهاية المائدة حيث الكرسي العالي الفارغ وسووا من أحزمتهم قليلاً ، كالعادة ، بعد أن أعادوا سكاكينهم إلى أغمادها وخرجوا .

بعد أن رحل الجميع ، لحقت بهم كريستين . كانت الشمس تشع بنور دافئ و المياه تسيل من كل السطوح . لم يكن هناك من شخص في الباحة عدا أولف . . . كان يقف على اللوح الحجري خارج باب منزله .

اعترت وجهه نظرة عاجزة غريبة حين اقتربت السيدة منه . لم يقل شيئاً . . . سألته بصوت خفيض :

"هل كلمته ؟"

"لم نتبادل كلمات كثيرة . تحادث ناكفه معه كما رأيت . . ."

بعد وهلة قال :

"كان خائفاً نوعاً ما - عليكم جميعاً - حين هبط السيل . لذلك فكر في الاقتراب من البيت ليرى الأحوال . حكى له ناكفه كيف تدبرت الأمور . . .

"لا أعرف كيف سمع عن أنك أهديت الجلود التي أرسلها لك مع غاوته في الخريف إلى آخرين . كان غاضباً من ذلك . وكذلك حين عرف أنك تسللت فوراً نحو البيت بعد القداس . . . كان يظنّ أنك ستبقين وتحادثينه . . ."

لم تقل كريستين شيئاً . دارت على عقبيها ثم دخلت إلى منزلها .

•

في هذا الصيف كانت هناك خناقات وشجارات لانهاية لها بين أولف هالدورسون وزوجته . كان ابن الأخ غير الشقيق لأولف واسمه هالدور يونسون قد وصل لزيارة عمه في الربيع مصطحباً معه زوجته التي كان قد تزوجها في العام السابق . وكان من المتفق عليه الآن أن يستأجر هالدور المزرعة التي كان أولف يملكها في سكاون وأن يطير إلى هناك يوم الاستحقاق . ولكن يا روترود كانت غاضبة إذ اعتبرت أن أولف قد منح ابن أخيه شروطاً جيدة إلى حد مفرط ، ورأت أن الرجال كانوا يفكرون بطريقة أو بأخرى أن تنتقل ملكية الأرض إلى هالدور بالوراثة .

كان هالدور وصيفاً لكريستين في هوسابي ، وكانت تحب الشاب الصغير كثيراً . وكانت زوجته أيضاً شابة هادئة وفاتنة فأحبتها أيضاً . وبعد منتصف الصيف بفترة وجيزة رزق الشابان بابن وأعارتهما كريستين مبنى الحياكة حيث كان من عادة سيدات الضيعة أن يلدن حين يأتيهم المخاض . . . ولكن يارترود ساءها أن تعتني كريتسين بالمرأة التي في المخاض كرئيسة للقابلات . . . رغم أن يارترود نفسها كانت شابة وغير ماهرة في هذا الأمر ، ولم تكن قادرة على تقديم العون إلى امرأة في المخاض ولا العناية بطفل وليد .

أصبحت كريستين عرابة للطفل وأولم أولف بمناسبة العماد . ولكن يارترود اعتبرت أنه أنفق الكثير على الوليمة ، وأن الهدايا التي وضعها في المهد على سرير الأم كانت مفرطة . وحتى يخرسها قليلاً ، قدم أولف إلى زوجته ، تحت أنظار كل الناس ، عدة هدايا ثمينة من بين مقتنياته : صليب وسلسلة مذهبان ، عباءة مبطنة بالفرو مع مشبك فضي كبير ، خاتم ذهبي ودبوس زينة . ولكنها لاحظت أنه لم يمنحها ولا ربع آكر واحد من الأرض التي كان يمتلكها ، سوى الهدية الإضافية التي منحها إياها حين زفّت إليه . . . كانت أرضه كلها ستذهب إلى أخوته وأخواته غير الأشقاء ، إن لم يرزق هو بأولاد . والآن كانت يارترود تشكو من أن

طفلها قد ولد ميتاً وأنه يبدو وكأنها لن ترزق بأطفال آخرين . . . سرعان ما أصبحت موضوع تندّر الجيران لأنها كانت تحدث الجميع عن ذلك .

وبسبب هذه المشاحنات اضطر أولف إلى أن يرجو من كريستين أن تدع هالدور وأودهيلد يسكنان في مبنى غرفة الموقد بعد أن تدخل الزوجة الشابة الكنيسة . وافقت كريستين بسعادة . بقيت بعيدة عن هالدور لأنه كان يذكرها كثيراً بما هو مؤلم التفكير فيه حين كانت تحادثه ، حول ما حدث لها في تلك الأيام الماضية . ولكن الكثير من الكلام حدث بينها وبين الزوجة ، فقد كانت أودهيلد مصمّمة على مساعدة كريستين بكل طريقة ممكنة . وفي نهاية الصيف مرض الطفل مرضاً شديداً . و قد اعتنت به كريستين ورعته نيابة عن الأم الشابة غير المجربة .

وحين انطلق الزوجان الشابان شمالاً في الخريف افتقدتهما ، وخاصة الطفل الصغير . كانت تعرف مدى حماقة الفكرة ، ومع ذلك فإنها لم تكن قادرة في هذه السنوات الأخيرة على أن تخلص نفسها من نوع من الأسى لأنها بدت فجأة ومرة واحدة وكأنها أصبحت عاقراً . . . رغم أنها لم تكن امرأة هرمة ، فهي لم تصل سن الأربعين بعد .

لقد ساعدها أن تبقي ذهنها بعيداً عن الأفكار الحزينة وجود تلك الزوجة الشابة الطفولية والرضيع الصغير لتساعدها على العناية به . ورغم حزنها لمشاهدة أن أولف هالدورسون لم يكن محظوظاً في زواجه ، ومع ذلك فإن الأحداث في منزل الوكيل ساعدتها على أن تبقي أفكارها بعيدة عن أمور أخرى .

فبعد الأسلوب الذي تصرف به إرلند في يوم الابتهال ، لم تعد تجرؤ على التفكير فيما ستؤول إليه الأمور . أن يأتي إلى الأبرشية والكنيسة أمام أعين كل

الناس ، ثم ينطلق شمالاً مجدداً دون أن يحيّي زوجته ولو بكلمة واحدة ، فإن هذا بدا لها شديداً القسوة حتى أنها اعتبرت أنها لم تعد الآن تكترث بما قد يفعله . . .

●

لم تكن قد تبادلت كلمة واحدة مع سايمون أندرسون منذ أيام الفيضان في الربيع حين وصل ليمد لها يد المساعدة . في الكنيسة كانت تحيّيه وتتبادل غالباً كلمات قليلة مع أختها . ولم تكن تعرف رأيهما في أحوالها وفي لجوء إرلند إلى دوفر .

و لكن في يوم الأحد السابق على قداس بارتولوميو (٢٤ آب/أغسطس) ، وصل السير غيرد أوف دايفرين مع جماعة فورمو إلى الكنيسة . بدا سايمون شديد السعادة وهو يدخل إلى القداس إلى جانب أخيه . وبعد القداس ، ذهبت رامبورغ إلى كريستين وهمست في أذنها بتوق أنها حامل مجدداً وأنها ستلد في قداس ماريا في الربيع :

"كريستين يا أختي هل تستطيعين أن تحضري وتحتسي الشراب معنا اليوم؟"

هزت كريستين رأسها بحزن ، وربتت على الخد الشاحب للزوجة الشابة وتوسلت إلى الله أن يجعل من الطفل الجديد متعة وبركة للوالدين . ولكنها لا تستطيع الذهاب إلى فورمو كما قالت .

●

بعد القطيعة مع عديله أجبر سايمون نفسه على الاعتقاد بأن الأمر أفضل على هذا المنوال . كان في وضع جيد يجعله لا يحتاج إلى أن يتساءل كيف كان الناس يحكمون على تصرفاته في كل الأمور . لقد ساعد إرلند وكريستين حين كانا في أمس الحاجة إلى ذلك ، أما فيما يخص الدعم الذي يمكن أن يقدمه لهما هنا في الأبرشية ، فلم يكن الأمر يستحق أن يعقّد حياته من أجله إذا ما قدمه لهما .

ولكنه حين سمع أن إرلند قد رحل عن الأبرشية ، لم يعد ممكناً لسايمون لأن يتحمل الهدوء الثقيل العنيد الذي كافح ليشعر به . وقد قال لنفسه عبثاً إنه لم يكن هناك شخص يعرف على الوجه الصحيح ما هو كائن وراء مكوث إرلند الطويل بعيداً عن البيت . . . ثرثر الناس كثيراً ولم يكونوا عارفين إلا القليل . ومهما يكن الأمر فهو لم يكن قادراً على أن يتدخل في الأمر . ولكن فكره لم يكن مرتاحاً . أحياناً كان يتأمل فيما لو يذهب إلى إرلند في هاوغن ويتراجع عن الكلمات التي قالها له حين افترقا . . . وبعد ذلك سيرى إن لم تكن هناك طريقة ما لتصحيح الأمور بين عديله وأخت زوجته . ولكنه لم يتجاوز في هذا سوى مرحلة التفكير .

لم يصدق بالفعل أن أي شخص يستطيع أن يلاحظ عليه أنه قلق . لقد عاش حسب دأبه وراح يعمل في مزرعته ويهتم بأملاكه ، وكان مرحاً يحتسي الشراب برجولة مع رفاقه المرحين ، ويذهب إلى الجبال للصيد حين يتاح له الوقت ، ويدلل أطفاله حين يكون في البيت ، ولا يتبادل مع زوجته أي كلام غير لطيف . أما بالنسبة إلى الناس في الضيعة فالأمر يبدو وكأن الحب بينه وبين رامبورغ كان أعظم مما سبق له أن كان في الماضي ، حيث اصبحت زوجته أكثر هدوءاً واستقامة في تصرفاتها ولم تعد تصاب بتلك النوبات من الغضب النزوي والطفولي بسبب مسائل تافهة . ولكن كان سايمون في السر يشعر بالخجل وعدم الثقة في تعامله معها . . . فهو لم يعد يستطيع أن يعاملها وكأنها لا تزال نصف طفلة ، فيقوم بمناكدتها وتدليلها . لم يكن يعرف الآن كيف عليه أن يتصرف معها .

وهكذا لم يكن يعرف أيضاً كيف يتقبل الأمر حين قالت له في إحدى الأمسيات إنها قد حملت مجدداً .

قال أخيراً وهو يربت على يدها :

"الست سعيدة جداً بذلك على الأرجح ."

"ولكنك سعيد على ما أعتقد أليس كذلك ؟" التصقت به رامبورغ نصف ضاحكة ونصف باكية ، وقد ضحك خجلاً وهو يضمها بين ذراعيه .

"هذه المرة سأكون طيبة وهادئة يا سايمون ولن أئنّ أو أنوح كما من قبل . ولكن عليك أن تبقى معي . . . أتسمع ذلك ؟ . . . حتى لو كان أصهارك وأخوتك في السجون وقد اقتيدوا في طابور واحد نحو المشنقة ، فعليك ألاّ تتخلى عني !"

ضحك سايمون بحزن :

"أين سأذهب يا رامبورغ . . . ؟ لن يقوم غيرموند ، المقعد المسكين بالتورط في أي مسألة هامة . . . وتعرفين أنه الشخص الوحيد من أقربائي أو أنسبائي الذي لست على خلاف معه . . ."

"أوه ! . . ." ضحكت رامبورغ أيضاً عبر دموعها . "تلك المشاحنات لن تدوم إلى أبعد من يوم يحتاجون فيه إلى عونك وتحسب أنت أنك قادر على إسدائه لهم . أعرفك جيداً الآن يا زوجي . . ."

•

بعد ذلك بأربعة عشر يوماً وصل غيرد أندرسون إلى الضيعة على نحو غير متوقع . كان فارس دايفرين قد حضر برفقة تابع واحد فقط .

تبادل الأخوان كلمات قليلة لدى لقاءهما . قال السير غيرد كيف أنه لم ير أخته وصهره في كروكه منذ سنوات كثيرة ، وكيف فكر في السفر إليه هنا ليقدم لهم التحية ؛ وبما أنه كان في "ديل" ، فقد فكرت سيغريد في أنه عليه أن يزور فورمو أيضاً . "وقد فكرت يا أخي أنك لست غاضباً جداً مني لدرجة ألا تقدم لي ولخادمي الطعام والمأوى حتى الغد ."

"وهل تعتقد ذلك" ، قال سايمون . . . كان واقفاً وهو ينظر إلى الأرض وقد تضرج وجهه . "كان لطفاً منك يا غيرد أن تزورني . "

سار الأخوان معاً في الخارج بعد الطعام . كان القمح قد بدأ يكتسب اللون الأصفر هنا على المنحدرات المشمسة الهابطة نحو النهر . كان الطقس لطيفاً ونهر "لاغن" يلتمع بلطف في وميض صغير بين غابات جار الماء . كانت غيوم بيضاء كبيرة تبحر عبر سماء الصيف . . . وملأت أشعة الشمس حوض وادي "ديل" ، أما الجبل المطل عليه فكان ذا لون أزرق وأخضر تحت سديم الحرارة والظلال المنجرفة للغيوم .

من داخل الحقل الصغير خلفهما وصل صوت وقع حوافر على الأرض الجافة . . . وصل القطيع عبر غابة جار الماء . اتكأ سايمون على الحاجز : "يا مهري . . . يا مهري . . . لقد أصبح برونسفاين حصاناً عجوزاً أليس كذلك ؟" قال بينما أطل حصان غيرد برأسه من فوق السياج ولمس بأنفه كتف سيده .

"عمره ثمانية عشر شتاء " . . . داعب غيرد حصانه . . .أعتقد يا قريبي أنه لأمر سيئ أن تدمر هذه المسألة الصداقة التي بيننا" ، قال ذلك ولم ينظر إلى أخيه .

أجاب سايمون بصوت خفيض : " لقد أحزنني ذلك كل يوم . وأشكرك على قدومك يا غيرد" .

تقدما على امتداد السياج : غيرد أولاً وسايمون يلحق به وأخيراً جلسا على حافة امتداد حجري صغير من المرج الأصفر المحترق . كانت هناك رائحة حلوة قوية من أكوام التبن هنا وهناك بين أكوام الحجارة ، حيث كانت المناجل قد حصدت تبناً صغيراً قصيراً مزهراً . حكى غيرد عن الحوار بين الملك ماغنوس وآل هافتورسون وأتباعهم . وبعد وهلة سأله سايمون : "ألا تعتقد أنه أمر يجري التفكير فيه أن يقوم أحد أقرباء إرلند نيكولاوسون بمحاولة كسب عفو كامل له وإعادته إلى رضا الملك ؟"

قال غيرد دار :" لا أستطيع أنا فعل الكثير . وهم لا يحبونه يا سايمون

أولئك الذين الذين يمسكون بالسلطة بين أيديهم . أجل ، لا أفكر في طرح المسألة الآن . . . أعتقد أنه بدا شخصاً جريئاً رابحاً ولكنه تصرف على نحو سيئ في مخططه ذاك كما يعتقد الناس الآخرون ولكنني لا أفضل طرح الموضوع الآن . . . أعرف جيداً أن عديلك هذا عزيز جداً عليك . . . "

جلس سايمون محدقاً إلى الوميض الفضي في قمم الأشجار على المنحدر في الأسفل ، وإلى التماعة النهر . فكر متسائلاً : أجل ، بطريقة ما كان ما قاله غيرد صحيحاً .

"على أي حال ، في هذه الأيام لسنا على وفاق مع إرلند" ، قال سايمون . "نحن لم نكلم واحدنا الآخر منذ مدة طويلة ."

" . . أعتقد أنك أصبحت محباً للخصام مع مرور السنين يا سايمون" ، قال غيرد ضاحكاً .

سأل بعد قليل : "ألم تفكر قط في مغادرة هذه الوديان؟ نحن الأقرباء قد نقدر على مساعدة واحدنا الآخر على نحو أفضل لو كنا نسكن على نحو أشد تجاوراً ."

" هل تستطيع التفكير في أمر كهذا . . .؟ فورمو إرثي المتوارث . . ."

"يملك أسموند أوف آيكن حصته من تلك الضيعة أيضاً بالوراثة . وأنا أعرف أنه راغب في مبادلة إرثه بآخر . . .لا زال يفكر في الحصول على ابنتك آرنغييرد مقابل إعطائك غرونده حسب الشروط التي يعرضها هو . . ."

هزّ سايمون رأسه :

" لقد اتخذت سلالة جدتنا لأبينا مقراً لها في ضيعة فورمو منذ أن كانت هذه البلاد وثنية بعد . وهنا أريد لأندرس أن يعيش من بعدي . أعتقد أنك فقدت حكمتك يا أخي . . . هل أستطيع مفارقة فورمو؟"

"كلا ، ما تقوله هو المنطق ." احمر وجه غيرد . "ظننت أنه ربما في راومريكه

ستكون بين أقربائك . . . وأصدقاء طفولتك . . . وأنك قد تكون أسعد حالاً هناك ."

"أنا سعيد هنا" . احمر وجه سايمون أيضاً . "هذا هو المكان الذي أستطيع فيه وضع الصبي في مقر آمن . " نظر إلى غيرد واتخذ وجه أخيه ذو الملامح الدقيقة مظهراً خجولاً . كان شعر غيرد أبيض تقريباً الآن ، ولكنه كان نحيلاً رشيق الجسم كما كان دائماً . تحرك على نحو قلق . . . فانزلقت بعض الأحجار من الكومة التي كان يتكئ عليها وتدحرجت هابطة المنحدر نحو القمح .

"هل ستجعل الكومة كلها تهبط على حقلي؟ "سأل سايمون ضاحكاً وبفظاظة مزعومة . قفز غيرد برشاقة وخفة ومد يده إلى أخيه الذي كان ذا وزن أثقل ليرفعه .

أبقى سايمون يد أخيه في يده لحظة بعد أن نهض على قدميه . ثم وضع يده على كتف أخيه . عندها فعل غيرد الشيء نفسه . وهكذا مضيا صاعدين التل نحو الضيعة وكل منهما يضع يده فوق كتف الآخر .

●

جلسا معاً في قاعة سايوند في المساء . . . كان سايمون سينام مع أخيه . انتهيا من تلاوة صلاة المساء ، ولكنهما شعرا أن عليهما إفراغ وعاء الجعة قبل النوم .

"فلتتباركي أنت في أنوثتك . . . أنوثتك . . . هل تذكر ؟" ضحك سايمون فوراً .

"لقد كلفني ذلك جلدات كثيرة على الظهر وإلا ما كان سيرا ماغنوس سيخرج عقيدة جدتي المزيفة من رأسي" . . . ابتسم غيرد للذكرى . "كان لذلك الشيطان يد قاسية . أتذكر يا أخي حين جلس مرة يحك ساقيه وكان قد رفع أسفل ثوبه . . . لقد همست لي أنه لو كانت لك ساقان معوجتان شأن ماغنوس كيتيلسون لأصبحت كاهناً مثله وارتديت دائماً مسوحاً طويلاً . . ."

ابتسم سايمون . . . بدا له أنه رأى فوراً وجه أخيه الطفولي ، وهو ينفجر

بالضحكة المخنوقة وبعينين مثيرتين للشفقة .كانا لا يزالان صغيرين بعد ، وكانت يد سيرا ماغنوس قاسية حين كانت تؤدبهما . . .

لم يكن غيرد لامعاً جداً حين كانا طفلين بعد . أجل ، ولم يكن يحب غيرد الآن لأنه كان رجلاً حكيماً قبل كل شيء . ولكنه أحس بالدفء ، امتناناً وحناناً نحو أخيه وهو جالس هناك . . . ولأجل كل يوم من الأخوّة التي قاربت الأربعين سنة من عمرها . . . فقد كان غيرد ـ حتى كما هو الآن ـ أكثر الرجال طهراً وصدقاً .

•

لقد بدا له أن عودة أخيه غيرد إليه تجعله يبدو وكأنه رسخ قدميه جيداً . وقد كانت حياته منذ أمد طويل شديدة الاختلاط والتعقيد على نحو مؤسف .

أحس بشعاع دافئ في كل مرة فكر فيها بغيرد ، الذي جاء إليه ليوصل ما قطعه هو بيده حين غادر ضيعة أخيه غاضباً وبكلمات غير لائقة . فاض قلبه بالامتنان . . . كان هناك آخرون عليه أن يشكرهم إلى جانب غيرد .

كيف كان من شأن رجل كلافرانس أن يتصرف في مثل هذا الوقت أمر يعرفه جيداً . كان سيسير على خطا حميه بقدر ما يستطيع . . . بدفع الصدقات وما شابه . هذه الأمور مثل القلب الكسير والنادم وعبادة جراح الرب كانت بعيدة المنال ، ما لم يحدق بعينيه إلى الصليب . . . ولم يكن هذا ما عاناه لافرانس . لم يستطع أن يبكي أكثر من مرتين أو ثلاث ربما منذ أن ودع الطفولة . . . وكان ذلك حين دعت الحاجة الماسة إلى البكاء . . . تلك المرات التي وقع فيها في خطايا كبيرة . . . مع أم أرنغييرد وهو رجل متزوج ، ثم قتله ذلك الرجل قبل عام . ومع ذلك فقد ندم كثيراً . . . لقد بدا له أنه قد ندم على خطاياه من كل قلبه في كل الأوقات ، واعترف بها بالكامل ودفع الكفارة حسب طلب الكاهن . كان يتلو صلواته بنشاط ويعطي العشر وصدقات كثيرة . . . وخاصة على شرف القديس سمعان الرسول والقديس أولاف والقديس ميكائيل ومريم العذراء . وخلاف ذلك كان مقتنعاً بما يقوله سيرا آيريك ، إن في الصليب وحده يكمن الخلاص ، أما

كيف يمكن لأي شخص أن يقابل العدو ويحاربه فهو أمر بيد الرب وليس بيده هو .

ولكنه أحس الآن بنفسه وقد أصبح مضطراً إلى إظهار امتنانه العميق بحماسة أكثر لكل القديسين . لقد ولد في يوم "مولد العذراء" ، هكذا قالت أمه . . . وقد خطر له أن يسدد دينه لأم الرب بصلاة لم يكن معتاداً على تلاوتها يومياً . لقد دوّن صلاة ورعة ، حين كان في بلاط الملك والآن راح يبحث عن اللفافة الصغيرة .

كان يخشى بالفعل ، وهو يفكر بالأمر الآن ، أنه كان قد حصل على مثل هذه اللفافات الصغيرة المدون عليها الصلوات وتعلمها عن ظهر قلب إرضاءً للملك هاكون وليس للرب ومريم العذراء ، وذلك حين كان بين حرس الملك . وقد فعل ذلك كل الشبان ، فقد كان من عادة الملك أن يسأل وصفاءه عما كانوا يعرفونه من تلك المعارف المفيدة ، وذلك حين كان يستلقي في سريره في تلك الليالي ولا يستطيع النوم .

أوه ، أجل . . . كان ذلك منذ زمن طويل مضى . كانت حجرة نوم الملك في القاعة الحجرية من القلعة الملكية في أوسلو . وعلى المائدة الصغيرة قرب السرير كانت تقف شمعة واحدة موقدة . . . كان نورها يسقط فوق الوجه دقيق الملامح الشاحب العجوز الذي كان مسنداً إلى الوسائد الحريرية الحمراء . وحين كان الكاهن ينهي تلاوته ويرحل ، كان الملك نفسه يحمل الكتاب غالباً ويقرأ بينما المجلد الثقيل مسند إلى ركبتيه المرفوعتين . كان الوصفاء يجلسون على كراس واطئة قرب المدفأة الحجرية الكبيرة . . . كان هو بنفسه يسهر الليل دائماً مع غونستاين إنغاسون . كان الجو لطيفاً في الحجرة . . .فقد كانت النار تشتعل نقية وحارة دون دخان ، فتبدو الغرفة شديدة الدفء والحميمية بسقفها المائل وجدرانها المغطاة دائماً بالنسيج المطرز . ولكنهما كانا يصابان بالنعاس وهما جالسان هناك على هذا النحو . . . أولاً يسمعان الكاهن يقرأ ثم ينتظران الملك لينام . لم يكن

الملك ينام قبل منتصف الليل . وحين كان ينام كان يؤذن لهما أن يتناوبا الرقابة ، وأن يستريحا فيما بين نوباتهما على المقعد بين المدفأة وباب قاعة المجلس . لذلك كانا يجلسان وينتظران منه أن ينام وهما يبتلعان تثاؤباتهما .

وقد يحدث أن يبدأ الملك بمحادثتهما – لم يكن ذلك يحدث غالباً – ولكنه حين كان يفعل ذلك فقد كان شديد اللطف والكياسة أو كان يقرأ بصوت مرتفع من كتاب قولاً مأثوراً أو بعض المقاطع الشعرية التي كان يظنها قد تفيد الشابين أو تنفعهما .

في إحدى الليالي أيقظه الملك هاكون وهو يناديه . . .كان الظلام دامساً ، فقد كانت الشمعة قد انطفأت . أحس بالخجل إلى حد البؤس ، وحاول أن ينفخ الجمر ليتوقد مجدداً ، ثم أشعل شمعة جديدة . كان الملك يستلقي وهو يبتسم بمكر :

"هل يشخر غونستاين هذا دائماً على هذا النحو المخيف ؟"

"أجل يا سيدي !"

"هل تشاركه السرير في المنزل أيضاً ؟" أعتقد أنه لأمر منطقي أن تطالب برفيق سرير أقل ضجيجاً في نومه ."

" أشكر سيدي الكريم . . .و لكنني لا أنزعج من الأمر يا سيدي الملك ."

" ولكن لابدّ أنك تستيقظ يا سايمون حين يقصف هذا الرعد في أذنك مباشرة . . . أليس كذلك ؟"

"أجل يا جلالة الملك ، ولكن كل ما عليّ فعله هو أن أدفعه ثم أقلبه إلى جانب آخر ."

ضحك الملك .

" أتساءل إن لم تكونوا أنتم الشبان قادرين على الفهم بأن هذه الشهية للنوم هبة عظيمة من الرب . حين ستصل إلى سني يا صديقي سايمون ، ربما ستتذكر على الأرجح كلماتي . . ."

كان ذلك أمراً قديماً جداً . . . ومع ذلك فقد كان واضحاً . لم يكن يبدو أن الرجل الجالس هنا هو ذلك الوصيف الشاب . . .

●

في أحد الأيام مع بداية أيام الأحد الأربعة السابقة على عيد الميلاد وكانت كريستين لوحدها تقريباً في الضيعة - فقد ذهب أبناؤها لإحضار الحطب والطحالب - تعجبت إذ رأت سايمون دار وهو يدخل باحة منزلها . كانت مهمته أن يدعوها هي وأبناؤها إلى وليمة في فورمو في عيد الميلاد .

"لاشك أنك تعرف يا سايمون أننا لا نستطيع أن نكون أصدقاء مثلما كنا دائماً ، في قلوبنا ، أنت ورامبورغ وأنا ، ولكنك تعرف جيداً أن الأمر ليس في يدنا دائماً أن نفعل ما نريد ."

"لا يمكنك أن تعني أنك ستغالين في هذا الأمر إلى حد عدم الحضور لمساعدة أختك هي في حالة المخاض ؟"

تمنت له كريستين أن تسير الأمور بخير وأن تنتهي نهاية سعيدة لها كليهما . "و لكني لا أستطيع أن أعدك وعداً قاطعاً بالقدوم ."

قال سايمون بقوة : " سيعتقد الناس جميعاً أن هذا الأمر غريب . فأنت مشهورة كونك أفضل القابلات . . . وهي أختك . . . وأنتما الاثنتان سيدتان لأكبر ضيعتين في هذا الريف الشمالي ."

"لم يولد أطفال كثيرون في الضياع الكبيرة هنا في هذه السنوات الأخيرة ، وحتى أنني لم أتوسل القدوم . لم يعد الأمر يا سايمون كما كان سابقاً ، أي ألاّ يعتبر أن الولادة تمت على النحو الملائم في غرفة المخاض إن لم تكن سيدة يورروندغارد موجودة هناك ." لاحظت أنه كان شديد الخيبة من كلماتها ، فتابعت قائلة : "بلغ تحياتي لرامبورغ وقل لها إني سأحضر لمساعدتها عندما يحين أوانها . . . ولكني لا أستطيع الحضور إلى وليمتكم الخاصة بعيد الميلاد ، يا سايمون" .

ولكنها قابلت في اليوم الثامن بعد عيد الميلاد سايمون قادماً إلى القداس دون

رامبورغ . كلا إنها في حال جيدة كما قال . ولكن الأفضل لها أن تستريح وتستجمع قوتها ، فغداً كان هو مسافراً إلى دايفرين جنوباً معها ومع الأولاد . . . فالطرقات جيدة جداً للسفر على الزلاجات . لقد توسل غيرد إليهم أن يحضروا ، ورامبورغ راغبة في الذهاب ، عجباً . . .

-٤-

بعد قداس بولص انطلق سايمون دار شمالاً عبر "ميوس" مع خادمين في رفقته . كان هناك جليد قاس ولكنه اعتبر أنه لن يكون قادراً على الابتعاد عن بيته لفترة أطول . وكانت الزلاجات وعليها النساء ستأتي لاحقاً ، ما أن تخف حدة الصقيع .

في "هامار" قابل صديقاً له اسمه فيغلايك بالسون أوف فاغابرغ ، وسافرا معاً . وحين وصلا إلى "هامار الصغيرة" استراحا مدة من الزمن في مزرعة حيث توجد حانة للجعة . وبينما هما جالسان يحتسيان الشراب تشاجر بائعا فراء متجولان ثملان وبدأا بتبادل الكلمات . وأخيراً نهض سايمون واندفع بينهما وفرقهما ، ولكنه خلال ذلك تلقى طعنة خنجر في زنده الأيمن . كان أكثر من مجرد خدش فلم يهتم به ، ولكن صاحبة الحانة ربطت له ذراعه بقطعة قماش .

سافر باتجاه بيته مع فيغلايك ، ونام تلك الليلة في منزله . وقد نام الرجلان في سرير واحد ، وعند الصباح استيقظ سايمون على الرجل الآخر وهو يصرخ في نومه . نادى فيغلايك باسمه مرات عديدة . لذلك أيقظه سايمون وسأله بالأمر .

لم يستطع فيغلايك تذكر حلمه جيداً . "ولكنه كان حلماً بشعاً ، وكنت

أنت فيه . هناك شيء واحد أتذكره . . . كان سايمون رايدرسون واقفاً هنا في الغرفة وطلب منك أن تذهب معه . . . وقد رأيته بوضوح شديد حتى أني ميّزت النمش على وجهه ."

"أتمنى لو تبيعني ذلك الحلم" ، قال سايمون بلهجة نصفها مزاح ونصفها جدّ . لقد كان سايمون ابن عمه وكانا صديقين حميمين في طفولتهما . وقد مات ابن العم هذا وهو في الثالثة عشرة من عمره أو نحوها .

في الصباح حين كان الرجال جالسين لتناول الفطور ، رأى فيغلايك أن سايمون قد ترك الكم الأيمن لسترته دون أن يزرره عند الرسغ . كان اللحم أحمر متورماً حتى قفا يده . وقد نبّهه إلى ذلك فضحك سايمون . وحين توسل إليه صديقه بعد وهلة أن يبقى في البيت بضعة أيام ـ وأن ينتظر زوجته هناك ـ لم يستطع فيغلايك أن ينسى حلمه ـ أجاب سايمون أندرسون بعناد : "لا شك أنك لم تحلم حلماً سيئاً عني يا فيغلايك فرأيتني أبقى في السرير بسبب لدغة بقة . . . ؟"

عند الغروب انطلق سايمون وخدمه إلى بحيرة لوسنا في طقس جميل . كانت الجبال العالية الزرقاء والبيضاء قد أصبحت ذهبية وقرنفلية تحت نور المساء ، ولكن الغابات المغطاة بالصقيع على امتداد النهر كانت تبدو رمادية مشعثة في الظل . كان مع الرجال جياد ممتازة وقد انطلقوا بسرعة عبر البحيرة الطويلة . . . وقد راحت قطع صغيرة من الجليد تتطاير وترنّ تحت حوافر الجياد . كانت ريح قارصة تهب عليهم . أحس سايمون ببرد شديد . . . ولكن سرعان ما أصبحت هبات غريبة مثيرة للغثيان من الحرارة تتخلل جسده ، رغم البرد . . . ثم راحت موجات باردة تتغلغل في نقي عموده الفقري . أحياناً كان يشعر بلسانه يتورم ويصبح سميكاً على نحو غريب في حلقه . وقبل أن يعبروا البحيرة كان عليه أن يتوقف ويطلب من أحد رجاله أن يثبت عباءته ليعلق منها ذراعه اليمنى .

كان الرجال قد سمعوا فيغلايك بالسون يتحدث عن ذلك الحلم . والآن طلبوا من سيدهم أن يريهم الجرح . ولكن سايمون قال إنه لا شيء ، ولكنه يؤلمه قليلاً : "أعتقد أني سأصبح أعسر بضعة أيام" .

ولكن مع تقدم المساء . . . كان القمر قد برز في السماء وكانوا يصعدون الحواف شمال البحيرة . . . أحس سايمون أن ذراعه ستكون مزعجة له على أي حال . كانت تؤلمه حتى الإبط . كانت الحركة فوق ظهر الحصان مؤلمة جداً . . . كان الدم ينبض وينبض في الذراع المصابة . كما كان رأسه يؤلمه من مؤخر العنق ونحو الأعلى . راح تنتابه نوبات من السخونة والبرودة .

كان الطريق الشتائي يصعد عالياً جانب الجبل هنا ، وأحياناً عبر غابات أو عبر أراض زراعية . شاهد سايمون ذلك كله . . . راح البدر يبحر فضياً لامعاً في السماء الزرقاء الشاحبة . لقد دفع بكل النجوم بعيداً عن طريقه . كانت نجمة واحدة أو اثنتان كبيرتان قد تجرأتا على الظهور في السماء . التمعت الحقول البيضاء وأومضت . كانت الظلال قصيرة وحادة فوق الثلج . . .داخل الغابات كان النور يشكل بقعاً وخطوطاً بين أشجار التنوب المحملة بالثلج . رأى سايمون هذا كله . . .

و لكنه في الوقت نفسه رأى بمنتهى الوضوح تحت نور الشمس في أوائل الربيع ، حقلاً من العشب المنعقد الرمادي البني . كانت بعض أشجار التنوب معوقة النمو قد اندفعت بارزة هنا وهناك في الجوانب ، وراحت تلتمع كالمخمل الأخضر تحت الشمس . لقد عرف ذلك مجدداً . كان حقل البيت في دايفرين . كانت جذوع أشجار جار الماء في الغابات خلف الحقل تنتصب رمادية لامعة كما في الربيع ، وكانت قممها بنية من البراعم . . . وخلفها كانت تقبع جبال راوماريكه لامعة زرقاء لا تزال مبقعة بالثلوج . كانوا في طريقهم نحو غابة جار الماء ، سايمون رايدارسون وهو . كان معهما عدة الصيد والرماح المدببة . . . كانا

متجهين نحو البحيرة ذات اللون الرمادي الداكن من الجليد المتعفن ليصطادا في الماء المكشوف عند نهاية البحيرة . . . كان ابن عمه الميت يمشي إلى جانبه : شاهد شعر رفيقه الأجعد وقد اندفع غزيراً من تحت قبعته ، أحمر اللون تحت نور شمس الربيع . كان قادراً على عدّ كل نمشة على وجه الصبي . مط سايمون الآخر شفته السفلى وصفّر حين اعتبر أن حديث سميّه كان حماقة . قفزا من فوق برك المياه ، ومن رابية صغيرة إلى أخرى عبر ماء الثلج المنساح في الأرض المعشبة . كانت هنا طحالب نمت في القاع وكانت تزبد وتعطي لوناً أخضر جميلاً تحت الماء .

رغم أن حواسه كانت متيقظة . . . ورغم أنه شاهد طوال الوقت الممر الخاص بالجياد صعوداً ونزولاً في الجبل ، عبر الغابة ، والمزارع البيضاء تحت نور الشمس المتوهج . . . رأى المنازل تحت أسقف غطاها الثلج وهي تعطي ظلالاً عبر الحقول ، رأى حزام الضباب فوق النهر في قعر الوادي . . . وعرف أن "يون" هو الذي كان خلفهم بالضبط وأنه أسرع بحصانه إلى جانبه حين خرجا إلى فسحة مفتوحة . . . ولكنه وجد نفسه أكثر من مرة ينادي الرجل بسايمون . كان يعرف أن ذلك خطأ ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من فعل ذلك ، رغم أنه رأى أن رجاله بدأوا يصابون بالخوف .

قال ما أن أصبح ذهنه أكثر صفاء : "علينا أن نصل حتى منزل الرهبان في روالدستاد في هذه الليلة أيها الرجال" .

توسل الرجلان إليه . . . عليهم بالأحرى أن يجدوا مأوى بأسرع وقت ممكن . وقد ذكروا أقرب منزل لكاهن . ولكن السيد أصرّ على رأيه .

"سيكون صعباً على الجياد يا سايمون . . ." نظر الخادمان أحدهما إلى الآخر .

ولكن سايمون ضحك قليلاً . عليهم أن يتحملوا ذلك ولو مرة واحدة . فكر

في الأميال المتعبة . راح الألم يتغلغل في كل جسده مع كل حركة في السرج . ولكن عليه أن يصل إلى البيت وسيفعل ذلك . فقد أدرك الآن أن مصيره كان محتوماً . . .

ورغم أنه تجمد حتى نقي العظام في الليل الشتوي ثم أحرقته الحمى بالتناوب ، ولكنه كان طوال الوقت يحس بشمس الربيع اللطيفة في المرعى في البيت ، وبالصبي الميت . وتابع السير نحو أجمة أشجار الماء . خلال لحظات قصيرة كانت الرؤيا تذوب مبتعدة ، وتصبح رأسه صافية . . . إلاّ أنها كانت تؤلمه بشدة . توسل إلى أحد الرجلين أن يقص له الكم فوق الذراع التي كانت تؤلمه وقد شحب وراح العرق يتصبب فوق وجهه بينما راح يون دالك يمزق بعناية السترة والقميص من الكم إلى الكتف ، هو يمسك باليد اليسرى الذراع المتورمة . خفف هذا من الألم قليلاً .

بعد ذلك بدأ الرجلان يتكلمان . . . عند روالدستاد يجب أن يرسلوا خبراً نحو الجنوب إلى دايفرين . ولكن سايمون رفض ذلك . فهو لن يقلق زوجته بمثل هذا الخبر حين تكون الرحلة - على الأرجح - فوق مزلجة في مثل هذا الطقس البارد ضارة بها . ربما حين يصلون إلى فورمو ، سيرى ما سيفعل . حاول أن يبتسم لسيغورد ليرفع معنويات الشاب . . . بدا عليه الخوف والبؤس .

"ولكن عليكما أن ترسلا خبراً إلى كريستين في يوروندغارد ما أن نصل إلى البيت . . . إنها حكيمة ماهرة" . أحس بلسانه سميكاً وقاسياً كالخشب وهو يقول ذلك .

قبليني يا كريستين يا خطيبتي ! أولاً ستظن أن كلامه هلوسة . لا يا كريستين . وعندها ستتعجب .

لقد رآها إرلند . لقد رأتها رامبورغ . أما كريستين فكانت جالسة هناك منهمكة بمشاغلها وغضبها . . . كانت شديدة الغضب والمرارة من ذلك الرجل

إرلند . . . فهي لم تكن مهتمة سوى به الآن . أنت لا تهتمين بي قط يا كريستين يا حبيبتي ، حتى أنك تعتبرين أنه أمر مزعج أن يكون خطيبك السابق صهرك الآن .

في الحقيقة لم يكن هو نفسه قد عرف ذلك ، في تلك المرة حين ودّعها خارج باب الدير في أوسلو . . . أنه سيستمر في التفكير بها على هذا النحو . وأنه سيبدو له في النهاية أنه لم يفعل شيئاً في هذه الحياة بما أنه لم يستطع التعويض بالكامل عما فقده آنذاك . مقابل الفتاة التي كانت مخطوبة لي في شبابي .

عليها أن تسمع ذلك قبل أن يموت . عليها أن تمنحه قبلة واحدة . . .

أنا الذي أحبك ولا يزال يحبك . . .

سمع هذه الكلمات ذات مرة ولم يكن قادراً قط على نسيانها . كانت من كتاب معجزات مريم العذراء وكانت حكاية عن راهبة هربت من ديرها مع فارس . وقد أنقذت مريم العذراء هذين الاثنين في النهاية وغفرت لهما خطيئتهما . لو كان إثماً أن يقول ذلك لأخت زوجته قبل أن يموت ، فإن أم الرب ستغفر له هذا أيضاً . . . لم يكن شديد الإلحاح عليها في الغالب . . .

لم أصدق ذلك بنفسي تلك المرة . . .بأني لن أكون ثانية سعيداً أو مرحاً عن حق . . .

"كلا يا سايمون ، كان الأمر صعباً جداً على سوكا أن تتحملنا كلينا . . . طالما كان عليها أن تسافر هذه الليلة" ، قال هذا للشخص الذي كان خلفه على حصانه ويسنده . "أجل . . .أرى أن هذا هو أنت يا سيغورد ولكني حسبتك شخصاً آخر . . ."

•

عند الصباح كانوا قد وصلوا إلى منزل الحجاج وأخذ الراهبان المكلفان بالعناية بالمكان الرجل المريض للعناية به ولكن خلال عنايتهما به تحسّن نوعاً ما

وخفت هلوساته المحمومة ، وأصر سايمون على أن يستعير مزلجة ليتابع الطريق شمالاً .

كان السفر جيداً وقد بدلوا الأحصنة على الطريق وسافروا طوال الليل ووصلوا إلى فورمو في صباح اليوم التالي عند الفجر . كان سايمون قد استلقى وأغفى تحت أغطية كثيرة مُدت فوقه . وقد أحس بها ثقيلة فوقه وكأن شيئاً كان يسحقه تحت ألواح حجرية ضخمة . . . كما كانت رأسه تؤلمه أيضاً . بين الحين والآخر كان يبدو له أنه يفقد نفسه . ثم بدأت الآلام تعصف به مجدداً . . . كأنما كان جسده يغلي ويغلي ويصبح هائل الحجم ، ويكاد يتفجر إلى قطع صغيرة . كانت ذراعه تنبض وتنبض . . .

حاول أن ينزل من المزلجة ويمشي على قدميه . . . وذراعه السليمة فوق كتف يون . جاء سيغورد من الخلف ليسنده . كان سايمون مدركاً أن وجهي الرجلين كانا رماديين ونحيلين من التعب . . . فقد كانا قد أمضيا ليلتين كاملتين على ظهور الجياد . كان سيقول شيئاً وسقط إلى الأمام نحو الغرفة . . . كان الألم فظيعا حيث أن ذراعه المتورمة عديمة الشكل قد ضربت بشيء ما . نزّ العرق منه بشدة وهو يحاول أن يخنق الأنّات التي صدرت عنه وهما يخلعان عنه ملابسه ويساعدانه على دخول السرير .

•

بعد ذلك بوقت ليس بالطويل رأى كريستين لافرانسداتر واقفة قرب الموقد وهي تدق شيئاً في وعاء خشبي بواسطة يد الهاون . كان الصوت يدق في رأسه ! صبت شيئاً ما من قدر صغيرة إلى كأس كبيرة ، ونقطت نقطاً فيه من دورق زجاجي أخرجته من حقيبتها . . . أفرغت المادة المسحوقة من الوعاء إلى القدر ووضعتها على النار . كم تبدو هادئة وماهرة في حركتها . . .!

والآن اقتربت من السرير حاملة الكأس الكبيرة بيدها . كانت تسير بخفة شديدة . كان قوامها مشدوداً وجميلاً كما كانت وهي بعد فتاة ، ربة البيت الرشيقة هذه ذات الوجه النحيل الجدي تحت غطاء الرأس الكتاني . كان يتألم ، فقد تورم مؤخر عنقه أيضاً ، حين مررت ذراعها تحت رأسه ورفعته قليلاً . أسندت رأسه على صدرها وهي تقرب الكأس من فمه بيدها اليسرى .

ابتسم سايمون قليلاً ، وحين أفلتت له رأسه بحذر أسنده مجدداً على الوسائد ، وأمسك يدها بيده السليمة . لم تكن طرية أو بيضاء بعد الآن ، يد المرأة النحيلة الجميلة تلك .

"أصابعك هذه لم تعد ملائمة لخياطة الحرير الآن على ما أعتقد" ، قال سايمون "ولكنها جيدة وخفيفة . . . باردة على نحو مبارك هي يدك يا كريستين !" وضعها على جبينه . وقفت كريستين على هذا النحو حتى أحست بكف يدها يدفأ ، ثم أبعدتها وضغطت بيدها الأخرى بلطف على جبينه الملتهب . . . تحت جذور الشعر .

قالت : " ذراعك قبيحة يا سايمون . ولكن بعون الله أعتقد أنها ستشفى" .

"أخشى يا كريستين أنك لن تستطيعي شفائي رغم أنك حكيمة ماهرة" ، قال سايمون . ولكنه بدا مرحاً تقريباً . كان الشراب قد بدأ يفعل فعله . أحس أن الآلام تخف . ولكن كان هناك إحساس غريب في عينه وكأن لا يستطيع توجيهها . . . بدا له أنه مستلق هناك وعيناه محولتان كل واحدة إلى جانب .

قال كما من قبل : "ستجري الأمور كما هو مقدر عليّ"

عادت كريستين إلى قدورها . . . دهنت عجينة على قطعة قماش كتاني ووضعت الضمادة الساخنة على ذراعه بدءاً من أنامله وحتى ظهره وصدره ، حيث كان الورم منتشراً من إبطه في خطوط حمراء . في البداية آلمه ذلك كثيراً ، ولكن سرعان ما أحس بالراحة . لفت كل هذا بالصوف ووضعت وسائد طرية

تحت ذراعه . سألها سايمون ما الذي وضعته على الضمادات .

"أوه ، إنها أشياء كثيرة معظمها من لحية التيس وبقلة الخطاطيف" ، قالت كريستين . لو كنا في الصيف لاستطعت أن اقطفها طازجة من حديقة أعشابي الطبية - ولكن لديّ الكثير والحمد لله - لم أكن في حاجة إليها هذا الشتاء حتى الآن ."

"ما الذي قلته ذات مرة عن بقلة الخطاطيف . . . لقد سمعتِ بذلك من رئيسة الدير حين كنتِ هناك في الدير . . . إنه أمر يخص اسمها . . ."

"هل تعني أن لها اسماً يعني "براعم السنونو" في كل اللغات . . . من بحر اليونان إلى هنا في بلاد الشمال ؟"

"أجل . . . لأنها تزهر في كل البلاد حين تستيقظ طيور السنونو من سباتها الشتوي ." اغلق سايمون شفتيه قليلاً . عندما سيحين ذلك الوقت (الربيع) سيكون هو قد دفن منذ زمن طويل تحت التراب .

قال : "أريد أن يكون مثواي عند الكنيسة هنا ، لو متّ الآن يا كريستين . الآن أنا غني إلى حد أن اندرس سيكون في موقع قوة هنا في المستقبل . أتساءل كثيراً إن كانت رامبورغ ستنجب ابناً في الربيع بعد رحيلي . . . كنت أتمنى أن أعيش حتى أرى لي ابنين في منزلي . . ."

قالت كريستين أنها أرسلت خبراً إلى الجنوب نحو دايفرين عن أنه مريض جداً . لقد.انطلق غاوته هذا الصباح إلى هناك .

"لم ترسلي ذلك الطفل على ذلك الطريق لوحده؟" سأل سايمون منزعجاً .

أجابت أنه لم يكن لديها شخص آخر قادر على مجاراة غاوته على متن "راودن" . قال سايمون إنها ستكون سفرة متعبة لرامبورغ . . . ليت أنها لا تسافر على نحو أسرع مما هو ملائم لها . "ولكنني أتمنى أن أرى أولادي مرة أخرى" . . .

بعد فترة بدأ يتكلم مجدداً عن أولاده . تحدث عن آرنغييرد . . . هل أخطأ يا

ترى إذ رفض العرض الذي قدمه له أولئك الأشخاص في "أيكن" . ولكن بدا له الرجل عجوزاً . . . وكان يخشى من سمعة "غرونده" على أنه سريع الانفعال حين يشرب . كان يتمنى لو جعل آرنغييرد في وضع من الأمان الكامل . سيكون على غيرد وغودموند أن يجدا لها زوجاً الآن . "قولي لشقيقيّ يا كريستين . . . إني أرسلت إليهما تحياتي وطلبت منهما التروّي قي هذا الأمر . "هل لك أن تستضيفيها (آرنغييرد) هنا في يورونداغارد فترة من الزمن ؟ سأكون ممتناً لك من حيث أرقد . ولو تزوجت رامبورغ ثانية قبل أن تتم العناية بأمر آرنغييرد ، سيكون عليك أن تحضريها لتعيش معك يا كريستين . كلا ، ليس عليك أن تظني بأي شيء سوى أن رامبورغ كانت طيبة معها طوال الوقت . . . ولكن لو حدث وأصبح لها زوجة أب وأصبح لزوجة الأب زوج غير والد الفتاة فإني أخشى ألا تعامل إلاّ كخادمة . . . كنت زوجاً لهالفريد حين أصبحت أباً لها . . ."

وضعت كريستين يدها بلطف على يد سايمون ، ووعدته بأنها ستفعل ما بوسعها للفتاة . تذكرت كل ما كانت قد رأته . . . كانت الأحوال صعبة على الأطفال الذين يكون أبوهم من مقام رفيع ولكنهم ولدوا خارج إطار الزواج . أورم ومارغريت ، وأولف هالدورسون . . . ربتت ثم ربتت على يد سايمون .

"ولكن ليس أكيداً أنك ستموت هذه المرة يا صهري" ، قالت وهي تبتسم قليلاً . حتى الآن ـ وفي بعض الأحيان ـ كان يمر كظلّ شبح ابتسامة العذراء العذبة اللطيفة فوق الوجه النحيل القاسي للمرأة . يا كريستين الحلوة الشابة . . . !

●

انخفضت حمى سايمون هذا المساء وخفّت آلامه كما قال . وحين غيّرت كريستين الضمادات على ذراعه ، لم تكن متورمة! . كان اللحم أكثر طراوة وقد بقيت علامات أصابعها عليه حين ضغطت على ذراعه بحذر .

أرسلت كريستين الخدم إلى فراشهم . أما يون دالك الذي لم يقبل سوى

بالبقاء للسهر على سيده ، فقد تركته يستلقي على المقعد . كانت قد جرّت المقعد الصندوقي ذا الظهر المنحوت إلى قرب السرير ، وقد جلست هناك . وهي تتكئ في إحدى الزوايا . غلب النعاس سايمون فنام . . . ومرة حين استيقظ رأى أنها كانت قد أحضرت مغزلاً . جلست باستقامة . كانت قد أقحمت العصا التي لف عليها الصوف تحت ذراعها اليسرى ، وراحت أصابعها تلوي الغزل ، والعصا تغرق وتغرق على امتداد حضنها الطويل الرشيق . . . ثم لفت الخيط ولوته ثانية ، فغرقت العصا وغرقت . . . وقد غلبه النعاس وهو يراقبها . . .

حين استيقظ مجدداً عند الصباح ، كانت لا تزال جالسة هناك وهي تغزل . كان النور من الشمعة التي وضعتها بحيث تظلله ستارة السرير يسقط مباشرة على وجهها الذي كان شاحباً وهادئاً جداً . كان الفم الممتلئ الطري قد أصبح رقيق الشفتين ومغلقاً بشدة . جلست بعينين مسدلتين وهي تغزل . لم تستطع أن ترى أنه استيقظ وراح يحدق إليها تحت خيمة السرير . بدت حزينة جداً حتى أحس سايمون أن قلبه ينزف في داخله وهو مستلق هناك محدقاً إليها .

نهضت ومضت نحو النّار وفحصتها دون أي ضجيج ! حين عادت أطلت من وراء خيمة السرير . . . قابلت عينيه المفتوحتين . تنظران من العتمة .

"كيف حالك الآن يا سايمون ؟" سألته برقة .

"حالي حسنة الآن ."

ولكنه ظن أن هناك حساسية الآن تحت ذراعه اليسرى أيضاً وتحت ذقنه حين يحرك رأسه . أوه كلا إنه مجرد وهم على الأرجح . . .

. . .آه ، لاشك أنها لم تعتبر أنها خسرت شيئاً حين تخلت عن حبه . . . عليه أن يخبرها عن ذلك . كان من المستحيل أن يجعلها هذا أكثر حزناً . سيخبرها قبل أن يموت . . . مرة واحدة فحسب : لقد أحببتك كل هذه السنوات . . .

عادت الحمى مجدداً وكان هناك ألم في الذراع اليسرى .

"عليك أن تحاول النوم مجدداً يا سايمون . ربما ستشفى الآن بسرعة" قالت بصوت خفيض .

"لقد نمت كثيراً هذه الليلة" . بدأ يتحدث عن أولاده مجدداً . . . الثلاثة الذين لديه يحبهم كثيراً . . . وذاك الذي لم يولد بعد . ثم حل الصمت عليه . . .تناوشته الآلام مجدداً وبشدة . "نامي قليلاً يا كريستين فيون يستطيع أن يسهر لو كنت ترين ضرورة وجود من يبقى ساهراً للمراقبة ."

•

في الصباح حين رفعت الضمادات ، نظر سايمون بهدوء إلى وجهها البائس :

"آه ، كلا يا كريستين ، لقد سبق لتلك الذراع و حوت الكثير من القذارة والسموم . . . و كنت أتجمد من البرد أيضاً . . . قبل أن أصل إليك . الأمر كما قلت . . . لن تستطيعي شفائي . و لكن لا تكوني حزينة جداً لأجل ذلك يا كريستين ."

" لم يكن عليك أن تسافر كل تلك المسافة الطويلة" ، قالت بصوت ضعيف .

"لا أحد يعيش يوماً زيادة عن عمره المقدر له" ، أجاب سايمون كما من قبل .

"كنت مصمماً على العودة إلى البيت كما ترين . . . هناك بعض الأمور التي أريد التحدث عنها . . . كيفية ترتيب الأوضاع بعد رحيلي ."

ضحك قليلاً :

"كل النيران تنطفئ أخيراً" .

نظرت كريستين إليه بعينين لامعتين كالشاي . كان في فمه دائماً كلمة عابرة . نظرت إلى وجهه المبقع باللون الأحمر . كانت الوجنتان المليئتان والطيات

تحت الذقن تبدو وكأنها قد غارت . . . كأنما في طبقات عميقة . بدت عيناه باهتتين ولامعتين معاً . . . ثم صفتا مجدداً وعاد الفكر إليهما . نظر إليها نظرة ثابتة باحثة كانت غالباً في عينيه الصغيرتين الحادتين بلونهما الرمادي الفولاذي .

حين دخل نور النهار إلى الغرفة ، رأت كريستين أن وجه سايمون أصبح نحيلاً من حول الأنف . . . كان خط أبيض يجري على كل من جانبي زاويتي فمه .

ذهبت إلى النافذة الزجاجية الصغيرة ووقفت هناك و ابتلعت دموعها . كان الجليد السميك على النافذة يلتمع ويتلألأ بلون أخضر ذهبي .لا شك أن الطقس في الخارج كان طقساً شتائياً جميلاً كما كان طوال الأسبوع . . .

. . .كانت تلك علامة الموت كما كانت تعرف . . .

عادت ومرّرت يدها تحت غطاء السرير . . . كان متورماً من حول الكاحلين وحتى على امتداد الساقين .

قالت برقة : "هل تريد . . . هل تريد ان نرسل وراء سيرا آيريك الآن ؟"

أجاب سايمون : " أجل الليلة" .

عليه أن يقول ما عليه قوله "قبل" أن يعترف و يتناول القربان . بعدئذ عليه أن يحاول ويلتفت بأفكاره نحو أمر آخر .

قال سايمون : "أمر غريب أن تكوني أنت من سيكفّن جسدي . و لن أكون جثة جميلة على ما أخشى ."

خنقت كريستين بكاءها . مضت ثم جهزت شراباً ملطّفاً من جديد . ولكن سايمون قال :

"لا أحب هذه الشرابات خاصتك يا كريستين . . . تصبح أفكار المرء غير واضحة بعد أن يتناولها ."

ولكن بعد فترة توسل إليها أن تعطيه شيئاً منها . "ولكن لا تضعي الكثير من المادة المنومة فيها . عليّ أن أحدثك في أمر ما ."

شرب و بقي ينتظر أن تخف الآلام إلى حد يستطيع معه أن يحدثها بوضوح وهدوء .

"ألا تريد إحضار سيرا آيريك . . . حتى يحدثك بكلمات تجلب السلوان إليك ؟"

"أجل و بسرعة . ولكن هناك ما أريد أن أقوله لك أولاً" .

انتظر قليلاً ثم قال :

"قولي لإرلند نيكولاوسون إن الكلمات التي قلتها له حين افترقنا آخر مرة ، هذه الكلمات ندمت عليها كل يوم منذ ذلك الحين . لقد تصرفت على نحو خال من الرجولة والعقل مع عديلي في تلك الليلة . . . بلّغيه تحياتي وقولي له أن يغفر لي ."

جلست كريستين براس مطأطئة . . . رأت سايمون أن وجهها تضرج حتى الحاجبين .

سألها : "أستحملين هذه الرسالة لزوجك ؟"

أومأت برأسها قليلاً . ثم قال سايمون :

"إذا لم يحضر إرلند مأتمي فعليك أن تذهبي وراءه يا كريستين و تقولي له هذا ."

جلست كريستين صامتة ووجهها متضرج .

"لن تنكري هذا عليّ وأنا أتوسل إليك على سرير موتي ، أليس كذلك ؟" سألها سايمون أندرسون .

همست المرأة : " سأفعل ذلك" .

"ليس أمراً جيداً لأبنائك يا كريستين أن يكون هناك خصام بين أبيهم وأمهم" ، بدأ سايمون بالكلام مجدداً . "أتساءل إن كنت قد لاحظت كم يقلقهم

ذلك . من الصعب على الشبان الشجعان أن يعرفوا أن أبويهم قد أصبحا موضوعاً لإشاعات الأبرشية" .

أجابت كريستين بصوت خفيض قاس :

"لقد تخلّى إرلند عن أبنائنا . . . وليس أنا . أولاً فقد أولادنا نقطة ارتكازهم في الريف حيث ولدوا لأب ذي منصب وأراض متوارثة . ولو كانوا يعانون الآن لأن بيتهم في ديل ، بيتي ، قد أصبح موضوعاً لإشاعات الأبرشية . . . فلست أنا من فعل ذلك ."

صمت سايمون برهة ، ثم قال :

"لم أنس يا كريستين . . . الحق معك . . . فقد تصرف إرلند على نحو سيئ . ولكن عليك أن تتذكري أنه لو نجح مخططه ، فإن أبنائه كانوا الآن في وضع مريح وكان هو الآن بين أقوى فرسان هذه المملكة . من يفشل في مثل هذا المشروع يسمى بالخائن ولكنه لو كسب لتحدث الناس على نحو آخر . كانت نصف النرويج تفكر في إرلند في ذلك الحين . . . لقد كان أمراً سيئاً أن نشارك السويديين في ملك واحد وكنا سنجد في ابن كنوت بورس معدناً آخر غير هذا الملك الضعيف لو استطعنا أن نوصل الأمير هاكون إلى هنا في سنوات شبابه . كان كثيرون يؤيدون إرلند آنذاك و يشدون الحبل معه . . . ولكنهم أسقطوه وزحفوا ليختبئوا في ملاجئهم حين افتضح أمره . . . هكذا فعل أخواي و كثيرون ممن يسميهم الناس فرساناً صالحين ومرشحين صالحين لرتبة فارس . أما إرلند فقد سقط لوحده . . . وفي ذلك يا كريستين برهن زوجك على أنه شخص رجولي وجريء . . . بغض النظر عما فعله قبل ذلك ومنذ ذلك الحين . . ."

جلست كريستين هادئة وهي ترتجف .

"أعتقد يا كريستين أنه بسبب هذه المسألة فقد نطقت أنت بكلمات مريرة تجاه زوجك لذلك عليك أن تتراجعي عنها . تستطيعين أن تفعلي ذلك يا

كريستين . . . فقد وقفت إلى جانب إرلند بقوة . . . ولم تصغي إلى كلمة حق تقال عن معاملته لك ، حين كان يرتكب تصرّفات ما كنت أظن رجلاً شريفاً يفعلها ، ناهيك عن فارس نبيل المحتد وأحد رجال الحرس الملكي . . . أتذكرين حين داهمتكما في أوسلو ؟ و لكنك استطعت أن تغفري لإرلند آنئذ ومنذئذ . . ."

أجابت كريستين بصوت خفيض :

"لقد ربطت مصيري بهذا الرجل في ذلك الحين . . . ما كان سيحل بي لو أني افترقت عن إرلند في ذلك الحين ؟"

"انظري إلي يا كريستين ، وأجيبيني صراحة . لو أني ألححت على جعل أبيك يلتزم بعهده الذي منحه إلي . . . ولو اخترت أن أتزوجك حتى في الحالة التي كنت فيها . . . لو قلت لك إني لن أذكّرك أبداً بعارِكِ ، وإنما لن أتخلى عنك . . . ما كنت ستفعلينه آنئذ ؟"

"لا أعرف" .

ضحك سايمون ضحكة قاسية :

"لو أجبرتك على شرب جعة الزفاف معي . . . أعتقد أنك ما كنت ستأخذينني بين ذراعيك بملء إرادتك يا كريستين يا جميلتي . . ."

كان وجهها شاحباً الآن . جلست وهي تنظر إلى الأرض دون أن تجيب . ضحك كما من قبل :

"أعتقد أنك ما كنت سترحبين بلطف حين كنت سأصعد إلى سرير الزفاف إلى جانبك . . ."

"أعتقد أني كنت سآخذ خنجراً إلى السرير" ، قالت بهمسة نصف مخنوقة .

"سمعت أنك تعرفين القصيدة الغنائية لكنوت أوف بورغ" . . . ابتسم

سايمون بكآبة " إن حدوث مثل هذا الأمر بين أناس أحياء أمر لم أسمع به من قبل قط . ولكن الرب يعرف ما إذا كنت أنت ستفعلين ذلك !"

بعد برهة تكلم مجدداً :

"إنه لأمر غير وارد أيضاً بين المسيحيين أن يفترق الأزواج الشرعيون بملء إرادتهم ، كما فعلتِ . . . دون سبب شرعي وموافقة الأسقف . ألستما خجلين من ذلك - أنتما الاثنان ؟ لقد دست تحت قدمك وتخليت عن كل شيء حتى تتزوجيه . في ذلك الحين عندما كان إرلند مهدداً في حياته ، لم تفكري سوى بإنقاذه ، وهو كان يفكر فيك أكثر مما كان يفكر بأبنائه السبعة وسمعته وأملاكه . ولكن ما أن أتيح لكما أن تعودا الواحد إلى الآخر في سلام وأمان حتى رميتما بالاحتشام والسلام إلى الرياح . . وفي هوسابي أيضاً كنتما تتشاجران وتختلفان ، وقد رأيت ذلك بنفسي يا كريستين . . .

"أقول لك لأجل أبنائك ، إن عليك أن تصالحي زوجك . لو كنتِ على خطأ ، فإنه من الأسهل عليك أن تمدي يدك إلى إرلند" ، قال سايمون بلطف أشد .

ثم أردف :

"الأمر أسهل عليك مما هو على إرلند نيكولاوسون الجالس هناك في هاوغن في بؤس ."

همست : "ليس أمراً سهلاً عليّ . يبدو أني لا أستطيع فعل سوى القليل لأولادي . . . لقد كافحت وكافحت من أجلهم . . ."

قال سايمون : "الأمر على هذه الحال ." ثم سألها :"هل تذكرين ذلك اليوم الذي تقابلنا فيه على الطريق على الطريق قرب نيداروس ؟ كنت تجلسين على العشب وترضعين ناكفه . . ."

أومأت برأسها .

"هل كان بإمكانك أن تفعلي بالطفل الذي كان على صدرك ما فعلته أختي

بابنها . . . أن تتخلّي عنه إلى أشخاص أقدر على العناية به ؟"

هزت كريستين رأسها .

"ولكن أن تتوسلي إلى أبيه أن ينسى ما قلته له في لحظة غضب . . . ألا تعتقدين أنك قادرة على أن تفعلي هذا لأجله و لأجل ستة أبناء وسيمين علاوة على ذلك . . . أن تقولي لزوجك إنه من الضروري لأجل خاطر الشبان الصغار أن يعود إلى البيت ، إليهم وإلى ضيعته . . .؟"

قالت كريستين بصوت خفيض : "سوف أفعل ما تريد مني أن أفعله يا سايمون . الكلمات التي قلتها لي قاسية . و قبل الآن كنت قد قرّعتني أيضاً على نحو أقسى مما فعله أي شخص عادي . . ."

"أجل ، ولكنني أستطيع أن أعدك الآن أنها المرة الأخيرة" . . .اتخذ صوته تلك الرنة المغيظة المرحة التي عرفتها فيه في الأيام السالفة . "كلا لا تبكي يا كريستين . . . ولكن تذكري يا أختي أنك وعدت شخصاً محتضراً ." و مرة أخرى فإن الشعاع القديم الخبيث مرّ بعينيه :

"تعرفين جيداً يا كريستين . . . أنه كان لديّ قبل الآن سبب يدعوني إلى عدم الثقة الكاملة فيك !"

"اهدئي الآن يا عزيزتي" ، توسّل إليها بعد وهلة . كان يسمعها تبكي بكاء مراً متقطعاً . كوني على ثقة أني أتذكر انك كنت لنا أختاً صالحة ومخلصة . نحن صديقان في النهاية رغم كل شيء يا كريستيني . . ."

مع اقتراب المساء توسل إليهم أن يحضروا الكاهن إليه . وصل سيرا آيريك و أحلّه من خطاياه وناوله الزيت الأخير وقربان الموت . وقد استأذن من خدمه وأولاد إرلند ، الخمسة المتواجدين منهم ، كانت كريستين قد أرسلت ناكفه إلى "كروكه" . . . فقد كان سايمون قد توسل مشاهدة أبناء كريستين ليودّعهم .

في تلك الليلة سهرت كريستين على الرجل المحتضر . ومع اقتراب الصباح

نامت برهة . وقد أيقظها صوت غريب . . . كان سايمون يئنّ قليلاً برقة . وقد هزّها هذا إلى حد مخيف حين سمعته . . . أن يئنّ لنفسه بهدوء ومرارة كطفل فقير منبوذ ، فهو يظن أن لا أحد يسمعه . انحنت فوقه وقبّلته مرات عديدة على وجهه . كانت هناك رائحة مغثية مترعة بالموت قد سبق لها وبدأت تخرج من أنفاسه وجسده . ولكن مع ازدياد نور الصباح شاهدت أن عينيه كانتا حيتين وصافيتين وثابتتين كما كانتا أبداً .

كان يعاني من آلام مبرحة كما رأت ، و ذلك حين رفعه يون وسيغورد في ملاءة بينما قامت هي بترتيب السرير وجعله طرياً ومريحاً ما أمكن . لم يكن قد تناول أي طعام منذ يوم كامل ، و لكنه كان شديد الظمأ .

بعد أن أعادته إلى السرير توسل إليها أن ترسم إشارة الصليب عليه : "لا أستطيع تحريك حتى ذراعي اليسرى الآن" .

. . . ولكن حين نرسم إشارة الصليب على أنفسنا أو على أي شيء نريد حمايته ، عندها يجب أن نتذكر السبب في أن الصليب أصبح مقدساً و ما الذي يعنيه و أن نتذكر أنه بآلام و موت الرب أصبحت إشارة الصليب مبجلة وقوية . . .

تذكر سايمون أن هذا هو ما سمعه مرة يتلى بصوت مرتفع . لاشك أنه كان لا يرغب بالتفكير كثيراً حين كان يرسم إشارة الصليب على صدره ، أو يضع علامة الصليب على بيوته وأملاكه . . . أحست أنه غير مستعد و غير مهيأ بعد ليرحل عن بيته الدنيوي . عليه أن يواسي نفسه بالتفكير في أنه قد أعد نفسه بالاعتراف الأخير كأحسن ما يكون حالياً ، و أنه قد مُنح آخر الطقوس الدنيوية . رامبورغ . . .إنها لا تزال شابة ويمكنها أن تعيش حياة أسعد مع رجل آخر ربما . أولاده ، سيرعاهم الرب برحمته . . . وسوف يعتني غيرد بمصالحهم بإخلاص وحكمة . أما بالنسبة إلى البقية فعليه أن يضع ثقته بالرب الذي يحكم على الإنسان ليس حسب قيمته بل برحمته . . .

في وقت لاحق من اليوم وصلت سيغريد أندرسداتر وغيرموند أوف كروكه . عند ذلك طلب سايمون من كريستين أن تخرج لترتاح ، فقد سهرت عليه ورعته فترة طويلة . "وسرعان ما سيكون أمراً مزعجاً الاقتراب مني" ، قال لها وهو يبتسم قليلاً . عند هذا انفجرت كريستين في نحيب صاخب لم يدم طويلاً . . . ثم انحنت وقبلت الجسد البائس الذي كان قد سبق له وبدأ يتفسّخ .

بعد ذلك رقد سايمون هادئاً . كانت الحمى والآلام أقل حدة الآن . كان يستلقي مفكراً ، فالأمر لن يطول قبل أن ينال حريته .

تعجب هو نفسه من أنه خاطب كريستين كما فعل . لم يكن هذا ما أراد أن يقوله لها ولكنه لم يكن قادراً على النطق بغير ذلك . أحياناً كان يشعر بالغضب من ذلك .

و لكن الآن لا بد أن السم قد شق طريقة إلى الداخل نحو قلبه . قلب المرء هو أول شيء يتحرك في قلب الأم وآخر شيء يموت في داخله . ولكن قلبه هو كان سيصل إلى الراحة قريباً .

●

في المساء راح يتأمل وهو مضطجع . و قد أنّ عالياً أكثر من مرة ، وكان أمراً مخيفاً سماعه . ولكن في مرات أخرى كان يضحك برقة ويتلفظ باسمه ، كما ظنت كريستين . . . ولكن سيغريد التي جلست منحنية فوقه ، همست لها ، أنها تظن أنه يتحدث عن شاب ، عن ابن عمهما ، الذي كان صديقاً له في الطفولة . مع اقتراب منتصف الليل أصبح هادئاً وبدا كأنه قد نام . ثم ألحّت سيغريد على كريستين أن تضطجع قليلاً على السرير الآخر في الغرفة .

وقد أيقظتها ضجة في الغرفة- كان الوقت قبل الفجر بقليل - ثم سمعت أن آلام الاحتضار قد بدأت . لم يعد سايمون قادراً على الكلام ، ولكنه كان لا يزال يميّزها . استطاعت أن تعرف ذلك من عينيه . ثم بدا لها و كأن نابضاً قد انكسر

فيهما . لقد انقلبتا نحو الأعلى عند الجفنين . ولكنه بقي مع ذلك حياً مع خرخرة في حلقه . وصل الكاهن وتلا الصلوات على المحتضر . جلست المرأتان قرب السرير . دخل كل أهل المنزل إلى الغرفة . وأخيراً ، قبل منتصف النهار لفظ آخر أنفاسه .

في اليوم التالي وصل غيرد دار على جواده إلى باحة فورمو . كان قد كسر قائمة حصان على طريقه . عند برايدين ، كان قد سمع بوفاة أخيه ، لذلك كان الآن هادئاً بما فيه الكفاية في البداية . ولكن حين رمت أخته بنفسها وهي تبكي بين ذراعيه ، شدها إليه وبكى كطفل صغير .

قال لهم إن رامبورغ لافرانسداتر كانت طريحة الفراش في دايفرين بعد أن ولدت صبياً . وحين وصل غاوته إرلندسون بالرسالة ، صرخت عالياً على الفور أنها عرفت إنه في ذاك سيكون فيه موت سايمون . ثم سقطت على الأرض مغمى عليها . كان الطفل قد ولد قبل ميعاده بستة أسابيع ، ولكنهم كانوا يأملون أن يبقى على قيد الحياة .

أقيمت وليمة فخمة على روح سايمون أندرسون ودفن قريباً من الكورس في كنيسة القديس أولاف . سُرّ سكان الأبرشية أنه اختار مكان دفنه هناك . فقد كانت سلالة فورمو القديمة ، التي انقرضت من الناحية الذكورية مع سايمون سايموندسون ، سلالة قوية وشهمة . كانت أستريد سايمونسداتر قد تزوجت من شخص غني وقد حمل أبناؤها لقب فارس وكانوا ضمن مجلس الملك ، ولكنهم نادراً ما كانوا يزورون أراضي أمهم الإرثية . وحين قطن حفيدها لاحقاً في الضيعة ، اعتبر الناس كأن السلالة القديمة قد عادت إلى مقرها ثانية . وسرعان ما نسوا اعتبار سايمون أندرسون شخصاً غريباً ، و قد حزنوا كثيراً لأنه مات شاباً ، فقد كان في الثانية والأربعين من عمره فحسب .

- ٥ -

مضى الأسبوع في إثر الأسبوع وكريستين مستعدة في قلبها لتحمل إلى إرلند رسالة الرجل المتوفي . هي ستفعل ذلك بكل تأكيد و لكنها اعتبرت الأمر صعباً . وفي هذه الأثناء كان لديها الكثير لتفعله في البيت والضيعة ومن يوم إلى آخر راحت تؤجل الأمر بأعذار جديدة . . .

في وايتساندتايد عادت رامبورغ لافرانسداتر إلى فورمو . كانت قد تركت الأطفال في دايفرين في حال جيدة كما أجابت حين سألت كريستين عنهم . بكت الفتاتان أباهما بحرارة و حزنتا عليه حزناً جماً . أما أصغر الأبناء سايمون سايمونسون فكان في تحسّن ، و هناك أمل كبير في أن يكبر ليصبح قوياً ضخم الجسم .

زارت رامبورغ مرة أو اثنتين الكنيسة وقبر زوجها . ولكنها لم تتحرك من بيتها عدا ذلك . إلاّ أن كريستين كانت تذهب مراراً لزيارتها كلما استطاعت ذلك . كانت تتمنى الآن من كل قلبها لو أنها عرفت أختها الشابة على نحو أفضل . بدت الأرملة طفولية تقريباً في ثوب الحداد . . . إذ ظهر جسمها هشاً غير كامل النمو في الثوب الثقيل الأزرق الداكن . كان الوجه الصغير ذو الزوايا الثلاث يبدو شاحباً و نحيلاً بين الأحزمة الكتانية تحت المنديل الأسود الصوفي الذي ينزل في

طيات سميكة من قمة رأسها إلى حاشية تنورتها تقريباً . و كانت هناك دوائر سوداء تحيط بعينيها الواسعتين حيث كان بؤبؤا عينيها يبرزان كبيرين و سوداوين كالفحم .

مع أوان حصاد التبن حلّ أسبوع لم تستطع فيه كريستين أن ترى أختها . ومن الناس العاملين في جمع التبن سمعت بوجود ضيف لدى رامبورغ في فورمو . . . يامالت هالفاردسون . تذكرت كريستين أن سايمون كان قد تحدث عن هذا الرجل الذي كان يملك ضيعة عظيمة ليست بعيدة عن دايفرين ، وقد كان هو وسايمون صديقين منذ الطفولة .

بعد أسبوع من بدء الحصاد شرع المطر بالهطول . وقد نزلت كريستين إلى "ديل" لتزور أختها . جلست كريستين تتحدث عن الطقس غير الملائم وعن التبن وسألت عن الأوضاع في فورمو . . . فقالت لها رامبورغ فجأة :

"سيكون على يون أن يرعى هذه الأمور كلها . . . أنا مسافرة جنوباً بضعة أيام يا كريستين" .

"أجل يا للمسكينة ، أنت مشتاقة لأولادك كما أعتقد" ، قالت كريستين .

نهضت رامبورغ ومشت جيئة وذهاباً في الغرفة .

"ستسمعين شيئاً سيجعلك تتعجبين" قالت المرأة الشابة بعد قليل . "سرعان ما سوف تدعين أنت وأولادك إلى حفل خطوبة في دايفرين . لقد منحت يامالت موافقتي قبل مغادرته هذا المكان ، وسوف يقيم غيرد حفل خطوبتي" .

جلست كريستين صامتة . وقفت أختها بعينين سوداوين ووجه شاحب محدقة بثبات إلى أختها . وأخيراً قالت الكبرى :

"أرى إذن أن سايمون لم يتركك أرملة لفترة طويلة . . . كنت أظنك ستحزنين عليه بقوة . . . ولكن صحيح أنك سيدة نفسك الآن . . . "

لم تجب رامبورغ . ثم سألت كريستين بعد قليل :

" أيعرف غيرد دار أنك تنوين الزواج بهذه السرعة؟"

"أجل" . سارت رامبورغ جيئة وذهاباً من جديد . " لقد أشارت عليّ هيلغا بذلك . . . فيامالت رجل غني" . ضحكت . "أما غيرد فرجل واضح البصيرة . أعتقد أنه رأى منذ فترة طويلة كم كانت حياتنا معاً بائسة ، سايمون وأنا ."

صاحت كريستين : "ما هذا الذي تقولينه؟ لم يعرف أحد آخر بكل تأكيد أنكما كنتما تعيشان بتعاسة معاً . لا أعتقد أن هناك من رأى بينكما سوى الود والإرادة الطيبة . لقد منحك سايمون حريتك في كل الأمور ، منحك كل ما رغبت به وأبقى في ذهنك أنك صغيرة السن وكان حريصاً على أن تستمتعي بشبابك ، وأن يوفر عليك الجهد والمشقة . لقد أحب أولاده وأظهر لك يوماً بيوم امتنانه لأنك أنجبت له ذينك الولدين . . . "

ابتسمت رامبورغ باحتقار .

أجابت كريستين بقوة :

"أجل ، إن كان الأمر وما فيه أنك لا تستطيعين أن تجدي سبباً يدعوك إلى القول إنك كنت تعيشين معه ببؤس ، إذن فليس سايمون هو الملوم . . . "

قالت رامبورغ : "كلا ، سأتحمل اللوم أنا . . . إن لم تتجرئي أنت على تحمله" .

جلست كريستين مذهولة .

"أعتقد أنك لا تعرفين ما تقولينه يا أختي" ، قالت أخيراً .

أجابت رامبورغ : "أجل في الحقيقة . ولكني أعتقد تماماً أنك لا تعرفين . أنت لم تفكري كثيراً في سايمون لذلك أعتقد أن هذا أمر جديد عليك . لقد اعتبرته سنداً جيداً تطلبين معونته عند حاجتك إلى من يساعدك وكان هو مستعداً لحمل المكواة الحامية من أجلك . . . ولكن لم يخطر لك أن تفكري كم

كلف ذلك سايمون أندرسون . . . لقد تركت لأعيش شبابي بمرح ، أجل . . . لقد حملني سايمون بسعادة ولطف إلى السرج وأرسلني بعيداً عنه لأقوم بالزيارات والرحلات . وكان يستقبلني بسعادة ولطف حين أعود إلى البيت . . . كان يربت عليّ كما يربت على كلبه وحصانه . . . لم يكن يفتقدني أنّى ذهبت . . . "

كانت كريستين قد نهضت . . . وقفت قرب المائدة دون حراك . فركت رامبورغ يديها حتى طقطقت مفاصلها وهي تسير جيئة وذهاباً عبر الغرفة :

"يامالت . . ." ، قالت على نحو أهدأ نوعاً ما : "لقد عرفت منذ زمن طويل رأيه بي . وقد رأيت ذلك حتى حين كانت زوجته لا تزال على قيد الحياة . لم يرتكب أي خيانة في حق سايمون سواء بالكلام أو بالفعل . . . وصدقيني! لقد حزن على سايمون كثيراً . . . وجاء ليزورني المرة تلو الأخرى ليواسيني . . . هذا صحيح! ولكن هيلغا هي التي قالت لنا كلينا إنها تعتبر أن الأمر ملائم لو أننا . . .

" . . . ولا أعرف ما عليّ أن أنتظره . لن أكون أكثر راحة أو أقل راحة ممّا أنا عليه الآن . . . وأفكر في الوقت الحاضر أن أجرب الحياة مع رجل بقي صامتاً وفكر بي هذه السنوات الطويلة الطويلة . أعرف جيداً كيف يكون العيش مع شخص يبقى صامتاً ويفكر في شخص آخر . . . "

وقفت كريستين كما من قبل . توقفت رامبورغ أمامها بعينين لامعتين :

"تعرفين أن ما قلته صحيح!"

خرجت كريستين من الغرفة برأس مطأطئة . وبينما وقفت تحت المطر في الباحة تنتظر خادمها ليقود لها حصانها ، اقتربت رامبورغ من باب القاعة . . . حدقت إلى أختها الكبرى بعينين سوداوين عدائيتين .

●

لم تتذكر كريستين حتى اليوم التالي ما وعدت به سايمون إذا تزوجت رامبورغ مجدداً . لذلك ركبت إلى فورمو مرة أخرى . لم يَبْدُ لها الأمر سهلاً . وكان أسوأ ما في الأمر أنها كانت تعرف أنها لا تستطيع أن تقول أي شيء يمكنه أن يساعد أو يواسي أختها الشابة . بالنسبة إليها كان هذا الزواج من يامالت أوف آيلين سريعاً . . . ورامبورغ في تلك الحالة الذهنية التي هي عليها الآن . ولكن كريستين رأت أن ذلك لن يفيدها ذكره .

كانت رامبورغ كئيبة متذمرة ولم تجب على الأخرى إلا بالكاد . لم توافق إطلاقاً على أن تذهب ابنة زوجها إلى يورونداغارد . "ولا أعتقد أن الأمور شديدة الترتيب في ضيعتك إلى حد أنه سيكون من الممكن إرسال فتاة شابة إلى هناك ." أجابت كريستين برقة أن رامبورغ قد تكون على حق في ذاك . ولكنها وعدت سايمون بذلك . . .

"أجل ، وإن كان سايمون في هذيانه المحموم لم يفهم أن في طلبه هذا منك إهانة لي ، فأنت على الأقل يجب أن تعرفي أن في إبلاغي بذلك إهانة لي ." أجابت رامبورغ ، وكانت كريستين راغبة في العودة إلى منزلها بعد مهمتها غير المثمرة .

كان صباح اليوم التالي واعداً بطقس جميل . ولكن حين دخل أبناؤها لتناول وجبة الإفطار ، قالت كريستين إن عليهم أن يدخلوا التبن من دونها . فقد كانت ستنطلق في رحلة وربما ستغيب بضعة أيام . قالت : "أفكر في الذهاب شمالاً إلى دوفر إلى أبيكم" . أفكر في التوسل إليه أن ينسى المشاكل التي بيننا . . . ولأسأله متى سيعود إلى بيته وإلينا ."

تضرج وجه الأبناء . لم يتجرؤوا إلا بالكاد على رفع عيونهم ، ولكنها لاحظت جيداً كم كانوا سعداء . شدّت مونان إليها وقرّبت وجهها منه :

"أعتقد أنك لا تتذكر أباك إلا بالكاد يا صغيري؟"

أومأ الصبي برأسه صامتاً وبعينين لامعتين . ونظر الأبناء الواحد بعد الآخر إلى أمهم : كانت أكثر شباباً في الوجه وأجمل مما رأوها منذ سنوات كثيرة .

●

خرجت إلى الباحة بعد فترة قصيرة وقد ارتدت لأجل السفر ملابس الذهاب إلى الكنيسة : ثوب أسود صوفي مطرز بالأزرق والفضي من حول العنق والأكمام ، وعباءة سوداء بلا أكمام ولها قبعة ، فقد كان الوقت في عز الصيف . كان ناكفه وغاوته قد أسرجا جوادها لها وكذلك جواديهما . أرادا الذهاب مع أمهما ، ولم ترفض هي ذلك . ولكنها لم تحادث ابنيها وهم منطلقون شمالاً عبر الوادي وصعوداً إلى دوفر . في أغلب الأحيان كانت صامتة وفي حالة تأمل ، وإن تكلمت مع الشابين فكان ذلك عن أمور أخرى غير مهمتها .

حين وصلوا إلى مسافة يرون منها جانب الجبل وسقوف المنازل في هاوغن ، طلبت من الشابين العودة .

"تستطيعان أن تفهما جيداً أن أباكم وأنا لدينا الكثير لنقوله الواحد للآخر والأفضل أن نكون لوحدنا ."

أومأ الأخوان برأسيهما . ودّعا أمهما وعادا بجواديهما نحو البيت .

●

كانت الريح تهبّ من الجبال باردة ونقية على وجنتيها الحارتين وهي تصعد آخر تبة والشمس تشع بلون ذهبي على الأبنية الرمادية الصغيرة وترمي بظلال طويلة عبر الباحة . كان القمح هنا على وشك أن يُسَنْبِلَ . . . كان يظهر بشكل واضح في قطع الأرض الصغيرة ، وهو يومض ويتأرجح في الريح . فوق كل الأكوام الحجرية والتلال كانت أعشاب الخلاف قد أزهرت أزهاراً حمراء ، وفيما بينها كانت أكوام القش والتبن الصغيرة . ولكن في المزرعة لم يكن هناك شيء حي يمكن أن يُرى . . . ولا حتى كلب واحد تقدم ليعطي إنذاراً . أنزلت كريستين

السرج عن ظهر جوادها وقادته نحو جرن الماء . لم تكن راغبة في تركه حراً طليقاً هنا . . . لذلك قادته إلى الإسطبل . كانت الشمس تلتمع عبر ثقب كبير في السقف . . . وكانت عوارض السقف معلقة مهترئة من الأعمدة . لم تكن هناك علامة على أن أي حصان قد وقف هناك منذ زمن بعيد . اعتنت كريستين بحصانها ثم خرجت إلى الباحة ثانية .

نظرت إلى حظيرة البقر . كانت معتمة وفارغة . . . عرفت من رائحتها أنها مهجورة منذ زمن طويل .

كانت بعض جلود الحيوانات ممددة فوق جدار المنزل لتجف . . .وكان سرب من الذباب الأزرق يحوم فوقها ويطن وهي تقترب من الجدار . عند الجانب الشمالي من المنزل كانت التربة مكومة والخث منشور فوقها بحيث كانت الألواح الخشبية للمنزل مخفية تماماً . لقد فعل ذلك لأجل الدفء . . .

توقعت أن يكون المنزل مقفلاً ، ولكن الباب فتح حين وضعت يدها على المزلاج . لم يكن إرلند قد أوصد باب منزله حتى .

حين دخلت كان الهواء فاسداً إلى حد مزعج . . . كانت تلك رائحة الجلود المنتنة الفاسدة ورائحة إسطبل . كان أول شعور انتابها وهي واقفة هناك ضمن المنزل ندم وشفقة يحطمان القلب . بدا لها المسكن كأنه المأوى الشتوي لدبّ . . .

أوه أجل ، أجل ، أجل يا سايمون . . . كنت على حق!

كانت الغرفة صغيرة ، ولكنها كانت مزخرفة بعناية . وكانت ذات مرة جميلة . أما المدفأة فكانت لها مدخنة حجرية فوقها ، لذلك فهي لا تدخن ضمن الغرفة ، مثل المدفأة التي في مبنى القاعة في بيتها . ولكن حين حاول فتح الصمام لتهوية الغرفة من الهواء الفاسد ، شاهدت الأنبوب مسدوداً بألواح حجرية . كان اللوح الزجاجي للنافذة في الملحق مكسوراً ، وقد سدّ موضعه بقطع من القماش . كانت أرضية الغرفة من الخشب ولكنها مغطاة بطبقة سميكة من

القذارة حتى أن الألواح الخشبية ما كانت مرئية . فوق المقاعد لم تكن هناك وسادة واحدة إنما أسلحة وفراء وملابس قديمة مبعثرة في أرجاء المكان . كانت المائدة القذرة مغطاة ببقايا الطعام . كان الذباب يطن صاعداً نازلاً .

أجفلت ـ وقفت ترتجف ـ لاهثة الأنفاس بقلب يدق . ففي السرير البعيد . . . في السرير الذي كانت "هي" فيه حين كانت هنا لآخر مرة . . . كان هناك شيء ما مغطى بقماش صوفي خشن . لم تعرف هي نفسها ما فكرت فيه . . .

ثم صكت على أسنانها وأجبرت نفسها على الذهاب ورفع القماش . كان ذلك هو درع إرلند وخوذته وترسه . كانت مغطاة فوق ألواح السرير العارية .

نظرت نحو السرير الآخر . هناك وجدوا بيورن وآشيلد . وهناك كان إرلند ينام . . . وربما ستنام هي نفسها هناك هذه الليلة .

ولكن كيف يمكنه أن يسكن في هذا المنزل ، أن ينام فيه؟ ومن جديد فإن كل ما شعرت به غرق تحت الشفقة . ذهبت إلى السرير . . . لاحظت أنه لم يكن قد رتّب منذ أيام . كان القش تحت الشرشف الجلدي قاسياً كالحجارة من الاستخدام . لم يكن في السرير سوى جلود الغنم ، وزوج من الوسائد المغطاة بالقماش الصوفي الخشن ، وكانت قذرة إلى درجة النتانة . هطل الغبار والنفايات من السرير حين مدت يدها إليه . لم يكن مستراح إرلند أفضل من مستراح سائس خيل في إسطبل .

إرلند الذي لم تكن يعجبه العجب . إرلند الذي كان يرتدي تنورة حريرية ومخملاً وفراء فاخراً عند أقل مناسبة . . . الذي كان يغضب إذ رأى أولاده يرتدون ملابس من القماش الصوفي الخشن المغزول في البيت أيام العمل ، وما كان يرضى أن ترضعهم هي بنفسها أو تمدّ يد العون إلى الخادمات في الأعمال المنزلية . . . مثل زوجة فلاح ، كما كان يقول . . .

يا للمسيح . . . وكان هو نفسه الذي وصلت أحواله إلى هذا . . .

. . . كلا ، لن أقول كلمة واحدة . . . سأعود عن كل ما قلته . . . يا سايمون . لقد كنت على حق . . . لن يسكن والد أبنائي هنا . سأعرض عليه يدي وفمي وأتوسل إليه أن يغفر لي . . .

ليس هذا بالأمر السهل يا سايمون . ولكنك كنت على حق . . . تذكرت العينين الرماديتين الحادتين . . . نظراتهما الثابتة كما كانت دائماً ، حتى النهاية تقريباً . ومن الجسد البائس الذي كان قد بدأ يتهاوى ، كانت تلتمع عبر عينيه روحه النقية واللامعة ، حتى أُخذت روحه إلى بيتها كنصل سحب من المكان الذي غمد فيه . عرفت أن الأمر كان كما قالت رامبورغ . لقد أحبها طوال هذه السنوات كلها .

لم يمر يوم واحد طوال هذه الأشهر التي انقضت منذ وفاته وإلا فكرت فيه ، وقد بدا لها الآن أنها عرفت كل شيء قبل أن تنطق به رامبورغ . لقد دفعت في هذه المرة إلى أن تعود لتتذكر مجدداً كل ذكرى عن سايمون دار منذ أن عرفته . طوال هذه السنوات كانت تحمل عنه ذكريات مزيفة هو الذي كان أول خطيب لها . كانت تعبث بتلك الذكريات كما يعبث الحاكم الفاسد بالنقود ، فيمزج المعدن البخس بالفضة . حين حررها من التزام الخطوبة ورمى اللوم على نفسه في إنهاء الخطوبة . . . قالت في نفسها ، وصدقت ذلك ، إن سايمون أندرسون قد نأى بنفسه عنها في احتقار في لحظة أن عرف بعارها . لقد نسيت أنه حين حررها من الالتزام بالخطوبة ، في ذلك اليوم في حديقة الراهبات . . . فقد كان لا يفكر بها سوى على أنها طاهرة ونقية . ولكن حتى في ذلك الحين كان راغباً في أن يتحمل عار تقلّبها وتمردها . . . ولا يريد سوى أن يعرف أبوها أنه لم يكن هو من يريد فصم عرى العلاقة . . .

وقد عرفت هذا الآن أيضاً : حين عرف أسوأ ما كان في الأمر ، ووقف لينقذها أمام عيون العالم . . . ولو أنها لجأت إليه عند ذاك فإن سايمون كان

سيصطحبها إلى باب الكنيسة كزوجة له ، وكان سيسعى جاهداً إلى أن يعيش معها على نحو لا يجعلها تشعر بأنه يتذكر عارها .

ورغم ذلك فقد عرفت : ما كان ممكناً لها أن تحبه . ما كان ممكناً لها قط أن تحب سايمون أندرسون . . . ومع ذلك . . . فإن سايمون كان يتحلى بكل ما كان يفتقده إرلند وكانت هي تبحث عنه فيه . ولكن كان عليها إذن أن تكون امرأة مثيرة للشفقة حتى تتذمر من مصيرها . . .

لقد منحها سايمون بكرم لا حدود له . وقد اعتبرت هي أيضاً بكل تأكيد أنها فعلت الشيء نفسه . . .

ولكنها حين كانت تتلقى الهدايا من يديه دون تفكير أو امتنان ، كان هو يبتسم . ولقد فهمت الآن أنهما حين كانا يتواجدان معاً يكون هو حزين القلب . لقد عرفت الآن أنه وراء ذلك المظهر الثابت على نحو غريب كان هناك أسى مخفي . . . عندها كان يلقي بكلمات مازحة ويرمي بكل شيء جانباً ويقف مستعداً مرة أخرى ليحرس ويساعد ويمنح . . .

لقد كانت هي نفسها تغضب وتراكم وتتأمل في كل جرح . . . حين كانت تمدّ هداياها إلى إرلند وكان إرلند لا يراها . . .

هنا في هذه الغرفة وقفت وتلفظت بكلمات شجاعة . "لقد ضللت طريقي بإرادتي ، ولن ألوم إرلند قط على ذلك إذا ما قادنا الطريق إلى حافة الجرف" . لقد قالت ذلك للمرأة التي دفعتها إلى الموت حتى تفسح المجال أمام حبها .

أنّت كريستين عالياً ، وشبكت يديها أمام صدرها ، ووقفت وهي تهز جسدها . أجل . . . لقد قالت ذلك بعجز ، وكانت لن تلوم إرلند نيكولاوسون لو تعب منها وخانها أو حتى تخلى عنها . . .

أجل . . . ولو فعل إرلند ذلك . . . لقد بدا لها أنها كانت ستبقى على

عهدها . لو أنه خانها مرة وكان في ذلك نهاية للأمر كله ولكنه لم يخنها . . . بل أهملها ، أهملها وجعلها تعيش في خوف ولا استقرار . . . كلا ، لم يكذب عليها قط . ولكنه لم يكن يتحملها قط . . . ولم تكن هي لتجد نهاية لذلك : هاهي تقف الآن بعد أن جاءت لتتوسل إليه ليعود إليها ، ليملأ كأسها كل يوم حتى الثمالة بانعدام الثقة والقلق ، والتوقع العبثي والتوق والمخاوف والأمل الذي ينهار . . .

وبدا لها أنها متعبة منه الآن . لم تعد تتحلى بالشباب والشجاعة لتستطيع العيش معه بعد الآن . . . وربما لن تشيخ قط إلى حد أن إرلند لن يستطيع أن يلعب على حبها له . لم تعد شابة إلى حد تعيش معه بسعادة ولا مسنة إلى حدّ تحمله في صبر . لقد أصبحت امرأة صغيرة ضعيفة . . . وكان سايمون على حق . . .

سايمون . . . وأبوها . لقد كانا ثابتين في أمر واحد هو الحب المخلص لها ، وقد داست عليهما لأجل هذا الرجل الذي لم تعد تحتمله هي الآن . . .

أوه ، يا سايمون أعرف جيداً أنك لم تطلب الانتقام مني في أي وقت من الأوقات . ولكني أتساءل يا سايمون! إن كنت حيث ترقد لا تعرف أنك قد انتقمت جيداً الآن . . .

•

كلا ، عليها أن تشغل نفسها بشيء ما ، وإلا فإنها لن تتحمل الأمر . رتّبت السرير . بحثت عن ممسحة ومكنسة ولكن تبين أن مثل هذه الأشياء لم تكن موجودة في البيت . نظرت في الحجرة الصغيرة . . . والآن عرفت من أين كانت تأتي رائحة الإسطبل . كان سايمون قد جعل مربط حصانه هناك . ولكن الأرضية هنا كانت ممسوحة ونظيفة . السرج وعدة الركوب المعلقة على الجدار كانت في حال جيدة ومشحّمة . أما التمزقات فيها فكانت مصلّحة .

ومن جديد طردت الشفقة كل الأفكار بعيداً . هل جلب "سوتن" إلى هناك لأنه لم يكن يتحمل العيش وحيداً في المنزل . . .؟

•

سمعت كريستين خطوات في المشرقة . سارت نحو زجاج النافذة . . . كان الغبار سميكاً عليها وكذلك بيوت العناكب ، ولكنها فكرت في أنها ترى امرأة على نحو غير واضح . سحبت القماشة وحدقت . كانت هناك امرأة تضع أرضاً تنكة حليب وبعض الجبن . كانت هرمة وعرجاء وقبيحة في ملابس رثة . لم تدرك كريستين إلا بالكاد كيف تنفست الصعداء .

رتبت الغرفة على أفضل نحو تستطيعه . وجدت الكتابة التي نحتها بيورن غونارسون على جذع شجرة في الجدار الطويل . . . كانت باللاتينية ، ولم تستطع قراءتها كلها ، ولكنه ذكر نفسه على أنه (دومينوس إت ميليس) ، وقد ذكر اسم ضيعة أبيه في إلفيسيسل والتي خسرها لأجل آشيلد غاوتسداتر . بين المنحوتات الجميلة على الكرسي العالي كان ترسه الذي يحمل شعار وحيد القرن وأوراق الليلك .

•

بعد فترة فكرت كريستين أنها سمعت صوت حصان في مكان ما في الخارج . ذهبت إلى الغرفة الخارجية وأطلّت منها .

من المنحدر المغطى بغابة فوق المزرعة وصل حصان أسود طويل وقد ربطت إليه كومة من الحطب . كان إرلند يمشي إلى القرب منه ويقوده . كان هناك كلب يجلس فوق الحطب . أما الكلاب الأخرى فكانت تعدو من حول الزلاجة .

شدّ "سوتن" ، الجواد القشتالي ، طوقه وراح يشد زلاجة الحطب فوق مرج باحة المنزل . اندفع أحد الكلاب نازلاً المنحدر وهو ينبح . . . لاحظ إرلند الذي كان يفك طقم الجواد استثارة الكلاب فعرف أن شيئاً ما قد حدث . تناول فأس

الحطب من فوق الحمولة وسار نحو المنزل . . .

هربت كريستين إلى الداخل وأسقطت السقاطة خلفها . انكمشت عند جدار المدفأة ووقفت ترتجف وتنتظر .

دخل إرلند والفأس في يده والكلاب تتعثر عند العتبة أمامه وخلفه . وجدت الكلاب المتطفلة فوراً وحيّتها بعاصفة من النباح . . .

أول ما رأت كان موجة الدم الشاب الأحمر الذي اندفع إلى وجهه . . . والرجفة المتراقصة حول فمه الجميل الضعيف ، والعينين الواسعتين العميقتين في ظل الحاجبين . . .

بهرت رؤيته أنفاسها . لقد رأت بالفعل لحيته النامية وشعره الأشعث الرمادي . . . ولكن اللون في وجنتيه كان يأتي ويذهب في نبضات سريعة ، كما كان عليه الأمر حين كانا شابين . . . كان شاباً وسيماً جداً ، وكأن لا شيء يمكنه أن يقمعه . . .

كان يرتدي ملابس بائسة . . . قميصه الأزرق قذر ومهترئ . ومن فوقه كان يرتدي سترة جلدية مليئة بالندوب ومهترئة وممزقة عند ثقوب التخريمات ، ولكنها ضيقة ومتكيفة مع الحركات القوية والرشيقة لجسده . كان بنطاله الجلدي الضيق ممزقاً فوق إحدى الركبتين وكانت الدرزة خلف الساق الأخرى منفتقة . ومع ذلك فإنه لم يبد قط أكثر مما يبدو الآن ابناً لزعماء ونبلاء . كان يحرك جسده الرشيق الطويل بسهولة ولياقة ولكن الكتفين العريضين أصبحا محنيين قليلاً ، والأطراف الطويلة الرشيقة . . .وقف هناك وهو يرتاح قليلاً على قدم واحدة ، ويده على حزامه حول خصره الرشيق ، والأخرى الحاملة للفأس مدلاة إلى جانبه .

كان قد استدعى الكلاب ـ ووقف ينظر إليها ـ احمر وجهه ثم شحب ولم يقل ولو كلمة واحدة . وقفا كلاهما دون كلام فترة من الوقت . وأخيراً قال الرجل بصوت مرتجف قليلاً :

"هل أتيت إلى هنا يا كريستين؟"

أجابت : "كنت أود أن أرى كيف هي أحوالك ."

" حسناً ، لقد رأيتها إذن" . ألقى نظرة من حول الغرفة . "ترين أن الأمور جيدة معي هنا إلى حد معقول . . . جيد أنك حضرت في يوم كان فيه منزلي منسقاً ومرتباً . . . " أحس بظل ابتسامة على وجهها . " . . . أو ربما كنت أنت من رتبه" ، قال وهو يضحك ضحكة خفيفة .

وضع إرلند الفأس جانباً وجلس على المقعد الخارجي وظهره مسند إلى المائدة . وفجأة أصبح جدياً :

" أراك تقفين هناك على هذا النحو . . . هل هناك ما هو على غير ما يرام في المنزل . . . في يوروندغارد أعني . . . فيما يخص الشبان؟"

"كلا" . والآن كان دورها لتحكي له ما عليها أن تحكيه : "أبناؤنا بخير . ولكنهم يفتقدونك يا إرلند . هذه مهمتي . . . لقد جئت إلى هنا يا زوجي لأتوسل إليك أن تعود إلى البيت إلينا . كلنا نفتقدك . . . " أغضت من بصرها .

"تبدين في حال جيدة على أي حال يا كريستين . . . " نظر إرلند إليها بابتسامة صغيرة .

وقفت كريستين وقد تضرج وجهها كأنه صفعها :

"ليس لأجل ذلك . . ."

"كلا ، أعرف أنه ليس لأنك تعتبرين نفسك شابة ونضرة إلى حد لا تستطيعين معه أن تعيشي كأرملة" ، تابع إرلند . "أعتقد أنه لا فائدة كبيرة من عودتي إلى البيت يا كريستين" ، قال على نحو أكثر جدية . "بين يديك كل شيء يسير على ما يرام في يوروندغارد ، وأنا أعرف ذلك . . . لديك حظ فيما تفعلينه . وأنا راضٍ تماماً بالحياة التي أحياها هنا ."

"هذا ليس جيداً للأولاد . . . أن نكون على خلاف" ، أجابت بصوت خفيض .

"أوه . . ." تمهل إرلند عند هذه الكلمة . "إنهم لا زالوا صغاراً في السن ولا أستطيع أن أصدق أنهم سيصدمون إلى حد أنهم لن ينسوا الأمر بعد أن يخلفوا طفولتهم وراءهم . لا يهمني لو قلت لك إني أقابلهم بين الحين والآخر . . . " قال ذلك بابتسامة صغيرة .

كانت تعرف ذلك . . . ولكنها شعرت وكأن في الأمر إهانة لها ، وأحست أنه كان يقصد ذلك . . . لقد ظن أنها لا تعرف بالأمر . لم يكن الأبناء يعرفون أنها تعرف . ولكنها أجابت بجدية :

"إذن فأنت تعرف أيضاً أن هناك أموراً كثيرة في يوروندغارد ليست كما يجب أن تكون . . . "

"نحن لا نتحدث إطلاقاً عن مثل هذه الأمور" ، قال مبتسماً كما من قبل . "نذهب للصيد معاً . . . ولكن لا بد أنك جائعة وظمآنة" . . . قفز من مكانه . "وأنت واقفة أيضاً . . .كلا ، اجلسي في الكرسي العالي يا كريستين . أجل ، افعلي ذلك يا حبيبتي! سأخدمك لعندك . . ."

أحضر الحليب والجبن وأخرج الخبز والزبدة ، واللحم المقدد . كانت كريستين جائعة وإن تكن أشد ظمأ ، ولكنها قد وجدت من الصعب عليها ابتلاع الطعام . أما إرلند فأكل بسرعة ودون تهذيب كما كان دأبه حين لا يكون مع غرباء . . . سرعان ما انتهى من طعامه .

تحدث عن نفسه في تلك الأثناء . كان الناس في سفح الجبل يفلحون أرضه ويحضرون له الحليب والقليل من الطعام . . . وقد كان يقضي معظم أوقاته في الجبال وهو يصيد الحيوانات أو الأسماك . وعلى أي حال ، قال فجأة إن لديه بعض الأفكار حول السفر بعيداً ليعمل في خدمة زعيم أجنبي . . .

"أوه كلا يا إرلند!"

نظر إليها بسرعة .

ولكنها لم تقل شيئاً آخر . بدأ الظلام يحل بالغرفة . . . كان وجهها وغطاء رأسها الكتاني يلمعان بشحوب أمام الجدار المعتم . نهض إرلند وأشعل ناراً في المدفأة . ثم جلس منحرفاً فوق المقعد الخارجي ، والتفت إليها . كان الوهج الأحمر من النار يتراقص فوق وجهه .

ولكن كيف يستطيع حتى أن يفكر في مثل هذا الأمر! كان الآن في سن أبيها حين توفي ذاك . ومع ذلك فقد كان أمراً قابلاً للتصديق بما فيه الكفاية أنه سيفعلها في أحد الأيام . . . ويركض وراء نزوة كهذه بحثاً عن مغامرات جديدة . . . قالت الزوجة بقوة : "ألا تعتقد أن هذا كاف ؟ أليس كافياً أنك تخليت عن الأبرشية وأبنائك وعني أنا . . . هل ستهرب من البلاد ومنّا الآن ؟"

"لو كنت أعرف أفكارك عني يا كريستين" ، قال إرلند بجدية "لكنت غادرت ضيعتك منذ زمن طويل . ولكني أفهم الآن أنك اضطررت إلى تحمل الكثير مني . . ."

"تعرف جيداً يا إرلند . . . تقول إنها ضيعتي أنا ، ولكن لك حقك كزوجي في كل ما هو ملك لي ." لاحظت كم كان صوتها ضعيفاً

أجاب إرلند : "أجل ، ولكني أعرف أني كنت زوجاً سيئاً"صمت برهة ." ناكفه - أعني في الوقت الذي لم يكن قد ولد فيه بعد - قلت عنه إنك حملته تحت حزامك وهو الذي سيجلس في الكرسي العالي من بعدي . أرى الآن يا كريستين - أن الأمر كان صعباً عليك - فالأفضل ترك الأمور كما هي الآن . وأنا ناجح جيداً في حياتي هذه . . ."

نظرت كريستين فيما حولها في الغرفة التي بدأ الظلام يخيم عليها ، وارتجفت . . . ملأت الظلال كل زاوية الآن ، وراح النور القادم من المدفأة يتراقص . . .

قالت وهي تكاد تغرق في الحزن : "لا أفهم أنك تستطيع السكن في هذا

المنزل . ليس لديك ما تفعله هنا ولا أحد في صحبتك . . . على الأقل يمكنك استقدام خادم على ما أعتقد . . ."

"أتعنين أن عليّ أن أعمل في المزرعة بنفسي . . .؟" ضحك إرلند . "أوه كلا ، يا كريستين ، لا شك أن عليك أن تعرفي كم أنا غير ملائم للعب دور المزارع . لا أستطيع الجلوس بهدوء . . ."

"بهدوء . . . لاشك أنك تجلس بهدوء كاف الآن . . . طوال الشتاء . . ."

ابتسم إرلند لنفسه وعيناه بعيدتان وغريبتان :

"أجل ، حين يكون الأمر كذلك . . . حين لا أحتاج إلى التفكير في أي شيء سوى ما يجري في رأسي . . . أستطيع الذهاب والمجيء كما يحلو لي . . . وأنت تعرفين جيداً . . . كان الأمر هكذا على الدوام معي ، أنه حين لا يكون هناك شيء أستيقظ لأجله ، أستطيع أن أنام . . . أنام كدبّ في وجاره الشتوي حين لا يكون الطقس ملائماً في الجبال . . ."

همست كريستين : "ألست خائفاً من أن تكون وحيداً هنا ؟"

في البداية نظر إليها وكأنه لم يفهم . ثم ضحك :

"أتعنين بسبب أن الناس يقولون إنه مسكون بالأشباح ؟ لم ألاحظ شيئاً قط . أحياناً تمنيت لو يزورني قريبي بيورن ، أتذكرين أنه قال مرة إنه يعتبر أني لا أتحمل أن أحس بحد الخنجر على رقبتي . لو زارني لاستطعت أن أجيب ذلك الفارس الآن بأني لم اكن خائفاً جداً حين كان الحبل حول عنقي . . ."

مرت رعدة طويلة عبر جسد المرأة . جلست هناك صامتة .

نهض إرلند .

"أعتقد أن الوقت قد حان للراحة يا كريستين ."

راقبت إرلند وهي متيبسة وباردة وهو يرفع الغطاء الذي كان فوق الدرع ، وينشره فوق السرير ثم يقلبه فوق الوسائد القذرة . قال : "هذا أفضل ما لديّ" .

"إرلند !" شبكت بيديها تحت صدرها . راحت تبحث عن شيء ما تقوله له بعد . . . كانت خائفة جداً . ثم تذكرت المهمة التي عليها إنجازها .

"إرلند . . .لديّ رسالة أحملها إليك . لقد رجاني سايمون وهو يحتضر أن أبلغك تحياته وأنه ندم في كل يوم على الكلمات التي تلفظ بها تجاهك حين افترقتما آخر مرة . سمى تصرفه بأنه غير رجولي . . . وقد توسل أن تسامحه عليها ."

"سايمون" ، وقف إرلند ممسكاً بعمود السرير بيد واحدة وهو يحدق إلى الأرض . "إنه الرجل الوحيد الذي لا أحب أن يذكرني به أحد" .

قالت كريستين : "لا أعرف ما كان بينكما ." بدت لها كلمات إرلند قاسية إلى حد غريب ." ولكن من الغريب وغير المألوف من سايمون لو كان الأمر كما قال ، أنه تصرف على نحو يدل على صغر العقل في تعامله معك . إن كان الأمر كذلك . . . فاعتقد أن اللوم لا يقع كله عليه ."

هزّ إرلند رأسه : "لقد وقف إلى جانبي كأخ حين كنت في أمس الحاجة إلى العون" قال بصوت خفيض . "وقد نلت من يديه العون والصداقة ، ولم أعرف أنه كان طوال الوقت لا يتحملني إطلاقاً . . ."

" . . .أعتقد أنه كان من السهل العيش في الأزمان القديمة حين كان شخصان مثله ومثلي يتبارزان . . . يتقابلان على أرض منبسطة ويحتكمان إلى السلاح حول من سيفوز بيد الفتاة الشقراء . . ."

تناول عباءة قديمة من المقعد ولفها حول ذراعه :

"ربما تفضلين أن تكون الكلاب إلى جانبك الليلة ؟"

نهضت كريستين :

"إلى أين تمضي يا إرلند ؟"

"خارجاً إلى مخزن التبن لأنام هناك . . ."

"كلا . . .!" توقف إرلند . . . وقف هناك مستقيماً ورشيقاً وشاباً في النور الأحمر الضعيف القادم من الجمر الآخذ بالانطفاء . "لا أجرؤ على النوم وحدي في هذا المنزل . . . لا أجرؤ . . . "

.أتجرؤين على النوم بين ذراعي إذن ؟"

شاهدت ابتسامته عبر نور الغسق .

"ألا تخشين أن أسحقك حتى الموت يا كريستين . . .؟"

"أتمنى ذلك . . .!" وغرقت بين ذراعيه .

●

حين استيقظت ، عرفت من زجاج النافذة أن النهار قد حل . كان هناك شيء يضغط بثقل على صدرها . . . كان إرلند ينام ورأسه على كتفها . وكان يضع ذراعه فوقها ويده حول ذراعها اليسرى .

نظرت إلى الشعر الرمادي للرجل . شاهدت ثدييها الصغيرين المنكمشين . . . من فوقهما وتحتهما المنحنيات المقوسة العالية لأضلعها البارزة تحت غطاء رقيق من اللحم . وانتابها نوع من الفزع ، بينما راحت الذكرى تتبع الذكرى من الليلة الفائتة . في هذا المنزل ـ هما الاثنان ما عادا شابين ـ لقد انتابها العار والقلق حين رأت البقع المزرقة على ذراعيها ، ذراعي الأم اللتين أنهكهما العمل ، وصدرها المنكمش . وبجنون أمسكت بغطاء السرير وكانت تود أن تغطي نفسها . . .

استيقظ إرلند واتكأ على مرفقه ، وحدق إلى وجهها . . . كانت عيناه سوداوين كالفحم من النوم :

"ظننت . . ." رمى بنفسه إلى القرب منها مجدداً . سرى فيها رعب عميق مجنون من الابتهاج والخوف اللذين كانا في صوته . " . . .ظننت أني حلمت مجدداً . . . "

ضغطت بشفتيها الفاغرتين على فمه وطوقت بذراعيها عنقه . لم يكن الأمر يحمل كل هذه السعادة أبداً من قبل . . .

●

في وقت العصر حين كانت الشمس قد سبق لها واصفر لونها وأصبحت الظلال طويلة فوق الباحة الخضراء ، انطلقا إلى النهر لجلب الماء . حمل إرلند الدلوين الكبيرين . مشت كريستين إلى جانبه رشيقة ومستقيمة الظهر ولدنة . كان غطاء رأسها الكتاني قد انزلق وأصبح فوق كتفيها والتمع شعرها حاسراً وبنياً تحت نور الشمس . أحست بذلك هي نفسها هي أغمضت عينيها ورفعت وجهها أمام النور . . . لقد تورد خداها ورقت خطوط وجهها . وكلما نظرت إليه كانت نظرتها ترتد إليها مغلوبة . . . حين كانت ترى في وجه إرلند كم هي شابة .

فكر إرلند بالاستحمام . وبينما تقدم نزولاً مع مجرى النهر ، جلست كريستين على المرج الأخضر وقد أسندت ظهرها إلى صخرة . كان النهر الجبلي الصغير يخرخر ويقرقر فيجعلها الصوت تشعر بالنعاس . . . وبين الحين والآخر حين كان البعوض والذباب يلمس بشرتها ، كانت تفتح عينيها قليلاً وتبعده عنها . بين شجر الصفصاف من حول البركة تحت جسد إرلند الأبيض . . . كان واقفاً وقد وضع قدمه فوق صخرة وراح يفرك نفسه بخصل من الأعشاب . أغمضت عينيها من جديد ثم ابتسمت في تعب مترع بالسعادة . كانت من جديد بلا حول أو قوة أمامه كما كانت دائماً . . .

وصل الرجل ورمى بنفسه على العشب أمامها بشعر مبلّل وبرودة الماء فوق فمه الأحمر حين ضغط به على كف يدها . كان قد حلق لحيته ولبس قميصاً أفضل . . . ولكن هذا القميص لم يكن جيداً جداً . أمسك ضاحكاً بالقميص من تحت الإبط لأنه كان ممزقاً هناك :

"كان يمكنك أن تحضري لي قميصاً حين وصلت إلى الشمال هنا أخيراً ."

"سأخيط لك قميصاً ما أن تأتي إلى البيت يا إرلند"، أجابت مبتسمة ومررت بيدها عبر جبينه . قال وهو يشهق :

"لن ترحلي من هنا مرة أخرى يا كريستين . . . "

ابتسمت ولم تجب بشيء . أبعد إرلند نفسه قليلاً ، وهو نائم فوق بطنه . تحت الشجيرات في الظل الرطب كانت تنمو زهور بيضاء صغيرة نجمية الشكل . كان أوراق الزهرة مجزّعة بالأزرق مثل صدر امرأة . في وسط كل برعم كان زر ذو لون أزرق بنّي . قطفها إرلند كلها :

"أنت العارفة بهذه الأمور يا كريستين . أتعرفين اسم هذه الزهور على ما أعتقد ؟"

"إنها عشبة الفريجيا (٤) . . . كلا يا إرلند . . . " احمر وجهها وأبعدت يده وهو يحاول إقحام البراعم في صدرها .

ضحك إرلند وعضّ بخفة البتلات البيضاء واحدة إثر أخرى . ثم وضع كل البراعم في يدها المفتوحة وأغلق أصابعها فوقها :

"أتذكرين يوم تمشينا في حديقة هوففين سبيتال . . . حين أعطيتني زهرة ؟"

هزت كريستين رأسها ببطء وهي تبتسم قليلاً :

"كلا . ولكنك أخذت زهرة من يدي ."

"وقد سمحت لي بأخذها . وكذلك سمحت لي بأخذك يا كريستين . . . ضعيفة ورقيقة كالزهرة . . . ولاحقاً وخزتني أحياناً حتى خرج الدم يا حلوتي ." رمى بنفسه على حضنها ووضع ذراعيه من حول خصرها . "في الليلة الماضية يا كريستين . . . لم يكن هناك من فائدة . . . لم تتهربي بالجلوس والانتظار بخنوع . . . "

أحنت كريستين رأسها وخبأت رأسها في كتفه .

●

في اليوم الرابع كانا قد لجأا إلى غابة البتولا بين الأكمات الصغيرة فوق المزرعة . ففي ذلك اليوم كان المزارع المستأجر سيحمل التبن . ودون التطرق إلى الموضوع كانت كريستين وإرلند متفقين على أنه لا حاجة لأحد بأن يعرف بأنها كانت معه . نزل إلى البيت مرة أو مرتين لإحضار الطعام والشراب ، ولكنها جلست ضمن نباتات الخلنج بين أشجار البتولا القصيرة . من حيث كان يجلسان استطاعا أن يريا الرجل والمرأة يشقان طريقهما إلى البيت وهما يحملان أكواماً من التبن على ظهريهما .

قال إرلند : "أتذكرين تلك المرة التي وعدتني بها أنه حين أنهي عملي كمزارع صغير بين الجبال عندها ستأتين وترعين شؤون منزلي! ستكون لك بقرتان وبعض الأغنام والماعز . . . ؟"

ضحكت كريستين بصوت خفيض وهي تداعب شعره :

"ما سيقوله أولادك يا إرلند لو أن أمهم هربت من الأبرشية وتخلت عنهم على هذا النحو . . . ؟"

"أعتقد أنهم سيكونون سعداء بما فيه الكفاية في يوروندغارد" ، قال إرلند ضاحكاً . "لقد كبروا بما فيه الكفاية . تعرفين جيداً أن غاوته مزارع جيد ، رغم صغر سنه . وناكفه رجل تقريباً ."

"أوه كلا" . ضحكت الأم بهدوء . "صحيح أنه يفكر بنفسه على أنه رجل . . . أجل ، خمستهم يظنون ذلك على ما أعتقد . . . ولكنه يفتقر إلى حكمة الرجال . . . "

"لو كان سيسير على هدى أبيه ربما لن يصل إلى الحكمة إلاّ متأخراً أو لن يصل إليها أبداً" ، أجاب إرلند . ابتسم بخبث : "أتعتقدين أنك ما زلت تستطيعين إخفاء أولادك خلف تنورتك يا كريستين . . . ناكفه أنجب ابناً هنا هذا الصيف . . . لا تعرفين ذلك على ما أعتقد ؟"

"كلا . . . !" جلست كريستين وقد تضرج وجهها وأصيبت بالذهول .

"أجل ، ولكنه ولد ميتاً . . . وأعتقد أن الشاب سيفكر مرتين قبل أن يحضر إلى هنا مرة أخرى . . .كانت تلك أرملة ابن بال ، هنا في هاوغسبركن . قالت إن الطفل طفله ، وهو على ما أعتقد لم يكن كذلك مهما كان الأمر . أجل ، لقد أصبحنا كهلين أنت وأنا الآن . . . "

"هل تستطيع التكلم على هذا النحو حين يكون ابنك قد جلب على نفسه المشاكل والعار ؟" لقد جرحها حتى الصميم أن الرجل يستطيع أن يتحدث بكل هذه الخفة . . . وأن الأمر بدا له كنكتة لم تعرف بها .

سألها إرلند كما من قبل : "أجل ما الذي تريد مني قوله؟ الشاب في الثامنة عشرة من عمره . أنت ترين بنفسك الآن أنه لن يفيدك كثيراً أن تواظبي على مراقبتك لأبنائك وكأنهم مجرد أطفال . طالما جئت إلى هنا إليّ ، علينا أن نجد له زوجة . . . "

"أتظن أنه أمر سهل أن تجد لناكفه عروساً ملائمة ؟ كلا يا زوجي ، بعد هذا عليك أن تحضر إلى البيت معي لتساعدني في توجيه الشبان ."

اتكأ إرلند بحدة على مرفقه :

"لن أفعل ذلك يا كريستين . أنا غريب في منطقتك وسأكون كذلك دائماً . . . لا يوجد رجل هناك لا يعتبرني خائناً للملك والبلد . ألم تفكري في كل تلك السنوات التي عشتها في يوروندغارد في أنني أعيش قلقاً مضطرباً . . . في بيتي في سكاون كنت معتاداً على الاعتماد على شيء ما بين الناس . وحتى في ذلك الحين – في شبابي – حين كانت حكاية حياتي الآثمة قد انتقلت إلى الخارج ، حين كنت محروماً من الكنيسة . . . ومع ذلك كنت إرلند نيكولاوسون أوف هوسابي ! ثم حان ذلك الوقت الذي أتيح لي فيه أن أظهر لأولئك الناس هناك ، شمال الجبال ، أني لم أكن غير جدير بحمل اسم أجدادي . . . كلا ، هنا

في هذه المزرعة الصغيرة أنا رجل حر . . . ليس هناك من يشده من أفعالي أو يغتابني . اسمعيني يا كريستين ، يا حبي الوحيد . . . أبقي معي! لن تندمي على ذلك . هنا السكن أفضل من هوسابي في أي يوم . لا أعرف السبب يا كريستين . . . إلا أنني لم أكن قط سعيداً أو مرحاً هناك ، ولا حتى حين كنت طفلاً ، ولا بعد ذلك . كان الوقت جحيماً حين كانت إلين معي ، ولم تكوني أنت أو أنا سعيدين معاً هناك . . . ولكن الرب كلي القدرة يعرف أني أحببتك في كل يوم وكل ساعة منذ عرفتك . لقد كانت تلك الضيعة مسحورة . . . لقد اختنقت أمي حتى الموت هناك ، وكان أبي رجلاً تعيساً على الدوام . هنا الوضع جيد يا كريستين . . . لو تكونين معي فحسب ، يا كريستين . . . وكما أنه حق أن الرب مات من أجلنا على الصليب ، فإني أعتبرك عزيزة علي اليوم كما كنت في تلك الليلة التي نمت فيها تحت عباءتي . . . الليلة التي تلت يوم قداس مارغريت . . . وقد جلست ورحت أنظر إليك ، زهرة نقية ونضرة وشابة لم يمسسها أحد ."

أجابت كريستين بصوت خفيض :

"أتذكر يا إرلند أيضاً أنك توسلت في تلك الليلة ألاّ أذرف دمعة واحدة من أجلك . . . "

"أجل . . . والرب وكل القديسين في السماء يعرفون أني قد عنيت ذلك ! صحيح أن ما حدث كان مخالفاً لذلك - ربما كان لا بدّ من ذلك - وربما يحدث ذلك ونحن نقطن في هذا المسكن الدنيوي . ولكني أحببتك حين سببت لك الأذى وحين فعلت ما هو صالح لك . ابقي هنا يا كريستين . . . "

سألت بلطف كما من قبل : "أولم تفكر بهذا ؟ أنه من شأنه أن يجعل مصير أبنائك صعباً لأن لديهم أباً يجري الحديث عنه ؟ لا يمكنهم الهرب جميعاً من حديث الأبرشية ، السبعة منهم . . . "

نظر إرلند إلى الأرض ثم قال :

"لا زالوا صغاراً في السن ووسيمين وشجعاناً . . . وسوف يشقون طريقهم . . . نحن يا كريستين ليست لدينا سنوات كثيرة أمامنا قبل أن نصبح عجوزين شائبين . . . هل تضيعين هذا الوقت بينما أنت لا تزالين جميلة ونضرة وقادرة على التمتع بالحياة ؟ يا كريستين . . . ؟"

أطرقت ببصرها أمام الشعاع المدوّخ في عينيه . وبعد برهة قالت :

"هل نسيت يا إرلند أن اثنين من أبنائنا لا زالا مجرد طفلين ؟ ما رأيك في قيمتي وقدري لو تخليت عن لافرانس ومونان . . . ؟"

"عليك أن تحضريهما إلى هنا إذن . . . إن لم يكن لافرانس يفضل البقاء مع أخواته . وهو ليس بالصبي الصغير أيضاً . . . هل لازال مونان جميلاً كما كان ؟" سأل الأب مبتسماً .

"أجل ، إنه طفل جميل ."

بعد ذلك جلسا صامتين طويلاً . وحين تكلما مجدداً فقد كان عن موضوع آخر .

•

استيقظت في غبش الفجر من صباح اليوم التالي كما كانت تستيقظ كل صباح هنا . . . وسمعت الجياد تضرب بحوافرها على جدار المنزل . كان رأس إرلند بين ذراعيها . في الصباحات الأخرى حين كانت تستيقظ في ساعة مبكرة كان ينتابها الخوف والعار اللذان انتاباها في أول صباح . . . وكانت تحاول خنقهما . أولم يكونا زوجين شرعيين في خصام وقد تصالحا الآن ؟ هل يمكن أن يحدث للأولاد ما هو أفضل من أن يتصالح أبوهما وأمهما مجدداً ؟

ولكن في هذا الصباح كانت تحاول جاهدة أن تتذكر أولادها . أحست كأن هناك سحراً حلّ عليها . . . وأن إرلند قد اصطحبها مباشرة من الغابة في

غيردارود ، حيث عانقها لأول مرة ، إلى هنا . كانا شابين جداً . . . ما كان صحيحاً أنها قد حملت وأنجبت لهذا الرجل سبعة أبناء ، وأنها أم لشبان طوال ناضجين . . . بدا وكأنها رقدت هنا بين ذراعيه وحلمت بالسنوات الطوال التي عاشاها معاً كزوجين في هوسابي . . . كل كلماته الطائشة أغوتها وراحت تتردد كالصدى في داخلها . . . كانت تشعر بالدوار من الخوف وأحست كأن إرلند قد أزاح عنها العبء السباعي لهمها . . . هكذا ستحس لابد المهرة الصغيرة حين تقف دون سرج على مرعى السايتر . . . بعد أن يكون الطقم والسرج والعدة قد أنزلت عنها . راحت تهب عليها رياح الأراضي المرتفعة . لقد تحررت لترعى عشب الجبال الطري ، وهي حرة في التجول كما تشاء فوق الأراضي المرتفعة .

وفي الوقت نفسه راحت تتوق بعذوبة وشوق إلى أن تحمل عبئاً جديداً . لقد سبق لها وتاقت بدوار رقيق صغير نحوه الذي سيسكن قرب قلبها فترة أشهر تسعة . لقد عرفت ذلك على نحو مسبق منذ أول صباح استيقظت فيه هنا بين ذراعي إرلند . ومع الحمى القوية الجافة الحارقة في ذهنها ، غادرها البوار . كانت تحمل طفل إرلند في رحمها ، وبصبر نافد رقيق إلى حد غريب امتدت روحها نحو المستقبل ، نحو الساعة التي ستلد فيها الطفل .

أبنائي العظام هؤلاء ليسوا في حاجة إليّ ، هكذا فكرت . أنا بالنسبة إليهم امرأة خرفة ومزعجة . سأقف في طريقهم فحسب الطفل الصغير وأنا . كلا ، لا أستطيع الابتعاد عن هنا . . . علينا أن نقيم هنا مع إرلند . لا أستطيع الرحيل . . .

ومع ذلك ، وحين كانا جالسين لتناول الفطور ، فقد قالت له إن عليها الذهاب الآن إلى البيت إلى أولادها .

كانت تفكر في لافرانس ومونان . كانا قد كبرا الآن إلى حد أنها شعرت بالخجل حين فكرت فيهما وهما يعيشان هنا مع إرلند ومعها ، وربما ينظران بعيون

متسائلة إلى أبيهما وأمهما وقد عادا شابين مجدداً . ولكن هذين ما كانا قادرين على تدبير نفسيهما بدونها .

جلس إرلند يحدق إليها وهي تتحدث عن رحلتها إلى البيت . وأخيراً قال بابتسامة صغيرة :

" أجل . . . إن كانت هذه إرادتك فعليك بالرحيل إذن!"

•

استعد ليرافقها في رحلتها . وقد ركب معها عبر الوادي إلى "سيل" ، حتى لمح سقف الكنيسة فوق قمم أشجار الصنوبر . ثم ودعها . في النهاية كان لا يزال مبتسماً ابتسامة آمنة إلى حد خبيث .

"أجل ، تعرفين جيداً يا كريستين . . . سواء جئت ليلاً أو نهاراً . . . سواء انتظرتك وقتاً قصيراً أو طويلاً . . . فسأرحب بك كأنك (ملكة السماء) وقد نزلت إلى مزرعتي من السماء . . . "

ضحكت :

"أجل ، في هذه المسائل الكبرى لا أتدخل . ولكني أعتقد أنك تعرف الآن يا حبيبي ، أن فرحتي ستكون كبيرة بك في بيتك في اليوم الذي يعود فيه السيد إلى منزله ."

هزّ رأسه ضاحكاً قليلاً . وقد ودع كل منهما الآخر بابتسامة . انحنى إرلند وهما جالسان على جواديهما الواحد إلى جانب الآخر وقبلها مرات كثيرة ، وبين القبل كان ينظر إليها بعينين ضاحكتين .

قال أخيراً : "سنرى إذن أي منا نحن الاثنين هو الأكثر عناداً ، يا كريستين الحلوة . سيكون هذا آخر لقاء لنا . . . أنت وأنا نعرف هذا جيداً !"

حين مرت بالكنيسة انتابها رعدة صغيرة . كأنما كانت تعود إلى البيت من "قاعة الملك الجبلية" ، وكأن إرلند كان "ملك الجبل" نفسه ، ولا يستطيع المرور

عبر الكنيسة والصليب الذي فوق المرج .

شدت اللجام . . . وكادت تعود لتلحق به .

ثم نظرت عبر المنحدرات الخضراء المعشبة إلى ضيعتها الجميلة ذات المروج والحقول المحروثة والنهر المنحدر في التفافات لامعة عبر "ديل" . كانت الجبال تبرز في سديم أزرق دافئ . . . والسماء مليئة بغيوم صيفية متموجة . كان جنوناً . هناك في البيت مع أبنائه كان مكانه . لم يكن فارساً من حكاية خرافية . . . بل رجلاً مسيحياً مترعاً بأمزجة جنونية ونزعات طائشة . زوجها الشرعي الذي تحملت منه الخير والشر . . . عزيز ، عزيز عليها كما عذبها بخيالاته المحلقة . عليها تحمله . وبما أنها لن تستطيع أن تعيش بدونه فعليها أن تناضل وتعاني من الخوف وانعدام الأمان على أفضل نحو تستطيعه ولن يطول به الأمر قبل أن يعود . . . بعد أن كانا معاً من جديد .

-٦-

قالت لأولادها إن على أبيهم أن يرتب أمراً أو أكثر في هاوغن قبل أن يعود إلى البيت . وعلى الأرجح فإنه سيعود في أوائل الخريف .

وقد راحت تتجول في الضيعة شابة بوجنتين ورديتين ووجه رقيق ولطيف ، وكانت أسرع في إنجاز أعمالها كلها . . . ولكنها لم تكن تحقق مثل هذه السرعة الجيدة كما كان عليه الأمر حين كانت تعمل بأسلوبها الهادئ والمرتب المعتاد . لم تعد تطلب من أبنائها العمل بحدة ، كما كان دأبها ، وذلك حين يخطئون أو حين يكون لديها سبب لعدم الرضا عنهم . والآن كان تحادثهم مازحة أو تغض الطرف دون أن تقول شيئاً .

كان لافرانس ينام الآن في العلية مع أخوته الكبار .

"أجل ، ربما علينا أن نحسبك واحداً من الشبان الكبار الآن يا بني" ، مررت أصابعها من خلال شعر الصبي الكثيف الأشقر ، ثم شدته إليها . . . كان طوله يصل الآن إلى منتصف صدرها . "وأنت يا مونان ، هل ستترك أمك تعتبرك طفلاً لفترة أخرى ولو قصيرة ؟" . . . وفي إحدى الأمسيات حين كان الصبي قد ذهب ليرتاح في القاعة ، فقد كان يحبّ أن تجلس أمه على جانب السرير وتداعبه

قليلاً . استلقى وقد وضع رأسه في حجرها وراح يثرثر بأسلوب أكثر طفولية مما اعتاد عليه في النهار ، حين يكون أخوته قادرين على سماعه . وقد تحدث الاثنان عن عودة الأب إلى البيت .

ثم تحرك نحو الجدار وغطته أمه بأغطية النوم . كانت كريستين توقد الشمعة وتأخذ بعض الملابس التي في حاجة إلى إصلاح وتبدأ بالخياطة .

فكت دبوس الزينة من فوق صدرها ، وتحسست بيدها ثدييها . كانا مستديرين وقاسين كما لو كانا لامرأة شابة . رفعت كمّها إلى الكتف ونظرت إلى ذراعها العاري تحت النور . كان قد أصبح أشد بياضاً وامتلاء . ثم نهضت ومشت . . . أحست كم كانت تسير برقة في الخف المنزلي الطري . . . مرّرت يدها فوق وركيها الرشيقين . ما عادا حادين وقاسيين كوركي رجل . كان الدم يسري في جسدها كما يتدفق النسغ في الأشجار في فصل الربيع . كان الشباب يبرعم فيها .

•

كانت منهمكة في العمل مع فريدا في مبنى صنع الجعة تصبّ الماء الدافئ فوق الحبوب لصنع "ملت" عيد الميلاد . كانت فريدا قد نسيت أن تفعل المطلوب في الوقت الملائم . كان يمكن أن يصبح قاسياً كالعظام وهو ينتفخ . ولكن كريستين لم تقرع المرأة . . . وبنصف ابتسامة أصغت إلى الأخرى وهي تجد الأعذار لنفسها . ولأول مرة حدث أن كريستين نسيت أن تنتبه له بنفسها .

مع حلول عيد الميلاد سيكون إرلند في البيت معها . لو أرسلت له النبأ الجديد لعاد إلى البيت دون شك . ما كان يمكن للرجل أن يكون مجنوناً إلى حد لا يستسلم معه الآن . . . فلا شك أنه سيعرف أنه من غير الممكن أن تصعد إلى هاوغن ، بعيداً عن الناس ، وهي تحمل حياة أخرى معها الآن . ولكنها ستنتظر فترة أخرى بعد قبل أن تبعث له الرسالة . . . رغم أنها كانت متأكدة تماماً

الآن . . . ربما متى شعرت بالجنين يتحرك . . . ففي الخريف الثاني بعد أن سكنوا في يورونداغارد اضطرت إلى الخروج عن الطريق كما يقول الناس . كانت قد ارتاحت بسرعة في ذلك الحين . لم تكن تخشى أن يحدث ذلك هذه المرة ، لا يمكن ذلك . ومع ذلك . . .

بدا وكان عليها أن تبذل كل جهدها لحماية هذه الحياة الصغيرة الرقيقة التي تحملها تحت قلبها ، كما يثني المرء يديه لحماية شعلة صغيرة من النار أوقدت للتو . . .

في أحد الأيام في أواخر الخريف حضر إيفار وسكوله وقالا إنهما سيذهبان لزيارة أبيهما . . . كان الجو لطيفاً في الجبال الآن . وسوف يطلبان منه الإذن ليذهبا إلى الصيد معه .

كان ناكفه وبيورغولف جالسين إلى رقعة الشطرنج ، فتوقفا عن اللعب وراحا يصغيان .

قالت كريستين : "لا أعرف ." لم تكن قد فكرت من قبل مع من سترسل النبأ . نظرت إلى ابنيها هذين اللذين لم يكتمل نضوجهما بعد . ما كانت تستطيع إبلاغهما بالنبأ رغم أن ذلك بدا لها كحماقة . ربما تقول لهما إن عليهما اصطحاب لافرانس معهما وستقول له أن يكلم أباه على انفراد . كان صغيراً إلى حد لا يتساءل كثيراً معه . ومع ذلك . . .

قالت : "تعرفان جيداً أن أباكما قادم إلى هنا قريباً . ربما ستعيقانه عن القدوم بسرعة . وسرعان ما ستكون لدي رسالة أبعثها إليه بنفسي . . . "

غمغم التوأمان . رفع ناكفه رأسه عن رقعة الشطرنج وقال بإيجاز : "افعلا ما تأمر به أمنا أيها الولدان ."

•

حين اقترب عيد الميلاد أرسلت ناكفه شمالاً إلى إرلند ." . . . عليك أن تقول له يا بنيّ إني بدأت أتوق إلى قدومه . . . وكذلك أنتم جميعاً !" لم تتحدث

عن السبب الجديد . . . فعلى الأرجح أن الشاب قد لاحظه بنفسه . وعليه أن يحكم بنفسه إن كان عليه أن يبلغ والده بالنبأ .

عاد ناكفه . . . لم يكن قد وجد أباه . كان إرلند قد ذهب إلى راومسدال . فقد تلقى رسالة على ما يبدو بأن ابنته وزوجها سيذهبان إلى بيورغفين ، وكانت مارغريت تريد أن ترى أباها في فيوي .

كان هذا سبباً معقولاً . . . استلقت كريستين مستيقظة في الليالي . . . كانت تربت على وجه مونان بين الحين والآخر وهو نائم إلى جوارها . لقد أحزنها أن إرلند لم يحضر في عيد الميلاد . ولكن كان ذلك سبباً معقولاً أنه يود مشاهدة ابنته حين أتيحت له الفرصة . راحت تمسح دموعها وهي تنهمر على خدها . كانت تبكي الآن بسهولة شديدة ، حتى كما كانت وهي بعد شابة صغيرة .

●

بعد موسم عيد الميلاد توفي سيرا آيريك . كانت كريستين قد عادته في روموندغارد أكثر من مرة خلال الخريف وهو طريح الفراش ، كما حضرت مأتمه . ولكنها لم تخالط الناس سوى في هذه المناسبة . لقد اعتبرت وفاة كاهن الأبرشية العجوز خسارة كبيرة .

في المأتم سمعت شخصاً يقول إنه قابل إرلند في "اليسيا" . لقد عاد إلى البيت إذن . سرعان ما سيأتي ، دون شك . . .

في الأيام التي تلت ، وبينما راحت تجلس على المقعد تحت النافذة الصغيرة ، وهي تحمل مرآتها اليدوية ، كانت تنفخ عليها وتمسحها وتتفحص وجهها فيها .

كانت مسفوعة بالشمس كزوجة فلاح في هذه السنوات الأخيرة ، ولكن كل أثر لهذا قد امّحى الآن . أضحت بشرتها بيضاء مع زهرتين حمراوين مستديرتين على خديها كصورة ملونة . لم يكن وجهها جميلاً إلى هذا الحد منذ أن كانت

فتاة . . . جلست كريستين وأمسكت أنفاسها بمتعة مترعة بالتعجب .

إذن سينالون أخيراً الابنة التي كان إرلند يشتهي كثيراً . . . لو حدث ما قالته النساء الحكيمات . ماغنهيلد . لا بد أن يحطموا العرف في هذه المرة ويعطوا الابنة الأولى اسم والدة أبيها . . .

وقد لاحت أمامها ذكرى عن حكاية خرافية سمعتها ذات مرة عن أبناء سبعة كانوا خارجين على القانون وملاحقين في الغابات من أجل أخت صغيرة لم تولد بعد . ثم ضحكت من نفسها . . . لم تعرف كيف بدأت تفكر في هذه الحكاية . . .

من كرسي الخياطة أخذت قميصاً من أفضل أنواع الكتان الأبيض الذي خاطته وهي وحيدة . أخرجت خيوطاً من الكتان وخاطت طيوراً وحيوانات على أرضيته معشبة . . . مرت أيام كثيرة منذ أن قامت بمثل هذا العمل الدقيق . . . أوه ، لو أن إرلند يأتي الآن . . . فهذا قد جعلها جميلة وشابة ومستقيمة الظهر ومتوردة ومزهرة .

بعد أن انقضى قداس غريغوري(٢١ آذار/مارس) فإن الطقس أصبح جميلاً كالربيع . كان الثلج آخذاً بالذوبان . . . كان يلتمع كالفضة ، وقد سبق وبرزت بقع بنية على المنحدرات التي كانت الشمس تشرق عليها . فوق الجبال كان سديم أزرق .

وقف غاوته في الباحة في أحد الأيام وهو يصلح زلاجة مكسورة . وقف ناكفه وهو يتكئ على جدار ورشة النجارة يراقب أخاه وهو يعمل ، وذلك حين خرجت كريستين من المطبخ حاملة في كلتا ذراعيها وعاء كبيراً يحوي خبزاً بنياً طازجاً .

رفع غاوته نظره إلى أمه . ثم وضع الفأس والمثقب فوق الزلاجة وعدا خلفها ،

ثم أخذ منها الوعاء . حمله حتى المستودع .

كانت كريستين قد توقفت ساكنة بوجنتين حمراوين . وحين عاد غاوته ، ذهبت لتحدث ابنيها :

"عليكما الذهاب إلى أبيكما في أحد هذه الأيام على ما أعتقد . . . قولا له إن هناك حاجة كبيرة له هنا في البيت ، والاهتمام بالأمور بدلاً عني . لا أستطيع أن أقوم بالكثير الآن . . . وسيكون عليّ أن أضع الطفل في خضم أعمال الربيع أيضاً ."

أصغى الشابان إليها . وقد تضرج وجهاهما هما أيضاً ، ولكنها لاحظت أنهما كانا سعيدين . قال ناكفه وهو يظهر عدم الاهتمام :

"الأفضل لو فعلنا اليوم - مع وقت العصر - ما رأيك يا أخي ؟"

ولكن لم تسمع كريستين حتى اليوم التالي ظهراً صوت الفارسين في الباحة . خرجت - كانا ناكفه وغاوته - وكان وحدهما . وقفا إلى قرب جواديهما وهما ينظران إلى الأرض ولم يقولا شيئاً .

سألت الأم : "ما كان جواب أبيكما ."

وقف غاوته مستنداً على رمحه . . . كان لا يزال ينظر إلى الأرض . عندها تحدث ناكفه :

"لقد طلب منا أبونا أن نقول لك إنه كان ينتظر يومياً طوال الشتاء أن تذهبي إليه . وقال إنه سيرحب بك الترحيب نفسه الذي لقيته في المرة الماضية ."

شحب وجه كريستين :

"ألم تقولا لأبيكما كيف هي حالي . . . وإني أنتظر طفلاً في القريب العاجل . . . ؟"

أجاب غاوته دون أن يرفع بصره :

"بدا وكأن أبي لا يعتبر هذا سبباً كافياً . . . وهو لا يعتقد أن هذا سيمنعك

من الانتقال إلى هاوغن" .

وقفت كريستين صامتة قليلاً :

"ما الذي قاله ؟" سألت بصوت خفيض قاس .

كان ناكفه على وشك الكلام . رفع غاوته يده قليلاً ونظر بسرعة وتوسل إلى أخيه . ولكن الابن الأكبر أوصل الرسالة :

"طلب منا أبونا أن نقول ما يلي : لقد عرفت حين حملت بالطفل كم كان هو رجلاً غنياً . وإن لم يكن قد ازداد غنى الآن ، فهو لم يصبح أفقر ."

التفتت كريستين بعيداً عن ابنيها ومضت ببطء نحو القاعة . وبثقل وتعب جلست فوق المقعد تحت النافذة الصغيرة التي كانت شمس الربيع قد أذابت الثلج والجليد عنها .

. . . هكذا كان الأمر إذن . كانت هي التي طلبت أن تنام بين ذراعيه . . . أولاً . ولكن لم يكن أمراً جيداً منه أن يذكرها بذلك الآن . لقد اعتبرت أن إرلند كان مخطئاً في إرسال هذا الجواب مع ابنيهما . . .

●

دام الطقس الربيعي . ثم هبت ريح جنوبية مدة أسبوع مع أمطار . . . ارتفع منسوب النهر ففاض وهدر . على جوانب الجبال اندفعت المياه هادرة من الوديان الجبلية . ثم عادت الشمس لتشرق مجدداً .

وقفت كريستين خارجاً خلف المنزل في المساء الرمادي الأزرق . كانت الأجمة أسفل الحقل مليئة بشدو الطيور . كان غاوته والتوأمان قد صعدا إلى السايتر . . . يطاردون ديكاً أسود . وحتى هناك في الضيعة كان صوت طيور الصيد يأتي من الجبال هذا الصباح .

ضغطت بقبضتيها على صدرها . لم يكن قد تبقى سوى وقت قصير . . . عليها تحمل ذلك بصبر حتى النهاية . غالباً كانت هي دون شك عنيدة

ومشاكسة ، وهي أيضاً كانت سيئة في حكمها وفي خوفها اللانهائي على الأطفال . . . وسيئة في توقيتها ، كما قال إرلند . لقد بدا لها على أي حال أنه كان قاسياً الآن . ولكن الوقت قد حان لقدومه إليها . . . وهو يعرف ذلك دون شك .

كانت الشمس الساطعة والأمطار تتلو بعضها بعضاً . في عصر أحد الأيام ناداها أولادها . كانوا واقفين سبعتهم في الباحة مع كل الخدم . عبر "ديل" كانت ثلاثة أقواس قزح . كان الأوسط بينها يضع قدماً على منازل فورمو ، ولم يكن متقطعاً وراحت الألوان تشع منه قوية ولامعة . أما الآخران فكانا بلون أبهت وقد تلاشيا من الأعلى . . .

وحتى وهم واقفون يحدقون إلى هذه العلامة الغريبة والجميلة أصبح الجو رمادياً وداكناً . ومن الشمال جاءت عاصفة ثلجية . وقد أثلجت حتى أصبح العالم أبيض خلال فترة قصيرة .

جلست كريستين في المساء وراح تقص على مونان حكاية ملك الثلج وابنته البيضاء الجميلة - التي كان اسمها "ميول" (الثلج المسحوق)- والملك "هارولد لوفا" (قبعة الثلج فوق الأشجار مثلاً) الذي رباه المارد "دوفر" . أحست بوخزة أسى حين تذكرت أنها سنوات بحالها قد مرت منذ أن جلست هكذا وقصت الحكايات على أولادها . . . كان من المؤسف أن لافرانس ومونان لم يعرفا سوى القليل من هذه المتعة . والآن سرعان ما سيصبحان صبيين ناضجين . حين كان الآخرون صغاراً ، في بيتهم في هوسابي ، كانت تجلس وتروي لهم حكايات خرافية خلال أمسية كاملة . . . وكان ذلك يحدث غالباً . . .

لاحظت أن أبناءها الكبار كانوا يصغون أيضاً . . . احمر وجهها وتوقفت عن الكلام . توسل إليها مونان أن تستمر . نهض ناكفه واقترب منها .

"أتذكرين يا أمي "تورستاين أوكسافوت" (قدم الثور) وجنيات غابة هويلاند . . . احكي لنا تلك الحكاية!"

وبينما راحت تروي الحكاية عاد ذهنها إلى الماضي. كانوا يرتاحون في بستان البتولا قرب النهر، بعد أن تناولوا بعض الطعام، أبوها وعمال الحصاد رجالاً ونساء... كان أبوها مستلقياً على بطنه وجلست هي فوق ظهره، وراحت تركل خاصرتيه بكعبيها... كان يوماً حاراً، وكانت قد حصلت على الإذن بالمشي حافية، كما تفعل النساء. وقد حكى لها أبوها حكاية: قارب جنيات هويلاند: يرنسكيولد (ترس الحديد) كان لديه سكيولدفور وابنتاهما سكيولديس، وسكيولدغييرد، اللتان ذبحهما تورستاين أوكسافوت. تزوجت سكيولغييرد من سكيولدكيتيل وكان أولادهما هم سكيولدبيورن وسكيولدهدين وفالسكيولد الذي امتلك سكيولدإسكسيسا. وقد رزقا بسكيولدولف وسكيولدورم. تزوج سكيولدولف بسكيولدكاتلاو وأنجب منها سكيولد وسكيولدكيتيل...

كلا، لقد ذكر ذلك الاسم سابقاً، صرخ كولبيورن ضاحكاً، فقد كان لافرانس يفاخر بأنه يستطيع أن يعلمهم دزينتين من أسماء الجن، ولكنه لم يكمل حتى الدزينة الأولى. ضحك لافرانس أيضاً: "أجل، ولكن لاشك أنك تعرف أن الجن أيضاً يسمون أولادهم بأسماء آبائهم مّمن رحلوا!" ولكن العمال لم يدعوا الأمر يمرّ بسلام، لذلك فرضوا عليه أن يدفع لهم ثمن مشروب الميد كغرامة. أجل، ثم قال السيد إنهم سينالونه... الليلة... حين يعودون إلى البيت. ولكنهم أرادوه الآن، فوراً... وأخيراً أرسلت torrdيس لإحضار الميد.

وقفوا في حلقة وراح القرن الكبير يدور من واحد إلى آخر. ثم أخذوا مناجلهم ومذاريهم وذهبوا إلى المروج مجدداً. أرسلت كريستين إلى البيت مع القرن الفارغ. رفعته أمامها بكلتا يديها وهي تعدو حافية القدمين تحت نور الشمس فوق الممر الأخضر صعوداً نحو الضيعة. بين الحين والآخر كانت تتوقف حين تكون قطرة من الميد قد تجمعت في أسفل القرن... عندها كانت تميله إلى

وجهها الصغير وتلعق الحافة المذهبة من الداخل والخارج ثم تلتقط أصابعها الحلاوة .

جلست كريستين لافرانسداتر هادئة ، تحدق أمامها . أبي ! تذكرت رجفة مرت بوجهه وشحوباً حين أضحت الجبال المغطاة بالحراج بيضاء بعد أن هبت ريح فقلبت الأوراق فوق الأشجار . . . كانت هناك بثرة من الاحتقار البارد القاسي وشعاع في عينيه الرماديتين مثل ومضة سيف نصف مسلول . لحظة ثم تلاشت . . . في مزاح لطيف حين كان شاباً بعد . مع تقدمه في السن كان على الأغلب أكثر رقة وهدوءاً مع حزن . في روح أبيها كانت عذوبة عميقة ورقيقة . لقد عرفت مع السنين كيف تفهمها . . . كانت رقة أبيها الرائعة تأتي ليس من عدم رؤيته بوضوح لأخطاء وشرور البشرية ، ولكن لأنه كان يبحث دائماً في قلبه أمام الرب ويدميه بالتوبة على خطاياه .

كلا يا أبي . لن أكون عديمة الصبر . لقد أخطأت كثيراً ضد زوجي أنا أيضاً . . .

●

في مساء يوم قداس الصليب(٣ أيار/مايو) جلست كريستين إلى المائدة مع أهل المنزل ، ولم يبد عليها إلا ما هو مألوف منها . ولكن حين صعد أبناؤها ليرتاحوا في القاعة العليا ، نادت على أولف هالدورسون برقة . وقد طلبت منه أن ينزل إلى إسريد في المزرعة ويرجوها الصعود إلى السيدة في مبنى الحياكة القديم .

قال أولف : "عليك أن ترسلي وراء رانفايغ أوف أولفسفولدن وهالديس أخت الكاهن يا كريستين . . . والذي هو أفضل أن تحاولي إحضار آستريدو أنجبيورغ أوف لوبتسغارد حتى تشرف على الغرفة . . . "

قالت كريستين : "لم يعد هناك وقت كاف . لقد سبق وشعرت بالآلام الأولى قبل العصر . افعل كما أقول لك يا أولف . . . لن يكون معي سوى خادماتي وإسريد ."

قال أولف بجدية : "كريستين ، ألا ترين أن الناس ستلوك سيرتك كثيراً بألسنتها لو التجأت إلى مخبأ هذه الليلة . . . "

تركت كريستين ذراعيها يسقطان بثقل فوق المائدة . أغمضت عينيها .

"إذن فليفعلوا ما يشاؤون ! لا أستطيع احتمال مشاهدة هؤلاء النسوة الغريبات من حولي في هذه الليلة . . ."

في صباح اليوم التالي جلس أبناؤها الكبار صامتين . . . بعيون مسدلة ، بينما راح مونان يثرثر ويثرثر عن الأخ الصغير الذي رآه بين ذراعي أمه في مبنى الحياكة . وأخيراً قال بيورغولف له إن عليه التوقف عن الكلام حول هذا الأمر .

لم تفعل كريستين شيئاً عدا الاستلقاء والإصغاء . . . لقد بدا لها أنها لم تنم قط بكل هذا العمق حتى أنها لم تكن تصغي ، وتنتظر .

نهضت من سريرها في اليوم الثامن ، ولكن النساء من حولها كن يعرفن أنها لم تكن في حال جيدة . كانت تنتابها الرعشة وموجات من الحرارة . أحياناً كان الحليب يتدفق من ثدييها حتى يبلل ملابسها ، وفي اليوم التالي يجف ثدياها فلا يشبع الرضيع . ولكنها رفضت العودة إلى السرير . كما كانت ترفض أن تترك الطفل ينزل عن ذراعيها . . . لم تكن تضعه في المهد . في الليل كانت تأخذه معها إلى السرير . وفي النهار كانت تتجول وهي تحمله بين ذراعيها وتجلس معه قرب المدفأة ، أو فوق سريرها . كانت تصغي وتنتظر ، وتحدق إليه . ولكن في بعض الساعات كان يبدو عليها أنها لا تراه ولا تسمع بكاءه . ثم يبدو عليها أنها تستيقظ . . . كانت تحمل الصبي وتذرع الغرفة وهي تحمله وخدها على خده . كانت تهدهده بصوت خفيض رقيق . ثم تجلس وتضمه إلى صدرها وتحدق إليه

مجدداً ووجهها كأنما قدّ من حجر . . .

حين أصبح الصبي في أسبوعه السادس . . . ولم تكن أمه قد غادرت مبنى الحياكة بعد . . . دخل أولف هالدورسون وسكوله إليها ذات يوم . كانا قد ارتديا ملابس السفر .

قال أولف : "أجل ، سنسافر شمالاً إلى هاوغن يا كريستين . لا بد من نهاية لهذه الأمور الآن . . . "

جلست كريستين صامتة ومتيبسة ، والصبي على صدرها . في البداية بدا عليها أنها لم تفهم . ثم أجفلت فجأة وتضرج وجهها :

"افعلا ما تشاءان . إن كنتما تتوقان إلى العودة إلى سيدكما فلن أعيقكما . والأفضل أن تتلقيا راتبكما . . . عندها لن تحتاجا إلى العودة إلينا هنا ."

كاد أولف أن يشتم شتيمة قذرة . ثم نظر إلى المرأة وهي واقفة هناك والطفل الصغير مشدود إلى صدرها . ضغط بشفتيه وصمت .

ولكن سكوله تقدم خطوة نحو الأمام .

"أجل يا أمي . . . أنا ذاهب إلى أبي الآن . . . لو أنك نسيت أن أولف كان أبانا بالتربية نحن الأخوة جميعاً ، فعليك أن تتذكري على الأقل أنك لا تستطيعين أن تأمريني وتمنعيني وكأني خادمة أو طفلك الرضيع . . . "

"ألا أستطيع ؟" وصفعته أمه صفعة ترنح معها : "أعتقد أني سآمرك وستفعل كل ما آمرك به طالما كنت أغذيك وألبسك . . . اخرج !" صرخت وهي تضرب الأرض بقدمها .

غضب سكوله غضباً شديداً . ولكن أولف قال بصوت خفيض :

"الأمر أفضل على هذا النحو أيها الشاب . . . الأفضل أن تثور وتكون عنيدة من أن تراها جالسة وكأنها ستجنّ من الحزن . . . "

وصلت غونهيلد خادمة المنزل وهي تركض خلفهما . كان عليهما القدوم فوراً

إلى مبنى الحياكة إلى عند السيدة . . . كانت تريد مخاطبتهما وكذلك جميع أبنائها . وقد طلبت كريستين بكياسة وقسوة من أولف الذهاب إلى برايدين والتكلم إلى رجل استأجر بقرتين منها . أما التوأمان فعليه أن يصطحبهما معه ولا حاجة إلى عودتهما إلى البيت قبل الغد . أما ناكفه وغاوته فأرسلتهما إلى السايتر . . . طلبت منهما الذهاب إلى وادي "إلماند" ليتفحصا وضع الجياد هناك . . . وفي الطريق كان عليهما أن يمرا بحرّاق القار بيورن بن إيسريد ، وأن يطلبا إليه أن يأتي إلى الضيعة في ذلك المساء . لم تكن هناك فائدة من محاولة الاعتذار ، قائلين بأن الغد هو يوم قداس . . .

•

في صباح اليوم التالي حين بدأت الأجراس تقرع ، انطلقت السيدة من يورونداغارد يتبعها بيورن وإيسريد التي حملت الطفل . لقد أعطتهما ملابس جيدة ولائقة . . . ولكن كريستين نفسها زينت نفسها بالكثير من الذهب للذهاب إلى الكنيسة حتى يرى الجميع أنها كانت السيدة وأن الآخرين هما خادماها .

وباعتزاز وتحدّ ، فقد واجهت الاستغراب وسوؤ النية اللذين أحست بهما يواجهانها من عيون الناس فوق مرج الكنيسة . أوه ، أجل ، نوع آخر من الذهاب إلى الكنيسة عرفته سابقاً . . . مع سيدات نبيلات في موكبها . نظر إليها سيرا سولموند بعينين قاسيتين حين وقفت أمام باب الكنيسة والشمعة في يدها . . . ولكنه سمح لها بالدخول كالمعتاد .

كانت إيسريد مجرد مراهقة ولا تفهم إلا القليل . أما بيورن فكان رجلاً غريباً معقود اللسان ، لم يكن يزعج نفسه بشؤون الناس الآخرين . كان هذان هما العرّابة والعرّاب .

تلفظت إيسريد باسم الطفل للكاهن . أجفل وتلعثم للحظة . . . ثم تلفظ به بصوت عال رنّ في صحن الكنيسة أمام كل الناس :

"إرلند . . . باسم الأب والابن والروح القدس . . . "

بدا وكأن صدمة سرت بين حشد المصلين . وأحست كريستين بمتعة مجنونة ثأرية .

بدا الطفل قوياً بما فيه الكفاية حين ولد . ولكن حتى منذ الأسبوع الأول بدت كريستين وكأنها تعرف أن الطفل لن يكون في صحة جيدة . لقد شعرت هي نفسها في لحظة الولادة . . . وكأن قلبها تكسّر مثل جمرة محترقة . وحين أرتها إيسريد الطفل الوليد ، شكت بأن شرارة الحياة لم تكن متقدة جداً في الطفل . ولكنها دفعت بالفكرة بعيداً عنها . . . فمنذ زمن بعيد أحست بأن قلبها كان محطماً في داخلها . وكان الطفل كبيراً بما فيه الكفاية ولا يبدو ضعيفاً .

ولكن قلقها على الطفل كان يزداد من يوم إلى آخر . كان كثير النقّ ولا يحب الطعام كثيراً . . . كانت تجلس محاولة.لفترة طويلة حتى يرضى أن يأخذ ثديها . وحين تستطيع في النهاية أن تجعله يرضع ، كان ينام على الفور تقريباً . . . لم تستطع أن تلاحظ أنه كان ينمو . . .

وبخوف وعذاب في القلب لا يصدقان ، بدا أنها لاحظت من يوم تعميده وحصوله على اسم أبيه ، أن إرلند الصغير كان يذوي ويذوي .

لم تحبب أي واحد ، كلا ، أي واحد من أطفالها كما أحبت هذا الطفل الصغير ، طفل الحزن . لم تحبل بأي منهم بتلك المتعة العذبة المجنونة ، ولم تحمل أي منهم في جوفها بمثل هذا الأمل السعيد . ذهبت أفكارها مجدداً إلى الأشهر التسعة الماضية . في النهاية لم يكن هناك شيء أمامها سوى أن تقاتل بكل قوتها لتتمسك بالأمل والإيمان . لا تستطيع أن تخسر هذا الطفل . . . ولا تستطيع إنقاذه . .

أيها الرب كلّي القدرة ، يا ملكة الرحمة ، أيها المقدس أولاف . . . أحست

بنفسها هذه المرة بأنه لم يكن من المفيد لها أن ترمي بنفسها على الأرض وتتوسل لأجل أن يبقى الطفل حياً .

اغفروا لنا خطايانا كما نغفر لمن يخطئون في حقنا .

كانت تذهب إلى الكنيسة في كل يوم قداس كما كان دأبها ، فتقبل عمود الباب وترش نفسها بالماء المقدس وتحني ركبتها أمام الصليب العتيق فوق قوس الجوقة . كان "المخلص" ينظر من عل بأسى ولطف وهو يعاني سكرات الموت . لقد مات المسيح لينقذ قاتليه . يقف القديس أولاف أمام وجهه ، في توسل أبدي للناس الذين دفعوه إلى الخروج على القانون وذبحوه . . .

كما نغفر لمن يخطئون في حقنا .

يا مريم المباركة . . . طفلي يحتضر ! ألا تعرفين يا كريستين ، لكنت أفضل أن أحمل صليبه وأتحمل موته من أن أقف تحت صليب ابني وأراه أموت . . . ولكن بما أني أعرف أن هذا أمر لا بد منه لإنقاذ الخاطئين ، فقد منحت موافقتي في قلبي . . . وافقت حين صلب ابني . يا أبت اغفر لهم فإنهم لا يعرفون ما يفعلون . . .

كما نغفر لمن يخطئون في حقنا . . .

صرخة قلبك ليست صلاة حتى تتلين "أبانا الذي" دون . . .

اغفر لنا خطايانا . . . أتذكرين كم غفرت لك خطاياك . . . انظري إلى أبنائك هناك بين الناس . انظري إليه هو الذي يقف في الطليعة ، زعيم هذه المجموعة الوسيمة من الشبان . ثمرة خطيئتك . . . منذ عشرين عاماً تقريباً وأنت ترين الرب يضيف إلى وسامته وفهمه ورجولته . انظري إلى رحمته . . . أين رحمتك تجاه أصغر أبنائك في البيت . . . ؟

تذكري أباك . تذكري سايمون دار .

. . . ولكن في أعماق قلبها لم تشعر أنها غفرت لإرلند . لم تستطع لأنها لا تريد . ظلت متمسكة بكوب حبها ، لا تريد إفلاته ، حتى حين لم يكن يحوي شيئاً عدا الحثالة المرة . في اللحظة التي تستطيع فيها أن تغفر لإرلند ، أن تفكر فيه دون مرارة ناهشة . . . عندها سيكون كل ما جرى بينهما قد انتهى .

هكذا وقفت تفكر خلال القداس كله ، وهي تعرف أن هذا لن يفيدها بشيء . حاولت أن تصلّي : أيها القديس أولاف ، ساعدني ، اصنع معجزة في قلبي حتى أتلو صلاتي دون خداع أو مكر . . . حتى أفكر بإرلند بسلام . روحي مترعة بخشية الله . ولكنها كانت تعرف أنها لا تتمنى هي نفسها أن تستجاب هذه الصلاة . وهكذا أحست أنه لم يكن هناك طائل من الصلاة لأجل أن تمنح السماح ببقاء الطفل حياً . كان إرلند الصغير معاراً لها من الله على شرط أن تحافظ عليه ولكنها لن تفعل . وهكذا لا طائل من الكذب على القديس أولاف . . .

●

هكذا راحت تسهر على الصبي المريض . كانت دموعها تتدفق دون توقف . وهي تبكي بصمت ، دون أن تحرك عضلة واحدة في وجهها . كان وجهها كله رمادياً وقاسياً كالحجر . ولكن عينيها وجفنيها راحا يحمران تدريجياً حتى أصبحا بلون الدم . ولو دخل شخص عليها كانت تجفف وجهها على عجل وتجلس صامتة وقاسية .

. . . ومع ذلك كان القليل كافياً لإذابة جليدها . فلو دخل أي من أبنائها الكبار وألقى نظرة على الطفل الصغير ، وقال كلمة لطيفة مواسية له ، كانت الأم لا تستطيع كبح عويلها . لو استطاعت أن تحكي لأبنائها الكبار عن مخاوفها على الصغير ، لكان قلبها قد ذاب جليده . ولكنهم كانوا خجلين منها الآن . ومنذ اليوم

الذي عادوا فيه إلى البيت وسمعوا بالاسم الذي أطلقته على أخيهم الصغير ، بدا الشبان وكأنهم أضحوا أكثر تقارباً ، ونأوا عنها . ولكن في أحد الأيام وبينما وقف ناكفه ينظر إلى الطفل الصغير قال :

"اسمحي لي يا أمي بالذهاب إلى أبي لأقول له كيف هي حال هذا الصبي . . . "

أجابت الأم دون أمل : "لا شيء سيفيد بعد الآن ."

لم يفهم مونان ذلك . جلب ألعابه إلى أخيه الصغير ، وقد سرّ كثيراً حين سمح له بحمله وظن أنه جعل الطفل يبتسم . تحدث مونان عن عودة الأب إلى البيت وتساءل إن كان سيحب هذا الابن الجديد . جلست كريستين صامتة بوجه كالح ، وتركت الصبي يثرثر ثرثرته التي قطعت قلبها .

كان الطفل نحيلاً الآن ومجعداً كرجل عجوز . كانت عيناه كبيرتين ولامعتين . ولكنه كان قد بدأ يبتسم لأمه . . . وكانت تئنّ برقة حين ترى ابتسامته . كانت كريستين تداعب الأعضاء الصغيرة النحيلة وتأخذ قدميه بيدها . . . لن يمسك هذا الطفل بهذه الأشياء الغريبة العذبة الوردية التي ترقص في الهواء فوقه والتي لم يكن يعرف أنها قدماه . لن تطأ هاتان القدمان الأرض .

•

بعد أن جلست خلال أيام الأسبوع المرهقة كلها وهي تراقب الطفل المحتضر ، راحت تفكر وهي تلبس للذهاب إلى الكنيسة . . . كلا ، هي الآن شديدة التواضع دون شك . لقد غفرت لإرلند . . . لم تعد تهتم به بعد الآن . لو أنها تستطيع فحسب أن تمنح الإذن بالاحتفاظ بأغلى وأعذب كنز لديها ، فإنها ستسامح ذلك الرجل بسرور .

ولكن حين همست أمام الصليب بـ "أبانا الذي" ووصلت إلى العبارات

القائلة : " اغفر لنا ذنوبنا وخطايانا" أحست أن قلبها يتقسى كأنه يد تنقبض لتوجه لكمة . لا !

كانت يائسة مريضة الروح فبكت ، فهي لن ترغب بذلك بإرادتها .

وهكذا مات إرلند إرلندسون في اليوم السابق على عيد مريم المجدلية (٢٢ تموز/يوليو) وكان عمره أقل من ثلاثة أشهر .

-٧-

في هذا الخريف وصل الأسقف هالفارد في زيارة إلى الشمال عبر "ديل" . وقد وصل إلى "سيل" في اليوم السابق على قداس ماتيو (١١ أيلول/سبتمبر) . كان قد مرّ أكثر من عامين منذ أن وصل الأسقف شمالاً إلى هذه المنطقة فقد كان هناك أطفال كثيرون لتثبيت العماد هذه المرة وكان بينهم مونان إرلندسون . كان في الثامنة من عمره الآن .

طلبت كريستين من أولف هالدورسون أن يصطحب الصبي إلى الطقوس الكنسية . . . لم يعد لديها صديق واحد في أبرشيتها تستطيع أن تطلب منه هذا . بدا أولف سعيداً حين كلمته عن هذا الأمر . وحين قرعت الأجراس للقداس ، ذهب ثلاثتهم كريستين وأولف والصبي إلى الكنيسة . كان الأبناء الآخرون قد حضروا قداساً مبكراً ما عدا لافرانس الذي كان طريح الفراش من الحمى . لم يكونوا راغبين في حضور هذا القداس فالحشد سيكون عظيماً في الكنيسة .

حين مروا بمنزل الوكيل ، لاحظت كريستين وجود كثير من الجياد الغريبة مربوطة خارج السياج . وحين قطعوا شوطاً من الطريق لحقت بهم يارترود في

موكب كبير ومرت بهم . تظاهر أولف وكأنه لم ير زوجته وأهلها .

كانت كريستين على معرفة أكيدة بأن أولف لم يدخل منزله منذ ما بعد بداية السنة الجديدة بقليل . وكان يقال في ذلك الحين إن الأمور كانت تسوء أكثر من عادتها بينه وبين زوجته . ومنذ ذلك الحين نقل خزانة ملابسه وأسلحته إلى القاعة العليا ، وسكن هناك مع الشبان . في إحدى المرات ، في بداية الربيع ، قالت كريستين له إنه لأمر سيئ أن يكون هو وزوجته على هذا الخلاف الشديد . . . وقد نظر إليها وضحك على نحو جعلها لا تقول المزيد .

كانت الشمس مشرقة والطقس بديعاً . بعيداً هناك فوق "ديل" كان الجو أزرق بين الجبال . أما الأوراق الصفراء للمنحدرات المغطاة بالبتولا فكانت قد بدأت بالتلاشي ، وفي الأبرشية كان معظم القمح قد حصد ، ولكن هناك وهناك قرب المزارع كان حقل شعير شاحب اللون ما زال يتماوج ، كما كانت الغلة الثانية تنتصب خضراء مبلّلة بالندى فوق المروج . كان هناك خلق كثير في الكنيسة ، كما كان هناك الكثير من الحمحمة والصهيل من الجياد ، فقد كانت إسطبلات الكنيسة ملأى ، واضطر كثيرون إلى ربط جيادهم في الخارج .

كان هناك نوع من الجو المكبوت المعادي يعم بين الحشد ، أنى جعلت كريستين رفاقها يتجهون . ضرب شاب على فخذه وضحك ، ولكن أسكته أهله بحدة . سارت كريستين بخطوات مقيسة ورأس مرفوعة عالياً ، فوق المرج نحو باحة الكنيسة . توقفت أولاً برهة قرب قبر الطفل ثم قرب قبر سايمون أندرسون الذي وضع فوقه لوح حجري رمادي مسطح . . . كما نحت فوقه ما يشبه شكل رجل في خوذة ذات طنف أمامي ودرع من الزرد ، وهو يضع يديه فوق ترسه الكبير ذي الزوايا الثلاث وله شعار . على حافة الحجر كان قد نحت ما يلي باللاتينية :

"في سلام . سايمون أرميجير . برولس دوم . ابن أندريا غودموندي . ميليتيس باتر نوستر ."

وقف أولف خارج الباب الجنوبي . كان قد وضع سيفه في الرواق .

ثم جاءت يارترود إلى باحة الكنيسة مع أربعة رجال في صحبتها : كان بينهم أخواها ومزارعان عجوزان ، أحدهما كولباني يونسون الذي كان حامل سلاح لافرانس بيورغولفسون لسنوات كثيرة . وقد اتجهوا نحو باب الكاهن ، إلى جنوب الجوقة .

قفز أولف هالدورسون ووضع نفسه في طريقهم . سمعت كريستين كلاماً حاراً وسريعاً من حيث كانوا يقفون . كان أولف يمنع زوجته ومن معها من التقدم . اقترب الناس الذين كانوا في باحة الكنيسة ، كما مضت كريستين إلى هناك . ثم قفز أولف فوق القاعدة الحجرية التي كانت تحمل أقواس الدير ، وانحنى وأمسك بالفأس الأولى التي استطاع الوصول إليها . وحين حاول أحد أخوي يارترود جذبه إلى الأسفل قفز أولف إلى الأمام ولوح بالفأس . أصابت الضربة أخا زوجته في كتفه فهرع الناس وأمسكوا بأولف . ناضل ليحرر نفسه . رأت كريستين وجهه وقد تضرج بالدم وتلوى يائساً .

ثم وصل سيرا سولموند وأحد كهنة الأسقف إلى باب الكاهن . تبادلا بعض الكلمات مع المزارعين . وفوراً هرع ثلاثة من الخدم كانوا يحملون ترس الأسقف الأبيض وأمسكوا بأولف واقتادوه بعيداً عن مقبرة الكنيسة . ولكن زوجته ومن معها دخلوا الكنيسة وراء الكاهنين .

خطت كريستين نحو الأمام إلى حشد المزارعين :

"ما الأمر" سألت بحدة . "أين يأخذون أولف ؟"

"لقد رأيت كما أعتقد أنه ضرب رجلاً في باحة الكنيسة" أجاب أحدهم بحدة . ابتعد الناس كلهم عنها ، فتركت واقفة لوحدها مع ابنها قرب باب الكنيسة .

ظنت كريستين أنها فهمت : إن زوجة أولف ستتقدم بشكوى ضده إلى الأسقف . وبنسيان نفسه والاعتداء على سلام باحة الكنيسة فقد أصبحت

القضية ضده . وحين وصل قندلفت غريب من القرّاء إلى الباب ونظر خارجاً ، تقدمت منه وذكرت له اسمها وطلبت إليه أن يحضرها أمام الأسقف .

في الكنيسة كانت كل كنوزها معروضة للعيان ، ولكن الشموع على المذبح لم تكن قد أشعلت بعد . كان قليل من نور الشمس يصل عبر النوافذ المستديرة الصغيرة العالية ، وتتسلل نزولاً بين الأعمدة البنية الداكنة . كان جزء من الحشد قد سبق له ودخل إلى الصحن ، وجلس على المقاعد التي على امتداد الجوار . في مكان الجوقة أمام عرش الأسقف كانت مجموعة من الناس ، يارترود باندسياتر وأخواها - كان غايرلوف قد ربط ذراعه - وكولباين يونسون وسيغورد غايتونغ وتوره بوغيلدسون . إلى الخلف وحول الكرسي المنحوت وقف كاهنان شابان من هامار ، ورجال آخرون من أتباع الأسقف وسيرا سولموند .

حدق كل هؤلاء بشدة حين تقدمت سيدة يورونديغارد إلى الأمام وانحنت انحناءة عميقة أمام الأسقف .

كان السير هالفارد رجلاً طويلاً قوي البنية ذا مظهر شديد الوقار . تحت قبعته الحمراء الحريرية كان شعره يلمع أبيض كالثلج فوق الصدغين ، ووجهه المليء البيضاوي يشع كبيراً وأحمر . كان له أنف قوي ومعوج وذقن ثقيل . أما فمه فكان ضيقاً كأنه مجرد شق ، ويكاد يكون بلا شفاه فوق وجهه الحليق الأبيض الرمادي . . . ولكن الحاجبين الكثيفين فوق العينين السوداوين اللامعتين كانا لا يزالان داكنين .

"فليكن الله معك يا كريستين لافرانسداتر" ، قال سير هالفارد . نظر إلى المرأة متأملاً من تحت حاجبيه الكثيفين . كانت إحدى يدي الرجل العجوز الكبيرة البيضاء تمسك بالصليب الذهبي على صدره . في اليد الأخرى كان يمسك بلوح من الشمع .

"ما الذي يجعلك تطلبين مقابلتي هنا ؟ أيتها السيدة كريستين ؟" سأل الأسقف مجدداً . "ألا تظنين أنه كان الأجدر بك أن تؤجلي الأمر إلى ما بعد

الظهر ، وأن تأتي إليّ في روموندغارد لتقولي لي ما الذي يثقل على قلبك ؟"

"لقد طلبت يارترود هربراندسداتر مقابلتك هنا ، أيها الأب المبجل" أجابت كريستين . "والآن فإن أولف هالدورسون كان في صحبة زوجي منذ خمس وثلاثين سنة . كان دائماً الصديق المخلص والمساعد والقريب الصادق . . . لذلك ظننت أني قد أستطيع مساعدته على نحو ما ."

أطلقت يارترود صرخة خفيفة تدل على الاحتقار أو الغضب . . . حدق كل الآخرين إلى كريستين ، سكان الأبرشية بنظرات مريرة وموكب الأسقف بحدّة وفضول . نظر السير هالفارد من حولهِ بصرامة . ثم قال لكريستين :

"أتريدين أن تدافعي عن أولف هالدورسون ؟ ربما تعرفين" ، قال بسرعة وهو يرفع يده حين أرادت أن تجيب ، "لا يحق لأحد أن يناديك لتتكلمي في هذه المسألة – باستثناء زوجك- إذا لم يدفعك ضميرك إلى ذلك . فكري أولاً . . . "

"لقد فكرت كثيراً بذلك يا سيدي الأسقف ، أن أولف ترك الغضب يخرجه عن طوره ووضع يده على سلاح على باب الكنيسة . . . قد أستطيع مساعدته بدفع الكفالة أو بأمر آخر ." وهنا قالت بألم : "أنا على ثقة تامة من أن زوجي سيفعل كل ما بوسعه في هذه القضية لمساعدة صديق وقريب . . . "

التفت الأسقف نافد الصبر إلى الواقفين الذي بدا عليهم جميعاً الغضب :

"لا حاجة للمرأة أن تتأخر هنا . يمكن للناطق باسمها أن ينتظر في الصحن . . . ارحلوا جميعاً بينما أحادث السيدة . . . وأرسلوا الناس إلى الخارج في هذه الأثناء . . . ومعهم يارترود هربراندسداتر ."

كان أحد الكهنة الشبان مشغولاً بترتيب ملابس الأسقف . والآن وبعناية شديدة وضع التاج الأسقفي بصليبه الذهبي على الطيات المنشورة للرداء ، ثم نزل وتكلم قليلاً مع الناس الذين في الصحن . تبعه الآخرون إلى هناك . غادر الحشد ومعهم يارترود وأغلق حافظ غرفة المقدسات الأبواب .

قال الأسقف وهو ينظر إليها كما من قبل : "تكلمت عن زوجك . هل صحيح أنك حاولت أن تصالحيه في الصيف الماضي ؟"

"أجل يا سيدي ."

"ولكنكما لم تتفقا ؟"

"سيدي - أغفر لي لو نطقت بذلك - ولكني لم أتقدم بشكوى ضد زوجي . لقد أردت أن أراك حتى أتكلم عن قضية أولف هالدورسون . . . "

"هل يعرف زوجك بهذا . . . أنك كنت حاملاً ؟" سألها السير هالفارد . بدا وكأنه غاضب من احتجاجها .

قالت بصوت خفيض جداً : "أجل يا سيدي ."

سألها الأسقف : "وكيف تصرف إرلند نيكولاوسون حيال ذلك النبأ ؟"

وقفت كريستين بعيون مسدلة وهي تلوي بين أصابعها طرف غطاء رأسها الكتاني .

"ألم يرغب بمصالحتك حين علم بالأمر ؟"

"يا سيدي سامحني . . . " تضرج وجه كريستين إلى حد كبير . "سواء كان سيدي إرلند يعاملني على هذا النحو أو ذاك . . . ولكن لو كان حضور إرلند إلى هنا يمكن أن يساعد أولف في قضيته ، فأعتقد أن إرلند سيسرع إلى هنا من أجله ."

قطب الأسقف حاجبيه وهو ينظر إليها :

"أتعنين أن إرلند الآن - بسبب صداقته لهذا الرجل أولف- أو لأن المسألة أصبحت تحت الأضواء الآن - سيعترف بالطفل الذي ولدته في الربيع الماضي ؟"

رفعت كريستين رأسها . . . حدقت إلى الأسقف بعينين مفتوحتين وشفاه نصف مغلقة . كأنما كان المعنى الآن ، معنى كلماته يصلها . نظر سير هالفارد إليها بجدية .

"صحيح أيتها المرأة أنه لا يحق سوى لزوجك أن يتهمك بهذا الإثم . ولكنك تفهمين أنك أنت وهو مذنبان بخطيئة كبرى لو أنه أخذ على عاتقه مسؤولية أبوة طفل رجل آخر ليحمي أولف . الأفضل لكم جميعاً إن كنت ارتكبت الإثم أن يتم الاعتراف بالإثم والتكفير عنه ."

شحب وجه كريستين ثم عاد اللون إليه :

"هل قال أحد إنه لم يكن زوجي . . . إن الطفل لم يكن ابنه . . . ؟"

سأل الأسقف ببطء :

"إذن عليّ أن أصدق يا كريستين أنك لا تعرفين حتى ما يقوله الناس عنك وعن وكيل مزرعتك . . . ؟"

"لا أعرف" ، شدت من قوامها ووقفت ورأسها إلى الوراء قليلاً ، ووجهها أبيض تحت غطاء رأسها الكتاني . "والآن أرجوك يا سيدي وأبي المبجل . . . إن كان هناك من شوه سمعتي من خلف ظهري ، بأن تطلب إليه أن يقوم بذلك في وجهي !"

أجاب الأسقف : "لم تذكر أي أسماء . هذا مخالف للقانون . ولكن يارترود هربراندسداتر طلبت تفريقها من زوجها وأن تذهب إلى بيت أهلها مع ذويها ، مدعية أنه يعاشر امرأة أخرى ، امرأة متزوجة ، وقد رزق منها بطفل ."

مرت برهة من الزمن صمت فيها كلاهما . ثم تكلمت كريستين مجدداً :

"سيدي . . . أتوسل إليك ، قدم لي هذه المنّة واطلب من هؤلاء الرجال أن يقولوا تحت سمعي إني هذه المرأة ."

نظر الأسقف هالفارد إلى السيدة بحدة وبتمعّن . ثم أشار بيده . . . استعد الرجال الذين في الصحن ووقفوا من حول كرسيه . نطق السير هالفارد :

"أنتم يا رجال سيل الطيبون قد جئتم إلي في وقت غير ملائم وقدمتم إلي شكوى كان يجب أن تحال أولاً إلى نائبي . لقد عرفت بالأمر الآن ، فأنا أعرف

أنكم لستم على اطلاع بالقانون . ولكن هاهي هذه المرأة ، السيدة كريستين لافرانسداتر أوف يوروندغارد ، تأتي إلي بطلب غريب . . . تطلب مني أن أسألكم إن كنتم تجرؤون على أن تقولوا لها وجهاً لوجه إنه سرت شائعة في الأبرشية أن زوجها إرلند نيكولاوسون لم يكن والد الطفل الذي ولدته في الربيع ؟"

أجاب سيرا سولموند :

"لقد قيل في كل ضيعة وكل كوخ في أبرشيتنا إن الطفل ولد بالزنا وبالعلاقة المحرمة بين السيدة ووكيلها . وبالنسبة إلينا لا يبدو ممكناً أن المرأة نفسها لا تعرف هذه الإشاعة ."

أراد الأسقف أن يتكلم ولكن كريستين قالت بصوت عال وثابت :

"إذن فليساعدني الرب كلي القدرة ومريم العذراء والقديس أولاف والقديس توماس الأسقف . . . أنني لم أعرف قط أن هذه الكذبة قد قيلت عنا ."

"إذن ليس من السهل أن نفهم كيف أنك أخفيت بكل تلك البراعة حملك عن الناس" سأل الكاهن . "لقد أخفيت نفسك عن كل الناس ولم تخرجي من بيتك إلا بالكاد طوال الشتاء ."

"منذ زمن طويل لم يعد لي أصدقاء في هذه الأبرشية . . . ولم يعد لدي سوى القليل من الرفيقات في هذه السنوات الأخيرة هنا . رغم أني لم أعرف حتى الآن أنهم كانوا كلهم أعدائي . ولكني كنت أحضر إلى الكنيسة في كل يوم قداس" ، قالت المرأة .

"أجل . . . وكنت تلفين نفسك في عباءات سميكة وترتدين ملابسك بحيث لا يرى أحد أن بطنك قد كبرت تحت حزامك . . . "

"وهذا ما تفعله كل امرأة . . . فهي تحب أن تبدو وسيمة حين تكون بين الناس" ، أجابت كريستين برقة .

تكلم الكاهن مجدداً :

"لو كان الطفل من زوجك كما تقولين ، فأعتقد أنك ما كنت سترعينه على ذلك النحو السيئ حتى مات من سوء رعايتك ."

تقدم أحد كهنة هامار الشبان ووضع ذراعه من حول كريستين بسرعة . بعد لحظة كانت تقف كما من قبل . . . شاحبة ومستقيمة . . . شكرت الكاهن بكل وقار .

تابع سيرا سولموند بقوة :

"قالت الخادمات في يوروندغارد ذلك . . . أما أختي التي تزور الضيعة أحياناً فرأت ذلك أيضاً . . . لقد ذهبت المرأة إلى هناك وكان الحليب يتدفق من ثدييها حتى أن ملابسها كانت تبلل منه . . . ومع ذلك لاحظت كل امرأة أن جسم الصبي كان يحمل آثاراً تدل على أنه مات جوعاً . . . "

ضرب الأسقف هالفارد جانباً بيده :

"يكفي يا سيرا سولموند . علينا أن نعالج القضية التي بين أيدينا ، وهي إن لم يكن لدى يارترود هربراندسداتر ما تعتمد عليه حين تقدمت بشكواها ضد زوجها ، عدا ما سمعته من حكايات تقول السيدة هنا إنها أكاذيب . . . وإن كانت كريستين قادرة على البرهنة على أنها غير صحيحة . لا أحد يقول كما أعتقد أنها قتلت طفلها . . . "

ولكن كريستين وقفت شاحبة ولم تقل شيئاً .

التفت الأسقف نحو كاهن الأبرشية :

"ولكن أنت يا سيرا سولموند ، كان من واجبك الإلزامي أن تتحدث إلى هذه المرأة وتبلغها بما يقوله الناس عنها . هل فعلت ذلك ؟"

تضرج وجه الكاهن :

"لقد صليت من قلبي لأجل هذه المرأة ، حتى تبتعد من تلقاء ذاتها عن غرورها وتتوب وتكفّر عن ذنوبها . ولم يكن أبوها - صديقي - كذلك" ، قال

الكاهن بقوة . "لكن مع ذلك أعرف أيضاً أن لافرانس أوف يورروندغارد كان رجلاً ورعاً وقوي الإيمان . صحيح أنه كان يستحق نسلاً أفضل . . . ولكن ابنته هذه قد كومت العار فوق العار عليه . لم تكن قد كبرت كثيراً بعد حين سببت باستهتار بموت شابين صالحين من شبان الأبرشية هنا . ثم فسخت خطبتها من مرشح فارس جريء وشهم اختاره لها والدها ليكون زوجاً لها ، وتزوجت هذا الرجل الذي تعرف يا سيدي أنه أصبح خارجاً على القانون وخائناً . ولكنني ظننت في النهاية أن قلبها سيرقّ لابد ، حين رأت أنها كانت تقطن هنا مكروهة ومحتقرة وذات شهرة هي الأسوأ ، هي وكل أولادها في يورروندغارد . . . حيث عاش أبوها وراغنفريد إيفارسداتر بكل الحب والاحترام . . .

"ولكن كان الأمر أكثر من أن يحتمل حين جاءت هذه المرة مع ابنها لأجل تثبيت العماد . . . وكان على ذلك الرجل أن يقود الصبي أمامك وكل الأبرشية تعلم أنها عاشت معه في حالة زنا وغشيان محارم . . . "

أشار الأسقف إلى الآخر أن يصمت ثم سأل كريستين :

"ما هي صلة الدم بين زوجك وأولف هالدورسون ؟"

"والد أولف الحقيقي هو بارد بيترسون أوف هستنايس ، وهو شقيق غاوته إرلندسون أوف سكوغهايم جدّ إرلند نيكولاوسون لأمه ."

التفت سير هالفارد إلى سيرا سولموند نافد الصبر :

"هذا ليس غشيان محارم . . . إن حماتها وأولف أولاد عم . . . هذا انتهاك لصلة القرابة وهي خطيئة كبيرة ، إن كانت صحيحة . . . لا حاجة إلى جعلها أسوأ مما هي عليه ."

"أولف هالدورسون عرّاب أكبر أبناء هذه المرأة" ، قال سيرا سولموند .

نظر الأسقف إليها فأجابت كريستين :

"أجل يا سيدي ."

جلس الأسقف برهة في صمت .

"فليكن الله في عونك يا كريستين لافرانسداتر" ، قال بحزن .

"عرفت أباك منذ زمن طويل . . . كنت ضيفه في يورونداغارد في شبابي . أتذكرك جيداً حين كنت طفلة جميلة بريئة . ولو عاش لافرانس بيورغولفسون لما كان هذا سيحدث . فكري في أبيك يا كريستين . . . فلأجله عليك أن تتخلصي من هذه التهمة المخزية وتبرئة ساحتك لو استطعت ذلك . . . "

ومثل وميض البرق تذكرت كريستين . . . لقد ميّزت الأسقف مجدداً . يوم شتائي في ساعة الغروب . . . فحل أحمر صغير في الباحةِ ، وكاهن بحلقة سوداء من الشعر حول وجهه الأحمر الناري . هاهو معلق بحبل الرسن وقد تناثر الزبد فوقه ، محاولاً السيطرة على الحيوان الحرون والركوب فوقه دون سرج . كانت مجموعات من ضيوف عيد الميلاد الثملين الضاحكين تحوم في المكان ، وأبوها بينهم ، بوجه أحمر من الشراب والبرد ، وهو يصرخ بمرح . . .

التفتت نحو كولباين يونسون :

"كولباين ! أنت الذي عرفتني منذ كنت في المهد . . . أنت الذي عرفتني وأختّي في بيت أبينا وأمنا . . . أعرف أنك أحببت أبي كثيراً . . . كولباين . . . هل تصدق ما يقال عني ؟"

نظر إليها المزارع كولباين بوجه قاس وحزين :

"لقد أحببنا أباك كما تقولين . . . أجل ، نحن خدمه ، خدمه الفقراء وعامة الناس الذين أحبوا لافرانس أوف يورونداغارد واعتبروه شخصاً اختاره الله ليكون زعيماً . . .

"لا تسألينا يا كريستين لافرانسداتر نحن الذين رأينا كيف أحبك أباك وكيف كافأته على حبه . . . لا تسألينا عما نراه أمراً شريراً تفعلينه !"

طأطأت كريستين برأسها فوق صدرها . لم يعد الأسقف قادراً على أن يأخذ

منها أي كلمة أخرى . . . لم تعد تجيب على أسئلته .

ثم نهض سير هالفارد . إلى جوار المذبح العالي كان باب صغير يقود إلى طريق مغلق خلف الجزء الناتئ من الكنيسة . كان جزء من هذا يستعمل كموهف وقد غرزت فيه بعض الفتحات الصغيرة التي يمكن من خلالها للمصابين بالجذام أن يستقبلوا المضيف حين يقفون في الخارج هناك ويصغون إلى القداس بعيداً عن بقية المصلين . ولكن منذ سنوات عديدة لم يكن أحد مصاباً بالجذام في الأبرشية .

"ربما كان من الأفضل لك أن تنتظري هناك يا كريستين حتى يدخل الناس إلى الصلاة . سأكلمك لاحقاً . . . ولكن عليك الآن أن تذهبي إلى البيت" .

انحنت كريستين أمام الأسقف .

" أفضل الذهاب إلى البيت فوراً أيها السيد المبجّل إن منحتني الإذن ."

" كما تريدين يا كريستين لافرانسداتر . ليكن الرب حاميك أيتها السيدة . . . إن كنت بريئة فتأكدي من أن الرب نفسه وشاهدي دمه اللذين هما سيدا هذه الكنيسة ، القديس أولاف والقديس توماس اللذين ماتا في سبيل الفضيلة سيعملون على تبرئتك ."

انحنت كريستين ثانية أمام الأسقف . ثم مضت عبر باب الكاهن إلى باحة الكنيسة .

كان غلام مراهق ضئيل الحجم في ثوب أحمر جديد يقف هناك لوحده ، متيبساً ومنتصباً . التفت مونان بوجهه الطفولي الشاحب نحو أمه . كانت عيناه كبيرتين وخائفتين .

أبناؤها . . . لم تكن قد فكرت فيهم من قبل . وفي ومضة رأت مجموعة أبنائها . . . وهم واقفون على حاشية حياتها في هذا العام الأخير ، وهم يتجمعون معاً مثل قطيع من الجياد في عاصفة رعدية وقد أصابه الفزع . . . بعيداً عنها ،

بينما تناضل هي في النزاع الأخير من حبها . ما الذي رأوه وما الذي فكروا فيه ، ما الذي عانوه وهي تتقلّب وتتلوّى في جنونها . . . ؟ ما الذي سيحل بهم الآن . . . ؟

أمسكت بيد مونان الصغيرة الخشنة بيدها . كان الصبي يحدق مباشرة أمامه . . . ارتجف فمه قليلاً ، ولكنه تماسك .

مضت كريستين لافرانسداتر ويدها بيد ابنها عبر المقبرة ، ثم إلى مرج الكنيسة . فكرت في أبنائها ، وبدا لها وكأن عليها أن تنهار وترتمي أرضاً . كان حشد من الناس يقترب من أبواب الكنيسة بينما كانت الأجراس تدق كلها .

كانت قد سمعت حكاية ذات مرة عن رجل قتيل لم يستطع السقوط أرضاً لكثرة الرماح التي اخترقته . ولم تستطع وهي تمشي هناك أن تقع أرضاً لأن كل العيون كانت تخترقها .

●

صعدت الأم والطفل إلى القاعة العليا . وقف الأبناء من حول بيورغولف الذي كان يجلس إلى المائدة . كان رأس ناكفه يعلو جميع أخوته ، حيث يقف هناك بيد على كتف الصبي نصف الأعمى . رأت كريستين وجه بكرها الضيق الداكن ذا العينين الزرقاوين .

سألت بهدوء وهي تدخل نحو مجموعة الشبان :

"هل عرفتم بذلك ؟"

أجاب ناكفه عنهم جميعاً : "أجل . كانت غونهيلد في الكنيسة ."

وقفت كريستين قليلاً . كان الأخوة قد التفتوا مجدداً إلى أخيهم الأكبر ، حتى نطقت الأم :

"هل عرف أي منكم أن مثل هذه الأمور كان يهمس بها في الأبرشية . . . عن أولف وعني ؟"

التفت إليها إيفار إرلندسون فجأة :

"أتظنين يا أمي أننا لو علمنا أنك ما كنت ستسمعين شيئاً عن أفعالنا ؟ لست بالرجل الذي يجلس هادئاً ويترك أمه تسمى ظلماً بالزانية . . . حتى لو كنت أعرف أن ذلك صحيح وأنها زانية حقاً !"

قالت كريستين بحزن :

"أتعجب يا أبنائي ما هو رأيكم يا ترى بكل ما جرى في هذا العام الأخير ."

وقف الأبناء صامتين . ثم رفع بيورغولف وجهه ونظر إلى أمه بعينيه المريضتين :

"يا للمسيح يا أمي - ما الذي يمكن أن يكون رأينا - هذا العام - وكل الأعوام التي مضت من قبل ؟ أتعتقدين أنه سهل علينا أن نعرف كيف يكون رأينا؟"

قال ناكفه :

"أوه ، أجل يا أمي . . . ربما كان عليّ أن أكلمك ولكنك كنت تتصرفين على نحو لم أستطع معه فعل ذلك . وحين عمّدت أخانا الأصغر وكأنك اعتبرت أبانا رجلاً ميتاً . . . " توقف بإشارة عنيفة .

تحدث بيورغولف مجدداً :

"لم تفكري أنت وأبونا إلاّ بهذا النزاع بينكما . . . لم تفكرا في أننا ننمو لنصبح رجالاً في هذه الأثناء . لم تكترثا قط بمن سيصاب بأسلحتكما ويعاني من جروح نازفة . . . "

كان قد نهض واقفاً . وضع ناكفه يده على كتفه . رأت كريستين أن كلامه كان صحيحاً . . . كان هذان رجلين ناضجين . بدا لها وكأنها تقف عارية أمامهم ، وكأنها هي نفسها كانت قد خلعت ملابسها دون خجل أمام أولادها . . .

لقد رأوا هذا أكثر من شيء آخر خلال سنوات نموهم . . . أن أباهم وأمهم قد

أصبحا شخصين عجوزين . . . وأن نزوات الشباب لم تعد تلائمهما . . . ومع ذلك لم يكونا قد نضجا من حيث الشرف والوقار . . .

ثم قاطع الصمت صوت طفولي . راح مونان يندب قائلاً :

"أمي . . . هل سيأخذونك إلى السجن يا أمي ؟ هل سيأتون ليأخذوا أمنا منّا ؟"

رمى بذراعيه من حولها وضغط بوجهه تحت صدرها . ضمته كريستين إليها وانهارت على المقعد واحتوت الصبي الصغير الباكي بين ذراعيها . حاولت أن تواسيه .

"ابني الصغير ، ابني الصغير ، لا تبكي هكذا . . . "

ذهب غاوته ليضع يده على أخيه الصغير : "لن يأخذ أحد أمنا منا . لا تبك هكذا . . . لا يستطيعون إيذاءها . والآن علينا أن نكون هادئين يا مونان . . . عليك أن تعرف أيها الصبي أننا سنحرس أمنا !"

جلست كريستين مع الطفل وقد انحشر إلى جانبها . . . كأنما أنقذها الصغير بدموعه .

ثم قال لافرانس . . . نهض وحمرة الحمى في وجنتيه :

"أجل . . . ما الذي سنفعله أيها الأخوة ؟"

قال ناكفه : "حين ينتهي القداس ، سنذهب إلى بيت الكاهن ونعرض كفالة لأبينا بالتربية . هذا أول أمر سنفعله . . . ألا تعتقدون هذا أيها الشباب الطيبون ؟"

أجاب بيورغولف وغاوته وإيفار وسكوله بنعم . قالت كريستين :

"لقد حمل السلاح ضد رجل في باحة الكنيسة . وعليّ أن أفعل شيئاً ما لأحرره ونفسي من هذه الافتراءات . هذه قضايا خطرة جداً يا أبنائي وأعتقد أن عليكم أنتم أيها الشبان أن تشاوروا شخصاً ما حول كيفية التعامل معها ."

سأل ناكفه بلهجة احتقار : "ومن تعتقدين أننا سنستشير ؟"

"السير سيغورد أوف سوندبو هو ابن خالتي" أجابت أمه وهي تتلعثم قليلاً .

قال الشاب كما من قبل : "بما أنه لم يسبق له وفكر بذلك قبل الآن ، فأعتقد أننا أبناء إرلند لن نذهب لنتوسله بعد أن حلت بنا ضائقة . ما رأيكم يا أخوتي ؟ إن لم كنا بلغنا سن الرشد إلا أننا نستطيع حمل السلاح . . . خمستنا . . . "

قالت كريستين : " أيها الشباب ، في هذه القضية لن تسارعوا إلى السلاح ."

قال ناكفه برقة : "عليك أن تتركي الحكم لنا يا أمي . ولكن الآن يا أمي هيا نتناول بعض الطعام . واجلسي في مكانك المعتاد لأجل الخدم" ، قال هو كمن يعطي أمراً .

لم تستطع أن تأكل الكثير . جلست وهي تفكر . . . لم تجرؤ على السؤال إن كانوا سيرسلون في طلب أبيهم . وفكرت . . . كيف ستعالج هذه القضية ؟ إنها لا تعرف إلا القليل عن القانون في هذه الأمور . . . ربما عليها أن تبرئ نفسها من الافتراء بالقسم بشهود البراءة . وإن كان ذلك سيحدث ، فعلى الأغلب سيجري في الكنيسة الكبرى ، كنيسة أولينسين في فاغا . . . هناك لديها أقارب من جانب أمها في كل ضيعة كبرى تقريباً . وماذا لو سقط قسمها أرضاً . . . وكان عليها أن تقف أمامهم دون قدرة على تبرئة نفسها من التهمة ! ستجلب العار على أبيها . . . لقد كان غريباً عن "ديل" هنا . ولكنه استطاع أن تكون له مكانة وكان الجميع يحترمونه . في تلك الأيام حين كان لافرانس بيورغولفسون يعالج قضية ما في مجلس النبلاء أو مجلس شعبي ، كان لديه دائماً أتباع كثيرون . ولكنها عرفت أن عارها سيرتد عليه . رأت الآن على الفور كم كان أبوها وحيداً . . . رغم كل شيء كان وحيداً و غريباً بين الناس هنا ، حين راحت تحمله المرة تلو الأخرى

عبء العار والحزن والسمعة السيئة .

لم تكن قد فكرت أنها تستطيع أن تحس بهذا بعد الآن . . . ومن جديد بدا لها أن قلبها سيتحطم إلى قطع نازفة . . . والآن كان على وشك أن ينفجر .

خرج غاوته إلى الشرفة ونظر إلى الشمال .

قال : "الناس خارجون الآن من الكنيسة . هل ننتظر حتى يكونوا قد ابتعدوا أكثر في طريقهم ؟"

أجاب ناكفه : "لا . قد يفضلون أن يروا أن أولاد إرلند قد خرجوا . علينا أن نهيئ أنفسنا الآن أيها الشباب . من الجيد أنكم أحضرتم خوذكم معكم ."

كان ناكفه هو الوحيد الذي يملك العدة الصحيحة . كان قد ترك درعه ، إنما وضع خوذته على رأسه ، وأخذ ترساً وسيفاً ومطرداً . كان بيورغولف وغاوته يرتديان الخوذ الحديدية القديمة التي يرتديها الأولاد لدى التمرين على المبارزة بالسيوف ، ولكن إيفار وسكوله كانا يفضلان القبعات الفولاذية الصغيرة كالتي لا يزال المجندون من الأتباع يستخدمونها . نظرت أمهم إليهم وأحست بضيق غريب في الصدر :

"يبدو أنها ليست فكرة جيدة يا أبنائي أن نسلح أنفسنا ونحن ذاهبون إلى ضيعة الكاهن" قالت بصعوبة . "انتبهوا إلى عدم نسيان سلام اليوم المقدس رتوقير الأسقف ."

أجاب ناكفه :

"هناك ندرة في الشرف هنا في يوروندغارد الآن يا أمي . . . علينا أن نشتريه بأي سعر قد يتطلبه الأمر . . . "

توسلت الأم بخوف ، فالصبي ضعيف البصر قد حمل فأساً حربية كبيرة .

"تذكر يا بني أنت لا تستطيع أن ترى إلا قليلاً !"

"أستطيع أن أرى بمقدار ما تصل هذه الفأس" قال بيورغولف وهو يزن الفأس بيده .

ذهب غاوته نحو سرير لافرانس الصغير وتناول سيف جده الحربي الكبير الذي كان معلقاً فوق الجدار فوق السرير. استلّه من الغمد ونظر إليه:

"عليك أن تعيرني هذا السيف يا أخي... وأعتقد أن جدنا كان سيحب جيداً أن يصطحبنا هذا السيف في رحلتنا هذه."

راحت كريستين تفرك يديها وهي جالسة. بدا وكأنها ستصرخ- ألماً ورعباً - تحثها قوة أكبر من الألم أو الرعب... كما صرخت حين ولدت هؤلاء الشبان. جراح وجراح لا حصر لها أصيبت بها خلال حياتها، ولكنها كانت تعرف الآن أنها شفيت كلها... أما الندوب فكانت لا تزال تؤلمها... ولكنها لن تنزف حتى الموت... لم يسبق لها أن كانت حيّة أكثر من الآن...

كانت البراعم والأوراق قد تساقطت عنها إلا أن أغصانها لم تكن مقطوعة، كما لم تكن قد اجتثت كشجرة. ولأول مرة منذ أن حملت طفل إرلند نيكولاوسون نسيت الأب تماماً ولم تعد ترى سوى أبنائه...

ولكن الأبناء لم يكونوا ينظرون إلى أمهم وهي جالسة شاحبة بعينين واسعتين مثبتتين. كان مونان لا يزال ممدداً على حضنها... لم يكن قد تركها قط طوال الوقت. خرج الشبان الخمسة من العلية.

نهضت كريستين وخرجت إلى الشرفة. والآن تقدموا من خلف المستودعات وتوجهوا الواحد في إثر الآخر فوق الممر باتجاه رومونغارد بين حقول الشعير الشاحبة المتموجة. كانت الخوذ والقبعات الفولاذية تلتمع على نحو كليل، ولكن نور الشمس كان يشع فوق رمح ناكفه ورأسي رمحي التوأمين. وقفت هناك تلاحق الشبان بنظرها. كانت أماً لهم كلهم.

في الغرفة انهارت أمام الخزانة التي كانت صورة مريم العذراء معلقة عليها. كان نحيبها وعويلها يكادان يمزقانها. لاذ مونان الباكي أيضاً بأمه. قفز لافرانس من سريره ورمى بنفسه على ركبتيه من الجانب الآخر. رمت بذراعيها من حول أصغر ابنيها...

منذ أن مات ابنها الصغير . . . كانت قد فكرت : ما الذي لديها لتصلّي لأجله ؟ كانت تحس بأنها تسقط نحو فكي جهنم الفاغرين قاسية وباردة وثقيلة كصخرة . ولكن الصلاة انفجرت الآن من شفتيها دون مقاومة . . . دون إرادة واعية منها راحت روحها تصب نفسها نحو مريم العذراء والأم ، ملكة السماء والأرض ، صرخات الفزع والمديح والشكر . . . مريم . . . مريم . . . أملك الكثير ، لا زال لديّ كنوز لا نهاية لها يمكن أن تؤخذ مني . . . أم الرحمة خذيهم تحت جناحك . . . !

•

كان هناك الكثير من الناس في الباحة في روموندغارد . وحين دخل أولاد إرلند سألهم أحد الأتباع عما يريدونه .

قال ناكفه بابتسامة مثيرة للحنق : "لا نريد منك شيئاً حتى الآن . لدينا مهمة لدى الأسقف اليوم يا ماغنوس . لاحقاً ، ربما قد يكون لدينا نحن الأخوة شيء نقوله لكم أيها الناس . ولكن لا حاجة إلى الخوف منا هذا اليوم ."

صدرت بعض الصرخات والاهتياجات . خرج سيرا سولموند وكان سيأمر الشبان بالرحيل من هناك . ولكن بعض المزارعين صرخوا : يتوجب أن يمنح الشبان الإذن كما قالوا ليقوموا باستفسار حول التهمة الموجهة ضد أمهم . خرج خدم الأسقف وقالوا لأولاد إرلند إن عليهم الذهاب فقد كان الناس يجلسون للطعام وليس لدى أحد الوقت للإصغاء إليهم الآن . ولكن المزارعين لم يعجبهم هذا .

سأل صوت عال : " ما هذا أيها الناس الطيبون؟" لم يلاحظ أحد أن السير هالفارد نفسه كان قد خرج إلى شرفة العلية .وقف هناك الآن في ثوبه البنفسجي والقبعة الحريرية الحمراء فوق شعره الأبيض ، بطوله وجسمه الضخم الأشبه بأجسام الزعماء . "من هؤلاء الشبان ؟"

أجيب بأن هؤلاء أبناء كريستين أوف يورروندغارد .

سأل الأسقف ناكفه : "أأنت كبيرهم ؟ إذن سأكلمك . وعلى الآخرين أن يبقوا خارجاً في الباحة في هذه الأثناء ."

صعد ناكفه الدرج إلى القاعة العليا ولحق بالأسقف إلى الغرفة . جلس السير هالفارد في الكرسي العالي ونظر إلى الشاب الذي وقف أمامه متكئاً على مطرده .

"ما اسمك ؟"

"نيكولاوس إرلندسون يا سيدي ."

"أتظن أن هناك حاجة إلى أن تكون مسلحاً بكل هذه الأسلحة يا نيكولاوس إرلندسون حين يكون عليك أن تخاطب الأسقف ؟" سأله الآخر مبتسماً قليلاً .

تضرج وجه نيكولاوس . ذهب إلى الزاوية ووضع سلاحه وخوذته ثم عاد . وقف أمام الأسقف وقد أحنى رأسه الساخر . كانت إحدى يديه تمسك بمعصم الأخرى وهو واقف وقفة مسترخية إنما ملائمة ومحترمة .

فكر السير هالفارد : لم يكن هذا الشاب يفتقر إلى المعرفة في آداب التهذيب والسلوك المؤدب . صحيح أنه لم يكن طفلاً صغيراً جداً حين خسر أبوه ثروته وأملاكه . . . إنه يتذكر دون شك ذلك الوقت الذي كان فيه وريثاً لهوسابي . كما كان شاباً وسيماً . . . من المؤسف له كما فكر الأسقف .

"هل كان أولئك الذين في رفقتك كلهم من أخوتك ؟ كم عددكم يا أولاد إرلند ؟"

"نحن سبعة يا سيدي من بقي حياً منا ."

. . . كثير من الحيوات الشابة منخرطة في هذا النزاع . تنهد الأسقف دون قصد .

"اجلس يا نيكولاوس . . . ستحدثني عن هذه الشائعات التي انتشرت حول أمك ووكيلها على الأرجح ، أليس كذلك ؟"

"شكراً يا سيدي المبجل ، يسرني أن أقف أمامك ."

حدق الأسقف بتأمل إلى الشاب . ثم قال ببطء :

"الأمور وما فيها يا نيكولاوس ، أعتقد أنه من الصعب أن نصدق أن ما يقال عن كريستين صحيح . ولا يحق لأحد اتهامها بالزنا سوى زوجها . ولكن هناك القرابة بين أبيك وبين أولف ، وهو أيضاً عرّابك علاوة على ذلك . . . ويارترود قدمت شكواها على نحو يفهم منه أنها تتهم أمك بانعدام الشرف . . . هل صحيح ما تقوله من أن زوجها كان يضربها غالباً وأنه لم يقرب سريرها منذ عام تقريباً ؟"

"لم يكن أولف ويارترود متفقين في حياتهما الزوجية . . . لم يكن أبونا بالتربية شاباً حين تزوجها ، ولا بد أنه كان قاسياً ومتسرعاً . أما نحونا نحن الأخوة ونحو أبينا وأمنا فقد كان هو دائماً الصديق والقريب المخلص . إن أول طلب أتوسل أن أضعه أمامك يا سيدي العزيز هو أن تطلق سراح أولف إن أمكن لقاء كفالة ."

"أنت لم تبلغ سن الرشد بعد ؟" سأل الأسقف .

"كلا يا سيدي . ولكن أمنا راغبة في عرض أي كفالة قد تطلبونها ."

هز الأسقف رأسه .

"سيكون لأبي الرأي نفسه وهذا أمر أعرفه بكل ثقة . وأنا أنوي الانطلاق من هنا مباشرة إليه لأعلمه بما حدث . هل لك أن تمنحه الإذن بالمثول أمامك في الغد ؟"

لمس الأسقف ذقنه بيده وجلس وهو يحك بإبهامه الشعرات القاسية بصوت له حفيف .

قال الأسقف : "اجلس يا نيكولاوس ، نستطيع التكلم على نحو أفضل هكذا ." انحنى ناكفه شاكراً وجلس . " . . . ولكن هل صحيح أن أولف قد أنكر أنه عاشر زوجته ؟" سأله وكأنه قد فكر مرة أخرى بذلك .

"أجل يا سيدي . حسب معرفتي . . . " عبرت ابتسامة وجه الأسقف ، وعندها ابتسم الشاب أيضاً . "لقد نام أولف في العلية معنا نحن الأخوة منذ عيد الميلاد الذي مضى ."

جلس الأسقف صامتاً لفترة أخرى : " وماذا عن طعامه . . . من أين كان يأكل ؟"

"كانت زوجته ترسل له الطعام إلى خارج منزلهما ، حين كان يذهب إلى الغابة أو ما شابه ." تلعثم ناكفه قليلاً . "كانت هناك مشكلة ما في الأمر . . . وظنت أمي أن من الأفضل له أن يتناول طعامه معنا مجدداً ، كما كان يحدث قبل زواجه . ولكن أولف رفض ذلك ، فقد قال إنه سيجري الكثير من الكلام لو عدّل الصفقة التي اتفق عليها مع أبي ، حول السلع التي يحصل عليها من الضيعة لقاء سكنه حين أسس منزله . . . وقد اعتبر أن الأمر ليس عادلاً لو أن أمي كانت ستقدم له الطعام مجدداً دون حسم من تلك السلع . ولكن أمي ألحت على رأيها – أن يتناول أولف الطعام معنا – والبقية ستتم تسويتها لاحقاً ."

"هم . . . ولكن المعروف عن أمك تقتيرها في أحوالها ، وأنها ربة منزل جيدة ومقتصدة . . . "

قال ناكفه بحماسة : "ليست مقتصدة بالطعام . وعلى هذا يمكن لكل شخص أن يشهد على ذلك ، كل خادم وكل خادمة كانت في ضيعتنا . . . أمي أكرم النساء بالطعام . وهي لم تغير عادتها الآن عما كانت عليه حين كنا أغنياء . . . وسعادتها لا تعادلها سعادة حين تستطيع أن تضع على مائدتها طبقاً شهياً وتبذل كل جهدها حتى ينال كل خادم وخادمة حتى راعي الخنازير ونزلاء منازل الفقراء حصة من الطعام الطيب ."

جلس الأسقف مفكراً : " هم . . . قلت إنك تنوي إحضار أبيك ؟"

"أجل يا سيدي . هل في هذا شيء مناف للمنطق ؟" لم يجب الأسقف ،

فتابع ناكفه : "تكلمنا مع أبي في الشتاء ، أخي غاوته وأنا . . . وقد أوصلنا له أيضاً الأنباء ، بأن أمنا حامل . ولكننا لم نسمع كلمة أو نر إشارة منه يُفهم منها أنه كان يشك في إخلاص أمنا له الذي هو كما الذهب الخالص ، أو أنه استغرب من النبأ . ولكن أبي لم يكن يشعر بالراحة في سيل . لقد كان مصمماً على السكن في مزرعته الخاصة في دوفر . وقد أنفقت أمي بعض الوقت هناك في الصيف . وقد غضب لأنها لم تبق معه هناك لترعى له شؤون بيته . . . كان يريد منها أن تتركنا غاوته وأنا للعناية بيورروندغارد ، وأن تنتقل هي للسكن في هاوغن . . . "

حك الأسقف هالفارد ذقنه مرات عديدة وهو يحدق إلى الشاب .

. . . مهما يكن إرلند نيكولاوسون . . . فإنه لن ينحط إلى درجة أن يتهم زوجته بالزنا أمام أبنائه الشبان .

رغم أن الأدلة كثيرة ضد كريستين لافرانسداتر . . . إلا أنه لم يصدق التهمة . لقد اعتبر أنه رأى أنها نطقت بالحقيقة حين أنكرت معرفة أنها كانت متهمة بالعلاقة مع أولف هالدورسون . ومع ذلك فقد تذكر أن هذه المرأة كانت ضعيفة من قبل فيما يتعلق بالشهوات الحسية . . . وقد استطاعا أن ينتزعا موافقة لافرانس بحيل بشعة ، هي وهذا الرجل الذي تعيش معه في حالة نزاع .

وحين أثيرت قضية موت الطفل ، رأى فوراً أن ضميرها كان يؤنبها . ولكن حتى لو كانت مهملة لطفلها ، لما أمكن سوقها أمام محكمة دنيوية لهذا السبب . لأجل ذلك عليها أن تكفّر أمام الرب حسب أوامر كاهن اعتراف أبيها . وقد يكون الطفل ابن زوجها على أي حال حتى لو أنها لم ترعه جيداً . ما كان يمكن لها أن تكون سعيدة إذ ترزق بطفل مجدداً في السنوات التي هجرها فيها زوجها ولديها مسبقاً سبعة أبناء عليها إطعامهم رغم قلة الوسائل بالمقارنة مع ما كان لديهم عندما ولدوا . سيكون أمراً مجافياً للمنطق أن تحب ذلك الطفل كثيراً .

لم يصدق أنها زوجة غير مخلصة . ورغم أن الرب وحده يعرف ما سمعه ورآه خلال عشرين سنة منذ أن رسم كاهناً وسمع الاعتراف . ولكنه صدقها . . .

ولكن تصرفات إرلند نيكولاوسون في هذه القضية ما كانت مفهومة له إلا بطريقة واحدة . لم يقترب من زوجته وهي حامل ولا حين ولد الطفل ولا حين مات . ربما كان يعتقد أنه ليس الأب . . .

والآن كان التفكير سينصبّ على كيفية تصرّف الرجل . هل سيقف ويحمي زوجته لأجل خاطر أبنائهما السبعة رغم كل شيء . . . هذا تصرف رجل شريف . أو هل سيقوم هو بعد انتشار هذه الحكايات بالتقدم بشكوى ضدها ؟ مما سمعه الأسقف عن إرلند أوف هوسابي فقد اعتبر أنه لن يكون متأكداً من أن الرجل لن يفعل ذلك .

"من أقرب الناس إلى أمك ؟" سأله مجدداً .

"إن يامالت هالفاردسون أوف آيلين متزوج من أختها ، أرملة سايمون دار أوف فورمو . ولها ابنا عم كيتيل آسموندسون أوف سكونج وأخته راغنا زوجة سيغورد كيرنينغ . أما إيفار غيبسلنغ أوف رينغهايم وأخوه هافارد تروندسون فهما ابنا خالها . ولكنهم جميعاً يسكنون بعيداً عن هنا . . . "

"ولكن السير سيغورد ألديارن أوف سوندبو هو ابن خالة أمك . وقد يتقدم الفارس في مثل هذه القضية ويدافع عن ابنة خالته . نيكولاوس ! عليك أن تنطلق إليه الآن- اليوم - وتجلب خبراً منه يا صديقي !"

تردد ناكفه قليلاً ثم أجاب :

"سيدي المبجل . . . لم تكن بيننا معرفة كثيرة . ولا أعتقد يا سيدي أنه سيكون من مصلحة أمي لو تقدم هذا الرجل دفاعاً عنها . إن آل إرلند إلديارن ليسوا محبوبين جداً في هذا الريف . لم يخرب رأي الناس في أبي سوى هذا . . .

أن آل غيبسلينغ قد ارتبطوا به في تلك الخطة التي كلفتنا خسارة هوسابي وخسارتهم سوندبو ."

ضحك الأسقف قليلاً : "أجل ، إرلند إلديارن . أجل ، لديه نزعة التخاصم مع الناس – لقد تشاجر مع كل أصهاره هنا في الشمال . أما جدك لأمك الذي كان رجلاً صالحاً وغير خائف من الانحناء لو أن السلام والوفاق بين الأقرباء يمكن أن يُعززا . . . فلم ينجح أكثر من البقية ، وقد أصبحا هو وإرلند إلديارن ألدّ الأعداء ."

بدأ ناكفه يضحك قليلاً : "أجل ، ولم يكن النزاع حول أمور كبيرة أيضاً . . . شرشفان مطرزان مع منشفة ذات حواش زرقاء . وقد قدر ثمنها بماركين ، أي المسألة كلها بماركين . ولكن أم الأم (الجدة) كانت شديدة الإلحاح على أن يحصل زوجها على هذه الأشياء عند توزيع الميراث وذكرتها غودرون إيفارسداتر لزوجها أيضاً . وفي النهاية أخذها إرلند وخبأها في حقائب السفر ، ولكن لافرانس أخرجها . . . وأعتبر أن لديه كل الحق فيها ، فقد كانت راغنفريد هي التي طرزتها حين كانت شابة صغيرة في البيت في سوندبو . ولكن حين أصبح إرلند واعياً لهذه الأشياء ، فقد ضرب الجد في الوجه ثم أمسك به جدي ورماه أرضاً ثلاث مرات وهزّه مثل الجلد المدبوغ . وبعد ذلك لم يتبادلا كلمة واحدة . . . وكل ذلك من أجل تلك الخرق التافهة . . . إن أمي تحتفظ بها في البيت في خزانتها . . . "

ضحك الأسقف من كل قلبه . كان يعرف هذه الحكاية جيداً- كانت قد أثارت الكثير من المرح بين الناس في أيامها - وكيف أن أزواج بنات إيفار كانوا حريصين على إرضاء زوجاتهم . ولكنه وصل إلى غايته . . . كان وجه الشاب قد تحوّل إلى الابتسام . لقد رحلت النظرة الحذرة الخائفة برهة عن العينين الزرقاوين الجميلتين . ثم ضحك السير هالفارد بصوت أعلى أيضاً :

"أجل ، ولكنهما يا نيكولاوس تحادثا مرة أخرى ، وكنت أنا شاهداً على

ذلك . كان ذلك في أوسلو ، في احتفال عيد الميلاد في السنة السابقة على وفاة الملكة ،ليدي يوفيميا . ولقد تحدث ملكنا هاكون طيب الذكر مع لافرانس . . . لقد سافر جنوباً ليحيي سيده ويعرض عليه خدماته المخلصة . . . تحدث الملك عن مدى كون هذه العداوة مضادة للروح المسيحية وفظة ، العداوة بين عديلين . ذهب لافرانس إلى حيث كان إرلند واقفاً مع بعض رجال الحرس ، وطلب منه بود أن يسامحه على تسرعه وعرض أن يرسل الأغراض إلى الليدي غودرون مع تحيات المحبة من أخيها وأختها . أجاب إرلند : أنه سيصالح لو أن لافرانس وقف أمام الرجال هناك واعترف أنه تصرف كلص وسارق عند توزيع ميراث حميهما . التفت لافرانس وسار بعيداً . . . وكانت تلك على ما أعتقد آخر مرة تقابل فيها صهرا إيفار غييسلينغ على هذه الأرض" ، أنهى الأسقف كلامه ضاحكاً .

ثم قال وهو يطوي يديه معاً : "ولكن اسمع يا نيكولاوس إرلندسون . لا أعرف إن كان أمراً حكيماً أن تسرع في إحضار أبيك إلى هنا . . . أو أن تطلق سراح أولف هالدورسون . على أمك أن تبرئ نفسها حتماً ، على ما يبدو لي . . . طالما كان الكلام عن ارتكابها الخطيئة قد انتشر خبره كل هذا الانتشار . ولكن حسب ما هي الأمور عليه الآن ، هل تظن أنه سيكون أمراً سهلاً على كريستين أن تجد السيدات اللواتي سيقفن إلى جانبها عند حلف اليمين؟"

رفع نيكولاوس بصره إلى الأسقف . . . وقد بدا الشك والخوف في عينيه : "انتظر أياماً قليلة يا نيكولاوس ! أبوك وأولف شخصان من أبرشيات غريبة وليسا محبوبين كثيراً . . . كريستين ويارترود هما كلتاهما من الديل هنا . . . ولكن يارترود من الجنوب البعيد ، وأمك واحدة من هؤلاء الناس هنا . ولقد لاحظت جيداً أن لافرانس بيورغولفسون لم ينسه الناس بعد . ويبدو أنهم أرادوا معاقبتها لأنهم اعتبروا أنها ابنة شريرة . . . ولكني أستطيع أن أعرف سلفاً أن الكثيرين يظنون أنهم أساؤوا إلى الأب باتهام ابنته . . . إنهم غاضبون ونادمون ، وسرعان ما

سوف لا يتمنون شيئاً سوى أن تكون كريستين قادرة على تبرئة نفسها . وربما لن يكون عند يارترود سوى القليل حين سنرى ما لديها . ستكون هناك مسألة أخرى حين سيتجول زوجها وهو يثير حفيظة الناس ويجعلهم يقفون ضده . . . "

قال ناكفه وهو يرفع عينيه إلى الأسقف : "يا سيدي سامحني على ما سأقول ، ولكننا لا نستطيع ألا نفعل شيئاً لأبينا بالتربية ، وأن يكون علينا ألاّ نحضر أبينا ليقف إلى جانب أمنا في هذه الأيام . . . "

قال الأسقف هالفارد :

"ومع ذلك أطلب إليك يا بني أن تأخذ بنصيحتي . لا تستعجل كثيراً بإحضار إرلند نيكولاوسون إلى هنا . في هذه الأثناء سأرسل رسالة إلى السير سيغورد أوف سوندبو أطلب منه أن يحضر إلى هنا ليقابلني . . . ما هذا ؟" نهض وخرج إلى الشرفة .

كان غاوته وبيورغولف إرلندسون قد وقفا بظهريهما إلى جدار المخزن وراحا يصدان مجموعة من رجال الأسقف الذين كانوا يرفعون السلاح ضدهما . أسقط بيورغولف رجلاً إلى الأرض بضربة من فأسه في اللحظة التي خرج فيها الأسقف وناكفه إلى الخارج . كان غاوته يصدّ الضربات بسيفه . أما إيفار وسكوله فكانا قد اعتُقلا من قبل بعض المزارعين بينما راح آخرون يحملون رجلاً جريحاً . كان سيرا سولموند يقف بعيداً وقد راح فمه وأنفه ينزفان .

صرخ السير هالفارد : "توقفوا . أنزلوا أسلحتكم يا أولاد إرلند . . . " نزل إلى الباحة واتجه نحو الشبان الذين أطاعوه فوراً . ما هذا ؟"

تقدم سيرا سولموند وانحنى أمام الأسقف وقال :

"هكذا هي الحال أيها الأب المبجل . لقد انتهك غاوته إرلندسون سلام اليوم المقدس وضربني أنا كاهن أبرشيته كما ترى !"

في اللحظة نفسها كان أحد المزارعين الأكبر سناً قد تقدم إلى الأمام

وقدم فروض الطاعة للأسقف وتكلم :

"سيدي المبجل ، كان الصبي شديد الانفعال ، فالكاهن قد تكلم عن أمه على نحو ما كان يستطيع أحد معه أن يتوقع من غاوته أن يتحمل كلامه بوداعة ."

"أمسك عليك لسانك يا سيرا . . . لا أستطيع سماع أكثر من شخص واحد بينكم في المرة الواحدة" ، قال السير هالفارد نافد الصبر . "تكلم يا أولاف تروندسون ."

قال أولاف تروندسون :

"لقد أراد الكاهن أن يثير حفيظة أولاد إرلند ، ولكن بيورغولف وغاوته ردا عليه باتزان . وقال غاوته أيضاً ما نعرف أنه صحيح ، من أن كريستين عاشت مع زوجها في دوفر فترة خلال الصيف الماضي ، وعندها حملت منه . . . فالطفل الصغير المسكين (المدفون) هناك هو موضوع هذه الضجة كلها . ولكن الكاهن قال له بما أن الناس في يوروندغارد كانوا متعلمين جيداً ، فلا بدّ أنها تعرف حكاية الملك داود والسيدة باث - شيبا . . . ولكن إرلند نيكولاوسون كان لا بد يشعر بالوسن شأن الفارس يورياس ."

أحمر وجه الأسقف حتى أصبح بلون الأرجوان شأن ثوبه . التمعت عيناه السوداوان . نظر إلى سيرا سولموند مدة من الزمن . ولكنه لم يخاطبه :

قال : "أتعرف يا غاوته إرلندسون أنك بهذا التصرف قد جلبت على نفسك تحريم الكنيسة ؟ ثم أمر أن يحمل أولاد إرلند إلى يوروندغارد . قام اثنان من حراسه وأربعة مزارعين اختارهم الأسقف لمعرفته بقدرهم وحكمتهم ، بمرافقة الشبان .

قال لناكفه : "عليك بالذهاب معهم أنت أيضاً يا نيكولاوس وحافظ على هدوئك . لم يتصرف أخوتك على نحو مفيد لأمهم ، ولكني أرى جيداً أنهم كانوا قد استفزوا إلى حد كبير ."

في أعماقه ما كان أسقف هامار يعتبر أن أولاد كريستين قد أخبروا بقضية أمهم . لقد سبق له أن رأى أن هناك الكثير من الناس يحملون أفكاراً أخرى عن سيدة يورونغارد خلافاً لأفكارهم صباحاً حين جعلت الكأس يطفح بقدومها إلى الكنيسة مع أولف هالدورسون ليكون كفيلاً لابنها . كان أحد هؤلاء هو كولباين يونسون . . . ولذلك وضعه السير هالفارد مشرفاً على الحرس .

●

دخل ناكفه إلى القاعة العليا أولاً حيث كانت كريستين جالسة فوق طرف سرير لافرانس ، ومونان على حضنها . حكى لها ما جرى ولكنه ركّز على أن الأسقف يعتبرها بريئة وأنه يظن أيضاً أن أخوته كانوا قد استفزوا بحدة قبل أن ينتهكوا سلام اليوم المقدس . وقد أشار على أمه ألا تحاول مخاطبة الأسقف بنفسها .

اقتيد الأخوة الأربعة الآن . حدقت أمهم إليهم . كانت شاحبة غريبة العينين في وسط يأسها العميق وخوفها . بدا قلبها وكأنه يكاد ينفجر . ومع ذلك كلمت غاوته بهدوء :

"سأحملك المسؤولية يا بنيّ على هذه المسألة . . . ولم يكن شرفاً كبيراً لسيف لافرانس بيورغولفسون أن تستله ضد مجموعة من الفلاحين السذج المولعين بالإشاعات . . . "

"لقد جردته أولاً ضد رجال الأسقف" ، قال غاوته بغضب . "ولكن صحيح أنه ليس شرفاً كبيراً لجدنا أن نضطر إلى حمل السلاح في مثل هذه القضية . . ."

نظرت كريستين إلى ابنها . ثم اضطرت إلى الالتفات برأسها بعيداً . ورغم أن كلماته آلمتها ، إلا أنها لم تستطع أن تغالب ابتسامة . . . كان ذلك أشبه بعضّ الرضيع لحلمة ثدي أمه بأسنانه اللبنية ، كما فكرت .

قال ناكفه : "أمي ، أعتقد أنه كان من الأفضل لك أن تذهبي الآن وتأخذي مونان معك . . . عليك ألا تتركيه لوحده حتى تكون أحواله أفضل ." قال بصوت خفيض . "حافظي عليه ضمن المنزل ، حتى لا يرى إخوته في الحبس ."

نهضت كريستين :

"يا أبنائي . . . إن كنتم تعتبرونني صالحة فأرجو أن تقبّلوني قبل أن أغادر هذا المكان ."

تقدم ناكفه وبيورغولف وإيفار وسكوله واحداً واحداً وقبلوها . حدق الخارج على القانون بحزن إلى أمه . . . وحين مدت يدها إليه أخذ طية من كمها وقبلها . كان هؤلاء الخمسة كلهم الآن ، عدا غاوته ، أطول منها ، كما لاحظت كريستين . تأخرت قليلاً وهي ترتب سرير لافرانس ، ثم خرجت مع مونان .

●

كانت هناك أربع عليّات في يورونداغارد : القاعة الكبرى ، والمخزن الجديد ، الذي كان المسكن الصيفي في طفولة كريستين ، قبل أن يشيد لافرانس المنزل الكبير ، المخزن القديم ومخزن الملح . . . وكان له علية تنام فيها الخادمات في الصيف .

صعدت كريستين إلى علية المخزن الجديد مع مونان . كانا ينامان هناك منذ وفاة الطفل الصغير . وهناك راحت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً حين دخلت فريدا وغونهيلد حاملتين عصيدة المساء . طلبت كريستين من فريدا أن تقدم للحراس الجعة واللحم . أجابت المرأة بأنه سبق لها وفعلت ذلك- بناء على طلب ناكفه - ولكن الرجال قالوا إنهم لن يتناولوا شيئاً من يدي السيدة طالما كانوا في الضيعة في مهمة كهذه المهمة . لقد جلبوا اللحم والشراب من مكان آخر .

"ومع ذلك ، احملي إليهم برميل جعة ."

كانت غونهيلد خادمة المنزل الشابة محمرة العينين من البكاء :

"لا يوجد بيننا نحن خدم المنزل من يصدق هذا عنك يا كريستين لافرانسداتر، ثقي بكلامي . . . لقد قلنا جميعاً إن هذه أكاذيب ."

قالت السيدة : "إذن سمعتم بما كان يقال . كان الأجدر بكم أن تخبروني بذلك ."

"لم نجرؤ خوفاً من أولف" قالت فريدا ، وتابعت غونهيلد باكية :

"لقد أجبرنا على الصمت بتهديداته . . . غالباً ما فكرت في أنه كان عليّ أن أبلغك وأتوسل إليك أن تكوني أشد حذراً . . . وذلك حين سهرت إلى وقت متأخر في الليل تحادثين أولف ."

"أولف . . . كان يعرف عن ذلك أيضاً ؟" سألتها كريستين بصوت خفيض .

"كانت يارترود ترمي أولف بذلك منذ زمن بعيد . . . وكان هو يضربها لأجل ذلك ، على ما أعتقد . وفي إحدى الليالي من عيد الميلاد الماضي وحين بدأ بطنك يتضخم . . . جلسنا نشرب في منزل الوكيل . . . سلوفايغ وأويفيند كانا هناك ، وبعض الناس من جنوب الأبرشية . . . قالت يارترود له عندئذ إن ذلك كان من فعله . ضربها أولف بحزامه حتى أدماها . ولكن يارترود بقيت تقول إن أولف لم يقل كلمة واحدة لينكر ذلك . . ."

سألت السيدة : "وبعد ذلك جرى حديث عن هذا في الأبرشية ؟"

"أجل . ولكن نحن خدم منزلك كنا نعارض ذلك دائماً" ، قالت غونهيلد دامعة العينين .

ولتهدئة مونان اضطرت كريستين إلى الاضطجاع مع الطفل وضمه بين ذراعيها . ولكنها لم تخلع ملابسها ، ولم تعرف النوم تلك الليلة .

•

في هذه الأثناء في القاعة العليا كان لافرانس الصغير قد نهض وارتدى ملابسه . ولاحقاً مع اقتراب المساء ، حين ذهب ناكفه ليساعد في شؤون القطيع ، مضى الصبي نحو الإسطبل . أسرج الحصان الأحمر المخصي الذي كان لغاوته . كان ذلك أفضل حصان موجود هناك بعد الفحل ، ولم يكن يجرؤ على ركوبه .

خرج بعض الرجال من الذين كانوا يحرسون في الضيعة وسألوا الصبي أين هو ذاهب .

أجاب لافرانس الصغير : "لا أعتقد أني سجين . ولكني لا أكترث إن أخبرتكم . . . لا تقدرون على منعي من الركوب إلى سوندبو لإحضار الفارس إلى هنا ليقف إلى جانب قريبته . . . "

قال كولباين يونسون : "سرعان ما سيحل الظلام يا صبي . لا يمكن لهذا الطفل أن يسافر عبر فاغه يا جورج في الليل . علينا أن نكلم أمه ."

قال لافرانس : "لا ، لا تفعلوا ذلك ." ارتجف فمه قليلاً . "أذهب في هذه المهمة لأني أضع ثقتي في الرب وفي مريم العذراء . . . وهما سيحرسان رحلتي لو كانت أمي بريئة . ولا شيء آخر يهم . . . " وهنا صمت لأن دموعه كادت تغلبه .

وقف الرجال صامتين قليلاً . حدق كولباين إلى الطفل الأشقر الوسيم :

"اذهب إذن وليكن الله معك يا لافرانس إرلندسون" ، قال وكان سيساعد الصبي على ركوب السرج .

ولكن لافرانس قاد الحصان نحو الأمام بحيث اضطر الرجال إلى الابتعاد عن طريقه . عند الصخرة الكبيرة قرب بوابة الضيعة صعد عليها ورمى بنفسه فوق متن "راودن" وأسرع غرباً على الطريق نحو "فاغه" .

-٨-

كان لافرانس قد قاد حصانه حتى تغطى بالعرق حين وصل إلى البقعة التي يعرف أن فيها ممر يصعد عبر الجبل وبين الجروف التي تبرز بحدة فوق الجانب الشمالي من وادي سيلسا . عليه الصعود إلى الأراضي العالية ، كما كان يعرف ، قبل أن يحل الظلام . لم يكن يعرف جيداً هذه الجبال بين فاغه سيل ودوفر . ولكن الحصان كان هنا للرعي في أحد فصول الصيف وقد حمل غاوته إلى هاوغن كثيراً من المرات ، رغم أن ذلك كان عبر ممرات أخرى . تمدد لافرانس الصغير فوق عنق الحصان وربت عليه :

"عليك أن تجد طريقك إلى هاوغن يا راود ، يا بنيّ . عليك أن تحملني إلى أبي هذه الليلة ، أجل أيها الفرس الطيب !"

ما أن وصل إلى أعلى الجبل واستطاع الجلوس في السرج مجدداً ، حتى كان الظلام قد خيم بسرعة . سار عبر واد صغير منعزل ضحل مستنقعي ، بين جروف منخفضة في خط لا منته أمام سماء راحت تعتم أكثر فأكثر . كانت هناك أجمات من شجر البتولا على جوانب الوادي ، وراحت سيقان الأشجار تلتمع بيضاء . في المرة تلو الأخرى كانت أوراق الشجر تحتك بصدر الحصان ووجه

الصبي. راحت الحجارة تتفتّت تحت حوافره وتتدحرج نحو النهر في قاع الوادي . . . ثم كانت حوافر الحصان تشق طريقها في الوحل. عرف "راودن" طريقه في الظلام صعوداً ونزولاً في المنحدرات، حتى أن خرير النهر راح يبدو أقرب وأعلى، وأحياناً كان يخفت حتى يتلاشى. ضبح أحد الوحوش ذات مرة بعيداً في الليل، ولكن لافرانس لم يعرف ما هو . . . وكان صوت الريح يرتفع ويهبط.

أمسك الطفل برمحه فوق رقبة الحصان حتى كان رأسه بين أذنيه. كان هذا الوادي مرتعاً للدببة. تساءل متى سينتهي. وبرقة شديدة بدأ يغني في العتمة: "كيري إيلايسون كريستسلايسون (يا رب ارحم يا مسيح) . . . كيري إيلايسون كريستسلايسون . . . "

شق راودن طريقه عبر مكان ضحل في جدول جبلي. بدأت السماء المنثورة بالنجوم تبدو أوسع له . . . كانت قمم الجبال تبدو أبعد أمام العتمة وتغني الريح بنغمة أخرى في الفضاءات المفتوحة. ترك الصبي الحصان يذهب كما يشاء، وراح يرتل كل ما استطاع تذكره من الترتيلة: "؟يا يسوع يا فادي الجميع- يا أيها الأب النيّر الرائع." كان يتجه جنوباً الآن تقريباً، كما لاحظ من النجوم. ولكنه لم يتجرأ على الثقة بالحصان ويتركه يذهب على هواه. وهاهما الآن يعبران ألواحاً صخرية حيث كانت طحالب الرنة تحته تظهر على نحو باهت فوق الصخور. وقف راودن قليلاً، وهو يلهث، وحدق إلى الليل. لاحظ لافرانس أن السماء في الشرق أصبحت أكثر إنارة، كانت الغيوم تتجه إلى هناك ولها حافة فضية من الأسفل. تحرك الحصان مجدداً نحو القمر البازغ. لا بد أن منتصف الليل سيحل بعد ساعة من الآن أو نحوه حسب تقدير الصبي.

وحين ابتعد القمر عن الجبال البعيدة وراح نوره يلتمع فوق الثلج الجديد على القمم والقبب، ويضيء حلقات الضباب المتجهة فوق قمم الجبال، عندها عرف

لافرانس أنه وصل إلى الجبال . كان فوق الأراضي المستنقعية تحت "بلاهوير" .

وسرعان ما وجد ممراً يؤدي إلى واد مرتفع . وبعد ثلاث ساعات كان راودن يدخل وهو يعرج إلى باحة المنزل في هاوغن التي ينيرها القمر .

حين فتح إرلند الباب ، ترنح الصبي ووقع فوق أرض المشرقة .

بعد مدة من الزمن ، استيقظ لافرانس في السرير تحت أغطية قذرة ذات رائحة حامضة . كان النور قادماً من جذر شجرة تنوب أقحم في شق في الجدار إلى القرب منه ، كان أبوه واقفاً وهو ينظر إليه ، ويرطب وجهه بشيء ما . كان أبوه نصف عار ، ولاحظ الصبي أن شعره كان أشيب بالكامل .

قال لافرانس الصغير وهو ينظر إلى الأعلى :

"أمي . . . "

التفت إرلند حتى لا يرى أبوه وجهه . "أجل" قال بعد قليل بصوت خفيض جداً حتى أنه ما كان مسموعاً إلا بالكاد : "هل أمك . . . هل هي . . . هل أمك . . . مريضة ؟"

"عليك القدوم إلى المنزل مباشرة يا أبي وإنقاذها . . . إنهم يتهمونها بأشنع التهم . . . لقد سجنوا أولف وسجنوها وأخوتي يا أبي !"

تحسس إرلند وجه الصبي الحار ويديه . كانت الحمى قد ارتفعت مجدداً . "ما الذي تقوله ؟" ولكن لافرانس جلس وحكى بوضوح كاف كل ما جرى في البيت في اليوم السابق . أصغى أبوه في صمت ، ولكن وبينما الصبي يروي الحكاية كان الأب ينهي ارتداء ملابسه . لبس حذاءه ومهمازه . ثم أحضر بعض الحليب والطعام للطفل .

"ولكنك لا تستطيع أن تبقى في البيت وحيداً هنا يا بني . . . عليّ أن أصطحبك إلى آسلاوغ في بريكن إلى القرب من هنا ، قبل أن أتجه نزولاً ."

"يا أبي . . . " أمسكه لافرانس من ذراعه . "كلا . . . عليّ أن أذهب معك إلى البيت . . ."

"ولكنك مريض يا صغيري" قال إرلند ، ولم يكن الطفل قد سمع خلال حياته مثل هذه اللهجة الرقيقة في صوت أبيه .

"كلا يا أبي . . . حقاً أود الذهاب إلى البيت معك وإلى أمي . . . أريد أن أذهب إلى أمي . . . " بكى الآن كطفل صغير .

"ولكن راودن أعرج أيها الصبي . . . " أخذ إرلند ابنه في حضنه ولكنه لم يستطع تحمل بكاء الطفل . "وأنت مرهق جداً . . . حسناً ، حسناً" قال أخيراً . "يستطيع سوتن حملنا نحن الاثنين . . . على الأرجح ."

قال : "عليك أن تحرص إن استطعت . . . " وبعد أن أخرج الحصان القشتالي خارجاً ووضع راودن مكانه ، واعتنى به . . . "أن ترسل شخصاً إلى هنا في الشمال ليعتني بحصانك . . . وبعدّتي . . . "

"هل ستبقى في البيت الآن يا أبي ؟" سأل لافرانس بفرح .

حدق إرلند أمامه .

"لا أعرف . . . ولكن في ذهني ألاّ أعود إلى هنا بعد الآن ."

سأل الصبي مجدداً : "أليس من الأفضل أن تتسلح أكثر ؟" فإلى جانب سيفه لم يأخذ إرلند سوى فأس خفيفة وكان سيغادر المنزل . "ألن تأخذ ترساً على الأقل ؟"

نظر إرلند إلى ترسه . كان جلد الثور شديد التشوه والتمزق حتى أن رسم الأسد الأحمر على الخلفية البيضاء كان قد أمحى . وضعه أرضاً وغطاه .

قال : "أنا مسلح جيداً لدفع قطيع من الفلاحين من ضيعتي ." خرج وأقفل باب المنزل وركب حصانه وساعد الصبي على الركوب خلفه .

بدأت الغيوم تتلبد في الجو بعد أن هبطا الجبل بقليل ، حيث الغابات كثيفة ، فسارا في الظلام لاحظ إرلند أن ابنه كان مرهقاً جداً إلى حد أنه ما كان

يستطيع أن يمنع نفسه من السقوط . وعند ذلك جعله يجلس أمامه ووضع ذراعه من حول الصبي . كان الرأس الأشقر الغلامي على صدره . . . كان لافرانس الأشبه بأمه بين كل الأولاد . قبّل إرلند قمة رأس الصبي وهو يلف القبعة من حوله .

"هل حزنت أمك كثيراً حين مات الطفل الصغير في الصيف ؟" سأله بصوت خفيض جداً .

أجاب لافرانس الصغير :

"لم تبك بعد أن مات . ولكنها كانت تذهب إلى المقبرة كل ليلة . . . اعتاد غاوته وناكفه أن يلحقا بها حين كانت تخرج ، ولكنهما لم يكونا ليجرؤا على التحدث إليها ، ولا على جعل أمي ترى أنهما يراقبانها . . . "

بعد قليل سأله إرلند :

"ألم تبك أمك ؟ . . . أتذكر حين كانت أمك شابة صغيرة وكانت تبكي بسهولة كما تسقط حبات الندى من أغصان الصفصاف عند النهر . كانت رقيقة وناعمة جداً كريستين ، حين كانت بين أولئك الذين يتمنون لها الخير . بعدئذ كان عليها أن تتعلم أن تكون أقسى . . . وغالباً على ما أعتقد كان ذلك من صنعي أنا ."

"تقول غونهيلد وفريدا إنه طوال الوقت الذي كان فيه أصغر أخوتي حياً كانت تبكي كل ساعة وكل لحظة ، حين كانت تظن أنه لا أحد كان يراها ."

قال إرلند برقة : "فليساعدني الرب . لقد كنت رجلاً خالياً من الحكمة ."

كانا يسيران الآن في قاع الوادي والريح الباردة تهب من النهر من خلف ظهريهما . لف إرلند عباءته من حول الصبي بإحكام قدر الإمكان . أما لافرانس فكان وسنان ويكاد يغفو ، ولاحظ أن جسد أبيه كان له رائحة رجل فقير . وتذكر على نحو باهت من طفولته المبكرة ، حين كانوا لا يزالون يسكنون في هوسابي ،

وذلك حين كان أبوه يأتي من الحمام في يوم السبت ، فقد كان من عادته الإمساك بكرات صغيرة في يده . وكانت لها رائحة جميلة جداً كانت تبقى عالقة في كفيه وملابسه طوال يوم العطلة المقدسة .

تابع إرلند طريقه مسرعاً . هنا في الأراضي السهلة كانت العتمة مسيطرة . ودون تفكير في ذلك ، فقد كان يعرف في كل لحظة أين كان . . . كان يعرف باللهجة المتغيرة لهدير النهر أين كان نهر لاغن يجري بسرعة وأين كان يسقط منحدراً بشدة . والآن كان الممر فوق صخور مسطحة ، حيث راح الشرر يتطاير من تحت حوافر الجواد . وقد عرف "سوتن" طريقه الآن بثقة وسهولة بين جذور التنوب الملتوية ، حيث يمر الطريق عبر غابة كثيفة . وصلتهما للتو أصوات امتصاص ونشيج والحصان يمرّ فوق منحدرات خضراء إسفنجية حيث كان غدير صغير ينحدر من الجبل . سيصل البيت مع الفجر . . . وسيكون ذلك ملائماً . . .

خلال هذه الفترة كلها كان يفكر في تلك الليلة البعيدة من الجليد ونور القمر الأزرق الشاحب حين قاد زلاجة عبر هذا الوادي . . . كان بيورن غونارسون يجلس في الخلف وهو يمسك بامرأة ميتة بين ذراعيه . ولكن الذكرى كانت باهتة وبعيدة ، وكان بعيداً وغير حقيقي كل ما رواه الطفل . . . هذا ما قالوا إنه يجري في الأبرشية ، والحكايات المجنونة حول كريستين . . . كأنما لم يستطع أن يدخل هذا كله في رأسه . حين يصل إلى البيت سيكون لديه ما يكفي من الوقت ، على الأرجح ، ليفكر فيما عليه أن يفعله . لم يكن ما هو حقيقي سوى الجهد والخوف . . . سرعان ما سيقابل كريستين .

كان قد انتظرها وترقبها طويلاً . ولم يكن يشك إلا في أنها ستأتي أخيراً . . . حتى سمع بالاسم الذي منحته للطفل . . .

•

في الفجر الرمادي كان الناس الذين راحوا يصغون إلى كهنة هامار وهم يتلون القداس الصباحي الباكر قد وصلوا إلى الكنيسة . أولئك الذين وصلوا أولاً شاهدوا إرلند نيكولاوسون راكباً حصانه نحو بيته ، وحكوا للآخرين . كان هناك بعض القلق والكثير من الكلام . تجمع الناس في حلقات حيث كانت الطريق إلى يوروندغارد تتفرع عن الطريق العام .

•

دخل إرلند الباحة بينما كان القمر المتلاشي يغرق بين حافة غيمة وجانب الجبل ، شاحباً في الفجر .

خارج منزل الوكيل كانت مجموعة من الناس . . . كان هؤلاء هم أقارب يارترود وأصدقاءها الذين كانوا معها في الليل . وعند سماع صوت حوافر الجواد في الباحة خرج الرجال الذين كانوا يحرسون في الغرفة التي تقع أسفل القاعة العليا .

لجم إرلند حصانه . نظر عبر رؤوس المزارعين وتكلم بصوت مرتفع مترع بالازدراء :

"هل هناك احتفال في ضيعتي - ولا أعرف به - وإلا فمن أين أتى كل هؤلاء الناس الطيبون ليتجمعوا هنا في الصباح الباكر ؟"

قابلته نظرات سوداء وغاضبة من كل جانب . جلس إرلند طويلاً ورشيقاً فوق الحصان طويل القوائم والأجنبي . كان لسوتن عرف مقصوص ، ولكنه كان أشعث غير مقلم . كان الحصان غير معتنى به جيداً ، وبدأت على رأسه شعرات رمادية ، ولكن هناك لمعة خطيرة في عيني الحصان ، وقد راح يضرب الأرض بحوافره ويتحرك بقلق . كان يرفع أذنيه نحو الخلف ويهز رأسه الصغير الجميل حتى كان الزبد يتناثر على صدره وكتفيه والراكب على ظهره . كانت عدة الركوب حمراء ذات مرة ، والسرج مطعماً بالذهب . والآن كان مهترئاً ومقطعاً ومبقعاً .

وكان الرجل يرتدي ملابس أشبه بملابس الشحاذين . وكان الشعر الذي ينزل من تحت القبعة الخشنة السوداء الصوفية شعراً رمادياً أبيض ، وكانت لحية رمادية خفيفة تنمو على الوجه الشاحب النحيل كبير الأنف . ولكنه كان يجلس منتصباً ويبتسم باعتزاز نحو جمهرة الفلاحين . بدا شاباً رغم كل شيء ، وأشبه بزعيم . . . وكان الكره يتصاعد حاراً ضد هذا الرجل الغريب المتوقف هناك ، وهو يرفع رأسه عالياً ودون خجل . . . بعد كل الأسف والعار والبؤس الذي سببه لهم من يعتبرهم هؤلاء الفلاحون زعماء لهم .

ومع ذلك فقد تكلم برصانة كافية ذلك المزارع الذي رد على إرلند أولاً :

"أرى أنك وجدت ابنك يا إرلند . . . لذلك تعرف أننا لم نجتمع هنا للاحتفال . . . ومن الغريب أن تمزح في مثل هذا الأمر ."

نظر إرلند إلى الطفل الذي كان لا يزال نائماً . . . وأصبح صوته أرق :

"الصبي مريض كما ترون . والأنباء التي أحضرها إليّ من الأبرشية بدت لي غير قابلة للتصديق ، وكدت أظن أنه يهذي من الحمى . . .

" . . . البعض مما قاله يبدو كلاماً فارغاً كما أرى . . . " نظر إرلند نحو باب الإسطبل بجبين متغضن . كان أولف هالدورسون واثنان من الرجال وأحد اخوة زوجته بينهم وهم يخرجون بعض الأحصنة .

ترك أولف حصانه وسار نحو سيده بسرعة :

"هل أتيت أخيراً يا إرلند ؟ . . . وهاهو الصبي . . . الحمد للمسيح ومريم العذراء ! لا تعرف أمه أنه قد رحل . كنا سننطلق للبحث عنه . . . لقد أطلق الأسقف سراحي بعد أن أقسمت أمامه ، وذلك حين سمع أن الطفل قد ركب لوحده ليذهب إلى فاغا . . . كيف هو لافرانس ؟" سأله خائفاً .

"أجل ، الحمد لله أنك وجدت الصبي" قالت يارترود باكية ، كانت قد خرجت إلى الباحة .

قال إرلند : "أهذه أنت يا يارترود ؟ إن أول أمر عليّ أن أفعله ، كما أعتقد ، هو أن أجعلك ترحلين عن ضيعتي ، أنت وقبيلتك . هذه الفتاة المفترية سنجعلها ترحل أولاً . . . وبعد ذلك هؤلاء الذين كذبوا في حق زوجتي سينالون ما يستحقون ، جميعهم . . . "

قال أولف هالدورسون : "هذا غير ممكن يا إرلند . يارترود زوجتي ، وأعتقد أننا متفقان على الفراق ، ولكنها لن تخرج من بيتي قبل أن أسلم إلى أخوتها كل ممتلكاتها وبائنتها وهديتها الإضافية وهدية الصباحية . . ."

سأل إرلند بغضب : "هل أنا السيد في هذه الضيعة ؟"

قال أولف : "عليك أن تسأل كريستين لافرانسداتر عن هذا . هاهي قد وصلت ."

كانت السيدة واقفة فوق شرفة المخزن الجديد . هبطت الدرج ببطء . أزاحت دون أن تشعر غطاء رأسها نحو الأمام فوق رأسها . . . كان قد انزاح نحو الخلف . . . وملّست ثوب الذهاب إلى الكنيسة الذي كانت قد ارتدته في اليوم السابق . ولكن وجهها كان قاسياً كالحجر .

تقدم إرلند بحصانه ليقابلها ، قدماً قدماً . . . وانحنى نحو الأمام قليلاً ليحدق بخوف ويأس ، إلى وجه زوجته الكالح الخالي من الحياة :

"كريستين" ، توسل إليها . "كريستين ، لقد عدت إليك ."

لم يبد عليها أنها تسمع أو ترى . ثم استيقظ لافرانس ، الذي كان جالساً بين ذراعي أبيه ، تدريجياً ، وانزلق نحو الأرض . وحين لمس المرج بقدميه ، وقع وتكوم على الأرض .

سرت رعشة في وجه الأم . انحنت ورفعت الصبي بين ذراعيها رغم كبر حجمه ، ووضعت رأسه على عنقها ، وكأنه طفل صغير . . . ولكن ساقيه الطويلتين كانتا معلقتين بضعف أمامها .

توسل إرلند بيأس : "كريستين ، يا حبي العزيز ، أوه كريستين ، أعرف أني وصلت متأخراً جداً إليك . . ."

ومن جديد سرت رعشة في وجه المرأة :

"لست متأخراً جداً" قالت بصوت خفيض قاس . حدقت إلى ابنها الغائب عن الوعي بين ذراعيها . "إن طفلنا الأخير قد سبق له ونام تحت التراب . . . والآن دور لافرانس . فرض الحرم الكنسي على غاوته- وأولادنا الآخرين - لا زال لدينا الكثير مما يمكن تخريبه يا إرلند !"

التفتت بعيداً عنه وبدأت تعبر الباحة مع الطفل . لحق بها إرلند على حصانه وهو يواكبها :

"كريستين . . . يا للمسيح ، ما الذي أستطيع أن أفعله لك ؟ . . . كريستين ألا تريدين مني أن أبقى معك هنا إذن ؟"

"ما عدت في حاجة إلى أن تفعل أي شيء لي" ، قالت الزوجة كما من قبل . "لن تستطيع تقديم يد العون إليّ ، سواء سكنت هنا أو نمت في لاغن . . . "

كان أولاد إرلند قد خرجوا إلى شرفة القاعة العليا ، هرع غاوته إلى الأسفل وقفز نحو أمه يريد أن يوقفها .

توسل إليها : "أمي" . ثم نظرت هي إليه ، فوقف هناك عاجزاً .

عند آخر درج القاعة وقف بعض الفلاحين .

قالت السيدة : "أفسحوا الطريق" ، وكانت ستمر مع حملها .

هزّ سوتن رأسه ورقص بقلق . التف به إرلند نصف التفافة ، فأمسك كولباين يونسون باللجام . لم تكن كريستين قد شاهدت ما يحدث . . . والآن التفتت وقالت من فوق كتفها .

"اترك الحصان وشأنه يا كولباين . . . إذا أراد الرحيل فليرحل . . . "

ولكن كولباين تمسك باللجام أكثر وقال :

"ألا تفهمين يا كريستين أنه قد حان الوقت لبقاء السيد في منزله في المزرعة؟ أنت تفهم ذلك على الأقل" ، وهنا خاطب إرلند .

ولكن إرلند ضرب الآخر على يده واندفع بالحصان مما جعل الرجل يترنح . قفز رجلان نحو الأمام . صرخ إرلند :

"هيا ابعدوا من هنا ! لا شأن لكم في أموري وأمور زوجتي . . . ولست سيداً لمزرعة . ولن أكون قط مرتبطاً بأي مزرعة كحصان في إسطبل . إن لم أكن أمتلك الضيعة هنا ، فهي لا تملكني أيضاً على الأقل . . . !"

التفتت كريستين التفاتة كاملة نحو الرجل وصرخت :

"أجل ، ارحل ! ارحل إلى الشيطان إلى حيث دفعتني لأذهب وارم بعيداً بعيداً بكل ما ملكته أو وضعت يديك فوقه . . . "

وما حدث الآن جرى بسرعة قصوى حتى أنه لم يره أحد أو حاول أن يمنعه . أمسك توره بورغيلدسون ورجل آخر بالمرأة من ذراعيها .

"كريستين ، لا تكلمي زوجك الآن على هذا النحو . . . "

انطلق إرلند نحوهم :

"هل تتجرأان على وضع أيديكما على زوجتي . . . ؟" لوح بفأسه وضرب بها توره بورغيلدسون . نزلت الضربة بين لوحي كتفيه ، فسقط الرجل أرضاً . رفع إرلند الفأس مجدداً ، ولكن في اللحظة التي ارتفع فيها في ركابه ، طعنه رجل برمح في جانبه . . . وقد اخترق الرمح أصل فخذه . كان ابن توره بورغيلدسون هو من فعل ذلك .

شب سوتن وضرب بقائمتيه الأماميتين . ضغط إرلند على جانبي الحصان وانحنى نحو الأمام ، بينما لفّ الرسن حول يده اليسرى ورفع الفأس مجدداً . ولكنه فقد على الفور أحد ركابيه وكان الدم يجري من فخذه الأيسر في جداول . أزت بعض الأسهم والرماح عبر الباحة . . . كان أولف وأبناء إرلند قد ركضوا نحو

الحشد وهم يرفعون الفؤوس والسيوف المجردة . . . ثم طعن رجل الحصان الذي تحت إرلند ، فسقط إلى الأمام على ركبتيه ، وهو يصهل بجنون وحدة ، حتى ردت عليه الجياد من مرابطها .

نهض إرلند وساقاه مفرشختان فوق الحصان . أمسك بكتف بيورغولف وخطا من فوق الحصان . وصل غاوته وأمسك بأبيه من تحت الذراع الأخرى .

قال : "اقتلوه" مشيراً إلى الحصان . كان هذا قد سقط على جنبه وتمدد بعنق استطالت وقد راح يزبد دماً من فمه ويرفس بحوافره القوية . وقد قام أولف هالدورسون بالمطلوب .

كان المزارعون قد انتحوا جانباً . حمل رجلان توره بورغيلدسون نحو منزل الوكيل ، وقاد أحد رجال الأسقف رفيقه الذي جرح .

كانت كريستين قد وضعت لافرانس الذي كان قد صحا الآن أرضاً ، ووقفاً وكل واحد يضم الآخر . لم يبد عليها أنها فهمت ما جرى . . . لقد حدث الأمر بسرعة فائقة .

كان الأبناء يريدون أن يقودوا أباهم نحو القاعة ، ولكن إرلند قال :

"لن أذهب إلى هناك . . . لن أموت هناك ، حيث مات لافرانس . . . "

ركضت كريستين ورمت بذراعيها من حول عنق زوجها . كان قناعها المتجمد قد تكسّر أمام نوبة فجائية من البكاء ، كما يتشظى الجليد تحت ثقل حجر : "إرلند ، إرلند !"

طأطأ إرلند رأسه حتى مسح خده بخدها . . . وقف هكذا لحظة .

قال : "ساعدوني لأذهب إلى المخزن القديم أيها الأولاد ، أفضل الاستلقاء هناك . . . "

وبسرعة جهز الأولاد والأم السرير في علية المخزن القديم ، وخلعوا ملابس إرلند . ضمدت له كريستين جروحه . كان الدم ينزف بغزارة من طعنة الرمح في

أصل فخذه ، كما كان سهم قد جرحه من جانب ثديه الأيسر ، ولكن ذاك لم يكن ينزف كثيراً .

مرّر إرلند يده فوق وجه زوجته :

"لن تستطيعي شفائي على ما أعتقد يا كريستيني . . . "

رفعت عينيها في يأس . . . سرت رعشة عميقة عبر جسدها كله . تذكرت أن سايمون أيضاً قد قال هذا الكلام . . . وبدا لها هذا نذيراً بالأسوأ ، بأن يقول إرلند هذه الكلمات نفسها الآن .

تمدد في السرير وقد رفع جسده بالوسائد والمساند ، ورجله اليسرى مثنية لوقف النزيف من الجرح في أصل الفخذ . جلست كريستين منحنية فوقه ، وتناول يدها :

"أتذكرين أول ليلة نمنا فيها في هذا السرير ، يا حلوتي . . . ؟ لم أكن أعرف أنه حتى في ذلك الحين كنت تحملين حزناً سرياً سببته لك . ولم يكن ذلك أول حزن أيضاً كان عليك تحمله من أجلي يا كريستين . . . "

أخذت يده في كلتا يديها . كانت بشرته متشققة و أظافره سوداء وكذلك تغضينات كل مفصل من الأصابع الطويلة . رفعت كريستين يده إلى صدرها وشفتيها . هطلت دموعها بغزارة فوق يده .

قال إرلند بصوت خفيض : "حارة كشفتيك ! لقد انتظرتك طويلاً . . . فكرت لفترة طويلة . . . وأخيراً فكرت في الاستسلام والنزول إليك هنا . . . ثم سمعت . . . ظننت حين سمعت أنه مات ، أن الأوان قد فات ، على عودتي إليك . . . "

أجابت كريستين باكية :

"كنت لا أزال أنتظرك يا إرلند . فكرت أنك ستأتي لابد إلى قبر الصبي ."

"ما كنت ستحبينني عندها كصديق لك على ما أعتقد" ، قال إرلند .

"والرب يعرف أنك لم يكن لديك سبب أيضاً . . . لقد كنت عذبة وجميلة جداً يا كريستين" ، همس وأغلق عينيه .

بكت بصوت خفيض ومثير للشفقة .

قال الرجل كما من قبل : "لم يعد هناك شيء الآن عدا أن نحاول أن يغفر واحدنا للآخر كزوجين مسيحيين . . . إن استطعت . . . "

"إرلند ، إرلند . . . " انحنت فوقه وقبلت وجهه الشاحب "عليك ألا تتكلم كثيراً يا إرلندي . . . "

"الأفضل أن أسرع وأقول ما عندي" أجاب الرجل . "أين ناكفه ؟" سأل بقلق .

أجابوا بأنه في مساء البارحة حين سمع ناكفه أن أخاه الصغير قد سار في طريق سوندبو ، فقد لحق به بأسرع ما يمكن . لابدّ وأنه قد فقد عقله الآن حين لا يكون قد وجد الطفل . تنهد إرلند وحرك يديه بقلق فوق غطاء السرير .

تقدم الأبناء الستة من سريره .

قال الأب : "أجل ، لم أعاملكم جيداً يا أبنائي ." سعل سعلة غريبة حذرة . . . خرج زبد مدمى من شفتيه . مسحته كريستين بغطاء رأسها . هدأ إرلند قليلاً :

"عليكم أن تغفروا لي الآن إن استطعتم . لا تنسوا أيها الشبان الصالحون أن أمكم قد ناضلت من أجلكم كل يوم من السنوات التي عشنا فيها معاً . . . ولم يكن هناك خلاف بيننا سوى ما سببته أنا إذ لم أفكر كثيراً في مصلحتكم ، إلاّ أنها أحبتكم أكثر من حياتها . . . "

أجاب غاوته باكياً : "لن ننسى أنك كنت تبدو لنا يا أبي في كل أيامنا أكثر الرجال رجولة وأكبر الزعماء . نحن فخورون بأن نسمى أبناءك ، سواء حين لم يحالفك الحظ أو حين كنت في أيام عزك ."

أجاب إرلند : "تقول هذا لأنك لا تعرف كل شيء ." ضحك ضحكة صغيرة متقطعة بالسعال . "ولا تجعلوا أمكم حزينة إذ تراكم تمشون على خطاي . . . يكفيها ما اضطرت إلى أن تعانيه منذ أن عرفتني . . . "

بكت كريستين : "إرلند ، إرلند" .

قبل الأبناء أباهم على يده وخده . ثم ابتعدوا باكين وجلسوا قرب الجدار . وضع غاوته ذراعه حول مونان وضم الطفل إليه . جلس التوأمان يداً بيد . وضع إرلند يده في يد كريستين مجدداً . كانت يده باردة وجذبت هي غطاء السرير فوقه حتى الذقن ، ولكنها جلست تمسك بيده تحت الأغطية .

قالت باكية : "إرلند ، فليرحمنا الرب . . . علينا أن نحضر لك كاهناً . . . "

قال إرلند بضعف : "أجل . على شخص ما أن يركب إلى دوفر ويحضر سيرا غوتورم ، كاهن أبرشيتي . . . "

قالت في رعب : "إرلند ، لن يصل في الوقت الملائم . . . "

قال إرلند بقوة : "أجل . إن كان الأمر هكذا فسيرحمني الرب . . . فأنا لن أتناول المناولة الأخيرة من كاهن نشر الأكاذيب عنك . . . "

"إرلند . . . لأجل المسيح . . . عليك ألا تتكلم هكذا . . . "

دخل أولف هالدورسون وانحنى فوق الرجل المحتضر .

"أنا سأذهب إلى دوفر يا إرلند . . . "

قال إرلند : "أتذكر يا أولف" . . . بدأ صوته يضعف الآن ويصبح غير واضح . . . " تلك المرة التي انطلقنا فيها أنت وأنا من هستنايس . . . " ضحك قليلاً . "أجل ، لقد وعدت آنذاك أن أقف إلى جانبك في كل الأوقات كقريب مخلص لك . . . فليسامحنا الله جميعاً ، يا صديقي أولف . . . غالباً ما كنت أنت وليس أنا . . . بيننا نحن الاثنين . . . هو الذي أظهر إخلاص القريب . . . علي أن أشكرك إذن يا قريبي ."

انحنى أولف وقبل شفتي الرجل الآخر الداميتين :

"شكراً لك أنت يا إرلند نيكولاسون . . . "

أشعل شمعة ووضعها قرب سرير الرجل المحتضر ، ومضى بعيداً .

كانت عينا إرلند قد أغمضتا الآن . جلست كريستين تحدق إلى وجهه الأبيض . . . مررت يدها فوق وجهه المرة تلو الأخرى . لقد ظنت أنها رأت أنه قد بدأ يغرق نحو الموت .

"إرلند" ، توسلت إليه برقة . "لأجل يسوع . . . دعنا نحضر سيرا سولموند لك . الرب هو الرب ، أيا كان الكاهن الذي يحمله إلينا . . . "

"كلا !" جلس الرجل في السرير حتى انزلقت الأغطية عن جسده العاري الأصفر . . . كانت الضمادات فوق صدره وبطنه مبقعة ببقع حمراء من الدم الذي راح ينزف . "أنا رجل آثم . . . وسوف يمنحني الرب برحمته الغفران الذي يريد . ولكنني أشعر . . . " انهار فوق الوسائد . . . همس بصوت يكاد لا يسمع : "لن أعيش طويلاً لأصبح عجوزاً ووضيعاً . . . فأعاني . . . وأجلس وحيداً في غرفة مع ذاك الذي كذب عنك . . . "

"إرلند ، إرلند ، فكر في روحك !"

هز الرجل رأسه فوق الوسادة . كانت أهدابه قد تهدلت مرة أخرى .

"إرلند !" شبكت يديها ، صرخت عالياً في يأس مطلق . "إرلند . . . ألا ترى ذلك ، كما تحملتني ، فإن هذا يجب أن يُقال !"

فتح إرلند عينيه الكبيرتين . كانت شفتيه قد أصبحتا رصاصيتين . . . ولكن ظل ابتسامة شابة أشرقت فوق الوجه الغائر .

همس : "قبليني يا كريستين" . كان هناك ظل من الضحك نوعاً ما في صوته . "لقد كان هناك الكثير بيننا أنت رأنا على ما أعتقد - إلى جانب المسيحية والزواج- حتى نسامح واحدنا الآخر بسهولة كزوج وزوجة مسيحيين . . ."

نادت ونادت باسمه ، ولكنه كان ممدداً بعينين مغمضتين ووجهه شاحب كخشب قطع حديثاً تحت شعره الرمادي . نزّ قليل من الدم من زاويتي فمه . مسحته ، وهي تهمس بكلمات توسل إليه . . . وحين تحركت أحست بملابسها باردة ورطبة من الدم الذي تلوثت به حين قادته إلى السرير ووضعته فيه . والآن كان هناك صوت غرغرة في صدر إرلند ، وبدا وكأنه يتنفس بألم . . . ولكنه ما عاد يسمع ، وربما ما عاد يحس شيئاً ، بينما راح يغرق بثبات نحو سبات الموت .

●

فتح باب القاعة فجأة . اندفع ناكفه داخلاً ورمى بنفسه أمام السرير وأمسك بيد أبيه ونادى باسمه .

من خلفه وصل رجل طويل بدين في عباءة سفر . انحنى أمام كريستين :

"لو أني عرفت يا قريبتي أنك كنت في حاجة إلى مساعدة قريبك . . . "

وقد صمت حين رأى أن الرجل كان يحتضر ، فرسم إشارة الصليب على نفسه وابتعد إلى آخر زاوية في الغرفة . وبصوت خفيض بدأ فارس سوندبو يتلو الصلوات للمحتضر . . . ولكن كريستين لم يبد عليها أنها لاحظت قدوم سير سيغورد .

كان ناكفه راكعاً على ركبتيه ومنحنياً فوق السرير :

"أبي ! أبي! ألا تعرفني يا أبي ؟" وضع وجهه على اليد التي كانت كريستين جالسة وهي تمسك بها . راحت دموع وقبلات الشاب تمطر يدي الأبوين كليهما .

دفعت كريستين برأس ابنها قليلاً إلى الجانب . . . وكأنها استيقظت نصف استيقاظة .

قالت نافذة الصبر : "أنت تزعجنا . ابتعد قليلاً عن هنا . . . "

نهض ناكفه على ركبتيه :

"اذهب . . . ؟ ولكن يا أمي ؟"

"أجل ، اجلس مع أخوتك هناك . . . "

رفع ناكفه وجهه الشاب . . . المبلل بالدموع والغائر من الحزن . . . ولكن عيني أمه لم تر شيئاً . ثم مضى إلى المقعد حيث كان أخوته الستة جالسين . لم تلاحظ كريستين ذلك . . . كانت تحدق فحسب بعينين مجنونتين إلى وجه إرلند الذي كان الآن أبيض كالثلج تحت نور الشمعة .

●

بعد قليل ، فتح الباب مجدداً . دخل قدالفة وكاهن مع الأسقف السير هالفارد إلى القاعة وهم يحملون الشموع ويدقون جرساً فضياً . دخل أولف هالدورسون أخيراً . نهض أولاد إرلند وسير سيغورد ، ثم سقطوا على ركبهم أمام جسد الرب . ولكن كريستين رفعت رأسها فحسب قليلاً ، التفتت برهة بعينيها اللتين أعماهما البكاء ، فما عادتا تريان شيئا ، نحو القادمين . ثم تمددت كما هي فوق جثمان إرلند .

القسم الثالث

"الصليب"

-١-

كل النيران تخبو في النهاية .

كانت كلمات سايمون دار هذه ترن في قلب كريستين في بعض الأحيان .

كان ذلك في صيف السنة الرابعة بعد وفاة إرلند نيكولاوسون ، ومن قطيع أبنائها لم يكن قد بقي مع الأم في يوروندغارد سوى غاوته ولافرانس .

قبل عامين ، احترقت ورشة الحدادة القديمة ، وكان غاوته قد بنى ورشة جديدة شمال الضيعة عند الطريق العام . كانت الورشة القديمة تقع جنوب المباني نحو النهر ، في فجوة بين يوروندسبارو وبعض الأكوام الكبيرة من الحجارة التي قالوا إنها قد أزيلت من الحقول في غابر الأيام . في كل عام تقريباً في فترة الفيضان ، كان الماء يصل حتى الورشة .

والآن لم يعد هناك ما يذكر بالبقعة سوى الألواح الحجرية الثقيلة التي شققتها النار والتي تظهر المكان الذي كان الباب يحتله والموقد الحجري . كان عشب ناعم أخضر شاحب اللون يبرز الآن من الأرض السوداء المغطاة بهباب الفحم .

كان لدى كريستين لافرانسداتر حقل من الكتان في هذا العام قريب من

أرض ورشة الحدادة القديمة . كان غاوته يزرع القمح الآن في الحقول الأقرب إلى الضيعة حيث كانت سيدات يورونداغارد في الزمن الغابر قد اعتدن بذر الكتان وزرع البصل . وكان لكريستين غالباً مهمات تتطلب منها المرور بذلك الطريق علاوة على العناية بكتانها . في أماسي أيام الخميس كانت تحمل هدية من الجعة واللحم إلى "عجوز الرابية" . وفي أمسيات الصيف النيرّة كان الموقد الوحيد في المرج يتحول ليصبح أشبه بالمذبح الوثني القديم ، إذ يشع هناك بين الأعشاب بلون أبيض رمادي ومقلم بالسخام . في أيام الصيف الحارة اللافحة كانت تذهب بسلّتها إلى أكوام الحجارة عند الظهر لقطف توت الأرض أو جمع أوراق عشبة السنفية الجيدة جداً لتخمير المشروبات المبرِّدة المضادة للحمى .

تلاشت آخر دقات جرس الكنيسة التي تحيّي أم الرب في منتصف النهار في الهواء المضمخ بالنور بين الجبال . بدا الريف وكأنه قبع ليرتاح تحت نور الشمس الأبيض المتدفق . ومنذ الفجر المشبع بالندى كانت تأتي أغنية المناجل في المروج المزهرة ورنين أحجار الجلخ على الحديد ، وأصوات النداء ، وذلك من المزارع البعيدة والقريبة . والآن صمتت كل أصوات الشغل فقد طغت استراحة منتصف النهار على كل شيء . جلست كريستين فوق كومة الحجارة وراحت تصغي . ما كان ممكناً الآن سماع أي شيء عدا خرير النهر وحفيف الأوراق الخافت في البستان والطنين الضعيف للذباب والحشرات فوق المرج ، وكذلك صوت جرس بقرة وحيد في مكان ما بعيد . شق طائر طريقه سريعاً وصامتاً على امتداد حافة أجمة جار الماء . قام طائر من بين أكوام الأعشاب في المرج وطار وهو يزقزق زقزقة حادة وذلك ليحط على ساق نبتة من نباتات الشوك .

ولكن الظلال الزرقاء المنجرفة على امتداد جانب الجبل ، وغيوم الطقس الجميل التي تراكمت فوق حافة الجبال وذابت في السماء الزرقاء الصيفية ، والتماعة ماء نهر لاغن بين جذوع الأشجار ، والوميض الأبيض لنور الشمس على

كل الأشجار الورقية : هذه الأشياء كانت هي واعية بها كما وعت صوت الهدوء المسموع من قبل أذن داخلية وليس بالأحرى كما تراه العين . وبغطاء رأسها وقد جذب إلى ما فوق الحاجب للوقاية من الشمس ، جلست كريستين تصغي إلى عزف النور والظلال فوق "الديل" .

. . . كل النيران تخبو في النهاية . . .

●

في غابة جار الماء على امتداد ضفة النهر المستنقعية كانت برك الماء تلتمع في العتمة بين أشجار الصفصاف الكثيفة . هناك ينمو البردى وأجمات صغيرة من عشب القطن ، أما نبات البوطنطلة فكان يغطي الأرض بسماكة سجادة بأوراقه الخماسية ذات اللون الأخضر الرمادي وأزهاره البنية الحمراء . كانت كريستين قد قطفت باقة ثقيلة منه . وغالباً ما كانت تتساءل إن كان في هذا العشب بعض الفائدة . كانت قد جففته وغلته وأضافته إلى الجعة والميد . ولكنه بدا دون فائدة . ولكن كريستين لم تتحمل أن تخرج إلى المستنقع دون أن تبلل حذاءها لقطفه .

والآن عرّت كل السيقان من أوراقها وحبكت إكليلاً من رؤوس الأزهار داكنة اللون . كانت بلون أحمر نبيذي ولون الميد البني . وكانت مبللة كأنما بالعسل عند قاعدة العناقيد الحمراء من خيوط السداة . كانت كريستين تحبك أحياناً إكليلاً لصورة مريم العذراء في القاعة العليا . . . هكذا كان دأبهم في المناطق الجنوبية ، كما سمعت من الكهنة الذين كانوا هناك .

لم يكن لديها أمر آخر تصنع من أجله الأكاليل الآن . هنا في "الديل" لم يكن من عادة الشبان تزيين أنفسهم بأكاليل حين يتوجهون إلى الرقص فوق المروج . في مقاطعة تروندهايم ، كان الرجال العائدين من الخدمة في الحرس الخاص قد جلبوا معهم هذه العادة إلى بعض الأماكن . وقد رأت الأم أن هذا

الإكليل السميك الأحمر الداكن لاءم جيداً وجه غاوته فاتح اللون وشعره الكتاني الأصفر . . . أو شعر لافرانس البني كالجوز .

. . . لقد مرّ دهر طويل منذ ذلك الحين الذي اعتادت فيه أن تمشي مع كل أبنائها الصغار ومربياتهم في المرج فوق هوسابي ، أيام الصيف الطويلة الجميلة تلك . ثم كانت هي وفريدا غير قادرتين على صنع الأكاليل بالسرعة الكافية لكل الصغار نافدي الصبر . تذكرت حين كان لافرانس لا يزال يرضع من ثديها ، وإيفار وسكوله أرادا للرضيع أن يضع إكليلاً هو أيضاً . . . ولكن يجب أن يُحبك من زهور صغيرة تماماً كما قال الطفلان اللذان في سن الرابعة .

والآن لم يكن لديها سوى أولاد كبار .

كان لافرانس في الخامسة عشرة الآن . لا يمكن اعتباره على أنه قد نضج تماماً الآن على الأرجح . ولكن مع مضيّ الوقت ، فإن الأم أصبحت واعية بأن ابنها كان يقف بعيداً عنها أكثر من كل أطفالها الآخرين . لم يكن يبقى منعزلاً عنها عمداً كما فعل بيورغولف . لم يكن منطوياً على ذاته ، ولم يبد عليه أنه مغلق الفم مثل الصبي الأعمى . . . ولكن كأنما كان أكثر صمتاً منه بالطبيعة . . . ولكن لم يلاحظ أحد فحسب ذلك حين كان الأخوة كلهم في البيت : كان لامعاً ونضراً ، وبدا دائم السعادة وجيد المزاج ، وكان الجميع مغرمين بالطفل الفاتن ولم يفكروا قط بأن لافرانس كان دائماً وحده ولا يتكلم إلا قليلاً .

كان يعتبر أوسم أولاد كريستين أوف يوروندغارد الوسيمين . وكانت أمهم تعتبر دائماً الابن الذي تفكر فيه للتو هو الأوسم على الأرجح ، ولكنها كانت تشعر هي أيضاً كيف بدا لافرانس إرلندسون وكأنه يشع وميضاً . كان شعره البني الفاتح اللون ووجنتاه النضرتان كتفاحتين ، تبدوان كأنهما مذهبتان وممتلئتان بنور الشمس . أما عيناه الزرقاوان الواسعتان بلونهما الرمادي الداكن فبدتا وقد بذر فيهما شرار أصفر . . . كان أشبه بما كانت هي عليه في مطلع شبابها ، ببشرتها

اللامعة التي كانت مسفوعة بالشمس . وكان كبير الحجم قوياً بالنسبة إلى عمره ، متين البنيان وماهراً في كل الأعمال التي تطلب منه ، يطيع أوامر أمه وأخوته الأكبر منه ، مرحاً ولطيفاً وودوداً . ولكن في داخله كانت هناك عزلة غريبة .

في أمسيات الشتاء حين يتجمع أهل المنزل في مبنى الحياكة ويمضون الوقت بالمزاح والثرثرة ، بينما كل واحد منهم منهمك في عمله ، كان لافرانس يجلس كمن هو في حلم . في كثير من أمسيات الصيف حين يكون العمل اليومي في الضيعة قد انتهى ، فإن كريستين تخرج وتجلس قرب هذا الصبي حيث هو مستلق على المرج ، وهو يمضغ الزبيب أو يدوّر سويق حمّاض في فمه . كانت تراقب عينيه وهي تكلمه . . . كأنما كان يعيد أفكاره إلى بيتها من مكان بعيد جداً .

وكان يستحيل عليها أن تعرف ما يفكر به ذلك الصبي بكل ذلك العمق . كان جيداً بما فيه الكفاية في الرياضة والأسلحة . . . ولكنه كان أقل اهتماماً بهذه الأمور بكثير من أبنائها الآخرين ، ولم يكن يذهب قط للصيد وحيداً رغم سعادته حين يصطحبه غاوته معه . حتى الآن ، وعلى أي حال ، لم يبد عليه أنه لاحظ أن النساء كن يتطلعن إلى شبابه الوسيم بعيون ملؤها الحنان . لم يكن مهتماً أيضاً بقراءة الكتب ، كما لم يكن يكترث هذا الصبي بكلام أخوته الأكبر سناً عن اللجوء إلى دير للرهبان . لم تستطع كريستين أن تلاحظ أن الصبي ما كان مهتماً بأي أمر آخر سوى البقاء هنا في البيت في كل الأيام ، وأن يساعد غاوته بالزراعة كما يفعل الآن . . .

كانت كريستين تعتبر أحياناً أن هذه الأساليب الغريبة التي تدل على غياب الذهن تذكرها بأبيه . . . ولكن أساليب إرلند الناعمة الناعسة غالباً ما يحل محلها العبث الشديد . وكان لافرانس يفتقر إلى نوبات مزاج أبيه السريعة القوية . ولم يكن إرلند بعيداً جداً عما كان يجري من حوله . . .

●

كان لافرانس هو الأصغر بين أخوته الآن . لقد مر وقت طويل منذ أن نام مونان في المقبرة إلى جانب أبيه وأخيه الصغير . لقد مات في أوائل ربيع العام الذي تلا مقتل إرلند .

كانت الأرملة قد راحت تتصرف بعد وفاة زوجها وكأنها لا تسمع ولا ترى . فعلاوة على الألم والأسى ، كانت تحس بقشعريرة مخدّرة ووهن قليل في الجسم والروح ، وكأنها هي نفسها كانت لا تزال تنزف حتى الموت من جروحه القاتلة .

كانت حياتها كلها بين ذراعيه وذلك منذ ظهر ذلك اليوم العاصف في مخزن التبن الخارجي في سكوغ ، حين منحت نفسها لأول مرة إلى إرلند نيكولاوسون . في ذلك الحين كانت صغيرة دون حكمة ، ولم تكن تعرف ما تفعله ، حتى أنها جاهدت لتخفي أنها على وشك البكاء لأنه سبّب لها الألم ، بينما ابتسمت هي لأنها اعتبرت أنها منحت عاشقها أثمن هدية . وسواء كانت تلك الهدية جيدة أم لا . . . فقد منحت هي على الأقل نفسها ، بالكامل وإلى الأبد . أما عذريتها ، التي زيّنها الرب ورحمته بالوسامة والصحة ، حين جعلها تولد لمصير آمن ومشرّف ، والتي حماها والداها بصرامة مفعمة بالحب طوال السنوات التي كانت هي فيها تحت رعايتهما . . . فقد قدمتها بكلتا يديها إلى إرلند ، وبعد ذلك لم تعش إلا بين ذراعيه .

وكم عانت هي في السنوات التي تلت من عناقاته القاسية والباردة من الغضب ، واستسلمت بفعل الواجب لإرادة زوجها ، بينما كانت تشعر وكأنها ستموت من شدة إرهاقها . لقد فكرت بنوع من الفرح الغاضب ، حين كانت تنظر إلى وجه إرلند الوسيم وجسمه الصحيح والمعافى : ما عاد ممكناً لهذا أن يعميها عن أخطاء الرجل . أجل ، كان شاباً ووسيماً كما كان أبداً . كان لا يزال قادراً على أن يغلبها بمداعباته النارية كما كانت وهي شابة . ولكنها هرمت ، كما فكرت . . . ومع هذه الفكرة كان يأتي نوع من انفعال العزّة المنتصرة . من السهل على أولئك الذين لا يتعلمون درساً قط أن يحافظوا على شبابهم ، والذين لا يكترثون بمصير حياتهم ، أو يحاولون السيطرة على القدر بإرادة الإنسان .

ولكن حتى حين كانت تقابل قبلاته بشفتين قاسيتين مقفلتين ، وتلتفت

بكل كينونتها بعيداً عنه وذلك في معركتها لأجل مستقبل أولادها ، فقد كانت تعرف على نحو غير واضح أنها بالنار التي أشعلها هذا الرجل في دمها كانت هي ترمي بنفسها إلى العمل . لقد بردّتها السنون ، كما حسبت ، فهي ما عادت تشعر بالحرارة تدب فيها حين كانت عينا إرلند تلتمعان بذلك الوميض القديم ، وصوته العميق الذي كان يجعلها تتهاوى دون إرادة وحول وبسعادة حين عرفته في البداية . ولكنها حتى في ذلك الوقت كانت تتوق إلى أن تغرق عبء وألم الانفصال بلقاءاتها مع إرلند ، كذلك راحت تتوق لاحقاً على نحو كليل إنما محموم ، إلى هدف يمكن الوصول إليه ، حين تكون قد أصبحت امرأة عجوزاً بشعر أبيض فترى مصير أبنائها على أنّه مستقر وآمن . إذن لأجل أبناء إرلند عانت هي من خوف انعدام الثقة القديم الذي كان أمامهما . كانت لا تزال تتعذب بتوق كالجوع والعطش الحارق . . . عليها أن ترى أبناءها في حال مزدهرة .

وكما سلمت نفسها بالكامل إلى إرلند ، سلمت نفسها لاحقاً بالكامل إلى العالم الذي برز من حول حياتهما الزوجية . . . ورمت بنفسها في حمأة خرق القانون وذلك لتردّ على كل نداء ، كما رمت بنفسها في كل عمل يجب أن يؤدى وذلك لضمان مصلحة إرلند وأولادها . لم تفهم هي نفسها فهماً كاملاً أنها كانت تعيش دائماً مع إرلند . وحين مكثت في هوسابي وهي تتأمل مع كاهنهم في الأوراق التي كانت في صندوق إرلند وحين كلمت مستأجري أرضه وعماله وحين أشغلت نفسها وخادماتها في المخزن والمطبخ ، وجلست في حقل ترويض الحصان مع مربيات أبنائها اللواتي كن يحرسن أطفالها في أيام الصيف الجميلة . لقد بدا لها وكأنها صبت غضبها على إرلند حين كان أي خطأ يحدث في المنزل وحين كان الأولاد يكسرون إرادة أمهم . كان قلبها المترع بالفرح يتوجه إليه حين كانوا يجلبون التبن في الصيف ليجفّ ، أو حين كانت زراعة القمح ناجحة في الخريف ، وتكون عجولها في حالة ازدهار وتسمع أولادها يصرخون ويضحكون في

الباحة . إن فكرة أنها كانت "خاصته" راحت تتوهج في قلبها حين وضعت جانباً بعد أن اكتملت آخر ملابس العيد للأولاد السبعة ووقفت في فرح وهي تنظر إلى كومة العمل جيد الصنع والحياكة الذي قامت به يداها خلال الشتاء . كانت قد ملّت وتعبت "منه" حين ذهبت في إحدى أمسيات الربيع إلى البيت من النهر مع خادماتها . . . وقد رحن يغسلن الصوف من آخر جزّ للصوف ، وقد غلين الماء في قدر كبير قرب الشاطئ ، وغسلن الصوف في الجدول . . . والسيدة نفسها تشعر كأن ظهرها كان مكسوراً ، وأنها كانت سوداء كالفحم من قذارة الصوف حتى ذراعيها ، وكذلك من رائحة الخراف والشحم الذي تغلغل في كل ملابسها حتى بدا أن ثلاثة حمامات لن تكفي لتجعلها نظيفة كما كانت .

والآن بعد أن رحل هو ، فكأنما كانت الأرملة غير قادرة على أن ترى أي معنى في انشغالها القلق بالحياة . كان "هو" قد أصيب بجراح ، لذا عليها هي أن تموت ، كشجرة اقتلعت جذورها . أما الشجيرات الصغيرة التي نمت من حول حضنها فعليها الآن أن تكبر وتتغذى من جذورها الخاصة بها . لقد أصبح أبناؤها كباراً بما فيه الكفاية حتى يتولى كل منهم مصيره . وقد التمعت الفكرة في ذهن كريستين . . . لو أنها فهمت هذا من قبل فحسب ، في ذلك الحين حين قاله إرلند . مرت صور أشبه بالظلال ، صور حياتها مع إرلند ، حتى لجوئه إلى مزرعة الجبل ، في ذهنها . . . هاهما وقد عادا شابين مجدداً ، والطفل الصغير إلى القرب منهما . ولكنها لم تكن نادمة أو آسفة على ما كان ممكناً . فهي لم تكن قادرة على الافتراق عن حياة أبنائها . . . والآن فإن الموت سرعان ما سيفرقهم عنها ، فهي بدون إرلند لم يعد لديها القوة على الحياة . وكل ما جرى وكل ما سيجري ، كان قدرهم . . . وكل الأشياء تسقط كما هو مقدر لها أن تسقط .

•

لقد شاب شعرها وشاخت بشرتها ، ولم تعد تهتم إلا بالكاد بملابسها . في الليل كانت تستلقي وتفكر بحياتها مع إرلند . وفي النهار كانت تمشي كمن في حلم ولا تحادث أحداً ما لم يبادرها الحديث ، ولم يكن يبدو عليها أنها تسمع حين كان أبناؤها يحادثونها . لم تعد الزوجة الساهرة المجدة تعمل أي شيء . كان الحب قد كمن في كل نضالاتها مع الأمور الدنيوية . . . ولم يكن إرلند قد شكرها كثيراً على ذلك . ولم تكن تطلب بأن تُحبّ لأجل ذلك . ولكنها لم تكن قادرة على فعل خلاف ذلك . كان من طبيعتها أن تحبّ الشغل والاهتمام بالآخرين .

في هذا الوقت بدت وكأنها تنزلق نحو غشية الموت . ثم حلّ مرض انتشر في كل الأبرشية وجعل أولادها طريحي الفراش . . . واستيقظت الأم مرة أخرى .

كان المرض أخطر على الكبار ممّا هو على الأطفال . وقد اشتد المرض على إيفار إلى حد أنه لم يكن هناك أحد يصدق أنه سينجو منه . كانت تنتاب الشاب الصغير قوة جبارة حين يصاب بنوبات الحمى ، فيزمجر ويناضل للنهوض والإمساك بأسلحته . . . لقد بدا وكأن حادث وفاة أبيه كان يجري في ذهنه . وكان ناكفه وبيورغولف يمسكان به بقوة . ثم مرض بيورغولف . أما لافرانس فوقع طريح الفراش بوجه متورم بقروح مفتوحة حتى ما عاد يعرف له شكل . . . أما عيناه فكانتا تومضان على نحو كليل عبر شقين صغيرين . . . وتبدوان وكأنهما تحترقان مع الحمى المتقدة .

راحت الأم تسهر على هؤلاء الثلاثة في العلية . ناكفه وغاوته قد أصيبا بالمرض وهما طفلان بعد ، أما سكوله فكان أخف مرضاً من أخوته . كانت فريدا تعتني به وبمونان في القاعة السفلى . ولم يكن أحد يظن أن مونان في أي خطر . ولكنه لم يكن قط قوي البنية . وفي إحدى الأمسيات وحين اعتقد الجميع أنه شفي تقريباً ، غاب فجأة عن الوعي . لم يكن هناك إلاّ بالكاد ما يكفي من الوقت لتنبيه أمه . . . هرعت كريستين إلى الأسفل ، وبعد برهة لفظ مونان آخر أنفاسه

بين ذراعيها .

أيقظها موت الطفل على يأس جديد مشدوه . كان حزنها العنيف على رضيعها الذي مات على ثدي أمه قد اصطبغ بلون أحمر من ذكرى كل أحلامها المذبوحة بالسعادة . كانت العاصفة في قلبها قد حملت كريستين عالياً في تلك الأيام . والضغط المخيف الذي انتهى لترى زوجها مقتولاً أمام عينيها ، مما خلف وراءه إرهاقاً في الروح حتى ظنت كريستين على نحو أكيد أنها ميتة لا محالة من الحزن على إرلند . ولكن هذه الثقة قد خففت من حدة الحزن . لقد عاشت وهي تشعر بالغسق والظلال تتكثف من حولها ، بينما راحت تنتظر الباب ليفتح أمامها هي أيضاً . . .

ولكن الأم وقفت فوق جثمان مونان الصغير بلون رمادي وعقل مستفيق . كان الطفل الوسيم العذب هو أصغر أبنائها لسنوات كثيرة ، آخر من كانت لا تزال تجرؤ على مداعبته والضحك عليه ، بينما كان عليها أن تمارس الصرامة والجدية وتصحح سلوك ابنها حين يخطئ أو يكون طائشاً . وكان هو شديد الحب والتعلق بأمه . لقد كان ذلك جرحاً بليغاً . . . فقد كانت لا تزال شديدة الارتباط بالحياة . لم يكن أمراً سهلاً عليها كما ظنت أن تموت امرأة ما حين تكون قد سكبت دم حياتها في تلك القلوب الشابة الجديدة الكثيرة .

في يأس بارد ثابت بدأت تذهب وتروح بين الطفل الذي كان ممدداً على قش الموت وأبنائها المرضى . كان مونان قد مدّد في المخزن القديم ، حيث كان الرضيع الصغير ثم الأب قد مددا . . . ثلاث جثث في بيتها خلال أقل من عام . وبقلب أذواه الخوف ، ولكنه عار وأخرس ، فقد راحت تنتظر التالي حتى يموت . . . راحت تنتظر كمن ينتظر مصيراً قاسياً لا يرحم . لم تكن قد حمدت الرب بما فيه الكفاية على الهدية التي منحها إياها ، هدية الأولاد الكثيرين . وكان أسوأ الأمور أنها

فهمت ذلك جيداً بأسلوب ما . ولكنها فكرت أكثر في مشاكلها وآلامها ومخاوفها ونضالاتها . . . رغم أنها تعلمت المرة تلو الأخرى ، عبر ما كانت تفتقده كل مرة يكبر فيها ولد على ذراعيها ، وعبر المتعة التي كانت تعتريها في كل مرة كان يوضع فيها طفل جديد على صدرها . . . أن المتعة كانت أكبر بكثير من المخاض والألم . لقد تذمرت لأن والد الأطفال كان شخصاً لا يمكن الوثوق به ، مع القليل من التفكير المسبق بنسله الذي سيأتي بعده . كانت دائماً ما تنسى أنه لم يكن سوى ذاك الذي خرقت قانون الرب وداست على أهلها تحت قدميها لتكون معه .

وهاهو الآن وقد انتُزع من جانبها . وهاهي تنتظر الآن أن ترى أبناءها يموتون ، واحداً إثر الآخر . ربما كان قدرها أن تبقى أماً بلا أولاد في النهاية .

. . . كانت هناك أمور كثيرة سبق أن رأتها بالفعل من قبل ، ولكنها لم تفكر بها كثيراً وبالوقت الذي رأت فيه العالم كله عبر سديم حبها وحب إرلند . لقد رأت عن حق أنه بالنسبة إلى ناكفه كانت تلك قضية صادقة أنه كان البكر وأنه كان الزعيم والقائد لعصبة الأخوة . ولقد رأت أيضاً أنه كان يحب مونان كثيراً . ومع ذلك فقد كانت مهزوزة ، كما من قبل شيء غير متوقع ، حين رأت حزنه الشديد على وفاة أصغر أخوته .

●

ولكن الأبناء الآخرين سرعان ما شفوا مجدّداً إنما ببطء . وفي أحد الفصح استطاعت أن تأخذ إلى الكنيسة أربعة من أبنائها إذ كان بيورغولف لا يزال في السرير ، وإيفار أضعف من أن يغادر المنزل . كان لافرانس قد اكتسب الكثير من الطول خلال مكوثه في فراش المرض ، وكأنما كانت حوادث نصف السنة هذه قد جعلته يكبر أكثر من عمره .

وهكذا بدا لكريستين أنها أصبحت امرأة عجوزاً الآن . فالمرأة تبقى شابة طالما

كان لديها أطفال صغار ينامون بين ذراعيها ليلاً ويلعبون من حولها خلال النهار ، ويحتاجون إلى عنايتها نهاراً وليلاً . وحين يكبر الأولاد الصغار على هذا كله ، تصبح الأم امرأة عجوزاً .

تحدث إليها زوج أختها الجديد ، يامالت هالفاردسون ، عن صغر سن أبنائها وعن أنها هي نفسها لم تكن قد تجاوزت الأربعين إلا بقليل . وأنها سرعان ما ستشعر أن عليها- ربما - أن تتزوج مجدداً . فهي في حاجة إلى زوج يساعدها على العناية بالأملاك وإطعام الأبناء الأصغر سناً . وقد رشح لها أكثر من رجل صالح يعتبره ملائماً لها . . . عليها أن تزوره في آيلين في الخريف ، وسوف يجعلها تقابلهم ، وبعد ذلك يستطيعان مناقشة الأمر على نحو أوثق .

ابتسمت كريستين بشحوب . أجل ، لم يكن عمرها أكثر من أربعين سنة . لو أنها سمعت بامرأة أخرى ترملت ولديها قطيع من الأولاد الصغار ، لقالت كما قال يامالت : إن عليها أن تتزوج مجدداً ، وتبحث عن زوج جديد . بل ربما رزقت منه بأولاد جدد . . . أما هي فلن تفعل ذلك . . .

بعد مرور أيام عيد الفصح المقدسة وصل يامالت أوف آيلين إلى يورروندغارد وقابلت كريستين زوج أختها للمرة الثانية . لم تكن هي وأولادها قد ذهبوا إلى حفل الخطوبة في دايفرين ولا إلى حفل الزفاف في آيلين . لقد أقيم الاحتفالان دون فاصل زمني طويل بينهما ، في ذلك الربيع حين كانت حاملاً بآخر أطفالها . وما أن سمع يامالت بمقتل إرلند نيكولاوسون ، حتى أسرع إلى "سيل" . وبالنصيحة والأفعال قدم المساعدة إلى أخت زوجته وأبنائها ، ورتب كل الأمور التي يجب ترتيبها - بقدر ما استطاع - بعد وفاة سيد المنزل ، وتقدم بالاتهام ضد قتلة الرجل بما أن أحداً من أولاد إرلند لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد . ولكن كريستين لم تعرف في ذلك الحين شيئاً مما كان يدور حولها . وحتى الحكم ضد غودموند توريسون الذي أدين بقتل إرلند لم يبد أنه أثّر فيها كثيراً .

وفي هذه المرة تبادلت مع زوج أختها المزيد من الأحاديث ، وبدا لها رجلاً يمكن أن يُحب . لم يكن هذا شاباً . . . فقد كان من عمر سايمون دار . . . إلا أنه كان رجلاً هادئاً رزيناً ، طويلاً كبير الحجم ، ذا لون أسمر ، وسيم الوجه ، إلا أنه محدودب الظهر قليلاً . أصبح هو وغاوته صديقين على الفور . أما ناكفه وبيورغولف فكانا قد أصبحا على علاقة أوثق منذ وفاة أبيهما ، ولكن بمعزل عن البقية . ولكن إيفار وسكوله قالا لأمهما إنهما أحبا يامالت جيداً . . . "ولكن بدا لنا أن رامبورغ كانت تستطيع أن تكون أكثر تكريماً لسايمون لو أنها بقيت أرملة فترة أطول . . . فزوجها الجديد هذا لا يشبه سايمون على أي حال" . لاحظت كريستين أن هذين المجنونين بين أولادها كانا لا يزالان يتذكران سايمون أندرسون : فقد كانا يتركانه يوجههما سواء بالكلمات اللاذعة أو بالمزاح اللطيف ، رغم أنهما ما كانا ليتحملا كلمة لوم واحد من أبيهما أو أمهما دون أن تلتمع عيونهما وتتكور قبضاتهما غضباً .

خلال وجود يامالت في يورونداغارد ، وصل أيضاً مونان باردسون لزيارة كريستين . لم يكن قد تبقى شيء يذكر من "السير مونان الراقص" . كان مقاس خصره واسعاً وكان بديناً ومهيباً في سالف الأيام ، كما كان يحمل جسمه الثقيل برشاقة رغم ذلك ، حتى كان يبدو أطول وأكثر وقاراً مما كان عليه لاحقاً . والآن كان النقرس قد جعله بظهر معوج ، وانكمشت بشرته فوق هيكله الذي تقلص ، لكنها بقيت مهدّلة . كان يبدو أشبه بغول صغير ، أصلع الرأس تماماً إلاّ من بضع خصل بيضاء ضعيفة من حول مؤخر عنقه . ذات مرة كانت له لحية قوية سوداء زرقاء كانت تطغى على وجنتيه الناعمتين المليئتين وذقنه ، ولكن كانت هناك الآن بقع من لحية نامية رمادية في كل الطيات المتهدلة لذقنه وعنقه ، حيث لم تكن موساه تصلها . كان بصره قد أصبح كليلاً ولعابه يسيل قليلاً . . . كما كانت معدته ضعيفة .

كان معه ابنه "إنجه" الذي يلقبه الناس بـ "فلوغا" على اسم أمه . وكان قد سبق له وأصبح في سن متقدمة . كان الأب قد ساعده على التقدم في سلم الحياة جيداً . كما دبر له زواجاً من امرأة غنية وجعل الأسقف هالفارد يساعده . . . كانت زوجة مونان كاترين ابنة عم الأسقف ولذلك كان السير هالفارد راغباً في مساعدة إنجه على الوصول إلى الثراء ، حتى لا يتعدّى على ميراث أولاد الليدي كاترين . كان الأسقف وصياً على إقطاعة هيدماركن ، وقد جعل إنجه مونانسون نائباً عنه ، حتى أصبح الآن مالكاً لقطعة أرض صغيرة في سكاون وريدابو . كما كانت أمه قد اشترت لنفسها ضيعة في تلك النواحي . لقد أصبحت امرأة شديدة الورع الآن ، وتفعل الكثير من أفعال الخير ، وقد تعهدت أن تعيش حياة طاهرة حتى وفاتها . "أجل ، وما هي بالعجوز جداً ولا بالمريضة حتى" ، قال السير مونان بنزق حين رأي كريستين تبتسم . كان يود بالفعل أن يرتب الأمور بحيث تأتي برينهيلد لتسكن معه وتدير له منزله في ضيعته قرب هامار ، ولكنها رفضت العرض .

إن أيام شيخوخته خالية من السعادة ، كما اشتكى السير مونان . فأطفاله شديدو الخصام . . . حتى أن الأطفال من الأم الواحدة كانوا يتخاصمون فيما بينهم ، ويتعاركون ويتشاجرون مع أخوتهم وأخواتهم غير الأشقاء . أما الأسوأ فكانت الابنة الصغرى التي لديها عاشق هو رجل متزوج من غيرها ولن يترك لها أي ميراث ، لذلك كانت تنهب من والدها كل ما تستطيع وضع يدها عليه وهو لا يزال حياً . كانت أرملة أصلاً ، وقد استقرت في سكوغهايم ، الضيعة التي هي المقر الأساسي للسير مونان . ولم يستطع أبوها ولا أخوتها وأخواتها زحزحتها عن ذلك المكان . كان مونان خائفاً جداً منها ، ولكنه حين حاول النجاة والعيش مع أولاده الآخرين ، فقد لوحق هناك أيضاً بالشكاوى عن طمع وغش الأولاد الآخرين في معاملاتهم . كان أسعد ما يكون مع أصغر بناته الشرعيات التي هي

راهبة في غيمسوي . وكان يحب كثيراً النزول في النزل هناك لفترة من الزمن ، وكان يحاول في تلك الأثناء أن يجعل روحه تتطهر بالكفارة والصلوات تحت إشراف ابنته ، ولكنه لا يستطيع احتمال الحياة هناك طويلاً . لم تكن كريستين واثقة من أن أبناء برينهيلد كانوا ألطف بكثير نحو أبيهم من الأولاد الآخرين ، ولكن مونان باردسون لم يكن ليعترف بهذا . كان يحبهم أكثر من كل أولاده .

ولكن رغم بؤس حال هذا النسيب ، إلا أن حزن كريستين الحجري بدا يذوب لأول مرة قليلاً خلال وجوده معها . فقد كان السير مونان يتحدث عن إرلند دائماً . . . وذلك حين لا يكون آخذاً بالشكوى والأنين . . . ويتفاخر بابن خالته المتوفي وأفعاله . . . وخاصة بشبابه المتهور : إن مغامرات إرلند العنيفة حين انطلق لأول مرة في هذا العالم ، بعيداً عن بيته في هوسابي . . . حيث كانت الليدي ماغنهيلد (أمه) تتشاجر مع أبيه وأبوه يتشاجر مع ابنه الأكبر على الدوام . . . وعن هستنايس وأبيه بالتبني السير بارد الجدي الورع . كانت ثرثرة السير مونان تبدو سلواناً غريباً لأرملة إرلند الحزينة . ولكن الفارس أحبّ بأسلوبه الخاص ابن خالته الشاب ، وكان يعتبر دائماً أن إرلند يبزّ كل الرجال الآخرين وسامة ورجولة . . . أجل ومن حيث الفهم أيضاً ، كما قال مونان بحماسة ، ولكنه لم يكن يستخدم ذلك الفهم . ورغم أن كريستين كانت تعتقد بكل ثقة بأن إرلند لم يكن في صالحه الانضمام إلى حرس الملك وهو لا يزال في السادسة عشرة من عمره ومعه ابن خالته كمرشد ومعلم ، إلا أنها كانت مع ذلك تبتسم بحزن ورقة حين كان مونان باردسون يتحدث ويتحدث ، بينما اللعاب يجري من زاويتي فمه والدموع تنزّ من عينيه العجوزين اللتين كانتا محاطتين بإطارين حمراوين ، عن روح إرلند اللماحة المرحة ، وذلك قبل تلك الصدفة التعيسة التي ضللت خطاه إذ لحق بإلين أورمسداتر وخربت عليه هذه كل حياته .

كان يامالت هالفاردسون ، الجالس وهو منخرط في حديث جدي مع غاوته

وناكفه ، ينظر إلى أخت زوجته متسائلاً . لقد جلست على المقعد الجداري إلى جانب هذا الرجل العجوز الذي لا طعم له وأولف هالدورسون . . . بدا أولف ليامالت وكأنه صاحب مزاج متقلب ، ولكنها كانت تبتسم بينما تثرثر معهما وعملأ لهما أقداحهما . . . لم يكن قد رآها تبتسم من قبل ، ولكن ذلك لاءمها جيداً ، وكانت ضحكتها الصغيرة الخفيضة أشبه بضحكة شابة صغيرة .

●

تكلم يامالت ذات مرة كيف أنه لم يكن ممكناً لهؤلاء الأخوة الستة أن يبقوا في المنزل معاً يعتاشون من ضيعة أمهم . فما كان أحد ليتوقع من أي رجل غني من محتد مساوٍ لمحتدهم أن يمنح إحدى قريباته زوجة لنيكولاوس لو كان إخوته الخمسة سيبقون ليقطنوا معه ، وربما يتعيشون من الضيعة حين سيتزوجون بدورهم . وكان عليهم أن يبحثوا عن زوجة للشاب الآن . . . فقد سبق له أن بلغ العشرين ويبدو شهوانياً . لذلك كان يامالت مصمماً على اصطحاب إيفار وسكوله معه حين يسافر جنوباً مرة أخرى ، ولا شك أنه سيجد سبيلاً لهما ليتقدما فيه . فبعد أن لقي إرلند نيكولاوسون مصرعه على ذلك النحو البائس فقد بدا واضحاً أن كبار النبلاء في البلاد قد فكروا مرة أخرى في أن الرجل القتيل كان واحداً من أندادهم ، وأن محتده وأصله كانا يؤهلانه ليحتل مكانة متقدمة جداً ، وأنه كان جريئاً ومترفعاً عن الدنايا من نواحٍ كثيرة ، وفي الحرب أثبت أنه زعيم حربي شجاع وصامد . . . رغم أن الحظ لم يكن حليفه . لقد عومل الرجال الذين ساهموا في ذبح السيد في ضيعته بمنتهى الصرامة . وقد ذكر يامالت أسماء أشخاص كثيرين سألوه عن أبناء إرلند . مثلاً رجال سودرهايم الذين قابلهم في عيد الميلاد ، وقد ذكروا أن هؤلاء الشبان الصغار هم أقرباؤهم . لقد طلب إليه السير يون أن يحييهم ويبلغهم بأنه سيرحب بأولاد إرلند نيكولاوسون كقريب لهم وأنه مستعد للترحاب بأي منهم لو أراد الانضمام إليه في بيته . كان يون هافتورسون على

وشك الزواج من الليدي إلين ، أكبر بنات إرلينغ فيدكونسون ، وقد سألت العروس الشابة إن كان الشبان يشبهون أباهم : وهي تتذكر جيداً أن إرلند قد زارهم في بيورغفين حين كانت طفلة ، وأنه بدا لها أوسم من كل الرجال . كما قال أخوها بيارن إرلينغسون إنه سيفعل ما يستطيع فعله لأجل أبناء إرلند نيكولاوسون من كل قلبه .

جلست كريستين تحدق إلى ابنيها التوأمين بينما كان يامالت يتكلم . لقد أصبحا أكثر فأكثر شبهاً بأبيهما : شعر حريري ناعم أسود كالسخام يلتصق برأسيهما ، ولكنه مجعد قليلاً في خصلات الجبين وينزل على عنقيهما الأسمرين الرشيقين . كان لهما وجهان ضيقان مع أنفين عاليين بارزين وفمان صغيران دقيقان مع عقدة من العضلات عند كل زاوية . ولكن ذقنيهما كانا أقصر وأعرض وعيونهما أدكن من عيني إرلند . وقد كان هذا هو على الأغلب ، كما فكرت زوجته ، هو ما جعل إرلند وسيماً إلى ذلك الحد ، حتى أن عينيه حين كانتا تنظران إلى الأعلى ، بلون أزرق فاتح وصاف ، من ذلك الوجه النحيل الأسمر تحت الشعر الأسود الفاحم ، فإنهما كانتا تفاجئان المرء تماماً .

ولكن كان هناك وميض من الأزرق الفولاذي في عيون الشابين الآن بينما راح سكوله يجيب على أسئلة زوج خالته (كان ميالاً إلى أن يكون الناطق باسم التوأمين) :

"نشكرك على هذا العرض الجيد والكريم يا قريبنا . ولكن سبق لنا وتحدثنا مع السير مونان وإنجه ، وقد شاورنا أخانا الأكبر في ذلك . . . والنتيجة هي أننا قد اتفقنا مع إنجه وأبيه . هذان الرجلان قريبانا من جهة أبينا . . . ونحن سنرافق إنجه حين سيتجه جنوباً ، ونعتزم أن نقيم في ضيعته في هذا الصيف ، ولفترة إضافية . . ."

نزل الشبان إلى القاعة في ذلك المساء إلى حيث ذهبت أمهم لترتاح :

"أجل ، نعتقد أنك تفهمين هذا يا أمي" ، قال إيفار .

"سوف لن نطالب بحقوق القرابة ونتوسل العون والصداقة من رجال جلسوا صماً وراحوا يتفرجون بينما كان أبونا يعاني من الظلم" ، أضاف سكوله .

أومأت الأم برأسها .

لقد اعتبرت أن ولديها كانا على حق . كان يامالت رجلاً حكيماً صائب التفكير ، كما رأت ، وكان عرضه ذا نية طيبة . . . ولكنها كانت مسرورة تماماً أن الشبان كانوا مخلصين لأبيهم . ولكن لم يسبق لها أن فكرت قديماً بأنه سيحل زمن يخدم فيها أبناؤها ابن برينهيلد فلوغا .

انطلق التوأمان مع إنجا فلوغه ما أن أصبح إيفار في حالة صحية تمكنه من امتطاء حصانه . أضحت الضيعة هادئة حين رحل هذان . تذكرت الأم . . . في العام الماضي في مثل هذا الوقت كانت تضطجع في غرفة الحياكة مع طفل وليد . . . بدا لها هذا أشبه بحلم . لقد مضى وقت قصير جداً منذ أن أحست أنها شابة ، وذهنها قد تنشط وتحرك باهتمامات ومشاغل المرأة الشابة ، بالأمل والكره والحب . . . والآن هاهو قطيعها ينكمش إلى أربعة أبناء ، وفي ذهنها لم ينشط شيء ، إلا القلق على الشبان الكبار . في هذا الهدوء الذي حلّ بيورروندغارد بعد رحيل التوأمين ، اندلع خوفها على بيورغولف متحولاً إلى لهيب بعد أن كان يطلق دخانه بهدوء .

لدى قدوم الضيوف ، انتقل هو وناكفه إلى مبنى الموقد القديم . كان ينهض من السرير في النهار ، ولكنه لم يخرج إلى الهواء الطلق بعد . وبخوف عميق لاحظت كريستين أن بيورغولف يجلس دائماً في البقعة نفسها ، ولا يذرع الأرضية ولا يتحرك إطلاقاً حين تكون إلى جواره . لقد عرفت أن عينيه ساءت حالهما في هذا المرض الأخير . كان ناكفه شديد الهدوء والصمت . . . ولكنه كان

على هذه الشاكلة منذ وفاة أبيه ، وبدا أنه أصبح ينعزل عن أمه بقدر ما يستطيع .

وأخيراً استجمعت شجاعتها وسألت ابنها البكر كيف كان بصر بيورغولف . راح ناكفه يتهرب طويلاً من أسئلتها . ولكنها طالبت ابنها بأن يحكي لأمه الحقيقة .

قال ناكفه :

"لا يزال قادراً على رؤية النور القوي . . . " وبينما كان يقول هذا فإن الشاب شحب لونه والتفت بحدة وخرج من الغرفة .

في وقت متأخر من النهار ، حين بكت الأم حتى أرهقت نفسها إلى حد أنه بدا لها أنها تستطيع الآن أن تتحدث بهدوء مع ابنها ، ذهبت إلى المبنى القديم .

كان بيورغولف مستلقياً على السرير . ما أن وصلت وجلست إلى قربه على حافة السرير ، حتى استطاعت أن ترى من وجهه أنه عرف أنها كلمت ناكفه :

"أمي ، عليك ألا تبكي يا أمي" ، توسل إليها بخوف .

كانت تتمنى لو ترمي بنفسها على ابنها ، وتأخذه بين ذراعيها وتبكي وتنوح على مصيره القاسي . ولكنها مدت يدها إلى يده تحت غطاء السرير .

قالت بصوت مبحوح : "يمتحن الرب رجولتك إلى حد كبير يا بنيّ" .

"لقد عرفت منذ زمن طويل يا أمي أني مختار لأعاني من هذا المصير . منذ أن كنا في تاوترا . . . كلمني الأخ آسلاك عن هذا وقال إن الأمر سيجري على هذا النحو معي . . .

"وكما تعرض سيدنا يسوع في البرية للإغواء ، هذا ما قاله ، فإن البرية الحقيقية بالنسبة لروح الإنسان المسيحي هي وقوف حاجز أمام البصر والحس . . . عندها سيلحق بخطوات الرب إلى البرية ، حتى لو كان جسده بين أخوته وأقاربه . لقد قرأ عن هذه الأمور من كتب القديس برنارد . ولو أن روحاً تستطيع فحسب أن تفهم أن من اختاره الرب خصيصاً لمثل هذه المحنة القاسية للرجولة ، عندها لن

يكون في حاجة للخوف من أنه لن يستطيع الالتزام بذلك . والرب يعرف روحي أفضل مما تعرفه الروح نفسها . . . "

تابع الحديث مع أمه على هذا المنوال ، وهو يواسيها بحكمة وقوة في الروح بدتا بعيدتين عن سنه الغضّة .

في المساء وصل ناكفه إلى كريستين وتوسل إليها أن يحادثها على انفراد . وعند ذلك قال إن نيته كانت هي أن يدخل هو وبيورغولف في أخوة ربانية وأن يقسما اليمين كراهبين في تاوترا .

وقفت كريستين صامتة مصعوقة ، ولكن ناكفه تابع كلامه بهدوء . سينتظران حتى يصل غاوته إلى سن الرشد وسوف يرعيان شؤون أمهما وأخوتهما الأصغر سناً . ثم سيدخلان الدير مع أمتعة بحجم يلائم أولاد إرلند نيكولاوسون أوف هوسابي ، ولكنهما سيبقيان حريصين على مصلحة أخوتهما . من أبيهما لم يكن أولاد إرلند قد ورثوا شيئاً له قيمة تذكر ، ولكن الثلاثة الذين ولدوا قبل أن يدخل غونولف نيكولاوسون الدير كانوا يمتلكون قطعاً من مزارع شمال الجبال . . . فقد كان قد قدم هدايا إلى أولاد أخيه حين وزع ثروته ، رغم أن معظم ما لم يمنحه إلى الكنيسة وأعمال البر ، فقد منحه إلى أخيه . ثم قال ناكفه إنه لو أنه وبيورغولف لم يطالبا بكامل حصتيهما في الإرث ، سيساعد هذا غاوته أيضاً ، الذي كان سيصبح سيد المنزل الآن وسيتابع الإشراف عليه ، إذا ما اعتبروهما كأنهما ماتا في عيون الدنيا .

أحست كريستين وكأن ضربة قد صعقتها . لم يكن قد سبق لها وحلمت أن ناكفه سيفكر في حياة الرهبان . ولكنها لم تعارض ذلك . . . كانت مغلوبة على أمرها . كما لم تجرؤ أن تحاول لفت ذهن ابنها بعيداً عن هدف نبيل ومليء بالمكاسب كهذا .

"حتى حين كنا أولاداً صغاراً ونعيش في الدير هناك في الشمال ، فقد تواعدنا نحن الاثنين على عدم الافتراق" ، قال ناكفه .

أومأت أمه برأسها . كانت تعرف ذلك . ولكنها كانت قد حسبت أن المعنى كان هو أن يتابع بيورغولف الحياة مع ناكفه حتى لو تزوج الأخ الأكبر .

لقد بدا الأمر لكريستين وكأنه شبه معجزة أن بيورغولف رغم يفاعته استطاع أن يتحمل مصيبته بكل هذه الرجولة . وفي المرات التي فتحت فيها الموضوع معه ، خلال فصل الربيع كله ، لم تسمع من شفتيه سوى كلمات شجاعة وورعة . لم يكن الأمر مفهوماً إلا بالكاد كما بدا لها . . . ولكن لاشك أنه كان يعرف منذ سنوات كثيرة ما الذي سينجم عن ضعف بصره ، ويبدو على الأرجح أنه كان يسلّح روحه بالصبر منذ ذلك الحين الذي أقام فيه بين الرهبان . . .

ولكن ، طالما كان الأمر على هذه الشاكلة ، لم تكن تستطيع مغالبة التفكير في مشقة وثقل مصير هذا الابن تعيس الحظ بين أبنائها . . . وكم أنها لم تفهم سوى القليل ، وهي واقفة إلى جانب وذهنها مشغول بمشاغلها الخاصة . وهاهي كريستين لافرانسداتر تسرق كل لحظة تكون فيها لوحدها لتركع أمام تمثال مريم العذراء في بيتها في العلية ، وأمام مذبحها شمالاً في الكنيسة كلما كان مفتوحاً . بحزن نابع من أعماق قلبها ، وبدموع حزينة كانت تصلي لأم المخلص الحنون حتى تكون أماً بديلة لبيورغولف ، وأن تعوض عنه كل ما لم تقدمه له أمه الطبيعية .

●

في إحدى ليالي الصيف كانت كريستين تستلقي وهي مستيقظة . كان ناكفه وبيورغولف قد عادا إلى القاعة العليا ، ولكن غاوته كان ينام في الأسفل مع لافرانس ، فالأخوان الأكبر سناً كانا يريدان أن يتدربا على السهر والصلاة ، كما قال ناكفه . كانت على وشك أن تغفو أخيراً حين أيقظتها ضجة صادرة عن شخص يتحرك خلسة في شرفة العلية . كانت هناك وقع أقدام على الدرج . . . عرفت وقع قدم ابنها الأعمى .

فكرت في أن لديه عملاً ما يقوم به . . . ومع ذلك نهضت وتحسست فيما

حولها بحثاً عن ثيابها . ثم سمعت الباب العلوي يفتح . . . قفز أحد ما الدرج على دفعتين أو ثلاث .

هرعت الأم إلى الغرفة الخارجية وفتحت الباب . كان الضباب كثيفاً في الخارج حتى أن المخزن عبر الباحة لم يكن يرى سوى بصعوبة . عند بوابة الضيعة كان بيورغولف يناضل بشدة ليتخلص من قبضة أخيه :

صرخ الشاب الأعمى : "أتخسر شيئاً لو تخلصت مني ؟ . . . عندها ستتحرر من عهودك . . . ولن تضطر إلى الموت في هذا البيت الدنيوي . . . "

لم تستطع كريستين سماع جواب ناكفه . ركضت حافية القدمين فوق العشب المندى . كان بيورغولف قد تحرر من قبضة أخيه الآن . . . ثم سقط كأنما بضربة فوق الحجر الكبير ، وراح يضرب عليه بقبضتيه .

رأى ناكفه أمه وأسرع نحوها :

"ادخلي يا أمي . . . أستطيع التعامل معه لوحدي . . . ستدخلين كما قلت" ، همس لها بلهجة عاجلة ثم التفت ووقف من جديد وقد انحنى فوق أخيه .

وقفت الأم تراقب من مسافة قصيرة . كان المرج مبللاً بالندى ، الذي ينقط من كل الأسقف وراحت النقاط تشرشر عن كل ورقة نبات . . . فقد كان المطر قد هطل طوال النهار ، ولكن الغيوم كانت منخفضة الآن ، متحولة إلى ضباب كثيف أبيض اللون . وحين نزل ابناها بعد فترة إلى الممر- كان ناكفه يمسك ببيورغولف من تحت ذراعه ويقوده على هذا النحو- انكمشت كريستين إلى الخلف ضمن باب الغرفة الخارجية .

لاحظت أن وجه بيورغولف كان مدمى . ربما كان قد ضرب به على حجر . ودون أن تشعر أقحمت كريستين يدها في فمها وعضت على لحمها .

على الدرج حاول بيورغولف مجدداً أن يتخلص من قبضة ناكفه . . . تعثر بالجدار صائحاً :

"ألعن ، ألعن اليوم الذي ولدت فيه . . . !"

حين سمعت ناكفه يوصد باب العلية بالمزلاج خلفهما ، انسلت أمهما وراءهما ووقفت في الشرفة خارجاً . وقد سمعت لفترة طويلة صوت بيورغولف من الداخل . . . كان غاضباً ويصرخ ويلعن . . . وقد استطاعت تمييز كلمة أو كلمتين من كلماته . بين الحين والآخر كان تسمع ناكفه يحدثه ، ولكن صوته كان يأتيها كهمهمة مكبوتة فقط . وأخيراً راح بيورغولف ينوح بصوت مرتفع يمزق نياط القلب . نهضت الأم وهي ترتجف من البرد والحزن . كان معها فقط عباءتها التي ارتدتها فوق شلحتها . وقفت هناك فترة طويلة حتى أن شعرها المنسرح تبلل من هواء الليل البارد . أخيراً خيّم الصمت ضمن العلية .

حين نزلت إلى الغرفة السفلى ، ذهبت إلى السرير حيث كان غاوته ولافرانس نائمين . لم يكونا قد سمعا شيئاً . وبينما راحت دموعها تسيل على وجنتيها ، وضعت يدها في العتمة وتحسست الوجهين الدافئين وأصغت إلى تنفس الصبيين المعافى . بدا لها أن هذين هما ما تبقى لها من كل ثروتها .

زحفت وهي ترتجف من البرد إلى سريرها . قفز أحد الكلاب الذي نام قرب سرير غاوته فوق الأرض إلى جانبها ، وزحف إلى حيث قدميها وقبع هناك . كان معتاداً على فعل ذلك في الليالي ، وما كانت تجرؤ على إبعاده ، رغم أنه كان ثقيلاً فوق ساقيها حتى تكادان تتخدّران . إلا أن إرلند كان صاحب الكلب ، وكان المفضّل لديه ، وهو كلب أسود كالفحم عجوز من النوع المخصص لصيد الدببة . في هذه الليلة اعتبرت كريستين وجوده هناك مفيداً وخاصة أنه دفأ لها قدميها المتجمدتين .

. . . لم تر ناكفه في صباح اليوم التالي حتى حل موعد وجبة الإفطار . دخل وجلس في الكرسي العالي الذي أصبح يخصه منذ وفاة أبيه .

لم يقل كلمة واحدة خلال الوجبة كلها ، وكانت هناك حلقات سوداء من

حول عينيه . لحقت به أمه حين خرج مجدداً .

سألته بصوت خفيض : "كيف هو بيورغولف الآن ؟"

تجاهل ناكفه نظرتها ، ولكنه أجاب بصوت خفيض أيضاً أن بيورغولف كان نائماً .

همست بخوف : "هل كان هكذا سابقاً ؟"

أومأ ناكفه برأسه والتفت بعيداً عنها ، ثم صعد إلى أخيه مجدداً .

راح ناكفه يسهر على بيورغولف ليلاً نهاراً ، ويبقي أمه بعيدة عنه ما استطاع . ولكن كريستين كانت تعرف أن الرجلين كانا يقضيان ساعات كثيرة صعبة معاً .

كان يجب أن يكون نيكولاوس إرلندسون هو السيد الآن في يورونداغارد ، ولكنه لم يستطع أن يجد وقتاً يبذله للزراعة . لقد بدا أيضاً أنه أشبه بأبيه ، فقد كان لا يهتم كثيراً بالعمل وليست لديه مهارة كبيرة فيه . لذلك كان عبء العمل كله يقع على عاتق كريستين وغاوته . . . فقد تخلى عنها أولف هالدورسون في هذا الصيف أيضاً .

بعد الحوادث سيئة الطالع التي انتهت بمصرع إرلند نيكولاوسون ، كانت زوجة أولف قد ذهبت إلى موطنها مع أخيها . بقي أولف في يورونداغارد . . . قال إنه سيري الناس أن الأكاذيب والإشاعات ما كانت ستجعله يهرب . ولكنه أشار على أي حال إلى أن زمانه قد انتهى في هذا المكان تقريباً . وفكر أنه ربما سيذهب إلى شمال الجبال إلى مزرعته في سكاون ، بعد أن يمرّ وقت كاف بحيث لا يقول أحد إنه هرب من الإشاعات .

ولكن نائب الأسقف بدأ يطرح الأسئلة حول ما إذا كان أولف هالدورسون قد تخلى عن زوجته على نحو لا شرعي . عندئذ استعد أولف للرحيل وأحضر يارترود ورحل إلى الشمال قبل عواصف الخريف التي تجعل الطرق عبر الجبال

متعبة . وقد قال لغاوته إنه سينضم إلى زوج أخته غير الشقيقة الذي يعمل صانع دروع في نيداروس . وسيقوم ابن أخيه بالعمل في مزرعة سكيولد فيركستاد نيابة عنه ، وسيرسل هو يارترود لتسكن هناك .

في الليلة الأخيرة شربت كريستين نخب أولف من الكوب الفضي الذي ورثه أبوها من جده ، سير كيتيل السويدي . وقد طلبت منه أن يأخذ الكوب ويحتفظ به كذكرى منها . ثم وضعت خاتماً ذهبياً كان يخص إرلند من حول أصبعه وطلبت منه أن يرتديه لأجل ذكرى قريبه .

قبّلها أولف شاكراً : "إنه واجب من واجبات القرابة" ، قال ضاحكاً . "لم تفكري يا كريستين دون شك . . . حين تقابلنا وتعارفنا لأول مرة ، وكنت أنا الخادم الذي يأتي ليصطحبك وإحضارك إلى سيدي . . . أننا سنفترق على هذا النحو ؟"

تضرج وجه كريستين فقد كان يبتسم لها بابتسامته الساخرة القديمة . . . ومع ذلك فهي اعتبرت أنها رأت في عينيه أنه كان حزيناً . لذلك قالت :

"رغم ذلك يا أولف ، أعتقد أنك ستفكر طويلاً قبل العودة إلى تروندهايم ، فأنت ولدت وتربيت هناك في الشمال . أنا أتوق إلى الزقاق البحري هناك ، وأنا التي عشت هناك سنوات قليلة فحسب ." ضحك أولف كما من قبل ، قالت هي بصوت خفيض : "إن كنت في شبابي قد أزعجتك في أي حين باعتزازي بنفسي . . . أو لأني لم أكن أعرف أنك قريب من أقرباء إرلند . . . عليك أن تغفر لي الآن !"

"كلا . . . ولم يكن إرلند غير معترف بالقرابة . ولكني كنت شديد الافتخار بنفسي حين كنت شاباً . . . بما أن أبي كان قد تخلى عني وأرادني في مكان لم أرغب أن أكون فيه . . . " نهض بسرعة وذهب إلى حيث كان بيورغولف جالساً على المقعد : "فلتفهم يا بيورغولف يا ابني بالتربية . . . أن أباك وغونولف . . . أظهرا لي مشاعر القرابة من أول مرة تقابلنا فيه وكنا يافعين بعد . . . أكثر من

أخوتي وأخواتي من هستنايس . ولاحقاً . . . لم أكن أقدم نفسي كقريب لإرلند ما لم أكن أرى أن ذلك يخدم مصلحته . . . ومصلحة زوجته . . . وأنتم كذلك يا أبنائي بالتربية . هل فهمت ؟" قال بقوة ، ثم وضع يد فوق وجهه بيورغولف وهو يخفي العينين اللتين لا تريان .

"أفهم" ، جاء جواب بيورغولف نصف مكبوت عبر أصابع الشخص الآخر . أومأ من خلف يد أولف .

"نفهم يا أبانا بالتربية" . وضع نيكولاوس يده بثقل على كتف أولف ، واقترب غاوته من المجموعة .

اعترى كريستين شعور غريب . . . كأنما كانوا يريدون التكلم عن أشياء لم تكن تعرفها . ثم تقدمت هي نحو الرجال قائلة :

"ثق بي يا أولف يا قريبي ، كلنا نفهم . . . لم يكن لإرلند ولا لأي واحد منا صديق موثوق مثلك . فليباركك الرب !"

في اليوم التالي انطلق أولف هالدورسون شمالاً .

●

مع تقدم فصل الشتاء ، أصبح بيورغولف أكثر هدوءاً ، حسبما كانت كريستين ترى . عاد يحضر الوجبات المنزلية ويذهب إلى القداس مع الناس ، وراح يأخذ يد كريستين برغبة وودّ حين تقدم له المساعدة .

ومع مرور الوقت ، ولم تسمع كريستين ابنيها يقولان شيئاً عن الدير ، فقد أحست هي نفسها كم كانت كارهة أن تسلم ابنها البكر إلى حياة الدير .

لم تستطع أن ترى سوى أنه بالنسبة إلى بيورغولف فإن الدير سيكون المكان الأمثل . ولكنها لم تكن تعرف كيف ستتحمل خسارة ناكفه على مثل هذا النحو . لاشك ، على أي حال ، أن البكر يرتبط دائماً بقلب الأم على نحو أوثق من الأبناء الآخرين .

كما لم تستطع أن ترى أن ناكفه كان ملائماً لحياة الرهبنة . صحيح أنه كان جيداً في التعلم ويحب ممارسة الشعائر الدينية ، ومع ذلك لم يبد لأمه أنه ورع حقاً . لم يكن يظهر أي حماسة في الدوام على كنيسة الأبرشية ، وكان غالباً ما يتغيب عن الصلوات لأسباب تافهة ، وكانت تعرف أنه لا هو ولا بيورغولف كانا يعترفان لكاهن أبرشيتهما إلاّ الاعتراف العادي بالخطايا . كان الكاهن الجديد سيرا داغ رولفسون ابناً لرولف أوف بلاكاراسارف ، الذي كان متزوجاً من بنت عم راغنفريد إيفارسداتر ، وكان يحضر كثيراً ليزور ضيعة قريبته . كان شاباً ابن خمس وثلاثين سنة ، كاهناً مثقفاً وصالحاً . ولكن الابنين الأكبر كانا يقابلانه ببرود . وعلى أي حال أصبح غاوته صديقاً له على الفور .

كان غاوته هو الوحيد بين أولاد إرلند الذي كوّن صداقات مع أشخاص من "سيل" . ولكن لم يكن أي من الأخوة الآخرين شديدي العزلة شأن نيكولاوس إذ لم يكن يختلط قط بالشبان الآخرين ، ولو حدث وذهب حيث كان الشبان يجتمعون للرقص أو للتواعد ، فقد كان يقف غالباً إلى جانب عند حافة المرج ، وينظر . . . بهيئة شخص يعتبر نفسه أسمى من المشاركة . ولكن لو كان مزاجه ملائماً ، كان ينضم إلى اللعب . . . ولكن بخيلاء كما يقول الناس ، وذلك ليستعرض مدى قوته : كان شهوانياً وقوياً ورشيقاً ، وسهل الاستفزاز للقتال . . . وبعد أن هزم اثنين أو ثلاثة من أشهر المصارعين في الأبرشية ، ظن الناس أنه من الأفضل الصبر على سلوكه . ولو قرر أن يراقص فتاة لم يكن يهتم بأخوتها أو أقربائها ، بل يرقص مع الفتاة ثم يجلس لوحده معها . . . ولم يسبق أن قالت فتاة لا لنيكولاوس إرلندسون . ولم يكن محبوباً لأجل ذلك .

وبما أن أخاه أصبح أعمى تماماً ، كان ناكفه نادراً ما يتركه ، ولكن لو حدث أنه خرج ذات مساء ، كان يتصرف كما كان شأنه دائماً . وكان قد تخلى أيضاً عن رحلات الصيد خاصته في معظمها ، ولكن في هذا الخريف اشترى من الوصي

صقراً أبيض ثميناً ، وكان متحمساً لتدريبه على الرماية والرياضة . كان بيورغولف قد علّم نفسه لعب الشطرنج رغم عماه ، وغالباً ما كان الأخوان ينفقان أياماً بحالها على رقعة الشطرنج . كانا كلاهما لاعبين متحمسين .

في هذه الأثناء سمعت كريستين الناس يتحدثون عن ناكفه وفتاة بعينها ، اسمها تورديس غونارسداتر أوف سكيين . في العام التالي استقرت الفتاة في السايتر خلال الصيف كله ، وقد غاب ناكفه أكثر من مرة عن البيت ليلاً . وقد عرفت كريستين أنه كان مع تورديس .

ارتجف قلب الأم وراحت تتلفت هنا وهناك وكأنها ورقة حور رجراج فوق غصنها . كانت تورديس تنتمي إلى أسرة عريقة وكريمة . . . وكانت فتاة صالحة بريئة . وكان من المستحيل أن يكون لدى ناكفه الجرأة على الإساءة إليها . ولو نسي الشابان نفسيهما ، فلا بد أن يتزوج الفتاة . ولشدة خوفها وخجلها من أفكارها الخاصة ، كانت كريستين تعرف في قلبها أنه لن يحزنها كثيراً لو آلت الأمور إلى هذه النتيجة . ولكن قبل عامين ما كانت قادرة على أن تسمع مثل هذا الأمر . . . أن توردیس غوناسداتر ستصبح سيدة يوروندغارد من بعدها . كان جد الفتاة لأبيها لازال حياً ويسكن في الضيعة مع أربعة أبناء متزوجين . أما الفتاة نفسها فكان لديها الكثير من الأخوة والأخوات . ستكون بائنتها صغيرة كعروس . كما كان لدى كل امرأة من تلك السلالة ولد واحد على الأقل مصاب بالعته . إما أن سكان الجبل كانوا يستبدلون الأطفال أو أنهم كانوا يرمون بالرقيات عليهم . . . رغم كل ما كانوا قادرين على فعله لحماية النساء خلال الوضع وجعلهن في أمان ، فلا العماد ولا طرد الأرواح الشريرة بدا أنهما مفيدان . كان هناك رجلان عجوزان في سكيين الآن وكان سيرا آيريك قد حكم عليهما بأنهما قد استبدلا وهما لا يزالان في المهد ، إذ كانا أصمين أبكمين . . . كما كانت جنية الغابة قد سحرت الأخ الأكبر لتورديس حين كان في السابعة عشرة من عمره . فيما عدا ذلك كان

آل سكيين هؤلاء عشيرة صالحة . كانوا محظوظين في مواشيهم ، وكانوا ناجحين في أعمالهم . ولكن لكثرتهم لم يكن ممكناً مراكمة الثروة .

. . . والرب وحده قد يعرف ما إذا كان ناكفه سيتراجع عن هدفه دون خطيئة ، لو كان قد سبق له وتعهد بخدمة مريم العذراء . ولكنها كانت تعرف أن على الرجل أن يثبت نفسه دائماً لمدة عام كمبتدئ في الدير قبل أن يحلف اليمين . . . ويستطيع الانسحاب حتى في ذلك الحين لو أحسّ أنه غير مدعو إلى خدمة الرب في تلك الطريق . كما كانت قد سمعت كيف أن زوجة كونت فالاند ، أم أحد علماء الدين والوعاظ الكبار ، سير توماس أكويناس ، قد حبست ابنها مع امرأة جميلة فاسدة لتجعله يتخلى عن هدفه حين كان عازماً على أن يهجر ملذات الدنيا . كانت كريستين تعتبر هذا الفعل أشنع فعل سمعت به . . . ومع ذلك ماتت هذه المرأة في حالة سلام مع الرب . لذلك من المحتمل أن خطيئتها ليست مخيفة جداً لو أنها فكرت الآن بأنها سترحب بتورديس أوف سكيين بذراعين مفتوحتين ككنّة لها .

في الخريف وصل يامالت هالفاردسون إلى فورمو ، ومنه علمت حقيقة الشائعات المتعلقة بأحداث جسام انتشرت في "ديل" قبل وصوله . فبموافقة كبار آباء الكنيسة والفرسان والمرشحين لرتبة فارس في مجلس مملكة النرويج ، فقد قرر سير ماغنوس إريكسون تقسيم مملكته بين ابنيه اللذين رزق بهما من ملكته ، ليدي بلانش . وفي المجلس التشريعي في فاربرغ منح الابن الأصغر الأمير هاكون اسم ملك النرويج . أما زعماء المملكة من الكهنة وغيرهم من عامة الناس ، فقد أقسموا على جسد الرب بأن يحموا الأرض له . ويقال إنه كان طفلاً جميلاً محبوباً عمره ثلاث سنوات ، وستتم تربيته هنا في النرويج ، من قبل أربع من كبار السيدات النرويجيات كأمهات بالتربية ، و لوردين كنسيين واثنين عاديين كآباء بالتربية ، وذلك بينما يكون الملك ماغنوس والملكة بلانش في السويد . كان السير

إرلينغ فيدكونسون وأساقفة بيورغفين وأوسلو ، كما قيل ، قد عرضوا هذا الخيار على الملك ، وقد قام بيارن إرلينغسون بطرح المسألة على نحو أوسع مع الملك ، فقد كان هذا يحب بيارن أكثر من كل رجال النرويج الآخرين . وقد اعتبر الجميع أن هذا سيكون مكسباً كبيراً لقوة ومصلحة النرويج ، أن يكون لنا الآن مجدداً ملك يجعل بيته بيننا ويحمي قوانيننا وحقوقنا وخيرات البلد ، بدلاً عن إضاعة وقته وقوته وثروة المملكة على مغامرات في بلاد أخرى .

كانت كريستين قد سمعت بخيار الملك كما سمعت عن النزاعات مع التجار الألمان في بيورغفين وحروب الملك في السويد والدنمارك . ولكن الأنباء لم تؤثر فيها كثيراً . . . كانت مثل صدى لرعد بين الجبال حين تمر العاصفة فوق الأرياف البعيدة . كان أبناؤها ، كما عرفت ، قد تحدثوا فيما بينهم عن هذه الأمور . ولكن أولاد إرلند تأثروا تماماً بحكاية يامالت . جلس بيورغولف ورأسه على يده وهو يخفي عينيه الكفيفتين . أصغى غاوته بشفتين مفتوحتين قليلاً ويده تمسك بغمد خنجره . راح لافرانس يتنفس بسرعة وثقل ، ويتطلع إلى زوج خالته وإلى ناكفه في الكرسي العالي . كان الابن البكر شاحب الوجه متّقد العينين .

قال ناكفه : "لقد كان مصير رجال كثيرين أن هؤلاء الذين يقفون ضده بصلابة في الحياة قد انطلقوا نحو النصر على الطريق التي دلّهم عليها . . . حين وضعوه أولاً كطعام للديدان . وحين يمتلأ فمه مرة بالعفن ، فإن رجالاً أقل منه سيكونون سعيدين بما فيه الكفاية للبرهان على صحة كلامه" .

قال يامالت مواسياً :

"أجل ، ربما كان الأمر كذلك يا قريبي . هناك حقيقة فيما تقول . فأبوك قبل كل الرجال فكر بهذه الطريقة للخروج من هذه الحمأة . . . وذلك ليضع أخوين على العرشين هنا وفي السويد . لقد كان إرلند نيكولاوسون فارساً عميق التفكير حكيماً كبير القلب ، على ما أعتقد . ولكن كن حذراً في كلامك يا نيكولاوس .

أعتقد أنك لا تريد لمثل هذه الكلمات أن تذهب إلى الخارج بحيث تؤدي إلى الإضرار بمصلحة سكوله . . ."

قال ناكفه بحدة : "لم يطلب سكوله إذني فيما يخص ما فعله" .

"كلا ، لم يتذكر على الأرجح أنك قد بلغت سن الرشد الآن" ، قال يامالت كما من قبل ، "وأنا لم أفكر في ذلك أيضاً . . . لذلك بموافقتي وإرادتي وضع يده على سيف بيارن وحلف اليمين . . . "

"أعتقد أنه تذكر ذلك . . . ولكن الجرو كان يعرف جيداً أني لن أمنح موافقتي قط . كما أن رجال جيسكه كانوا في حاجة دون شك إلى هذا العبد بسبب الضمير المعذب . . ."

. . . لقد ذهب سكوله إرلندسون ليعمل في خدمة بيارن إرلينغسون كتابع محلّف له . لقد قابل النبيل الشاب في أعياد الميلاد وهو يزور خالته في أيلين ، وقد أوضح بيارن للشاب أنه من خلال تدخلات السير إرلينغ وتدخلاته هو أمكن العفو عن حياة إرلند . . . وبدون دعمهما ما كان ممكناً لسايمون أندرسون أن يسرّع مهمته لدى الملك ماغنوس . . . كان إيفار لا يزال مع إنجه فلوغا .

كانت كريستين تعلم أن ما قاله بيارن إرلينغسون كان فيه شيء من الصحة . . . وهو يلائم الحكاية التي رواها سايمون عن رحلته إلى تونسبرغ . ومع ذلك فقد كانت طوال هذه السنوات تفكر بمرارة كبيرة بإرلينغ فيدكونسون . لقد بدا لها أنه كان يمتلك السلطة آنئذ لمساعدة زوجها على الحصول على شروط أفضل لو أراد ذلك . أما بيارن فكان مجرد غلام في ذلك الحين وعلى أي حال ، فإنها لم تعجب كثيراً بأن يصبح سكوله مرتبطاً بهذا الرجل . . . وقد أبهرها أن يختار التوأمان طريقهما وأن يدخلا العالم الواسع على هذا النحو . . . فقد كانا لا يزالان طفلين في نظرها .

بعد هذه الزيارة التي قام بها يامالت ، اشتد القلق في روحها حتى ما عادت

تستطيع أن تتحمل التفكير . لو كان الأمر كما يفكر هؤلاء الرجال ، فإنه سيدعم كثيراً مصلحة وسلامة الشعب أن يسمى هذا الصبي الصغير في قلعة تونسبرغ ملكاً للنرويج ، عندها فإن هذا الألم الكبير الذي يعاني منه الشعب كان يمكنه أن ينتهي قبل عشر سنوات تقريباً لو أن إرلند لم . . . كلا ! لن تفكر في ذلك ، حين تفكر في الموتى . ولكنها لم تستطع مغالبة نفسها ذلك لأنها كانت تعرف أنه في عيون أبنائها فإن أباهم كان ذا سمعة مجيدة وكان كاملاً ، أفضل المحاربين والزعماء ، نقياً دون أي لطخة أما هي نفسها ، بالفعل ، فقد فكرت طوال هذه السنين في أن إرلند قد تعرض للخيانة من قبل رفاقه وأقربائه الأغنياء . لقد تعرض زوجها لظلم كبير . . . ولكن ناكفه تجاوز الحد حين قال إنهم رموه طعاماً للديدان . وكانت هي تحمل حصتها الثقيلة من اللوم . . . دون شك . . . ولكن كانت حماقة إرلند وعدم قدرته السيطرة على إرادته هما اللتان سبّبتا له الوصول إلى تلك النهاية البائسة .

كلا ، ولكن . . . رغم كل ذلك كان أمراً مريراً لها أن سكوله أصبح الآن تابعاً من أتباع بيارن إرلينغسون .

ألن يأتي ذلك اليوم الذي ستتحرر فيه من العذاب والقلق والخوف الذي لا نهاية له . . . ؟ يا للمسيح ، مع تذكر العذاب والأسى اللذين تحملتهما أمك لأجلك ، ارحمني كأم وواسني . . . !

•

لقد كانت لديها مخاوف حتى على غاوته . كان ذلك الشاب موهوباً كمزارع ممتاز ، ولكنه كان متهوراً في توقه إلى إعادة الأسرة إلى حال من الثراء . وقد منحه ناكفه مطلق الحرية . . . وكان لدى غاوته مشاريع كثيرة . فمع بعض الرجال الآخرين في الأبرشية استلم الآن العمل في أفران صهر الحديد في الجبال . كما كان يبيع الكثير . لم يكن يبيع ما يأتي كإيجار عيناً فحسب ، ولكن أيضاً المواد

من المزرعة المنزلية أيضاً . لقد اعتادت كريستين طوال أيامها أن ترى مخازن ومستودعات ضيعتها ملأى حتى آخرها ، وكانت غاضبة جداً حين راح غاوته يقلب أنفه تجاه الزبدة الفاسدة ، ويسخر من لحم الخنزير المقدد الذي عمره عشر سنوات المعلق في المستودع . وقد كانت لديها حاجة إلى أن تشعر أنه في ضيعتها لا يجب أن يكون هناك نقص في الطعام . وأنه لن يحتاج أي أشخاص فقراء إلى أن يطردوا دون مساعدة بعيداً عن بابها ، لو حلّ المحل الأسود مجدداً في الريف . ولا يجب أن يكون هناك نقص حين تعود الاحتفالات بالأعراس وولادة الأطفال والأعياد إلى الضيعة .

تقلصت وتضاءلت آمالها الكبيرة فيما يخص أبناءها . ستكون راضية إن كانوا سيستقرون هنا في الأبرشية . كانت تستطيع أن تبادل وتلملم أملاكها حتى يستقر ثلاثة منهم في مزارعهم الخاصة بهم . أما يورروندغارد مع ذلك الجزء من لاوغاربرو الذي يقع على هذا الجانب من النهر ، فسيكفيان ثلاثة ملاكين أحرار . وإن لم يكن مصيرهم أن يتحولوا إلى مرشحين لفرسان كبار . . . ومع ذلك لن يكونوا فقراء . وهنا في "ديل" كان يحلّ السلام . . . كل هذا الاضطراب بين زعماء البلاد ما كان معروفاً ولا يكترث به كثيراً . وحتى لو اعتبر هذا انتقاصاً من سلطة ومقام الأسرة . . . ومع ذلك فإنها قدرة الرب على قيادة أولئك الذين يأتون لاحقاً إلى مقامات أعظم لو رأى أن ذلك في صالحهم . ولكن ربما كان عبثاً لها أن تأمل أنها ستراهم مجتمعين من حولها على هذا النحو . . . فهم لن يرتاحوا بهذه السهولة ، أولادها هؤلاء الذين هم أولاد إرلند نيكولاوسون .

في هذه الفترة كانت روحها توّاقة إلى أن تجد السلام والسلوان لو تخلت عن أفكارها حول الطفلين الصغيرين اللذين دفنتهما في المقبرة .

في كل يوم مر في هذه السنوات كانت تفكر فيهما . . . وتتساءل متى رأت أطفالاً في عمريهما يكبرون ويزدهرون ، وكيف كان من شأن طفليها أن يكونا الآن . . .

وحين راحت تمارس أعمالها اليومية الآن بجدٍ ونشاط كما كان دأبها سابقاً ، إنما بانعزال وتأمل ، كان الطفلان الميتان معها دائماً . في أحلامها كانا يكبران ويزدهران ، وكانت طبيعتهما تماماً كما أرادتهما : مونان مخلص لأسرته كناكفه بينما كان مع أمه مرحاً ومخلصاً شأن غاوته . . . ولكنه لم يكن كغاوته يخيفها بالخطط المشكوك فيها . كان لطيفاً ومتأملاً شأن لافرانس ، ولكن كل الأفكار الغريبة التي كان يفكر بها مونان كان يحادث أمه بصراحة عنها . من خلال أفكار أمه كان يشبه بيورغولف ، ولكن لم يكن سوء الحظ قد عتم دربه في هذه الحياة ، وهكذا لم تكن حكمته قد تأثرت بالمرارة . كان واثقاً من ذاته وقوياً وجريئاً كالتوأمين ، ولكنه لم يكن عنيداً متشبثاً برأيه كالتوأمين . . .

وكانت تستدعي مجدداً كل ذكريات أولادها العذبة والمرحة حين كانوا صغاراً حين تفكر في إرلند الصغير . كان يقف على حضنها لتلبسه ثيابه . كانت تحيط بيديها جسمه البدين العاري ، وكان يشد يديه الصغيرتين ووجهه ملتفت إلى الأعلى وهو يدفع كل جسمه الغالي إلى الأعلى نحو وجهها ومداعباتها . كانت تعلمه المشي . . . وقد وضعت قماشة مطوية فوق صدره وتحت إبطيه . . . وعلى هذا النحو كان تعلقه ثقيلاً مثل كيس ، ويعبث هو بقدميه ويضحك حتى يتلوى جسمه كالدودة . كانت تحمله على ذراعها إلى ساحة المزرعة إلى حيث العجول والحملان . كان يصرخ من الفرح تجاه الخنازير مع خنانيصها ، ويرمي برأسه نحو الخلف ويفغر فاه تجاه الحمام فوق علية الإسطبل . كان يجري إلى القرب منها في العشب العالي قرب أكوام الحجارة ويصرخ لكل توتة يراها ويأكلها من يدها بتوق شديد حتى أن كفها كان رطباً من فمه الصغير النهم .

كل المتع التي عرفتها من أطفالها استذكرتها وعاشتها مجدداً في حياة الحلم هذه مع هذين الطفلين ، ونسيت كل الأحزان . . .

●

كان الربيع قد حلّ للمرة الثالثة منذ أن ووري إرلند التراب . لم تعد كريستين تسمع شيئاً عن توردیس وناكفه . ولكنها لم تسمع أيضاً أي شيء عن الدير . ثم نمت آمالها . . . لم تستطع أن تغالب نفسها : كانت كارهة أن تسلم بكر أبنائها إلى حياة الرهبنة .

قبل قداس جون (٢٤ حزيران / يونيو) عاد إيفار إرلندسون إلى يورونداغارد . كان التوأمان في السادسة عشرة من عمرهما حين غادرا المنزل . كان إيفار رجلاً ناضجاً الآن في الثامنة عشرة تقريباً ، وقد رأت أمه أنه أصبح شديد الوسامة والرجولة حتى أنها لم تكن تشبع من النظر إليه .

حملت الأم الفطور إلى إيفار في أول صباح ، بينما كان لا يزال في الفراش : خبز حنطة بالعسل وكعك الشوفان والجعة التي سحبتها من آخر برميل تم تخميره في موسم عيد الميلاد . جلست فوق حافة السرير بينما كان يأكل ويشرب وراحت تبتسم لكل ما كان يقوله ، ثم نهضت ونظرت إلى ملابسه ، فقلبت وتحسست كل جزء منها ، كما بحثت في حقيبة سفره ، ووزنت إبزيمه الفضي الجديد في يدها الضيقة السمراء ، واستلت خنجره من غمده ، ومدحته وكذلك كل عدته . ثم جلست مجدداً فوق السرير ونظرت إلى ابنها وأصغت بابتسامة في عينيها وحول شفتيها إلى كل حكايات الفتى .

ثم قال إيفار :

"الأفضل يا أمي أن أبلغك بالمهمة التي جاءت بي إلى هنا . . . لقد جئت لأحصل على موافقة ناكفه على زواجي" .

ولدهشتها ضربت كريستين يديها الواحدة بالأخرى :

"إيفاري ! أنت صغير على هذا . . . لاشك أنك لم تكن تمارس أي ألعاب بهلوانية ؟"

توسل إيفار إلى أمه أن تصغي إليه . كانت تلك أرملة شابة اسمها سيغنه

غامالسداتر أوف روغنهايم في فاوسكار . كانت ضيعتها تثمن بمائة وعشرين ماركاً من الفضة ، ومعظمها ملك لها وحدها . كانت قد ورثتها من ابنها الوحيد . ولكنها كانت عالقة في دعوى قضائية مع أسرة زوجها ، والتمس إنجه فلوغا كل الأساليب لأجل الكسب غير القانوني لنفسه ، لو كان سيساعد الأرملة على نيل حقوقها . وقد غضب إيفار ووقف إلى جانب المرأة وذهب معها إلى الأسقف ، فالسير هالفارد قد أظهر لإيفار معاملة أبوية في كل الأحيان حين كان يقابله . إن تصرفات إنجه مونانسون في وصايته لم تكن شرعية . . . ولكنه كان يعرف كيف يقيم صداقة مع الناس الكبار في الأبرشيات وكيف يخيف الناس الصغار . . . كما أبدى مهارة كبيرة في رمي الغبار في عيني الأسقف . كما لم يكن السير هالفارد شديد التصميم على أن يكون كثير الصرامة لأجل مونان . ولكن الأمور لم تكن تبدو جيدة لإنجه . . . وهكذا فإن إيفار افترق عن إنجه (حفيد خالة أبيه) على نحو غير ودّي حين ركب إيفار حصانه وغادر ضيعة إنجه فلوغا . ثم حدث أن خطر في ذهنه أن يتجه جنوباً ويحيي الناس في روغنهايم قبل أن يغادر ذلك الريف . كان ذلك في موسم عيد الفصح ، وكان هو في صحبة سيغنه منذ ذلك الحين . . . فساعدها في ضيعتها في الربيع . . . والآن فقد اتفقا معاً على أن يتزوجا . لم تكن تعتبر إيفار إرلندسون أصغر سناً من أن يتزوجها وأن يدير مصالحها . وكان على علاقة طيبة مع الأسقف كما قال . . . لاشك أنه لازال طري العود قليل الخبرة بحيث أن السير هالفارد لن يأتمنه على أي منصب ، ولكن كانت لدى إيفار آمال جيدة في أن يشقّ طريقه ، لو تزوج في روغنهايم .

جلست كريستين تعبث بحزمة مفاتيحها في حجرها . كان هذا دون شك كلاماً عاقلاً وحكيماً . وقد اعتبرت أن إنجه فلوغا لا يستحق معاملة أفضل من ذلك . ولكنها تساءلت كثيراً عما سيقوله العجوز المسكين مونان باردسون عن هذا الموضوع .

أما عن العروس فقد علمت أن سيغنه كانت امرأة في الثلاثين من عمرها وهي من منشأ فقير ووضيع ، ولكن زوجها الأول قد عرف النجاح لذا أصبحت هي في مركز مالي جيد ، كما كانت امرأة شريفة وكريمة وتستحق الاحترام .

مضى نيكولاوس وغاوته جنوباً مع إيفار ليريا الأرملة ، ولكن كريستين بقيت في البيت مع بيورغولف . وحين عاد ولداها إلى البيت ، جلب ناكفه الأنباء إلى أمه بأن إيفار أصبح الآن مخطوباً إلى سيغنه غامالسداتر . وأن الزفاف سيقام في روغنهايم في الخريف .

●

في إحدى الأمسيات دخل ناكفه بعد فترة قصيرة من عودته إلى البيت ، إلى أمه وهي جالسة تخيط في مبنى الحياكة ، أوصد الباب من الداخل . ثم قال لأمه إن غاوته قد أصبح في العشرين وإن إيفار ، بسبب زواجه ، قد أصبح مسؤولاً عن نفسه . وقد كان في نيته هو وبيورغولف السفر شمالاً في الخريف القادم ويأملان أن يقبلا كمبتدئين في الدير . لم تقل كريستين الكثير رداً عليه وما قيل كان عن ترتيب الحصة التي يجب أن ينالها الأخوان الأكبر الآن من الأملاك .

ولكن وصل بعد أيام قليلة أشخاص إلى يورونداغارد يدعونهم إلى وليمة . . . آسموند أوف سكيين كان يقيم احتفال خطوبة حفيدته تورديس إلى ابن مرشح غني لرتبة فارس من دوفر .

دخل ناكفه إلى أمه في مبنى الحياكة في تلك الليلة أيضاً ومن جديد أوصد الباب من الداخل خلفه . جلس على حافة المدفأة وجلس يعبث بعصا بين الجمرات . . . كانت كريستين قد أوقدت ناراً صغيرة فقد أضحت الليالي باردة في ذلك الصيف .

"لا شيء سوى الاحتفال والولائم يا أمي" ، قال ضاحكاً بعض الشيء . "وليمة خطوبة في روغنهايم ووليمة خطوبة في سكيين ، ثم سيكون زفاف

إيفـار . . . ولكن حين تركب توردیس إلى الكنيسـة إلى زفافـهـا ، لن أكـون في الموكب ، كما أعتقد . . . سأكون قد ارتديت ثوب الدير آنذاك . . . "

لم تجب كـريسـتين إلا بعـد وهلة . ثم قـالت دون أن ترفع بصـرها عن الخياطة . . . كان معطف زفاف لأجل إيفار :

"القـد أعـتـقـد كـثيـرون أنه سيكون أمراً مـحـزناً لتورديس غـوناردسـداتر لو أصبحت راهباً ."

"لقد اعتبرت ذلك أنا نفسي أيضاً" ، قال ناكفه .

تركت كريستين الخياطة تسقط في حجرها . نظرت إلى ابنها . . . كان وجهه هادئاً ومستقراً . كان شديد الوسامة . . . فقد مشط شعره الأسود إلى الخلف بعيداً عن جبينه الأبيض ، فتجمع خلف أذنيه وفوق عنقه الرشيق الأسمر . كانت ملامحه أوسم من ملامح أبيه . . . كان وجهه أعرض وأكثر اكتنازاً ، ولم يكن الأنف كبيراً جداً والفم صغيراً جداً . كانت عيناه الزرقاوان الصافيتان قابعتين تحت الحاجبين السوداوين المستقيمين . . . ومع ذلك لم يكن يبدو وسيماً شأن إرلند . ولكن ما كان يفتقده ناكفه هو المرونة والرشاقة وروح الشباب الدائم التي كان يتحلى بها إرلند .

تناولت الأم عملها مجدداً ولكنها لم تعد إلى الخياطة . بعد قليل قالت وهي تنظر إلى القماش وتمهد حافته بإبرتها :

"تذكر يا ناكفه ، أني لم أقل كلمة واحدة ضد دخولك سلك الرهبنة . لا أجرؤ على أن أكون شديدة الجرأة إلى هذا الحد . ولكنك شاب . . . وأنت المتعلم أكثر مني بكثير ، إلا أني أعرف أنه كتب في الأناجيل : لا يلائم المرء أن يلتفت إلى الخلف من فوق كتفه ما أن يضع يده على المحراث ."

لم تتحرك عضلة واحدة في وجه ابنها .

"أعرف أنكما كلاكما تفكران في هذا الموضوع منذ زمن طويل" ، تابعت

أمه . "منذ أن كنتما طفلين . لم تكونا تفهمان في ذلك الحين ما الذي كان عليكما أن تمتنعا عنه . والآن بعد أن أصبحت في مصاف الرجال ، ألا تعتقد أنه ملائم لك أن تتأكد من أنك تريد تلبية الدعوة فعلاً ؟ لقد ولدت لتكون سيد هذه الضيعة ورئيس عائلتك . . . "

"أتجرؤين على نصيحتي الآن ؟" تنفس ناكفه بصعوبة مرة أو اثنتين . نهض . . . وفجأة أمسك بصدره ومزق قطعة من معطفه وقميصه ، حتى رفعت الأم بصرها إلى صدره العاري حيث وحمة ولادته ، النقاط الخمس الحمراء النارية الصغيرة بين الشعر المتجعد :

"ربما ظننت أني كنت أصغر من أفهم ما الذي كنت تتنهدين به من خلال الدموع والأنّات حين كنت تقبلينني هنا حين كنت طفلاً صغيراً . . . لم أكن أفهم في ذلك الحين ، ولكن الكلمات التي نطقت بها لم أنسها قط . . .

"أمي ، أمي . . . هل نسيت أن أبي مات أبأس الميتات ، دون اعتراف للكاهن ودون مسح الزيت الأخير ثم تتجرئين على مخالفتي في غرضي ؟

" . . . أعتقد أننا نحن الأخوة نعرف جيداً ما الذي نبتعد عنه . . . لا تبدو لي خسارة كبيرة لو أني فقدت هذه الضيعة ونأيت عن الزواج . . . ومثل هذا السلام والمرح اللذين عرفتهما أنت وأبي طوال السنوات التي أتذكرها . . . "

تركت كريستين الخياطة تقع من يدها . طوال حياتها مع إرلند- في سرائها وضرائها - مرّت بخاطرها ثروة الذكريات كالسيل . لا يعرف هذا الابن سوى القليل مما يتخلى عنه . وبكل معاركه الصبيانية وأفعاله المغامرة وألعابه المتعلقة بالحب والشهامة . . . لا يمكنه أن يكون سوى طفل بريء .

رأى ناكفه الدموع في عيني أمه ، فصرخ باللاتينية :

"مالي ولك يا امرأة ؟" (إنجيل يوحنا ٢-٤) . أجفلت كريستين خائفة ، ولكن ابنها تابع الحديث بغضب قوي : "لم يقل الرب هذه الكلمات ، على ما

أعتقد ، لأنه كان يزدري أمه . . . ولكنه صحح حتى لها هي أيضاً ، تلك الدرة النقية دون لطخة أو بقعة ، وذلك حين نصحته حول كيفية استخدامه لسلطته التي نالها من أبيه في السماء وليس من أمه الطبيعية . . . أمي ، ليس عليك أن تنصحيني في هذه القضية . . . أن تتجرئي على فعل ذلك . . . "

طأطأت كريستين رأسها فوق صدرها .

بعد برهة قال ناكفه بصوت خفيض :

"هل نسيت يا أمي أنك أبعدتني عنك . . . ؟" توقف ، وكأنه لا يستطيع أن يثق بصوته . ثم تابع يقول : "كنت سأركع إلى جوارك عند سرير موت أبي . . . ولكنك طلبت مني الابتعاد . . . ألا تعتقدين أن قلبي ينخلع في صدري كلما فكرت في ذلك ؟"

همست كريستين بصوت خفيض جداً حتى ما كان ممكناً سماعها إلا بالكاد :

"ألهذا السبب كنت . . . بارداً . . . جداً معي كل هذه السنوات ، منذ أن ترملت ؟"

صمت الابن .

"لقد بدأت أفهم . . . لم تسامحني على هذا قط يا ناكفه . . . "

نظر ناكفه إلى الأرض ثم جانباً .

"أحياناً . . . سامحتك يا أمي" ، قال بصوت ضعيف .

"ولكن ليس غالباً على ما أعتقد . . . ناكفه ، ناكفه" صرخت بأنة مريرة . "أتعتقد أن حبي لبيورغولف أقل من حبي لك . . . ألست أمه . . . ألست أمكما كلاكما ؟ لقد كنت قاسياً حين كنت توصد الباب بيني وبينه . . . !"

أصبح وجه ناكفه الشاحب أشد شحوباً .

"أجل يا أمي ، لقد أوصدت الباب دونك . . . تقولين إني قاس . . . ؟

فليسامحك المسيح فأنت لا تعرفين . . ." تلاشى صوته إلى همسة ، وكأن قوة الشاب اضمحلت : "لقد ظننت أنه ليس . . . أن علينا أن نوفر عليك المشقة . . ."

التفت بحدة وذهب إلى الباب وفتحه . ولكنه وقف هناك دون حراك ، وظهره إلى كريستين . وأخيراً نطقت باسمه برقة . عندها عاد ووقف أمامها برأس مطأطئة :

"أمي . . . أعرف جيداً أن هذا . . . ليس سهلاً . . . عليك . . . "

وضعت يديها فوق كتفيه . أخفى وجهه بعيداً عن عينيها ، ولكنه انحنى وقبل أحد رسغيها . تذكرت كريستين أن أباه فعل هذا ذات مرة . . . متى . . . لا تتذكر . . .

ربتت على كمّه ، ثم رفع يده وربت على خدها . فيما بعد جلسا في صمت بعض الوقت .

قال ناكفه بعد بصوت ثابت : "أمي ، هل لازال لديك الصليب الذي كان لأخي أورم ؟"

قالت كريستين : "أجل ، لقد قال لهم أن يطلبوا إليّ ألاّ أتخلى عنه قط ."

"أعتقد أنه لو أن أورم عرف بهذا ، لكان سيوافق على أن أرثه أنا منه . فأنا لن يكون لي أيضاً نسل ولا ميراث . . . "

أخرجت كريستين من تحت شلحتها الصليب الفضي الصغير . أخذه ناكفه من يدها ، كان لا يزال دافئاً من صدر أمه . قبل باحترام الأثر وسط الصليب ، ثم وضع السلسلة الدقيقة من حول عنقه وأقحم الحلية تحت ملابسه .

سألته أمه : "أتذكر أخاك أورم ؟"

"لا أعرف . أحياناً يبدو . . . ولكن ربما لأنك كنت تتحدثين عنه كثيراً حين كنت صغيراً . . . "

جلس ناكفه فترة أخرى أمام أمه . ثم نهض :

"ليلتك سعيدة يا أمي !"

"فليباركك الله يا ناكفه . ليلة سعيدة !"

خرج . طوت كريستين معطف إيفار الزفافي ، ووضعته مع عدة الخياطة ، وأطفأت النار .

"فليباركك الرب ، فليباركك الرب يا ناكفه . . . " ثم أطفأت الشمعة وغادرت المبنى القديم .

●

ثم حدث أن قابلت كريستين بعد فترة قصيرة توردیس في ضيعة تقع في ضواحي الأبرشية . كان هناك مرض سار بين سكان الأبرشية ولم يكونوا قد حصدوا التبن بعد ، لذلك ذهب أخوة وأخوات نقابة أولاف (أنظر الجزء الأول من هذه الثلاثية - الهامش رقم ١٧) إلى هناك وقدموا يد المساعدة في أعمال الحصاد . في المساء رافقت كريستين الفتاة في جزء من طريقها إلى البيت . كانت تسير ببطء ، كما هو شأن امرأة عجوز ، وراحت تثرثر مع الفتاة . وقبل مرور فترة طويلة كانت قد قادت الحديث في ذلك الاتجاه بحيث حكت توردیس من تلقاء ذاتها لأم ناكفه عما كان بينها وبين ناكفه .

أجل ، كانت قد اعتادت أن تقابله في حقل صغير قرب بيتها في الصيف الماضي حين كانت في السايتر ، وقد تقابلا مرات كثيرة . ولكنه لم يكن جريئاً معها . كانت تعرف جيداً ما يقوله الناس عن ناكفه عموماً . . . أما هو فهو لم يكن قد أخطأ في حقها قط ، سواء بالكلام أو بالأفعال . كان قد تمدد إلى جانبها فوق غطاء السرير مرة أو اثنتين وقد تحادثا معاً . . . وقد سألته مرة إن كان ينوي أن يطلب يدها ، وقد أجاب بأنه لا يستطيع . فقد كان قد تعهد بخدمة مريم العذراء . وقد قال هذا الكلام نفسه في الربيع الماضي حين تكلما معاً . إذن فهي لن تعترض على إرادة أبيها وجدّها بعد الآن .

"لاشك أنه لو انتهك تعهده ولو تحّديت أنت إرادة أهلك لكان من شأن

ذلك أن يجلب الشر عليكما" ، قالت كريستين . وقفت وهي تتكئ على مدمّتها وتتطلع إلى الفتاة . . . لها وجه لطيف مستدير وجميل هذه البنت ، وأجمل شعر لامع في ضفيرة ثقيلة . لاشك أن الرب سيمنحك السعادة يا تورديس . . . كما يبدو أن خطيبك شاب شهم طيب ."

"أجل ، أحب هافارد جيداً" ، قالت الفتاة . . . ثم انخرطت في بكاء مرير .

واستها بكلمات تلائم امرأة هرمة ورزينة . لقد آلمها قلبها من الإشفاق . . . كان سيسعدها كثيراً أن تنادي هذه الفتاة الصالحة النضرة بابنتي .

•

بعد زفاف إيفار بقيت فترة في روغنهايم . لم تكن سيغنه غامالسداتر جميلة ، كما بدت منهكة وعجوزاً ، إلا أنها كانت لطيفة ومحببة إلى النفس . بدا عليها أنها تحب زوجها الشاب من كل قلبها ، كما رحبت بأمه وأخوته وكأنها تعتبرهم أعلى مرتبة منها إلى حد أنها ما كانت قادرة على أن تكرمهم وتخدمهم بما فيه الكفاية . وبالنسبة إلى كريستين كان ذلك أمراً جديداً أن يضع أي شخص نفسه ليخمن رغباتها ويهتم بها بكل انتباه . ولم يسبق لها حتى حين كانت سيدة هوسابي الثرية ، مع حشد من الخدم تحت إمرتها ، أن خدمها أحد وكأنه لا يفكر سوى براحة وخدمة السيدة . لم يسبق لها أن وفرت نفسها حين كان العمل المنزلي كله واقعاً على كاهلها ، ولم يفكر أحد آخر حتى في إراحتها من العبء . لذلك كان اهتمام سيغنه الجاهز في راحة حماتها طوال فترة مكوثها في روغنهايم قد أثلج قلب كريستين . وسرعان ما أحبت سيغنه كثيراً ، وقد صلّت إلى الرب من كل قلبها ليبارك حياة إيفار الزوجية ، كما صلّت حتى لا تندم سيغنه قط على أنها منحت نفسها وكل ما تملك لزوج شاب إلى ذلك الحد .

•

وهكذا بعد قداس ميكائيل (٢٩ أيلول / سبتمبر) مباشرة سافر ناكفه وبيورغولف شمالاً إلى مقاطعة تروندهايم . كل ما سمعته عنهما منذ ذلك الحين كان حين وصلا إلى هيينداروس في حالة جيدة ، وأنهما قد قبلا كمبتدئين في الأخوة الرهبانية في تاوترا .

•

وسرعان ما كانت كريستين قد أقامت عاماً كاملاً في يورونداغارد مع ابنين من أبنائها فقط . ولكنها تساءلت هي نفسها . . . إن هذا كان مجرد عام واحد فقط . ففي ذلك اليوم من الخريف في العام الماضي حين كانت قد وصلت حتى دوفر مع هذين الاثنين ثم مرت إلى القرب من الكنيسة ونظرت إلى المنحدرات السفلى ، المغطاة بضباب بارد حتى أنها لم تستطع أن تميز المباني في ضيعتها . . . فقد حسبت أنه لابد أن يفكر على هذا النحو الأشخاص الذين يتجهون إلى بيتهم عارفين أن المنازل تقع هناك محترقة إلى رماد وخشب متفحم بارد .

. . . والآن ، حين التفتت نحو البيت عند الممر القديم بعد بقايا ورشة الحدادة . . . كان هناك الكثير من النباتات وأكوام من قش السرير الأصفر والجريس والبيقية تجتاح حواف حقل التبن الوافر . . . تقريباً بدا لها أن ما كانت تراه هو صورة لحياتها : الموقد القديم المسخّم الذي عبثت به أحوال الطقس والذي لن يرى النار ثانية وهي توقد فيه . كانت الأرض من حوله مغطاة بمسحوق الفحم السميك ، ولكن أعشاباً طرية قصيرة ناعمة كانت نبتت في كل أرجاء المكان الذي كانت النار تتقد فيه . ومن الشقوق في الموقد القديم كانت تزهر كل شرابات عشبة السنديان الوردية الطويلة ، التي توزع بذورها على كل الأمكنة .

•

-٢-

كان يحدث أحياناً حين تكون كريستين قد ذهبت لترتاح ، أن يوقظها الناس القادمون إلى الباحة على ظهور جيادهم . كان شخص ما يصرخ عند باب العلية . . . وكانت تسمع غاوته يقابل ضيوفه بتحية صاخبة مرحة . كان على الخدم أن ينهضوا ويخرجوا . وكانت تُسمع قرقعة وصوت أقدام في الغرفة العليا . . . كانت كريستين تميز صوت انغريد وقد علا في لوم وتقريع . أجل كانت فتاة طيبة تلك الخادمة الشابة . لم تكن تقبل بأي جرأة من أي شاب . وقد

استقبلت أجوبتها الحادة الجاهزة بضحك صاخب من الحناجر الشابة . أما فريدا فزعقت . . . يا للمسكينة ، إنها لا تزداد حكمة مع الوقت . لم تكن تصغر كريستين بسنوات كثيرة ، ومع ذلك فإن السيدة مضطرة إلى مراقبتها على الدوام . . .

ثم كانت كريستين تتقلب في فراشها وتنام مجدداً .

كان غاوته يستيقظ في الصباح التالي عند صياح الديك كعادته . . . لم يكن يتأخر في النوم صباحاً بعد أن يسهر وهو يحتسي الجعة ليلاً . ولكن ضيوفه ما كانوا يظهرون حتى وقت وجبة الإفطار . ثم كانوا يبقون في الضيعة خلال اليوم كله . . . أحياناً لديهم صفقة يبرمونها ، وأحياناً كانت مجرد زيارة ودية . كان غاوته يبقي المنزل مفتوحاً .

كانت كريستين حريصة على تقديم أفضل الطعام والشراب إلى أصدقاء غاوته . لم تكن تعرف نفسها أنها كانت تتجول وهي تبتسم بهدوء ، وهي تسمع مجدداً أصوات الشباب والحياة المرحة في ضيعة أبيها . ولكنها لم تكن تحادث الشبان إلاّ قليلاً ولم تكن تراهم كثيراً . كان يكفيها أن ترى أن غاوته كان سعيداً وله أصدقاء كثر .

كان غاوته إرلندسون محبوباً من قبل الشبان وملاّك الأراضي الأغنياء . ورغم أن الحكم الصادر على قتلة إرلند كان قاسياً على أقربائهم ، وكانت هناك مزارع وأسر لا تزال كارهة في أن يكون لها علاّقة مع أولاد إرلند ، ومع ذلك فإن غاوته نفسه لم يكن عدواً .

وكان السير سيغورد أوف سوندبو هو من أبدى الكثير من الحب لقريبه الشاب . فابن خالتها هذا الذي لم تره كريستين قبل أن يقوده القدر إلى فراش موت إرلند نيكولاوسون ، قد أبدى في ذلك الحين أنه أخلص الأقرباء لها . لقد بقي في يوروندغارد حتى موسم عيد الميلاد تقريباً وفعل كل ما يستطيعه لمساعدة

الأرملة والشبان الصغار اليتامى . وقد عبر أولاد إرلند عن شكرهم له على نحو جميل ومهذب ، ولكن غاوته فحسب هو من صنع صداقة معه وقد كان يزور سوندبو كثيراً منذ ذلك الحين .

حين يموت ابن بنت إيفار غيبسلينغ هذا ، فإن الضيعة ستنتقل الميراث بعيداً عن آل غيبسلينغ . . . فهو لم يرزق بأولاد ، وكان أولاد هافتور هم ورثته . كان قد سبق للسير سيغورد وأصبح رجلاً عجوزاً إلى حد ما ولديه عبء ثقيل يتحمله . . . فزوجته الشابة قد أصيبت بالجنون عند أول مخاض لها . وهو يسكن مع زوجته المجنونة هذه منذ حوالي أربعين عاماً ، ولكنه كان لا يزال يزورها ويعتني بأحوالها . . . . كانت تعيش في واحد من أفضل المنازل في سوندبو ، ولديها خادمات لا عمل لهن سوى العناية بها . "أتعرفينني اليوم يا غيريد ؟" كان زوجها يسألها عادة . أحياناً لا تجيب ، ولكنها كانت تجيب أحياناً : "أعرفك جيداً . . . أنت إيسياس العرّاف الذي يسكن في بروتفايت شمالاً تحت جبل بروتفايت ." كانت تجلس هناك ومغزل بين يديها . . . وحين تكون في أفضل حالاتها كانت تغزل خيوطاً جميلة وصحيحة ، ولكن حين تكون الأمور سيئة معها ، كانت تقطع الغزل إلى نتف وترمي الصوف الذي مشطته خادماتها في كل أنحاء الغرفة . بعد أن حكى غاوته لكريستين عن هذا ، كانت ترحب دائماً بابن خالتها بود عميق ، لو حدث أن جاء إلى ضيعتها . ولكنها ما كانت توافق على الذهاب بنفسها إلى ضيعته . . . فهي لم تذهب إلى هناك منذ ذلك اليوم الذي وقفت فيه عروساً في كنيسة سوندبو .

كان غاوته إرلندسون أقصر بكثير من أخوته الآخرين . فإلى جانب أمه الطويلة وأخوته طوال القامة كان غاوته يبدو قصيراً نوعاً ما ، ولكنه كان معتدل الطول . على أي حال بدا غاوته أكبر حجماً من كل ناحية ، بعد أن رحل الأخوان الأكبر سناً والتوأمان اللذان كانا يليانه في العمر . . . فبالمقارنة معهم كان هادئاً في

سلوكه . عبر الريف كله كانت الناس تعتبره رجلاً وسيماً . . . وكان بهيّ الطلعة أيضاً . وبشعره الأصفر التبنيّ وعينيه الرماديتين الواسعتين تحت حاجبيه ، فقد كان وجهه البيضاوي الممتلئ نوعاً ما ذا بشرة نضرة اللون وفم جميل الشكل ، فكان أشبه بجده لأمه . وكان رأسه موضوعاً على كتفيه على نحو ملائم ، كما كانت يداه الكبيرتان جيدتي الشكل قويتين أكثر من المعتاد . ولكنه كان نوعاً ما قصيراً في القسم السفلي من جسمه ، وكانت ساقاه منحنيتين . لهذا السبب فقد كان يرتدي دائماً ثياباً طويلة ، إلا حين يكون عليه لأجل عمله أن يرتدي معطفاً قصيراً . . . رغم أنه في ذلك الحين كانت من عادة الرجال أن يرتدوا ملابس جميلة وقصيرة أكثر ممّا جرت عليه العادة سابقاً . لقد لاحظ مزارعو المنطقة هذه الموضة في ملابس علية القوم الذين كانوا يسافرون عبر "ديل" . ولكن حين كان غاوته إرلندسون يصل إلى الكنيسة أو إلى وليمة في ملابسه الطويلة الخضراء المطرزة الخاصة بالأعياد ، مع حزام فضي حول خصره الرشيق وعباءته الضخمة المبطنة بالفرو الأبيض مرمية على كتفيه ، كان سكان الأبرشية يتابعون سيد يوروندغارد الشاب بعيون سعيدة وودودة . كان غاوته يحمل في يده فأساً جميلة مطعمة بالفضة كانت ملكاً للافرانس بيورغولفسون بعد أن ورثها عن حميه ، إيفار غييسلينغ ، وكانت الناس تعتبر أنه أمر طيب أن يرى غاوته إرلندسون يسير على هدى أجداده ، ورغم شبابه أن يحافظ على عادات المنطقة القديمة من حيث الملبس وأسلوب الحياة والسلوك .

على متن جواده كان غاوته يبدو أوسم الرجال طراً . كان فارساً لامعاً وكان أهل الأبرشية يتفاخرون بأنه لم يكن هناك حصان في أرض النرويج لم يكن غاوته قادراً على ترويضه وركوبه . وحين كان في بيورغفين قبل عام يقال إنه روّض فحلاً صغيراً لم يستطع أي رجل من قبله أن يمتطيه . . . وتحت يدي غاوته تحول إلى حصان لطيف جداً إلى حد أنه امتطاه دون سرج ، ومستعملاً كرسن رباط

شعر إحدى الفتيات . ولكن حين سألت كريستين ابنها حول هذا الأمر ، فإنه ضحك ورفض أن يحكي عنه .

وكانت كريستين تعرف أن غاوته كان خفيفاً في تعامله مع النساء ، ولم يعجبها ذلك ، ولكنها فكرت في أن السبب هو أن النساء كن يعاملن الشاب الوسيم بلطف شديد ، وكان غاوته صريحاً ومباشراً . وعلى الأغلب كان ذلك لمجرد اللعب والمزاح . . . لم يكن يأخذ مثل هذه الأمور محمل الجد ولا يخفيها ، كما فعل ناكفه . لقد أتى بنفسه وحكى لأمه حين ولدت فتاة في سوندبو طفلة من صلبه . . . كان ذلك قبل سنتين . لقد تعامل مع الأم بكرم فقدم لها ، حسب مقامها راتباً ملائماً ، كما سمعت كريستين من السير سيغورد . كما كان غاوته سيجلب الطفلة إلى بيته بعد فطامها . لقد بدا أنه شديد الولع بابنته الصغيرة تلك . كان يذهب باستمرار ليراها حين يكون في فاغا . . . كانت أجمل الأطفال كما قال غاوته باعتزاز ، وقد سماها ماغنهيلد . كما اعتبرت كريستين أيضاً أنه بما أن الفتى قد ارتكب خطأ ، فالأفضل أن يجلب طفلته إلى البيت وأن يكون أباً صالحاً لها . وهي نفسها لم تكن ضد إحضار ماغنهيلد إلى البيت هنا . ولكن الطفلة ماتت وهي في السنة الأولى من عمرها . حزن غاوته كثيراً عنها حين سمع بذلك . كما أحست كريستين أنه أمر مؤلم أنها لم تر ابنة ابنها الصغيرة قط .

دائماً ما كان يصعب على كريستين أن تقرّع غاوته ، فلقد عانى من المرض الشديد وهو صغير ، ولاحقاً كان يبقى إلى جانب أمه أكثر من الأطفال الآخرين . ثم كان يشبه أباها . كان شديد الهدوء وأهلاً للثقة وهو طفل . . . كان جدياً كالكبار وكان يتجول معها ويساعدها ، ويعتقد حسب سذاجته كطفل أنه يقدم أعظم المساعدة لأمه . كلا ، لم تكن قادرة على أن تقسو على غاوته . . . ولو أنه ارتكب خطأ بسبب الرعونة أو بسبب قلة خبرته ، فما كان يحتاج إلاّ إلى بعض الكلمات اللطيفة لتوجيهه . كان جدياً وصافي الذهن جداً .

حين كان غاوته في الثانية من عمره فإن كاهن المنزل في هوسابي والذي كان ماهراً في طب الأطفال ، نصح بأن يُعطى مجدداً حليب امرأة لأن الوسائل الأخرى لن تفيده شيئاً . كان التوأمان مولودين حديثاً آنذاك ، وفريدا التي كانت ترضع سكوله ، كان لديها من الحليب أكثر مما يستطيع الطفل الصغير تناوله . ولكن المرأة جعلت الطفل المسكين في حالة رعب . . . كان غاوته طفلاً غير محبوب برأسه الكبيرة وجسمه الهزيل الذاوي ، ولم يكن قادراً على الكلام أو على الوقوف على ساقيه . . . لذا ذلك كانت تخشى من أن يكون طفلاً مستبدلاً ، رغم أنه كان صحيح الجسم معافى حتى وقع فريسة للمرض وهو في شهره العاشر . وعلى أي حال فإن فريدا ما كانت ترضى أن ترضع غاوته . لذلك لم يكن أمام كريستين سوى أن ترضعه بنفسها . وقد بقي يرضع من ثدي أمه حتى بلغ الرابعة من عمره .

لاحقاً كانت فريدا ترفض الاهتمام بغاوته . كانت لا تبالي به طالما استطاعت ذلك رغم خوفها من أمه . كانت فريدا تجلس قرب السيدة فوق مقعد النساء الآن وتحمل المفاتيح حين تكون كريستين بعيدة عن البيت . كانت تقول للسيد والسيدة كل ما يخطر في بالها . كانت كريستين تتحمل المرأة وتبتسم من تصرفاتها ، رغم أنها كانت تغضب منها أيضاً . . . ومع ذلك كانت تضع الأمور في مسارها الصحيح حين ترتكب فريدا شيئاً طائشاً أو تترك لسانها ينطق بشيء وقح . لم يكن يعجب فريدا أن يكون غاوته هو الجالس في الكرسي العالي الآن وسيد الضيعة . كانت تعتبره مجرد صبي أحمق . كانت تفاخر بأخوته وخاصة بيورغولف وسكوله اللذين أرضعتهما . كما أنها كانت تهزأ من قامة غاوته القصيرة وساقيه المعوجتين . كان غاوته يتقبل ذلك منها برحابة صدر .

"أجل تأكدي يا فريدا أني لو رضعت منك لكنت أصبحت مارداً مثل أي من أخوتي . ولكني اضطررت إلى أن اقنع بثدي أمي . . . " كان يبتسم لكريستين .

غالباً ما كانت الأم والابن يتمشيان معاً في الخارج مساءً . في أماكن كثيرة كانت الممرات عبر الحقول ضيقة جداً حتى أن كريستين كانت مضطرة إلى السير خلف غاوته . كان يمشي أمامها بفأسه طويل المقبض ، بكل عنفوان . . . لم تستطع أمه سوى الابتسام من خلف ظهره . أحست بنزعة شريرة شابة إلى العدو خلفه والإمساك به من خلف وأن تضحك وتداعب غاوته كما كانت تفعل وهو بعد طفل صغير .

وأحياناً كانا ينزلان إلى مكان الغسيل قرب ضفة النهر ، ويجلسان وهما يصغيان إلى صوت هدير النهر المسرع اللامع والسريع في الغسق . غالباً ما كانا لا يتبادلان الحديث . ولكن قد يحدث أن يسأل غاوته أمه عن الأيام الغابرة في هذا الريف وحول أسرتها . حكت له كريستين ما سمعته ورأته في طفولتها . أما عن أبيه والسنوات في هوسابي فلم يكونا يذكرانها قط .

"كلا يا أمي ، أنت تجلسين هناك وترتجفين على ما أعتقد" ، قال غاوته . " . . . الجو بارد هذا المساء ."

"أوه أجل . . . وأنا قد تيبست من الجلوس على هذا الحجر ." نهضت كريستين أيضاً . "سأصبح امرأة عجوزاً يا غاوته !"

في طريقهما صعوداً أبقت يداً على كتفه .

كان لافرانس مستغرقاً في نوم عميق في سريره . أوقدت كريستين المصباح الزيتي الصغير . . . كانت تنوي الجلوس قليلاً وتسلية نفسها بالهدوء الذي في نفسها . ولقد كان هناك ما يكفي لتشغل به أصابعها . من الأعلى كانت تصل أصوات صلصلة ، ثم سمعت غاوته يصعد إلى سريره هناك . عدّلت الأم ظهرها برهة . . . ابتسمت قليلاً أمام أشعة المصباح . تحركت شفتاها . رسمت إشارة الصليب فوق وجهها وصدرها في الهواء أمامها . ثم تناولت عدة خياطتها مجدداً .

نهض بيورن ، الكلب العجوز ، وهزّ نفسه ثم تمدد على قائمتيه الأماميتين وهو

يتثاءب . ثم زحف على الأرض نحو سيدته . ربتت عليه ، فوضع قائمتيه الأماميتين في حجرها . . . وحين كلمته ملاطفة ، فقد راح يلعق وجهها ويديها ، ويضرب الأرض بذيله . ثم انسل بيورن عائداً من جديد . . . التفت برأسه ونظر إلى المرأة . كان الضمير الشرير يطلّ من عينيه الخرزيتين وكل جسده الخشن الأشعث وحتى أخمص ذيله . ابتسمت كريستين بهدوء وتظاهرت بأنها لم تر . . . ثم قفز الكلب إلى سريرها وكوّر نفسه قرب سنادة القدم .

بعد وهلة أطفأت المصباح ونفخت على الفتيل وغمست طرف الذبالة المحروقة في الزيت . من الخارج ، عبر زجاج النافذة الصغيرة كان غسق ليلة الصيف يبدو على نحو باهت . تلت كريستين آخر صلوات اليوم ، خلعت ملابسها بهدوء وزحفت إلى السرير . ركزت الوسائد على نحو مريح من حول صدرها وكتفيها ، ونام الكلب العجوز خلف ظهرها . وسرعان ما نامت .

●

كان الأسقف هالفارد قد عيّن سيرا دراغ وكيلاً له في الأبرشية ، ومنه كان غاوته قد اشترى أعشار الأسقف للسنوات الثلاث القادمة . كان يشتري الجلود والأطعمة في الأبرشية أيضاً ، وفي الشتاء لدى نقل السلع على الزلاجات ، كان يرسل السلع إلى راومسدال ثم إلى بيورغفين في الربيع بالسفينة . لم تكن كريستين تحب كثيراً هذه الصفقات التي يقوم بها ابنها . . . فهي نفسها كانت تبيع دائماً في هامار ، وكذلك فعل أبوها وسايمون أندرسون . ولكن غاوته قد شارك غرلاك باوس- زوج أخته - في نوع من الشراكة التجارية . . . وكان غرلاك تاجراً نشطاً ومن أقرباء أغنى التجار الألمان في بيورغفين .

كانت مارغريت بنت إرلند وزوجها قد وصلا إلى يوروندغارد في الصيف الذي تلا موت والدها . وقد قدما الكثير من الهدايا إلى الكنيسة لأجل راحة روحه . حين كانت مارغريت شابة صغيرة في هوسابي لم يكن هناك ود بينها

وبين زوجة أبيها ، ولم تكن تهتم إلا قليلاً بأخوتها الصغار آنذاك . والآن كانت في الثلاثين من عمرها ، ولم تكن قد رزقت بأطفال من زوجها . وقد أظهرت الآن لأخوتها - بعد أن كبروا - الكثير من الحب الأخوي ، وكانت هي التي حققت التفاهم بين زوجها وغاوته .

كانت مارغريت لا تزال جميلة ، ولكنها كانت قد أصبحت شديدة البدانة إلى حد لم تر كريستين مثيلاً له من قبل . لقد كان هناك كثير من الفراغ لوضع الأقراص الفضية على حزامها وكذلك كان دبوس زينة كبير بحجم ترس يدوي صغير يزين على نحو ملائم الفراغ بين ثدييها العريضين . كان جسدها الضخم مزيناً دائماً كمذبح ، بأثمن الأشياء وبالمعادن المذهبة على نحو جميل . . . لقد بدا أن غرلاك تيبدكنسون كان يثّمن زوجته إلى حد كبير .

في العام الذي مضى ، زار غاوته أخته وصهره في بيورغفين خلال اجتماعات الربيع ، وفي الخريف عبَر الجبال مع مجموعة من الجياد التي باعها هناك . لقد حققت تلك الرحلة الكثير من الأرباح لغاوته حتى أنه أقسم أنه سيعيد الكرة في الخريف التالي . فكرت كريستين أنه لأمر طيب أن تتركه يفعل ما يريد في هذا الخصوص . ربما كان لديه شيء من حب أبيه للسفر في دمه . . . وسوف يستقر حين يكبر في السن . وحين لاحظت أمه أنه كان نافد الصبر حباً بالسفر ، كانت هي نفسها تسرّع في رحيله . . . في العام الماضي اضطر لعبور الجبال بعد عواصف الشتاء .

وهكذا انطلق في صباح جميل ومشرق بعد قداس بارتولوميو (٤١ آب / أغسطس) . وهذه الفترة هي موعد نحر الماعز . . . وكانت الضيعة كلها تفوح منها رائحة لحم الماعز المزيّت . كان الناس قد أكلوا حتى شبعوا وشعروا بالسعادة ، فهم لم يكونوا قد ذاقوا اللحم الطازج طوال فصل الصيف إلاّ في أيام العيد الخاصة ، ولكن الآن ومنذ أيام كثيرة هاهم يأكلون اللحم طيب المذاق والغني بالدهون في

الصباح وفي المساء . كانت كريستين متعبة ولكن روحها المعنوية عالية ، بعد عمليات الذبح الكبيرة وصنع المقانق لأجل السنة كلها ، وهي واقفة على الطريق العام الآن وتلوح بغطاء رأسها وراء غاوته وموكبه . كان موكباً رائعاً . . . الجياد الجميلة والشبان الرشيقون يحملون الأسلحة اللامعة والأطقم المجلجلة . وقد دوّى الجسر بصوت عالٍ حين مروا من فوقه من وقع أقدام الجياد عليه . التفت غاوته في سرجه ولوّح بقبعته ، ولوحت له كريستين ثانية وقد صدرت عنها صرخة صغيرة من السعادة والفخر .

●

بعد ليلة الشتاء (١٤ تشرين الأول / أكتوبر) بوقت قصير هطل المطر والقطقط على الوهاد ، وهبّت العاصفة وهطل الثلج على الجبال . كانت كريستين قلقة على غاوته الذي لم يعد بعد . ولكنها لم تكن خائفة عليه كثيراً في الحقيقة كما كانت على الآخرين . . . كان لها ثقة في حسن حظ هذا الابن .

بعد أسبوع كانت كريستين قادمة من حظيرة البقر في وقت متأخر في المساء ، حين شعرت بوجود بعض الفرسان عند بوابة الضيعة . كان الضباب يتصاعد مثل دخان ابيض أمام القنديل الذي كانت تحمله . . . ذهبت تحت المطر لتقابل مجموعة الرجال المرتدين للملابس الداكنة المصنوعة من الفرو : ألم يكن ذاك غاوته؟ . . . ليس من المحتمل وصول غرباء في وقت متأخر كهذا . . .

ثم لاحظت أن الراكب الأول كان السير سيغورد أوف سوندبو . . . ترجل عن حصانه بالتيبّس المألوف لدى كبار السن .

"أجل . . . أجلب لك أنباء من غاوته يا كريستين" ، قال الفارس بعد أن حيته وحياها . "لقد وصل إلى سوندبو البارحة" .

كان الظلام مخيماً حين كانا واقفين حتى أنها لم تميّز مظهره . ولكن صوته كان غريباً . وبينما مضى نحو باب القاعة ، أمر خدمه بأن يلحقوا بعامل الإسطبل

لدى كريستين إلى مسكن الرجال . شعرت بالخوف حين توقف عن الكلام ، ولكنها سألته بهدوء كاف حين وقفا لوحدهما معاً في الغرفة :

"ما هي هذه الأنباء إذن يا قريبي ؟ هل هو مريض بما أنه لم يعد إلى البيت معك ؟"

"لا ، غاوته في صحة جيدة ، ولكن رفاقه منهكون . . . "

نفخ الرغوة عن كوب الجعة الذي قدمته له كريستين ، ثم شرب وامتدح الجعة .

قالت السيدة مبتسمة : "شراب فاخر لمن يحمل أنباء طيبة ."

"أجل ، لنسمع ما ستقولين بعد أن تسمعي أخباري حتى نهايتها" ، قال بحزن شديد . "لم يأت ابنك لوحده هذه المرة . . . "

وقفت كريستين تنتظر .

"كان معه . . . أجل ، ابنة هلغه أوف هوفلاند . . . ويبدو أنه قد اختطف هذه الفتاة من أبيها بالقوة . . . "

لم تقل كريستين شيئاً بعد ، ولكنها جلست على المقعد أمامه . كان فمها ملتوياً ، وشفتاها مزمومتين .

"لقد رجاني غاوته أن أحضر إلى هنا . . . لأنه يخشى ، أنك لن تكوني مسرورة بهذا الذي حصل . وقد طلب مني أن أقول لك ما حصل . . . والآن فعلت ما هو مطلوب" . أنهى سيغورد كلامه بضعف .

"عليك أن تحكي لي كل ما تعرفه عن هذه القضية" ، رجته كريستين بهدوء .

وقد فعل سيغورد ذلك . . . وذلك بأسلوب ملتو غير واضح ، مع الكثير من التحويم حول الموضوع . كان واضحاً أنه هو نفسه كان منزعجاً من تصرف غاوته . ولكن كريستين فهمت من حكايته ما يلي : لقد قابل غاوته الفتاة في العام

الفائت في بيورغفين . كان اسمها يوفريد . . . لا ، لم تكن مخطوبة لأحد . ولكن غاوته ، على الأرجح ، قد أدرك أنه لا مجال أمامه أن يخطب الفتاة من أسرتها . . . فقد كان هلغه أوف هوفلاند غنياً إلى حد كبير ، وينتمي إلى أسرة تحمل اسم "دوك" ومعظم أملاكهم تقع في فوس . وهكذا أغوى الشيطان الشابين . . . تلوى السير سيغورد في ملابسه وحك رأسه وكأن القمل غزا جسمه كله .

إذن ففي الصيف ، حين كانت كريستين تعتقد أن غاوته كان في سوندبو ويخرج للصيد مع السير سيغورد ليصيدا الدبين الكبيرين بين جبال السايتر- كان هو قد عبر الجبال إلى سوغن - حيث كانت الفتاة مع أختها المتزوجة . كان لهلغه ثلاث بنات ولم يكن له أبناء . أنّ سيغورد ببؤس . . . أجل ، لقد وعد غاوته آنئذ بأنه لن يذكر شيئاً عن الأمر أمام أي شخص . صحيح أنه كان يعرف أن الشاب يحب الفتاة . . . ولكن كيف كان ممكناً له أن يحلم أن غاوته كان قليل الحكمة إلى ذلك الحد . . .

"أجل يبدو أنه سيدفع غالياً ثمن هذا ، ابني غاوته" ، قالت كريستين . كان وجهها هادئاً مستقراً .

قال سيغورد إن الشتاء كان وشيكاً الآن . . . وستكون الطرق صعبة المجاز . ولكن حين يقرر رجال هوفلاند التفكير في الأمر ، فقد يعتبرون أنه من الأفضل اعتبار أن يوفريد قد أعطيت بموافقة أسرتها . . . بما أنه سبق لها وأصبحت ملكاً له .

"ولكن إن لم يعتبروا الأمر كذلك . . . لو أرادوا الانتقام لاغتصاب ابنتهم؟"

تلوى السير سيغورد وراح يهرش أكثر مّما سبق :

"هذه جريمة لا يمكن التكفير عنها بالغرامة أو التعويض ." ، قال بصوت خفيض . "لا أعرف بالضبط ."

صمتت كريستين . لذلك تابع السير سيغورد بصوت متوسل :

"لقد قال غاوته إنه واثق تماماً من أنك سترحبين بهما بحب . قال إنك

لست عجوزاً إلى حد تنسين معه . . . أجل ، لقد عنى أنك تفهمين أنك حصلت على الزوج الذي اختاره قلبك ."

أومأت كريستين .

"إنها أجمل فتاة رأيتها في حياتي يا كريستين" ، قال سيغورد بدفء . دمعت عيناه . "إنه لأمر سيئ أن يكون الشيطان قد أغوى غاوته ليرتكب هذا الخطأ . . . ولكني أعتقد أنك سترحبين بهذين الطفلين المسكينين على نحو ودي؟"

أومأت كريستين برأسها مجدداً .

•

كانت البلاد تقبع مبللة وشاحبة وسوداء تحت وابل من الأمطار حين دخل غاوته الباحة في اليوم التالي عن صلاة العصر .

أحست كريستين بعرق بارد يرطب جبينها وهي تنحني إلى الأمام تحت عتبة الباب العليا لتنظر . . . وهناك كان غاوته واقفاً يرفع امرأة في عباءة داكنة ذات قبعة لينزلها عن حصانها . كانت صغيرة الحجم لا تصل إلا بالكاد إلى كتف الرجل . كان غاوته يود أن يأخذ من يدها ويقودها إلى الأمام . . . ولكنها دفعته جانباً وانطلقت وحدها لتقابل كريستين . بدأ غاوته يحيّي خدم المنزل ويعطي الأوامر إلى الرجال الذين كانوا معه . حين نظر مجدداً نحو المرأتين أمام باب المنزل ، كانت كريستين واقفة وهي تمسك الفتاة الغريبة من كلتا يديها . قفز غاوته نحوهما وعلى شفتيه تحية سعيدة . في الغرفة الخارجية أمسك به السير سيغورد من الكتف وربت عليه بأبوة ، وهو ينفخ ويلهث لأن التوتر كان قد انتهى .

كانت كريستين قد فوجئت حين رفعت الفتاة وجهاً شديد البياض والجمال تحت قبعة عباءتها المبللة . . . لقد كانت صغيرة السن ضئيلة الحجم كطفلة . قالت الغريبة :

"لم أكن أعتقد أنك سترحبين بي يا أم غاوته . . . ولكن الآن كل الأبواب موصدة أمامي إلاّ بابكم . وإن كنت ستتحملين وجودي هنا في ضيعتك يا سيدتي ، فلن أنسى أني جئت إلى هنا دون مال ودون شرف ، دون أي شيء سوى الإرادة الطيبة في أن أخدمك وغاوته سيدي . . . "

. . . أخذت كريستين عندئذ كلتا يدي الفتاة قبل أن تعرف ما جرى :

"فليغفر الرب لابني الإثم الذي ارتكبه في حقك ، يا طفلتي الجميلة ، ادخلي يا يوفريد . . . فليساعدكما الرب كلاكما ، وسوف أساعدكما بقدر ما أستطيع !"

صحيح أنها شعرت بعد لحظة أنها ربما كانت قد بالغت في دفء ترحيبها بهذه المرأة التي لا تعرفها . ولكن يوفريد كانت قد أزاحت جانباً ملابسها الخارجية . كان ثوبها الشتائي الثقيل المصنوع من النسيج الصوفي الأزرق المغزول منزلياً ينقط من المطر في أسفله وعلى كتفيه ، حيث كان المطر قد تغلغل عبر عباءتها . وكان هناك جلال حزين ولطيف من حول هذه الفتاة الطفولية . . . كانت ترفع رأسها الصغير الداكن برشاقة ، وتحنيه قليلاً إلى الأمام ، وقد كانت لها ضفيرتان سوداوان كالفحم تصلان إلى أسفل خصرها . أخذت كريستين يوفريد بود من يدها وقادتها إلى أدفأ مكان على المقعد قرب جدار المدفأة : "لابد أنك تشعرين بالبرد؟"

تقدم غاوته إلى الأمام وضم أمه بقوة بين ذراعيه :

"أمي . . . على الأمور أن تجري كما هو مقدر عليها . . . هل سبق لك وشاهدت فتاة أجمل من يوفريد ؟ كان عليّ أن أحظى بها مهما كان الثمن . . . وستكونين طيبة معها يا أعزّ الأمهات . . . "

كانت يوفريد هلغسداتر جميلة . . . لم تكن كريستين قادرة على رفع عينيها عنها . كانت قصيرة القامة ، عريضة المنكبين والوركين ، إنما كانت ملفوفة القوام

جميلة الشكل . كانت بشرتها تبدو ناعمة وصافية حتى أنها كانت يائسة من شدة بياضها . كانت ملامح وجهها قصيرة وعريضة ، ولكن وجنتيها وقوس ذقنها القوي العريض كان يجعل وجهها شديد الوسامة ، وكان لها فم أحمر لامع عريض إنما رقيق الشفتين وأسنان صغيرة مستوية مثل أسنان الطفل اللبنية . وحين ترفع أهدابها الثقيلة فإن عينيها الصافيتين بلونهما الرمادي الأخضر كانتا أشبه بنجمتين لامعتين تحت الرموش السوداء الطويلة . . . شعر أسود وعينان لامعتان . . . اعتبرت كريستين هذه الأشياء أجمل الأشياء طراً منذ أن رأت إرلند لأول مرة . . . كان معظم أبنائها يتحلون بها . . .

وضعت كريستين يوفريد في مكان فوق مقعد النساء إلى جانبها . جلست بأناقة وخجل بين أهل المنزل الغرباء ، وأكلت قليلاً ، واحمر وجهها كثيراً في كل مرة شرب فيها غاوته نخبها خلال الوجبة .

التمع وجهه باعتزاز وسعادة محمومة وهو جالس هناك في كرسيه العالي . كانت كريستين احتفالاً بعودة ابنها قد فرشت غطاء فوق المائدة ووضعت الشموع في شمعدانات من النحاس المطلي بالذهب . راح غاوته والسير سيغورد يشربان نخب أحدهما الآخر دون توقف ، وأصبح الفارس العجوز أكثر فأكثر اهتياجاً فوضع ذراعه من حول كتف غاوته وأقسم أن سيدعم قضية غاوته حتى لدى الملك ماغنوس نفسه . . . سيكون الأمر صعباً ولكنه سيحاول أن يصالح غاوته مع أسرة الفتاة التي تعرضت للإهانة . لم يكن لدى سيغورد إلديارن أي أعداء . . . كان مزاج أبيه الرديء وسوء حظه في الزواج هو الذي جعله وحيداً إلى هذا الحد .

في النهاية قفز غاوته والقرن في يده . كم كان رجلاً مميزاً ، كما فكرت كريستين . . . وكم يشبه أباها ! هكذا كان أبوها عند بداية حفلة شراب . . . كان متقداً بالفرح بالحياة ، منتصب القامة ومرحاً . . .

"لقد حدث لي ولهذه المرأة يوفريد هلغسداتر أن نشرب في هذا اليوم جعة

عودتنا إلى البيت ، وسيكون علينا لاحقاً أن نشرب جعة زفافنا ، لو منحنا الرب مثل هذا الحظ السعيد . أنت يا سيغورد نشكرك لإخلاصك كقريب لنا ، وأنت يا أمي لأنك رحّبت بنا كما كنت آمل منك ، من قلبك الأموي الصادق . . . فنحن الأخوة قلنا مرات عديدة فيما بيننا ، أنك تبدين لنا أعظم النساء عقلاً وأرق الأمهات . لذلك أتوسل إليك أن تزيدي علينا من كرمك وأن تحضري بنفسك سريرنا الزفافي على نحو جميل وفاخر حتى أطلب من يوفريد دون خجل أن تنام فيه معي ، وأنك ستقودين بنفسك يوفريد إلى العلية ، حتى تحضر إلى السرير على النحو الملائم حيث أنها يتيمة الأم وليس لها قريبات هنا . . . "

كان السير سيغورد قد أسرف في الشراب الآن ، فانفجر ضاحكاً :

" . . . ولكنكما نمتما معاً في علية منزلي . . . هذا ما أعرفه ، وقد ظننت أنكما قد سبق لكما ونمتما في سرير واحد من قبل أيضاً . . . "

هزّ غاوته شعره الذهبي بغطرسة .

"أجل يا قريبي . . . ولكن هذه أول ليلة تنام فيها يوفريد بين ذراعي هنا في ضيعتها . . . إن شاء الله ."

"ولكن أنتم أيها الناس الطيبون أرجو منكم أن تشربوا وتمرحوا هذه الليلة . . . فقد رأيتموها الآن تلك التي ستكون زوجتي وسيدة يوروندغارد . . . هي وليس أي امرأة أخرى ، أقسم على ذلك بالرب وبمعتقدي كمسيحي . أتوقع منكم أن تعاملوها بشرف جميعاً ، رجالاً ونساء ، وأتطلع إلى أن تساعدوني ، أنتم رجالي ، على أن تحموها وتساعدوها كما يلائم رجالاً ذوي همة ."

بين الصياح والضجيج الذي تلا خطاب غاوته ، انزلقت كريستين من المائدة وهمست لأنغريد أن ترافقها لتصعدا إلى العلية .

كانت حالة القاعة العليا الفخمة خاصة لافرانس بيورغولغسون قد تدهورت خلال السنوات التي قضاها فيها أولاد إرلند . لم تكن كريستين ترمي في العلية سوى الأشياء الضرورية جداً وأخشن الأغطية والأثاث المهلهل بسبب أن أولادها

كانوا شديدي الإهمال ، كما كانت نادراً ما تنظف العلية ، فلم يكن الأمر يستحق الاهتمام . كان غاوته وأصدقاؤه يجلبون القاذورات والفضلات ما أن تنظفها . كما كانت هناك رائحة متلبثة هي رائحة الرجال الذين يأتون ويرمون بأنفسهم على الأسرّة ، وهم مبللون ومتعرقون وقذرون من الغابة أو المزرعة ، رائحة الإسطبل والملابس الجلدية وكلاب الصيد الرطبة .

وبسرعة قامت كريستين والخادمة بتنظيف الغرفة وترتيبها قدر الإمكان . كما أحضرت السيدة أغطية سرير ووسائد فاخرة ، وأحرقت العرعر للتخلص من الرائحة الكريهة فيها ووضعت كوباً فضياً فيه آخر قطرة نبيذ تبقت لديها في المنزل وكعكاً من الحنطة وشمعة في شمعدان معدني فوق مائدة صغيرة نقلتها إلى جانب السرير . أصبح المكان هنا جيداً بقدر ما استطاعت خلال هذا الوقت القصير .

على الجدار ذي الألواح قرب المختلى كان الأسلحة معلقة . . . سيف إرلند الحربي الثقيل ذو المقبضين والسيف الأصغر الذي أعتاد حمله ، فؤوس عريضة وفؤوس للحطب . . . وكذلك فأسا بيورغولف وناكفه اليدويان الخفيفان كانا معلقين هناك . كما كان هناك فأسان صغيران نادراً ما استخدمهما الأولاد ، لأنهما كانا يعتبران خفيفين جداً . . . ولكن كان أبوهما يشذب بهما كل أنواع النجارة على نحو ماهر وأكيد حتى أنه لم يكن يحتاج إلى الإزميل والسكين إلا للصقل . حملت كريستين الفؤوس إلى المختلى ووضعتها في صندوق إرلند ، حيث كان قميصه المدمى والفأس التي كان يحملها بيده حين أصيب بجرحه القاتل .

وحين أمر غاوته ضاحكاً لافرانس أن يحمل النور أمام العروس ويرشدها إلى العلية ، أصيب الصبي بالخجل والاعتزاز . لاحظت كريستين أن لافرانس كان يفهم جيداً أن زواج أخيه غير الشرعي هو لعبة خطرة ، ولكنه كان دائماً مضطرباً من هذه الأحداث الغريبة . . . وقد راح يحدق بعينين ملؤهما الشرر إلى غاوته وعروسه الجميلة .

على الدرج المؤدي إلى العلية انطفأت الشمعة . قالت يوفريد لكريستين :

"ما كان على غاوته أن يطلب منك القيام بهذا ، حتى لو كان ثملاً . . . اتركيني هنا أيتها السيدة . لا تخشي من أني قد أنسى أني امرأة خاطئة ، وقد خالفت إرادة أسرتي ."

قالت كريستين : "لست أفضل منك . وآمل أن يصحح ابني خطيئته التي ارتكبها ضدك وتستطيعين مناداتي عندها بحماتك عن حق . اجلسي حتى أمشط لك شعرك . . . فشعرك جميل جداً يا ابنتي . . . "

ولكن حين ذهب الجميع للنوم واضطجعت كريستين في سريرها ، أحسّت مجدداً بنوع من القلق . . . لقد اضطرت على نحو أحمق إلى أن تقول ليوفريد أكثر مما كانت تقصده . . . ولكن الفتاة كانت صغيرة جداً وقد أظهرت أنها لا ترغب في أن يحكم عليها على نحو أفضل مما تستحقه . . . طفلة هربت من الشرف والواجب .

إذن هكذا بدا الأمر . . . حين قام الناس بمرافقة المركب الزفافي والذهاب إلى البيت قبل الزفاف . تنهدت كريستين . . . لقد كانت راغبة ذات مرة في فعل مثل هذا لأجل إرلند . . . ولكنها لم تكن تعرف إن كانت تجرؤ لو أن أمه كانت تسكن في هوسابي . كلا ، كلا ، فهي لن تجعل الأمور أسوأ على الطفلة التي هي هناك . . .

كان السير سيغورد لازال يترنح في أرجاء القاعة . . . كان سينام مع لافرانس . . . وكان يتحدث على نحو ضبابي ولكن بإرادة مرحة ، عن الشابين . . . فهو لن يدخر وسعاً لتصل هذه المغامرة الخطرة إلى نهاية سعيدة . . .

في اليوم التالي ، أظهرت يوفريد لأم غاوته ما جلبته معها إلى الضيعة . . . جرابان جلديان من الملابس . وفي علبة صغيرة من عاج الفظّ كانت وقد وضعت حليها . وكأنما قرأت أفكار كريستين قالت يوفريد إن كل هذه الأشياء كانت تخصها . . . فقد حصلت عليها إما كهدايا أو كميرات ، وخاصة من أمها . لم

تأخذ أي شيء يخص أباها .

جلست كريستين حزينة وخدها مسند إلى يدها . في تلك الليلة البعيدة قبل دهور بحالها ، حين لملمت هي أغراضها الثمينة في علبة حتى تتسلل بعيداً عن بيت أهلها . . . كان معظم ما جمعته هدايا من الأب والأم اللذين جلبت عليهما العار سراً وكانت تخطط لإنزال الحزن والعار بهما في نور النهار الساطع . . .

. . . ولكن لو كانت هذه ممتلكات يوفريد الشخصية وميراثها ، كحليّ فقط ، من أمها فلا شك أنها تنتمي إلى أسرة غنية جداً . فقد قدرت كريستين ما رأته على أنه يساوي أكثر من ثلاثين ماركاً من الفضة الخالصة . . . أما الثوب القرمزي لوحده وعليه الفراء الأبيض والأبازيم الفضية والقبعة المبطنة بالحرير التي تخصه ، فيكلف ما بين عشرة إلى أثني عشر ماركاً على الأقل . لو وصل والد الفتاة إلى اتفاق مع غاوته فسيكون الأمر جيداً وحسناً . . . ولكن لا يبدو أنه يعتبره زوجاً ملائماً من حيث المقام لهذه الفتاة . ولو أن هلغه سيقف ضد غاوته بقوة كما هو حق له ولو استخدم سلطته في ذلك الاتجاه ، فلا شك أن الأمور ستكون سيئة حقاً .

قالت يوفريد : "هذا الخاتم كانت أمي تلبسه على الدوام . . . لو أخذته مني يا سيدتي ، عندها سأعرف أنك لا تحكمين عليّ بقسوة كما هو شأن سيدة صالحة ذات محتد نبيل ."

"كلا ، إذن فإنه من المحتمل جداً أني سأكافح لأحل محل الأم بالنسبة إليك" ، قالت كريستين مبتسمة ثم وضعت الخاتم في إصبعها . كان خاتماً فضياً صغيراً حلّي بحجر عقيق أبيض صغير ، وفكرت كريستين أن الفتاة تعتبره أثمن بكثير من قيمته الحقيقية لأنه يذكرها بأمها . "أعتقد أنه أمر معقول أن أقدم لك هدية بالمقابل ." . . . جلبت علبتها وقدمت للفتاة الخاتم الذهبي المطعم بالياقوت . "هذا الخاتم وضعه زوجي على سريري حين ولدت غاوته" .

أخذت يوفريد الخاتم وقبلت يدها . "ولكنني كنت أفكر في أن أتوسل منك هدية أخرى يا أمي . . . " ابتسمت على نحو فاتن جداً . "لا تخافي من أن يكون غاوته قد جلب إلى بيته امرأة بليدة كسولة . ولكن ليس لدي ثوب ملائم للعمل . أعطني ثوباً قديماً من ثيابك ولا تحرميني من حق مساعدتك ، وعندها فربما ستحبينني أكثر مما أطمح إليه الآن . . . "

ولكن كان الآن دور كريستين لتري الفتاة ما الذي لديها في صناديقها ، وقد امتدحت يوفريد كل أعمال كريستين اليدوية الجميلة على نحو يدل على الفهم إلى حد أن كريستين راحت تعطيها هذا الشيء وذاك . . . شرشفان من الكتان مع حواشي حريرية معقودة ، منشفة ذات حاشية زرقاء ، غطاء سرير مدروز ، وأخيراً سجادة طويلة من النوع الذي يعلق على الجدار عليها صورة تمثل الصيد بالصقور : "أكره أن تغادر هذه الأشياء هذه الضيعة . . . وبعون الله وعون سيدتنا فإن هذا المنزل سيكون لك ذات يوم ." ثم عبرتا نحو المخزن . . . وأنفقتا ساعات كثيرة معاً هناك ، ومرّ الوقت بسعادة .

كانت كريستين راغبة في منح يوفريد ثوبها الصوفي الأخضر المحبوك ببقع سوداء ، ولكن يوفريد اعتبرته أفضل من أن يكون ثوب عمل . يا للمسكينة ، لا شك أنها كانت تبذل جهدها لترضي حماتها ، فكرت كريستين ، وهي تخفي ابتسامة . وأخيراً وجدتا ثوباً بنياً قديماً اعتبرته يوفريد ملائماً ، لو قصرته قليلاً ووضعت رقعاً تحت الذراعين والمرفقين . ولم تقبل يوفريد سوى أن تستعير على الفور مقصاً وعدة خياطة ، وباشرت بالخياطة . . . عند ذلك بدأت كريستين بالعمل أيضاً ، وهكذا كانت المرأتان جالستين حين دخل غاوته والسير سيغورد لأجل وجبة المساء .

-٣-

أقرت كريستين من كل قلبها بأن يوفريد امرأة تعرف كيف تستخدم يديها . ولو سار كل شيء على ما يرام ، عندها سيكون غاوته محظوظاً . . . سيكون قد نال زوجة مجدة ونشيطة بقدر ما هي غنية وجميلة . وهي نفسها لم تكن قادرة على أن تجد امرأة أفضل منها لتحلّ محلها في يورونـدغارد . . . ولو بحثت في كل النرويج عنها . هكذا قالت في أحد الأيام . . . ولاحقاً لم تعرف إلا بالكاد كيف هربت الكلمات من شفتيها . . . أن اليوم الذي ستصبح فيه يوفريد هلغسداتر زوجة غاوته الشرعية ، ستسلم المفاتيح إلى المرأة الشابة وتنتقل هي إلى القاعة القديمة مع لافرانس .

لاحقاً فكرت بالفعل أنه كان أحرى بها أن تكون وزنت الأمر على نحو أفضل قبل أن تنطق به . غالباً ما تكون متسرعة حين تكلم يوفريد . . .

ولكن حدث أن اكتشفت أن يوفريد كانت معتلة الصحة . لقد لاحظت كريستين ذلك ، وذلك بمجرد أن وصلت الشابة إلى الضيعة . وقد تذكرت كريستين أول شتاء لها حين كانت تسكن في هوسابي . . . كانت امرأة متزوجة شرعياً ، وزوجها وأبوها مرتبطين شرعاً ، ومهما كانت النتيجة التي ستصل إليها

صداقتهما بعد أن ينكشف سر الخطيئة المرتكبة . ولكنها عانت من ندم مؤلم وعار جارح ، وعاملت إرلند ببرارة في قلبها . . . كما كانت قد أكملت التاسعة عشرة من عمرها . أما يوفريد فلم تكن قد بلغت السابعة عشرة . وهاهي هنا الآن ، وقد اختُطفت بالقوة على نحو مخالف للقانون ، بعيداً عن بيتها لتسكن بين أناس غرباء ، وطفل غاوته تحت قلبها . في قلبها لم تنكر كريستين أن يوفريد كانت تبدو أقوى وأشجع بكثير مما كانت هي عليه .

ولكن يوفريد لم تدنس قداسة الدير ولا هي خالفت العهد وعقد الخطبة ، ولم تكذب وتمارس الخداع وتسرق شرف أبويها من وراء ظهرهما . وحتى لو كان هذا الشابان قد مارسا الخطيئة ضد قانون البلاد بسبب طيشهما ، وخالفا الواجب والاحتشام . . . ولكن لم يكن ضميرهما يعذبهما . راحت كريستين تصلي علّ جنون غاوته ينتهي نهاية طيبة . . . كما عزّت نفسها بفكرة أنه من المستحيل أن تكتب العدالة الربانية مصيراً لغاوته ويوفريد أقسى من مصير كريستين وإرلند . . . اللذين تزوجا شرعاً كما ولد طفل الخطيئة خاصتهما ليكون الوارث الشرعي لميراث والديه .

بما أنه لا غاوته ولا يوفريد قد تكلما عن القضية ، فإن كريستين ما كانت لتطرحها أيضاً ، رغم أنها تاقت إلى أن تحادث الفتاة غير المجربة : على يوفريد أن توفر قواها الآن ، وأن تضطجع في الصباح وترتاح من النهوض والتجول في الضيعة . . . فقد لاحظت كريستين أن الفتاة كانت مصممة على النهوض قبل حماتها وأن تعمل أكثر منها . ولكن يوفريد لم تكن الشخص الذي يقبل مساعدة أو شفقة من كريستين . كانت تأخذ على عاتقها بهدوء أثقل الأعباء عنها ، أما بالنسبة للبقية ، كانت تعاملها سواء حين تكونان لوحدهما أو أمام سكان المنزل الآخرين ، وكأنها بالحق الشرعي السيدة الشابة للضيعة .

كانت فريدا غاضبة لأن عليها أن تتخلى عن مكانها قرب السيدة أمام

يوفريد . . . (وهنا استخدمت فريدا كلمة بشعة) وكان ذلك في أحد الأيام بينما هي وكريستين في المطبخ معاً ، وهنا ضربت كريستين الخادمة :

" . . . يالها من كلمات جميلة تخرج من فمك أيتها المرأة العجوز سيئة السمعة المجنونة في جريها خلف الرجال !"

مسحت فريدا الدم عن أنفها وفمها :

"وهل أنتن بنات الرجال العظام ، شأنك وشأن يوفريد هذه ، أفضل من بنات الفلاحين . . . ؟ أنت تعرفين أن فراش الزفاف ذا الشراشف الحريرية سينتظرك بكل تأكيد . . . عليك أن تكوني مجنونة تجري وراء الرجال مجردة من الخجل علاوة على ذلك حين لا تستطيعين الانتظار ، بل تهربين إلى الغابات مع الشبان الصغار وتنجبين أطفالاً على جانب الطريق . . . تعساً لأفعالك !"

"اهدئي الآن . . . اخرجي واغسلي وجهك . . . فأنت تنزفين فوق العجين" ، قالت السيدة بهدوء كاف .

عند الباب تقابلت فريدا ويوفريد . عرفت كريستين من وجه الفتاة أنها قد سمعت لابدّ الكلمات التي قيلت للتو .

"هذه البائسة المسكينة تثرثر كحمقاء . لا أستطيع طردها . . . ليس لها مكان تذهب إليه ." ابتسمت يوفريد بسخرية ، وعند ذاك استأنفت كريستين الكلام : "لقد أرضعت اثنين من أبنائي ."

أجابت يوفريد : "لكنها لم ترضع غاوته . وهي لا تتعب قط من تذكيره وتذكيري بذلك . ألا تستطيعين أن تجدي لها عريساً ؟" سألت بحدة .

لم تستطع كريستين مغالبة الضحك .

"أتظنين أني لم أحاول ؟ ولكن كلما كان الرجل يتبادل الكلام مع العروس المفترضة كان الأمر ينتهي فجأة ."

هل تغتنم الفرصة وتكلم يوفريد الآن . . . تجعلها تفهم أنها لن تتلقى منها

سوى الإرادة الأموية الطيبة؟ ولكن يوفريد بدت شديدة البرودة والغضب . . .

ولكن كان واضحاً الآن أن يوفريد كانت تحمل حياة أخرى في داخلها . في أحد الأيام كانت تنظف الريش لأجل الفرشات الجديدة . نصحتها كريستين بأن تربط شيئاً على شعرها حتى لا يسقط منه شيء في الريش . ربطت يوفريد قماشة كتانية من حول رأسها :

"هذا يلائمني أكثر الآن مما هو الرأس السافر ، على ما أعتقد" ، قالت وهي تضحك قليلاً .

قالت كريستين بعد قليل : "قد يكون ذلك صحيحاً ."

لم تستطع أن تفهم كيف تستطيع يوفريد أن تمزح حول هذا الموضوع وهي على تلك الحال .

بعد أيام خرجت كريستين إلى المطبخ ، فشاهدت يوفريد تقف هناك وهي تنظف طيوراً سوداء تم اصطيادها . . . كان قد سبق للدم وغطى ذراعيها . فجذبتها كريستين جانباً وهي في حالة ذعر :

"يا ابنتي ، لا يجب أن تلمسي الدم الآن . . . ألا تعرفين ذلك حتى . . . ؟"

"أوه ، أتظنين أنه صحيح إذن كل ما تقوله النساء ؟" سألت يوفريد متشككة .

ثم حكت لها كريستين عن علامات النار التي على صدر ناكفه . وقد حكت الحكاية ليوفريد حتى تفهم هذه أنها لم تكن أيضاً متزوجة حين راقبت الكنيسة وهي تحترق .

سألت بصوت خفيض :

"أنت لم تظني بي مثل هذه الظنون ، أليس كذلك ؟"

"أجل ، حكى لي غاوته كل شيء . . . لقد خطبك أبوك إلى سايمون أندرسون ولكنك هربت مع إرلند نيكولاوسون إلى بيت خالته ، وهكذا اضطر لافرانس إلى منح موافقته . . ."

"لم يكن الأمر كذلك . . . لم نهرب من البيت . لقد حررني سايمون ما أن عرف أني أحب إرلند أكثر ، وعند ذلك وافق أبي . . . دون إرادة منه ، ولكنه وضع يدي في يد إرلند . . كنت مخطوبة له لمدة عام . . . أتعتقدين أن هذا أسوأ ؟" سألت إذ كان وجه يوفريد قد تضرج وراحت تنظر إلى الأخرى بفم فاغر .

مسحت الفتاة بعض الدم والألياف عن ذراعها البيضاء بالسكين .

"أجل" ، قالت بصوت خفيض ولكن بثبات . "لم يسبق لي أن رميت بسمعتي وشرفي دون حاجة إلى ذلك . . . أجل ، لن أحكي لغاوته أي شيء عن هذا" ، قالت بسرعة . "إنه يعتقد أن أباه خطفك بالقوة لأنه لم يستطع أن ينال موافقة أبيك على الخطوبة . . . "

ربما كانت على حق ، فكرت كريستين .

●

مع مرور الوقت وبينما راحت كريستين تفكر وتتأمل في المسألة ، بدا لها أنه كان أفضل حل مشرف لغاوته هو أن يرسل مرسالاً إلى هلغه في هوفلاند ، فيضع المسألة تحت تصرفه ويخطب منه يوفريد لتكون زوجته حسب الشروط التي يراها هلغه ملائمة . ولكنها حين كلمت غاوته حول هذا بدا غير مسرور وحاول أن يزيح الأمر جانباً . وأخيراً سأل بحرارة إن كانت أمه قادرة على إرسال الرسالة عبر الجبال في الشتاء ؟ كلا ، ولكن سيرا داغ يستطيع إرسال رسالة إلى "نيس" ، ومن هناك على امتداد الشاطئ كما قالت أمه . فالكهنة يستطيعون دائماً إرسال الرسائل حتى في الشتاء . قال غاوته إن الأمر سيكون مكلفاً جداً .

"إذن فهي لن تكون زوجتك هذه التي ستلد لك طفلاً في الربيع القادم" ، قال أمه غاضبة .

قال غاوته : "لا يمكن على أي حال ترتيب الأمور بكل هذه السرعة ."

لاحظت كريستين أنه كان غاضباً بمرارة .

راح خوف بشع ومعتم يستولي على الأم مع مرور الوقت . لم تستطع سوى أن ترى أن فرحة غاوته الأولى بيوفريد كانت قد ولّت تماماً . لقد بدا كئيباً مزاجياً . منذ البداية كان قضية اغتصاب العروس من قبل غاوته تبدو سيئة جداً . . . ولكن أمه اعتبرت أن الأمر سيكون أسوأ لو بدا أن الرجل كان خائفاً مّما ارتكبه . لو تاب الشابان عن خطيئتهما ، لكان الأمر جيداً وحسناً . . . ولكن كان هناك منظر بشع للمسألة وكأن القضية كانت تتجاوز ذلك الخوف اللارجولي من الرجل الذي أخطأ في حقه وليس بالأحرى ندماً يدل على الورع . غاوته ، هذا الابن الذي كانت تثق به أكثر من كل أخوته . . . لا يمكن للأمر أن يكون صحيحاً ، كما قال الناس ، أي أنه غير أهل للثقة وضعيف أمام النساء ، وأنه قد سبق له وملّ يوفريد ، فقد أضحت عروسه الآن شاحبة وكئيبة ، واقترب الحين الذي سيكون عليه فيه أن يُسأل أمام أسرتها عن فعلته المخالفة للقانون .

لقد عذرت ابنها . . . لو أنها سمحت لنفسها بأن تُضلّل بسهولة ، هي التي لم يكن أمام عينيها في يفاعتها سوى الأساليب الورعة للناس الورعين . . . إلا أن أولادها عرفوا منذ الطفولة أن أمهم قد ارتكبت الخطيئة ، وأن أباهم في شبابه قد رزق بولدين من زوجة رجل آخر ، كما أنه ارتكب الخطيئة مع امرأة متزوجة وهم في سن اليفاعة . أما أولف هالدورسون ، أبوهم بالتربية ولسان فريدا المنفلت . . . أوه ، سيكون أمراً غريباً ألا يكون هؤلاء الشبان ضعفاء أمام مثل هذه الأمور . . . على غاوته أن يتزوج يوفريد لو استطاع أن يكسب موافقة أسرتها . . . وأن يكون شاكراً لذلك . . . ولكن كان أمراً مؤسفاً للفتاة لو كان عليها أن ترى الآن أن غاوته سيتزوجها لأنه مضطر لذلك فحسب وضد إرادته .

●

في إحدى المرات خلال فترة الصوم ، كانت كريستين ويوفريد تجهزان زوادات الطعام للحطابين . كانتا تضربان السمك المجفف حتى يرق وتضغطان الزبدة في علب وتملأان القوارير الخشبية بالجعة والحليب . لاحظت كريستين أن يوفريد كانت

منزعجة لوقوفها هكذا على قدميها طوال الوقت ، ولكن يوفريد غضبت حين طلبت منها كريستين متوسلة أن تجلس وترتاح . ولبثّ السرور فيها قليلاً خطر لكريستين أن تسألها عن حكاية الحصان الذي استطاع غاوته ترويضه كما يقول الناس برباط شعر فتاة بدلاً عن الرسن : "هل كان الرباط لك على الأرجح ؟"

"كلا" ، قالت يوفريد بغضب وقد تضرج وجهها . ثم تغير مزاجها .

"كان يخص آسا أختي" . قالت ضاحكة . "لقد غازلها غاوته أولاً . ولكن حين عدت إلى البيت لم يعد يعرف أياً منا يفضل . ولكنه كان يتطلع إلى أن يجد آسا عند منزل داغرون في الصيف الماضي حين نزل إلى سوغن . وقد غضب حين أغظته فيما يخصها . . . وقد أقسم بالرب وكل الناس أنه لم يكن من النوع شديد الجرأة مع بنات الرجال الصالحين . . . لم يكن هناك أي شيء بين آسا و بينه ، كما قال ، ولكنه يستطيع النوم بين ذراعيّ في تلك الليلة دون خطيئة . وقد وثقت بوعده . . . " ضحكت مرة أخرى . وحين شاهدت وجه كريستين أومأت برأسها بتحد .

"أجل ، أنا التي أردت غاوته زوجاً لي ، وكوني على ثقة يا أمي من أني سأحصل عليه . سأحصل على ما أريد . . . "

•

استيقظت كريستين في عتمة مطبقة . كان البرد قد عضّ وجنتيها وأنفها . . . وحين للمت من حولها الفروات ، أحست أنها كانت مجلدة من أنفاسها . لابد أن الصباح قريب . . . ولكنها راحت ترتجف من فكرة النهوض لتنظر إلى النجوم . تكورت تحت الفروات لتبقى دافئة فترة أطول . وفجأة تذكرت حلمها .

ظنت أنها كانت ممددة في الفراش في القاعة الصغيرة في هوسابي وكانت قد ولدت طفلاً للتو . كان الطفل بين ذراعيها ملفوفاً بفروة حَمَل انزلقت وتمعجت

من حول الجسم الصغير الأحمر الداكن . . . كانت يداه الصغيرتان مطبقتين على وجهها . وكانت ركبتاه مرفوعتين على جسده والقدمان متصالبتين . . . تحرك بين الحين والآخر قليلاً . لم يخطر لها أن تتساءل عن السبب في أن الطفل لم يكن مقمطاً ، وأنه لم تكن هناك أي نساء في الغرفة معهما . كان دفء جسدها هي لا يزال يلف الصبي وهو ممدد هناك إلى القرب منها . وعبر ذراعيها كانت لا تزال تشعر به حتى جذور قلبها كلما تحرك الطفل . كان التعب والألم ثقيلين عليها لا يزالان ، مثل عتمة تبدأ بالتلاشي ، بينما كانت تستلقي وهي تنظر إلى ابنها ، وتشعر بالسعادة والحب له وقد بدأا يتزايدان باستمرار مثل لمعان جليد الفجر على امتداد حافة جبلية . . .

ولكن في الوقت نفسه الذي كانت تتمدد فيه في الفراش ، فقد كانت واقفة في الخارج قرب جدار المنزل . إلى الأسفل كان الريف يمتد أمامها لامعاً تحت شمس الصباح . كان صباحاً باكراً من أحد الأيام التي تقع بين الشتاء والربيع . . . استنشقت الهواء الحاد العذب . . . كانت الريح باردة مثلجة ، ولكن فيها أثر من البحر البعيد والثلج الذائب . كانت الجبال عبر الديل قابعة تحت شمس الصباح مع بقع خالية من الثلج من حول المزارع ، وكان الثلج ذو القشرة يلتمع بلون أبيض فضي في كل المساحات المكشوفة بين الغابات الخضراء الداكنة . بدت السماء وقد اجتيحت مؤخراً بلون أصفر جاف وأزرق فاتح ، مع بعض الغيوم القليلة التي تدفعها الريح تسبح فوقها . . . ولكن كان الجو بارداً . حيث كانت تقف كان الثلج المتكوم قاسياً كالصخر لا يزال من جليد الليل ، وبين المنازل كان يقبع ظلّ بارد ، فقد وقفت الشمس فوق السلسلة الجبلية الشرقية خلف الضيعة . وأمامها بالضبط حيث كانت الظلال تنتهي ، فإن الريح الصباحية كانت تحرك عشب العام الماضي الشاحب اللون . كان يهتز ويلتمع ، رغم أن أكوام الجليد اللامع كالفولاذ كانت لا تزال تتشبث بجذوره .

آه ! . . . آه ! انفجرت الآهة من صدرها رغماً عنها . كان لافرانس لا يزال معها . . . سمعت تنفس الصبي المنتظم من السرير الآخر . أما غاوته . . . فقد كان نائماً هناك في العلية ، مع حبيبته . تنهدت الأم ثانية ، وتحركت بقلق ، وانتقل كلب إرلند العجوز فوق غطاء السرير ليقترب من ساقيها اللتين رفعتهما إلى أعلى .

وقد سمعت الآن يوفريد تمشي في العلية ، وتذرعها جيئة وذهاباً . زحفت كريستين بسرعة من السرير وأقحمت قدميها في حذائها الفرو الأشعث ، ورمت فوق جسمها ثوبها الصوفي ومعطفها الفرو . في العتمة تلمست طريقها نحو المدفأة ، أقعت ونفخت على الرماد وقلّبته . ولكن لم تومض شرارة واحدة . . . فقد انطفأ الجمر كله خلال الليل .

سحبت حجر الصوان والفولاذ من جيب حزامها ، ولكن لاشك أن الصوفان قد ترطب . . . كان متجمداً . وأخيراً تخلت عن محاولتها وأخذت المقلاة وصعدت لتستعير حجراً متقداً من يوفريد .

كانت نار جيدة متقدة في المدفأة الصغيرة في العلية ، وترمي بنورها في الغرفة . في النور المتراقص كانت يوفريد جالسة وهي تثبت الحلية النحاسية فوق معطف غاوته المصنوع من جلد الرنة . في النور استطاعت أن تميز في السرير صدر وكتفي رجل عارٍ . . . كان غاوته ينام دون قميص في هذا البرد القارس . كان جالساً وقد راح يتناول إفطاره في السرير .

نهضت يوفريد بثقل ووقار . . . هل تريد الأم جرعة من الجعة ؟ لقد دفأت شراب غاوته الصباحي . وعلى الأم أن تأخذ هذه الصفيحة إلى لافرانس . . . كان سيصحب غاوته إلى التحطيب اليوم . سيكون الجو بارداً على الجبال .

بوّزت كريستين شفتيها في نوع من الكره وهي واقفة في غرفتها تشعل النار . انشغال يوفريد في الأعمال المنزلية ، وغاوته مستلق هناك وامرأته تخدمه . . . الاهتمام الحريص من قبل الحبيبة بابن حميها وهي ليست الزوجة الشرعية

بعد . . . لقد بدا لها كل شيء على أنه غير محتشم ومثير للاشمئزاز . . .

بقي لافرانس في الغابة ، ولكن غاوته عاد عند وجبة المساء متعباً وجائعاً . لذلك جلست المرأتان قليلاً بعد أن خرج الخدم ، لتكونا في رفقة السيد وهو يتناول الشراب .

لاحظت كريستين أن يوفريد لم تكن على ما يرام هذا المساء . وفجأة تركت الفتاة خياطتها تسقط في حضنها ، وعبرت وخزات ألم وجهها .

"هل تعانين من آلام يا يوفريد ؟" سألت كريستين بصوت خفيض .

"أوه ، أجل ، قليلاً . . . في القدمين والساقين" أجابت الفتاة . كانت قد عملت طوال النهار حسب عادتها . . . وكانت ترفض أن تريح نفسها . والآن هاهي تعاني من ألم موضعي ، وكانت ساقاها متورمتين .

وفجأة بدأت دموع صغيرة تنزل من تحت أهدابها . لم تكن كريستين قد شاهدت امرأة تبكي على هذا النحو الغريب . . . جلست هناك دون صوت وقد كزّت على أسنانها . ثم تدحرجت دموع مستديرة لامعة . . . بدت لكريستين وكأنها صلبة كاللؤلؤ . . . فوق وجهها المتسخ المبقع ببقع بنية . بدت غاضبة لأنها اضطرت إلى الاستسلام . . . ثم تركت كريستين تساعدها على الذهاب إلى سريرها دون إرادة منها .

لحق غاوته بهما :

"هل تعانين من ألم يا يوفريد ؟" سألها بأسلوب حزين . كان وجهه أحمر من البرد وبدا بائساً بينما جهزت أمه السرير ليوفريد ، فخلعت عنها حذاءها وجواربها ، وبدأت تعالج القدمين والساقين من الورم . "هل تعانين من الألم يا يوفريد ؟" تابع السؤال .

قالت يوفريد بصوت خفيض وغضب مكتوم : "أجل . لو لم أكن كذلك هل كنت أبكي على هذا الشكل؟"

بدأ مجدداً : "هل تشعرين بالألم يا يوفريد ؟"

"لاشك أنك تستطيع ملاحظة ذلك . . . لا تقف هناك فاغر الفم كطفل ساذج يا ولد !" التفتت كريستين إلى ابنها وعيناها تومضان . اللفة البليدة في عقلها . . . الخشية مما قد يأتي من ذلك كله ، ونفاد الصبر من معاناة الشابين الصغيرين من حياة لا شرعية هنا في الضيعة ، والشكوك الناهشة في رجولة ابنها . كلها انفجرت في غضب عنيف : "هل أنت أحمق إلى حد أنك تعتبر أنها يمكن أن تكون في صحة جيدة مثلاً ؟ . . . إنها ترى أنك لست رجلاً بما فيه الكفاية لتجرؤ على عبور الجبال لأن الريح تهب وهناك ثلج يهطل . . . أنت تعرف جيداً أنها سرعان ما ستركع على ركبتيها (في المخاض) ، هذه الفتاة المسكينة ، وسوف تتلوى ألماً في أسوأ لحظاتها . . . وطفلها سيدعى بابن الزنا لأنك لا تجرؤ على مواجهة أبيها . . . هاأنت تجلس لتدفئ المقعد في القاعة ولا تجرؤ حتى على رفع إصبع واحد لحماية زوجتك وطفلك الذي سيأتيك . . . لم يكن أبوك خائفاً إلى هذا الحد من أبي حتى أنه لم يجرؤ على مخاطبته ، كما لم يكن يخشى البرد حتى أنه لا يجرؤ على السفر بالمزالج عبر الجبال في الشتاء . عار عليك يا غاوته . . . وعار عليّ أنا التي عليها أن تعيش وتنادي بالجبان أحد الأبناء الذين رزقت بهم من إرلند !"

تناول غاوته الكرسي بكلتا يديه ورمى به إلى الأرض ، ثم عدا نحو المائدة ورمى كل ما كان فوقها . ثم اندفع خارجاً من الباب مع رفسة وداع للكرسي . . . وقد سمعتاه وهو يعدو ويشتم فوق درج العلية .

"كلا يا أمي . . . لقد أفرطت في قسوتك على غاوته . . . " رفعت يوفريد نفسها على مرفقها . "لا يمكنك أن تتوقعي منه بشكل عقلاني أن يخاطر بحياته فوق الجبال في الشتاء . . . ليجد أبي وليقال له إن عليه أن يتزوج عروسه التي أسيء إلى شرفها . أو أن يهرب من البلاد كخارج عن القانون . . . "

كانت موجات الغضب لا زالت عاتية في قلب كريستين . أجابت باعتزاز :

"ومع ذلك فأنا لا أصدّق إلا بالكاد أن ابني يستطيع أن يفكر على هذا النحو !"

قالت يوفريد : "كلا . . . لولا أني لديه لأفكر عنه . . . " وحين رأت وجه كريستين ، تابعت بصوت ضاحك .

"أمي العزيزة . . . لقد قاتلت بضراوة حتى منعت غاوته عن الرحيل . . . لن أجعله يرتكب المزيد من الحماقات لأجلي ، وأن أحرم أولادي من الثروة التي سأرثها من أسرتي ، لو أن غاوته استطاع الوصول إلى اتفاق معها على أفضل نحو مشرف لنا جميعاً . . . "

سألت كريستين : "ما الذي تعنينه بهذا ؟"

"أعني أنه لو أن أهلي جاءوا يفتشون عن غاوته ، فإن السير سيغورد سيقابلهم على نحو يجعلهم يرون معه أن غاوته لا يفتقر إلى أقرباء يدعمونه . سيضطر إلى تقديم التعويضات ، ولكنه سيكون على أبي لاحقاً أن يزوجني من غاوته حتى يعود لي مجدداً حق مشاركة أخواتي في ميراثه . . . "

سألت كريستن : "إذن فأنت نفسك ستكونين ملومة أيضاً حين سيصل طفلك إلى هذه الدنيا وأنتما غير متزوجين بعد ؟"

"بما أني استطعت أن أهرب من البيت مع غاوته ، عجباً . . . لن يصدق أحد الآن على ما أعتقد أنه قد وضع سيفاً مجرداً بيننا في سرير الليل . . . "

سألت كريستين : "ألم يخطبك من أهلك قط ؟"

"كلا . كنا نعرف أن هذا سيكون عبثاً ، حتى لو كان غاوته رجلاً أغنى بكثير مما هو ." عادت يوفريد لتضحك مجدداً . "ألا ترين يا أمي أن أبي يعتبر نفسه أحكم من كل الرجال في المقايضة على حصان . ولكن سيتطلب الأمر رجلاً أكثر يقظة من أبي حتى يغلب غاوته إرلندسون في تبادل للأحصنة . . . "

لم تستطع كريستين أن تغالب الابتسام . . . رغم أنها لم تكن سعيدة في قلبها .

"لا أعرف القانون المتعلق بهذه المسائل" ، قالت بجدية ، "ولكني أشك كثيراً يا يوفريد ، لن يكون على غاوته إلى يصل مثل هذا الاتفاق الذي تسمينه جيداً . وإذا ما اعتبر غاوته خارجاً على القانون . . . واصطحبك أبوك معه إلى المنزل ، وجعلك تستشعرين غضبه . . . أو إذا طلب منك دخول دير للتكفير عن ذنوبك . . . "

"لا يستطيع أن يرسلني إلى الدير دون أن يقدم هدايا ثمينة ترافقني بحيث ستكون بالنسبة إليه صفقة أبخس وأكثر جدارة بالاحترام أن يعقد اتفاقاً مع غاوته ويأخذ منه تعويضاً . ألا ترين أنه يستطيع أن يزوّجني دون حاجة إلى أن يقدم أي متاع أو بضاعة . كما أعتقد ، أنه رغم كل الحب الذي يكنّه لأولاف زوج أختي ، إلا أنه سيكون كارهاً لعدم مشاركتي لأخواتي في الميراث . وعلى على ذلك ، فإن أسرتي ستضطر إلى العناية بطفلي أيضاً . وأعتقد أن أبي سيفكر مرتين قبل أن يحاول أن يأخذني إلى بيته في هوفلاند مع طفل غير شرعي . . . أن يجعلني أحسّ بغضبه . . . إنه يعرفني . . .

" . . . لا أعرف كثيراً بالقانون أنا أيضاً ، ولكني أعرف أبي وأعرف غاوته . وأعرف أن الكثير من الوقت قد انقضى ، وأن هذه المسألة لا يمكن إلا بالكاد أن تستمر قبل أن أكون قد تخففت من عبئي وعدت إلى صحتي مجدداً ، وعندها يا أمي لن تريني أبكي ! أوه ، كلا ، أنا واثقة أن غاوته سيربح مثل هذا الاتفاق مثل . . .

"كلا يا أمي . . . غاوته سليل نبلاء وملوك . . . وأنت قريبة أكبر الأسر في البلد . . . ولو حدث واضطررت إلى تحمل مشاهدة أبنائك وهم ينحدرون عن

المنزلة التي كانت حقهم بالمولد ، ومع ذلك فأنت سترين نسلك وهو يصعد عالياً في هذا العالم مجدداً من خلال أولاد غاوته وأولادي . . . "

جلست كريستين صامتة . لم يكن أمراً غير محتمـــل أن تمضـــي الأمور كما تمنت يوفريد . . . لقد لاحظت أنها لم تكن في حاجة إلى الحزن الكثـير على الفتاة . لقد أضحت نحيلة الآن . . . وأضحت الاستدارة الطرية لوجنتيها متهدلة ، وكان ممكناً أن يرى المرء بوضوح كم كان فمها السفلي كبيراً وقـوياً .

تثاءبت يوفريد ، جلست بصعوبة ونظرت فيما حولها باحثة عن حذائها . ساعدتها كريستين على ارتدائه . شكرتها يوفريد :

"لا تعودي إلى إثارة غضب غاوته بعد الآن . إنه لا يأخذ الأمور باستخفاف لأننا لا نستطيع الزواج قبل أن . . . ولكنني لن أجعل طفلي يصبح فقيراً حتى قبل أن يولد . . . "

●

بعد أربعة عشر يوماً ، ولدت يوفريد صبياً كبير الحجم وجميلاً . أرسل غاوته رسالة إلى سوندبو في اليوم نفسه . ووصل السير سيغورد فوراً إلى يوروندغارد وحمل إرلند غاوتسون عند تعميده . ولكن رغم سعادة كريستين لافرانسداتر بحفيدها ، إلاّ أنه كان يغيظها على أي حال أن يمنح اسم إرلند للمرة الأولى إلى طفل غير شرعي .

"كان أبوك أكثر جرأة على أن يكسب لابنه حقوقه" ، قالت هي لغاوته في إحدى الأمسيات ، وهو جالس هناك في مبنى الحياكة وهو يراقبها تحضّر الطفل لليل . كانت يوفريد تنام بعذوبة في السرير قرب الجدار . "لم يكن يحب السير نيكولاوس العجوز كثيراً ، ومع ذلك فهو ما كان سيكرم أباه على هذا النحو فيمنح اسمه إلى ابن غير شرعي ."

"كلا . . . أورم . . . سمي باسم جده لأمه ، أليس كذلك ؟" سألها غاوته .

"أجل ، أجل يا أمي ، ربما لا يكون هذا كلاماً ملائماً يصدر عن ابن . ولكني أعتقد أنك تستطيعين أن تفهمي أننا نحن الأخوة لاحظنا جيداً خلال حياة أبينا أنك لم تكوني تعتبرين أنه كان النموذج الأمثل لنا في كل الأمور . . . ولكنك تتحدثين عنه الآن على الدوام وكأنه كان قديساً . . . تقريباً . أنت تعرفين جيداً أننا نعرف أنه لم يكن كذلك . سنكون كلنا فخورين لو استطعنا الوصول نحن الأبناء إلى قامة أبينا . . . أجل بل إلى كتفه حتى . . . ونحن نتذكر دائماً أنه كان زعيماً ورجلاً يفوق كلِ الرجال في الخصال التي تزين الرجال . . . ولكنك لا تستطيعين أن تجعلنا نصدق أنه كان أكثر العشاق تواضعاً وفضيلة في سرير سيدة أو أشجع المزارعين . . .

"ولكن لا حاجة بأحد إلى أن يتمنى لك يا ابني المسمى إرلند أكثر من أن تنمو لتصبح شبيهاً به !" امسك بالطفل الذي كان ملفوفاً الآن استعداداً لليل وأقحم ذقنه فوق الوجه الأحمر الصغير في القماط الصوفي اللامع : "أنت أيها الصبي الموهوب المليء بالأمل ، إرلند غاوتسون أوف يوروندغارد ، قل لجدتك إنك لست خائفاً من أن يتخلى عنك أبوك . . . " رسم إشارة الصليب فوق الطفل وأعاده إلى حضن كريستين ثم ذهب إلى السرير وحدق إلى الأم الشابة الهاجعة :

"حالة يوفريد جيدة ، أليس كذلك ؟ تبدو شاحبة ولكني أعتقد أنك تفهمين في مثل هذه الأمور أفضل من الجميع . . . سلام الرب ونوم عميق لكل سكان هذا البيت !"

•

بعد شهر من مولد الصبي أقام غاوته وليمة عماد كبيرة ، وقد تجمع أقرباؤه من البعيد والقريب . خمنت كريستين أنه قد استدعاهم إلى هنا للتشاور معهم حول هذا الأمر . . . كان الفصل ربيعاً الآن ، وسرعان ما سيتطلع إلى أن يسمع أنباء من أسرة يوفريد .

سرّت كريستين لمشاهدة إيفار وسكوله في البيت معاً . كما وصل أولاد أخوالها : سيغورد كيرنينغ الذي كان قد تزوج من ابنة عمها من سكوغ ، وإيفار غييسلينغ أوف رينغهايم وهافارد تروندسون . لم تكن قد شاهدت آل تروندسون منذ أن ورّط إرلند رجال سوندبو في مغامرته المشؤومة . كانوا في أواسط العمر الآن : وكانوا دائماً متهورين طائشين ، إنما من أصحاب المبادئ السامية والشهامة . ولم يكونوا قد تغيروا كثيراً . . . وقد قابلوا أولاد إرلند وابن عمتهم السير سيغورد الذي حل محلهم في سوندبو بكل الود الذي يليق بالأقرباء . وقد جرت الجعة والميد أنهاراً على شرف إرلند الصغير . قدم غاوته ويوفريد إلى ضيوفهم ترحيباً حراً خالياً من الخجل وكأنهما متزوجان شرعياً وبارك الملك زواجهما بنفسه . . . عمّ المرح ولم يبد أن هناك من استذكر أن شرف ومصلحة الشابين الصغيرين كانا لا يزالان معرضين للخطر . ولكن كريستين علمت أن يوفريد لم تنس ذلك . قالت :

"كلما كانت مقابلتهم مع أبي أكثر حرية وجرأة كلما سهل إقناعه . كما أن أولاف بايبر لم يستطع أن يخفي أنه يحب كثيراً الجلوس على المقعد نفسه مع رجال من الأسر القديمة ."

والشخص الوحيد الذي لم يبد عليه أنه سعيد تماماً في هذا الاجتماع للأقارب كان السير يامالت هالفاردسون . كان الملك ماغنوس قد رسمه فارساً في عيد الميلاد الأخير . لقد أصبحت رامبورغ لافرانسداتر تحمل لقب ليدي الآن .

في هذه المرة كان السير يامالت قد اصطحب معه أكبر ابني زوجته أندرس سايمونسون معه . كانت كريستين قد رجته أن يحضره معه حين زار يامالت الشمال آخر مرة ، فقد كانت قد سمعت كلمة عارضة عن أن الصبي غريب الأطوار . وقد حلّ خوف كبير فيها . . . هل حدث أن الصبي قد تأذى روحاً وجسداً من تلك المعالجات السحرية التي مارستها عليه وهو طفل ؟ ولكن زوج أمه قال لا ، فالصبي سليم وقوي وصحيح كالذهب . . . وربما كانت قدراته العقلية

أفضل من غيره . . . إلا أنه كان يبصر رؤى : كان يبدو مذهولاً أحياناً ، ويقوم لاحقاً بأغرب الأشياء . . . كما حدث في العام الماضي . لقد أخذ ملعقته الفضية ذات يوم . . . كانت تلك التي أهدته إياها كريستين عند ولادته . . . وكذلك دبوس قميص خلّفه له والده . . . ثم خرج من الضيعة ونزل إلى جسر فوق نهر على الطريق العام قرب آيلين . وهناك جلس ينتظر ساعات كثيرة . . . وأخيراً وصل إلى الجسر ثلاثة شحاذين ، رجل عجوز وامرأة شابة مع طفل رضيع . ذهب اندرس إليهم وأعطاهم الملعقة والدبوس ، وتوسل أن يحمل الطفل عن المرأة . في البيت كانوا في حالة ذعر شديد ، حين لم يعد أندرس عند موعد الغذاء ولا حتى العشاء . . . خرجوا وراحوا يبحثون عنه في الريف ، وأخيراً علم يامالت أن أندرس قد شوهد في مكان بعيد شمالاً في الأبرشية المجاورة في صحبة شخصين يسميان كريب وكراكا . كان يحمل لهما طفلهما . وحين وجد يامالت الفتى في اليوم التالي أخيراً ، قال بعد الكثير من الأسئلة إنه سمع صوتاً يوم الأحد الماضي خلال القداس بينما كان واقفاً ينظر إلى الصورة المرسومة على اللوح الزجاجي أمام المذبح . كانت صورة أم الرب والقديس يوسف وهما مسافران مع الطفل إلى أرض مصر ، وقد تمنى لو كان يعيش في تلك الأيام ، لأنه كان سيطلب الإذن ليسافر معهم ويحمل الطفل نيابة عن مريم العذراء . ثم سمع صوتاً ، كان ألطف وأعذب صوت في كل العالم ، وقد وعده الصوت بأنه سيريه إشارة لو ذهب إلى جسر بييركهايم في يوم محدد .

كان أندرس يكره الحديث عن رؤاه عادة . . . فقد قال كاهن أبرشيتهم إنها ربما كانت جزئياً تظاهراً وجزئياً هلوسات عقل مريض . وقد أخاف أمه حتى كادت تجنّ بأساليبه الغريبة . إلا أنه كان يحادث كثيراً خادمة عجوزاً كانت ورعة جداً ولها أخ واعظ كان من عادته التجول عبر الأبرشية في أيام الصوم والقدوم . يبدو محتملاً أن الصبي سيختار الحياة الروحية . . . ربما سيكون سايمون سايمونسون هو

الذي سيستقر- حين يحين الأوان - كسيد لفورمو . كان طفلاً معافى وحيوياً يشبه أباه كثيراً ، وكان المدلّل لدى رامبورغ .

لم تكن رامبورغ وياما لت قد رزقا بأولاد بعد زواجهما . وقد سمعت كريستين من بعض الناس الذين رأوها في راومريكه أن رامبورغ أضحت شديدة البدانة والكسل . كانت تذهب لزيارة الناس الأغنى والأقوى في المنطقة الجنوبية ، ولكنها لا تذهب شمالاً إلى موطنها الأصلي ، ولم تكن كريستين قد شاهدت أختها الوحيدة منذ أن افترقتا في فورمو . ولكن كريستين اعتبرت أنها تستطيع أن تلاحظ أن رامبورغ كانت لا تزال تحمل لها الضغينة القديمة . كانت سعيدة في حياتها مع ياما لت وكان يرعى مصالح أولاد زوجته بحب وحرص . وقد رتب الأمور بحيث أن أكبر أبناء الرجل الذي سيكون وريثه الرئيسي لو مات دون أن يرزق بأطفال سيتزوج من أولفهيلد سايمونسداتر . وهكذا ، في أسوأ الأحوال ، فإن ابنة سايمون دار ستنتفع من إرثه من بعده . كانت آرنغييرد قد تزوجت من غرونده أوف آيكن في السنة تلت وفاة أبيها . وقد قدم لها غيرد دار وياما لت الحصة التي كان سايمون يريد لابنته هذه أن تنالها ، وكانت سعيدة كما قال ياما لت . . . وقد ترك غرونده لزوجته الحرية في أن تدير كل الأمور ، وقد سبق لهما ورزقا بثلاثة أولاد وسيمين .

تأثرت كريستين إلى حد غريب حين رأت أكبر ابني رامبورغ وسايمون مرة أخرى . كان الشبه الحي فعلاً للافرانس بيورغولفسون . . . أكثر من غاوته حتى . وفي هذه السنوات الأخيرة كان على كريستين أن تتخلى عن اعتقادها في أن غاوته كان يشبه أباها كثيراً من الناحية الذهنية .

كان أندرس دار في الثانية عشرة من عمره الآن ، طويلاً ورشيقاً ، أشقر الشعر ووسيماً ، وهادئ السلوك نوعاً ما . ورغم أنه كان يبدو معافى وسعيد المزاج ، وله جسم قوي ، ومعدة قوية ، إلا أنه كان يرفض أكل اللحم . وكان هنالك شيء ما يميزه

عن بقية الأولاد ، ولكن كريستين لم تستطع أن تحدد ما هو ، رغم أنها راقبته عن كثب . وسرعان ما أصبح أندرس على علاقة طيبة مع خالته ، ولكنه لم يحك لها أياً من رؤاه ، كما لم تنتبه إلى أي حالات ذهول خلال وجوده في "سيل" .

•

بدا على أولاد إرلند الأربعة أنهم كانوا سعداء لاجتماعهم في ضيعة أمهم ، ولكن كريستين لم تستطع أن تحادث أبناءها إلا قليلاً . وحين كانوا يتبادلون الحديث فيما بينهم ، أحست أن حياتهم واهتماماتهم أصبحت تنزلق الآن بعيداً عن مرمى بصرها : فالاثنان اللذان قدما من الخارج قد سبق لهما وافترقا عن بيتهما ، والاثنان اللذان يسكنان في الضيعة سرعان ما سوف يأخذان منها السيطرة عليها . وقد حدث الاجتماع في منتصف القحط الربيعي . وقد لاحظت الآن أن غاوته كان لابد قد استعدّ له وذلك بتوفير العلف في الشتاء أكثر ممّا هو معتاد ، وكان قد اقترض علفاً من السير سيغورد أيضاً . . . ولكنه رتب كل هذه الأمور دون أن يشاورها . وكان كل الكلام حول قضية غاوته الغرامية قد استمر رغماً عنها حتى لو كانت جالسة في الغرفة مع الرجال .

لذلك لم يكن أمراً عجيباً لها حين دخل إيفار ذات يوم وقال إن لافرانس سيصحبه حين يعود إلى روغنهايم .

وعلى أي حال فإن إيفار إرلندسون قال لأمه إنه يعتبر أن على أمه أن تأتي إلى روغنهايم بعد أن يتزوج غاوته :

"ستكون سيغنه كنّة ممتازة لو سكنت معها على ما أعتقد . . . ولن يكون سهلاً عليك هنا أن تتخلى عن مقاليد الأمور ، حيث اعتدت أن تكوني أنت المسيطرة ." أما بالنسبة إلى البقية فقد كان واضحاً أنه أحب يوفريد ، هو وكل الرجال الآخرين . أما السير يامالت فهو الوحيد الذي بدا عليه أنه ينظر إليها ببرود نوعاً ما .

جلست كريستين مع حفيدها الصغير في حضنها وفكرت أن الأمر لن يكون سهلاً عليها لا في هذا المكان ولا في المكان الآخر . كانت مسألة قاسية عليها أن تتقدم في العمر . حتى وقت قريب بدا لها أنها هي نفسها امرأة شابة . . . وكان الرجال يتخاصمون حول مصيرها . والآن أصبحت هي في مكان معزول في المؤخرة . ومنذ زمن ليس بالبعيد كان أبناؤها مثل هذا الطفل الرضيع هنا . فكرت بحلمها بالطفل المولود حديثاً . . . وفي هذه المرة كانت تفكر بأمها . . . أمها التي لا تستطيع هي أن تتذكرها سوى كامرأة متقدمة في العمر مثقلة القلب . ومع ذلك فقد كانت شابة ذات مرة ، هي أيضاً ، حين كانت تضطجع وتدفئ طفلتها بدفء جسدها . كانت أمها أيضاً قد تميزت في شبابها بحمل وإرضاع الأطفال . وربما كانت قد فكرت مثل كريستين ، حين كانت تجلس والحياة الصغيرة العذبة على ثديها ، أنه طالما كانا حيّين هما الاثنان فإن كل يوم سيؤدي إلى إبعاد الطفل أكثر فأكثر عن ذراعيها .

"حين ستلدين أنت بنفسك طفلاً يا كريستين ، أعتقد أنك ستفهمين" ، كانت أمها قد قالت لها ذلك ذات مرة . والآن فهمت أن قلب أمها كان مملوءاً بعمق بذكريات ابنتها ، وذكريات الأفكار التي دارت حول طفلتها من قبل أن تولد وفي كل السنوات التي لا يتذكر منها الطفل شيئاً ، ذكريات الخوف والأمل والأحلام التي لا يعلم الأطفال قط أن الأم حلمت بها ، حتى يأتيهم أوان الخوف والأمل والحلم في السر . . .

•

وأخيراً انفرط اجتماع الأقرباء ، فقد ذهب البعض مع يامالت إلى فورمو ، والبعض الآخر مع سيغورد إلى فاغا . ولكن حدث أخيراً أن وصل اثنان من مستأجري الأراضي لدى غاوته من جنوب "الديل" ، مسرعين على جواديهما ، وصلا إلى الضيعة حاملين النبأ : كان حاكم المقاطعة متجهاً شمالاً قاصداً غاوته

في بيته وكان في موكبه والد الفتاة وأقرباؤها . أسرع لافرانس الشاب إلى الإسطبل فوراً . . . في المساء التالي بدا وكأن جيشاً كان قد تجمع في يورونداغارد ! كل أقرباء غاوته كانوا هناك مع أتباعهم المسلّحين ، وأصدقاؤه في الأبرشية قد وصلوا إلى الاجتماع أيضاً .

ثم وصل هلغه أوف هوفلاند مع أتباع كثيرين ليطالب الذي اختطف ابنته بحقوقه . لمحت كريستين هلغه دوك وهو يدخل الباحة على جواده مع السير بال سوركفسون حاكم المقاطعة نفسه . كان والد يوفريد رجلاً كهلاً طويل القامة ذا ظهر مقوس يبدو عليه المرض . . . وحين ترجل عن حصانه تبين أن إحدى ساقيه كانت أقصر من الأخرى . كان زوج أخت يوفريد المسمى "أولاف بايبر" قصير القامة بديناً أحمر البشرة والشعر .

صعد الرجال إلى العلية وذهبت المرأتان إلى مبنى الحياكة . لم تستطيعا الكلام . جلست كريستن قرب المدفأة وراحت يوفريد تذرع أرض الغرفة حاملة طفلها بين ذراعيها . مضى بعض الوقت على هذا المنوال . . . ثم غطت يوفريدا الصبي وخرجت به . بعد ساعة دخل يامالات هالفاردسون إلى أخت زوجته وهي جالسة هناك لوحدها وحكى لها عن النتيجة .

لقد عرض غاوته على هلغه دوك ستة عشر ماركاً من الذهب كتعويض عن شرف يوفريد وخطفها بالقوة . . . وكان هذا هو المبلغ نفسه الذي ناله أخو هلغه لأجل حياة ابنه . وكان مستعداً للزواج من يوفريد على يدي أبيها مع إهدائها هدية صباحية ملائمة وهدية إضافية . ولكن هلغه بدوره يجب أن يمنحه هو وابنته الغفران الكامل ، حتى تستطيع أن تنال حصة مشابهة لحصص أخواتها وأن تشاركهم في الميراث . وقد وقف السير سيغورد نيابة عن أسرة غاوته ليضمن بأن غاوته سيلتزم بعهده . بدا هلغه دوك راغباً في قبول العرض مباشرة ، ولكن صهره أولاف بايبر وكذلك نيريد كارسون الذي هو خطيب آسا ، تكلما ليعارضا هذا

العرض ، وقالا إن غاوته يجب أن يكون أكثر الرجال وقاحة حتى يفترض أنه يستطيع أن يفرض الشروط بنفسه لأجل زفافه من فتاة لوث شرفها حين كانت في ضيعة زوج أختها ، وبعد ذلك أن يختطفها بالقوة . . . ثم يطالب بأن تشارك في ميراث أخواتها . . .

قال يامالت إنه كان من السهل أن نرى أن غاوته نفسه لم يكن يحب كثيراً هذه المساومة على السعر الذي عليه أن يدفعه ليتزوج فتاة من عائلة محترمة قام هو بتضليلها وولدت له ابناً . ولكن كان من السهل أن نلاحظ أيضاً أنه قد تعلم الدروس والموعظة عن ظهر قلب ، حتى أنه لم يكن في حاجة إلى قراءتها من كتاب .

وبينما كانوا في خضم النقاش وكان الأصدقاء من الجانبين يحاولون الوصول إلى اتفاق ، دخلت يوفريد والطفل بين ذراعيها . عند ذلك انهار أبوها ولم يستطع كبح دموعه . لذلك تمت تسوية الأمر حسب رغباتها .

كان واضحاً أن غاوته ما كان قادراً على دفع مثل ذلك التعويض أبداً ، ولكن حصة يوفريد قد حددت بحيث يخالص الواحد الآخر . وهكذا فإن نتيجة الصفقة كانت أن غاوته سيأخذ يوفريد وسيأخذ معها أكثر مما كان في جعبتها يوم وصلت إلى الضيعة ، بينما سيعطيها لقاء هدية الصباحية والهدية الإضافية معظم ما كان يملكه ، وقد وافق أخوته على ذلك . ولكن في يوم من الأيام ستصل ثروة عظيمة إلى يديه عبر يوفريد . . . لو كان الزواج دون أطفال ، كما قال إيفار غييسلينغ ضاحكاً . . . وقد ضحك كل الرجال معه . إلا أن كريستين أحمر وجهها فقد جلس يامالت يصغي إلى كل النكات الخشنة التي كانت تتناثر الآن .

في اليوم التالي تزوج غاوته إرلندسون من يوفريد هلغسداتر ، وجرت المراسم في الكنيسة بكل الطقوس المعتادة وكأن شيئاً لم يكن . . . وقال سيرا داغ إنه

اصبح لها الحق في ذلك الآن . ثم سافرت مع الطفل إلى سوندبو وسكنت في منزل السير سيغورد حتى يوم الزفاف .

بعد شهر من ذلك اليوم ، وبعد قداس جون (٢٤ حزيران / يونيو) أقيم حفل الزفاف وكان رائعاً وفخماً . وفي صباح اليوم التالي وبوقار شديد سلمت كريستين لافرانسداتر مفاتيحها إلى ابنها وقام غاوته بتثبيت رزمة المفاتيح في زنار زوجته .

بعد ذلك أقام السير سيغورد إلديارن وليمة كبرى في سوندبو ، وأقسم هو وأولاد أخواله ، المالكون السابقون لسوندبو على الصداقة وأكدوا اليمين بتواقيعهم وأختامهم . وبيد كريمة قدم السير سيغورد الهدايا من الكنوز التي كانت في ضيعته ، إلى آل غييسلينغ وإلى كل الضيوف حسب درجة القرابة والصداقة . . . من قرون الشراب إلى أطباق المائدة والحليّ والأسلحة وأثواب الفرو والجياد . وهكذا اعتبر الناس جميعاً أن غاوته إرلندسون قد أوصل قضية اختطافه للعروس تلك إلى نهاية مشرفة جداً .

-٤-

في صباح أحد أيام الصيف من العام اللاحق كانت كريستين جالسة في المشرقة أمام مبنى الموقد القديم ، لترتّب العدة في الصناديق التي كانت هناك . وصل إلى مسامعها ضجيج جياد تقاد إلى الخارج ، فمضت ونظرت من بين الأعمدة الصغيرة للمشرقة . كان أحد خدم المنزل يقود جوادين وخرج غاوته من باب الإسطبل . كان الطفل إرلند جالساً فوق كتفي أبيه وكان وجهه الصغير اللامع يطلّ من فوق شعر الرجل الأشقر ، وكان غاوته يمسك بيدي الطفل الصغيرتين في يديه السمراوين الكبيرتين تحت ذقنه . سلّم الطفل إلى خادمة عبرت الباحة وامتطى حصانه . ولكن حين زعق إرلند ومدّ يديه إلى أبيه ، أخذه غاوته مجدداً ووضعه فوق قوس السرج أمامه . في تلك اللحظة وصلت يوفريد من القاعة .

"هل ستأخذ إرلند معك . . . إلى أين أنت ذاهب ؟"

أجاب غاوته بأنه كان ذاهباً إلى الطاحونة . . . فقد كان النهر على وشك أن يجرفها بعيداً . . . "كما يريد إرلند أن يذهب مع أبيه حسب ما يقول" .

"هل جننت ؟" أمسكت بالصبي بسرعة وضمته بين ذراعيها وضحك

غاوته بصوت مرتفع :

"وهل صدقت فعلاً أني كنت أنوي اصطحابه معي !؟"

"أجل . . . " ضحكت زوجته أيضاً : "أنت تجرجر الطفل المسكين معك إلى كل مكان تذهب إليه . . . وأعتقد جيداً أنك ستفعل كما فعل الوشق . . . يأكل صغاره قبل أن يدع غيره يأكلها . . . "

لوّحت بإحدى يدي الطفل إلى غاوته وهو يغادر الضيعة . ثم أجلست الطفل على المرج وتطأطأت من فوقه لحظة ، وحادثته قليلاً ، ثم ركضت نحو المستودع الجديد ثم إلى العلية .

وقفت كريستين هادئة وهي تراقب حفيدها . . . كانت شمس الصباح تلتمع جميلة جداً فوق الطفل الصغير في ملابسه الحمراء . راح إرلند الصغير يدور في حلقات وهو يحدق إلى العشب . ثم أدرك وجود كومة من كسرات الحصى فانطلق يلعب بها ويدفع بها بألم . ضحكت كريستين .

كان عمره خمسة عشر شهراً ، ولكنه كان متقدماً على عمره ، كما فكر والداه ، فقد كان يمشي ويعدو ، وكان قادراً على التلفظ بكلمتين أو ثلاث فوق ذلك . والآن هاهو يشق طريقه نحو مسيل الماء الذي يجري في قاع الباحة ويتحول إلى جدول ذي خرير حين يهطل المطر في الجبال . هرعت كريستين وأخذته بين ذراعيها :

"لا يجب أن تفعل ذلك . . . ستغضب أمك منك لو بللّت نفسك . . . "

بوّز الطفل - متأملاً إن كان عليه أن يبكي لأنه منع من اللعب في الجدول ، أو إن كان عليه أن يستسلم - أن يتبلّل كانت الخطيئة المميتة بالنسبة إليه- كانت يوفريد شديد الصرامة معه في مثل هذه الأمور . ولكنه بدا عاقلاً جداً . . . قبلت كريستين الصبي بحب ، وأجلسته على الأرض وعادت إلى المشرقة . ولكن عملها كان يمضي ببطء . . . كانت تقف معظم الوقت تتفرج على الباحة .

راحت شمس الصباح تلتمع رقيقة وجميلة على المخازن الثلاثة من فوقها . . . وكأن كريستين لم ترها منذ وقت طويل مضى . . . كم بدت المباني رائعة وقد تزينت شرفات علياتها بالأعمدة والنحت الأنيق . كانت أوراق الكرمة المذهبة فوق صليب الجمالون في المخزن الجديد تلتمع مقابل السديم الأزرق فوق الجبل في الخلف . في هذا العام بعد الصيف الذي بدأ مطيراً ، فإن العشب فوق الأسقف كان نضراً وأخضر .

تنهدت كريستين قليلاً ، ونظرت مرة أخرى إلى إرلند الصغير ثم التفتت نحو صناديقها مرة أخرى .

وفجأة صدر من الخارج عويل طفل . . . رمت من يديها كل ما كان فيهما واندفعت إلى الخارج . كان إرلند واقفاً وهو يزعق وينظر من إصبعه إلى زنبور نصف ميت فوق العشب ، ثم إلى إصبعه مرة أخرى . وحين رفعته جدته وهي تقول كلمات تدل على الإشفاق ، صرخ بصوت أعلى ، وحين وضعت - هي تتلفظ بالمزيد من كلمات الإشفاق والتعاطف - تراباً رطباً في ورقة خضراء باردة فوق اللدغة ، أصبح بكاؤه مخيفاً لها .

راحت تهدهده وتربت عليه ، ثم حملته إلى غرفته ، وراح هو يزعق كأنما دنت ساعته الأخيرة . . . ثم صمت في وسط إحدى صرخاته : كان يعرف العلبة وملعقة القرن التي تناولتها جدته من عتبة الباب العليا . غمست كريستين قطعاً من كتلة الشوفان بالعسل وأطعمته إياها ، بينما استمرت في الربت عليه وفرك خدها بعنقه ، حيث الشعر الأشقر لا يزال قصيراً ومجعداً من الأيام التي كان ينام فيها في مهده فاحتك بالوسادة حتى أصبح ضعيفاً . كان إرلند قد نسي آلامه الآن . . . التفت بوجهه إلى المرأة وعرض أن يربت عليها ويقبلها بيدين وفم دبق .

خلال هذه الأثناء كانت يوفريد تقف في الباب :

"هل أدخلته ؟ . . . لاشك أنه لم تكن هناك حاجة إلى ذلك يا أمي . . . كنت في العلية فحسب ."

حكت كريستين عن الحادث : "أما سمعت كيف كان يزعق ؟"

شكرت يوفريد حماتها ، " . . . ولكننا لن نزعجك بعد الآن . . . " أخذت الطفل الذي مدّ يديه إلى أمه الآن وكان يريد الذهاب إليها ، ثم خرجت .

أعادت كريستين علبة العسل إلى مكانها . ثم جلست ويداها في حجرها : يمكن للصناديق أن تنتظر في المشرقة حتى تدخل إنغريد .

●

كانت تريد أن تقوم فريدا ستريكارسداتر بخدمتها حين انتقلت إلى القاعة القديمة . ثم تزوجت فريدا من واحد من الخدم الذين وصلوا مع هلغه دوك . . . وهو شاب يكاد يكون في سن ابنها .

"إن من عادة منطقتنا أن مرؤوسينا يصغون إلى كلام أسيادهم حين يشير هؤلاء عليهم بما هو في صالحهم" ، قالت يوفريد حين تعجبت كريستين من هذا الزواج .

قالت كريستين : "وفي هذا الريف فإن عامة الناس غير معتادين على إطاعتنا أكثر مّما يعتقدون أنه ملائم لهم ، ولا أن يصغوا إلى مشورتنا إلاّ إذا كان ذلك في صالحهم بقدر ما هو في صالحنا . وأنا أقدم لك نصيحة جيدة يا يوفريد حين أطلب إليك أن تبقي هذا في ذهنك" .

قال غاوته إنما بخنوع : "الأمر كما تقوله أمي يا يوفريد ."

. . . حتى قبل أن يتزوج منها ، كانت كريستين قد لاحظت أن غاوته كان يكره أن يعارض يوفريد . وقد تحول إلى زوج شديد الإذعان .

لم تنكر الحماة أنه في أمور كثيرة كان غاوته يحسن حين يستمع إلى رأي زوجته . . . فقد كانت حكيمة وذكية ومجدة في عملها أكثر من المعتاد بكثير . كما كانت أشد استهتاراً من كريستين نفسها . كانت هي أيضاً قد داست تحت قدميها واجبها كابنة وباعت شرفها لأنها لم تستطع أن تكسب الرجل الذي أراده

قلبها بسعر أرخص . ولكنها ما أن وصلت إلى مرامها ، فقد كانت الزوجة الأكثر إخلاصاً وتواضعاً . لقد عرفت كريستين أن يوفريد كانت تحب زوجها جيداً . . . أنها كانت فخورة بوسامته ومولده النبيل . كانت أخواتها قد تزوجن من رجال أغنياء إلا أنهم كانوا لا يستحقون الرؤية إلا في الليل حين لا يكون هناك قمر ، كما لم يكن أجدادهم جديرين بالذكر ، كما قالت يوفريد بازدراء . كانت تغار على مصلحة زوجها وشرفه ، كما تفهمهما ، وفي البيت كانت تدلّله بقدر ما تستطيع- ولكن لو حاول غاوته أن يبدي رأياً مخالفاً لرأي زوجته في أتفه الأمور ، فإن يوفريد ستوافقه في البداية على نحو يجعل غاوته يتردد فوراً - ثم كانت تبدأ إقناعه برأيها حتى يقتنع .

ولكن غاوته كان سعيداً وقانعاً . ما كان هناك من يشك في أن هذين الشابين كانا يعيشان بسعادة معاً . كان غاوته سعيداً بزوجته ، وكانا كلاهما فخورين بابنهما ويحبانه حباً يفوق كل التصور .

لذلك كان كل شيء يسير الآن نحو الأفضل ، لولا أن يوفريد هلغسداتر لم تكن . . . أجل ، لقد كانت بخيلة . لم تستطع كريستين أن تسميها سوى ذلك . لو لم يكن الأمر كذلك ، لما كان سيزعج كريستين كثيراً أن كنتها كانت عنيدة جداً .

ففي الخريف الأول وكانت قد تزوجت وأصبحت سيدة المنزل حديثاً ، لاحظت كريستين في فترة الحصاد . أن العمال كانوا غير راضين . . . رغم أنهم لم يتلفظوا بكلمة واحدة . ولكن السيدة السابقة لاحظت الأمر على أي حال .

كان يمكن أن يحدث في أيام كريستين أيضاً أن الناس تضطر إلى أكل سمك الرنة العفن ولحم الخنزير المقدد الأصفر اللون ذي الرائحة الأشبه برائحة شرائح جذور التنوب ، واللحم الفاسد . ولكن الجميع كان يعلم أن السيدة ستعوض بكل تأكيد عن ذلك ببعض الطعام الشهي الجيد في وقت آخر وبعصيدة الحليب أو الجبن الطازج ، وكذلك الجعة الجيدة خارج موسمها . وحين كان يوزع الطعام ذو

المذاق الرديء ولا بدّ من تناوله ، كان الجميع يعرف أن ذلك يعود إلى فائض مخازن كريستين المليئة إلى آخر حدّ . . . وحين كان الناس في حالة عوز شديد ، عندها كانت وفرة مخازن يوروندغارد بركة للأبرشية كلها . لقد سبق للناس وتأكدوا أن يوفريد لن تكون كريمة في تقديم المساعدة من الطعام حين تعاني عامة الناس من القحط .

هذا هو الأمر الذي كان يثير حنق الحماة . . . فقد بدأ أنه ينال من شرف الضيعة وسيدها .

أما قضية أنها خلال سنة واحدة قد شعرت أن كنتها لم تكن تعطيها كامل نصيبها فهي لم تؤثر فيها كثيراً . فقد ظهر في قداس بارتولوميو (٢٤ آب / أغسطس) أنها لم تعط سوى اثنتين من العنزات التي نحرت بدلاً عن الأربع التي يجب أن تنالها . صحيح أن حيوان " الشره" قد خلف أضراراً فادحة في القطعان الصغيرة في الجبال في ذلك الصيف ، ومع ذلك فإن كريستين اعتبرت أنه لأمر مخجل أن يؤخذ في الحسبان أمر عنزتين في مثل هذه الضيعة الكبيرة ، ولكنها سكتت عن الأمر . كما كان الأمر على هذا المنوال فيما يخص كل ما يترتب لها من الضيعة . . . في موسم النحر في الخريف وفي القمح والدقيق والعلف لبقراتها الأربع وحصاني الركوب خاصتها . . . كانت تمنح وزناً أقل أو نوعية سيئة . وقد لاحظت أن غاوته كان يكره هذا وكان خجلاً منه . . . ولكنه لم يجرؤ على فعل أي شيء خوفاً من زوجته ، وهكذا كان يتظاهر بأنه لم ير شيئاً .

كان غاوته كريماً مثل كل أولاد إرلند نيكولاوسون . كانت الأم تسميه تبذيراً من قبل الأخوة . ولكن غاوته كان عاملاً كما كان راضياً بالقليل لنفسه . . . طالما كان لديه أفضل الجياد وكلاب الصيد وبعض الصقور الجيدة ، فهو لم يكن يهتم بالبقية ، أي أن يعيش كما المزارعين الصغار في "الديل" . ولكن لو وصله ضيوف إلى الضيعة كان مضيفاً كريماً للضيوف من كل صنف كما كان سخياً مع

المتسولين . . . وفي هذا كان سيداً للمنزل حسب ما ترغب به أمه . فهي كانت تعتبر أن الناس الكبار يجب أن يعيشوا على هذا النحو في أراضيهم الإرثية في ريفهم ، فيزيدون من محاصيلهم ولا يبددون منها شيئاً عبثاً ؛ ولكنهم لا يبخلون بشيء أيضاً حين يتطلب حب الرب وفقرائه ، أو الاهتمام بشرف المنزل ، أن يعطوا من مدخراتهم .

لاحظت الآن أن يوفريد تحترم معظم أصدقاء وأقارب غاوته الأغنياء . ولكن غاوته بدا في هذه المسألة أقل رغبة من أن يترك زوجته تقوده . . . فقد حاول أن يتمسك بأصدقاء يفاعته . . . كانت يوفريد تسميهم مدمني الخمر . . . وبالفعل علمت كريستين الآن أن غاوته كان أكثر تطرفاً ممّا حسبته . ولكن أولئك الأصدقاء لم يكونوا يأتون دون دعوة إلى ضيعته بعد أن أصبح رجلاً متزوجاً . وحتى ذلك الحين كان الأمر مؤكداً أن غاوته لم يرسل شخصاً فقيراً واحداً بعيداً ويداه فارغتان . ولكنه كان يعطي هدايا أصغر بكثير حين تكون يوفريد تراقب الأمر . أما من خلف ظهرها فكان يمنح المزيد ، كأنما خلسة . . . ولكن لم يكن يجري الكثير من خلف ظهر يوفريد .

ولاحظت كريستين أن يوفريد كانت تغار منها . كانت أم غاوته قد كسبت صداقته وثقته على نحو كامل خلال هذه السنوات ، بما أنه كان طفلها المسكين المريض الذي ما كان قادراً على الحياة أو على الموت . وقد لاحظت الآن أن يوفريد لم يكن يعجبها لو جلس غاوته قرب أمه وطلب مشورتها أو ذهب إليها ليحكي لها حكايات كما في الأيام الخوالي . ولو نسي الرجل الوقت وتأخر قليلاً عند أمه في القاعة القديمة ، فلن تتأخر يوفريد عن أن تجد مهمة تؤديها هناك .

كما كانت تغار لو أن حماتها دللت إرلند الصغير كثيراً .

خارجاً في الباحة كان ينمو بين العشب القصير الموطوء بعض أنواع الأعشاب التي لها أوراق خشنة داكنة اللون وسميكة ولكن برزت لها الآن في

الأيام المشمسة في منتصف الصيف ساق صغيرة ذات زهيرات صافية زرقاء فاتحة من وسط كل ثنية مسطحة . بدا لكريستين أن الأوراق الخارجية القديمة والتي تركت أقدام الإنسان أو الحيوان آثارها عليها بعد أن داستها كانت تحب دون شك البرعم المتفتح العذب كما تحبّ هي حفيدها .

كان يبدو لها وكأن إرلند الصغير هو حياة حياتها ولحم لحمها ، مثل أولادها بالتأكيد ، ولكن على نحو أعذب حتى . وحين يتاح لها فرصة وضعه في حضنها ، وتلاحظ أن أم الطفل تراقب الاثنين بغيرة ثم تأخذ الطفل بأسرع وقت ممكن وتضعه في أمان على صدرها وتضّمه بشره . . . كان يخطر لكريستين لافرانسداتر كما لم يخطر لها قط من قبل أن واعظي كلمة الرب كانوا على حق . إن حياة الجسد كانت ملطخة بالقلق على نحو لا برء منه . في العالم حيث يختلط الناس ، ويرزقون بأجيال جديدة ، ويندفعون معاً بالحب الجسدي ، ويحبون شهواتهم ، كان يأتي وجع القلب والآمال المحطمة ، مثلما يأتي الصقيع في الخريف . إن كلاً من الحياة والموت يفرقان الأصدقاء في النهاية ، كما يفرق الشتاء بين الشجرة و أوراقها .

وقد حصل في إحدى الأمسيات قبل أربعة عشر يوماً من قداس أولاف (١٤ تموز / يوليو) ، أن وصلت مجموعة من المتسولين إلى يورووندغارد ، وتوسلوا المبيت ليلة واحدة . كانت كريستين واقفة على شرفة المخزن القديم- كان تحت تصرفها الآن - فسمعت يوفريد تخرج وتجيب المتسولين : سينالون الطعام ولكنها لا تستطيع منحهم المأوى : "نحن كثر ولدينا حماة تعيش في الضيعة . . . إنها تتصرف بنصف المباني . . ."

ثار الغضب في تلك التي كانت سابقاً سيدة الضيعة . . . لم يحدث من قبل أن أنكر على عابر سبيل مأوى لليلة في يورووندغارد . . . وكانت الشمس قد سبق لها ولمست الجبال الغربية . هرعت إلى الأسفل ومضت نحو يوفريد والمتسولين :

"يستطيعون النوم في منزلي يا يوفريد ، وبما أنهم سيقيمون لديّ فسوف أقدم لهم اللحم أيضاً . لم يسبق لنا في هذه الضيعة أن أنكرنا على مسيحي مثلنا المأوى ، حين يطلبه باسم الرب ."

أجابت يوفريد وقد تضرج وجهها : "افعلي ما ترينه ملائماً يا أمي ."

حين نظرت كريستين عن كثب إلى الشحاذين ، كادت تندم على عرضها . . . لم يكن رفض الزوجة الشابة لإيواء هؤلاء الناس في الضيعة دون سبب . فقد كان غاوته وخدم المنزل بعيدين في المروج النائية قرب نهر "سيل" ، ولن يعودوا إلى البيت فوراً . كانت يوفريد لوحدها في البيت ، مع مرتلي الصلاة من الأبرشية وهما زوجان عجوزان وطفلان ، وكذلك كريستين وخادمتها في القاعة القديمة . ورغم كثرة وغرابة الناس الذين اعتادت كريستين على رؤيتهم في عصابات متجولة من الشحاذين ، إلاّ أنها لم تعجب بمنظر هؤلاء . كان أربعة من بينهم شباناً ضخام الحجم وأقوياء . . . ثلاثة منهم من ذوي الشعر الأحمر مع عيون صغيرة ، وقد بدوا كأخوة ، ولكن الرابع الذي كان كلا منخريه مشقوقين ودون أذنين فكان ينطق بلغة مكسرة وكأنه أجنبي . وعلاوة على هؤلاء كان هناك عجوزان : شخص ضئيل الحجم محني الظهر ذو وجه وشعر ولحية بلون أخضر مصفرّ من القذارة والسن المتقدمة ، مع بطن منتفخ من مرض ما . . . كان يمشي على عكازين – وامرأة عجوز غطت عنقها ويداها القروح كما كان غطاء رأسها ينز دماً وقيحاً . ارتعدت كريستين من فكرة أن تقترب هذه المرأة من إرلند . ولكن رغم ذلك فقد كان جيداً أن هؤلاء الناس البؤساء لن يضطروا إلى أن يهيموا في جبال هامار في تلك الليلة .

ولكن المتسولين تصرفوا بسلام كاف . حاول الشخص عديم الأذنين أن يمسك بإنغريد وهي تضع الطعام على المائدة . ولكن شعر بيورن (الكلب) انتصب فوراً وهرّ . أما بالنسبة إلى البقية فقد بدوا منهكين تعبين . . . لقد عانوا الكثير من

السوء ولم يحظوا إلا بالقليل من الكسب ، كما أجابوا على أسئلة السيدة . . . ربما يكون الوضع أفضل في نيداروس على الأرجح . سرت المرأة حين أعطتها كريستين قرن ماعز مليئاً بالشحم الجيد المصنوع من أنقى دهون الحَمَل وبعض ماء الأطفال . . . ولكنها رفضت عرض كريستين أن تنقع لها غطاء رأسها في ماء دافئ وأن تعطيها قطعة قماش نظيفة من الكتان . . . ولكنها أخذت الغطاء .

على أي حال فإن كريستين جعلت إنغريد ، الخادمة الشابة ، تنام في أبعد ركن من سريرها . وخلال الليل هرّ بيورن مرة أو اثنتين . ولكن ساد الهدوء عدا ذلك . وبعد منتصف الليل ركض الكلب نحو الباب وعوى مرتين عواء قصيراً . . . سمعت كريستين وقع حوافر في الباحة وعرفت أن غاوته عاد إلى البيت . خمنت أن يوفريد أرسلت وراءه .

ملأت كريستين جيوب الشحاذين جيداً في اليوم التالي . وكانوا قد ابتعدوا مسافة قصيرة وراء الضيعة حين رأت يوفريد وغاوته قادمين إليها .

جلست كريستين وتناولت مغزلها . حيت الشابين بلطف لدى دخولهما ، وسألت غاوته حول التبن . تشممت يوفريد . . . كان الضيوف قد تركوا رائحة عفنة وراءهم . ولكن حماتها تظاهرت وكأنها لم تلاحظ شيئاً . بدأ غاوته يتحرك بقلق ويبدو وكأنه يجد صعوبة في طرح قضيته . عند ذاك بدأت يوفريد بالكلام بدلاً عنه :

"هناك مسألة واحدة يا أمي وأعتبر أنه من الأفضل طرحها الآن . أرى جيداً أنك تفكرين في أني أكثر توفيراً مما تعتقدين أنه ملائم لسيدة يوروندغارد . أعرف أنك تفكرين في هذا وتعتبرين أني أنقص من شرف غاوته بسبب ذلك . والآن لن أقول كيف أني كنت خائفة البارحة من استضافة تلك العصابة من الناس ، بعد أن كنت لوحدي في الضيعة مع ابني وبعض عجائز من الأبرشية ، وقد لاحظت أنك فهمت ذلك ما أن رأيت ضيوفك . ولكني لاحظت سابقاً أيضاً أنك

تعتبرينني بخيلة بالطعام وغير لطيفة مع الفقراء .

"لست كذلك يا أمي . ولكن يورروندغارد لم تعد مركزاً لرجل من رجال الملك وثري من الأثرياء ، كما كانت في أيام أبيك وأمك . لقد كنت ابنة رجل موسر . وكنت تتجولين بين أقرباء أغنياء وأقوياء . كما تزوجت من رجل غني ، ورفعك زوجك إلى سلطة ومركز أعلى مما كنت فيه . لا يستطيع أحد أن يتوقع أن تفهمي بالكامل في عمرك المتقدم كم هو الأمر مختلف بالنسبة إلى غاوته ، الذي فقد ميراث أبيه وعليه أن يشارك في نصف ثروة أبيك مع كثير من الأخوة . ولكنني لا أجرؤ على نسيان أني لم أجلب إليه من الثروة سوى الطفل الذي حملته تحت قلبي ، وعبئاً ثقيلاً من التعويضات عن حبي . . . فقد رأيت أني شاركت في الخطأ الذي ارتكبه هو ضد أهلي . ربما سيصلح الزمن هذا الأمر . . . ولكن من واجبي أن أدعو الله أن يمنح أبي الحياة الطويلة . نحن شابان ، غاوته وأنا ، ولا نعرف كم طفلاً سنرزق . . . وعليك أن تصدقي يا حماتي أنه لا أفكر في كل ما أفعله إلا بصالح زوجي وأطفالي . . . "

"أصدق ذلك يا يوفريد" ، نظرت كريستين بجدية إلى وجه كنتها المتضرج بالحمرة . "وأنا لم يسبق لي قط أن تدخلت في شؤون منزلك ولا أنكرت أنك امرأة رائعة وزوجة طيبة ومخلصة لابني . ولكن عليك أن تتركيني أعالج أموري كما اعتدت أن أعالجها . وكما تقولين فأنا امرأة عجوز ولم أعد أهلاً لتعلم أساليب جديدة ."

فهم الشابان أن الأم لم يعد لديها ما تقوله لهما وسرعان ما استأذنا بالمغادرة .

●

كما حدث دائماً أحست كريستين أن عليها الاعتراف بأن يوفريد كانت على حق . . . في البداية . ولكنها حين فكرت في الأمر ، بدا لها . . . كلا ، لم تكن على حق على أي حال . كان أمراً ضد العقل تشبيه حسنات غاوته بأبيها . عطايا لراحة روح الفقراء والغرباء المحتضرين في الأبرشية . هدايا كبائنة للفتيات

اليتيمات . ولائم جعة في الأيام المقدسة الخاصة بالقديسين الذين كان أبوها يفضلهم . صدقات للمرضى والخاطئين المسافرين للوصول إلى مزار القديس أولاف . . . حتى لو كان غاوته أغنى مما كان عليه ، فما كان هناك من يتوقع منه أن يتحمل مثل هذه التكاليف . لم يعد غاوته يفكر بخالقه أكثر ممّا يجب . كان كريماً طيباً القلب ، ولكن كريستين كانت قد رأت أباها يعامل الفقراء باحترام لأن يسوع اختار أن يكون فقيراً حين اتخذ هيئة البشر . وكان أبوها يحب العمل والكد ويعتبر كل المهن اليدوية مشرفة ، لأن أم الرب ، مريم ، اختارت أن تكون عاملة تغزل الصوف لتكسب رزق يومها لنفسها وأسرتها ، رغم أنها كانت ابنة أناس أغنياء ينتمون إلى أسرة ملوك وكبار كهنة اليهود .

بعد يومين ، وفي وقت باكر من الصباح ، وبينما كانت يوفريد لا تزال غير مرتدية لكامل ملابسها وغاوته في السرير ، دخلت كريستين إليهما . كانت ترتدي معطفاً قصيراً وعباءة من نسيج صوفي خشن رمادي وقبعة سوداء ذات حافة عريضة من اللباد فوق غطاء رأسها الكتاني ، وحذاء متيناً في قدميها . احمرّ وجه غاوته حين رأى أمه في هذا الزي ، فقالت كريستين إنها تنوي الذهاب سيراً على الأقدام إلى نيداروس ، إلى عيد القديس أولاف ، وتوسلت إلى ابنها أن يرعى شؤون منزلها خلال هذه الفترة .

حاول غاوته جهده أن يثنيها عن عزمها . . . كان يريد منها على الأقل أن تقترض منه حصاناً وسائساً وأن تصطحب خادمتها . . . ولكن بما أن هذا الكلام كان صادراً عن رجل يستلقي عارياً في السرير أمام عيني أمه ، فإنه لم يكن ذا اعتبار . كان شديد الخجل إلى حد أن كريستين خطر لها أن تقول إنها رأت حلماً .

"لقد مرّ وقت طويل منذ أن رأيت أخويك . . . " ولكنها التفتت بعيداً حين قالت هذه الكلمات . لم تكن تجرؤ بعد على الاعتراف لنفسها كم كانت تتوق وتخشى أن تقابل ابنيها ناكفه وبيورغولف مجدداً .

كان غاوته مصمماً على أن يرافق أمه في الجزء الأول من الطريق . وبينما راح يرتدي ملابسه وتناول بعض الطعام ، جلست كريستين تضاحك وتلاعب إرلند الصغير . . . راح يغرد ويزقزق بعد أن استيقظ للتو . وكان في حالة فرح مع قدوم الصباح . قبّلت يوفريد عند الوداع وهو أمر لم تفعله سابقاً قط . في الباحة كان قد تجمع كل سكان المنزل . . . كانت إنغريد قد نشرت الخبر بأن السيدة كريستين ستحجّ إلى نيداروس .

أمسكت كريستين بالعصا الثقيلة الملبسة بالحديد بيدها ، وبما أنها لن تركب حصاناً ، فقد وضع غاوته حقيبتها المزدوجة على حصانه وسار به .

عند مرج الكنيسة التفتت كريستين ونظرت نحو الضيعة . . . كانت تبدو جميلة جداً تحت شمس الصباح الندية . التمع النهر أبيض اللون . وكان سكان المنزل لازالوا واقفين هناك . . . استطاعت أن تميز ثوب يوفريد فاتح اللون وغطاء رأسها الكتاني ، والطفل كبقعة حمراء على ذراعها . رأى غاوته وجه أمه يشحب من امتلاء قلبها .

كان الطريق يصعد عبر الغابات تحت ظل جبل هامار . سارت كريستين بخفة فتاة شابة . لم تتبادل الكثير من الكلام مع ابنها . وبعد أن سارا مدة ساعتين ، وصلا إلى حيث تتفرع الطريق إلى روستكامبن وبدا أمامهم ريف دوفر منتشراً على مد البصر . ثم قالت كريستين إن على غاوته ألا يتابع الطريق معها ، وإنها ستجلس قليلاً لترتاح قبل متابعة طريقها .

كان "الديل" قابعاً تحتهم مع شريط النهر الأخضر الأبيض المتجول عبره ، وتبدو المزارع أشبه ببقع خضراء صغيرة فوق المنحدرات المغطاة بالأمواج . ولكن إلى الأعلى كانت الطحالب الجبلية قد تقوست بلون بني أو أصفر من نبات الحزاز نحو الداخل باتجاه المنحدرات الرمادية والمرتفعات العارية المنقطة بالثلج . كانت ظلال الغيوم تنجرف فوق الديل والأراضي المرتفعة ، ولكن إلى الشمال كان كل

شيء صافياً بين الجبال . كانت الهضاب قد رمت عنها عباءات الضباب والتمعت بلون أزرق ، الواحدة إثر الأخرى . وتحرك توق كريستين مع قطعان الغيوم شمالاً على الطريق الطويلة التي تمتد أمامها ، مسرعة فوق "الديل" ، بين الجبال الكبيرة التي كانت تسدّ الطريق ، وعبر الدروب المنحدرة عبر الجبال . بعد أيام قليلة ستكون قد شقت طريقها عبر وديان تروندهايم الخضراء الغنية ، متتبعة تعرجات النهر نحو الزقاق البحري الكبير . ارتجفت من ذكرى الأماكن المعروفة جيداً قرب البحر ، حيث كانت هي والشباب قد تجولا معاً . تحرك شكل إرلند الوسيم أمام بصرها مع هيئة متغيرة سريعة وغير واضحة . وكأنها تراها منعكسة في ماء جار . وأخيراً ستصل إلى فغينسبريكا ، عند الصليب الرخامي . . . وهناك تقع المدينة عند مصب النهر بين الزقاق البحري الأزرق وسلسلة جبال سترند الخضراء وعلى ضفة نهر الكنيسة اللامعة هائلة الحجم ذات الأبراج المثيرة للدوار والمعرشات الذهبية ، وشمس المساء تحترق فوق الخطوط الوردية على صدرها . وفوق الزقاق البحري تحت جبال فروست الزرقاء كانت تقع تاوترا منخفضة وسوداء مثل ظهر حوت ، وبرج الكنيسة منتصب شأن الزعنفة . آه يا بيورغولف ، آه يا ناكفه . . .

ولكنها حين نظرت إلى ما ورائها ، كانت لا تزال قادرة على أن ترى قليلاً من جبل موطنها تحت هوفرينغن . كان قابعاً تحت ظل ، ولكن عينها المعتادة جيداً كانت قادرة على ترى أين كان ممرّ السايتر يعبر الغابات . ميزت قمم الجبال الرمادية التي برزت فوق عباءة الغابة . . . كانت تحيط بحقول السايتر القديمة لسكان "سيل" .

من الجبال وصلت أصوات نفخ في القرون . . . بعض الألحان الواضحة العالية التي تلاشت ثم عادت مجدداً . . . بدا وكأن أطفالاً كانوا يتمرنون على النفخ فيها . إلى البعيد كان رنين أجراس . . . والهدير المكبوت للنهر ، والتنهدات العميقة للغابة في هذا اليوم الهادئ الدافئ . ارتجف قلب كريستين بقلق في

السكون . كان شيء مثل الحنين يدفعها نحو الأمام ، كما يدفعها حنين آخر نحو الخلف إلى الأبرشية والضيعة . راحت الرؤى تتزاحم أمام بصرها . . . صورة الحياة اليومية : رأت نفسها تعدو مع العنزات فوق الممر عبر الغابات غير الكثيفة جنوب سايترهم . . . بقرة وقعت في وحل المستنقع . . . الشمس تلتمع وضّاءة . وحين وقفت برهة لتصغي ، أحست بعرقها يحرق بشرتها . رأت باحة البيت في تساقط خفيف للثلج- يوم رمادي من أيام العاصفة ، وهو يتحول إلى ليل شتائي معتم- كادت الريح تعصف بها عائدة إلى الغرفة الخارجية حين فتحت الباب ، بهرت العاصفة أنفاسها . ولكنهم يبدون هناك ، كتلاً لا شكل لها من الناس في معاطف فراء مغطاة بالثلج : لقد عاد إيفار وسكوله إلى البيت . كانت مزالجهما قد غرقت عميقاً في كومة كبيرة من الثلج كانت تتراكم عبر الباحة حين تهب العاصفة من الشمال الغربي . وفي مثل تلك الأيام كان هناك دائماً أكوام من الثلج في مكانين من الباحة . . . وسرعان ما كان عليها أن تفكر بحب وتوق بهاتين الكومتين في حين أنها وكل الناس في الضيعة كانوا يلعونهما في كل شتاء . . . كأنما كان مقدراً عليها ألا تراهما مرة أخرى .

بدا وكأن هذا التوق قد مزّق قلبها . . . كانت مشاعر التوق هذه تتراكض هنا وهناك مثل جداول من دماء ، تبحث عن طرق إلى كل الأماكن في الأرض الواسعة حيث كانت تعيش ، إلى كل أبنائها المتجولين في العالم ، إلى كل أمواتها تحت القبور- تساءلت - هل هي مخبلّة ؟ لم تشعر أبداً بهذا الإحساس من قبل . . .

ثم رأت أن غاوته كان يجلس ويحدّق إليها . وقد ابتسمت بسرعة كأنما في نوع من الاعتذار . . . لقد حان الوقت له ليقول لها وداعاً وتذهب هي في حال سبيلها .

نادى غاوته على جواده ، الذي راح يتجول نحو الأمام وهو يرعى على امتداد

الدرب الأخضر . ركض خلفه وأعاده ، وتبادلا عبارات الوداع . وضعت كريستين حقيبتها فوق كتفها وكان ابنها قد وضع قدمه في الركاب . . . ثم التفت وتقدم خطوة نحو الأمام :

"أمي !" نظرت برهة وبعمق إلى عينيه البائستين الخجولتين . "لم تكوني . . . لم تكوني شديدة السعادة في هذا العام الذي انقضى كما أعتقد . . . أمي ، يوفريد ذات نية طيبة ، وهي تكنّ لك احتراماً كبيراً . . . ولكن رغم ذلك فإنه كان عليّ أن أقول لها المزيد عنك وأي نوع من النساء أنت وما الذي كنته . . ."

"كيف خطرت لك هذه الأفكار يا غاوته ؟" تكلمت الأم بلطف واستغراب . "أعرف جيداً بنفسي أني لم أعد شابة ، ويقال إن العجائز صعب إرضاؤهن ، ولكني لست عجوزاً بعد بحيث أخلو من الحكمة إلى حد لا أعرف قيمتك وقيمة زوجتك . كنت سأعتبر الأمر سيئاً لو أن يوفريد اعتبرت المسألة جهد عبثي لا يحمد عليه ، أي كل ما فعلته لتوفر عليّ العمل والقلق . لا تظن أني من هذا النوع أرجوك ، يا بني ، بحيث لا أعطي زوجتك حقها من التقدير وكذلك حبك المخلص والمطيع . . . ولو أني لم أعبر عنه كما كنت تتوقع . عليك أن تتحملني ، متذكراً أن هذا هو أسلوب العجائز . . . "

حدق غاوته إلى أمه فاغر الفم . . . "أمي . . . " . ثم انفجر باكياً واتكأ على حصانه وراح يهتزّ من النشيج .

ولكن كريستين تماسكت . لم يكشف صوتها عن شيء سوى التعجب واللطف الأموي .

"غاوته ، أنت لا زلت شاباً ، وصحيح أنك حملي الوديع ، كما كان أبوك يسميك . ولكن رغم كل شيء عليك أن تأخذ هذا الوداع على هذا النحو وأنت رجل ناضج وسيد المنزل . لو كنت سأذهب إلى روما أو القدس ، عندها بالفعل . . . ولكن في هذه الرحلة لن أقابل إلا بالكاد أخطاراً كبيرة . . . سأجد

أناساً يرافقونني ، كما تعرف ، وبالتأكيد ، حين أصل إلى توفتار ، إن لم يكن ذلك قبلها . وفي كل صباح في هذا الفصل تنطلق مجموعات الحجاج من هناك . . . "

"أمي ، أمي . . . سامحينا ! أخذنا كل السلطة وكل المقدرات من يديك ورمينا بك جانباً . . . "

هزت كريستين رأسها مع ابتسامة صغيرة : "أخشى أنكم يا أولادي ستعتبرونني امرأة شديدة الولع بالسلطة . . . "

التفت غاوته إليها : أخذت يده في إحدى يديها ووضعت الأخرى على كتفه ، بينما راحت تتوسّل إليه مرة أخرى أن يصدق أنّها كانت ممتنة له وليوفريد ، دعت إلى الرب أن يكون معه . ثم أدارته نحو حصانه وضربته ضاحكة بين كتفيه لأجل الحظ الطيب .

وقفت تتابعه بنظرها ، حتى ابتعد عن نظرها تحت حافة الجبل . لقد كان وسيماً جداً على الحصان الكبير الرمادي الداكن اللون .

أحست أن مزاجها أصبح غريباً . . . كل الأمور التي كانت خارجاً دخلت بحدّة إلى وعيها : الهواء الذي لفحته الشمس والنفس الدافئ لغابة الصنوبر ، وشدو العصافير الصغيرة في العشب . ومع ذلك وفي الوقت نفسه ، إذ راحت تنظر إلى داخل نفسها ، فقد رأت صوراً مثل الرؤى التي تجلبها الحمى . . . في داخلها كان منزل فارغ ، لا صوت فيه إطلاقاً ، معتم وينفث اليأس . تغيرت الرؤيا . . . إنه شاطئ عند المدّ ، وقد انسحب منه التيار نهائياً . صخور شاحبة مهترئة . أكوام من الطحلب البحري المعتمة الخالية الحياة . . . كل أنواع الأشياء التي تنجرف مع التيار . . .

ثم وضعت حقيبتها على نحو أسهل على كتفها وأمسكت بعصاها وانطلقت نحو "الديل" . لو لم يكن مقدراً لها أن تأتي إلى هنا مجدّداً ، فإنها إذن إرادة الله . . . من العبث أن تكون خائفة . ومن المحتمل أنها كانت تتقدم في السن . . . رسمت علامة الصليب ومضت في طريقها بخطوات أثبت . . . وقد نوت الهبوط

إلى المنحدرات الجبلية حيث يجري الدرب بين المزارع .

ومن امتداد قصير على الطريق العام فحسب كانت هي قادرة على مشاهدة المنازل في هاوغن ، عالياً فوق حافة الجبل الأعلى . بدأ قلبها يخفق من الفكرة .

●

وكما خمنت ، فقد قابلت عدداً من الحجاج حين وصلت إلى توفتار في وقت متأخر من النهار . وفي صباح اليوم التالي شكلوا مجموعة صغيرة وهم ينطلقون نحو الجبال معاً .

كان هناك كاهن وخادمه - امرأتان ، أمه وأخته ، وقد ركبوا الجياد ، وسرعان ما سبقوا أولئك المشاة ، فأحست كريستين بحرقة في قلبها وهي تتابع بنظرها المرأة الثانية التي كان يرافقها طفلان .

كان في صحبة كريستين مرشحان لرتبة فارس عجوزان من مزرعة صغيرة فوق دوفر . ثم كان هناك رجلان أصغر سناً من أوسلو ، وهم صاحبا حرفة من المدينة ، ومزارع مع ابنته وزوجها . كان هذان صغيرين في السن . وكانوا يسافرون مع طفلة الزوجين الشابين التي تبلغ عاماً ونصف من العمر ، وكانت تركب جواداً يتناوبون عليه . كان هؤلاء الثلاثة من أبرشية بعيدة إلى الجنوب تسمى "أندابو" . . . ولم تعرف كريستين أين كانت . في ذلك المساء الأول توسلت كريستين أن ترى الطفلة فقد كانت تبكي وتنقّ دون توقف . . . بدت بائسة ورأسها كبيرة خالية من الشعر ولها جسد ضئيل ذو مفاصل مرتخية . لم تكن قادرة على الكلام ولا الجلوس باستقامة بعد . بدت الأم خجلة من ذلك . . . وفي صباح اليوم التالي عرضت كريستين أن تحمل الفتاة عنها فترة من الزمن ، وقد حملتها بيديها . . . سارت الأم في المقدمة . بدت الأم بلهاء ، ولكنهما كانا صغيرين جداً في السن ، هي وزوجها ، لا يكادان يبلغان الثامنة عشرة ، وقد تكون منهكة تماماً من حمل طفلة ثقيلة كانت تعول وتبكي باستمرار . كان الجد رجلاً

قبيحاً كالح الوجه شكساً ، ولكن كان هو الذي صمّم على السفر إلى نيداروس مع حفيدته ، فلا بدّ أنه يشعر بحب لها . سارت كريستين إلى القرب منه وكذلك الراهبان الفرنسيسكانيان عند مؤخرة المجموعة . . . وقد أغاظها أن الرجل من أندابو لم يفكر قط في إعارة الراهبين حصانه فترة من الزمن . . . كان الجميع قادرين أن يروا أن الراهب الأصغر سناً كان يعاني من مرض خطير .

أما الراهب الأكبر سناً ، الأخ آرنغريم ، فكان رجلاً ضئيل الحجم بديناً ذا وجه مستدير أحمر يغطيه النمش ، وعينين بنيتين حيويتين وحلقة من الشعر بلون أحمر ثعلبي فوق قمة رأسه . كان يتكلم باستمرار ، وخاصة عن الفقر الذي كان يعيش فيه رهبان سكيدان حفاة الأقدام . . . كان الأكبر قد حصل للتو على منزل في تلك البلدة ، ولكنهم كانوا فقراء إلى حد أنهم ما كانوا قادرين إلا بالكاد على إبقاء الصلوات جارية ، كما أن الكنيسة التي كانوا ينوون بناءها لن تبنى بالتأكيد . وقد وضع اللوم على الراهبات الغنيات في غيمسوي اللواتي كنّ يلاحقن الرهبان الفقراء الشحاذين بالحسد والنكاية ، وقد رفعن الآن قضية قانونية ضدهم . وقد حكى بلسان ذرب كل أنواع الحكايات الشريرة حولهن . كرهت كريستين الإصغاء إلى الراهب يتكلم بهذا الأسلوب ، وحكاياته عن كيف أن رئيسة الدير قد اختيرت على نحو غير شرعي ، وكيف كانت الراهبات لا يحضرن القداديس بسبب النوم الكسول وكيف أنهن كن معتادات على الثرثرة والحديث غير الطاهر على المائدة في حجرة الطعام ، وبدا لها أنه لا يمكن الوثوق به . . . أجل ، حكى عن إحدى الأخوات وكيف أن الناس تعتبر أنها لم تحافظ على وعدها بالطهارة . ولكنها لاحظت أن الأخ آرنغريم كان على أي حال طيب القلب ولطيفاً . وقد راح يحمل الطفلة المريضة لمسافات طويلة حين رأى أن ذراعي كريستين كانتا منهكتين ، وأنه حين كانت الطفلة تصرخ بشدة ، كان يركض بها عبر الأرض المرتفعة وقد رفع رداءه عالياً حتى كان العرعر يسوط ساقيه السوداوين المشعرتين

والطين يتناثر من حفر الماء ، بينما راح هو يصرخ ويصيح على الأم بأن عليها الآن أن تنتظرهم فالطفلة كانت ظمآنة . ثم كان يعدو راجعاً إلى الرجل المريض ، الأخ تورغيلس . وكان يعامله بكل رقة وحنان الأب .

مع الراهب المريض كان من المستحيل الوصول إلى هيبردكين في تلك الليلة ، ولكن الرجلين القادمين من دوفر كانا على علم بوجود كوخ حجري قرب بحيرة إلى الجنوب في القفر ، واتجه الحجاج إليه . كان المساء بارداً الآن ، وكانت الأرض قرب حافة الماء مستنقعية ، وبرز سديم أبيض من المستنقع حتى راحت أشجار البتولا تنقط من الرطوبة . كان الهلال الفضي للقمر معلقاً فوق قمم الجبال إلى الغرب ، ولا يبدو من لونه الأصفر الشاحب إلا القليل في سماء المساء الصفراء . كان الأخ تورغيلس مضطراً أكثر فأكثر إلى التوقف . كان يسعل بشدة وألم إلى حد كان أمراً مثيراً للشفقة سماعه . وقد راح الأخ آرنغريم يسنده في هذه النوبات ، ثم يمسح له وجهه ، ثم وبهزة من رأسه كان يري كريستين يده . . . كانت مدماة من بصاق الرجل المريض .

وجدوا الكوخ ولكنه كان خرباً . وهكذا بحثوا عن بقعة تصلح كمأوى وأوقدوا مشعلة . ولكن الفقراء من الجنوب لم يكونوا يظنون أن الليل في الجبال سيكون بارداً إلى ذلك الحد القارس . أخرجت كريستين من حقيبتها العباءة التي ألزمها غاوته بحملها لأن الطقس كان لطيفاً ودافئاً . . . وهي مصنوعة من قماش منزلي فاخر مبطنة بفراء القندس . وحين لفت الأخ تورغيلس بها ، همس- كان مبحوحاً بشدة إلى حد أنه ما كان قادراً على الكلام - أنه سيسره أن تلف الطفلة بها معه . وهكذا وضعوا الطفلة معه في العباءة . راحت الطفلة تئن وتبكي ، وسعل الراهب . ولكن كانا كلاهما ينامان بين النوبة والأخرى .

بقيت كريستين جزءاً من الليل وهي ساهرة مع أحد رجال دوفر والأخ آرنغريم لمراقبة النار . كان النور الأصفر الشاحب يلتف نحو السماء الشمالية . . . كانت

البحيرة الصغيرة إلى القرب منهم بلونها الأبيض وسكونها . كان السمك يبرز ويصنع حلقات فوق الماء . . . ولكن تحت الجبل فوق الجانب الأبعد راح الماء يعكس عتمة سوداء . ومرة وصل إلى أسماعهم عواء غريب من هناك . . . أجفل الراهب وأمسك بالرجلين الآخرين بقوة من ذراعيهما . وقد رأت كريستين والمزارع أنه وحش من نوع ما . . . ثم سمعوا صخرة تتدحرج ، كأن شخصاً كان يمشي فوق حواف الجبل ، وصدرت صرخة أخرى مثل صوت أجش لرجل . بدأ الراهب يصلي بصوت مرتفع . . . وقد التقطت منه الكلمات التالية : "يا يسوع المسيح ، أيها المخلّص" . و"لقد انتصر أسد قبيلة يهوذا" . . . ثم سمعوا باباً يغلق بعيداً في الجبل .

بدأ الفجر الرمادي الشاحب يظهر ، والجبل عبر البحيرة وكتل البتولا تبدو للعيون . . . ثم أخذ الرجل الآخر القادم من دوفر والرجل من أوسلو مكانهم . كان آخر شيء فكرت فيه كريستين قبل أن تنام ، قريباً من النار ، هو أن عليهم أن يمشوا لمسافات قصيرة . . . وأن يعطوا الحسنات إلى الراهبين الشحاذين لدى مفارقتهما . . . ويبدو أنها قد تضطر إلى تسول طعامها من المزارع حين ينزلون إلى غاولدال .

كانت الشمس قد صعدت عالياً وريح الصباح كان تجعل البحيرة داكنة في هبات صغيرة ، وذلك حين تجمع الحجاج المتجمدون من البرد من حول الأخ آرنغريم بينما تلا هو صلاة الصباح . جلس الأخ تورغيلس وقد أقعى وراحت أسنانه تصطك ببعضها ، ويحاول أن يكبح سعاله وهو يهمهم الكلمات مردداً إياها بعد الأخ آرنغريم . وحين نظرت إلى ملابس الراهبين الرمادية والشمس تشرق عليها ، تذكرت كريستين أنها حلمت بالأخ إدفين . . . لم تستطع تذكر حلمها ، ولكنها ركعت وقبلت يدي الراهبين وطلبت مباركتهما للمجموعة .

كان منظر عباءة فرو القندس قد أظهرت للحجاج الآخرين أن كريستين لا

تنتمي إلى العامة . وحين أفادت أنها سافرت مرتين سابقاً على طريق الملك العام عبر دوفر- فييلد فقد أصبحت دليلاً وقائداً للمجموعة . لم يكن قد سبق لرجال دوفر أن سافروا شمالاً أبعد من هييردكين ، وكان القادمون من "فيكن" غرباء هنا بالطبع .

وصلوا إلى هييردكين قبل صلاة الغروب ، وبعد الصلاة التي حضروها في الكنيسة ، خرجت كريستين نحو الجبال لوحدها . كانت تأمل في أن تجد الممر الذي اتبعته مع أبيها مجدّداً ، وتلك البقعة قرب النهر حيث جلست معه . ولكنها لم تستطع أن تجدهما ، ولكنها اعتبرت أنها وجدت التلة التي تسلقتها حتى تتابعه بنظرها وهو يمضي بعيداً عنها . هكذا فكرت . . . ولكن الجروف الحجرية الصغيرة على امتداد الممر كانت متشابهة جداً .

ركعت بين شجيرات توت الدب عند قمة الهضبة الصغيرة المدورة . كان المساء الصيفي يتحول إلى غسق . . . منحدرات أشجار البتولا فوق حواف الجبال والجبال الرمادية والامتدادات البنية للمستنقعات تنصهر معاً ، ولكن فوق الجبال الممتدة ، كانت سماء المساء تقوس وعاءها الصافي الذي لا قعر له . راحت كل البرك تلتمع بلون أبيض ، وانعكس النور السماوي ، مكسراً وأكثر شحوباً ، من نهر الجبل الصغير الذي راح يسرع قلقاً فوق الصخور ، ليتدفق بين الضفاف الحصوية الشاحبة إلى بحيرة صغيرة في الأرض المقفرة .

ومن جديد خطرت لها الرؤية الغريبة المحمومة الداخلية . . . بدا الجدول وكأنه يريها صورة كيانها . وهكذا أسرعت بقلق عبر قفز هذه السنوات الدنيوية ، وأزبدت عند كل حجر في مسارها . . . ولكن النور الأبدي ما كان قادراً إلا على عكس نفسه في حياتها بضعف وتقطع وشحوب . ولكن خطر للأم على نحو باهت أنه في الألم والاهتمام والحب- كل مرة نضجت فيها ثمرة الخطيئة إلى أسى- فقد كانت روحها العنيدة المرتبطة بالأرض تمنح فرصة التقاط انعكاس للنور السماوي .

السلام عليك يا مريم كل السلام ، يا ممتلئة رحمة ! مباركة أنت بين النساء ، ومباركة ثمرة رحمك ، يسوع ، الذي منح عرقه ودمه لأجلنا . . .

وبينما تلت خمس مرات صلاة "سلام عليك يا مريم" في ذكرى أسرار ألم الافتداء ، أحست من خلالها أحزانها فقط بأنها تجرؤ على نشدان المأوى تحت عباءة أم الرب . كان حزنها على الطفلين اللذين فقدتهما ، وأحزانها الأثقل عن كل ضربة من ضربات القدر التي حلّت بأبنائها وأنها لم تستطع أن تحميهم منها . مريم الكاملة الطهارة والضعة والطاعة لإرادة الرب ، قد حزنت أكثر من كل الأمهات ، وسوف ترى رحمتها وتفهم الانعكاس الشاحب والضعيف من قلب امرأة خاطئة ، احترقت بالحب الحار والشهواني المدمّر وبكل الخطايا التي يجلبها الحب الشهواني معه . . . مشاكستها وتحديها وروحها القاسية اللامتسامحة وعنادها واعتزازها بنفسها . . . ولكن كان قلبها قلب أم رغم ذلك كله .

أخفت كريستين وجهها بيديها . بدا لها برهة أنه أمر أكثر مما تستطيع احتماله ، وأنها قد افترقت الآن عنهم جميعاً . . . عن كل أبنائها .

ثم تلت لآخر مرة "أبانا الذي" . فكرت في وداعها لأبيها في هذه البقعة قبل كل هذه السنوات الطويلة التي مضت ، ووداعها لغاوته قبل يومين فقط . وبطيش طفولي فإن أبناءها قد أساؤوا إليها . . . ومع ذلك فقد كانت تعرف ، أنهم حتى لو أساؤوا إليها كما أساءت هي إلى أبيها- عن سوء نية وبالإثم - فما كان ممكناً لذلك أن يغير من قلبها تجاههم . كان من السهل أن يغفر المرء لأولاده . . .

"المجد للأب والابن والروح القدس" . . . قالت الكلمات (باللاتينية) ثم قبلت الصليب الذي كان أبوها قد منحها إياه ، وهي مترعة بالحمد لأنها تشعر رغم كل شيء ، رغم روحها الشكسة ، أن قلبها القلق قد منح فرصة أن يلتقط

وميضاً ضعيفاً من الحب الذي رأته ينعكس في روح أبيها ، صفياً وساكناً ، مثلما ينعكس نور السماء الآن من البحيرة الكبيرة الهادئة .

•

في اليوم التالي كان الطقس رمادياً وعاصفاً وبارداً جداً ، مع ضباب وعواصف مطرية حتى أن كريستين ظنت أنها لن تجرؤ على الاستمرار في السير مع طفلة مريضة ومع الأخ تورغيلس . ولكن الراهب نفسه كان التواق أكثر من الكل . . . لاحظت أنه كان يخشى أن يموت قبل الوصول إلى نيداروس . لذلك اتخذوا طريقهم عبر النجود . ولكن الضباب كان كثيفاً إلى حد أن كريستين لم تكن تجرؤ أحياناً على هبوط الدروب المنحدرة ذات الجروف في الأعلى و الأسفل ، والتي تذكرت أنها تؤدي إلى مأوى الحجاج في دريفدال . وهكذا أشعلوا ناراً حين وصلوا إلى أعلى الوادي واستراحوا هناك ليلاً . وبعد صلاة المساء حكى لهم الأخ آرنغريم حكاية بطولية جيدة عن سفينة معرضة للخطر أنقذتها صلوات الكاهن الموجهة إلى مريم العذراء . لقد خرج نجم الصباح فوق البحر بناء على أمرها .

بدا الراهب وكأنه أحب كريستين . وبينما كانت جالسة قرب النار ، وهي تهدهد وتسكت الطفلة حتى ينام الآخرون ، اقترب منها وبدأ يحكي عن نفسه همساً . كان ابناً لصياد سمك فقير ، وحين أصبح في الرابعة عشرة فقد أباه وأخاه في البحر في إحدى الليالي الشتائية ، ولكنه أنقذ من قبل زورق آخر . وقد اعتبر هذا إشارة ورمزاً ، وعلاوة على ذلك فقد أصبح يخاف البحر ، وهكذا خطر له أن عليه أن يصبح راهباً . ولكنه اضطر للتأجيل ثلاث سنوات وهو قابع في البيت مع أمه ، وقد كدحا وجاعا ، وبقي هو خائفاً من ركوب الزوارق . . . ولكن أخته تزوجت وأخذ زوجها المنزل والحصة في الزورق ، واستطاع هو أن يلتحق بالمينوريت في تونسبرغ . في البداية سخروا منه هناك بسبب وضاعة مولده . . . ولكن الوصيّ كان لطيفاً ووقف منه موقف الصديق . منذ أن دخل الأخ تورغليس أولافسون إلى

سلك الرهبنة فقد أصبح كل الرهبان ورعين ومتواضعين ، رغم أنه كان أنبلهم محتداً من عائلة مرشح غني لرتبة فارس في سلاغن . . . وكانت أمه وأخواته كريمات جداً مع الدير . ولكن بما أنهن قد جئن إلى سكيدان ، وبما أن الأخ تورغيلس قد وقع فريسة المرض ، أصبحت كل الأمور أصعب بكثير مجدداً . وقد شرح الأخ آرنغريم لكريستين أنه كان متعجباً من أن المسيح ومريم كانا يجعلان الطريق شديد القسوة على أقدامهما الرهبانية الضعيفة .

قالت كريستين : "لقد اختاروا الفقر بأنفسهم وهم لا يزالون فوق الأرض ."

"من السهل عليك قول هذه الأمور ، وأنت السيدة الغنية دون شك" ، قال الراهب بغضب . "أضمن أنك لم تعرفي من قبل معنى الصيام . . . " وكان على كريستين أن تذعن له . . .

●

حين نزلوا إلى الأراضي المفلوحة وعبروا أو بدال وسوكنادال ، كان الأخ تورغيلس يحصل أحياناً على حصان أو عربة يركبها لبعض الوقت . ولكنه بدأ يضعف بالتدريج ، وكان رفاق كريستين يتغيرون باستمرار ، فقد كان الناس يفترقون عنهم ويتابعون سيرهم ، ويأتي حجاج جدد ليصحبوهم . وحين وصلوا إلى ستاتورين ، فإنه لم يكن قد تبقى مرافقاً لها أحد ممن عبر معها الجبال باستثناء الراهبين . وفي الصباح جاءها الأخ آرنغريم باكياً وقال إن الأخ تورغيلس قد بصق دماً كثيراً في الليل ، ولم يعد يستطيع التقدم أكثر من ذلك . . . وربما سيصلان نيداروس في وقت متأخر جداً ويفوتهم الاحتفال .

شكرت كريستين الأخوين على صحبتهما وتوجيههما الروحي لها ومساعدتها في رحلتها . وقد دهش الأخ آرنغريم من مدى نفاسة هداياها عند الوداع ، فقد أشرق وجهه . . . أجل ، لابد أن يمنحها هدية بالمقابل ، كما قال ، فأخرج من حقيبته علبة فيها بعض الرسائل . وقد كتب عليها صلوات ورعة مع

كل أسماء الرب عند نهايتها . وقد ترك مكان فارغ في الرسالة لينسخ عليه اسم المتضرّع .

قالت كريستين في نفسها إنه لأمر غير محتمل ألا يعرف الراهب من هي ومن كان زوجها وما كان مصيره حتى لو ذكرت اسم أبيها فحسب . ومع ذلك فقد طلبت إليه أن يكتب : "كريستين ، أرملة" فقط .

●

عبر "غاودال" اجتازت الممرات من حول ضواحي الأبرشيات ، فقد ظنت أنها لو قابلت أناساً من الضياع الكبيرة فقد يحدث أن واحداً أو آخر سيعرف سيدة هوسابي مجدداً ، وكانت تكره أن تُعرف ، رغم أنها لم تكن تعرف السبب . في اليوم التالي صعدت في ممرات الغابة فوق التل نحو الكنيسة الصغيرة فوق فاتسفييلد ، التي كانت مكرسة ليوحنا المعمدان . . . ولكن الناس هناك كانوا ينسبونها إلى القديس إدفين .

كانت الكنيسة مبنية في فسحة ضمن الغابات الكثيفة . وكانت هي والهضبة الصغيرة المدورة وراءها منعكستين في بركة تغذي النبع الشافي . كان هناك صليب خشبي يقف عند النهر ، ومن حوله كانت قد رميت عكاكيز وعصيّ ، وفوق الشجيرات المجاورة علقت خرق وأسمال متبقية من الضمادات .

من حول الكنيسة كانت هناك مساحة مسوّرة بسياج ، ولكن البوابة كانت مغلقة . ركعت كريستين في الخارج ، وفكرت بالزمن الذي كانت تجلس فيه هناك وغاوته في حضنها . عندها كانت ترتدي الحرير ، واحدة من مجموعة من كبار القوم في ملابس فاخرة ، رجالاً ونساء ، من أنحاء الريف المجاور كله . كان سيرا آيليف قريباً منهم حاملاً ناكفه وبيورغولف بقوة . ضمن الحشد في الخارج كانت خادماتها وخدمها . آنئذ كان هناك عبء صلاتها المحرقة أنه لو يتعافى هذا الطفل المسكين التعيس في بدنه وعقله ، فإنها لن تطلب أي شيء آخر . . . ولا حتى أن

تحرر نفسها من الألم الشديد في ظهرها والذي كان يزعجها منذ أن ولدت التوأمين .

فكرت في غاوته وهو جالس فوق حصانه الرمادي فارساً شجاعاً ووسيماً . وكانت هي نفسها : لم تكن هناك نساء كثيرات في عمرها الذي يقترب من نصف مائة من السنين قد بوركن بصحة كصحتها . وقد لاحظت ذلك جيداً خلال رحلتها عبر الجبال . أيها الرب ، امنحني هذا وهذا وهذا . . . ثم سأشكرك ولن أطلب أكثر من هذا وهذا وهذا . . .

لم يبد لها مطلقاً أنها قد صلّت للرب لأي شيء آخر عدا أن يمنحها ما تريده . وقد نالت دائماً ما أرادته . . . معظمه . وهاهي تجلس الآن هنا بروح كلها رضوض . . . ليس لأنها أثمت ضد الرب ، ولكنها لأنها لم تكن راضية عن أنه سمح لها أن تتبع رغبات قلبها حتى نهاية الرحلة .

لم تكن قد أتت إلى الرب مع إكليل غارها ولا مع خطاياها وأحزانها . . . ليس كذلك طالما كان العالم لا يزال يحمل قطرة حلاوة تمزجها مع كأسها . ولكنها قد أتت الآن ، الآن بعد أن تعلمت أن العالم أشبه بحانة . . . حيث هو الذي لم يعد لديه ما ينفقه سيرمى خارج الباب .

لم تشعر بأي متعة في تصميمها . . . ولكن بدا لكريستين أنها لم تكن هي نفسها من صمّم . كان الشحاذون الفقراء الذين يدخلون بيتها قد وصلوا ليأمروها بالتقدم . كانت هناك إرادة أخرى غير إرادتها قد وضعتها ضمن مجموعة الفقراء والمرضى ، وأمرتها أن تذهب معهم ، بعيداً عن البيت الذي كانت فيه السيدة وسيطرت فيه كأم للرجال . ولو أطاعت الآن النداء دون مضض ، فإنها عرفت ذلك لأنها رأت أن غاوته سيكون في حال أفضل بعد أن ترحل هي عن الضيعة . لقد لوت القدر حسب إرادتها ، وكان لها المصير الذي هو من اختيارها . . . ولكنها لم تستطع أن تكيّف أبناءها حسب إرادتها . كانوا كما كيفّهم الرب وكما دفعتهم

طبيعتهم إلى أن يكونوا . لقد غلبت في معركتها معهم . كان غاوته مزارعاً جيداً وزوجاً صالحاً وأباً مخلصاً ، رجلاً باسلاً ، وشريفاً بقدر ما هم معظم الناس . . . ولكنه لم يكن من المادة التي يصنع منها الزعماء ، ولم يكن يميل إلى أن يتوق إلى ما زرعته فيه . ولكنه كان يحبها بما فيه الكفاية بحيث ينزعج حين يعرف أنها تتوقع منه أكثر من قدرته على العطاء . لذلك كانت عازمة الآن على أن تتوسل الملجأ والمأوى ، رغم أنه كان أمراً صعباً على عزتها أن تصل إلى مثل هذا الفقر المدقع إلى حد أنها لم تكن قادرة على تقديم أي أعطيات .

ولكنها كانت تعلم أنها كانت قد تلقت النداء للقدوم . كانت غابات التنوب على الهضبة تنتصب لتشرب من نور الشمس الذي كان يتخلّلها ، وتتنهّد بلطف شديد . كانت الكنيسة الصغيرة هناك مغلقة وصامتة ، تبث رائحة القار . وبتوق فكرت كريستين بالراهب المتوفي الذي أخذ بيدها وقادها إلى توهج حب الرب العميم حين كانت طفلة بريئة بعد . وقد تدخل المرة إثر الأخرى ليقودها إلى طريق الصواب من دروب الخطيئة ، وذلك خلال حياته على الأرض وبعد ذلك . . . وفجأة تذكرت بوضوح النهار ما الذي حلمت به في تلك الليلة فوق الجبل :

لقد حلمت أنها كانت واقفة في نور الشمس في باحة ضيعة كبيرة ، وقد تقدم الأخ إدفين نحوها من باب القاعة . كانت يداه مليئتين بالخبز ، وحين وصل إليها اقتطع كسرة كبيرة وأعطاها إياها . . . لقد فهمت أن عليها أن تفعل ما فكرت فيه ، أن تتوسل الحسنات حين تنزل إلى الأبرشيات . ولكن بطريقة ما أو بأخرى فقد رافقت الأخ إدفين وهاهما كلاهما يسافران معاً ويتسولان . . . ولكن في الوقت نفسه فقد كانت تعرف أن الحلم له معنى مزدوج : لم تكن الضيعة مجرد ضيعة كبيرة ، ولكن بدا لها أنها ترمز إلى مكان مقدس ، وكان الأخ إدفين أحد سكانه . والخبز الذي جلبه وأعطاها منه لم يكن الخبز العادي كما بدا . . . كان

يرمز إلى خبز القربان ، إلى "الخبز الملائكي" ، وقد أخذت الخبز الملائكة من يده . والآن أعطت هي الوعد إلى الأخ إدفين ليكون محفوظاً لديه .

-٥-

وأخيراً وصلت إلى نهاية رحلتها . جلست كريستين لافرانسداتر فوق كومة من القش على جانب الطريق تحت سيونسبورغ . كانت الشمس مشرقة والريح تهبّ . وكان ذلك الجزء من المرج الذي لم يحصد بعد يتماوج أحمر بلمعة حريرية من العشب الذي يطرح البذور . لم تكن المروج حمراء كهذه في أي مكان عدا منطقة تروندهايم . تحت المنحدر استطاعت أن ترى لمحة من الزقاق البحري ، أزرق داكناً ومبقعاً بالزبد . كان نثار أبيض من البحر يندفع ضد الصخور ، بقدر ما كانت قادرة على الرؤية على امتداد الشاطئ تحت "باينس" المغطى بالغابات .

سحبت كريستين نفساً عميقاً . على أي حال ، كان أمراً جيداً أن تكون هنا مجدداً . كان أمراً جيداً رغم أنه غريب أيضاً أن تعرف أنه ليس عليها أن ترحل من هنا بعد الآن . كانت الأخوات المرتديات للون الرمادي في "راين" يتبعن القاعدة نفسها ، أي قاعدة القديس برنارد ، مثل الأخوة في تاوترا . حين نهضت عند صياح الديك وذهبت إلى الكنيسة ، كانت تعرف أن ناكفه وبيورغولف كانا ذاهبين الآن إلى مكانهما في كورس الرهبان . وهكذا ، هاهي قد أتت لتقضيّ شيخوختها مع اثنين من أبنائها . . . ولكن ليس بالأسلوب الذي فكرت فيه .

خلعت حذاءها وجاربيها وغسلت قدميها في النهر . في نيداروس ستمشي حافية القدمين .

من خلفها فوق الممر نحو تل القلعة كان بعض الصبية يلعبون بصخب . . . ويعملون بجّد تحت الحصن الأمامي ، محاولين أن يجدوا طريقاً نحو البناء المنهار . وحين لاحظوها ، راحوا ينادونها بعبارات قذرة وهم يضحكون ويستهزئون . تظاهرت بأنها لم تسمعهم ، حتى قام طفل صغير شقي - في الثامنة من عمره على ما يبدو - بالتدحرج على المرج المنحدر وكاد يصطدم بها ، وهو يصرخ بعبارات بشعة كان قد تعلمها من الصبية الأكبر سناً . التفتت كريستين نحوه وقالت مبتسمة :

"لا حاجة للصراخ حتى تجعلني أعرف أنك جني صغير ، فأنا أرى أنك ترتدي بنطالاً دوّاراً (٦) . . . "

حين لاحظ الصبية أن المرأة ردت عليهم هبطوا جميعاً . ولكنهم صمتوا أو خجلوا حين رأوا أنها امرأة كهلة في ملابس الحج ، وأنها لم تقرعهم بسبب كلماتهم القذرة ، بل جلست تنظر إليهم بعيون كبيرة صافية هادئة وابتسامة صغيرة مختلسة على شفتيها . كان لها وجه مستدير نحيل وجبين عريض وذقن صغير مستدير وبشرة مسفوعة من الشمس وشديدة التجعد تحت عينيها ، ولكنها لم تبد عجوزاً جداً .

وهكذا فإن أجرأ الصبية بدأ يحادثها ويطرح عليها الأسئلة ليخفي ارتباك المجموعة . أحست كريستين أنها كانت قادرة على الضحك . . . بدا هؤلاء الأولاد أشبه بولديها الوغدين ، بالتوأمين حين كانا صغيرين ، رغم أنها صلّت للرب ألا يكون أولادها من ذوي الألسنة القذرة . وقد بدا هؤلاء كأطفال من أطفال العامة من سكان البلدة .

وحين جاءت اللحظة التي كانت تتوق إليها طوال الرحلة ، حين وقفت تحت

الصليب الذي فوق فغينسبريكا ونظرت إلى نيداروس في الأسفل ، لم تستطع أن تستجمع أفكارها للصلاة أو التأمل . دقت كل أجراس البلدة في تلك اللحظة لأجل صلاة المساء ، تحدث الأولاد كلهم معاً ، وأردوا أن يشيروا جميعاً إلى ما كان أمامهم .

لم تستطع أن ترى تاوترا ، بسبب الريح والسديم والأمطار الخفيفة المفاجئة التي كانت تجتاح الزقاق البحري تحت فروستا .

في وسط قطيع الصبيان اتخذت الممر المنحدر الذي كان يؤدي إلى مرتفعات ستانيبرغ . . . والآن راحت أجراس البقر ترن والرعيان تهتف من حولها . . . فقد كانت البقرات تتجه إلى مأواها من مراعي البلدة . عند البوابة في سور البلدة عبر النيدارايد ، كان على كريستين ومرافقيها الصغار أن ينتظروا بينما كان القطيع يقاد عبرها . . . كان الرعيان يصيحون ويصرخون ويلعنون ، وكانت الثيران تنطح والبقرات تتزاحم ، وراح الأولاد يذكرون اسم مالك هذا الثور أو ذاك والثيران تمرّ نحو شوارع البلدة ، وقد عانت كريستين بما فيه الكفاية من العذاب حتى استطاعت أن تشق طريقها بقدميها الحافيتين بين روث البقر فوق الطريق الموحلة .

لحق بعض الصبيان بها دون طلب منها حتى كنيسة المسيح . وبينما وقفت في الغابة المعتمة من الأعمدة وحدقت نحو الأنوار والطلاء الذهبي لمكان الكورس ، راح الأولاد يشدون ثوب المرأة الغريبة إذ كانوا راغبين في أن يجعلوها ترى كل ما يجذب عيون الأطفال . . . من بقع نور الشمس الملونة الساقطة عبر النافذة الوردية بين الأقواس ، وشواهد القبور على الأرضية ، إلى المظلات المصنوعة من المواد الثمينة فوق المذبح . لم تعرف كريستين الهدوء حتى تستجمع أفكارها . . . ولكن كل كلمة كان الأولاد يقولونها كانت توقظ التوق الغافي في قلبها . . . لأبنائها أولاً وقبل كل شيء ، للضيعة والمباني الإضافية والقطيع . . . وكذلك لجهد الأمومة وسيطرتها .

كانت لا تزال كارهة أن يميزها أحد مجدداً بين أصدقائها أو أصدقاء إرلند

في الأيام الخالية . لقد اعتادا كلاهما على التواجد في منزلهما في البلدة في الأعياد وأن يستقبلا ضيوفاً ينزلون معهما في البيت . . . انكمشت من فكرة مقابلة مجموعة منهم . عليها أن تبحث عن أولف هالدورسون ، لأنه كان وكيلها ومسؤولاً عن الحصص التي كانت لا تزال تملكها في بعض المزارع شمال الجبال وتريد الآن أن تدفع لقاء طعامها في دير راين . ولكن من المحتمل أن يكون معه أقرباؤه الآن من المزرعة في سكاون . إذن عليها أن تنتظر . ولكنها كانت قد سمعت أن رجلاً خدم بين صفوف القوات التي كانت تحت إمرة إرلند في أيام كان حاكماً يسكن في منزل صغير في براتورين . كان يعمل مع صيادي الدلافين وخنازير البحر في الزقاق البحري ، ولديه نزل للبحارة .

حين وصلت إلى هناك قيل لها إن كل الأماكن قد سبق لها وشُغلت بالكامل . ولكن وصل الرجل نفسه المسمى آمونده وميزها على الفور . كان غريباً أن تسمعه يصرخ باسمها القديم :

"لابد أني أتخيّل . . . ألست زوجة إرلند نيكولاوسون أوف هوسابي ؟ تحية لك يا كريستين . . . كيف جرى أن تزوريني في بيتي هنا ؟"

كان سعيداً جداً أنها قنعت بمثل هذا المأوى الذي يستطيع تأمينه لها لقضاء ليلتها ، ووعد بأن يبحر بها إلى تاوترا بنفسه في اليوم التالي على الاحتفال .

بقيت حتى وقت متأخر من الليل وهي ساهرة في الباحة تتحدث مع خادمها السابق ، وقد تأثرت بعمق حين لاحظت أن أولئك الرجال الذين خدموا إرلند لازالوا يحفظون ذكرى زعيمهم الشاب بحب وشرف . . . وراح آمونده يتحدث عنه مرة إثر أخرى على أنه "شاب" ، وقد عرفوا من أولف هالدورسون حكاية مصرعه المؤسف ، وقال آمونده إنه ما أن يقابل أحداً من رفاقه القدامى في هوسابي حتى يشربا نخب ذكرى سيدهما الشهم . . . وقد حدث مرتين أن جمع المال لقراءة القداديس على روحه في يوم وفاته . سأل آمونده كثيراً عن أولاد إرلند

وسألته كريستين عن معارفها القدماء . كان منتصف الليل قد حلّ قبل أن تأوي إلى الفراش إلى جانب زوجة آمونده . . . في البداية رفض سوى أن يعطيها سريرهما ، ولكنها أخيراً قبلت عرضه على أن تنام في مكانه .

●

في اليوم التالي كان عيد الشفيع أولاف . ومنذ الصباح الباكر سارت كريستين على امتداد الشاطئ قرب مصب النهر ، وهي تتفرج على الجلبة في أرصفة التحميل . راح قلبها يدق على نحو أسرع حين شاهدت اللورد رئيس دير تاوترا ينزل إلى الشاطئ . . . ولكن الرهبان المرافقين له كانوا جميعاً من كبار السن .

قبل صلاة العصر بوقت طويل كان الناس يتدفقون نحو كنيسة أولاف حاملين مرضاهم ومقعديهم ، حتى يقتربوا من المدّخر حيث كان سيحمل خلال الموكب في اليوم التالي بعد القداس الكبير .

وحين اقتربت كريستين من الأكشاك التي أقيمت قرب السياج من حول باحة الكنيسة . . . لاحظت أنها كانت تبيع على الأغلب اللحم والشراب والشموع والأبسطة المصنوعة من أغصان الأسل أو البتولا لتوضع قرب أرضية الكنيسة . . . وقد وجدت مجدداً تلك العائلة من آندابو وحملت كريستين الطفلة بينما شربت الأم الشابة جرعة من الجعة . في تلك اللحظة وصل موكب الحجاج الإنكليز مع الأغاني والرايات والشموع الموقدة ضمن الحشد والازدحام وهو يشق طريقه عبر حشود البشر عند الأكشاك ، ففقدت عائلة آندابو ولم تستطع أن تجدهم مجدداً .

تجولت لفترة طويلة هنا وهناك من حوالي الحشد وهي تهدهد الطفلة الزاعقة . وحين وضعت الطفلة على عنقها لتسكتها بالعناق ، راحت تمص لها جلدها . لاحظت أنها كانت عطشى ، ولم تعرف ما الذي تفعله . بدا لها أن بحثها عن الأم

لن يكون ذا جدوى . عليها أن تنزل إلى الشوارع وتبحث لها عن حليب . ولكنها حين وصلت إلى "الشارع الطويل العلوي" وأرادت أن تتجه شمالاً ، رأت حشداً كبيراً من الناس مجدداً . . . ومن الجنوب وصل موكب من الفرسان ، وفي الوقت نفسه كان الجنود من القصر يسيرون في الحيّز بين الكنيسة ومنزل الرهبان المصلوبين . دُفعت كريستين جانباً إلى أقرب حارة . ولكن هنا كان الناس مسرعين أيضاً إلى الكنيسة راكبين ومشاة ، وازداد الحشد حتى اضطرت إلى اللجوء إلى سور حجري .

كان الهواء فوقها مترعاً بصخب الأجراس . . . فأجراس الكاتدرائية كانت تدق لصلاة الصباح . توقفت الطفلة عن الزعيق لدى سماعها الصوت . . . نظرت إلى السماء ، وظهر شعاع من الفهم في عينيها الكابيتين . . . فابتسمت قليلاً . أشفق قلب الأم في كريستين فانحنت وقبلت الفتاة الصغيرة المسكينة . ثم لاحظت أنها كانت جالسة فوق السور الحجري لحديقة منزل نيكولاوس ، بيتهم القديم في المدينة .

. . . كان عليها أن تعرف جيداً المدخنة الحجرية البارزة عبر سقف الخث . . . ومؤخرة مبنى القاعة . إلى القرب منها كانت منازل المستشفى الذي كان حتى مشاركته الحديقة معهم يثير حفيظة إرلند .

ضغطت ابنة المرأة الغريبة إلى صدرها وقبلتها المرة تلو الأخرى . ثم لمس أحدهم ركبتها .

. . . كان راهباً في الرداء الأبيض والقلنسوة السوداء الخاصين بالأخوة الواعظين . نظرت إلى الوجه الأصفر الشاحب ذي الأخاديد للرجل العجوز . . . والفم الطويل الضيق الأدرد ، والعينين العنبريتين الغائرتين .

"هل هذا ممكن . . . أهذه أنت يا كريستين لافرانسداتر ؟" وضع الراهب ذراعيه المتصالبتين فوق السور ودفن وجهه فيهما . "أأنت هنا ؟"

"غونولف !" عندما سمع ذلك حرك رأسه حتى لمس ركبتها حيث كانت جالسة : "أتعتقد أن أمر غريب جداً أن أكون هنا ؟" ثم تذكرت أنها كانت جالسة فوق سور حديقة هذا المنزل الذي كان ملكاً له في البداية ثم ملكاً لها لاحقاً ، وفكرت في أنه أمر غريب حقاً .

"ولكن من هذا الطفل الذي تضعينه على ركبتك . . . طبعاً لا يمكن أن يكون هذا ابن غاوته ؟"

"كلا . . . " وعندما تذكرت وجه ابن إرلند المعافى العذب وجسمه القوي الجميل ، ضغطت الطفلة الغريبة المسكينة إليها وقد غلبتها الشفقة : "هذه طفلة امرأة عبرت الجبال معي" .

. . . ولكنها تذكرت آنئذ ما رآه أندرس سايمونسون من خلال حكمته الطفولية . حدقت إلى الطفلة المثيرة للشفقة في حضنها وقد امتلأت بالتبجيل .

إلا أن الطفلة عادت إلى البكاء مجدداً ، فسألت الراهب أولاً وقبل كل شيء إن كان يستطيع أن يخبرها أين يمكنها أن تجد حليباً للطفلة . قادها غونولف شرقاً نحو الكنيسة إلى منزل الأخوة الواعظين ، وحصل لها على وعاء من الحليب . وبينما راحت كريستين تطعم الطفلة تحدثا معاً ، ولكن حديثهما كان متقطعاً .

"لقد مرّ وقت طويل وجرت أحداث كثيرة منذ التقينا لآخر مرة " قالت بحزن . "وصعب عليّ أن أنقل إليك أيضاً النبأ . . . نبأ أخيك ."

"فليرحم الرب روحه المسكينة" ، همس الأخ غونولف بصوت راجف .

ولكن حين سألته عن ابنيها في تاوترا تكلم غونولف بطلاقة أكبر . فقد استقبل الدير بسعادة كبيرة هذين المبتدئين المنتمين إلى إحدى كبريات الأسر في البلاد . لقد بدا أن نيكولاوس كان ذا مواهب عقلية ممتازة وقد قطع أشواطاً كبيرة في العلم والورع حتى أن رئيس الدير راح يتذكر على الدوام جده النبيل ، بطل الكنيسة الموهوب ، الأسقف نيكولاوس أرنسون . كان ذلك في الأيام

الأولى . ولكن بعد فترة من استلام الأخوين لقلنسوة الرهبان ، فإن نيكولاوس قد أساء التصرف إلى حد خطير وسبّب الكثير من المشاكل في الدير . لم يكن غونولف عارفاً بأسباب المشكلة بالكامل . . . ومن هذه الأسباب أن رئيس الدير يوهانس لم يقبل رسم الأخوين الشابين ككاهنين قبل أن يبلغا الثلاثين من العمر ، وقد رفض التخلي عن هذا المبدأ لأجل نيكولاوس . وبما أن الأب المبجّل قد اعتبر أن نيكولاوس قد قرأ وتأمل أكثر مما يلائم نضجه الروحي ، وأنه كان يخرب صحته بالممارسات الورعة ، فقد فكر أنه أمر ملائم إرساله إلى أحد مزارع الدير التي تربي الأبقار في إنديرو ، للعمل هناك تحت إشراف الرهبان الأكبر سناً ، وذلك لزرع بستان تفاح . ثم يقال إن نيكولاوس قد عصى أوامر رئيس الدير واتهم أخوته من الرهبان بأنهم بدّدوا أملاك الدير في العيش عيشة فخمة وأنهم كانوا كسالى في عبادة الرب وأن حديثهم كان متحرراً دون قيود . وقد أبقيت هذه القضية ضمن جدران الدير ، وكان ذلك أمراً معقولاً . ولكن يقال أيضاً إنه قد تحدى الأخ الذي عينه رئيس الدير ليؤدبه . وقد بقي بعض الوقت في زنزانة العقاب ، كما عرف غونولف ، ولكنه عاد ليتواضع منذ أن هدد رئيس الدير بفصله عن أخيه بيورغولف ، وإرسال أحدهما إلى مونكابو . . . لكأنما كان الأخ الأعمى يحثه على الاستمرار . ولكن عند ذلك التهديد أصبح نيكولاوس طيعاً ونادماً .

"إنها طبيعة أبيهما التي ورثاها عنه" ، قال غونولف بمرارة . "لم يكن هناك من يتوقع من أبناء أخي أن يتعلموا الطاعة بسهولة ، أو أن يبدوا إخلاصاً لحياة الورع والتقوى . . . "

"يبدو أن هذا ميراثهم من أمهم" ، أجابت كريستين بحزن . "التمرد كان خطيئتي الكبرى يا غونولف . . . وأنا كنت غير مخلصة أيضاً . في كل أيام حياتي كنت أتوق إلى الذهاب في الطريق الصحيح وأن أتبع دروبي المضلّلة أيضاً . . . "

"أتعنين أنها دروب إرلند المضللة ؟" قال الراهب بغموض . "لم يضلّلك

أخي مرة واحدة عن الطريق القديم يا كريستين . أعتقد أنه ضلّلك في كل يوم عشته معه . مثل هذا النسيان قد زرعه فيك حتى لا تتذكري ، حين كنت تفكرين بأفكار أنت نفسك كنت تتضرجين خجلاً منها ، ولم تكوني قادرة على إخفاء أفكار قلبك عن الرب كليّ المعرفة . . . "

حدقت كريستين أمامها .

"لا أعرف الآن يا غونولف إن كنت على حق في هذا . . . لا أعتقد أني نسيت في أي وقت أن الرب يرى ما في قلبي . . . وإن إثمي أكبر لهذا السبب على الأرجح . وعلاوة على ذلك كله ، فإن الأمر ليس كما تظنه ، من أني كنت في حاجة إلى أن أحمرّ خجلاً بسبب استهتاري الشديد وضعفي . . . بل بالأحرى علي الشعور بالخجل من أن أفكاري عن زوجي كانت في أحيان كثيرة مريرة أكثر من سم الأفاعي . ولكن من المحتمل أن الأمور كان لابد أن تصل إلى هذا الحد . . . كنت أنت الذي قال لي ذات مرة إن اللذين يحبّان واحدهما الآخر برغبة شديدة الحرارة يصبحان في النهاية حيتين خبيثتين جداً تعض الواحدة ذيل الأخرى .

"ولكن كان ما يمنحني الراحة والسلوان في تلك السنوات يا غونولف كلما فكرت كيف كان مصير إرلند أن يذهب إلى ملكوت الرب دون أن ينال القربان الأخير ودون مساعدة ، وأن يقع والغضب في قلبه والدم على يديه – وأنه لم يصبح – ما قلته أنت وما أصبحت أنا عليه . لقد حمل في ذهنه الغضب والظلم الذي لحق به ، ولم يكن يحمل في ذهنه شيئاً آخر . . . يا غونولف ، لقد كان شديد الوسامة وبدا عليه السلام حين واريت جسده التراب . . . وآمل أن الرب كلي المعرفة يعرف أن إرلند لم يحمل ضغينة تجاه أي إنسان ولأي سبب كان . . . "

حدق الأخ إليها بعينين مفتوحتين على آخرهما . ثم أومأ برأسه .

بعد برهة سألها الراهب :

"أتعرفين أن آيليف سيركسون هو كاهن ومستشار للراهبات في راين ؟"

"كلا" قالت كريستين وهي تشع سعادة .

"لقد ظننت أنك قد اخترت الدخول إلى هناك لأجل ذلك" ، قال غونولف . وسرعان ما قال إن عليه العودة إلى ديره .

•

كان الجزء الأول من الصلاة قد سبق له وبدأ حين دخلت كريستين إلى الكنيسة . في الصحن ومن حول المذبح كان هناك حشد من الناس ، ولكن أحد حملة الصولجان الذي رأى أنها كانت تحمل طفلة مريضة جداً بين ذراعيها ، دفعها إلى الأمام عبر الزحمة حتى وصلت إلى المقدمة بين الكثير من المقعدين والمرضى الذين هم في أسوأ حال ، وقد تجمعوا في وسط الكنيسة تحت القبة الكبيرة وأمام الكورس .

كانت مئات كثيرة من الأنوار موقدة في الكنيسة . . . وأخذ خدم الكنيسة شموع الحجاج وثبتوها فوق أبراج صغيرة لها شكل الهضاب مزينة بالرماح وضعت على امتداد الصحن والجناحين . ومع تلاشي نور النهار خلف الألواح الزجاجية ذات الألوان المتعددة ، أصبحت الكنيسة أدفأ مع رائحة الشمع المحترق ، وسرعان ما امتلأت أيضاً بالرائحة الحامضة لأسمال المرضى والفقراء .

وحين ارتفع نشيد الكورس تحت السقف المعقود ودوّى الأرغن وصوت النايات والطبول والآلات الوترية ، فهمت كريستين السبب في أن الكنيسة كانت تسمى بالسفينة . . . في ذلك المبنى الحجري الكبير كان كل هؤلاء الناس فوق متن سفينة ، كما كان الغناء أشبه بهدير البحر الذي يحملها . ثم هدأ كل شيء ، كما يحدث حين تهدأ الأمواج ، وارتفع صوت رجل واحد يحمل الموعظة إلى الحشد المستمع .

كانت الوجوه المتزاحمة قد أصبحت أكثر شحوباً وإنهاكاً مع تقدم ليلة

العيد . لم يخرج أحد تقريباً بين الصلوات ، خاصة أولئك الذين كان لديهم أمكنة في وسط الكنيسة . بين أجزاء الصلاة كانوا يغفون أو يصلون . نامت الطفلة طوال الليل تقريباً . . . ومرة أو اثنتين اضطرت كريستين إلى هدهدتها قليلاً أو إلى أن تعطيها الحليب من القارورة الخشبية التي جلبها لها غونولف من الدير .

كان لقاؤها مع شقيق إرلند قد أثار فيها الكثير من المشاعر الغريبة . . . خاصة وأن كل خطوة من الطريق إلى هنا قد أوصلتها أقرب فأقرب إلى ذكرى الرجل الميت . كانت قد فكرت قليلاً فيه في السنوات التي مضت ، إذ كان عملها لأجل أبنائها لا يمنحها سوى القليل من الوقت لتتذكر مصيرها . . . ومع ذلك فإن فكرتها عنه كانت وراءها وقريبة منها ، ولكن لم يكن لديها الوقت الكافي لتلتفت نحوها . والآن بدا لها أنها ترى روحها كما كانت خلال هذه السنوات . لقد عاشت كما يعيش الناس في الضيعة عبر الصيف المليء بالأشغال ، وذلك حين ينتقلون من القاعة الكبرى ليسكنوا في عليلة المخزن . طوال النهار كله كانوا يمرون جيئة وذهاباً بالقاعة الشتوية ، دون التفكير في الذهاب إلى هناك ، رغم أنه لم يكن أمامهم سوى أن يضعوا يدهم فوق المزلاج ودفع الباب . وحين يحدث أخيراً في يوم من الأيام أن تكون لديهم مهمة هناك ، يجدون المنزل وقد أصبح غريباً وكئيباً تقريباً ، وذلك بسبب جو الوحدة والهدوء الذين دخل إليه . . .

وبينما كانت تحدثه ذاك الذي كان آخر شاهد حيّ على التفاعل بين فترة البذار والحصاد في حياتها مع الرجل الميت ، فقد بدا لها أنها قد توصلت إلى أن تنظر إلى حياتها بطريقة جديدة . كما يحدث حين يصعد رجل إلى مرتفع فوق موطنه حيث لم يسبق له أن تسلقه من قبل ، وينظر منه إلى واديه . إنه يعرف كل مزرعة وسياج وكل أجمة وكل أخدود وكل نهر ، ولكنه يبدو وكأنه يرى للمرة الأولى كيف أن هذه الأشياء تقع كلها على وجه الأرض . وهو إذ يرى الأشياء بهذه الطريقة الجديدة ، فقد وجدت فوراً كلمات جرفت بعيداً كل مرارتها ضد

إرلند وكل مخاوفها على روحه ، التي حملها معه موته المفاجئ . لم يسبق لها أن أضمرت نية سيئة تجاه أي شخص . لقد رأت ذلك الآن ، وكان الرب يراه دائماً .

وهكذا توصلت أخيراً إلى حد اعتبار أنها تستطيع أن تنظر إلى حياتها كما من أعلى هضبة إلى واد . والآن كان طريقها يؤدي إلى واد معتم ، ولكن قبل أن تسير في ذلك الطريق فقد منحت الإذن لتفهم أنه ، في وحدة الدير وعلى أبواب الموت ، هناك كان ينتظرها شخص كان يرى على الدوام حياة البشرية كما يرى الناس الأبرشيات من قمة الجبل . لقد رأى الخطيئة والحزن ، الحب والكره ، في قلوب الرجال ، كما يرى المرء الضياع الغنية والأكواخ المتواضعة وحقول القمح الريانة والقفار المهجورة ، كلها محمولة على صدر الريف نفسه . ثم نزل . وطئت قدماه الأراضي المأهولة بالناس ووقف في قصور وفي أكواخ . وقد قام بجمع الأحزان والخطايا الخاصة بالأغنياء والفقراء ورفعها معه فوق صليب . ليس سعادتي واعتزازي بنفسي ، ولكن خطيئتي وحزني ، آه أيها الرب الجميل . . . رفعت نظرها إلى حيث كان الصليب مرفوعاً فوق قوس النصر .

. . . وبينما كانت شمس الصباح تنير الألواح الزجاجية الملونة العالية بين أعمدة الكورس ، وكان هناك تألق للجواهر الحمراء والبنية والخضراء والزرقاء والتي كانت تبهت النور من الشموع فوق المذبح ومن الضريح الذهبي إلى الخلف ، أصغت كريستين إلى آخر صلاة . . . صلاة الصباح . كانت تعرف أن الدروس في هذه الصلاة تحكي عن معجزات شفاء ربانية عبر القدرة الممنوحة لهذا الفارس المؤمن الملك أولاف هالدورسون . رفعت الطفلة الغريبة المريضة نحو الكورس ، وصلّت من أجلها .

ولكنها كانت بردانة جداً من صلاتها الطويلة في جو الكنيسة القارس حتى اصطكت أسنانها . وقد أحست بالضعف من الصيام . كانت رائحة ذلك العدد الكبير من الناس والأبخرة المغثية للمرضى والشحاذين المختلطة مع دخان الشموع والتي تحولت كلها إلى غيمة ثقيلة دهنية لزجة فوق الناس الراكعين فوق الأرضية

الحجرية الذين يشعرون بالبرد في هذا الصباح القارس . ولكن امرأة ريفية بدينة ولطيفة ومرحة كانت قد جلست وقد غلبها النعاس قليلاً عند أسفل عمود وراءهما مباشرة ، وقد وضعت تحتها جلد دب وآخر فوق ساقيها العرجاوين ، استيقظت الآن ووضعت رأس كريستين المنهك فوق حضنها العريض : "ارتاحي قليلاً يا أختاه . . . أنت في حاجة إلى الراحة كما أعتقد . . . "

نامت كريستين في حضن المرأة الغريبة وحلمت :

خطت فوق عتبة غرفة الموقد القديمة في البيت . كانت شابة وعازبة ، فقد رأت ضفائرها البنية السميكة دون غطاء وقد تدلت من فوق كتفيها . كانت في صحبة إرلند فقد كان قد طأطأ رأسه بعد الدخول من الباب قبلها .

عند الموقد كان أبوها جالساً وهو يثبت رؤوس السهام فوق قصباتها . . . كان حضنه مليئاً بحزمات من الأوتار وعلى كل جانب منه على المقعد أكوام من رؤوس الأسهم والقصبات المسنونة . وما أن دخلا ، حتى انحنى فوق الحجرات وتناول الفنجان المعدني ذا السيقان الثلاث الذي كان يستخدمه دائماً لإذابة الراتنج فيه . ولكنه أعاد يده بسرعة وهزها في الهواء ، ثم أقحم رؤوس أصابعه التي احترقت في فمه ومصّها ، بينما التفت برأسه نحوها ونحو إرلند ، ونظر إليهما بجبين متغضن وابتسامة على شفتيه .

ثم استيقظت وقد تبلّل وجهها بالدموع .

ركعت خلال القداس السامي حين أقام كبير الأساقفة نفسه الشعائر أمام المذبح العالي . كانت غيوم من البخور تتدحرج عبر الكنيسة المدوية ، حيث كان نور الشمس ذو الألوان المتعددة يختلط بنور الشموع الموقدة . كانت الرائحة النضرة المعطرة للبخور قد انتشرت حتى الخارج وغلبت على رائحة الفقر والمرض . وبقلب بدا وكأنه يتفجر من الشفقة على حشد المرضى والمعوزين الذين وضعها الله بينهم ، صلت في اندفاعة من الحنان الأخوي لكل أولئك الفقراء كما هي ،

والذين عانوا كما عانت هي نفسها . . .

. . . "سوف أنهض وأذهب إلى أبي . . . "

- ٦ -

كان الدير مبنياً على أرض مرتفعة قرب الزقاق البحري ، لذلك كان دوران الموج فوق الشاطئ - مع معظم الرياح - يغرق أنين غابات الصنوبر التي تغطي الجزء الأكبر من منحدرات الجبل ، شمالاً وغرباً ، وتخفي البحر عن الأنظار .

كانت كريستين قد شاهدت برج الكنيسة فوق الأشجار حين أبحرت إلى القرب منها مع إرلند ، ولكن الحج إلى دير الراهبات الذي أسسه جده ، والذي كان إرلند يقول أحياناً إن عليهم القيام به ، لم يحصل . لم يكن قد سبق لها الرسو عند دير راين قبل أن تجعله مكاناً لسكناها .

كانت تظن أن الحياة هنا ستكون مثل تلك التي عرفتها في الأديرة في أوسلو أو في باكه ، ولكن كان الأمر مختلفاً عما هو هناك ، وكان أكثر هدوءاً بكثير . هنا كانت الأخوات منعزلات تماماً عن الدنيا . وكانت الليدي رانغهليد رئيسة الدير تتفاخر بأنه مضت خمس سنوات منذ أن نزلت إلى بلدة السوق ، ومنذ ذلك الحين لم تخط أي من راهباتها خارج حدود الدير .

لم يكن هناك أي أطفال مطلوب تغذيتهم ، وفي الحين الذي وصلت فيه كريستين إلى راين ، لم يكن فيه مبتدئات أيضاً . لقد مرّ وقت طويل منذ أن جاءت فتاة شابة إلى الدير للانضمام إلى سلك الراهبات ، ولقد مرّت ستة

شتاءات منذ انضمام آخر أخت واسمها الأخت بورغهيلد مارسيلينا وارتدت الحجاب . كانت أصغرهن سناً الأخت توريد ، ولكنها كانت قد أرسلت إلى هناك في سن السابعة من قبل جدها لأبيها الذي كان كاهناً في كنيسة كلمنت ، وهو رجل صارم ومتحمس جداً ، وكان للطفلة منذ ولادتها يد ذاوية ، كما كانت تعاني من الشلل نوعاً ما ، لذلك فقد ارتدت الرداء حين وصلت السن المحددة لذلك . والآن كانت هي في الثلاثين من العمر ، إلاّ أنها ضعيفة البنية إلى حدّ يثير الحزن ، وإن كان لها وجه جميل . ومنذ اليوم الأول الذي وصلت فيه إلى الدير وجدت كريستين متعة كبيرة في خدمتها ، فقد كانت الأخت توريد تذكرها بأختها الصغيرة أولفهيلد التي ماتت في سن مبكرة .

لقد قال سيرا آيليف إن انتماء المرء إلى أسرة وضيعة لا يجب أن يقف في طريق أي فتيات ينوين القدوم إلى هنا لخدمة الرب . ورغم ذلك ، فقد حدث منذ أن بني الدير أنه لم تدخله سوى بنات أو أرامل الرجال الكبار من محتد نبيل من منطقة تروندهايم إلا في حالات قليلة . ولكن حدث خلال الأيام الرديئة والمضطربة التي عرفتها المملكة منذ وفاة الملك هاكون هاليغ طيب الذكر ، أن الورع بدأ وكأنه يتناقص إلى حد كبير بين كبار النبلاء . . . وقد أصبحت بنات سكان المدن والمزارعين الأغنياء على الأغلب هن من يلتفتن بأفكارهن إلى حياة الدير . وقد كن يلجأن إلى "باكه" حيث غذيت الكثيرات منهن على الورع والمهن اليدوية النسائية ، وحيث الأخوات على الأغلب من العامة . وهناك أيضاً كانت القاعدة عدم الصرامة ، ولم يكن الدير بعيداً جداً عن الطريق العام .

وعلى أي حال ، لم يكن قد أتيح لكريستين أن تكلم سيرا آيليف كثيراً ، وسرعان ما لاحظت أن واجبات الكاهن ومكانته في الدير كانت مرهقة وحساسة . ورغم أن "راين" كان ديراً غنياً ولم يكن عدد الراهبات يصل إلى نصف العدد الذي تستطيع المؤسسة أن تغذيه ، ومع ذلك كانت شؤونه المالية في

حالة من الفوضى الكبيرة ، وكان من الصعب عليه أن يلبي النفقات . وكانت آخر ثلاث رئيسات للدير أكثر ورعاً من الالتفات إلى أمور الدنيا ، ومع ذلك فقد حاربن هن وديرهن بكل ما فيهن من طاقة ليتحررن من طاعة كبير الأساقفة . . . وقد تمادين في ذلك إلى حد أنهن لم يقبلن حتى النصيحة التي تقدم بنيّة أبوية صادقة . وكان الرهبان من هذه الأخوية نفسها القادمون من تاوترا ومونكابو ، والذين اختيروا ليكونوا كهنة لكنيسة الدير ، من الرجال العجائز دائماً ، حتى لا يتاح المجال أمام الكلام الشرير ؛ ولكن توجيههم لأمور الدير الدنيوية لم يكن شديد المهارة . وحين بنى الملك سكوله الكنيسة الحجرية الجميلة ومنح ضيعته الإرثية إلى الدير ، بنيت المباني من الخشب في البداية ، ولكنها احترقت قبل ثلاثين شتاء . وقد بدأت الليدي أودهيلد التي كانت رئيسة الدير آنذاك ببنائها من جديد من الحجر . وقد بذل الكثير في عهدها لتحسين الكنيسة ، وقد بنيت قاعة الدير الجميلة آنذاك . كما كانت قد سافرت أيضاً إلى المقر الأم للأخوية في "تار" (٧) في بورغوندي ، وقد جلبت من تلك الرحلة البرج العاجي الرائع الذي كان منتصباً في الكورس قرب المذبح العالي . . . وهو مأوى ملائم لجسد الرب ، وأعظم زينة من زينات الكنيسة وفخر الراهبات وكنزهن الغالي . وقد خلفت الليدي أودهيلد وراءها أطهر سمعة من حيث الورع والقيمة ، ولكن إدارتها غير الماهرة لأعمال البناء ، وتصرفاتها غير الحكيمة بأراضي الدير قد انتهت إلى تخريب لمصالح الدير ولم تكن للرئيسات اللاحقات يتحلين بالمهارة لإصلاح الخراب .

لم تعرف كريستين قط كيف أن سيرا آيليف قد أرسل إلى هناك ككاهن ومستشار ، ولكنها فهمت أنه من البداية استقبلته الرئيسة والراهبات كشخص غير إكليركي وذلك بالكراهية وعدم الثقة . وهكذا كانت مهمة سيرا آيليف في راين أن يكون كاهناً للراهبات والمرشد الروحي لهن ، وأن يعيد إدارة ممتلكات الدير بحيث يقف على قدميه مجدداً ، وأن يعيد النظام إلى شؤون الدير المالية ، بينما

أذعن لرئاسة الرئيسة وحق الراهبات في الإدارة الذاتية وحق رئيس دير تاوترا في الإشـراف على كل شيء ، وكـذلك الحـفـاظ على الصـداقـة مع الكاهن الآخـر للكنيسة ، وهو راهب من تاوترا . كـانت سنّه وسمعته الطاهرة التي لا تشوبها شائبة وورعه ومهارته في القانون الشرعي وقانون البلاد ، قد وضعته في مكانة طيبة ، ولكن كان عليه أن يتوخى الحذر في كل ما يفعل . كان يسكن مع الكاهن الآخر وخدم الكنيسة في منزل صغير يقع إلى شمال شرق الدير . وكان يسكن هناك أيضاً الرهبان القادمون من تاوترا في المناسبات العديدة . وقد عرفت كريستين أنها لو عاشت بما فيه الكفاية فإنه سيحدث في وقت ما بعد أن يرسم نيكولاوس كاهناً ، أن تسمع ابنها البكر وهو يتلو القداس في كنيسة الدير .

●

في البداية استقبلت كريستين لافرانسداتر كواحدة من العامة (انظر الهامش رقم (٣١) من الجـزء الأول من هذه الرواية "إكليل العـروس") . ولكن بعد أن أقسمت يمين الطهارة والطاعة أمام رئيسة الدير والأخوية ، أمام الليدي راغنهيلد والراهبات ، في حضور سيرا آيليف وراهبين من تاوترا ، وكدليل على أنها تخلت عن كل حقوقها في الأملاك الدنيوية ، فقد وضعت ختمها بين يدي سيرا آيليف ليكسّره ، وقد أذن لها أن ترتدي رداء أشبه بما ترتديه الراهبات عدا الوشاح الكتفي . كان الرداء صوفياً أبيض اللون مع غطاء رأس كتاني أبيض وحجاب أسود . وكانت النية معقودة على أنه بعد مرور بعض الوقت ، فسوف تطلب أن تقبل في الأخوية كراهبة منذورة .

ولكن كان لا يزال صعباً عليها ألا تفكر كثيراً فيما حدث سابقاً . ولأجل التلاوة بصوت مرتفع خلال وجبات الطعام في حجرة الطعام ، كان سيرا آيليف قد كتب باللغة النرويجية كتاباً حول حياة المسيح ألفه الرئيس العام لرهبنة المينوريت ، بونافنتورا العالم العلامة واللاهوتي الورع . وبينما راحت كريستين تصغي إلى

ذلك وقد امتلأت عيناها بالدموع وهي تفكر كم كانوا مباركين أولئك الذين استطاعوا حب المسيح وأمه والآلام والمعاناة والفقر والضعة ، وذلك على النحو الذي كان مكتوباً في الكتاب . . . ومع ذلك وخلال الوقت كله لم تستطع سوى أن تتذكر ذلك اليوم في هوسابي حين أراها غونولف وسيرا آيليف الكتاب اللاتيني الذي أخذ منه هذا . كان كتاباً صغيراً سميكاً ، كتب على ورقّ رقيق جداً وأبيض لامع حتى أنها لم تصدق أبداً أن جلد العجل يمكن أن يكون مرهفاً إلى هذا الحد . وكانت هنا أجمل الصور وأحرف كبيرة فيه ، أما الألوان فراحت تشع كالجواهر أمام الذهب . وبينما راحت تتفرج ، تحدث غونولف ضاحكاً ، ووافق السيرا آيليف بابتسامته الهادئة . . . كيف أن شراء هذا الكتاب قد جردهم من كل فلس يمتلكونه ، حتى اضطروا إلى بيع ملابسهم للحصول على اللحم مع المتسولين في الدير ، حتى عرفوا أن بعض رجال الكنيسة النرويجيين قد وصلوا إلى باريس فاستدانوا منهم .

وحين يحدث بعد صلاة الصباح أن تعود الأخوات إلى المهجع ، تتلكأ كريستين في الكنيسة . في أيام الصباح الصيفية كان أمراً عذباً وممتعاً لها هناك . . . ولكن في الشتاء كان البرد قارساً ، وكان تخشى المكوث في العتمة مع كل تلك الشواهد الحجرية للقبور ، حتى ولو أبقت عينيها مثبتتين على المصباح الصغير الذي كان موقداً على الدوام أمام البرج العاجي وفيه خبز القربان . ولكن سواء كان الفصل شتاء أو صيفاً ، وبينما كانت تتلكأ في زاويتها في كورس الراهبات ، كانت تفكر كيف أن ناكفه وبيورغولف كانا يراقبان الآن ويصليان لأجل روح أبيهما . وأن نيكولاوس هو الذي توسل إليها أن تنضمّ إليهما في هذه الصلوات والترانيم المتعلقة بالتوبة كل صباح بعد صلاة الصباح .

لقد رأت أمامها دائماً هذين الاثنين كما كانت قد رأتهما في ذلك اليوم الرمادي الماطر وهي خارجة إلى دير الرهبان : حين كان نيكولاوس واقفاً أمامها في

البهو فجأة ، طويلاً وغريباً على نحو رائع في رداء الرهبان الرمادي الأبيض ، ويداه تحت الوشاح الكتفي ، ابنها ، ومع ذلك فقد تغير كثيراً . كان شبهه بأبيه هو الذي أثارها على الأغلب إلى ذلك الحد . . . كأنها شاهدت إرلند في رداء الرهبان .

وبينما جلسا وهما يتبادلان الحديث ، وجعلها تحكي له عن كل ما جرى في الضيعة منذ أن غادر البيت ، كانت تنتظر وتنتظر . وأخيراً سألته بخوف إن لم يكن بيورغولف قادماً بسرعة .

"لا أعرف يا أمي" ، أجاب ابنها . وبعد برهة قال : "فيما يخص بيورغولف فقد كان ذاك نضالاً صعباً لجعله ينحني تحت الصليب ويخدم الرب . . . وبدا أنه أمر يخيفه حين يسمع أنك ستكونين هنا . . . لئلا تخطر الكثير من الأفكار مجدداً . . . "

بعد ذلك جلست وهي حزينة إلى حد الموت تحدق إلى نيكولاوس وهو يتكلم . كانت الشمس قد سفعته كثيراً في الوجه ، وكانت يداه منهكتين من الشغل الشاق . . . قال بابتسامة صغيرة إنه اضطر الآن إلى أن يتعلم كيف يفلح بمحراث ويعمل بالمنجل والمحشّ . في تلك الليلة لم تستطع النوم وهي في النزل ، وقد أسرعت إلى الكنيسة حين قرع الجرس لأجل صلاة الصباح . ولكن الرهبان كانوا واقفين على نحو يجعل قلة منهم بوجوه تستطيع مشاهدتها ، ولم يكن ابناها بين هؤلاء .

ولكن في اليوم التالي سارت في الحديقة مع أخ خادم يعمل فيها ، وقد أراها الكثير من النباتات والأشجار النادرة التي اشتهرت بها . وخلال سيرهم انقشعت الغيوم وبرزت الشمس ، ومع رائحة الكرفس والبصل والصعتر ، وأكوام الليلك الأصفر وزهرة الحوض التي كانت تزين زوايا الأحواض التي كانت تلتمع من حبات المطر الكبيرة . ثم وصل ابناها . تقدما كلاهما من الباب الصغير المقوس للمنزل الحجري . واعتبرت كريستين أنها قد سبق لها وذاقت متعة الفردوس حين

رأت الأخوين الطويلين في ثياب ذات لون فاتح يتقدمان نحوها على الممر تحت أشجار التفاح .

ومع ذلك لم يتحدثوا كثيراً معاً . كان بيورغولف صامتاً طوال الوقت تقريباً . لقد أصبح مارداً في الشكل ، فقد كان نموه قد اكتمل الآن . وقد بدا وكأنه خلال الوقت الطويل الذي افترقوا فيه أصبح بصرها أشد حدة . . . والآن للمرة الأولى ، فهمت تماماً المعركة التي خاضها ولداها ، والتي كان لا يزال يخوضها ، وهو يتضخم في الشكل وتتقوى أعضاؤه ، بينما بصيرته الداخلية قد ازدادت حدة وراح يحس أن بصره آخذ بالتراجع . . .

سألها مرة عن أمه بالتبني ، فريدا ستيركاسداتر ، فحكت له كريستين أنها تزوجت .

قال الراهب : "فليباركها الرب . كانت امرأة طيبة . . . كانت أماً طيبة ومخلصة لي ."

"أجل ، أعتقد أنها كانت أماً لك أكثر ممّا كنت أنا" ، قالت كريستين بحزن . "لاشك أنك لم تعرف سوى القليل من قلب الأم لديّ ، حين كنت متعباً جداً في يفاعتك" .

أجاب بيورغولف بصوت خفيض :

"أشكر الرب على أي حال أن العدو لم يستطع أن يجعلني أنحدر إلى ذلك الدرك الذي يجعلني أمتحن قلب الأم لديك . . . رغم أني شعرت بذلك حقاً . . . ولكن رأيت أنك كنت تحملين عبئاً ثقيلاً . . . وبعد الرب كان نيكولاوس هو الذي أنقذني ، في تلك المرات التي كنت فيها على وشك أن أقع فريسة للشيطان . . . "

لم يذكر المزيد من هذا ، ولا عن مسألة ما إذا كانا سعيدين في الدير ، ولا عما يقال عن ارتكابهما الأخطاء وأنهما جلبا العار على نفسيهما . ولكن بدا أنهما أحسا بالسعادة حين عرفا أن غرض أمهما كان أن تصبح راهبة في دير راين .

●

حين جرى بعد ساعة من الصلاة أن عادت كريستين إلى المهجع ورأت الأخوات نائمات كل اثنتين معاً على أكياس من القش في الأسرة ، وهن يرتدين الأردية التي لا يخلعنها قط ، فقد فكرت في مدى عدم تشابهها مع هؤلاء النسوة ، اللواتي لم يعملن منذ يفاعتهن إلا في خدمة خالقهن . كان العالم سيداً يصعب الهروب منه حين يكون المرء قد استسلم لهيمنته . أجل ، وفي الحقيقة فإنها لم تهرب من العالم . . . لقد نبذت منه كما ينبذ السيد القاسي خادماً عجوزاً خارج بابه . . . والآن هاهي قد قُبلت هنا ، كما يقبل السيد الرحيم خادمة عجوزاً ويمنحها برحمته بعض الأعمال الصغيرة ، بينما يؤوي ويطعم المخلوقة العجوز المنهكة الوحيدة . . .

من مبنى نوم الراهبات كان هناك درب مغطى يؤدي إلى مبنى الحياكة . هناك جلست كريستين وحيدة الآن وراحت تغزل . كانت راهبات راين شهيرات بأقمشتهن الكتانية ، وفي تلك الأيام من الصيف والخريف حين تمضي كل الأخوات والأخوات الخادمات إلى حقول الكتان ، فقد كانت تلك أشبه بأيام العيد في الدير . ولكن كان معظم النهار يُقضى في قطف النباتات . كانت الراهبات مشغولات في ساعات عملهن بتجهيز الكتان وغزل الخيطان وحياكة القماش وصنع الأثواب منه . وهنا لم يكن هناك من ينسخ الكتب أو يزينها ، كما كانت تفعل الراهبات في أوسلو تحت إشراف الليدي غروا غوتورمسداتر وبمهارة كبيرة ، ولا كنّ يمارسن مهنة التطريز بالحرير والخيط الذهبي .

خلال فترة ستسمع بفرح أصوات استيقاظ باحة المزرعة . ذهبت الأخوات الخادمات إلى المطبخ لتجهيز الطعام للخدم . لم يكن من عادة الراهبات أن يلمسن الشراب أو اللحم إلا بعد القداس اليومي ، باستثناء حالة المرض . وحين يقرع الجرس لصلاة الفجر ، كانت كريستين تذهب إلى جناح المرضى ، إن كان هناك

من ينزل فيه ، وذلك لتحل محل الأخت أغاتا أو الراهبة التي تكون هناك . كانت الأخت توريد المسكينة تنزل هناك غالباً .

وسرعان ما ستبدأ بالتطلع إلى وجبة الصباح التي تلي الساعة الثالثة من الصلاة والقداس لخدم الدير . وفي كل يوم كانت كريستين تستمتع بهذه الوجبة الجيدة الهادئة . كانت حجرة الطعام مبنية من الخشب ، ولكنها قاعة جميلة على أي حال ، وهناك كانت كل النساء في الدير تأكلن معاً . . . الراهبات على المائدة العليا حيث تجلس رئيسة الدير في الكرسي العالي ، وحيث كان للسيدات العجائز الثلاث من غير الراهبات وهي واحدة منهن مقاعد للجلوس . . . ثم الخادمات إلى الأسفل . وحين تنتهي الصلوات ، كان اللحم والشراب يحمل إلى الداخل ويجلس الجميع ليأكل ويشرب في صمت بسلوك هادئ رفيع ، بينما تقرأ واحدة من الراهبات على الأغلب من كتاب ، وتظن كريستين أنه لو أتيح للناس في الخارج تناول وجباتهم على هذا النحو الجيد ، فقد يميزون أن الطعام والشراب هديتان من الرب ، وسوف لا يحرمون أخوتهم في المسيحية من هاتين الهديتين ، وسوف يفكرون أقل في التشاجر معاً لصالحهم ولصالح أولادهم . ولكنها هي نفسها كانت تحس بشيء مختلف ، حين كانت تحضر مائدتها لقطيع من الرجال المشاغبين بين الضحك والصخب ، بينما الكلاب تتشمّم تحت المائدة أو تدفع بأنوفها وتحصل على عظمة أو ضربة ، حسب مزاج الصبية .

●

كان المسافرون نادراً ما يأتون إلى هنا . أحياناً كانت تتوقف سفينة من مراكز النبلاء في أنحاء العالم وهي مبحرة نزولاً أو صعوداً في الزقاق البحري ، ويصعد رجال وزوجاتهم مع الأطفال والشبان إلى راين ليحيّوا قريبة لهم بين الراهبات . ثم يأتي الوكلاء من مزارع الدير ومسامكه ، ورسول من تاوترا بين الحين والآخر . في مواسم الأعياد التي يُحتفى بها كثيراً : أيام قداس مريم العذراء وعيد القربان ويوم

القديس أندرو الرسول . . . كانت الناس تأتي إلى كنيسة الراهبات من الأبرشيات من كلا جانبي الزقاق البحري ، ولكن خلاف ذلك كان لا يحضر القداديس سوى الفلاحين المستأجرين لأراضي الدير والعمال الذي يقطنون قريباً جداً من الدير . وكانوا لا يحتلون سوى حيّز صغير من الكنيسة الكبيرة .

ثم كان هناك الفقراء . . . المتسولون الذين لهم حصتهم من الجعة واللحم في أوقات محددة بوصايا من أشخاص أغنياء لقاء قداسات سنوية عن أرواح المانحين . . . والذين كانوا يأتون إلى راين يومياً تقريباً ، ويجلسون قرب جدار المطبخ ويأكلون . وحين تخرج الراهبات إلى الباحة كانوا يروون لهن عن أحزانهم ومشاكلهم . مرضى ومقعدون ومجذومون يتجولون داخلين وخارجين . . . كان هناك كثيرون هنا يعانون من الجذام ، ولكن كان الحال هكذا دائماً في الأبرشيات البحرية كما قالت الليدي راغنهيلد . كان الفلاحون المستأجرون يأتون ليطالبوا بتخفيض الإيجارات أو منحهم مهلاً زمنية قبل تسديد الإيجارات ، وكان لدى هؤلاء الكثير ليرووه عن المصاعب والمحن . وكلما زاد بؤس وتعاسة هؤلاء الناس كلما كانوا أشد انفتاحاً وجرأة في إبلاغ الراهبات عن أحوالهن ، رغم أنهم كانوا يضعون اللوم دائماً على الآخرين في مصائبهم ، وكانت شفاههم تنطق دائماً بكلمات ورعة . لم يكن غريباً أن حديث الراهبات في فترة الراحة وفي مبنى الحياكة كان يدور كثيراً حول حيوات هؤلاء الناس . . . أجل فالأخت توريد قالت لكريستين إنه حين تجتمع الراهبات في الدير للتشاور معاً حول الصفقات وما شابه ، كان الحديث يجول ويعود إلى الثرثرة حول الناس الذين كانوا منخرطين في القضايا الآنية . لاحظت كريستين ، ممّا قالته الراهبات ، أنهن كن يعرفن القليل عما كن يتحدثن عنه ، باستثناء ما كن يسمعنه من الناس أنفسهم أو من الخدم الذي كانوا في الخارج في الأبرشية . كم يصدقن بسهولة ، سواء كانت الخادمات يمدحنهن أو يتحدثن بالسوء عن جيرانهن . . . وهي فكرت بغضب بكل الأوقات

التي سمعت فيها أشخاصاً ملحدين من العامة ، أجل ، أجل وحتى راهباً متسولاً مثل الأخ آرنغريم ، يسمون أديرة الراهبات بأوكار الفضيحة ، ثم يتهمون الراهبات بأنهن يبتلعن الإشاعات المضللة والثرثرة البذيئة . . . وكان الأشخاص أنفسهم الذين يأتون إلى هنا ويسمعون الليدي راغنهيلد أو أياً من الأخوات اللواتي يستطعن التحدث إليهن ، كلاماً لا طائل منه ، هم أول من يلوم الراهبات لأنهن يثرثرن فيما بينهن حول الأنباء التي وصلتهن من العالم الذي تخلين عنه . لقد بدا لها أن الأمر هو نفسه فيما يخص حديث الحياة الفخمة لسيدات الدير . . . وقد جاء الكلام من أفواه أشخاص كانوا قد تناولوا وجبة الصباح والفطور من أيدي الراهبات ، بينما كانت خادمات الرب أولئك يراقبن ويصلين ويعملن وهن صائمات ، قبل أن يجتمعن جميعاً لأجل أول وجبة طعام في حجرة الطعام .

وهكذا راحت كريستين تخدم الراهبات بتوقير ملؤه الحب خلال ذلك الوقت الذي يجب أن يمر قبل أن يحين وقت النذور . ما كان يمكنها أن تصبح راهبة جيدة ، كما فكرت . لقد بددت في الخارج الكثير من الموهبة التي قد تتمتع بها في التأمل والورع . . . ولكنها ستكون شديدة الوضاعة والإخلاص بقدر ما يسمح لها الله به . كان الفصل الآن في أواخر الصيف من عام (١٣٤٩) . لقد مر عامان على إقامتها في دير راين ، وقبل موسم عيد الميلاد كانت ستصبح راهبة . وقد وصلتها أنباء سعيدة تفيد أن ابنيها كليهما سيحضران مراسم تكريسها مع موكب رئيس الدير يوهانس . لقد قال الأخ بيورغولف حين سمع بنيّة أمه :

"والآن سيتحقق حلمي . . . لقد حلمت مرتين هذا العام أنه قبل عيد الميلاد سنراها كلانا . . . رغم أنه لا يمكن للأمر أن يكون كذلك بالكامل ، ففي حلمي رأيتها ."

كما فرح الأخ نيكولاوس فرحاً كبيراً . ولكن في الوقت نفسه سمعت أنباء أخرى عنه لم تكن طيبة جداً . لقد أساء معاملة بعض المزارعين هناك في الزقاق

البحري قرب ستاينكر . . . وكانوا على خلاف مع الدير حول بعض حقوق صيد السمك ، وحين وصل إليهم الرهبان ذات ليلة وهم يحطمون سياج قضبان الدير لصيد سمك السلمون ، فإن الأخ نيكولاوس ضرب أحدهم حتى آذاه جدياً ورمى بآخر في النهر وبذلك فقد أثم إثماً كبيراً إذ أنه قام باللعن والقذف أيضاً .

-٧-

بعد أيام قليلة ذهبت كريستين إلى غابات الصنوبر مع بعض الراهبات والأخوات الخادمات ، لجمع الطحالب للصباغ الأخضر . هذا النوع من الطحلب صعب على الجمع ، فهو ينمو في أغلبه فوق الأشجار التي أسقطتها الرياح والأغصان اليابسة . لذلك سرعان ما انتشرت النساء عبر الغابات ثم لم تعد الواحدة ترى الأخرى في الضباب .

استمر هذا الطقس غير المعتاد بضعة أيام . . . دون رياح ، مع ضباب كثيف يبدو بلون أزرق رصاصي غريب فوق البحر ويمتد بعيداً نحو الجبال ، فيرق أحياناً إلى حد كبير حتى أن العين كانت ترى المنطقة المحيطة . بين الحين والآخر كان يتكثف فيهطل رذاذاً ثم يخف كثيراً حتى تظهر بقعة بيضاء حيث كانت الشمس معلقة في الضباب العالي . ولكن كان هناك دفء غريب ثقيل ، كأنه دفء حمام ، وهذا أمر غير معتاد هنا عند الزقاق البحري ، وخاصة في هذا الوقت من العام . . . لقد بقي يومان على عيد مولد العذراء (٨ أيلول / سبتمبر) . . . لذلك راح الناس يتحدثون عن الطقس ويتعجبون متسائلين عمّا يرمز إليه .

كانت كريستين تتعرق في ذلك الحر الرطب الخالي من الحياة ، وكان تفكيرها في ذلك النبأ الذي سمعته عن ناكفه قد أثقل على صدرها . لقد نزلت

إلى أطراف الغابة إلى السياج الخشبي قرب الممر المؤدي إلى البحر ، وبينما كانت واقفة هناك وهي تكشط الطحلب عن الحاجز ، وصل سيرا آيليف راكباً حصانه نحو الدير عبر الضباب . أوقف حصانه وقال بضع كلمات حول الطقس ، وهكذا بدأا يتحدثان . ثم سألت الكاهن إن كان يعرف شيئاً عن قضية ناكفه تلك . . . رغم أنها كانت تعرف أن ذلك لن يفيدها ، فقد كان سيرا آيليف يتظاهر دائماً أنه لا يعرف الشؤون الداخلية لدير تاوترا .

قال الكاهن : "أعتقد يا كريستين أنه ليس عليك أن تخشي من أن هذا سيعيق قدومه إلى هنا في الشتاء ، أعني هذا الأمر سيئ الحظ . لقد كنت تخشين من هذا ، أليس كذلك ؟"

"الأمر أكثر من هذا يا سيرا آيليف . أخشى أن ناكفه ليس ملائماً ليصبح كاهناً ."

"أتظنين أنك تجرؤين على الحكم على مثل هذه الأمور ؟" سأل الكاهن وهو يعقد حاجبيه . ترجل عن حصانه وربطه إلى الحاجز ، ثم انحنى فوق الحاجز وهو يحدق بثبات وبإمعان إلى المرأة . قالت كريستين :

"أخشى أنه صعب على ناكفه الانحناء أمام قانون الأخوية . . . وكان هو شاباً صغيراً حين انسحب من العالم ، ولم يكن يدري ما فاته ، ولم يكن يعرف ماذا في فكره . كل ما جرى في أيام صغره . . . فقدان إرث أبيه ، ومشاهدته للخلاف بين أبيه وأمه ، والذي انتهى بموت أبيه . . . كل هذا اعتمل في نفسه حتى فقد كل الرغبة في الحياة في هذا العالم . ولكني لم أستطع أن ألاحظ قط أن ذلك جعله ورعاً . . . "

"ألم تستطيعي ذلك ؟ . . . ربما كان صعباً على نيكولاوس ، كما هو حال كثير من الرهبان الصالحين الآخرين ، أن ينحني أمام قوانين الأخوية . إنه حاد المزاج ولا يزال شاباً . . . ربما أصغر من أن يفهم ، قبل أن يدير ظهره للعالم ، أن

العالم معلمّ حرفة قاس بقدر ما هو أي سيد آخر ، وفي النهاية فهو حاكم مستبد دون رحمة . وتستطيعين أنت الحكم على ذلك يا أختي كما أعرف . . .

"وإذا حدث أن ناكفه قد دخل الدير لأجل خاطر أخيه أكثر مما هو حباً لخالقه . . . فمع ذلك لا أعتقد أن الرب لن يكافئه على أنه حمل الصليب لأجل خاطر أخيه . إن أم الرب مريم التي أعرف أن ناكفه يبجلّها ويحبها منذ طفولته ، ستريه دون شك وبوضوح ، يوماً ما ، أن ابنها قد جاء إلى هنا ، إلى هذا البيت الدنيوي ليكون له أخاً ويحمل الصليب لأجله . . .

"كلا . . . " حمحم الحصان وقد وضع أنفه على صدر الكاهن . ربت عليه ، بينما قال وكأنما يخاطب نفسه أيضاً : "منذ طفولته وصاعداً تمتع ناكفه بموهبة رائعة ، موهبة الحب والمعاناة . . . أعتقد أنه سيكون ملائماً جداً كراهب .

"ولكن أنت يا كريستين" ، قال وهو يلتفت إلى المرأة ، "أنت التي رأيت الكثير حتى الآن ، على ما أعتقد ، بحيث تثقين بالرب كلي القدرة بثقة أعمق . ألم تفهمي أنه يتحمل كل روح طالما كانت الروح لا تتخلى عنه ؟ أتظنين يا امرأة وأنت لا تزالين طفلة في كهولتك أن الرب يعاقب الخطيئة حين يكون عليك أن تحصدي الحزن والإذلال لأنك تتبعت شهواتك واعتزازك بنفسك فوق دروب حرّم الله على أولاده أن يسيروا فيها ؟ أتقولين إنك قد عاقبت أولادك لو أنهم أحرقوا أيديهم وهم يرفعون الإبريق الذي يغلي والذي منعتهم من لمسه ، أو إن كان الجليد الزلق قد تكسّر تحت أقدامهم بعد أن حذرتهم من السير فوقه ؟ ألم تفهمي حين انكسر الجليد الهش تحت قدميك . . . أنك قد هبطت إلى الأسفل في كل مرة تركت فيها يد الرب وأنك أنقذت من الهوة العميقة في كل مرة ناجيته فيها ؟ ألم يكن الحب الذي ربطك بأبيك حتى حينَ تحديته . وتحديت إرادته بعنادك ، ألم يكن سلواناً وتعزية لك على أي حال حين اضطررت إلى قطف ثمار عصيانك له ؟

"ألم تفهمي بعد يا أختي أن الرب قد ساعدك في كل مرة صليت فيها له ، رغم أنك صليت دون إيمان كامل وبتظاهر وأنه قد ساعدك إلى أبعد ممّا صليت لأجله ؟ لقد أحببت الرب كما أحببت أباك ، ليس بالحماسة التي أحببت بها إرادتك الخاصة ، ومع ذلك فقد حزنت كثيراً حين تخليت عنه . . . ولذلك فإن رحمته تجاهك جعلت الخير ينمو بين حصاد الشر الذي كان عليك أن تحصديه من بذور إرادتك العنيدة . . .

"أبناؤك . . . أخذ اثنين منهم إليه وهما لا يزالان طفلين بريئين . ليس عليك أن تخشي عليهما . والآخرون في حال جيدة . . . حتى لو لم يكن مصيرهم كما كنت تريدينه لهم . لاشك أن لافرانس تمنى ما هو مشابه لك . . .

"وزوجك يا كريستين - ليرحم الله روحه - أعتقد أنك لمته في قلبك على الدوام لطيشه وعنفوانه . ومع ذلك يبدو لي أنه أصعب بكثير على امرأة فخورة بنفسها أن تتذكر أن إرلند نيكولاوسون قد قادك معه عبر العار والخداع والخطيئة الدموية ، لو أنك رأيت ولو مرة واحدة أن الرجل لا يستطيع فعل شيء بالتدبير البارد . وأعتقد تقريباً أيضاً أنه بسبب كونك مصرة على الغضب والقسوة كما في الحب ، فقد تمكنت من الحفاظ على إرلند طالما كنتما لاتزالان كلاكما على قيد الحياة . . . بالنسبة إليه كنت أنت كل شيء . فليساعد الرب إرلند . أخشى أنه لم يتمتع قط بالحكمة ليعرف التوبة الحقيقية على خطاياه . . . ومع ذلك فإن زوجك قد تاب حقاً من أفعاله حين أخطأ في حقك . ذلك الدرس ، على ما أثق ، سينفع إرلند بعد أن مات ."

وقفت كريستين هادئة وصامتة . لم يقل سيرا آيليف المزيد . حرر الرسن وقال لها "السلام عليك" ثم ركب حصانه ومضى بعيداً .

●

حين عادت بعد فترة قصيرة إلى الدير قابلتها الأخت إنغريد عند الباب لتقول لها إن أحد أبنائها قد جاء ليراها واسمه سكوله . كان عند مدخل البهو .

كان جالساً يتحدث مع زملائه في السفينة . . . قفز من مكانه حين شاهد أمه تصل إلى الباب ، آه ، عرفت ابنها من رشاقته السريعة . . . الرأس الصغيرة المرفوعة عالياً فوق كتفيه العريضين والشكل الرشيق طويل الأطراف . وبالفرحة تشع منها تقدمت منه . . . ولكنها توقفت فجأة والتقطت أنفاسها حين رأت وجهه . . . أوه ، من الذي فعل هذا بابنها ؟

بدت شفته العليا وكأنها عجنت حتى رقت . . . لاشك أن ضربة قد حطمتها ، وقد نمت لاحقاً لتكون مسطحة وطويلة ومشوهة وعليها شبكة من الندوب البيضاء . لقد جعلت فمه ملوياً وكأنه قد ثبت على ابتسامة ساخرة . . . كما كانت عظمة أنفه مكسورة فأصبح معوجاً . كان يلثغ قليلاً وهو يتكلم . . . فقد خسر سناً أمامية وكانت سن أخرى سوداء زرقاء وميتة .

أحمر وجه سكوله تحت تحديقة أمه : "أعتقد أنك لا تميزينني يا أمي ؟" ضحك قليلاً ومرر إصبعه فوق شفته . . . ولم تكن واثقة من أنه كان يشير إلى ندبته أو إن كانت تلك مجرد حركة عرضية .

"لم نفترق منذ زمن طويل يا بنيّ حتى لا تعود أمك تميزك من جديد" ، أجابت كريستين بهدوء وبابتسامة صافية .

كان سكوله إرلندسون قد وصل قبل يومين على مركب شراعي صغير وحيد الصاري من بيورغفين ، مع رسائل من بيارن إرلينغسون إلى كبير الأساقفة وأمين الخزينة في نيداروس . وفي وقت لاحق من النهار سارت الأم وابنها في الحديقة تحت أشجار الدردار . والآن بعد أن أصبحا لوحدهما ، فقد حكى لأمه أخبار أخوته :

كان لافرانس لا يزال في آيسلاند . . . لم تكن أمه تعرف حتى أنه قد ذهب

إلى هناك ! أجل ، قال سكوله ، فقد قابل أخاه الأصغر في أوسلو في الشتاء قبل اجتماع النبلاء . وكان برفقة ياما لات هالفاردسون . ولكنها كانت تعرف أن الصبي كان يتوق إلى السفر خارجاً وشق طريقه في هذا العالم ، وهكذا فقد دخل في خدمة أسقف سكالهولت وأبحر إلى هناك .

أجل ، هو نفسه قد سافر في موكب السير بيارن إلى السويد ، وبعد ذلك إلى الحرب في روسيا . هزت أمه رأسها بلطف . . . لم تكن تعرف أي شيء عن هذا أيضاً ! لقد أحب سكوله الحياة ، كما قال ضاحكاً . . . فقد منحته الفرصة لتحية الأصدقاء القدامى الذين تحدث أبوه عنهم كثيراً : الكارليين والإنغريين والروس . كلا ، ندبة الشرف تلك لم يكسبها في الحرب . . . ضحك قليلاً . . . أجل ، حدث ذلك في مبارزة . والشخص الذي سببّها له لم يعد في حاجة قط إلى أن يبحث عن رزقه . ولم يكن سكوله ينوي أن يحكي المزيد عن هذا الموضوع أو عن الحرب ، والآن كان هو كابتن فرسان لدى السير بيارن في بيورغفين ، وقد وعد الفارس في أن يعيد إليه بعض الضياع التي كان أبوها يمتلكها في أوركلادال ، وهي الآن تحت إشراف التاج . . . ولكن كريستين لاحظت أن عيني سكوله الواسعتين الرماديتين بلون الفولاذ قد طغت عليهما نظرة غريبة قاتمة وهو يقول هذا .

"أتعتقد أنك لا تستطيع أن تضع ثقة كبيرة في مثل هذا الوعد ؟" سألته أمه .

"كلا ، كلا" ، هزّ سكوله رأسه . "الصكوك يتم تدوينها الآن . وقد حافظ السير بيارن على كل وعوده التي قدمها لي منذ أن بدأت خدمتي عنده . . . إنه يدعوني بالقريب والصديق . لديّ تقريباً في منزله المكانة التي كانت لأولف في بيتنا" . . . ضحك ولم تلائم الضحكة وجهه المشوه كثيراً .

ولكنه كان أوسم الرجال من حيث شكله الجسدي الآن بعد أن اكتمل

نموه . . . كان يرتدي ملابس قديمة الطراز ، وبنطالاً ضيقاً وكوتاردي صغير يلتصق بالجسم والذي كان لا يصل إلا بالكاد إلى وسط فخذه ومزرراً بأزرار نحاسية صغيرة من الأمام . . . وكانت ثيابه تكشف على نحو غير ملائم تقريباً عن القوة المرنة لجسده . بدا كمن قد خرج بملابسه الداخلية ، كما فكرت الأم . ولكن جبينه لم يتغير وكذلك عيناه الوسيمتان .

"يبدو وكأن هناك شيئاً ما يثقل عليك يا سكوله" ، قالت الأم .

"كلا ، كلا ، كلا" . إنه الطقس فحسب ، قال ، وهو يهز نفسه . كان هناك توقد أحمر بني غريب في الضباب مع هبوط الشمس . برزت الكنيسة فوق قمم الأشجار ، غريبة ومعتمة ، وهي تذوب ضمن السديم الأحمر الكليل . كان عليهم أن يجدفوا على طوال الزقاق البحري ، من مدخله ، وكان هادئاً جداً كما قال سكوله . ثم من جديد تحرك قليلاً وبدأ يتحدث مجدداً عن أخوته .

كان في مهمة جنوباً في البلاد لصالح سير بيارن في هذا الربيع ، لذلك استطاع أن يقدم لها أخباراً جديدة عن إيفار وغاوته ، فقد كان قد ركب جواده براً وشق طريقه عبر الجبال من فاغا إلى الغرب . كانت أمور إيفار حسنة . وقد رزق بابنين في روغنهايم سماهما إرلند وغامال ، وهما طفلان جميلان . "ولكن في يوروندغارد صدف أن كنت خلال وليمة عماد . . . فقد اعتبرت يوفريد وغاوته أنك بمثابة الميتة تجاه هذا العالم الآن ، ولذلك يمكن أن يسموا البنت الصغيرة التي رزقا بها باسمك . ويوفريد فخورة جداً بأنك حماتها . . . أجل ، أنت تضحكين ، ولكن الآن وبما أنك لن تسكني تحت سقف واحد معها ، فتأكدي من أن يوفريد تعرف جيداً أن لها صوتاً قوياً حين تتحدث عن (حماتي ، كريستين لافرانسداتر) . ولكني منحت كريستين غاوتسداتر أفضل خاتم عندي فلها عينان فاتنتان . وتقريباً أعتبر أنها ستكون شبيهتك . . . "

ابتسمت كريستين بحزن :

"سرعان ما ستجعلني أظن يا سكوله أن أبنائي يعتبرونني عظيمة وصالحة شأن العجائز ما أن يواروا الثرى ."

"لا تتكلمي على هذا النحو يا أمي" ، قال الرجل بقوة غريبة . ثم ضحك قليلاً : "تعرفين جيداً أننا نحن جميعاً أخوة ، منذ أن لبسنا البنطال القصير ونحن صغار ، كنا نعتبرك أشجع وأعقل النساء . . . رغم أنك أمسكت بنا بقوة تحت جناحيك مرات كثيرة ، وقد كان علينا أن نرفرف كثيراً على الأرجح ، وربما بقوة قبل أن ننجو من العش . . .

" . . . ولكن تبين بالتأكيد أنك كنت على حق في اعتبار غاوته الوحيد بيننا نحن الأخوة الذي ولد ليكون زعيماً" ، قال ضاحكاً بصوت مرتفع .

"لا حاجة بك إلى أن تسخر مني لأجل ذلك الآن يا سكوله" ، قالت كريستين . . . ولاحظ سكوله أن أمه تضرج وجهها بلون أحمر نضر وشاب . عندها ضحك أكثر :

"صحيح يا أمي . . . أصبح غاوته إرلندسون أوف يوروندغارد رجلاً قوياً في الوديان الشمالية . إن اختطافه لعروسه قد جلب له الكثير من الشهرة" . . . ضحك سكوله ضحكة عالية ، الضحكة التي لا تلائم فمه المشوه . "إنهم يغنون أغنية عن تلك الحادثة ، أجل ، فهم يغنون الآن بأنه قد انتزع الفتاة بالحديد والفولاذ ، وقد حارب أقاربها مدة أيام ثلاثة بلياليها فوق الجبل . . . والوليمة التي أقامها السير سيغورد في سوندبو ، والتي جرى فيها تحقيق الصلح بين الأقرباء بالفضة والذهب ، فلأجل ذلك أيضاً يحصل غاوته على كل المجد في الأغنية . . . ويبدو أنه لا يهم أن هذا كله مجرد كذبة . يسود غاوته الأبرشية كلها وإلى ما وراءها نوعاً ما . . . كما تتحكم يوفريد بغاوته . . . "

هزت كريستين رأسها بابتسامتها الصغيرة الحزينة . ولكنها أصبحت ذا وجه شاب وهي تحدق إلى سكوله . والآن بدا لها أنه شبيه جداً بأبيه . . . على أي

حال ، المحارب الشاب ذو الوجه المشوه لديه معظم طباع إرلند الشهمة . . . ولأنه قد اضطر في وقت مبكر جداً إلى أن يتحكم بمصيره بيديه ، فإن هذا قد منحه حزماً بارداً في الروح كان يملأ قلب أمه بشعور غريب بالأمان . ومع كلمات سيرا آيليف في اليوم السابق وهي لا زالت في ذهنها ، فقد شاهدت كل شيء على الفور . . . رغم خشيتها على أبنائها العنيدين ، ورغم أنها حافظت عليهم بشدة بسبب خوفها . . . ومع ذلك فإنه كان من شأنها أن تكون أقل رضا عن أولادها لو كانوا خنوعين ويفتقدون إلى الرجولة .

ثم سألت مجدداً عن ابنها ، إرلند الصغير . . . ولكن سكوله لم يمنحه الكثير من الاهتمام ، كما يبدو . . . أجل كان قوياً وجميلاً ، وهو يحقق ما يريده في كل الأحيان .

تلاشى الوميض الغريب ضمن الضباب ، الذي يشبه الدم المتخثر ، وبدأ الظلام بالهبوط . بدأت أجراس الكنيسة تقرع . نهضت كريستين وابنها . ثم أخذ سكوله يدها :

"أمي" ، قال بصوت خفيض . "أتذكرين أني رفعت يدي عليك ذات مرة ؟ لقد رميت بمضرب تجاهك في غضب ، وقد أصابك في الجبين . . . أتذكرين ذلك ؟ أمي ، بما أننا لوحدنا الآن ، فقولي هل غفرت لي ؟"

سحبت كريستين نفساً عميقاً . . . أجل ، إنها تتذكر . لقد أمرت التوأمين أن يتابعا مهمتهما في السايتر . . . ولكن حين خرجت إلى الباحة كان الحصان هناك ، يرعى ، وسرج الحمولة على ظهره ، وأولادها يجرون ويلعبون بالكرة . وحين قرعتهم بغضب لأجل ذلك ، رمى سكوله بالمضرب بغضب شديد . . . ولكنها تذكرت على أفضل نحو ما حصل بعد ذلك . . . وكيف أنها اضطرت بعد ذلك إلى أن تتجول في المكان بعين مغلقة بسبب تورم جفنها . . . راح الأخوة ينظرون إليها وإلى سكوله ، وقد نفروا منه كأنه مجذوم . . . رغم أن ناكفه كان قد ضربه

دون رحمة . وراح سكوله يتجول بعيداً وجلس وهو يغلي من التحدّي والعار تحت مظهر قاس مترع بالازدراء . ولكن حين كانت تقف في المساء وهي ترتدي ملابسها في العتمة ، فقد تسلل إليها . . . لم يقل شيئاً ، ولكنه أخذ يدها وقبلّها . وحين لمست كتفه ، رمى بذراعيه من حول عنقها وضغط بخده على خدها . . . كان خده بارداً وطرياً ولا يزال مستديراً . أحست أنه كانت لا يزال خدّ طفل . . . كان مجرد طفل ، على أي حال ، هذا اليافع العنيد الناري . . .

"لقد غفرت لك يا سكوله . . . بالكامل ، والرب وحده يعرف ذلك ، فأنا لا أستطيع أن أخبرك ، كم غفرت لك يا بنيّ !"

وقفت لحظة ويدها على كتفه . ثم أمسكت برسغيها وشدت عليهما بقوة إلى حد أنها أجفلت من الألم . . . وفي اللحظة التالية رمى بذراعيه من حولها بالرقة الانفعالية الخائفة الخجلة نفسها كما في المرة السابقة .

"يا بني . . . ما الذي يزعجك ؟" همست الأم خائفة .

أحست في العتمة أن الرجل هزّ رأسه . ثم أخلى سبيلها ، وصعدا معاً نحو الكنيسة .

•

خلال القداس تذكرت كريستين أنها نسيت أن تجلب عباءة الليدي أسا العمياء من حيث جلستا معاً على المقعد خارج باب الكاهن في ذلك الصباح . بعد الصلاة ذهبت لتحضرها .

تحت الممر المسقوف وقف سيرا آيليف وهو يحمل قنديلاً في يده ومعه سكوله . "لقد مات ونحن نقترب من رصيف التحميل" ، سمعت سكوله يقول هذا بصوت متوتر يائس على نحو غريب .

"من ؟"

أجفل كلا الرجلين بعنف حين شاهداها .

قال سكوله بصوت خفيض : "واحد من رجال سفينتي" .

نظرت كريستين من الواحد إلى الآخر . عندما شاهدت وجهيهما المتوترين الشاحبين تحت نور القنديل صدرت عنها صرخة خوف . عض الكاهن على شفته السفلى . . . لاحظت أن ذقنه ارتجف قليلاً .

"من الأفضل يا بني أن تخبر أمك . الأفضل أن نستعد لسماع الأمر ، إن كانت مشيئة الرب أن يستيقظ هؤلاء الناس على مثل هذا الخبر القاسي جداً . . . " ولكن سكوله أطلق تنهيدة ولم يقل شيئاً . وعند ذلك تكلم الكاهن : "لقد وصل الطاعون إلى بيورغفين يا كريستين . . . الوباء المهلك الذي سمعنا أنه يترك البلاد التي من حولنا يباباً . . . "

"الموت الأسود . . . ؟" همست كريستين .

"لا حاجة إلى إبلاغك عن حال الأمور هناك في بيورغفين حين أبحرت من هناك" ، قال سكوله . "لا يستطيع أحد أن يعرفه ما لم يكن قد رآه . في البداية اتخذ سير بيارن أقسى الإجراءات لقمع النار حين اندلعت ، هناك في المنازل من حول دير يونز . كان يريد قطع كامل نوردنس عن المدينة بسلسلة من الرجال المسلّحين ، رغم أن رهبان دير ميكائيل هددوه بالحرمان الكنسي . . . لقد وصلت سفينة إنكليزية حاملة الوباء فوق متنها ، ومنعهم هو من تفريغ الحمولة أو مغادرة السفينة . وقد مات كل رجل كان على تلك السفينة ، ثم أغرقها . ولكن بعض البضائع كان قد سبق لها وجلبت إلى البر ، وهرّب بعض المواطنين المزيد إلى الشاطئ في إحدى الليالي . . . وقد كان من رأي رهبان كنيسة يونز أنه يجب أن يحصل المحتضرون على الراحة الروحية . . . ثم بدأ الناس يموتون في كل أنحاء البلدة ، لذلك رأينا أن ذلك غير مجدٍ . . . والآن لا يوجد شخص حي في المدينة سوى حملة الجثث . . . لقد هرب الجميع من المدينة ممن استطاعوا ذلك ، ولكن الوباء يذهب معهم . . . "

"يا يسوع !"

"أمي . . . أتذكرين آخر مرة انتشر فيها اللاموس (ضرب من القوارض قصير الذيل) في موطننا في سيل ؟ الحشود منها التي راحت تتدحرج على طول الطرقات والممرات . . . أتذكرين كيف استلقت وماتت في كل أجمة وتعفنت وسممّت كل مجرى بالرائحة المنتنة والقذارة . . . ؟" كوّر قبضتيه . ارتجفت الأم :

"يا إلهي ، ارحمنا جميعاً . . . المجد للرب ولمريم العذراء أنك قد أُبعدت عن ذلك المكان يا سكوله . . . "

صك الرجل أسنانه معاً في العتمة :

"وهذا ما قلناه نحن أيضاً ، رجالي وأنا ، في الصباح رفعنا شراعنا ووقفنا عند فاغن . وحين وصلنا شمالاً إلى مولدو ساوند ، مرض أول واحد فينا . ربطنا حجارة بقدميه وصليباً على صدره حين مات ، ثم تعهدنا بإقامة قداس لروحه حين نصل إلى نيداروس ، ورمينا بجثته في البحر . . . فليغفر لنا الرب . وصلنا إلى الشاطئ مع الاثنين التاليين اللذين مرضا وجلبنا لهما من يقدم لهم السلوان الروحي والدفن المسيحي . . . فإنه لأمر غير مجد الهرب من القدر . ومات الرابع حين دخلنا النهر ، والخامس في الليلة الماضية . . . "

"هل من الضروري عودتك إلى البلدة ؟" سألت أمه بعد برهة . "ألا تستطيع البقاء هنا ؟"

هزّ سكوله رأسه بضحكة خالية من الفرح :

"أوه ، سريعاً على ما أعتقد ، ولن يفيدنا شيء الآن . من العبث الشعور بالخوف . . . فالإنسان الخائف إنسان ميت . ولكن كم أتمنى أن أكون في سنك يا أمي !"

"لا أحد يدري ما يفوته حين يموت شاباً" ، قالت أمه بصوت خفيض .

"اهدئي يا أمي ! فكري في الزمان الذي كنت أنت فيه في الثالثة والعشرين . . . هل كنت ستفتقدين السنوات التي عشتها منذ ذلك الحين ؟"

•

بعد أربعة عشر يوماً شاهدت كريستين لأول مرة أحد المرضى بالطاعون . وقد وصلت إشاعة انتشار الوباء في نيداروس وسريانه في الريف إلى ريسا . . . كيف؟ لم يكن ذلك سهلاً على الفهم ، فالناس التزموا بيوتهم ، وكان كل رجل يهرب إلى الغابات أو الأحراش لو شاهد رجلاً جوالاً على الطريق . ما عاد أحد يفتح بابه للغرباء .

ولكن في صباح أحد الأيام وصل صيادا سمك إلى الدير حاملين رجلاً بينهما في شراع . فحين نزلا عند الفجر إلى زورقهما وجدا مركباً غريباً بثلاث صوار عند رصيف التحميل ، وفي القعر كان هذا الرجل فاقد الوعي . . . وقد وجد القوة ليسرع بمركبه ولكن ليس للخروج منه إلى البر . كان الرجل قد ولد في منزل يملكه الدير ، ولكن أسرته كانت قد غادرت الريف .

كان الرجل المحتضر ممدداً على الشراع الرطب في وسط الباحة التي نمت عليها الأعشاب . وقف الصيادان بعيداً وهما يحادثان سيرا آيليف . هربت الأخوات الخادمات والخادمات إلى المباني ، ولكن وقفت الراهبات متجمعات عند باب قاعة الدير . . . حشد من النساء العجائز المذعورات المرتجفات اليائسات .

ثم تقدمت ليدي راغنهيلد . كانت امرأة عجوزاً ضئيلة الحجم ونحيلة ، ولها وجه عريض مسطح وأنف صغير مدوّر أحمر اللون له شكل الزر ، أما عيناها الواسعتان العسليتان فكانتا محاطتين بهالتين حمراوين ، وكانتا دامعتين قليلاً على الدوام .

"باسم الأب والابن والروح القدس" ، قالت باللاتينية بصوت واضح ، ثم بلعت ريقها . "احملاه إلى مبنى الضيوف" .

وقد شقت الأخت أغاتا أكبر الراهبات سناً طريقها عبر الحشد ودون أن يطلب منها ، ذهبت مع رئيسة الدير والرجلين اللذين حملا الرجل المريض .

دخلت كريستين إلى هناك في وقت متأخر من الليل مع علاج قامت

بتحضيره في حجرة المؤونة ، وسألتها الأخت أغاتا إن كانت تجرؤ على البقاء هناك ومراقبة النار .

كانت تعتبر نفسها متمرسة . . . متعودة تماماً على الولادات والوفيات ، فقد رأت مشاهد أسوأ من هذه . . . وقد ناضلت لتفكر في أسوأ ما رأت . . . جلس الرجل المصاب بالطاعون منتصباً ، فقد كان محتملاً أن يختنق من البصاق الدامي الذي كان يخرجه مع كل نوبة سعال . . . كانت الأخت أغاتا قد ربطته برباط كان يمر عبر صدره النحيل الأصفر ذي الشعر الأحمر ، وكان رأسه معلقاً نحو الأمام ، و وجهه أزرق رمادياً ورصاصياً ، وكانت تنتابه نوبات من الارتعاش . ولكن الأخت أغاتا جلست بهدوء تتلو صلواتها ، وحين كان السعال ينتابه ، كانت تنهض وتضع ذراعاً حول رأسه وتمسك كوباً تحت فمه . كان المريض يزمجر من أمله ، ويقلب عينيه على نحو مخيف ، وأخيراً يمد لساناً أسود بعيداً عن فمه ، بينما كانت صرخاته المحزنة تتلاشى في أنين مثير للشفقة . أفرغت الراهبة الكوب في النار . . . وبينما راحت كريستين ترمي بالمزيد من العرعر في النار ، وراحت الأغصان الرطبة تملأ الغرفة بدخان أصفر لاذع ، ثم تنفجر مهسهسة في اللهيب ، فقد رأت الأخت أغاتا تضع الوسائد تحت ظهر الرجل المريض وإبطه ، وتمسح وجهه وشفتيه البنيتين المشققتين بالماء والخل ، وتشد غطاء السرير المتسخ فوق جسده . سرعان ما سينتهي كل شيء ، قالت لكريستين . . . كان قد سبق له وأصبح بارداً ، ولكنه كان في البداية حاراً كالجمر . . . إلا أن سيرا آيليف كان قد حضّره مسبقاً للرحيل . ثم جلست إلى القرب منه وأقحمت جذر الوجّ في مكانه في فمها بلسانها وعادت لتصلي مجدداً .

حاولت كريستين التغلب على الرعب المخيف الذي أحست به . لقد رأت أناساً يموتون ميتة أعنف . . . ولكن عبثاً . . . كان هذا هو الطاعون ، عقاب من الرب لقسوة الناس في سرهم ، وهو الوحيد الذي كان يعرفها . أحست كأنها كانت

فوق مركب في بحر متلاطم الموج ، حيث كل الأفكار المريرة والغاضبة التي فكرت فيها قد برزت كموجة ضخمة بين آلاف أخرى ثم تلاشت في ألم عاجز ونواح . فليساعدنا الرب لأننا سنفنى . . .

دخل سيرا آيليف في وقت متأخر من الليل . أنّب الأخت أغاتا بحدة لأنها لم تتبع نصيحته بربط قماشة كتانية منقوعة بالخل فوق منها وانفها . همهمت بنزق بأنه لا جدوى . . . ولكنها اضطرت الآن هي وكريستين إلى القيام بما أمر به .

كان هدوء وثبات الكاهن قد بثا بعض الشجاعة في كريستين . . . أو أيقظا إحساساً بالعار . . . فخرجت من دخان العرعر وبدأت تساعد الأخت أغاتا . كان للرجل المريض رائحة خانقة لم ينفع الدخان في كبتها . . . القذارة والدم والعرق الحامض ورائحة مغثية من حنجرته . فكرت في كلمات سكوله حول أسراب اللاموس . ومن جديد اعتراها توق رهيب إلى الهرب ، رغم أنها كانت تعرف أنه لا يوجد مكان يستطيع المرء الهرب إليه من هذا . ولكن حين تجرأت ولمست الرجل المحتضر ، كان أسوأ ما في الأمر قد انقضى . ثم ساعدت بقدر ما تستطيع حتى لفظ آخر أنفاسه . كان قد سبق لوجهه واكتسى بلون أسود حين مات .

●

سارت الراهبات في موكب ، حاملات الذخائر المقدسة والصلبان والشموع الموقدة من حول جبل الكنيسة والدير ، وسار معهم كل من كان قادراً في الأبرشية على السير أو الزحف . ولكن بعد أيام ليست بالكثيرة ماتت امرأة في "سترومن" القريبة . . . ثم انتشر الوباء بضربة واحدة في كل مكان من الريف .

بدا أن الموت والرعب والفاقة قد حملت البلاد وشعبها إلى عالم لا زمن فيه . . . لم يكن قد مرّ أكثر من أسابيع قليلة ، لو كان على المرء أن يعد الأيام ، ولكن سبق وبدا أن العالم الذي سبق انتشار الوباء والموت الذي كان يسير عارياً في أنحاء البلاد ، كان يتلاشى من ذاكرة الناس ، كما يغرق شاطئ البحر حين

يقف المرء أمام البحر في مواجهة ريح قوية . كأنما لم تكن هناك روح بشرية قادرة على أن تبقي في ذاكرتها أن الحياة كانت هناك ذات مرة وأن العمل اليومي كان يبدو أكيداً وقريباً ، وأن الموت كان بعيداً . . . أو لديها القدرة على إدراك أن الأمور ستعود مجدداً إلى ما كانت عليه . . . إن لم يمت كل الناس . ولكن "ربما سنموت جميعاً" ، قال الرجال الذين وصلوا إلى الدير مع أطفالهم الذين فقدوا أمهاتهم . قال البعض ذلك بوجوه كالحة قاسية ، والبعض مع البكاء والنواح . قالوها حين كانوا يحضرون كاهناً للمحتضرين ، وقالوها حين كانوا يحملون الجثث إلى كنيسة الأبرشية في أسفل التل وإلى المقبرة قرب كنيسة الدير . غالباً ما كان على الحمالين أنفسهم حفر القبور . . . كان سيرا آيليف قد أوكل إلى الخدم -من تبقى منهم -العمل على إنقاذ وجمع القمح من حقول الدير . وحيثما كان يذهب في الأبرشية كان يطلب إلى الناس أن يخزنوا محاصيلهم وأن يساعدوا بعضهم بعضاً على العناية بقطعانهم ، حتى لا يموتوا في المجاعة التي سيخلفها الوباء خلفه بعد أن ينتهي .

كانت الراهبات في الدير قد قابلن الزيارة أولاً بنوع من الهدوء المضطرب . لقد استقر بهن المقام نهائياً في قاعة الدير ، وكن يتركن النار موقدة ليلاً نهاراً في المدفأة الحجرية الكبيرة ، وينمن هناك ويأكلن هناك . أشار عليهن سيرا آيليف بأنه يتوجب إبقاء نيران كبيرة مشتعلة في الباحات وفي المباني حيث توجد مواقد . ولكن الراهبات كن يخشين النار . . . لقد سمعن حكايات كثيرة من الراهبات الأكبر سناً حول احتراق الدير قبل ثلاثين سنة . لم تعد هناك محافظة على مواعيد الوجبات وساعات العمل ، وما عادت المهمات المتنوعة للراهبات يمكن فصلها الواحدة عن الأخرى بسبب الأطفال الكثيرين الذين كانوا يأتون من الخارج يتسولون الطعام والمساعدة . كما كان المرضى يدخلون إلى الدير . . . كان هؤلاء هم الأشخاص الأغنياء القادرون على دفع ثمن قبر في الدير وأجور القداديس على

أرواحهم ، أو هم الأكثر فقراً ووحدة بين الفقراء ممّن ليس لديهم أحد يقدم لهم يد المساعدة في البيت . أما أولئك الذين هم من حال وسط فكانوا يستلقون ويموتون في بيوتهم . في بعض الضياع مات كل البشر . ولكن وسط كل هذا كانت الراهبات لا يزلن يُحافظن على مواعيد الصلوات .

أول الراهبات اللواتي وقعن فريسة المرض كانت الأخت إنغا ، وهي امرأة من عمر كريستين ، أي في حوالي الخمسين . ومع ذلك فقد كانت خائفة جداً من الموت حتى أنه كان أمراً رهيباً مشاهدتها وسماعها . كانت نوبات الرجفة تصيبها في الكنيسة خلال القداس ، وكانت تزحف على يديها وركبتيها ، وهي ترتجف من اصطكاك أسنانها ، وتصلي وتدعو الله ومريم العذراء لإنقاذ حياتها . . . وقبل أن يمرّ وقت طويل أصيبت بحمى مرتفعة ، وراحت تئن وتتعرّق دماً من كل جسدها . ارتعد قلب كريستين في جوفها . . . لاشك أنها ستكون هي أيضاً خائفة إلى حد بائس كهذه المرأة حين يأتي دورها . لم تكن المسألة وما فيها أن الموت كان أكيداً . . . بل كان الرعب الرهيب الذي يلتصق بالموت من الطاعون .

ثم مرضت الليدي راغنهيلد نفسها . وقد استغربت كريستين قليلاً حول اختيار هذه المرأة لمنصب رئيسة الدير . . . كانت امرأة عجوزاً هادئة ونكدة إلى حد ما ، غير مثقفة ، وتفتقر إلى أي ميزات روحية . . . ولكن حين وضع الموت يده عليها ، أظهرت أنها في الواقع عروساً للمسيح . لقد ضربها المرض بالبثور . . . وكانت ترفض حتى أن تقوم بناتها الروحيات بتعرية جسدها العجوز ، ولكن تحت إحدى ذراعيها راح الورم ينمو حتى أصبح في حجم تفاحة أخيراً ، وتحت ذقنها تفتحت بثرتان وأصبحتا كبيرتين وحمراوين كالدم ، وأخيراً أصبحتا سوداوين . كانت تعاني من آلام مبرحة منهما ، كما كانت الحمى تصيبها . ولكن طالما بقي ذهنها صافياً فقد كان هناك نمط من الصبر الورع ، فتتنهد متضرعة إلى الرب أن يسامحها على خطاياها ، وتتوسل بكلمات لطيفة وقلبية أن يساعد ديرها وبناتها ،

وكل المرضى والحزانى ، ولأجل إنقاذ كل الأرواح التي كان عليها الآن أن ترحل عن هذه الدنيا . حتى سيرا آيليف بكى حين قدم لها قربان الموت . . . وكان صموده شأن حماسته التي لا تفتر في وسط كل هذا البؤس أمراً يدعو إلى العجب . لقد سلمت الليدي راغنهيلد روحها إلى رعاية الرب مرات عديدة وتضرعت إليه ليحمي الراهبات تحت جناحه . . . وأخيراً بدأت البثرات التي في جسمها بالتفتح . ولكن تبين أن هذا تحول نحو الحياة وليس الموت . . . وبعد ذلك لاحظ الناس أن أولئك الذين يصيبهم الوباء بالبثور قد يشفون أيضاً ، ولكن أولئك الذين يصابون بالإقياء الدامي يموتون جميعاً .

لقد بدا وكأن الراهبات قد تشجعن مجدداً من صمود رئيسة الدير ، ومن مشاهدة شخص أصيب بالطاعون ولم يمت بعد . كان عليهن الآن أن يحلبن البقرات وينظفن الحظائر بأنفسهن وأن يحضرن طعامهن وأن يحضرن بأنفسهن العرعر وفروع الصنوبر الطرية لإحراقها لأجل دخان التطهير . . . كان على كل واحدة أن تفعل ما يصل إلى يدها . كن يرعين المرضى بأفضل قدراتهن ويعطين الأدوية : الترياق وجذور الوج . وكن يوزعن الزنجبيل والفلفل والعصفر والخل لدفع السم . وكذلك الحليب واللحم والخبز الذي يخبزونه ليلاً . . . والبهارات ، وعلى الناس أن يمضغوا ثمار العرعر وأبر الصنوبر ضد الإصابة بالعدوى . كانت الراهبات يصبن بالعدوى الواحدة إثر الأخرى ثم يمتن . كانت أجراس الموت تقرع في كنيسة الدير وكنيسة الأبرشية في الصباح وفي المساء في الهواء الثقيل . فقد كان السديم الغريب الخارق للطبيعة لا يزال مهيمناً على الأرض . بدا وكأن هناك تواطؤاً سرياً بين السديم والوباء القاتل . أحياناً كان السديم يتحول إلى ضباب جليدي ويهطل في أبر جليدية صغيرة ورذاذ نصف متجمد ، وأصبحت الأرض بيضاء من الصقيع . . . ثم يأتي الطقس اللطيف والسديم مجدداً . لقد اعتبر الناس أن هناك علامة على شر مستطير تتجلى في أن طيور البحر التي اعتادت أن تطير بالآلاف

على امتداد الخليج الذي يدخل إلى البر من الزقاق البحري ويستطيل كنهر بين الامتدادات المنخفضة للمرج ، ولكنه يتسع ليصبح بحيرة من الماء المالح شمال دير راين . . . هذه الطيور اختفت فجأة ، وبدلاً عنها وصلت طيور الغداف بأعداد لا حصر لها . . . على كل صخرة على شاطئ البحر فإن الطيور السوداء جثمت وسط الضباب ، وهي تنعق على نحو شنيع . وبينما راحت أسراب من الغربان الضخمة إلى حد لم يره أحد من قبل شبيهاً لها ، تستقر فوق كل الغابات والبساتين ، وراحت تطير وهي تنعق على نحو قبيح فوق الأرض الموبوءة .

بين الحين والآخر كانت كريستين تفكر بأبنائها . . . الأبناء المتناثرين في كل الأصقاع ، والأحفاد الذين لم تراهم قط . . . كان رأس إرلند الصغير الأشقر يلوح أمام بصرها . ولكن بدوا جميعاً وكأنهم بعيدون جداً وباهتون . لقد بدا تقريباً وكأن كل البشرية في زمن الكارثة هذا كانوا متقاربين الواحد من الآخر ومتباعدين أيضاً . ثم كانت يداها مليئتين طوال النهار . . . لقد كان أمراً جيداً لها أنها كانت معتادة على كل أنواع العمل . وبينما جلست وهي تحلب البقرات ، كانت ستجد إلى القرب منها فجأة أطفالاً صغاراً مجوعين لم يسبق لها أن رأتهم ، وكانت لن تتذكر أن تسأل من أين أتوا أو كيف هي أحوالهم في بيوتهم . كانت تعطيهم الطعام وتقودهم إلى مأوى قاعة الاجتماعات ، أو إلى مكان آخر حيث تكون هناك نار موقدة ، ثم تضعهم في سرير في المهجع .

وقد لاحظت ، بنوع من الاستعجاب ، أنه في وقت الشدة هذا ، حين كانت هناك حاجة ماسة إلى أن يكون الجميع نشيطين في الصلاة ، فإنها لا تجد إلا بالكاد الوقت للتأمل أو الصلاة . كانت ترمي بنفسها في الكنيسة أمام وعاء القربان حين تجد لحظة فراغ ، ولكن ما كان يخرج منها سوى التنهدات دون كلمات و"أبانا الذي" و"السلام عليك يا مريم" تتلفظ بها كالاستظهار دون فهم . وهي نفسها لم تعد تعرف أن أساليب الراهبات وسلوكهن التي تعودت عليها

خلال السنتين الماضيتين كانت تتخلى عنها شيئاً فشيئاً ، وأنها كانت تصبح أشبه بربة المنزل التي كانتها في القديم . . . ومع تضاؤل عدد الراهبات ، فإن دورة الواجبات في الدير قد عمّها الفوضى ، وكانت الرئيسة لا تزال طريحة الفراش ، بجسم ضعيف ولسان نصف مشلول . . . وتضاعف العمل شيئاً فشيئاً على القلة التي بقيت لتؤديه .

في أحد الأيام علمت صدفة أن سكوله لا يزال في نيداروس . . . كان رفاقه في السفينة بين ميت وهارب ، ولم يستطع أن يجد بحارة جدداً بدلاً عنهم . كان لا يزال سليماً ، ولكنه كان قد انغمس في حياة اللهو كما كان يفعل الكثير من الشبان في هذا الوضع اليائس . بالنسبة إلى الخائف كان الموت أكيداً كما يقال ، ولذا فإن الشبان أغرقوا همومهم بالشراب والصخب والقمار والرقص والعبث مع النساء . حتى زوجات سكان المدينة المحترمات والشابات من أفضل الأسر هربن من بيوتهن في هذا الزمن الشرير . وفي صحبة نساء المواخير رحن يشاركن في شرب الخمر في الحانات والفنادق بين رجال ضالّين . فليسامحن الرب ، فكرت الأم . . . ولكن كأنما كان قلبها منهكاً إلى حد لا تستطيع معه الأسف على مثل هذه الأمور .

ولكن في الريف أيضاً كان هناك ما يكفي من الخطيئة والضلال . وقد سمعوا قليلاً عنه في الدير ، فهناك لا وقت لديهم للكثير من الكلام . ولكن سيرا آيليف الذي كان يذهب إلى كل الأمكنة ، دون راحة أو تأجيل ، إلى المرضى والمحتضرين ، قال ذات يوم لكريستين إن أرواح الناس كانت في حالة من العوز أشد من العوز الذي تعاني منه أجسادهم .

●

ثم حلّ مساء كانوا جالسين فيه من حول المدفأة في قاعة الدير . . . المجموعة الصغيرة من الناس الذين بقوا أحياء في الدير . أربع راهبات وأختان خادمتان

ورجل الإسطبل العجوز وشاب يافع وامرأتان ونزيلتان بالأجرة وبعض الأطفال المتكومين حول النار . على المقعد العالي حيث كان صليب كبير يلتمع في الغسق فوق الجدار ذي اللون الفاتح ، كانت الرئيسة مستلقية وكانت الأخت كريستين والأخت توريد جالستين عند يديها وقدميها .

كان قد مر تسعة أيام منذ آخر وفاة بين الراهبات ، وخمسة أيام منذ أن توفي أي شخص في الدير أو في أي من المنازل القريبة . بدا الوباء يبدو وكأنه يتراجع في كل أنحاء الأبرشية أيضاً ، كما قال سيرا آيليف . . . ولأول مرة منذ حوالي ثلاثة أشهر حلّ شيء أشبه بوميض السلام والأمل والراحة على الناس الصامتين المتعبين الجالسين معاً هناك . ترك الأخت تورون العجوز سبحتها تسقط في حجرها ، وتناولت يد فتاة صغيرة كانت واقفة عند ركبتها .

"ما الذي يمكنها أن تعنيه ؟ أجل يا ابنتي ، يبدو الآن وكأننا سنرى أن أم الرب ، مريم ، لم تعد تشيح بحنانها بعيداً عن أطفالنا ."

"كلا ، ليست هي بمريم العذراء أيتها الأخت تورون ، بل هي (هل) (٨) . وهي سترحل عن هذه الأبرشية مع مذراتها ومكنستها ، حين يقدمون إليها رجلاً دون لطخة عند بوابة المقبرة . . . وغداً ستكون قد رحلت بعيداً . . . "

"ما الذي تعنيه هي ؟" سألت الراهبة مجدداً بقلق . "عار عليك يا ماغنهيلد ، ما هذا الكلام الوثني القبيح؟ كان الأجدر بك أن تجلدي . . . "

"قولي لنا ما هي يا ماغنهيلد . . . لا تخافي ." . . . كانت الأخت كريستين واقفة خلفهن . سألت هذا السؤال مبهورة الأنفاس . لقد تذكرت . . . لقد سمعت في شبابها من الليدي آشيلد . . . عن وسائل آثمة لا اسم لها يخترعها الشيطان ليغوي بها اليائسين من الناس حتى يمارسوها . . .

كان الأطفال في البستان قرب كنيسة الأبرشية في الغسق ، وكان بعض الصبية قد ضلّوا طريقهم في الغابة فوصلوا إلى كوخ من الخث هناك ، وتنصتوا

وسمعوا بعض الرجال فيه يضعون الخطط . ولقد بدا مما سمعوه أن هؤلاء الرجال قد أمسكوا بصبي صغير اسمه توره بن ستاينون الذي يعيش قرب الشاطئ ، والليلة كانوا سيقدمونه قرباناً لغولة الوباء . تحدث الأطفال بحماسة وهم فخورون لأن الكبار كانوا يصغون إلى ما قالوه باهتمام . لم يبد عليهم أنهم يفكرون في الإشفاق على توره بائس الحظ . . . ربما لأنه كان منبوذاً نوعاً ما . كان يتجول في أنحاء الأبرشية متسولاً ، ولكنه لم يكن يأتي إلى الدير ، وإذا ما كان سيرا آيليف أو أي شخص ترسله الرئيسة يبحث عن أمه ، كانت هذه تهرب أو تبقى صامتة بعناد ، سواء تحدثوا إليها بود أو بقسوة . لقد عاشت في مواخير نيداروس عشرة أعوام ، ثم حل بها مرض ، وتركها في حال لا تستطيع معها أن تعود إلى كسب عيشها كما اعتادت سابقاً . لذلك غادرت البلدة إلى أبرشية راين ، والآن كانت تسكن في كوخ قريب من الشاطئ . وقد كان يحدث أحياناً أن يسكن لديها شحاذ مرّ بالصدفة أو عابر سبيل فترة من الزمن . من كان أبو الصبي ؟ هي نفسها لم تكن تعرف .

قالت كريستين : "علينا أن نذهب إلى هناك . لا نستطيع الجلوس هنا بينما تبيع أرواح معمّدة أنفسها إلى الشيطان عند أبوابنا بالذات ."

همهمت الراهبات في خوف . كان هؤلاء أسوأ الرجال في الأبرشية : رجال أفظاظ لا يعرفون الورع . ولابدّ أن العوز والحاجة الشديدين قد حولاهم إلى شياطين حقيقيين . لو كان سيرا آيليف في الدير فحسب ! أنّ الجميع . في وقت المحنة هذا كان الكاهن قد كسب ثقتهم إلى حد كبير حتى ظنوا أنه قادر على فعل كل شيء . . .

فركت كريستين يديها :

"حتى لو ذهبت لوحدي . . . أيتها الأم ، هل تأذنين لي بالذهاب إلى هناك ؟"

أمسكت بها الرئيسة من ذراعها بشدة إلى حد أنها صرخت . نهضت المرأة

العجوز منعقدة اللسان على قدميها . أومأت لتفهمهم أن عليهم أن يلبسوها لتخرج وطلبت الصليب الذهبي وإشارة منصبها وعصاها . ثم أمسكت بكريستين من ذراعها . . . فقد كانت أصغر النساء سناً وأقواهن . نهضت كل الراهبات ولحقن بهما .

عبر باب الغرفة الصغيرة بين قاعة الاجتماعات وكورس الكنيسة خرجت الراهبات في هذا الليل الشتائي القارس . بدأت أسنان الليدي راغنهيلد تصطك وجسدها كله يرتجف . . . كانت لا تزال تتعرق دون توقف بسبب مرضها ، ولم تكن بثور الطاعون قد شفيت تماماً بعد ، لذلك كان المشي مؤلماً جداً لها . ولكنها همهمت بغضب وهزت رأسها حين توسلت إليها الراهبات أن تعود ، وتشبثت على نحو أقوى بذراع كريستين ، وراحت تمشي بتثاقل وهي ترتجف من البرد ، أمامهن عبر الحديقة . وحين اعتادت أعينهن على الظلمة ، ميّزن البريق الباهت للأوراق الذاوية المتناثرة فوق الدرب تحت أقدامهن والنور الخافت من السماء ذات السحب فوق قمم الأشجار . كانت قطرات الماء الباردة تنقط من الأغصان وهبات من الريح تعطي صوتاً كالأنين . كان صوت ارتطام الأمواج بالشاطئ يصلهن من خلف الأرض المرتفعة وذلك بشكل تنهدات ثقيلة كليلة .

عند نهاية الحديقة كان بويب صغير . . . ارتعدت الراهبات حين زعق المزلاج الصدئ وقد راحت كريستين تسحبه من مكانه بالقوة . ثم زحفن نحو الأمام عبر البستان باتجاه كنيسة الأبرشية . والآن كن قادرات على مشاهدة الكتلة السوداء وهي أكثر عتمة في الظلام . وأمام الفتحة في الغيوم فوق الهضاب المنخفضة وراء البحيرة شاهدن قمة السقف والبرج برؤوس حيواناته وصليبه فوق كل شيء .

أجل . . . كان هناك أشخاص في المقبرة . . . أحسسن بهم ولم يشاهدنهم بالأحرى . والآن وصل وميض باهت من النور من الأسفل ، كما لو أن هناك قنديلاً وضع فوق الأرض . إلى القرب منه بدت العتمة تتحرك .

تلاصقت الراهبات ورحن يتنهدن دون صوت بين الصلوات المهموسة : ثم مضين بضع خطوات ، وتوقفن وأصغين وتابعن السير مجدداً . كن على وشك الوصول إلى بوابة المقبرة . ثم سمعن من خارج العتمة صوت طفل يصرخ :

"أوه كعكتي . لقد رميتم التراب على كعكتي !"

تركت كريستين ذراع الرئيسة وركضت نحو الأمام عبر بوابة باحة الكنيسة . دفعت جانباً بعض الأشكال الداكنة من ظهور الرجال ، وتعثرت بأكوام من التراب المقلوب ، ثم وصلت إلى حافة القبر المفتوح . ركعت على ركبتيها وانحنت ورفعت الصبي الصغير الذي كان في القاع ، وهو لا يزال يتذمر لأن التراب قد أفسد الكعكة الجيدة التي منحت له لقاء البقاء هادئاً هناك .

وقف الرجال هناك خائفين - مستعدين للهروب - وقد راح بعضهم يذرع المكان . . . شاهدت كريستين أقدامهم في النور القادم من القنديل على الأرض . ثم كان أحدهم سيهاجمها ، ولكن في الوقت نفسه شوهدت ملابس الراهبات البيضاء وهاهي مجموعة الرجال تتردد . . .

حملت كريستين الطفل بين ذراعيها . كان يبكي على كعكته . لذلك وضعته أرضاً وتناولت الكعكة ونظفتها :

"هيا ، كلها . . . كعكتك نظيفة الآن . هيا اذهبوا إلى بيوتكم الآن أيها الرجال ." . . . كان اهتزاز صوتها قد أجبرها على التوقف قليلاً . "اذهبوا إلى بيوتكم واحمدوا الله لأنكم أنقذتم من إثم يصعب التكفير عنه" . كانت تتكلم الآن كسيدة تخاطب خدمها ، بلطف ، ولكن دون أن يخطر في بالها أنهم لن يطيعوا . ودون تفكير تحرك بعض الرجال نحو البوابة .

ثم صرخ أحدهم :

"ابقوا قليلاً . . . ألا ترون أن حياتنا معرضة للخطر على الأقل . . . ربما كان هذا هو كل ما ربحناه . . . والآن هاهنّ عاهرات الرهبان المتخمات بالطعام قد

دسسن أنوفهن في هذا ! ليس عليهن أبداً أن يبتعدن عن هنا لينشرن نبأ ما حدث . . . "

لم يتحرك رجل واحد . . . ولكن الأخت أغنس صرخت صرخة حادة وقالت بصوت نادب :

"أيها المسيح الجميل ! يا عريسي . . . أشكرك لأنك سمحت لخادماتك بالموت من أجل مجد اسمك . . . !"

دفعتها الليدي راغنهيلد من خلفها ، ثم تقدمت إلى الأمام ورفعت القنديل من الأرض . . . لم يمد أحد يده ليمنعها . وحين رفعته عالياً ، التمع الصليب الذهبي على صدرها . وقفت وهي مستندة إلى عكازها وأدارت القنديل ببطء على الحلقة من حولها ، وهي تومئ قليلاً برأسها لكل رجل تنظر إليه . ثم أشارت إلى كريستين أن تتكلم :

"اذهبوا إلى بيوتكم بسلام وهدوء أيها الأخوة الأعزاء . . . تأكدوا أن الأم المبجلة وهؤلاء الأخوات الطيبات سيكن رحيمات كما هو واجبهن أمام الرب وشرف كنيسته . ولكن هيا تنحوا جانباً الآن حتى نمرّ ومعنا هذا الطفل . . . وبعد ذلك فليذهب كل في حال سبيله" .

وقف الرجال مترددين . ثم صرخ أحدهم كأنه في حالة من اليأس الشديد :

"أليس من الأفضل أن نضحي بواحد حتى لا نموت كلنا . . . ؟ هذا الطفل ليس ملكاً لأحد . . . "

"إنه ملك للمسيح . كان الأجدر بكم أن تموتوا جميعاً على ان تؤذوا واحداً من صغاره . . . "

ولكن الرجل الذي تكلم أولاً صرخ مجدداً :

"أمسكي عليك لسانك . . . لا مزيد من مثل هذه الكلمات أو أني سأرجعها إلى حلقك بهذا" . . . هزّ سكينه في الهواء . "اذهبن إلى بيتكن ،

اذهبن إلى أسـرّتكن وتوسلن إلى كـاهنكن أن يواسيكـن ، ولا تذكـرن شـيئـاً عن هذا . . . أو أني أقول لكن باسم الشيطان أنكن سوف تتعلمن أن هذا هو أسوأ أمر سبق لكن ارتكابه ، أي أن تتدخلن في شؤوننا . . . "

"لا حاجة بك إلى الصراخ عالياً إلى هذا الحد حتى يسمعك ذاك الذي ذكرت اسمه . يا آرنتور . . . تأكد من أن أنه ليس بعيداً عن هنا" ، قالت كريستين بهدوء ، وبدا بعض الرجال خائفين ، واقتربوا دون تفكير من الرئيسة التي وقفت حاملة القنديل . "كان سيحدث أسوأ الأمور لنا ولكم لو أننا جلسنا هادئات في البيت بينما تقومون بأمر يضمن لكم إقامة في أكثر أماكن الجحيم حرارة ."

ولكن الرجل المسمى آرنتور شتم وجدّف . عرفت كريستين أنه يكره الراهبات . فقد كان أبوه قد أرغم على أن يرهن لهن مزرعته حين اضطر إلى دفع دية لقاء قتل رجل والزنى مع ابنة عم زوجته . والآن ، راح يرمي الراهبات بكل أكاذيب الشيطان الكريهة ويتهمهن بارتكاب خطايا شديدة السواد والشذوذ حتى أن الشيطان نفسه فحسب كان قادراً على جعل أي رجل يفكر بمثل هذه الأفكار .

ولكن الغضب اندلع في كريستين مثل النار الموقدة حديثاً :

"اصمت ! هل فقدت عقلك أم أن الرب قد ابتلاك بالعمى ؟ هل نجرؤ على التذمر من عقاب الرب . . . نحن الذي رأينا عروساته المقدسات يتقدمن للقاء السيف الذي جرّد بسبب آثام الدنيا ؟ كن يراقبن ويصلّين بينما نحن نرتكب الخطايا وننسى كل يوم خالقنا . . . كن قد أغلقن على أنفسهن قلعة صلاتهن بينما كنا نجول العالم من حولنا ، يدفعنا الطمع إلى سلع صغيرة أو كبيرة ، وشهواتنا وغضبنا . . . ولكنهن تقدمن إلينا حين أرسل ملاك الموت إلينا . . . جمعن من حولهن المرضى والعاجزين والجياع - لقد ماتت اثنتا عشرة راهبة من أخواتنا في هذا الطاعون- وأنتم جميعاً تعرفون ذلك . . . لم تتنح واحدة جانباً ولم تتخل واحدة عن الصلاة من أجلنا جميعاً في حب أخوي ، حتى جفت ألسنتهن

في حلوقهن ولم تتبق دماء في أجسادهن . . . "

"تتكلمين جيداً عن نفسك وعن مثيلاتك . . . "

صرخت وقد أعماها الغضب : "أنا مثيلتك . لست واحدة من هؤلاء الراهبات الورعات . . . أنا واحدة منكم . . . "

"لقد أصبح شديدة التواضع يا امرأة" ، قال آرنتور باحتقار . "أنت خائفة كما أرى جيداً . بعد قليل ستدعين أن أم هذا الصبي مثيلتك ."

"الرب يحكم في هذا . . . لقد مات من أجلها ومن أجلي ، وهو يعرفنا كلتينا . أين هي ستاينون ؟"

"انزلي إلى كوخها . ستجدينها هناك دون شك" ، أجاب آرنتور .

"أجل ، حقاً يجب أن يرسل أحدهم خبراً إلى المرأة المسكينة أن ابنها معنا" ، قالت كريستين للراهبات : "علينا أن نذهب إليها في الغد" .

ضحك آرنتور ساخراً ، ولكن رجلاً آخر صاح بقلق وقال لكريستين :

"كلا ، كلا ، إنها ميتة . لقد مر أربعة عشر يوماً منذ تركها بيارن وأوصد الباب . عند ذاك كانت في النزع الأخير ."

"كانت تحتضر . . . " ، حدقت كريستين إلى الرجال وهو أصابها الرعب . "ألم يجلب لها أحد كاهناً . . . ؟ هل جثمانها مرمي هناك . . . ولا يشفق عليها أحد فيدفنها . . . وكنتم على وشك أن تقتلوا طفلها . . . ؟"

لدى رؤيتهم لمدى رعب المرأة ، بدا الرجال كأنما حل بهم الخوف والعار . كان الجميع يصرخون في آن واحد . ولكن صوتاً أعلى من أصوات البقية صاح :

"أحضريها بنفسك يا أختي !"

"أجل َ من منكم سيذهب معي ؟"

لم يجب أحد . صرخ آرنتور :

"سيكون عليك أن تذهبي لوحدك كما أعتقد" .

"غداً . . . ما أن يشرق الفجر . . . سنحضرها يا آرنتور . . . أنا نفسي سأشتري لها قبراً وأدفع لقاء القداديس التي ستتلى على روحها . . . "

"اذهبي إلى هناك الآن ، اذهبي الليلة . . . عندها سأصدق أنكن أيتها الراهبات ورعات وطاهرات حقاً . . . "

كان آرنتور قد اقترب برأسه من رأسها . دفعت كريستين بقبضتها المكورة في وجهه مع صرخة غضب ورعب . . .

تقدمت الليدي راغنهيلد ووضعت نفسها إلى جانب كريستين . حاولت أن تتلفظ ببعض الكلمات . صرخت الراهبات بأن المرأة ستوارى غداً في التراب . ولكن الشيطان بدا وكأنه قد لعب بعقل آرنتور ، فصرخ :

"اذهبن الآن . . . عندها سنؤمن برحمة الله . . . "

استجمعت كريستين شجاعتها وقد شحب لونها وتيبس جسمها :

"أنا سأذهب ."

رفعت الطفل وأعطته إلى الأخت تورون ثم دفعت الرجال جانباً وهرعت في طريقها وهي تتعثر بكتل الأعشاب وأكوام التراب نحو البوابة ، بينما لحقت بها الراهبات نادبات . صرخت الأخت أغنس بأنها ستذهب معها . هزت الرئيسة قبضتيها نحو كريستين وهي تومئ إليها أن تتوقف . ولكنها بدت كمن فقدت رشدها من الغضب ولم تكترث . . .

وفجأة حدثت جلبة كبيرة في العتمة قرب بوابة المقبرة . . . وفي اللحظة التالية سأل صوت سيرا آيليف عمّن كان يعقد اجتماعاً هنا . تقدم نحو نور القنديل . . . فشاهدوه يحمل فأساً في يده . تجمعت الراهبات من حوله . بدأ الرجال يتناوبون على الهرب في العتمة ، ولكن عند البوابة قابلهم رجل يحمل سيفاً مجرداً في يده . حدث بعض الاضطراب وسمع صليل السيوف ، ثم صرخ سيرا آيليف تجاه البوابة : الويل لمن يعكر صفو سلام المقبرة . سمعت كريستين

أحدهم يقول إنه كان الحداد القوي من "شارع كريدو" . . . وفي اللحظة التالية ظهر رجل طويل عريض المنكبين أبيض الشعر إلى القرب منها . . . كان ذاك هو أولف هالدورسون .

سلمه الكاهن الفأس- كان قد استعارها من أولف- وأخذ الصبي توره من الراهبة وقال :

"الوقت الآن بعد منتصف الليل . . . ورغم ذلك الأفضل لكن أن تأتوا معي إلى الكنيسة . عليّ أن أعرف كنه هذه الأفعال الليلة ."

لم يعترض أحد . ولكن حين وصلوا إلى الطريق ، فإن إحدى النساء المرتديات للرداء الرمادي الفاتح اتجهت في الممر المؤدي عبر الغابة . ناداها الكاهن ، وأمرها أن ترافق الأخريات . أجاب صوت كريستين من العتمة . . . كانت قد قطعت بعض المسافة على امتداد الدرب :

"لا أستطيع يا سيرا آيليف . . . حتى أكون قد وفيت بوعدي . . . "

قفز الكاهن وبعض الرجال الآخرين خلفها . كانت واقفة وهي تتكئ على السياج حين وصل إليها سيرا آيليف . رفع القنديل . . . كانت شاحبة الوجه إلى حد مخيف ، وحين نظر إلى عينيها لاحظ أنها لم تجنّ كما ظن أولاً .

قال : "تعالي إلى الدير يا كريستين . غداً سنذهب إلى هناك معك ، بعض الرجال وأنا بنفسي . . . "

"لقد أعطيت وعداً بذلك . لا أستطيع الذهاب إلى الدير يا سيرا آيليف حتى أفعل ما تعهدت بفعله ."

وقف الكاهن صامتاً برهة . ثم قال بصوت خفيض :

"ربما أنت على حق . اذهبي إذن يا أختي باسم الرب ."

ومثل ظل ذابت كريستين في العتمة التي ابتلعت شكلها الرمادي .

حين اقترب منها أولف هالدورسون قالت بقوة وهي تتكلم مدة يسيرة كل

مرة : "عد أدراجك . . . لم أطلب منك القدوم معي . . . "

ضحك أولف بصوت خفيض .

"كريستين يا سيدتي . . . لم تتعلمي الدرس بعد كما أرى ، أن بعض الأمور يمكن فعلها دون أن تطلبي أو تأمري . . كما لم تتعلمي – رغم أنك رأيت ذلك مرات عديدة – أنك لا تستطيعين دائماً أن تنفذي ما تريدينه لوحدك . ولكني سأساعدك على حمل عبئك هذا ."

تنهدت غابات الصنوبر من فوقهما ، وراح دوي الأمواج فوق الشاطئ يأتي أقوى أو أضعف مع اشتداد الريح أو خفوتها . سارا في ظلام دامس . وبعد برهة قال أولف :

" . . . لقد تحملت صحبتك من قبل يا كريستين حين كنت تخرجين ليلاً . . . وأعتقد أنه أمر ملائم أن أصطحبك الآن أيضاً . . . " .

تنفست بصعوبة وثقل في الظلام . في إحدى المرات تعثرت فوق شيء ما ، فأمسك بها أولف . بعد ذلك أمسك بيدها وقادها . خلال فترة سمعها الرجل تبكي وهي تمشي ، فسألها عن السبب في بكائها .

"أبكي لأني أفكر كم كنت طيباً ومخلصاً لنا ، يا أولف ، في كل أيامنا . ما الذي أستطيع قوله . . . ؟ أعرف جيداً أن ذلك كان من أجل إرلند ، ولكني أعتقد تقريباً يا قريبي . . . أنك في كل أيامنا قد حكمت عليّ بلطف أكثر مما يحق لك ذلك ، بعد ما رأيته أولاً من أفعالي ."

"لقد أحببتك يا كريستين . . . لا أقلّ مما أحبك هو ." ثم صمت . أحست كريستين وكأنه قد انفعل بقوة . ثم قال :

" لذلك يبدو لي أنها كانت مهمة صعبة عليّ حين أبحرت إلى هنا اليوم . . . لقد جئت لأحمل لك نبأ أعتقد أنه صعب عليّ التلفظ به . فليشد الله في أزرك يا كريستين !"

"هل هو سكوله ؟ " سألت كريستين بصوت خفيض بعد برهة . "هل مات سكوله ؟"

"كلا . سكوله كان في صحة جيدة حين كلمته البارحة . . . والآن لم يعد الكثيرون يموتون في البلدة . ولكن وصلتني أنباء من تاوترا هذا الصباح . . . " سمعها تتنهد بقوة مرة واحدة ، ولكنها لم تقل شيئاً . بعد برهة قال :

"لقد مرت عشرة أيام منذ أن توفيا . لم يتبق سوى أربعة رهبان في الدير ، والجزيرة قد خلت من الناس ."

كانا قد وصلا الآن إلى حيث تنتهي الغابة . فوق الامتداد المنبسط للأرض قابلهما هدير البحر والريح . في إحدى البقع في العتمة التمع الشاطئ بلون أبيض . . . كانت موجة في خليج صغير قرب تل رملي منحدر ذي لون فاتح .

"إنها تقطن هناك" ، قالت كريستين . أحس بالرعدات الطويلة الاختلاجية في جسدها . أمسك بيدها بقوة :

"لقد أخذت هذا على عاتقك . تذكري ذلك ولا تفقدي عقلك الآن ."

قالت كريستين بصوت رقيق واضح عصفت به الريح :

"الآن يتحقق حلم بيورغولف . . . أثق بالرب وفي رحمة السيدة مريم" .

حاول أولف أن يرى وجهها . . . ولكن كان الظلام قد حل . كانا يمشيان على الشاطئ . . . في بعض الأماكن كان الدرب ضيقاً تحت الصخور الشاطئية . . . حتى أن الموج كان يصل أحياناً إلى أقدامهما . سارا نحو الأمام فوق أكوام من أعشاب البحر والصخور . وبعد فترة شاهدا كتلة معتمة أمام الشاطئ الرملي .

قال أولف : "إبقي هنا ." تقدم وضرب الباب . . . ثم سمعته يقطع رزمات القصب ويدفع الباب مجدداً . ثم أحست أن الباب قد هوى إلى الداخل ، ودخل هو عبر الفتحة السوداء .

لم تكن تلك الليلة عاصفة . ولكن كان الظلام مخيماً إلى حد لم تستطع معه كريستين أن ترى سوى الومضات الصغيرة من الزبد التي راحت تظهر وتختفي في اللحظة نفسها فوق البحر الهائج ، والتماعة الأمواج التي كانت تتكسر فوق شواطئ الخليج . . . وعلى الكثيب الرملي الذي استطاعت تمييزه خارج تلك الكتلة السوداء . وقد بدا لها أنها كانت تقف في كهف ليلي وأن ذلك كان باحة . كانت حركة الأمواج المتكسرة وهسيس مياهها التي تضرب صخور الشاطئ تتزامن مع أمواج الدم التي كانت تمور في داخلها ، رغم أن جسدها كان طوال الوقت يرتجف كأنه يريد أن يتحول إلى قطع ، كسفينة من الخشب تنشطر إلى ألواح . . . راح صدرها يؤلمها وكأن شيئاً ما سينفجر فيه من الداخل لينفصل عنه . أحست برأسها فارغة ومجوفة كأنها ستتصدع والريح التي لا تتوقف وكأنها تلتف بها وتمر عبرها . شعرت باضطراب غريب ، لابد أنها قد التقطت عدوى المرض دون شك . . . ولكن بدا وكأنها العتمة يجب أن يشقها نور عظيم سيغرق هدير البحر برعده ، وأنها ضمن هذا الرعب ستموت . رفعت قلنسوتها والتي أبعدتها الريح عن رأسها ، ولفت عباءة الراهبات السوداء من حولها ، ووقفت ويداها متصالبتان من تحتها . . . ولكن لم يخطر لها أن تصلّي . كأنما كانت روحها تحمل ما يكفي ويزيد من العمل لتشق طريقها إلى الأمام من منزلها الآيل للسقوط ، وكأنها كانت تمزق صدرها مع كل نفس .

شاهدت وميضاً في الكوخ . بعد قليل نادى عليها أولف هالدورسون : "عليك القدوم إلى هنا وحمل النور لي ، يا كريستين" . . . كان واقفاً في الباب . . . وحين دخلت سلمها مشعلاً من خشب مطليّ بالقار .

واجهتها رائحة نتانة خانقة من الجثة رغم أن الكوخ كان مفتوحاً أمام الريح والباب مكسوراً . وبعينين محدقتين وفم نصف فاغر - وشعرت كأنما تيبسَت شفتاها وفكاها في هذه الأثناء - نظرت فيما حولها بحثاً عن المرأة الميتة . ولكن

لم يكن هناك شيء تراه سوى كومة طويلة مستلقية في الزاوية فوق الأرض الترابية ، وقد لفت بعباءة أولف .

كان قد انتزع ألواحاً طويلة من مكان ما ووضع الباب فوقها . وبينما راح يشتم الأدوات غير المتوفرة ، فقد حفر حزوزاً وثقوباً بفأسه الخفيف وسكينه ، وحاول أن يثبت الباب بالألواح . رفع نظره إليها مرة أو مرتين بسرعة ، وفي كل مرة كان الوجه ذو اللحية الرمادية يصبح أقسى .

"أتساءل كيف كنت ستقومين بهذا العمل لوحدك" ، قال وهو يعمل- ثم رفع بصره إليها - ولكن الوجه المتيبس الأشبه بوجوه الأموات تحت النور الأحمر للغصن المشتعل كان ساكناً وثابتاً . . . كان وجه امرأة ميتة أو ذاهلة . "هل تستطيعين أن تقولي لي يا كريستين ؟" ضحك بقسوة . . . ولكن عبثاً . "أعتقد الآن أن الوقت قد حان لتلاوة الصلاة" .

بدأت تتلو بتيبس ودون حياة (باللاتينية) :

"أبانا الذي في السموات ، ليتقدس اسمك . ليكن ملكوتك . لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك في الأرض . . . " ثم توقفت .

نظر أولف إليها . ثم تابع الصلاة :

"أعطنا خبزنا كفاف يومنا . . . " وبسرعة وثبات أكمل التلاوة حتى النهاية ، ثم مضى ورسم إشارة الصليب فوق الكومة . . . ثم حملها بسرعة ووضعها فوق النعش الذي صنعه .

قال : "اذهبي إلى الأمام . ربما يكون الوزن أثقل ، ولكن سوف تكون الرائحة أقل هناك . رمى بالمشعل . . . سنستطيع أن نرى أفضل بدونه . . . وحاولي ألاّ تتعثري . يا كريستين . . . فأنا كنت أتمنى ألا أحمل هذه الجثة المسكينة ."

كان الألم الصارخ في صدرها يبدو وكأنه يتصاعد متمرداً حين حملت عمودي النعش على كتفيها . لم يتحمل صدرها الوزن . ولكنها ضغطت على

أسنانها بقوة . وبينما هما يمشيان على امتداد الشاطئ ، حيث كانت الريح تهب بقوة ، فإن القليل من رائحة الجثة كانت تصلها .

"هنا عليّ أن أرفعه عالياً أولاً ، كما أعتقد ، ثم النعش" ، قال أولف حين وصلا إلى المنحدر الذي سبق لها أن نزلاه .

قالت كريستين : "نستطيع الاستمرار لمسافة أخرى . فهنا يأتون بعربات أعشاب البحر . . . ليس المكان شديد الانحدار هناك ."

كانت تتكلم بهدوء ، كما سمع الرجل ، وكانت في كامل عقلها . ثم انتابته نوبة من التعرّق والارتجاف ، ولكنها ولّت الآن . . . لقد ظن أنها ستفقد عقلها في تلك الليلة لا شك .

شقا طريقهما بصعوبة على امتداد الدرب الرملي الذي يؤدي عبر الأرض المسطحة نحو غابة الصنوبر . هبت ريح بحرية هنا ، ولكنها أقل قوة هنا مما كانت عليه عند الشاطئ ، وحين ابتعدا أكثر فأكثر عن هدير الشاطئ ، أحست وكأنها عائدة إلى البيت من رعب الظلام الدامس . إلى القرب من الدرب كانت الأرض أخف . . . كان ذلك حقل قمح لم يحصده أحد . كانت رائحته ومنظر القش المطروق تحية ترحيب لها بعودتها إلى البيت- وامتلأت عيناها بدموع الإشفاق الأخوي - عبر رعبها اليائس وحزنها كانت تعود إلى زمالة الأحياء والأموات .

أحياناً حين كانت الريح من خلفهما كانت رائحة الجثة الفاسدة تلفها بالكامل ، ومع ذلك لم تكن الرائحة رهيبة جداً كما كانت وهي واقفة في الكوخ . . . فالليل كان مترعاً بنسيم بارد رطب نضر نظيف .

وما كان أقوى بكثير من الشعور بأنها كانت تحمل شيئاً مرعباً على النعش من خلفها ، هو فكرة أن أولف هالدورسون كان هناك يحمي ظهرها من الرعب الأسود والحيّ الذي كانا يتركانه خلفهما . . . والذي كانت زمجرته أضعف فأضعف .

حين وصلا إلى طرف غابات الصنوبر شعرا بوجود أنوار : "إنهم قادمون لمقابلتنا" ، قال أولف .

وسرعان ما قابلهما حشد كامل من الرجال حاملين مشاعر من جذور الصنوبر ، وقنديلين ونعشاً مغطى . . . كان سيرا آيليف معهم ، ورأت كريستين مستغربة أنه ضمن الحشد كان الكثير من الرجال ممن كانوا في تلك الليلة في باحة الكنيسة ، وأن كثيرين منهم كانوا يبكون . حين رفعوا الحمل عن كتفيها كادت تسقط أرضاً . كان سيرا آيليف سيمسك بها ولكنها قالت بسرعة :

"لا تلمسني . . . لا تقترب مني . . . لقد أصبت بعدوى الطاعون . . . أشعر به . . . "

ولكن رغم ذلك فإن سيرا آيليف سندها بيده من تحت ذراعها :

"إذن افرحي يا امرأة وتذكري أن الرب قال : (إن فعلتم هذا للأدنى قيمة من هؤلاء يا أخوتي وأخواتي ، فقد فعلتم ذلك من أجلي)" .

حدقت كريستين إلى الكاهن . ثم نظرت إلى حيث كان الرجال ينقلون الجثمان من النقالة التي صنعها أولف إلى النعش الذي جلبوه . انزلقت عباءة أولف إلى الجانب قليلاً . . . فبرز رأس حذاء مهترئ رطب وداكن في نور المشاعل .

ذهبت كريستين وركعت بين عمودي النعش وقبلت الحذاء :

"فليرحمك الله يا أختاه . . . فليمنح الرب روحك الفرحة بنوره . . . فليشملنا الله برحمته في عتمتنا هذه . . ."

ثم بدا لها وكأن الحياة نفسها كانت تشق طريقها خارجة منها . . . ألم طاحن غير ممكن إدراكه ، وكأن شيئاً في داخلها ، كان متجذراً بشدة في ألياف أعضائها ، قد أفلت . كل ما كان ضمن صدرها قد انتزع بالقوة . . . أحست بحلقها مليئاً به ، وفمها مليئاً بالدم الذي له طعم الملح والنحاس القذر . . . وفي

اللحظة التالية كان ثوبها كله من الأمام يلتمع بسواد رطب . . . يا يسوع ! هل هناك كل هذا القدر من الدم في جسد امرأة عجوز ؟ هكذا فكرت .

رفعها أولف هالدرسون بين ذراعيه وحملها بعيداً .

●

عند باب الدير كانت الراهبات يحملن شموعاً موقدة ، قد وصلن ليقابلن طابور الرجال . لم تكن كريستين ممتلكة لكل حواسها ، ولكنها أحست أنها نصف محمولة ونصف مسندة عبر الباب ، وأدركت وجود الغرفة المطلية باللون الأبيض والمقنطرة ، المليئة بالنور المتراقص للهيب الشمعة الأصفر ومشاعل الصنوبر الحمراء ووقع الأقدام الهادرة كالبحر . . . ولكن النور كان للمرأة المحتضرة مثل وميض شعلة حياتها المحتضرة ، وكان وقع الأقدام فوق الأرضية الحجرية مثل اندفاع أنهار الموت الصاعدة لتقابلها .

ثم انتشر نور الشمعة نحو فراغ أوسع . . . كانت مرة أخرى تحت السماء المفتوحة المعتمة - في الباحة - كان النور المتراقص يلعب على الجدار الرمادي ذي الدعامات الثقيلة والنوافذ العالية . . . للكنيسة . كانت محمولة بين ذراعي شخص ما - كان هذا أولف مجدداً - ولكن الآن بدا أنه يشبه كل أولئك الذين سبق لهم وحملوها . وحين وضعت ذراعيها من حول عنقه وضغطت بخدها على العنق الذي نمت فوقه لحية خشنة ، فكأنما عادت طفلة مجدداً مع أبيها ، ولكن أيضاً وكأنها كانت تضم طفلاً إلى صدرها . . . وخلف الرأس الداكنة كانت هناك أنوار حمراء وبدت مثل توهج النار التي تغذي كل الحب .

. . . بعد فترة قصيرة فتحت عينيها ، وكان ذهنها صافياً وهادئاً . كانت تجلس ، وقد أسندت ظهرها ، في سرير في المهجع . كانت هناك راهبة مع رباط كتاني فوق الجزء الأسفل من وجهها تقف منحنية فوقها . لاحظت رائحة الخل . كانت تلك هي الأخت أغنس ، وقد عرفتها من عينيها والثؤلول الأحمر الصغير

فوق جبينها . والآن كان الوقت نهاراً . . . فهناك نور صاف ورمادي يدخل الغرفة من النافذة الزجاجية الصغيرة .

لم يكن هناك ألم كبير الآن . . . ولكنها كانت مبللة من العرق ، متعبة ومنهكة إلى حد مثير للشفقة ، وكان صدرها يلسعها ويؤلمها كلما تنفست . وبشره شربت شراباً مسكناً رفعته الأخت أغنس إلى فمها . ولكنها كانت تشعر بالبرد .

استلقت كريستين على الوسائد ، وتذكرت الآن كل ما حدث في الليلة السابقة . كانت خيالات الأحلام الجامحة لليلة الماضية قد ولّت كلها . . . ولابدّ أن عقلها قد جمح قليلاً ، كما فهمت . . . ولكن كان أمراً جيداً أنها أنجزت ذلك الأمر وأنقذت الطفل الصغير ومنعت أولئك الناس الفقراء من تحميل أرواحهم عبء ذلك الفعل الشنيع . كانت تعرف أنها في حاجة إلى أن تشعر بسعادة مفرطة . . . أنها قد منحت نعمة أن تفعل هذا الأمر قبل وفاتها مباشرة . . . ومع ذلك لم تستطع الشعور بالفرح . . . كان ذلك رضىً هادئاً راحت تحس به ، كما كان عليه الأمر حين كانت تستلقي في فراشها في بيتها في يورونداغارد ، متعبة بعد يوم عمل تم إنجازه على نحو مرضٍ . ولابد أن تشكر أولف أيضاً .

. . . كانت قد تلفظت باسمه ، ولابد أنه كان جالساً يختبئ عند الباب ، وقد سمعها ، فقد اقترب ووقف عند سريرها . مدت يدها إليه فأخذها وضغطها بقوة .

وفجأة أصبحت المرأة المحتضرة قلقة . راحت يداها تتلمسان أغطية الكتان عند عنقها .

سألها أولف : "ما الأمر يا كريستين ؟"

"الصليب" ، همست ثم سحبت بألم صليب أبيها المذهّب . لقد تذكرت أنها وعدت البارحة بتقديم هدية لأجل راحة روح ستاينون المسكينة . لم تتذكر آنذاك أنها لم تعد تملك شيئاً على وجه الأرض . لم يكن في حوزتها ما تستطيع

منحه ، باستثناء الصليب الذي ورثته عن أبيها . . . ثم خاتم زفافها . كان هذا لا يزال في إصبعها .

سحبته وحدقت إليه . كان ثقيلاً في يدها ، وهو من الذهب الصافي المطعم بأحجار حمراء كبيرة . إرلند- فكرت - وخطر لها الآن أنه يفضل أن تهدي هذا . . . لم تكن تعرف لأي شيء ، ولكنها بدا أن عليها أن تفعل ذلك . أغمضت عينيها في ألم ورفعت الخاتم إلى أولف :

"إلى من ستعطين هذا ؟" سألها بصوت خفيض ، وحين لم تجب قال : "أتعنين أن عليّ أن أعطيه إلى سكوله ؟"

هزت كريستين رأسها ، وعيناها مغمضتان بشدة .

"ستانيون . . . لقد وعدت . . . قداديس من أجلها . . . "

فتحت عينيها وبحثت بهما عن الخاتم وهو في كف الحداد داكنة البشرة . ثم انفجرت دموعها في جدول سريع ، فقد بدا لها أنها لم تفهم من قبل تماماً ما الذي كان يرمز إليه : الحياة التي زفها هذا الخاتم إليها والتي كانت تتذمر منها ، وتشكو منها مهمهمة ، وتغضب منها وتتحداها . . . ومع ذلك فقد أحبتها كثيراً ، واستمتعت بها ، في أيام السراء والضراء ، وأنه لم يمر يوم واحد لم يكن صعباً عليها إعادته إلى الرب ولا حزن واحد تستطيع أن تتخلى عنه دون ندم .

تبادل أولف والراهبة بضع كلمات لم تستطع سماعها ، ثم خرج هو من الغرفة . كانت كريستين تود لو ترفع يدها لتجفف عينيها ، ولكنها لم تستطع . . . كان يدها تقبع دون حراك على صدرها . والآن كان الألم في داخلها قوياً . أحست بيدها ثقيلة جداً ، وبدا وكأن الخاتم كان لا يزال في إصبعها . بدأ رأسها يتشوش مجدداً . . . عليها أن ترى إن كان صحيحاً أن الخاتم قد ذهب ، وأنها لم تحلم فحسب بأنها تخلت عنه . . . والآن بدأت أيضاً تصبح غير واثقة . . . كل ما حدث في الليلة الماضية : الطفل في القبر ، البحر الأسود بأمواجه الصغيرة

السريعة المومضة ، الجثمان الذي حملته . . . لم تعرف إن كانت قد حلمت بذلك كله أو كانت مستيقظة . ولم تكن لديها القدرة على فتح عينيها .

قالت الراهبة : "يا أختي ، عليك أن تنامي الآن . . . لقد ذهب أولف لإحضار كاهن لك" .

استيقظت كريستين مجدداً وهي مجفلة ، وثبتت عينيها على يدها . كان الخاتم الذهبي غير موجود ، هذا أمر أكيد . . . ولكن كانت هناك علامة بيضاء حيث كان على إصبعها الوسطى . كان ذلك واضحاً على البشرة السمراء الخشنة . . . مثل ندبة من الجلد الأبيض الرقيق . . . ظنت أنها تستطيع أن تميز بقعتين مستديرتين على كل جانب حيث كان حجر العقيق ، ومثل علامة صغيرة- حرف "م" - حيث كانت الرقاقة الوسطى من الذهب قد حفر عليها أول حرف من اسم "مريم العذراء" المقدس .

وكان آخر فكرة واضحة تشكلت في دماغها هي أنها ستموت قبل أن تتلاشى هذه العلامة . . . وكانت سعيدة . بدا لها أنه أمر غامض لأنها لا تستطيع أن تفهم ، ولكنها كانت تعرف بالتأكيد أن الرب قد وضعها في دير مخصص لها دون معرفتها بحب جعله يتدفق عليها بكرم . . . ورغم عنادها ورغم روحها الثقيلة المهتمة بحطام الدنيا ، فإن جزءاً ما من هذا الحب قد أصبح جزءاً منها ، وقد تغلغل فيها كما تتغلغل نور الشمس في التربة ، وقد ولّد هذا زيادة لا يستطيع أشد اللهيب استعاراً من الحب الجسدي ولا حتى أكثر انفجاراته جموحاً أن يبدّده بالكامل . خادمة للرب كانت . . . خادمة شكسة ومعاندة وغالباً ما كانت "خادمة عين" في صلواتها وغير مخلصة في قلبها ، كسولة ومهملة ، نافدة الصبر عند التقويم ، إنما ثابتة قليلاً في أفعالها . . . ومع ذلك فقد أبقاها في خدمته ، وتحت الخاتم الذهبي اللامع فإن علامة قد تشكلت سراً فوقها ، كاشفة أنها كانت

خادمة للرب ، وأمة للرب والملك القادم الآن ، تحمله يدا الكاهن الممسوحتان بالزيت ليمنحها حريتها وخلاصها . . .

●

ما أن قدم لها سيرا آيليف الزيت الأخير وقربان الموتى ، فقدت كريستين لافرانسداتر مجدداً الإحساس بما حولها . كانت مستلقية في نوسان من النوبات المؤلمة من تقيؤ الدم والحمى المحرقة ، وقد قال الكاهن الذي بقي قربها ، للراهبات إنه من المحتمل أن تموت بسرعة .

. . . مرة أو مرتين عاد الوعي إلى المرأة المحتضرة إلى حد أنها ميزت هذا الوجه أو ذاك . . . وجه سيرا آيليف والراهبة . . . كانت الليدي راغنهيلد نفسها هناك في إحدى المرات ، كما رأت أولف . ناضلت لتظهر لهم أنها عرفتهم وأنها تشعر أنه أمر جيد أنهم إلى القرب منها ويتمنون لها الخير . ولكن بدت لمن كان حولها وكأنها تقاتل بيدها سكرات الموت .

رأت في إحدى المرات وجه مونان . . . كان ابنها الصغير يسترق النظر إليها عبر باب نصف مفتوح ، ثم سحب رأسه إلى الخلف وراحت الأم تحدق إلى الباب فقد يحدث أن الصبي قد يسترق النظر مرة أخرى . ولكن بدلاً عن ذلك جاءت الليدي راغنهيلد ومنحت وجهها بقماشة مبللة . وكان هذا أيضاً حسناً . . . ثم فقدت كل شيء في سديم أحمر داكن وهدير بدا أولاً مخيفاً . ولكنه عاد وتلاشى تدريجياً وراح السديم الأحمر يصبح أرق وأخف ، وأخيراً كأنما كان سديم صباح مشرق قبل أن تبزغ الشمس ، وتوقفت كل الأصوات ، وعرفت أنها كانت على وشك الموت . . .

●

خرج سيرا آيليف وأولف هالدورسون معاً من غرفة الموت . عند الباب المؤدي إلى باحة الدير توقفا قليلاً .

كان الثلج قد هطل . لم يلاحظ أحد ذلك بين أولئك الذين كانوا جالسين وهي تعارك الموت . كان الوميض الأبيض من سقف الكنيسة المنحدر المنعكس على الرجلين مبهراً إلى حد غريب . كان البرج يلتمع أبيض أمام السماء الرمادية . وكان الثلج ناعماً جداً وأبيض فوق كل زيق نافذة وكل دعامة والنقاط البارزة ، وعلى جدران الكنيسة المبنية من أحجار رمادية . لكأنما كان الرجلان يتمهلان لأنهما يكرهان أن يشوها بآثار أقدامهما الطبقة الرقيقة من الثلج المتساقط حديثاً .

عبّا من الهواء . فبعد الرائحة المغثية التي تملأ دائماً غرفة المرضى بالطاعون ، بدا الهواء عذباً لهما . . . بارداً وكأنه رقيق وفارغ . ولكن بدا وكأن سقوط هذا الثلج قد غسل الهواء من كل سموم الوباء . . . كان جيداً مثل ماء نبع عذب .

بدأ الجرس في البرج يدق مجدداً . . . نظر الاثنان إلى حيث كان يتأرجح خلف قضبان البرج . راحت حبيبات من الثلج تسقط عن البرج والجرس يهتز ، ثم تنزل أرضاً وتتحول إلى كرات صغيرة . . . تاركة بقعاً يظهر منها سواد وألواح السقف .

قال أولف : "هذا الثلج لن يدوم" .

"لا ، سيذوب على الأرجح قبل المساء" ، قال الكاهن . كانت هناك شقوق ذهبية شاحبة في الغيوم ، وأشرقت الشمس باهتة وكأنما تقوم بتجارب فوق الثلج .

وقف الرجلان ساكنين ثم قال أولف هالدورسون بصوت خفيض :

"أفكر يا سيرا آيليف في أن أمنح قطعة من الأرض إلى الكنيسة هنا . . . وكذلك دورقاً يخص لافرانس بيورغولفسون أهدتني هي إياه . . . ولذلك لتأسيس قداس لأجلها ولأجل أبنائي بالتربية ولأجل إرلند قريبي . "

أجاب الكاهن بصوت خفيض دون أن ينظر إلى الرجل :

"يبدو لي أيضاً أنك فكرت في أنك تحتاج إلى التعبير عن شكرك للرب الذي قادك إلى هنا البارحة مساء . . . وقد تكون راضياً جداً على ما أعتقد لأنك

مُنحت فرصة مساعدتها خلال هذه الليلة ."

"أجل ، هذا ما فكرت فيه" ، قال أولف هالدورسون ثم ضحك قليلاً : "والآن أستطيع أن أتوب تقريباً أيها الكاهن على أني كنت إنساناً شديد الضعة . . . تجاهها !"

"لا جدوى من إضاعة الوقت على مثل هذا الأسى" ، أجاب الكاهن .

"ولماذا ؟"

"لأنه لا خير سوى الرب وحده . ولا نستطيع أن نفعل الخير إلاّ به . لذلك لا جدوى من الندم على فعل صالح يا أولف ، فالخير الذي فعلته لا يمكن أن يُلغى . ورغم أن كل الجبال كان يجب أن تدمّر ، إلا أنها قد بقيت . . . "

"أجل ، أجل ، هذه أشياء لا أفهمها يا سيدي . أنا منهكَ . . . "

"أجل . . . وجائع أيضاً بالتأكيد . . . عليك أن تأتي معي إلى المطبخ الآن يا أولف" ، قال الكاهن .

"شكراً ، ليست لي شهية للأكل الآن" ، قال أولف هالدورسون .

"رغم ذلك عليك أن تأتي معي وتأكل" قال سيرا أيليف . . . وضع يده على كمّ أولف وقاده معه . خرجا إلى الباحة ثم نزلا نحو المطبخ . وبدون أن يعرفا راح كلا الرجلين يخطوان بخفة وحذر قدر الإمكان فوق الثلج الجديد المتساقط .

(نهاية الجزء الثالث و ختام الرواية الثلاثية)

حواشي المترجم من النرويجية إلى الإنكليزية

(١) بعد أن ارتكب سايمون جريمة يعاقب عليها بوصفه خارجاً عن القانون ، عليه أن يحصل على صك براءة يسمح له أن يبقى في بيته دون عقاب حتى يتم الحكم في قضيته .أنظر الحاشية رقم (٤١) من "سيدة هوسابي"

(٢) الدائنون : تستخدم هذه الكلمة هنا بالمعنى الوارد في صلاة الرب . في النص كان ضرورياً أحياناً أن ترد بمعنى "أولئك الذين يخطئون في حق الآخرين" .

(٣) بذرة صانع الأمشاط : كان والد الملك سفير الشهير – زوج أمه – صانع أمشاط . وقد ادعى أنه ابن غير شرعي للملك سيغورد موند . ولكن معارضيه أنكروا ذلك بشدة .

(٤) عشبة الفريجيا : عشبة بارناسوس .يفترض فيها حسب الموروث الشعبي أن تكون منشطة جنسياً . وهكذا فقد سميت باسم إلهة الحب .

(٥) القسم مع شهود يقسمون على براءة المتهم : في بعض القضايا فإنه يحق للمتهم أن يبرئ نفسه من التهمة بأن يقسم اليمين على براءته مع خمسة أو أحد عشر شاهداً . ولا يحلف هؤلاء الشهود على وقائع القضية ، بل على معرفتهم بالمتهم وقناعتهم بأنه يقول الحقيقة . ووفق القانون النرويجي ، فإن مثل هؤلاء الشهود في قضية امرأة متهمة بجريمة سيكونون من النساء .

(٦) بنطال دوار :في الحكايات الشعبية أن الجنيات يتجهزن أحياناً ببنطال دوار يمكنهن من الاستلقاء أرضاً والدوران بسرعة وراء الطريدة أوهرباً من مطارديهن .

(٧) تار في بورغوندي : الآن تدعى "تار لاباي" في شاطئ الذهب ، قرب سيتو ، مهد الرهبنة القسترقية (نسبة إلى مدينة قسترقيوم) . كانت تار مهداً لكل الرهبانيات الاسكندنافية القسترقية .

(٨) هل : في الحكايات الشعبية النرويجية فإن الطاعون كان يشخص كامرأة عجوز قبيحة تحمل مذراة ومكنسة . وحيث تستخدم المذراة فإن جزءاً من السكان يبقى على قيد الحياة . وحين تستخدم المكنسة كانت لا تبقي أحداً . وكان طبيعياً في القرن الرابع عشر مقارنتها في المخيلة الشعبية بـ "هل" إلهة الموت في الميثولوجيا .

سيغريد أوندست

نوبل ١٩٢٨

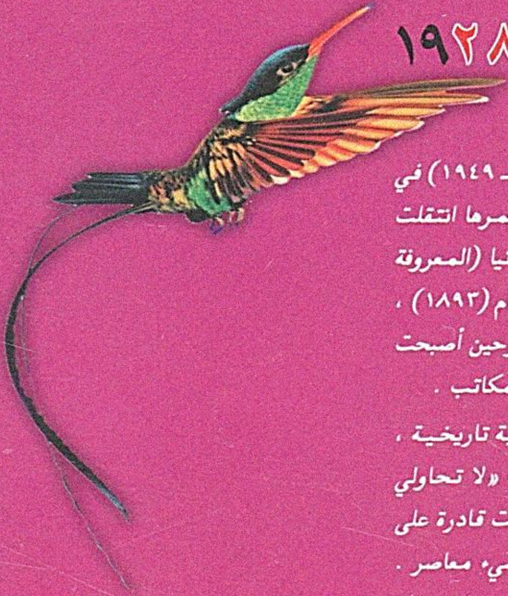

- ولدت سيغريد أوندست (١٨٨٢ ـ ١٩٤٩) في كالدوندبورغ . وحين بلغت السنتين من عمرها انتقلت أسرتها إلى النرويج واستقرت في كريستيانيا (المعروفة الآن باسم أوسلو) . وبعد وفاة والدها في عام (١٨٩٣) ، تخلت عن طموحها في أن تصبح رسامة ، وحين أصبحت في السادسة عشرة بدأت بالعمل في أحد المكاتب .
- أعاد الناشر لها أولى مخطوطاتها ، رواية تاريخية ، حوالي عام (١٩٠٥) مع العبارات التالية : «لا تحاولي أبداً كتابة رواية تاريخية مرة أخرى . لست قادرة على هذا النوع من الكتابة . قد تحاولين كتابة شيء معاصر . ولا يمكن لكِ أن تعرفي ما قد يحدث» . في عام (١٩٠٧) كان أول ظهور لها مع رواية «السيدة مارتا أولي» ، ولكن الفتح الحقيقي لها جاء مع رواية «جني»(١٩١١) .
- إنتاج سيغريد أوندست غني ومتنوع ، ويمتد من الروايات المعاصرة إلى الروايات القروسطية العظيمة والقصص القصيرة والمقالات وحكايات السفر .
- «كريستين لافرانسداتر» هي قمة عطائها وهذه الثلاثية هي التي كانت السبب في منحها جائزة نوبل للآداب في عام (١٩٢٨) .

علي مولا
ISBN => 2-84305-090-1
EAN => 9782843050909